علي والأسس التربوية

تأليف

العلامة المجاهد حجة الإسلام والمسلمين
السيد حسن القبانجي

تحقيق:

السيد هاشم الميلاني

نشر الهادي

علي والأسس التربوية

www.haydarya.com

علي والأُسس التربويّة

تأليف

العلّامة المجاهد حجة الاسلام والمسلمين

السيد حسن القبانجي

علي عليه السلام والأسس التربوية في شرح الوصية

المؤلف: السيد حسن القبانچي

الإخراج الفنّي: حيدر الخزرجي

المحقق: السيّد هاشم الميلانى

الناشر: نشر الهادي

الطبع: مطبعة الهادي

الطبعة الأولى: ۱۰۰۰ نسخه

۱۴۱۹ هـ ق ـ ۱۳۷۷ هـ ش

شابک (ردمک) ISBN ۹۶۴ـ۴۰۰ـ۰۳۱ـ۵

ایران، قم، شارع الشهداء، پلاک ۷۵۹، هاتف: ۷۳۷۰۰۱

بسم الله الرحمن الرحیم

الإهداء

إلىٰ صاحب الولاية الكبرىٰ علي أمير المؤمنين عليه السلام.

يا أيها العزيز مسّنا وأهلنا الضرّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل، وتصدّق علينا إنّ الله يجزي المتصدّقين.

تقديم
الكتاب والكاتب ومدرسته الفكريّة

مدرسة أهل البيت عليهم السلام:

لم تزل مدرسة أهل البيت عليهم السلام تقف في مواجهة ألوان الانحراف الفكري والسياسي التي فرّقت الأُمّة الإسلاميّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلىٰ مذاهب وفرق، فقد وظّف الأئمة الأطهار من أهل البيت عليهم السلام أنفسهم وشيعتهم لمواجهة هذه الانحرافات، والحفاظ علىٰ وحدة الأُمّة الإسلاميّة، وصيانتها فكرياً وسياسياً.

ولم تزل هذه المدرسة تحفل بعظماء الرجال الذين كرّسوا كلّ عمرهم من أجل هذه المهمة، محقّقين علىٰ أرض الواقع نبوءة الإمام الصادق عليه السلام حين قال:

«فانظروا علمكم هذا عمّن تأخذونه، فإنّ فينا أهل البيت في كلّ خَلَف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» [1].

المواجهة الفكرية والسياسية:

ولم تفترق المواجهة الفكرية عن المواجهة السياسيّة يوماً واحداً في تاريخ هذه

---

(١) الكافي، كتاب فضل العلم، باب فضل العلماء ١: ح٢.

المدرسة ومنهجها، بل كانت التعبئة الفكرية والسياسية تمشي في طريق واحد علىٰ طول خط المواجهة للانحراف.

وكانت هذه الظاهرة أحد المعالم الأساسية لمدرسة أهل البيت عليهم السلام التي افترقت بها عن باقي المدارس حيث وجدنا مدارس أُخرىٰ اختصّت بالجانب الفكري بعيداً عن الجانب السياسي كما هو الحال في مدرسة (المعتزلة) ووجدنا مدارس أُخرىٰ نَحت منحىً سياسياً بينما ضَمر فيها الجانب الفكري كما هو الحال في مدرسة «الخوارج».

وربما تعود هذه الظاهرة ـ أعني الجمع بين خطَّي المواجهة الفكرية والسياسية ـ إلىٰ ما تعتقد به مدرسة أهل البيت عليهم السلام من أنّ الانحراف السياسي في الأُمة الإسلاميّة كان قد سبق الانحراف الفكري، وظلّ دائماً يوجهه ويدعمه ويغذيه، ومن هنا لم يكن بالامكان خوض مواجهة فكرية بعيداً عن المواجهة السياسيّة ....

وهذه هي الحقيقة دائماً ... حيث تقف الأصابع السياسيّة وراء مختلف صور الاتجاهات الفكريّة المنحرفة، وبخاصة في العالم الإسلامي.

مدرسة التشيّع في العراق:

وكان العراق منذ انتقال حكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إليه يمثّل أرض التشيّع، وقاعدة الولاء لأهل البيت عليهم السلام، رغم أنّه ظلّ محكوماً لاتجاهات مذهبيّة وسياسيّة معادية لأهل البيت عليهم السلام في معظم الفترة التأريخية التي أعقبت شهادة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ـ سنة أربعين للهجرة ـ وتولّي معاوية بن أبي سفيان لمهامّ الخلافة الإسلامية!!

وظلّت (مدرسة الكوفة) التي ارتبطت فكرياً بأهل البيت عليهم السلام، وحملت علومهم، تخرّج العلماء المدافعين عن الدين والمذهب منذ دخلها الإمام الصادق عليه السلام

علىٰ عهد المنصور العباسي [١]، حتّى قال الحسن بن علي الوشاء:

«أدركت في هذا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ تسعمائة شيخ كلّ يقول حدّثني جعفر بن محمّد ـ الصادق ـ» [٢].

فقد استمرّت هذه المدرسة ـ التي انتقلت فيما بعد إلى النجف الأشرف علىٰ عهد الشيخ الطوسي ـ م ٤٦٠هـ ـ تحمل لواء الفكر الإسلامي الأصيل متمثّلاً بمذهب أهل البيت عليهم السلام، حتىٰ سقط العراق في قبضة المستعمرين، وخضع للانتداب البريطاني الذي لم يخرج من العراق الّا بعد أن زرع فيه عناصر متغرّبة في فكرها العقيدي وولائها السياسي.

العراق في القرن الرابع عشر الهجري:

وخلال النصف الأخير من القرن الرابع عشر الهجري كان العراق قد شهد ألواناً من التكتّلات السياسيّة، والاتجاهات الفكريّة القائمة علىٰ أسس فلسفيّة معادية للدين، والخاضعة سياسياً لارادة المستعمرين.

وكان «حزب البعث العربي الاشتراكي» الذي حكم العراق منذ عام ٦٧ للميلاد يمثل عصارة تلك الارادات السياسيّة الأجنبيّة، وخلاصة الأفكار العلمانيّة اللّادينيّة.

وكانت «الطائفية المقيتة» المتمثّلة بالعداء لشيعة أهل البيت ومدرستهم تمشي سوياً مع كلّ التحوّلات السياسيّة التي شهدها العراق، لما كانت تمثله هذه المدرسة من أصالة واقتدار في الدفاع عن الدين فكراً ووجوداً.

---

(١) كان المنصور العباسي قد نزل بالحيرة قبل أن تبنىٰ بغداد، وفيها دعا الإمام الصادق عليه السلام من المدينة المنوّرة، فمكث فيها مدة ثمّ عاد إلى المدينة.
والحيرة تبعد اليوم عن الكوفة بما يقرب من عشرين كيلومتراً.

(٢) عن المجالس للسيد الأميني ٥: ٢٠٩.

مؤلف هذا الكتاب:

في هذه الفترة بالذات كانت قد تبلورت النشاطات الفكريّة والسياسيّة لصاحب هذا الكتاب العلّامة الفذ، والمجاهد العنيد، والدنا الفقيد السيد حسن القبانچي، والذي امتاز بممارسة الكفاحين الفكري والسياسي معاً، وكان ذلك من أبرز المعالم في شخصيّته.

لقد ناضل العلّامة القبانچي ضدّ «مدرسة التغريب» بكلّ أفكارها العلمانية، والقوميّة، والإلحاديّة، والأخلاقيّة، كما ناضل ضدّ «الطائفية» التي نصبت العداء لأهل البيت ﷺ ومدرستهم.

لقد كانت خطاباته الجماهيريّة التي شملت أكثر من مدينة في العراق تسجّل نضاله السياسي إلىٰ جانب نضاله الفكري معاً، وإلىٰ أن أصدرت حكومة البعث قراراً بمنعه من ارتقاء منبر الخطابة عام ٧٥م.

انّ هذا البُعد النضالي في المجالين الفكري والسياسي هو الذي عرّض العلّامة القبانچي إلى الاعتقال من قبل أجهزة السلطة أيام العهد الملكي في حكومة نوري السعيد وحكومة ياسين الهاشمي، ثمّ أيام العهد الجمهوري في حكومة عبد الرحمن عارف، ثمّ أيام حكومة البعث الأسود عام ٨٥ ثمّ عام ٩١ للميلاد [١] وبعد انتفاضة الشعب العراقي في النصف من شعبان لعام ١٤١١ للهجرة الموافق لعام ١٩٩١ للميلاد، حيث كانت حكومة البعث تقرأ في شخصيّة المؤلف القوّة الكامنة التي قد تتفجّر ضدّها لدىٰ أية فرصة متاحة.

ولم تزل أخباره بعد هذا الاعتقال الأخير مجهولة لحين كتابة هذه السطور رغم أنّ بعض الأخبار تقول انّه قد تعرّض للقتل الجمعي علىٰ أيدي حكومة البعث مع مجموعة علماء النجف الأشرف الذين اعتقلوا بعد انتفاضة شعبان ١٤١١ هـ.

كما كان هذا البُعد الجهادي في شخصيّة المؤلف وأبنائه هو الذي جعله يستقبل

(١) اُنظر تفصيل ذلك في كتابنا «خطيب العلماء» الذين ترجمنا فيه بشكل أوسع حياة العلامة القبانچي.

برباطة جأش، وقوّة عزيمة شهادة عدد من أولاده وهم:

١ ـ العلامة السيد عزّالدين القبانچي، الذي استشهد علىٰ أيدي جلاوزة البعث عام ١٩٧٤م.

٢ ـ الشاب المجاهد السيد علي القبانچي، الذي استشهد علىٰ أيدي جلاوزة البعث عام ١٩٨١م.

٣ ـ فضيلة السيد صادق القبانچي، الذي استشهد علىٰ أيدي أعداء الثورة الإسلامية في ايران عام ١٩٨٢م.

٤ ـ فضيلة السيد عبد الحسين القبانچي، الذي افتقد في سجون البعث منذ عام ١٩٨٢م.

هذا الكتاب:

عنوان الكتاب «علي والأُسس التربويّة» واضح في الاتّجاه التربوي الذي يمثّل أحد اهتمامات العلامة القبانچي، وبخاصة إذا عرفنا أنّ هذا الكتاب في معظم محاوره عبارة عن محاضرات كان يلقيها المؤلف على مسامع الجمهور.

ومحور هذا الكتاب هو وصية الإمام علي عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام، وهنا مرّة أُخرىٰ نجد ظاهرة طبعت مؤلفات وخطب وأحاديث العلامة القبانچي، وهي ظاهرة التركيز علىٰ أحاديث أهل البيت عليهم السلام ومنهجهم وبخاصة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث وجدنا هذه الظاهرة تمثّل أحد المعالم في اهتمامات المؤلف وكتاباته [1].

فقد مشىٰ بنفس هذا الاتجاه في كتابه «مسند الإمام علي عليه السلام» [2] وكتابه

(١) راجع لمزيد التوضيح كتابنا «خطيب العلماء» الفصل الأول، لمحة عن حياته العلمية.

(٢) يعتبر هذا الكتاب ـ الذي نأمل أن يصدر قريباً ـ أحد روائع المكتبة الشيعيّة وقد عبّر عنه سيّدنا السيد الشهيد الصدر رحمه الله في مقدمته له أنّه «من أهم مصادر المعرفة الإسلاميّة» كما عبّر عنه العلامة الشيخ باقر شريف القرشي ←

«شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام» وكتاب «صوت الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة».

إلّا أنّ الملاحظة التي نريد تسجيلها حول هذا الكتاب ترتبط بقضية الجهاد العلمي للمؤلف في مواجهة الانحراف الفكري الذي غزا العراق كما غزا العالم الإسلامي في مرحلة تأليف هذا الكتاب.

فنحن إذا تابعنا المؤلف في فصول هذا الكتاب نجده واضحاً وجادّاً في مواجهة حملة التغريب، وحالة الانبهار بالفكر الغربي، التي اكتسحت الشارع الإسلامي يومئذٍ.

لاحظه كيف ينطلق من كلام الإمام علي عليه السلام: «**إنّما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك**» ليعبئ الأُمّة ضدّ الهجوم الأخلاقي الغربي تحت شعار الحريّة فيقول:

«تقوم في هذه الأيام ضجّة حول التمسك بالحرية وترك ما عداها، ويا ليتها الحرية العفيفة الفاضلة، ولكنّها الحرية التي تطلقها أو تدّعيها مدنية الدول الكافرة والمشركة والملحدة.

هذه الحرية التي تقضي بأن يختفي الإسلام، ويضيع بين أهله، وتنهدر كرامة بنيه، وعزّة شبابه، وعرض نسائه.

الحرية التي تجعل الانسان ينطلق بغرائزه ومفضلاً نفسه على الغير، وباحثاً عن منفعته الخاصة دون التفات إلىٰ وجود غيره ...

الحرية التي تفرض الزعامات على الناس للعبث والافساد باسم الدين أو الوطنية ...

الحريّة التي تقوم الحروب لحمايتها، واستعمرت الأراضي الإسلاميّة باسمها، اليهود أحرار فيما يفعلون، والانكليز أحرار فيما يصنعون،

← بقوله «انّه موسوعة تُعد من أعظم وأنفع الموسوعات وستسدّ فراغاً في المكتبة الإسلامية وغيرها».
وهو كتاب يتألّف من عشرة مجلّدات، استغرق المؤلف في تأليفه أكثر من عشرين عاماً.

والشعوب حرّة في هوها ... الوجود كلّه حر.
إلّا الدين ... هو الذي ليس له الحق في الحرية.
يجب أن يحيا في سجن من الصوامع والأضرحة، ليس للدين أن يدخل على الحاكم ويحاسبه، وعلى التاجر، ولا الموظف، ولا القاضي، ولا الطوائف والهيئات، كلّهم أحرار، إنّها فوضىٰ.
ليست هذه هي الحريّة.
إذا أراد المسلمون استرداد سالف عظمتهم، فعليهم الأخذ بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ والعمل بكلّ ما أمر به الإسلام ...» (١).

ومرّة أُخرىٰ نجده يندفع لمناقشة الحضارة الغربيّة، وعقد مقارنة بينها وبين الإسلام في لائحة «حقوق الإنسان» التي حاولت الحضارة الغربيّة أن تخفي وراءها كلّ أنماط التخلّف الأخلاقي، والعبث الحيواني، والسقوط الحضاري، فنراه يعقد فصلاً كاملاً من هذا الكتاب لهذا الغرض بعد أن يقول:

«فليخفّف الغرب من اعجابه في «شرعة حقوق الإنسان» التي نشرتها هيئة الأُمم المتّحدة في القرن العشرين، وملأوا الدنيا عجيجاً فارغاً حول ما صنعوا، وما يصنعون، وأكثروا من الدعاية لأنفسهم علىٰ صورة ينفر منها الصدق والذوق جميعاً، وأزعجوا الإنسان بمظاهر غرورهم، وحمّلوه ألف مِنَّة، وألف حمل ثقيل» (٢).

محقّق هذا الكتاب:

وختاماً لابدّ أن أُسجّل كلمة شكر وتقدير لولدنا الفاضل السيد هاشم الميلاني محقّق هذا الكتاب، وإنّني إذ اشيد بدوره وجهده ومثابرته في تحقيق هذا الكتاب

(١) أُنظر «الفصل التاسع عشر» من هذا الكتاب.
(٢) أُنظر «الفصل الثاني» من هذا الكتاب.

وسائر كتبه السالفة أرجو له أن يمضي جاداً متّكلاً على الله تعالىٰ في إحياء تـراث أهل البيت عليهم السلام كما أسأل الله تعالى أن يوفّقه لذلك ويكون له عوناً وسنداً.

السيّد صدر الدين القبانچي

١ / ذوالقعدة / ١٤١٧ للهجرة النبويّة الشريفة

● **كلمة السيد القبانچي:**

لقد أحاطني سيّدي الحجّة برعاية أحسد عليها، وتفضّل مشكوراً بعد أن اطّلع على الكتاب بهذه الكلمة أجدني سعيداً بأن أتوّج بها كتابي هذا، وله الامتنان.

تقديم
العلامة آية الله العظمى السيّد محمد جواد الطباطبائي
بسم الله الرحمن الرحيم ولله الحمد

بما انّ الإنسان ثنائيّ التركيب من نفس وبدن، صيّره الله تعالى نسخة لما أوجده من عوالم الموجودات الامكانيّة، وخمّر طينته من الظّلمات والنور، وركّب فيه دواعي الخير والشرّ، وعجنه من الموادّ المتخالفة، وجمع فيه القوىٰ والأوصاف المتناقضة، وكانت الغاية القصوىٰ من وضع النواميس والأديان، وبعثة المصطفين من عظماء الإنسان هو سوق هذه النسخة المفردة من مراتع البهائم والشياطين وايصالها إلىٰ روضات العليّين، ولا يتيسّر ذلك إلّا بالتخلي عن ذمائم الأخلاق ورذائل الصّفات، والتحلّي بشرائفها وفضائلها.

فكان من الواجب علىٰ كلّ فرد من أفراد هذا النوع العالي أن يأخذ أهبته، ويبذل همّته في تطهير قلبه عن أوساخ الطّبيعة وأرجاسها، وتغسيل نفسه عن

أقذار الجسميّة وأنجاسها قبل أن ينتبه في بيداء الشّقاق، ويهوي في مهاوي الضلالة والهلاك، ولا ريب في أنّ هذا لا يتأتّىٰ إلّا بمعرفة مهلكات الصّفات ومنجياتها، والعلم بأسبابها ومعالجاتها، وهذا هو الحكمة الحقّة التي مدح الله تعالى أهلها وقال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ (١) إذ هي الموجبة للحياة الحقيقية والسعادة السرمديّة، ومن طوىٰ كشحه عنها ونبذها وراء ظهره فعلىٰ شفا جرف الهلكات وفي نيران الشّهوات.

وكان السّلف من عظماء المجموعة وحكماء البشريّة، يبالغون في النشر والتّدوين والجمع والتّبيين لغرض تركيز هذه الفضائل في أفراد المجموعة علىٰ ما أدّت إليه قوّة أنظارهم وأدركوه بقرائحهم، ولمّا جاءت الشريعة الإسلامية بيّنت دقائقها وتفاصيلها؛ بحيث اضمحلّ في جنبها جميع ما قرّره أساطين الحكمة ومهرة العرفاء وغيرهم من أهل الملل والأديان، وكان أجمعها لكلا جنبي الحكمة النظريّة والعمليّة وصيّة سيّد الحكماء والموحّدين أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لابنه الحسن، ولكن كان تقريبها وتركيزها في أذهان السّواد محتاجاً إلىٰ بسط الكلام في هذه الحقائق الناصعة والجواهر الرّائعة، وقد تقدّم إلىٰ شرحها سيادة الخطيب البارع الكبير، والمرشد المصلح الخطير، قرّة عيني العلّامة الفذّ السيّد حسن آل القبانجي.

فإنّه أدام الله تعالى تأييده منذ نعومة أظفاره يواصل ليله بنهاره في توجيه الجمعيّات البشريّة ببيانه وبنانه، والحقّ والحقّ أقول: أنّ الرجل لا يكون مصلحاً حقّاً إلّا إذا كانت وجهته قبل كلّ شيء تقويم أخلاق الأمّة، وتهذيب نفوسها، وغرس الأصول الطيّبة والمبادي الصحيحة في أفئدة النّاشئين، ومن أبدع ما أشرقت علينا شمسه من أسفاره الجليلة النافعة كتاب «علي والأُسس التربويّة في شرح الوصيّة» فإنّك بالنظر في صفحات هذا السّفر الجليل تعرف قيمة ما يسديه إلى أمّته من وقت لآخر بتلك المؤلّفات القيّمة والصّحف الخلقيّة العظيمة التي

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

تهديها سواء السّبيل، وتسمو بها الى الحياة الطيّبة، حياة الحكمة والرّشد والفضيلة والمروءة وغيرها من الخلال التي تكفل للأُمّة السعادة والهناء فلله درّك من لوذعيّ ماهر وعلّامة نابغة، وَضّحْتَ وأَجَدْتَ واستوعبتَ فهديتَ، جزاك الله عن التربية والآداب خيراً بالنبيّ وآله.

محمّد الجواد الطباطبائي التبريزي[1]

(١) هو أحد أعلام النجف الأشرف، ومراجع الدين فيها، إمام جماعة الحرم العلوي الشريف، واستاذ الفلسفة والعرفان، تربطه مع السيد العلامة القبانجي رابطة المصاهرة، توفي عام ١٣٨٧ للهجرة النبوية الشريفة صدرت له كتب باسم ١ ـ بغية الهداة في شرح وسيلة النجاة (كتاب الطهارة). ٢ ـ منهاج العمل. ٣ ـ مناسك الحج.
وله كتب لم تطبع بعد منها:
١ ـ أصفى التقريرات ـ وهو عبارة عن تقرير لأبحاث الاصول لمرجع عصره العلامة النائيني.
٢ ـ اصلاح البشر ـ في الفلسفة والأخلاق.
٣ ـ بغية الهداة في شرح وسيلة النجاة (سائر الأبواب الفقهية).

اقرأني أوّلاً

كنت أتردّد منذ أمد بعيد بين مواصلة شرح لهذه الوصيّة كما ينبغي وإهماله بالكلية، إلىٰ أن يتيح الله خصباً في الذهن، ونشاطاً في النفس، وقوّة في الفكر أكثر ممّا أجد، ولكن رأيت كما قال العماد الاصفهاني: «إنّه لا يكتب الإنسان كتاباً في يومه إلّا قال في غده لو غيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل علىٰ إستيلاء النقص على البشر». كان هذا هو الحافز الوحيد على الخوض في عباب هذا البحر الطامي، البحر اللجي من الحكمة والمعرفة.

دخلت في الموضوع بعد إلحاح نفسي لم أجد له مدفعاً، ولا عنه حولاً، معتقداً أنَّ ما أُلاقيه من صعوبة ووعورة [1] لا تذلل إلّا بصبر وتوفيق، لما لهذه الوصية من الأهميّة ما لم يكن لغيرها من الوصايا، إذ كل فصل منها منهج تربوي، ومنهج سلوك، ومنهج تفكير، ومنهج حياة.

قبسات كل منها يصلح أن يكون أحد مفاهيم الفكرة الإسلامية، مفاهيمها

---

(١) الوعر: الصعب.

الواقعية الضاربة في مناكب الأرض، المتلبسة بصميم الحياة.

تلك هي الخاصة الواضحة التي تمتاز بها وصايا الإمام علي عليه السلام من سائر وصايا المخلوقين، وتلك هي المقادير المحدودة التي تقتبسها الأفهام المحدودة من البحر اللّجي العظيم.

وحسب الذهن الواعي أن يلم بناحية واحدة أو أكثر من هذه النواحي الكثيرة والآفاق المترامية، وحسب الأذهان البشرية أن تتساند وتتساعد فتكشف منها أنواعاً كثيرة من العلم، وجوانب كثيرة من الهداية والإرشاد.

إنّ هذه الوصية لم تلاق من الكتّاب والشرّاح العناية التي تستحقّها، فقد بعدوا عن كثير من مطالبها المهمّة الثريّة التي يجد الإنسان فيها سعادته واطمئنانه لو أحسن استعمالها، ولم يعطوها نصيبها كما أعطوا غيرها ممّا هي دونها ودونها بأشواط.

ولقد كان حرياً أن يُحتَفل بها كما احتفلت هي بطاقات الحياة كلّها، ووجّهت القلوب لكلّ منحة منحها الله، وكلّ آية من آيات الله.

حاولت في هذه الأوراق أن أشير إلىٰ هذه الثروة الضخمة وفوائدها، وإذا لم أبلغ الكمال فحسبي أني بذلت أقصىٰ ما لديّ من جهد، وإذا لم أعرض على القارئ جميع حقائقها وأسرارها، فإنّي قدمت له ما يكفي للدلالة علىٰ عظمتها، وقوّة تعاليمها، وسموّ غايتها، وأنّها تشعّ أمواجاً من النور، وتفتح آفاقاً من الحياة.

المؤلف

ضبط الوصيّة

هذه الوصية الشريفة رواها جماعة من العلماء، وقد نقل السيد ابن طاووس رحمه الله أنّ الشيخ الكليني رواها في كتاب الرسائل[1]. وقد رواها في تحف العقول[2]، وذكر شيئاً منها ابن عبد ربه في «عقده»[3]، ورواها في كتاب منتخب الأعمال، وفي كتاب الكافي بإسناده عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في رسالته إلى الحسن عليه السلام: «إيّاك ومشاورة النساء، إلىٰ قوله: وإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل»[4] ثمّ روىٰ مثل ذلك عن الأصبغ بن نباتة إلّا أنه قال: كتب بها الخ.

ونحن إذ ننقلها إنّما ننقلها عن السيد الأجل الحبر السيد ابن طاووس في كتابه كشف المحجة إلىٰ ثمرة المهجة[5] في الفصل الرابع والخمسين والمائة، وإليك ما ذكره قدّس الله روحه بنصّه وعبارته:

«وقد وقع في خاطري أن أختم هذا الكتاب بوصية أبيك أمير المؤمنين عليه السلام

---

(١) كشف المحجّة : ٢١٩ فصل ١٥٤.

(٢) تحف العقول : ٤٦؛ عنه البحار ٧٧ : ٢١٧ ح ٢؛ وانظر نهج البلاغة : الكتاب ٣١.

(٣) العقد الفريد ٣ : ١٠٠.

(٤) الكافي ٥ : ٣٣٧ ح ٧.

(٥) كشف المحجة : ٢١٨ فصل ١٥٤؛ عنه البحار ٧٧ : ١٩٦ ح ١.

الذي عنده علم الكتاب إلىٰ ولده العزيز عليه، وبرسالته إلىٰ شيعته وذكر المتقدّمين عليه، ورسالته في ذكر الأئمّة من ولده ﷺ، ورأيت أن يكون رواية الرسالة إلىٰ ولده بطريق المخالفين والمؤالفين فهو أجمع علىٰ ما تضمّنته من سعادة الدنيا والدين.

قال أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري في كتاب «الزواجر والمواعظ»[1] في الجزء الأول منه من نسخة تاريخها ذو القعدة من سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ما هذا لفظه:

وصيّة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ لولده، ولو كان من الحكمة ما يجب أن يكتب بالذهب لكانت هذه.

وحدّثني بها جماعة، فحدّثني عليّ بن الحسين بن إسماعيل، قال: حدّثنا الحسن بن أبي عثمان الآدمي، قال: أخبرنا أبو حاتم المكتب يحيى بن حاتم بن عكرمة، قال: حدّثني يوسف بن يعقوب بأنطاكية، قال: حدّثني بعض أهل العلم، قال: لما انصرف علي ﷺ من صفين إلىٰ قنسرين كتب إلىٰ ابنه الحسن بن علي ﷺ: من الوالد الفان، المقر للزمان، الخ.

وحدّثنا أحمد بن عبد العزيز، قال: حدّثنا سليمان بن الربيع النهدي، قال: حدّثنا كادح بن رحمة الزاهد، قال: حدّثنا صباح بن يحيى المزني.

وحدّثنا عليّ بن عبد العزيز الكوفي الكاتب، قال: حدّثنا جعفر بن هارون بن زياد، قال: حدّثنا محمّد بن عليّ بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جدّه جعفر الصادق، عن أبيه، عن جدّه ﷺ، أنّ علياً كتب إلى الحسن بن علي.

وحدّثنا علي بن محمّد بن إبراهيم التستري، قال: حدّثنا جعفر بن عنبسة، قال: حدّثنا عبّاد بن زياد، قال: حدّثنا عمرو بن أبي المقدام، عن أبي جعفر محمّد بن علي ﷺ قال: كتب أمير المؤمنين ﷺ إلى الحسن بن علي.

وحدّثنا محمّد بن علي بن زاهر الرازي، قال: حدّثنا محمّد بن العباس، قال:

---

(١) راجع كنز العمال ١٦: ١٦٧ ح ٤٤٢١٥ عن الزواجر.

حدّثنا عبد الله بن داهر، عن أبيه، عن جعفر بن محمّد، عن آبائه، عن علي عليه السلام قال: كتب علي إلىٰ ابنه الحسن عليه السلام.

كل هؤلاء حدّثونا أنّ أمير المؤمنين علياً كتب بهذه الرسالة إلىٰ ابنه الحسن عليه السلام.

وأخبرني أحمد بن عبد الرحمن بن فضال القاضي، قال: حدّثنا الحسن بن محمّد بن أحمد، وأحمد بن جعفر بن محمّد بن زيد بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: حدّثنا جعفر بن محمّد الحسني، قال: حدّثنا الحسن بن عبدل قال: حدّثنا الحسن بن طريف بن ناصح، عن الحسن بن علوان، عن سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة المجاشعي، قال: «كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلىٰ ابنه كذا».

قال السيد: واعلم يا ولدي محمّد ـ ضاعف الله جلّ جلاله عنايته بك ورعايته لك ـ قد روى الشيخ المتفق علىٰ ثقته وأمانته محمّد بن يعقوب الكليني ـ تغمّده الله جلّ جلاله برحمته ـ رسالة مولانا أمير المؤمنين علي إلىٰ جدّك الحسن ولده عليهما السلام. وروى رسالة أُخرىٰ مختصرة عن خطّ علي عليه السلام إلىٰ ولده محمّد بن الحنفية ـ رضوان الله عليه ـ وذكر الرسالتين في كتاب «الرسائل».

ورأيت يا ولدي بين رواية الحسن بن عبد الله العسكري، مصنف كتاب «الزواجر والمواعظ» الذي قدمناه، وبين رواية الشيخ محمّد بن يعقوب في رسالة أبيك أمير المؤمنين علي عليه السلام إلىٰ ولده تفاوتاً، فنحن نوردها برواية محمّد بن يعقوب الكليني فهو أجمل وأفضل فيما قصدناه.

فذكر محمّد بن يعقوب الكليني في كتاب «الرسائل» بإسناده إلىٰ أبي جعفر بن عنبسة، عن عباد بن زياد الأسدي، عن عمر بن أبي المقدام، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما أقبل أمير المؤمنين عليه السلام من صفين كتب إلىٰ ابنه الحسن عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم من الوالد الفان، المقرّ للزمان، المُدْبِرِ العمر ...».

الفصل الأول
الوصية في القرآن والسّنة والآداب

ومن وصية له عليه السلام لولده الحسن
كتبها إليه بحاضرين منصرفاً من صفين

كتب

مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، اَلْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ، الْمُدْبِرِ اَلْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ، الذَّامِّ لِلدُّنْيا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَىٰ، والظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً، إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرَكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَحَلِيفِ الْهُمُومِ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَنَصَبِ الْآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ.

صلّى الله علىٰ صاحب هذه الوصية التي لا يجد الكمال الإنساني مذهباً عنها، ولا عن شيء منها، ولا يجد النقص البشري مساغاً إليها ولا إلىٰ شيء منها. ففيها المعنى التام للإنسانية، كما أنّ فيها المعنى التام للحقّ، ومن اجتماع هذين يكون فيها المعنى التام للإيمان.

ولو تدبّرتها لرأيت منها كوناً معنوياً دقيقاً قائماً بصاحبها الأعظم، كما يقوم هذا

الكون الكبير بسننه وأُصول الحكمة فيه. ولأيقنت أنّها معجم علمي أَلّفته الحكمة الإلهية بعلم مَنْ علّمها وقوّة مَنْ قوّتها لتتخرّج به الأُمّة التي تبدع العالم إبداعاً جديداً، وتنشؤه النشأة المحفوظة له في أطوار كماله.

وإنّي لأكاد كلّما تأمّلتها حسبتها صفحة إلهية مصنّفة أبدع تصنيف وأدقّه، ومن وراء تأليفها تفسير طويل لا يهتدي الفكر البشري لأحسن منه ولا أصح ولا أكمل.

وهي كذلك ضابط للفضائل، توجّه القلوب علىٰ اختلافها وتفاوتها اتجاهاً واحداً لا يختلف، فيكون طريقاً ما بين الإنسان والانسان من ناحية، والطريق ما بين الإنسان وبين الله.

وهي بعد هذا كله تحمل الإنسان أن ينظر إلىٰ موجده كأنه رقيب حيّ في قلبه، لا يرائيه ولا يجامله ولا يُخدع من تأويل، ولا يُغرّ بفلسفة ولا تزيين، ولا يمكنه ما تسوّل النفس، ولا يزال دائماً يقول للإنسان في قلبه: إنّ الخطأ أكبر الخطأ أن تنظّم الحياة من حولك وتترك الفوضىٰ في قلبك.

وجماع القول: إنّ في معانيها قوّة تجعل باطن الجسم متساوقاً مع ظاهره، فتتعاون الغرائز المختلفة في النفس تعاوناً سهلاً طبيعيّاً مطرداً كما تتعاون أعضاء الجسم علىٰ اختلافها في اطراد وسهولة وطبيعة.

* * *

شرح الألفاظ:

عيون وصيّته ﷺ أنّها من أب ووصفه بسبع صفات إلىٰ ولد ووصفه بأربع عشرة صفة، وفي كلّ واحدة من هذه الصفات بصيرة لمن استبصر، وعبرة لمن اعتبر.

فقال أوّلاً: «من الوالد الفان». يعني: هذه وصية من والد سيفنى عن قليل.

«المقرّ للزمان»: ـ وأنه مقرّ بتغيّر الزمان ـ الدهر ـ.
«الذامّ للدنيا»: ـ الذام لأهل الدنيا الذين اشتدّوا إليها وإلىٰ عمارتها.
«الساكن مساكن الموتىٰ»: الذي يسكن دار قوم كانوا فيها فماتوا وتركوها لغيرهم.

«الظاعن عنها»: ـ ويظعن ـ أي يرحل ـ عن هذه الدنيا غداً، أي عن قريب.
«الىٰ المولود المؤمّل ما لا يدرك»: ـ إلىٰ ولد مُعرَّض لهذه المِحن والبليّات الذي إن رجا أن يُعمِّر الدين فلا يدركه إذ لا يجد ناصراً له، ويسلك طريق والده بأن يعيش مثله بغصّة وأسف ويُقتل أيضاً، وهو مع ذلك بمنزلة هدف ترميه الأمراض بأوجاعها، ونفسه مرهونة عند الأيام، فكلّما يأتي يوم آخر يطالبه بتكليف آخر ومشقّة أُخرىٰ.

«غرض الأسقام»: ـ و «الغرض»: الهدف الذي يُرمىٰ.
و «رهينة الأيّام»: ـ قيل: الرهينة بمعنىٰ الرهن.
و «رمية المصائب»: ـ «الرمية»: الصيد أي كلّ حي في دار الدنيا تصطاده المصيبات.

و «عبد الدنيا»: ـ إنّ أبناء الدنيا كالعبيد لها أذلّاء لشدائدها ومحنها.
و «تاجر الغرور»: ـ «التجارة»: التصرّف، أي من يتصرّف فيها يتصرّف في متاع الغرور، ويمكن أن يغرّه.

و «غريم المنايا»: ـ «الغريم»: المديون، أي تطالب الحي في الدنيا أسباب الموت، يموت فيه كلّ يوم عضو من أعضاءه إلىٰ أن يفنىٰ. وأشار إلىٰ هذه الجمعية بالمنايا.

و «أسير الموت»: ـ «الموت»: يُسمّى المنيّة لأنّه مقدَّر لا يمكننا دفعه كأنّا أُسراء الموت.

و «حليف الهموم»: ـ «الحليف»: من يكون حلف غيره وفي عهده.

و «قرين الأحزان»: ـ «القرين»: المصاحب. و «نَصَبِ الآفات»: ـ «النَصَب»: الشيء المنصوب، ونصبت فلاناً عاديته.

و «خليفة الأموات»: ـ «الخليفة»: من يجيء خلف الغير يلزمه ما يلزم صاحبه.

* * *

الوصية لغة وشرعاً:

الوصية: هو أن يوصل الشيء بغيره؛ لأنّ الوصيّ يوصل تصرّفه بعد الموت بما قبله. هذا لسان اللغة.

ولسان الشرع: هي تمليك العين أو المنفعة بعد الوفات أو جعلها في جهة مباحة. وأوصيت له بشيء، وأوصيت إليه إذا جعلته وصيّك، والاسم الوصاية بالكسر والفتح، وهي إستنابة الموصي غيره بعد موته في التصرّف فيما كان له التصرّف فيه من إخراج حقّ واستيفاءه، أو ولاية علىٰ طفل، أو مجنون يملك الولاية عليه.

أقسام الوصيّة:

وهي وصيّتان: وصية الأحياء للأحياء، وهي أدب، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتحذير من زلل، وتبصرة بصالح عمل.

ووصية الأموات للأحياء المعبّر عنها بالوصية عند الموت، تكون بحقّ يجب عليهم أداءه، ودين يجب عليهم قضاءه.

وقد أمرنا بالوصية عند الموت في الكتاب العزيز، والسنّة النبويّة المقدّسة.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ١٨٠].

وفي السنّة النبويّة الشريفة:

قال ﷺ: «ما ينبغي لأمرئ مسلم أن يبيت إلّا ووصيّته تحت رأسه»[١].

وقال ﷺ: «من لم يحسّن وصيته عند الموت كان نقصاً في مروّته وعقله»[٢].

وقال ﷺ: «من مات ولم يوصِ مات ميتة جاهلية»[٣].

إلىٰ غير ذلك من الأحاديث ممّا لها دخل في الوصية عند الموت.

نماذج من وصايا الأحياء للأحياء:

ونحن نبحث في هذا الفصل في وصيّة الأحياء للأحياء وما اشتملت عليه من نُكَت أخلاقية، وحِكَم نفسانية ممّا لفعله مسيس حاجة في التربية الإنسانية المقصودة أولاً وبالذات.

ونفتتح الفصل في الآيات القرآنية الكريمة، ثمّ نردفها بما ورد عن شارع الكمالات والمزايا الفاضلة محمّد النبيّ العربي ﷺ، ثمّ أفيض في سوى ذلك من وصايا الملوك والحكماء.

فصل: في وصايا القرآن الكريم:

١ ـ فممّا جاء في الكتاب العزيز قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [النساء: ٩٤].

٢ ـ ومنها: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا

---

(١) روضة الواعظين: ٤٨٢؛ عنه البحار ١٠٣: ١٩٤ ح٣؛ والوسائل ١٣: ٣٥٢ ح٧.

(٢) روضة الواعظين: ٤٨٢؛ عنه البحار ١٠٣: ١٩٤ ح٥.

(٣) روضة الواعظين: ٤٨٢؛ والوسائل ١٣: ٣٥٢ ح٨.

الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ غَنِيّاً حَمِيداً﴾ [النساء: ١٣١].

٣ ـ وممّا جاء في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

٤ ـ وفيها أيضاً: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

٥ ـ وفيها أيضاً: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

٦ ـ ومنها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٧ ـ ومنها: ﴿وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٨ ـ وممّا جاء في سورة الاسراء: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الاسراء: ٧٨]

٩ ـ ومنها: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ [الاسراء: ٧٩].

١٠ ـ ومنها: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ [الاسراء: ٨٠].

١١ ـ ومما جاء في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً﴾ [الكهف : ٢٣] و ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذَا رَشَداً﴾ [الكهف : ٢٤].

١٢ ـ ومنها: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف : ٢٨].

١٣ ـ ومنها: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ [الكهف : ٢٩].

١٤ ـ وممّا جاء في سورة طه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه : ١٣٠].

١٥ ـ ومنها: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه : ١٣١].

١٦ ـ ومنها: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه : ١٣٢].

١٧ ـ وممّا جاء في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت : ٨].

١٨ ـ ومما جاء في سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان : ١٤].

إلىٰ كثير من آي القرآن الكريم التي هي العامل الوحيد في حسن تربية البشر وتمشية العدل بينهم.

فصل: في وصايا النبي ﷺ

وإليك نبذاً من الوصايا النبويّة التي تضيء القلوب بأشعّتها، وتنجلي الغياهب بإشراق نورها، وهي نفحة من الوحي الإلهي الذي يهدي الله به الناس في مسالك الأرض، وينير لهم السبيل.

يقول ﷺ: إنّ الله عند لسان كلّ قائل فليتّق الله عبد ولينظر ما يقول[١].

وإنّ رجلاً أتاه فقال: يا رسول الله أوصني، قال: عليك باليأس ممّا في أيدي الناس، وإيّاك والطمع فإنّه فقر حاضر، وإذا صلّيت فصلّ صلاة مودّع، وإيّاك وما يعتذر منه[٢].

وقال ﷺ: «أوصاني ربّي عزّ وجلّ بسبع وأنا أوصيكم بهنّ: أوصاني بالاخلاص بالسرّ والعلانية، وأن أعفو عمّن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصِل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبراً»[٣].

وقال ﷺ: «أوصيكم بثلاث، وأنهاكم عن ثلاث: أوصيكم بالذكر فإنّ الله تعالى يقول: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ وأوصيكم بالشكر فإنّ الله تعالى يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] وأوصيكم بالدعاء فإنّ الله تعالى يقول: ﴿أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وأنهاكم عن البغي فإنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣] وأنهاكم عن المكر فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] وأنهاكم عن النكث فإنّ الله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]».

وقال ﷺ: «إتّق المحارم تكن أعبد الناس، وأرض بما قسّم الله لك تكن أغنىٰ الناس، وأحسن إلىٰ جارك تكن مؤمناً، أحب للناس ما تحبّ لنفسك تكن مسلماً،

---

(١) البحار ٧٧: ٨٦ ح٢.
(٢) أمالي الطوسي: ٥٠٨ مجلس ١٨ ح١٨؛ عنه البحار ٧٥: ١٠٧ ح٨.
(٣) كنز الكراجكي: ١٨٤؛ عنه البحار ٧٧: ١٧١ ضمن حديث ٧.

وإياك وكثرة الضحك فإنّ كثرة الضحك تميت القلب»[١].

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، قالوا: يا رسول الله وما حقّ الجار على الجار؟ قال: إن سألك فأعطه، وإن استعانك فأعنه، وإن استقرضك فأقرضه، وإن دعاك فأجبه، وإن مرض فعده، وإن مات فشيّعه، وإن أصابته مصيبة فعزّه، ولا تؤذه بقتار قدرك[٢] إلّا أن تغرف له منها، ولا ترفع عليه البناء لتسد عليه الريح إلّا بإذنه»[٣].

وجاء إليه رجل فقال: يا رسول الله أوصني، قال: «عليك بتقوى الله فإنّه جماع كلّ خير، وعليك بالجهاد فإنّه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فإنّه نور في الأرض وذكرٌ لك في السماء، وأخزن لسانك إلّا من خير فإنّه بذاك تغلب الشيطان»[٤].

وقال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول الله وما هنّ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلّا بالحق، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[٥].

وعن معاذ بن جبل: انّ النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن مشىٰ معه أكثر من ميل يوصيه قال: «يا معاذ أوصيك بتقوى الله العظيم، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، وخفض الجناح، ولين الكلام، ورحمة اليتيم، والتفقّه في القرآن، وحبّ الآخرة.

يا معاذ لا تفسد أرضاً، ولا تشتم مسلماً، ولا تصدّق كاذباً، ولا تعصِ إماماً عادلاً.

---

(١) الترغيب والترهيب ٣: ٣٥٩ ح ٣٠.

(٢) قتار قدرك: هو ريح القدر والشواء ونحوهما /لسان العرب.

(٣) كنز العمال ٩: ١٨٥ ح ٢٥١٣؛ ونحوه البحار ٨٢: ٩٣ ح ٤٦.

(٤) الترغيب والترهيب ٣: ٥٣٢ ح ٢٩.

(٥) الخصال: ٣٦٤ ح ٥٧ باب السبعة؛ عنه الوسائل ١١: ٢٦١ ح ٣٤.

يا معاذ أوصيك بذكر الله عند كل شجر وحجر، وأن تحدث لكل ذنب تـوبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية.

يا معاذ إنّي أحبّ لك ما أحبّ لنفسي، وأكره لك ما أكره لنفسي، يا معاذ إنّي لو أعلم أنّا نلتقي لقصرت لك من الوصية ولكنّي لا أرانا نلتقي إلىٰ يوم القيامة، يا معاذ إنّ أحبّكم إليّ من لقيني يوم القيامة علىٰ مثل الحالة التي فارقني عليها»[١].

يقول قيس بن عاصم: وفدت مع جماعة من بني تميم إلى النبي ﷺ فـدخلت وعنده الصلصال بن الدلهمس فقلت: يا نبيّ الله عظنا موعظة ننتفع بها فـانّا قـوم نصير في البرّية، فقال رسول الله ﷺ:

«يا قيس إنّ مع العزّ ذلّاً، وإنّ مع الحياة موتاً، وإنّ مع الدنيا آخرةً، وإنّ لكـلّ شيء حسيباً، وعلىٰ كلّ شيء رقيباً، وإنّ لكلّ حسنة ثواباً، ولكلّ سـيّئة عـقاباً، ولكلّ أجل كتاباً، وإنّه لابدّ لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حيّ وتدفن معه وأنت ميّت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك حتّىٰ لا يحشر إلّا معك، ولا تبعث إلّا معه، ولا تسأل إلّا عنه، فلا تجعله إلّا صالحاً فإنّه إن صلح أنست به، وإن فسد لا تستوحش إلّا منه وهو فعلك».

فقلت: يا نبيّ الله أحبّ أن يكون هذا الكلام في أبيات من الشعر نفخر به علىٰ من يلينا من العرب وندّخره، فأمر النبي ﷺ من يأتيه بحسّان، قال قيس: فأقبلت أُفكر فيما أشبه هذه العظة من الشعر فاستتبّ لي القول قبل مجيء حسّان، فقلت: يا رسول الله قد حضرتني أبيات أحسبها توافق ما تريد، فقال النبي ﷺ: قل يا قيس، فقلت:

تخيّر خليطاً من فعالك إنّما ... قرين الفتىٰ في القبر ما كان يفعل
ولابدّ بعد الموت من أن تعدّه ... ليوم ينادىٰ المرء فيه فيقبل
فإن كنت مشغولاً بشيءٍ فلا تكن ... بغير الذي يرضىٰ به الله تشغل

(١) تحف العقول: ١٩؛ عنه البحار ٧٧: ١٢٦ ح ٣٣ ملخصاً، واحياء العلوم ٢: ٣٣٠.

فلن يصحب الإنسان من بعد موته ومـن قبله إلّا الذي كان يعمل
ألا إنّما الإنسان ضَيفٌ لأهله يقيم قليلاً بينهم ثمّ يرحل[١]

١ ـ وصيّته ﷺ لعليّ أمير المؤمنين عليه السلام:

دوّن المجلسي ﷺ في السابع عشر من البحار[٢] هذه الوصيّة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:

«كان فيما أوصىٰ به رسول الله ﷺ عليّاً عليه السلام أن قال: يا علي أوصيك بوصيّة فاحفظها فإنّك لا تزال بخير ما دمت علىٰ حفظها.

يا علي من كظم غيظاً وهو يقدر علىٰ إمضائه أعقبه الله يوم القيامة أمناً وإيماناً يجد طعمه.

يا علي من لم يحسّن وصيّته عند موته كان نقصاً في مروّته ولم يملك الشفاعة.

يا علي من خاف الناس لسانه فهو من أهل النار.

يا علىٰ شرّ الناس من أكرمه الناس إتّقاء شرّه، وشرٌّ من ذلك من باع آخرته بدنيا غيره.

يا علي من لم يقبل العذر من متنصّل[٣] صادقاً كان أو كاذباً لم ينل شفاعتي.

يا علي من ترك الخمر لغير الله سقاه الله من الرحيق المختوم، فقال علي: لغير الله؟ قال: نعم والله من تركها صيانة لنفسه يشكره الله علىٰ ذلك.

يا علي شارب الخمر لا يقبل الله صلاته أربعين يوماً فإن مات في الأربعين مات كافراً.

يا علي جُعِلَتْ الذنوبُ في بيت وجُعِل مفتاحها شرب الخمر.

---

(١) معاني الأخبار: ٢٣٢؛ والخصال: ١١٤ ح٩٣ باب الثلاثة؛ وأمالي الصدوق: ١٢ ح٤ مجلس ١؛ عنها البحار ٧٧: ١١٠ ح١.

(٢) أي المجلّد السابع والسبعون من الطبعة الحديثة.

(٣) تنصّل فلان من ذنبه أي تبرّأ.

يا علي من لم تنتفع بدينه ودنياه فلا خير لك في مجالسته.

يا علي ينبغي أن تكون في المؤمن ثمان خصال: وقار عند الهزاهز، وصبر عند البلاء، وشكر عند الرخاء، وقنوع بما رزقه الله، ولا يظلم الأعداء، ولا يتحامل على الأصدقاء، بدنه منه في تعب، والناس منه في راحة.

يا علي ثمانية إن أهينوا فلا يلوموا إلّا أنفسهم: الذاهب إلىٰ مائدة لم يُدعَ إليها، والمتأمّر علىٰ ربّ البيت، وطالب الخير من أعدائه، وطالب الفضل من اللئام، والداخل بين اثنين في سرٍّ لم يُدخلاه فيه، والمستخفّ بالسلطان، والجالس في مجلس ليس له بأهل، والمقبل بالحديث علىٰ من لا يسمع منه.

يا علي حرّم الله الجنّة علىٰ كلّ فاحش بذيء لا يبالي ما قال ولا ما قيل له.

يا علي لا تمزح فيذهب بهاؤك، ولا تكذب فيذهب نورك، وإيّاك وخصلتين: الضجر والكسل؛ فإنّك إن ضجرت لم تصبر علىٰ حق، وإن كسلت لم تؤدّ حقاً، يا علي لكلّ ذنب توبة إلّا سوء الخلق فإنّ صاحبه كلّما خرج من ذنب دخل في ذنب.

يا علي ثلاث من مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة: أن تعفو عمّن ظلمك، وتصل من قطعك، وتحلم عمّن جهل عليك[1].

يا علي ثلاث منجيات: تكفّ لسانك، وتبكي علىٰ خطيئتك، ويسعك بيتك.

يا علي سيد الأعمال ثلاث خصال: إنصافك الناس من نفسك، ومساواة الأخ في الله، وذكر الله علىٰ كلّ حال.

يا علي ثلاثة من حُلَل الله: رجل زار أخاه المؤمن في الله فهو زَوْر[2] الله وحقّ على الله أن يُكرم زَورَه ويعطيه ما سأل، ورجل صلّىٰ ثمّ عقّب إلى الصلاة الأُخرىٰ فهو ضيف الله وحقّ على الله أن يكرم ضيفه، والحاج والمعتمر فهما وفد الله وحقّ على الله أن يكرم وفده.

(١) البحار ٧٧: ٤٦-٤٩؛ عن مكارم الأخلاق: ٤٣٣ ملخصاً.

(٢) زور: بمعنىٰ زائر بالفتح.

يا علي ثلاث ثوابهنّ في الدنيا والآخرة: الحجّ ينفي الفقر، والصدقة تدفع البليّة، وصلة الرحم تزيد في العمر.

يا علي ثلاث من لم يكنّ فيه لم يقم له عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله عزّ وجلّ، وعلم يرد به جهل السفيه، وعقل يداري به الناس.

يا علي ثلاث تحت ظلّ العرش يوم القيامة: رجل أحبّ لأخيه ما أحبّ لنفسه، ورجل بلغه أمر فلم يقدم فيه ولم يتأخر حتّىٰ يعلم أنّ ذلك الأمر لله رضىً أو سخط، ورجل لم يعب أخاه بعيب حتّىٰ يصلح ذلك العيب من نفسه، فإنّه كلّما أصلح من نفسه عيباً بدا له منها آخر، وكفىٰ بالمرء في نفسه شغلاً.

يا علي ثلاث من أبواب البر: سخاء النفس، وطيب الكلام، والصبر على الأذى.

يا علي كلّ عين باكية يوم القيامة إلّا ثلاث أعين: عين سهرت في سبيل الله، وعين غضّت عن محارم الله، وعين فاضت من خشية الله.

يا علي ثلاث موبقات وثلاث منجيات، فأمّا الموبقات: فهوىً مُتَّبع، وشحٌّ مُطاع، وإعجاب المرء بنفسه، وأمّا المنجيات: فالعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وخوف الله في السرّ والعلانية كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك.

يا علي ثلاث يحسن فيهنّ الكذب: المكيدة في الحرب، وَعِدَتُكَ زوجتك، والإصلاح بين الناس.

يا علي ثلاث يقبح فيهنّ الصدق: النميمة، وإخبارك الرجل عن أهله بما يكره، وتكذيبك الرجل عن الخبر.

يا علي أربع إلىٰ جنبهنّ أربع: من ملك استأثر، ومن لم يستشر يندم، كما تدين تدان، والفقر الموت الأكبر، فقيل له: الفقر من الدينار والدرهم، فقال: الفقر من الدين.

يا علي في التوراة أربع إلىٰ جنبهنّ أربع: من أصبح على الدنيا حريصاً أصبح

وهو على الله ساخط، ومن أصبح يشكو مصيبةً نزلت به فإنّما يشكو ربّه، ومن أتىٰ غنيّاً فتضعضع له ـ أي ذلّ وخضع له ـ ذهب ثلثا دينه، ومن دخل النار من هـذه الأُمّة فهو من اتّخذ آيات الله هزواً ولعباً.

يا علي أربعة أسرع شيء عقوبة: رجل أحسنت إليـه فكـافاك بـالاحسان إساءة، ورجل لا تبغي عليه وهو يبغي عليك، ورجل عاهدته علىٰ أمر فوفيت له وغدر بك، ورجل وصل قرابة فقطعوه[1].

يا علي بادر بأربع قبل أربع: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك.

يا علي أربعة من قواصم الظهر: إمام يعصي الله عزّ وجلّ ويطاع أمره، وزوجة يحفظها زوجها وهي تخونه، وفقر لا يجد صاحبه له مـداوياً، وجـار سـوء في دار المقامة[2].

يا علي إنّه لا فقر أشدّ من الجهل، ولا مال أعود من العقل، ولا وحدة أوحش من العجب، ولا مظاهرة أحسن مـن المشـاورة، ولا عـقل كـالتدبير، ولا حـسب كحسن الخلق، ولا عبادة كالتفكر.

يا علي عليك بالصدق ولا تخرج من فيك كذبة أبداً، ولا تَجْتَرِأَنّ علىٰ خـيانة أبداً، والخوف من الله كأنّك تراه، وابذل مالك ونفسك دون دينك[3].

٢ ـ وصيّته ﷺ لأبي ذر ﵁:

حدّث أبو الأسود الدؤلي عن أبيه، قال: قدمت الربذة فدخلت عـلىٰ أبي ذر ـ جندب بن جنادة ـ فحدّثني، قال: دخلت ذات يوم في صدر النهار علىٰ رسول الله ﷺ في مسجده فلم أر في المسجد أحداً من الناس إلّا رسول الله ﷺ وعلي ﵇

---

(١) البحار ٧٧: ٦١ ـ ٦٤؛ عن تحف العقول: ٦ ملخصاً.

(٢) البحار ٧٧: ٤٩ و ٥٥؛ عن مكارم الأخلاق: ٤٣٣.

(٣) البحار ٧٧: ٦١ ح ٤؛ عن تحف العقول: ٦.

إلىٰ جانبه، فاغتنمت خلوة المسجد فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأُمّي أوصني بوصية ينفعني الله بها، فقال: نعم وأكرم بك.

يا أبا ذر! إنّك منّا أهل البيت وإنّي موصيك بوصيّة فاحفظها فإنّها جامعة لطرق الخير وسبله، فإنّك إن حفظتها كان لك بها كفلان.

يا أبا ذر! اعبد الله كأنّك تراه فإن كنت لا تراه فإنّه يراك، واعلم أنّ أول عبادة الله المعرفة به أنّه الله الأوّل قبل كلّ شيء فلا شيء قبله، والفرد فلا ثاني له، والباقي لا إلىٰ غاية، فاطر السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من شيء، وهو الله اللطيف الخبير، وهو علىٰ كلّ شيءٍ قدير.

ثمّ الايمان به والاقرار بأنّ الله تعالى أرسلني إلىٰ كافّة الناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، ثمّ حبّ أهل بيتي الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

واعلم يا أبا ذر أنّ الله عزّ وجلّ جعل أهل بيتي في أُمتي كسفينة نوح، من ركبها نجىٰ ومن رغب عنها غرق، ومثل باب حطّة في بني إسرائيل من دخله كان آمناً.

يا أبا ذر! احفظ ما أوصيك به تكن سعيداً في الدنيا والآخرة، يا أبا ذر! نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ.

يا أبا ذر! اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك.

يا أبا ذر! إياك والتسويف بأملك فإنّك بيومك ولست بما بعده، فإن يكن غد لك فكن في الغد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن غد لك لم تندم علىٰ ما فرّطت في اليوم.

يا أبا ذر! كم مستقبل يوماً لا يستكمله، ومنتظر غداً لا يبلغه، يا أبا ذر لو نظرت إلى الأجل ومصيره لأبغضت الأمل وغروره، يا أبا ذر كن كأنّك في الدنيا غريب أو كعابر سبيل، وعدّ نفسك من أصحاب القبور.

يا أبا ذر! إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح، وخُذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنّك لا تدري ما اسمك غداً.

يا أبا ذر! إيّاك أن تدركك الصرعة عند العثرة فلا تقال العثرة، ولا تُمكَّن من الرجعة، ولا يحمدك من خَلَّفت بما تركت، ولا يعذرك من تقدِم عليه بما اشتغلت به.

يا أبا ذر! كن علىٰ عمرك أشحّ منك علىٰ درهمك ودينارك.

يا أبا ذر! هل ينتظر أحدكم إلّا غنىً مطغيّاً، أو فقراً منسيّاً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مخترماً، أو الدجّال فإنّه شرّ غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهىٰ وأمرّ.

يا أبا ذر! إنّ شرّ الناس منزلةً عند الله يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه، ومن طلب علماً ليصرف به وجوه الناس إليه لم يجد ريح الجنّة.

يا أبا ذر! من ابتغىٰ العلم ليخدع به الناس لم يجد ريح الجنّة، يا أبا ذر! إذا سُئلت عن علم لا تعلمه فقل: لا أعلمه تَنجُ من تَبِعَتِه، ولا تُفتِ بما لا علم لك به تَنجُ من عذاب الله يوم القيامة.

يا أبا ذر! يطلّع قوم من أهل الجنة إلىٰ قوم من أهل النار فيقولون لهم: ما أدخلكم النار وقد دخلنا الجنّة بفضل تأديبكم وتعليمكم؟ فيقولون: كنّا نأمركم بالخير ولا نفعله.

يا أبا ذر! إنّ حقوق الله جلّ ثناؤه أعظم من أن يقوم بها العباد، وإنّ نعم الله أكثر من أن تحصيها العباد، ولكن أمسوا وأصبحوا تائبين.

يا أبا ذر! إنّكم في ممرّ الليل والنهار في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، ومن يزرع خيراً يوشك أن يحصد خيراً، ومن يزرع شرّاً يوشك أن يحصد ندامة، ولكلّ زارع مثل ما زرع.

يا أبا ذر! المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة، إنّ المؤمن ليرىٰ ذنبه

كأنّه تحت صخرة يخاف أن تقع عليه، وإنّ الكافر ليرىٰ ذنبه كأنّه ذباب مرّ علىٰ أنفه.

يا أبا ذر! إنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً جعل الذنوب بين عينيه مُمثَّلةً، والاثم عليه ثقيلاً وبيلاً، وإذا أراد بعبدٍ شرّاً أنساه ذنوبه.

يا أبا ذر! لا تنظر إلىٰ صغر الخطيئة ولكن أُنظر إلىٰ من عصيت.

يا أبا ذر! إنّ نفس المؤمن أشدّ ارتكاضاً من الخطيئة من العصفور حين يقذف به في شركه[1].

يا أبا ذر! إنّ الله جلّ ثناؤه ليدخل قوماً الجنة فيعطيهم حتّىٰ يملّوا وفوقهم قوم في الدرجات العلىٰ، فإذا نظروا إليهم عرفوهم، فيقولون: ربنا اخواننا كنّا معهم في الدنيا فبم فضّلتهم علينا؟ فيقال: هيهات هيهات إنّهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويظمؤون حين تروون، ويقومون حين تنامون، ويشخصون حين تخفضون.

يا أبا ذر! جعل الله جلّ ثناؤه قرّة عيني في الصلاة، وحبّب إليّ الصلاة كما حبّب إلى الجائع الطعام، وإلى الظمآن الماء، وإنّ الجائع إذا أكل شبع، وإنّ الظمآن إذا شرب روى، وأنا لا أشبع من الصلاة.

يا أبا ذر! إنك ما دمت في الصلاة فإنك تقرع باب الملك الجبّار، ومن يكثر قرع باب الملك يفتح له.

يا أبا ذر! ما من مؤمن يقوم مصليّاً إلّا تناثر عليه البرّ ما بينه وبين العرش، ووكّل به ملك ينادي: يا ابن آدم لو تعلم ما لك في الصلاة ومن تناجي ما انفتلت.

يا أبا ذر! طوبىٰ لأصحاب الألوية يوم القيامة يحملونها فيسبقون الناس إلى الجنّة، ألا وهم السابقون إلى المساجد بالأسحار وغير الأسحار.

يا أبا ذر! حاسب نفسك قبل أن تحاسب فإنّه أهون لحسابك غداً، وزِنْ نفسك قبل أن توزن، وتَجهَّز للعرض الأكبر يوم تُعرض.

---

(١) الشرك ـ محركة ـ: حبالة الصيد.

يا أبا ذر! إستحيي من الله علىٰ كلّ حال فوالذي نفس محمّد بيده إنّي لأظلّ حين أذهب إلى الغائط متقّنعاً بثوبي هذا حتّىٰ لا يراني أحد استحياءً من الملكين الذين معي كيلا يرياني عارياً(١).

٣ ـ وصيّته ﷺ لعبد الله بن مسعود:

حدّث عبد الله بن مسعود، قال: دخلت أنا وخمسة رهط من أصحابنا يوماً علىٰ رسول الله ﷺ وقد أصابتنا مجاعة شديدة ولم يكن ذقنا منذ أربعة أشهر إلّا الماء واللبن وورق الشجر، قلنا: يا رسول الله إلىٰ متىٰ نحن علىٰ هذه المجاعة الشديدة؟

قال ﷺ: لا تزالون فيها ما عشتم فأحدثوا لله شكراً، وإني قرأت كتاب الله الذي أنزل عليّ وعلىٰ من كان قبلي فما وجدت من يدخلون الجنّة إلّا الصابرون. يا ابن مسعود! قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : ١٠] ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان : ٧٥] ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون : ١١١].

يا ابن مسعود! قول الله تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ [الدهر : ١٢] ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص : ٥٤] يقول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ [البقرة : ٢١٤] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة : ١٥٥].

قلنا: يا رسول الله فمن الصابرون؟ قال: الذين يصبرون علىٰ طاعة الله وعن معصيته، الذين كسبوا طيباً، وأنفقوا قصداً، وقدّموا فضلاً، فأفلحوا ونجحوا. يا ابن مسعود! غلبهم الخشوع، والوقار، والسكينة، والتفكّر، واللين، والعدل، والتعليم،

(١) البحار ٧٧: ٧٣ ح٣؛ عن مكارم الأخلاق: ٤٥٨ ملخصاً.

والاعتبار، والتدبير، والتقوىٰ، والاحسان، والتحرّج، والحبّ في الله والبغض في الله، وأداء الأمانة، والعدل في الحكم، وإقامة الشهادة، ومعاونة أهل الحق، والبغية على المسيء، والعفو لمن ظلم.

يا ابن مسعود! إذا ابتلوا صبروا، وإذا أُعطوا شكروا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا عاهدوا وفوا، وإذا أساؤوا استغفروا، وإذا أحسنوا استبشروا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً، والذين يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً، ويقولون للناس حسناً.

يا ابن مسعود! فمن شرح الله صدره للإسلام فهو علىٰ نور من ربّه، فإنّ النور إذا وقع في القلب انشرح فانفسح. فقيل: يا رسول الله فهل لذلك من علامة؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور، والانابة إلىٰ دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الفوت، فمن زهد في الدنيا قصر أمله فيها وتركها لأهلها.

يا ابن مسعود! قول الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود : ٧] يعني أيّكم أزهد في الدنيا، إنّها دار الغرور، ودار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له، إنّ أحمق الناس من طلب الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿إِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد : ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾ [مريم : ١٢] يعني: الزهد في الدنيا.

وقال تعالى لموسىٰ: إنّه لن يتزيّن المتزيّنون بزينة أزين في عيني مثل الزهد، يا موسىٰ إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنىٰ مقبلاً فقل: ذنب عجّلت عقوبته.

يا ابن مسعود! قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ● وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً

وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ • وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً • وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ [الاسراء: ١٨-١٩].

يا ابن مسعود! من اشتاق إلى الجنّة سارع في الخيرات، ومن خاف النار ترك الشهوات، ومن ترقّب الموت انتهىٰ عن اللذات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات.

يا ابن مسعود! إنّ الله اصطفىٰ موسىٰ بالكلام والمناجاة، حين كانت ترىٰ خضرة البقل من بطنه من هزاله[1]، وما سأل موسىٰ حين تولىٰ إلى الظلّ إلّا طعاماً يأكله من جوع.

يا ابن مسعود! إن شئت نبأتك بأمر نوح نبيّ الله، إنّه عاش ألف سنة إلّا خمسين عاماً، فكان إذا أصبح قال: لا أمسي، وإذا أمسىٰ قال: لا أصبح، فكان لباسه الشعر، وطعامه الشعير. وإن شئت نبأتك بأمر داود خليفة الله في الأرض، وكان لباسه الشعر، وطعامه الشعير. وإن شئت نبأتك بأمر سليمان ﷺ مع ما كان فيه من الملك، كان يأكل الشعير، ويطعم الناس الحواري[2]، وكان لباسه الشعر، وكان إذا جنّه الليل شدّ يده إلىٰ عنقه، فلا يزال قائماً يصلّي حتى يصبح.

وإن شئت نبأتك بإبراهيم خليل الرحمن، كان لباسه الصوف، وطعامه الشعير. وإن شئت نبأتك بأمر يحيى ﷺ كان لباسه الليف، وكان يأكل ورق الشجر. وإن شئت نبأتك بأمر عيسى بن مريم، وهو العجب كان يقول: أدامي الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصوف، ودابتي رجلاي، وسراجي بالليل القمر، وصلائي[3] في

(١) الهزل: قلّة اللحم والشحم.
(٢) الحواري: الدقيق الأبيض.
(٣) أي استدفائي.

الشتاء مشارق الشمس، وفاكهتي وريحانتي بقول الأرض مما تأكل الوحوش والأنعام، وأبيت وليس لي شيء، وأصبح وليس لي شيء، وليس علىٰ وجه الأرض أحد أغنىٰ منّي.

يا ابن مسعود! كلّ هذا منهم يبغضون ما أبغض الله، ويصغّرون ما صغّر الله، ويزهدون ما أزهد الله، وقد أثنىٰ عليهم في محكم كتابه، فقال لنوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الاسراء : ٣] وقال لإبراهيم: ﴿إِتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء : ١٢٥] وقال لداود: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص : ٢٦] وقال لموسى: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾ [النساء : ١٦٤] وقال أيضاً لموسىٰ: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾ [مريم : ٥٢].

وقال ليحيىٰ: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ [مريم : ١٢] وقال لعيسى بن مريم: ﴿أُذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ـ إلىٰ قوله ـ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ [المائدة : ١١٠] وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء : ٩٠].

يا ابن مسعود! كلّ ذلك لما خوّفهم الله في كتابه من قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ● لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر : ٤٣-٤٤] وقال تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٦٩](١).

انتهىٰ ما انتخبناه من درر النبوّة، واخترناه من غرر الرسالة، وقد تركنا الكثير رغبةً في الاختصار، وحذراً من الاكثار، لتكون أبسط للنفوس، وأنشط للخواطر، وأقرّ للنواظر.

* * *

(١) البحار ٧٧ : ٩٢ ح ١؛ عن مكارم الأخلاق : ٤٤٦.

فصل: في وصايا عليّ أمير المؤمنين ﷺ

١ ـ وصيّته ﷺ لولديه الحسن والحسين عندما ضربه ابن ملجم:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصىٰ به أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب: أوصىٰ أنّه يشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، أرسله بالهدىٰ ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون. ثمّ إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين، لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أوّل المسلمين.

أوصيكما بتقوى الله وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا علىٰ شيء منها زوي[١] عنكما، وقولا الحقّ واعملا للآخرة، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً.

أوصيكما وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغهم كتابي هذا من المؤمنين بتقوى الله ربّكم، ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم.

وأوصيكم بنظم أمركم وصلاح ذات بينكم، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام، وإنّ البغضة حالقة الدين وفساد ذات البين، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

أُنظروا ذوي أرحامكم فصلوهم يهوّن الله عليكم الحساب.

والله الله في الأيتام لا تغبّروا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: من عال يتيماً حتّىٰ يستغني أوجب الله له الجنّة كما أوجب لآكل مال اليتيم النار.

والله الله في القرآن فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم.

والله الله في جيرانكم فإنّ الله ورسوله أوصيا بهم، فإنّها وصية نبيّكم ما زال يوصينا بهم حتّىٰ ظننّا أنّه سيورّثهم.

---

(١) زوي: أي قبض ونحي عنكم.

والله الله في بيت ربّكم فلا يخلونّ منكم فلا تخلّوا به ما بقيتم فإنّه إن تُرِكَ لم تُناظروا، وإنّ أدنىٰ ما يرجع به من أَمَّه أن يُغفر له ما سلف من ذنبه.

والله الله في الصلاة فإنّها خير العمل وإنّها عمود دينكم.

والله الله في الزكاة فإنّها تطفئ غضب ربّكم.

والله الله في صيام شهر رمضان فإنّ صيامه جنّة من النار.

والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم فإنّما يجاهد في سبيل الله رجلان: إمام هدىً، ومطيع له مقتدٍ بهداه.

والله الله في ذريّة نبيّكم فلا يُظلَمنّ بين أظهركم.

والله الله في أصحاب نبيّكم الذين لم يُحدثوا حَدَثاً، ولم يؤووا محدثاً، فإنّ رسول الله ﷺ أوصىٰ بهم ولعن المُحدِثَ منهم ومن غيرهم، والمؤوي للمحدِث.

والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معائشكم.

والله الله في النساء وما ملكت أيمانكم فإنّ آخر ما تكلّم به رسول الله ﷺ أن قال: أوصيكم بالضعيفين نسائكم وما ملكت أيمانكم.

ثمّ قال: الصلاة الصلاة ولا تخافنّ في الله لومة لائم يكفكم من بغىٰ عليكم وأرادكم بسوء، قولوا للناس حسناً كما أمركم الله عزّ وجلّ، ولا تتركنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولّي الله الأمر شراركم ثمّ تدعون فلا يُستجاب لكم، عليكم بالتواصل والتباذل والتبادل، وإيّاكم والتقاطع والتدابر والتفرّق، وتعاونوا على البرّ والتقوىٰ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتّقوا الله إنّ الله شديد العقاب، حفظكم الله من أهل بيت وحفظ فيكم نبيّكم، وأستودعكم الله خير مستودَع، وأقرء عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

يا بني عبد المطلب لا ألفينَّكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً، تقولون قُتِلَ أمير المؤمنين، لا تقتُلنّ بي إلّا قاتلي، أُنظروا إذا أنا متّ من ضربته هذه فاضربوه ضربةً بضربة، ولا يمثّل بالرجل فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: إيّاكم والمثلة ولو

بالكلب العقور(١).

٢ ـ وصيّته لولده الحسن ﷺ:

ولما ضربه ابن ملجم ـ لعنه الله ـ دخل عليه الحسن ﷺ وهو باكٍ فقال: يا بني ما يبكيك؟ قال: وما لي لا أبكي وأنت في أوّل يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا، قال: يا بني إحفظ أربعاً وأربعاً لا يضرّك ما عملت معهنّ، قال: وما هنّ يا أبه؟ قال: أغنى الغنىٰ العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العجب، وأكرم الحسب حسن الخلق.

قال: يا أبة هذه الأربع فاعطني الأربع. قال: يا بني إيّاك ومصادقة الكذّاب فإنّه يُقرِّب عليك البعيد، ويبعِّد عليك القريب، وإيّاك ومصادقة الأحمق فإنّه يـريد أن ينفعك فيضرّك، وإيّاك ومصادقة البخيل فإنّه يقعد عنك أحوج مـا تكـون إليـه، وإيّاك ومصادقة الفاجر فإنّه يبيعك بالتافه(٢).

٣ ـ وصيّته لولده الحسين ﷺ:

يا بُنَيَّ! أُوصيك بتقوى الله في الغنىٰ والفقر، وكلمة الحقّ في الرضـا والغـضب، والقصد في الغنىٰ والفقر، وبـالعدل عـلى الصـديق والعـدوّ، وبـالعمل في النشـاط والكسل، والرضىٰ عن الله في الشدّة والرخاء.

أي بني! ما شرّ بعده الجنّة بشر، ولا خير بعده النار بخير، وكلّ نعيم دون الجنّة محقور، وكلّ بلاء دون النار عافية.

واعلم يا بني! إنه من أبصر عيب نفسه شُغِلَ عن عيب غيره، ومن تعرّىٰ من لباس التقوىٰ لم يستتر بشيء من اللباس، ومن رضي بقسم الله لم يحزن علىٰ ما فاته،

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٤٧؛ عنه البحار ٤٢: ٢٥٦ ح٥٧ ملخصاً.

(٢) نهج البلاغة: قصار الحكم ٣٨؛ عنه البحار ٧٤: ١٩٨ ح٣٥.

ومن سلّ سيف البغي قتل به، ومن حفر بئراً لأخيه وقع فيها، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورته، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره.

ومن كابد الأمور عطب، ومن اقتحم الغمرات غرق، ومن أعجب برأيه ضلّ، ومن استغنىٰ بعقله زلّ، ومن تكبّر على الناس ذلَّ، ومن خالط العلماء وُقِّر، ومن خالط الأنذال حُقِّر، ومن سفه علىٰ الناس شُتِم، ومن دخل مداخل السوء اتُّهم، ومن مزح استُخِفّ به، ومن أكثر من شيء عُرِفَ به، ومن كثر كلامه كثر خطأه، ومن كثر خطأه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار.

أي بُني! من نظر في عيوب الناس ورضي لنفسه بها فذاك الأحمق بعينه، ومن تفكّر اعتبر، ومن اعتبر اعتزل، ومن اعتزل سَلِم، ومن ترك الشهوات كان حرّاً، ومن ترك الحسد كانت له المحبّة عند الناس.

أي بني! عزّ المؤمن غناؤه عن الناس، والقناعة مالٌ لا ينفد، ومن أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن علم أنّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلّا فيما ينفعه.

أي بني! العجب ممّن يخاف الله والعقاب فلم يَكُف، ويرجو الثواب فلم يتب ويعمل.

أي بني! الفكرة تورث نوراً، والغفلة ظلمة، والجدال ضلالة، والسعيد من وُعِظَ بغيره، والأدب خير ميراث، وحُسن الخُلُق خير قرين، ليس مع قطيعة الرحم نماء، ولا مع الفجور غنىٰ.

أي بني! العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت إلّا بذكر الله، وواحدة في ترك مجالسة السفهاء.

أي بني! من تزيّا بمعاصي الله في المجالس أورثه الله ذلاًّ، ومن طلب العلم عُلِّم.

يا بني! رأس العلم الرفق، وآفته الخرق، ومن كنوز الايمان الصبر على

المصائب، والعفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنىٰ، وكثرة الزيارة تورث الملالة، والطمأنينة قبل الخبرة ضدّ الحزم، وإعجاب المرء بنفسه يدلّ علىٰ ضعف عقله.

أي بني كم نظرة جلبت حسرة، وكم من كلمةٍ سلبت نعمة.

أي بني! لا شرف أعلىٰ من الإسلام، ولا كرم أعزّ من التقوىٰ، ولا معقل أحرز من الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية، ولا مال أذهب بالفاقة من الرضىٰ بالقوت، ومن اقتصر علىٰ بلغة الكفاف تعجّل الراحة وتبوّء خفض الدعة.

أي بني! الحرص مفتاح التعب، ومطية النصب، وداع إلى التقحّم في الذنوب، والشره جامع لمساوي العيوب، وكفاك تأديباً لنفسك ما كرهته من غيرك، لأخيك عليك مثل الذي لك عليه، ومن تورّط في الأمور بغير نظر في العواقب فقد تعرّض للنوائب، التدبير قبل العمل يؤمنك الندم، من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ، الصبر جنّة من الفاقة، البخل جلباب المسكنة، الحرص علامة الفقر، وَصُولٌ مُعْدِمٍ خير من جافٍّ مُكثر، لكلٍّ شيء قوت وابن آدم قوت الموت.

أي بني! لا تؤيس مذنباً، فكم من عاكف علىٰ ذنبه خُتِمَ له بخير، وكم من مُقبل علىٰ عمله مفسد في آخر عمره، صائر إلى النار نعوذ بالله منها.

أي بني! [كم من عاص نجا، و] كم من عامل هوىٰ، من تحرّىٰ الصدق خفّت عليه المؤن، في خلاف النفس رشدها، الساعات تنتقص الأعمار، ويلٌ للباغين من أحكم الحاكمين، وعالم ضمير المضمرين.

يا بني! بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد، في كلّ جرعة شرق، وفي كلّ أكلة غصص، لن تنال نعمة إلّا بفراق أُخرىٰ، ما أقرب الراحة من النصب، والبؤس من النعيم، والموت من الحياة، والسقم من الصحّة. فطوبىٰ لمن أخلص لله عمله وعلمه، وحبّه وبغضه، وأخذه وتركه، وكلامه وصمّته، وفعله وقوله، وبخٍ بخٍ لعالم عمل فجدَّ، وخاف البيات فأعدّ واستعدّ، إن سُئل نصح، وإن تُرك صمت، كلامه

صواب، وسكوته من غير عيّ جواب، والويل لمن بلي بحرمان وخذلان وعصيان، فاستحسن لنفسه ما يكرهه من غيره، وأزرىٰ على الناس بمثل ما يأتي.

واعلم أي بني! إنّه من لانت كلمته وجبت محبّته. وفّقك الله لرشده، وجعلك من أهل طاعته بقدرته، إنّه جواد كريم(١).

فصل: في وصايا الإمام جعفر الصادق عليه السلام

١ ـ وصيّته عليه السلام لعبد الله بن جندب:

جاء في البحار أنّ الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام أوصىٰ عبد الله بن جندب، فقال له: يا عبد الله لقد نصب إبليس ـ لعنه الله ـ حبائله في دار الغرور، فما يقصد فيها إلّا أولياءنا.

يا ابن جندب! حقّ علىٰ كلّ مسلم يعرفنا، أن يعرض عمله في كلّ يوم وليلة علىٰ نفسه، فيكون محاسباً نفسه، فإن رأىٰ حسنة استزاد منها، وإن رأىٰ سيّئة استغفر منها، لئلّا يخزىٰ يوم القيامة.

يا ابن جندب! إنّ للشيطان مصائداً وشباكاً يصطاد بها فتحام عنها، أمّا مصائده فصدّ عن برّ الإخوان، وأمّا شباكه فنوم عن الصلاة التي فرضها الله، أما أنّه ما يُعبد الله بمثل نقل الأقدام إلىٰ برّ الاخوان.

يا ابن جندب! الماشي في حاجة أخيه كالساعي بين الصفا والمروة، وقاضي حاجته كالمتشحّط بدمه في سبيل الله يوم بدر وأُحد.

يا ابن جندب! بلّغ معاشر شيعتنا، وقل لهم: لا تذهبنّ بكم المذاهب، فوالله لا تُنال ولايتنا إلّا بالورع والاجتهاد في الدنيا، ومواساة الاخوان في الله، وليس من شيعتنا من يظلم الناس.

يا ابن جندب! لو أنّ شيعتنا استقاموا لصافحتهم الملائكة، ولأظلّهم الغمام،

---

(١) تحف العقول: ٥٨؛ عنه البحار ٧٧: ٢٣٦ ح ١.

ولأشرقوا نهاراً، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولما سألوا الله شيئاً إلّا أعطاهم.

يا ابن جندب! طوبىٰ لعبدٍ لم يغبط الخاطئين علىٰ ما أُوتوا من نعيم الدنيا وزهرتها، وطوبىٰ لعبدٍ طلب الآخرة وسعىٰ لها، طوبىٰ لمن لم تلهه الأماني الكاذبة. ثمّ قال ﷺ: رحم الله قوماً كانوا سراجاً ومناراً، كانوا دعاةً إلينا بأعمالهم ومجهود طاقتهم، ليس كمن يذيع أسرارنا.

يا ابن جندب! إنما المؤمنون الذين يخافون الله، ويشفقون أن يُسلَبوا ما أُعطوا من الهدىٰ، فإذا ذكروا الله ونعماءه وجلوا وأشفقوا، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ممّا أظهره تعالى من نفاذ قدرته، وعلىٰ ربّهم يتوكّلون.

يا ابن جندب! كلّ الذنوب مغفورة سوىٰ عقوق أهل دعوتك، وكلّ البرّ مقبول إلّا ما كان رياءً.

يا ابن جندب! أحبب في الله وأبغض في الله، واستمسك بالعروة الوثقىٰ، واعتصم بالهدىٰ يقبل عملك، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه : ٨٢] فلا يقبل منه إلّا بالايمان، ولا إيمان إلّا بعمل، ولا عمل إلّا بيقين، ولا يقين إلّا بالخشوع، وملاكها كلّها الهدىٰ، فمن اهتدىٰ يقبل عمله، وصعد إلى الملكوت متقبلاً، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراطٍ مستقيم.

يا ابن جندب! إنّ عيسى بن مريم ﷺ قال لأصحابه: أرأيتم لو أنّ أحدكم مرّ بأخيه فرأىٰ ثوبه قد انكشف عن بعض عورته أكان كاشفاً عنه كلّها أم يردّ عليها ما انكشف منها، قالوا: بل نردّ عليها، قال: كلّا بل تكشفون عنها كلّها، فعرفوا أنّه مثل ضربه لهم، فقيل له: يا روح الله وكيف ذلك؟

قال: الرجل منكم يطلع على العورة من أخيه فلا يسترها، بحقّ أقول لكم إنّكم لا تصيبون ما تريدون إلّا بترك ما تشتهون، ولا تنالون ما تأملون إلّا بالصبر علىٰ ما تكرهون، إيّاكم والنظرة، فإنّها تزرع في القلب الشهوة، وكفىٰ بها لصاحبها

فتنة، طوبىٰ لمن جعل بصره في قلبه، ولم يجعل بصره في عينه، ولا تنظروا في عيوب الناس كالأرباب، وانظروا في عيوبكم كهيئة العبيد، إنّما الناس رجلان مبتلىٰ ومعافىٰ، فارحموا المبتلىٰ، واحمدوا الله على العافية.

يا ابن جندب! لا تتصدّق علىٰ أعين الناس ليزكّوك، فإنّك إن فعلت ذلك فقد استوفيت أجرك، ولكن إذا أعطيت بيمينك فلا تطلع عليها شمالك، فإنّ الذي تتصدّق له سرّاً يجزيك علانية علىٰ رؤوس الأشهاد، في اليوم الذي لا يضرّك أن لا يطلع الناس علىٰ صدقتك.

فاخفض الصوت إنّ ربك الذي يعلم ما تسرّون وما تعلنون، قد علم ما تريدون قبل أن تسألوه، وإذا صمت فلا تغتب أحداً، ولا تُلبسوا صيامكم بظلم، ولا تكن كالذي يصوم رئاء الناس، مُغبّرة وجوههم، شعثة رؤوسهم، يابسة أفواههم، لكي يعلم الناس أنّهم صيام.

يا ابن جندب! من حرم نفسه كسبه فإنّما يجمع لغيره، ومن أطاع هواه فقد أطاع عدوّه، ومن يثق بالله يكفه ما أهمّه من أمر دنياه وآخرته، ويحفظ له ما غاب عنه.

يا ابن جندب! أعدّ لكلّ بلاء صبراً، ولكلّ نعمة شكراً، ولكلّ عسر يسراً، صبّر نفسك عند كلّ بليّة في نفس أو مال أو ذرّيّة، فإنّما يقبض عاريته، ويأخذ هبته، ليبلو فيهما شكرك وصبرك، وارج الله رجاءً لا يُجرّؤك علىٰ معصيته، وخفه خوفاً لا يُؤيسك من رحمته، ولا تغترّ بقول الجاهل ولا بمدحه، فتكبّر وتجبّر وتعجب بعملك، فإنّ أفضل العمل العبادة والتواضع.

ولا تضيّع مالك وتصلح مال غيرك ما خلفته وراء ظهرك، واقنع بما قسم الله لك، ولا تتمنّ ما لست تناله، فإنّ من قنع شبع، ومن لم يقنع لم يشبع، وخذ حظّك من آخرتك، ولا تكن بطراً في الغنىٰ، ولا جزعاً في الفقر، ولا تكن فظاً غليظاً يكره الناس قربك، ولا تكن واهناً يحقرك من عرفك، ولا تشار من فوقك، ولا تسخر

بمن هو دونك، ولا تنازع الأمر أهله، ولا تطع السفهاء، وقف عند كلّ أمرٍ حتّىٰ تعرف مدخله من مخرجه قبل أن تقع فيه فتندم.

يا ابن جندب! صل من قطعك، واعط من حرمك، وأحسن إلىٰ من أساء إليك، وسلّم علىٰ من سبّك، وأنصف من خاصمك، واعفُ عمّن ظلمك، وإذا رأيت مبتلاً فاحمد الله على العافية، فإنّما الناس مبتلاً ومعافاً، واجمع رحمتك لغريب تأويه، ويتيم تبسم في وجهه وتغذّيه، وأسير تحلّ وثاقه وترضيه[(١)].

٢ ـ وصيّته ﷺ لعنوان البصري:

حدّث الشيخ المجلسي ﷺ في المجلّد الأول من بحاره، عن عنوان البصري، وكان شيخاً كبيراً، قد أتىٰ عليه أربع وتسعون سنة، قال: كنت أختلف إلىٰ مالك بن أنس سنين، فلما قدم جعفر الصادق ﷺ المدينة اختلفت إليه وأحببت أن آخذ عنه كما أخذت عن مالك، فقال لي يوماً: إنّي رجل مطلوب، ولي مع ذلك أوراد في كلّ ساعة من آناء الليل والنهار، فلا تشغلني عن وردي وخُذ عن مالك واختلف إليه، كما كنت تختلف إليه.

فاغتممت من ذلك، وخرجت من عنده وقلت في نفسي: لو تفرّس فيّ خيراً لما زجرني عن الاختلاف إليه والأخذ عنه، فدخلت مسجد الرسول ﷺ وسلّمت عليه، ثمّ رجعت من الغد إلى الروضة، وصلّيت فيها ركعتين، وقلت: أسألك يا الله يا الله، أن تعطف عليّ قلب جعفر، وترزقني من علمه ما أهتدي به إلىٰ صراطك المستقيم، ورجعت إلىٰ داري مغتمّاً، ولم أختلف إلىٰ مالك بن أنس، لما أُشربَ قلبي من حبّ جعفر، فما خرجت من داري إلّا إلى الصلاة المكتوبة، حتّىٰ عيل صبري.

فلمّا ضاق صدري تنعّلت وتردّيت وقصدت جعفراً، وكان بعدما صلّيت العصر، فلما حضرت باب داره استأذنت عليه، فخرج خادم له، فقال: حاجتك؟

---

(١) تحف العقول: ٢٢١؛ عنه البحار ٧٨: ٢٧٩ ح ١.

فقلت: السلام على الشريف، قال: هو قائم في مصلّاه، فجلست بحذاء بابه، فما لبثت إلّا يسيراً إذ خرج الخادم فقال: أُدخل علىٰ بركة الله. فدخلت وسلّمت عليه، فردّ السلام وقال: أجلس غفر الله لك، فجلست. فأطرق مليّاً، ثمّ رفع رأسه وقال: أبو مَن؟ قلت: أبو عبد الله، قال: ثبّت الله كنيتك ووفّقك.

يا أبا عبد الله ما مسألتك؟ فقلت في نفسي: لو لم يكن لي من زيارته والتسليم عليه غير هذا الدعاء لكان كثيراً، ثمّ رفع رأسه وقال: ما مسألتك؟ فقلت: سألت الله أن يعطف قلبك عليّ، ويرزقني من علمك، وأرجو أنّ الله تعالى أجابني في الشريف ما سألته.

فقال: يا عبد الله ليس العلم بالتعلّم، إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه، فإن أردت العلم، فاطلب أوّلاً في نفسك حقيقة العبوديّة، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك.

قلت: يا شريف، فقال: قل يا أبا عبد الله، فقلت: يا أبا عبد الله ما حقيقة العبوديّة؟ قال: ثلاثة أشياء؛ أن لا يرىٰ العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً، لأنّ العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال الله، يضعونه حيث أمرهم الله به، ولا يدبّر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله فيما أمره الله تعالى به ونهاه عنه.

فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً هان عليه الانفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق فيه.

وإذا فوّض العبد تدبير نفسه علىٰ مدبّره هانت عليه مصائب الدنيا.

واذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرّغ منهما إلى المراء والمباهات مع الناس.

فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة، هانت عليه الدنيا، وإبليس، والخلق، ولا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً، ولا يطلب ما عند الناس عزّاً وعلوّاً ولا يدع أيّامه باطلاً، فهذا أوّل درجة التقوىٰ، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا

﴿يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٨٣].

قلت: يا أبا عبد الله أوصني، قال: أوصيك بتسعة أشياء، فإنها وصيّتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى، والله أسأل أن يوفقك لاستعمالها.

ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم، فاحفظها، وإياك والتهاون بها. قال عنوان: ففرّغت قلبي له، فقال:

أمّا اللواتي في الرياضة: فإيّاك أن تأكل ما لا تشتهيه، فإنّه يورث الحماقة والبله، ولا تأكل إلّا عند الجوع، واذا أكلت فكُل حلالاً، وسمّ الله، واذكر حديث الرسول ﷺ: ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه، فإن كان ولابدّ فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه.

وأمّا اللواتي في الحلم: فمن قال لك إن قلت واحدة سمعت عشراً، فقل له: إن قلت عشراً لم تسمع واحدة، ومن شتمك فقل له: إن كنت صادقاً فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذباً فيما تقول فالله أسأل أن يغفر لك، ومن وعدك بالخنا، فعده بالنصيحة والدعاء.

وأمّا اللواتي في العلم: فاسأل العلماء ما جهلت، وإيّاك أن تسألهم تعنّتاً وتجربةً، وإيّاك أن تعمل برأيك شيئاً، وخُذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلاً، واهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً.

قُم عنّي يا أبا عبد الله فقد نصحت لك، ولا تفسد عليّ وردي فإنّي إمروٌ ضنين بنفسي، والسّلام على من اتّبع الهدىٰ(١).

فصل: في وصية الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام

١ ـ وصيته لهشام بن الحكم رضي الله عنه:

حدّث هشام بن الحكم رضي الله عنه قال: قال لي أبو الحسن موسىٰ بن جعفر عليهما السلام:

---

(١) مشكاة الأنوار: ٣٢٥ والبحار ١: ٢٢٤ ح ١٧.

يا هشام! إنّ الله تبارك وتعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ • الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨].

يا هشام! إنّ الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول، ونصر النبيين بالبيان، ودلّهم على ربوبيّته بالأدلّة، فقال: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

يا هشام! قد جعل الله ذلك دليلاً على معرفته، بأنّ لهم مدبّراً، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [مضمون الآية].

وقال: ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧].

وقال: ﴿جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

وقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

يا هشام! ثمّ وعّظ أهل العقل، ورغّبهم في الآخرة فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

يا هشام! ثمّ خوّف الذين لا يعقلون عقابه فقال: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ • وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ • وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٦ ـ ١٣٨].

وقال: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ • وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥-٣٤].

يا هشام! إنّ العقل مع العلم، فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

يا هشام! ثمّ ذمّ الذين لا يعقلون، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢].

وقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقال: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

وقال: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

يا هشام! ثمّ ذمّ الله الكثرة فقال: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

يا هشام! ثمّ مدح الله القلّة فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] وقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾ [غافر: ٢٨] وقال: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] وقال: ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] وقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣] وقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [مضمون الآية].

يا هشام! ثمّ ذكر أولي الألباب بأحسن الذكر وحلّاهم بأحسن الحلية، فقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقال: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا

الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد : ١٩].

وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر : ٩].

وقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص : ٢٩].

وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ● هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر : ٥٣ ـ ٥٤].

يا هشام! إنّ الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق : ٣٧] يعني عقل، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان : ١٢] قال: الفهم والعقل.

يا هشام! إنّ لقمان قال لابنه: تواضع للحقّ تكن أعقل الناس، وإنّ الكيّس لدى الحقّ يسير، يا بني إنّ الدنيا بحر عميق، قد غرق فيه عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الايمان، وشراعها التوكّل، وقيّمها العقل، ودليلها العلم، وسكّانها الصبر.

يا هشام! إنّ لكلّ شيءٍ دليلاً، ودليل العقل التفكّر، ودليل التفكّر الصمت، ولكلّ شيءٍ مطيّة، ومطيّة العقل التواضع، وكفىٰ بك جهلاً أن تركب ما نهيت عنه.

يا هشام! ما بعث الله أنبياءه ورسله إلىٰ عباده إلّا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابةً أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجةً في الدنيا والآخرة.

يا هشام! إنّ لله على الناس حجّتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأمّا الظاهرة: فالرسل والأنبياء والأئمة، وأمّا الباطنة: فالعقل.

يا هشام! إنّ العاقل الذي لا يشغل الحلال شكره، ولا يغلب الحرام صبره.

يا هشام! من سلّط ثلاثاً علىٰ ثلاث فكأنّما أعان علىٰ هدم عقله: من أظلم نور

تفكّره بطول أمله، ومحىٰ طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عِبرته بشهوات نفسه، فكأنّما أعان هواه علىٰ هدم عقله، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه.

يا هشام! كيف يزكو عند الله عملك، وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك، وأطعت هواك علىٰ غلبة عقلك.

يا هشام! الصبر على الوحدة علامة قوّة العقل، فمن عقل عن الله اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها، ورغب فيما عند الله، وكان الله أُنسه في الوحشة، وصاحبه في الوحدة، وغناه في العيلة، ومعزّه من غير عشيرة.

يا هشام! نصب الحقّ لطاعة الله، ولا نجاة إلّا بالطاعة، والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلّم، والتعلّم بالعقل.

يا هشام! قليل العمل من العالم مقبول مضاعف، وكثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود.

يا هشام! إنّ العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة، ولم يرض بالدون من الحكمة مع الدنيا، فلذلك ربحت تجارتهم.

يا هشام! إنّ العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف الذنوب، وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض.

يا هشام! إنّ العاقل نظر إلى الدنيا وإلىٰ أهلها، فعلم أنّها لا تنال إلّا بالمشقّة، ونظر إلى الآخرة فعلم أنّها لا تنال إلّا بالمشقّة، فطلب بالمشقة أبقاهما.

يا هشام! إنّ العقلاء زهدوا في الدنيا، ورغبوا في الآخرة؛ لأنّهم علموا أنّ الدنيا طالبة مطلوبة، والآخرة طالبة ومطلوبة، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتّىٰ يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة، فيأتيه الموت فيفسد عليه دنياه وآخرته.

يا هشام! من أراد الغنىٰ بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين، فليتضرّع إلى الله تعالى في مسألته بأن يكمل عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه،

ومن قنع بما يكفيه استغنىٰ، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنىٰ أبداً.

يا هشام! إنّ الله حكىٰ عن قوم صالحين، أنّهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] حين علموا أنّ القلوب تزيغ وتعود إلىٰ عملها ورداها، إنّه لم يخف الله من لم يعقل عن الله، ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه علىٰ معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه، ولا يكون أحد كذلك إلّا من كان قوله لفعله مصدّقاً، وستره لعلانيته موافقاً؛ لأنّ الله تبارك اسمه لم يدلّ على الباطن الخفيّ من العقل إلّا بظاهر منه وناطق عنه.

يا هشام! كان أمير المؤمنين ﷺ يقول: ما عُبد الله بشيءٍ أفضل من العقل، وما تمّ عقل امرئ حتّىٰ تكون فيه خصال شتّىٰ: الكفر والشرّ منه مأمونان، والرشد والخير منه مأمولان، وفضل ماله مبذول، وفضل قوله مكفوف، ونصيبه من الدنيا القوت، لا يشبع من العلم دهره، الذلّ أحبّ إليه مع الله من العزّ مع غيره، والتواضع أحبّ إليه من الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقلّ كثير المعروف من نفسه، ويرىٰ الناس كلّهم خيراً منه وإنّه شرّهم في نفسه، وهو تمام الأمر.

يا هشام! لا دين لمن لا مروّة له، ولا مروّة لمن لا عقل له، وإنّ أعظم الناس قدراً الذي لا يرى الدنيا لنفسه خطراً، أما إنّ أبدانكم ليس لها ثمن إلّا الجنّة، فلا تبيعوها بغيرها.

يا هشام! إنّ أمير المؤمنين ﷺ كان يقول: إنّ من علامة العاقل أن يكون فيه ثلاث خصال: يجيب إذا سُئل، وينطق إذا عجز القوم عن الكلام، ويشير بالرأي الذي يكون فيه صلاح أهله، فمن لم يكن فيه من هذه الخصال الثلاث شيء فهو أحمق. إنّ أمير المؤمنين ﷺ قال: لا يجلس في صدر المجلس إلّا رجل فيه هذه الخصال الثلاث أو واحدة منهنّ، فمن لم يكن فيه شيء منهنّ فجلس فهو أحمق.

يا هشام! إنّ العاقل لا يحدّث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يعد ما لا يقدر عليه، ولا يرجو ما يعنف برجائه، ولا يتقدّم علىٰ ما يخاف العجز

عنه[1].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يوصي أصحابه يقول: أوصيكم بالخشية من الله في السرّ والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والاكتساب في الفقر والغنىٰ، وأن تصلوا من قطعكم، وتعفوا عمّن ظلمكم، وتعطفوا علىٰ من حرمكم، وليكن نظركم عبراً، وصمتكم فكراً، وقولكم ذكراً، وطبيعتكم السخاء، فإنّه لا يدخل الجنّة بخيل، ولا يدخل النار سخي.

يا هشام! رحم الله من استحيا من الله حقّ الحياء، فحفظ الرأس وما حوىٰ، والبطن وما وعىٰ، وذكر الموت والبلىٰ، وعلم أنّ الجنّة محفوفة بالمكاره، والنّار محفوفة بالشهوات.

يا هشام! من كفّ نفسه عن أعراض الناس كفّ الله عنه عثرته يوم القيامة، ومن كفّ غضبه عن الناس كفّ الله عنه غضبه يوم القيامة.

يا هشام! وجد في ذؤابة سيف رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ أعتى الناس على الله من ضرب غير ضاربه، وقتل غير قاتله، ومن تولّى غير مواليه فهو كافر بما أنزل الله علىٰ نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله، ومن أحدث حدثاً أو آوىٰ محدثاً لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً.

يا هشام! أفضل ما يتقرّب به العبد إلى الله بعد المعرفة به الصلاة، وبرّ الوالدين، وترك الحسد والعجب والفخر.

يا هشام! إنّ كلّ الناس يبصر النجوم، ولكن لا يهتدي بها إلّا من يعرف مجاريها ومنازلها، وكذلك أنتم تدرسون الحكمة ولكن لا يهتدي بها منكم إلّا من عمل بها.

يا هشام! مكتوب في الانجيل: طوبىٰ للمتراحمين، أولئك هم المرحومون يوم القيامة، طوبىٰ للمصلحين بين الناس، أولئك هم المقرّبون يوم القيامة، طوبىٰ

---

(١) الكافي ١: ١٣ ح ١٢ كتاب العقل والجهل.

للمطهّرة قلوبهم، أولئك المتّقون يوم القيامة، طوبىٰ للمتواضعين في الدنيا أولئك يرتقون منابر الملك يوم القيامة.

يا هشام! قلّة المنطق حكم عظيم فعليكم بالصمت فإنه دعة حسنة، وقلّة وزر، وخفّة من الذنوب، فحصّنوا باب الحلم، فإنّ بابه الصبر، وإنّ الله عزّ وجلّ يبغض الضحاك من غير عجب، والمشّاء إلىٰ غير أرب[1]، ويجب على الوالي أن يكون كالراعي لا يغفل عن رعيّته، ولا يتكبّر عليهم، فاستحيوا من الله في سرائركم، كما تستحيون من الناس في علانيتكم، واعلموا أنّ الكلمة من الحكمة ضالّة المؤمن، فعليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه غيبة عالمكم بين أظهركم.

يا هشام! تعلّم من العلم ما جهلت، وعلّم الجاهل ممّا علمت، عظّم العالم لعلمه ودع منازعته، وصغّر الجاهل لجهله ولا تطرده، ولكن قرّبه وعلّمه.

يا هشام! إنّ كلّ نعمة عجزت عن شكرها بمنزلة سيّئة تؤاخذ بها، وقال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: إنّ لله عباداً كسرت قلوبهم خشيته فأسكتتهم عن المنطق، وإنهم لفصحاء عقلاء يستبقون إلى الله بالأعمال الزكيّة، لا يستكثرون له الكثير، ولا يرضون لهم من أنفسهم بالقليل، يرون في أنفسهم أنّهم أشرار، وأنّهم لأكياس وأبرار.

يا هشام! الحياء من الايمان، والايمان في الجنّة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار.

يا هشام! المتكلّمون ثلاثة: فرابح، وسالم، وشاجب، فأمّا الرابح فالذاكر لله، وأمّا السالم فالساكت، وأمّا الشاجب فالذي يخوض في الباطل، إنّ الله حرّم الجنّة علىٰ كلّ فاحش، بذيء، قليل الحياء، لا يبالي ما قال ولا ما قيل فيه. وكان أبوذر ﵁ يقول: يا مبتغي العلم إنّ هذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شرٍّ، فاختم علىٰ فيك كما تختم علىٰ ذهبك وورقك.

---

(١) الأرب ـ بفتحتين ـ: الحاجة.

يا هشام! بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطري أخاه إذا شاهده، ويأكله إذا غاب عنه، إن أُعطي حسده، وإن ابتُلي خذله، إنّ أسرع الخير ثواباً البرّ، وأسرع الشرّ عقوبة البغي، وإنّ شرّ عباد الله من تكره مجالسته لفحشه، وهل يكبّ الناس علىٰ مناخرهم في النار إلّا حصائد ألسنتهم، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

يا هشام! عليك بالرفق، فإنّ الرفق يمن، والخرق شؤم، إنّ الرفق والبرّ وحسن الخلق يعمر الديار، ويزيد في الرزق.

يا هشام! إنّ مثل الدنيا مثل الحيّة، مسّها لين وفي جوفها السمّ القاتل، يحذرها الرجال ذووا العقول، ويهوي إليها الصبيان بأيديهم.

يا هشام! اصبر علىٰ طاعة الله، واصبر عن معاصي الله، فإنّما الدنيا ساعة، فما مضىٰ منها فليس تجد له سروراً ولا حزناً، وما يأت منها فليس تعرفه، فاصبر علىٰ تلك الساعة التي أنت فيها فكأنّك قد اغتبطت.

يا هشام! مثل الدنيا مثل ماء البحر كلّما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتّىٰ يقتله.

يا هشام! إيّاك والكبر، فإنّه لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّة من كبر، الكبر رداء الله، فمن نازعه رداءه أكبّه الله في النار علىٰ وجهه.

يا هشام! إنّ ضوء الجسد في عينه، فإنْ كان البصر مضيئاً استضاء الجسد كلّه، وإنّ ضوء الروح العقل، فإذا كان العبد عاقلاً كان عالماً بربّه، وإذا كان عالماً بربّه أبصر دينه، وإن كان جاهلاً بربّه لم يقم له دين، وكما لا يقوم الجسد إلّا بالنفس الحيّة، فكذلك لا يقوم الدين إلّا بالنيّة الصادقة، ولا تثبت النيّة الصادقة إلّا بالعقل.

يا هشام! إنّ الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع، ولا تعمر في قلب المتكبّر الجبّار؛ لأنّ الله جعل التواضع آلة العقل، وجعل التكبّر من آلة الجهل، ألم تعلم أنّ من شمخ إلى السقف برأسه شجّه، ومن

خفض رأسه استظلّ تحته وأكنّه، وكذلك من لم يتواضع لله خفضه الله، ومن تواضع لله رفعه.

يا هشام! ما أقبح الفقر بعد الغنىٰ، وأقبح الخطيئة بعد النسك، وأقبح من ذلك العابد لله ثمّ يترك عبادته.

يا هشام! لا خير في العيش إلّا لرجلين: لمستمع واع، وعالم ناطق.

يا هشام! ما قسم بين العباد أفضل من العقل، نوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وما بعث الله نبيّاً إلّا عاقلاً، حتى يكون عقله أفضل من جميع جهد المجتهدين، وما أدّى العبد فريضة من فرائض الله حتّىٰ عقل عنه.

يا هشام! قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم المؤمن صموتاً فادنوا منه فإنّه يلقي الحكمة، والمؤمن قليل الكلام كثير العمل، والمنافق كثير الكلام قليل العمل.

يا هشام! من تعظّم في نفسه لعنته ملائكة السماء وملائكة الأرض، ومن تكبّر علىٰ إخوانه، واستطال عليهم فقد ضادّ الله، ومن ادّعىٰ ما ليس له فهو لغير رشده.

يا هشام! مجالسة أهل الدين شرف الدنيا والآخرة، ومشاورة العاقل الناصح يُمن وبركة ورشد وتوفيق من الله، فإذا أشار عليك العاقل الناصح فإيّاك والخلاف فإنّ في ذلك العطب.

يا هشام! إحذر هذه الدنيا، واحذر أهلها، فإنّ الناس فيها علىٰ أربعة أصناف: رجل متردّي معانق لهواه، ومتعلّم مقري كلّما ازداد كبراً يستعلي بقراءته وعلمه علىٰ من هو دونه، وعابد جاهل يستصغر من هو دونه في عبادته، يحبّ أن يعظّم ويوقّر، وذي بصيرة عالم عارف بطريق الحقّ يحبّ القيام به، فهو عاجز أو مغلوب ولا يقدر على القيام بما يعرفه، فهو محزون مغموم بذلك، فهو أمثل أهل زمانه وأوجههم عقلاً[1].

* * *

(١) تحف العقول: ٢٩١؛ عنه البحار ٧٨: ٣٠٤ ضمن ح ١.

هذه ملتقطات من وصايا أهل بيت الرحمة، ومعدن الرسالة، ومهبط الوحي، أوردناها في هذا الفصل، لما فيها من جلاء القلوب، وشفاء النفوس، وصقل العقول، وما يحصل فيها من خصب في الذهن، ونشاط في الفكر، وفيها الكفاية والاستغناء عن غيرها؛ حيث يجد الطالب فيها أُنشودته، ويحصل علىٰ غايته.

وإنّما أردفناها ببعض وصايا الملوك والحكماء، ليظهر الفارق بين ما هي مستقاة من منبع الوحي، وملتقطة من بحر الحكمة الإلهية، وبين ما هي ولائد الرويّة، والتفكير البشري، وهما يصيبان طوراً ويخطئان تارةً، وعند الاصابة قد يعدوهما الغرض، وإليك نموذجاً مما أوردوه.

فصل: في وصايا الملوك والحكماء

١ ـ وصيّة لقمان الحكيم لولده:[١]

إنّ الشيخ المفيد ﷺ يحدّثنا في كتابه «الاختصاص» من أنّ لقمان أوصىٰ إبنه قال:

يا بني! إنّ الدنيا بحر عميق، ومن ركب البحر من غير سفينة غرق، فاتخذ سفينة من الايمان، حشوها تقوىٰ الله، وشراعها التوكل، وسكّانها الصبر، ومجاديفها[٢] الصوم والصلاة والزكاة، ثم اركبها تنجو، واني لخائف أن لا تنجو.

يا بني! أقلّ الكلام، واذكر الله في كلّ مقام، فإنّه قد حذّرك وأنذرك، وعلّمك وبصّرك، واتّعظ بالصغيرة قبل أن تنزل بك الكبيرة، واملك نفسك إذا رأيت غضباً، لئلّا تكون لجهنّم حطباً.

يا بني! لا تأمن من الدنيا والذنوب والشيطان، فقد افتتن بها الصالحون الأوّلون، فكيف ينجو الآخرون، واجعل الدنيا سجنك، تكن الآخرة جنّتك.

يا بني! لن تكلّف أن تحمل الجبال، ولن تكلّف ما لا تطيق، فلا تحمل البلاء علىٰ

(١) قد سبق لنا بحث عن لقمان في الجزء الثاني من كتابنا «الجواهر الروحية» (المؤلف).

(٢) مَجداف السفينة: في رأسها لوح عريض تُدفع بها، مشتق من جَدَف الطائر.

كتفك، ولا تذبح نفسك بيدك.

يا بني! الجار ثمّ الدار، والرفيق ثمّ الطريق، والوحدة خير من صاحب السوء، والصاحب الصالح خير من الوحدة، ونقل الحجارة خير من صاحب السوء، فإنّي نقلت الحجارة والحديد فلم أجد شيئاً أثقل من قرين السوء.

يا بني! من يصحب قرين السوء لا يتقدّم، ومن دخل مداخل السوء يتّهم، ومن لا يكفّ لسانه يندم.

يا بني! إيّاك ومصاحبة الأشرار فإنّهم كالكلاب، إن وجدوا عندك شيئاً أكلوه وإلّا فضحوك فإنّما حبّهم بينهم ساعة، واستكثر من الأصدقاء ولا تأمن من الأعداء، فإنّ الغلّ في صدورهم كامن كمون النار تحت الرماد، ولا تكن حلواً فتأكل، ولا مرّاً فتلفظ.

يا بني! كافي المحسن بإحسانه، والمسيء تكفيه إساءته.

يا بني! من ذا الذي عبد الله فخذله، ومن ذا الذي قصد الله فلم يجده، ومن ذا الذي ذكر الله فلم يذكره، ومن ذا الذي توكّل على الله فوكّله إلىٰ غيره، ومن ذا الذي تضرّع إلى الله فلم يرحمه.

يا بني! أقم الصلاة، وأْمُرْ بالمعروف، وانهىٰ عن المنكر، واصبر علىٰ ما أصابك إنّ ذلك من عزم الأمور.

يا بني! لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلمٌ عظيم.

يا بني! تعلّم الحكمة تشرّف بها، فإنّ الحكمة تدلّ على الدين، وتشرّف العبد على الحرّ، وترفع المسكين على الغني، وتقدّم الصغير على الكبير، وتجلس المسكين مجالس الملوك، وتزيد الشرف شرفاً، والسيد سؤدداً، والغني مجداً، وكيف يظنّ ابن آدم أن يتهيّأ له أمر دينه ومعيشته بغير حكمة، ولن يهيّن الله عزّ وجلّ أمر الدنيا والآخرة إلّا بالحكمة، ومثل الحكمة بغير طاعة مثل الجسد بغير نفس، ومثل الصعيد بغير ماء، ولا صلاح للجسد بغير نفس، ولا للصعيد بغير ماء، ولا للحكمة

بغير طاعة.

يا بني! لا تمش في الأرض مرحاً، إنّك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً.

يا بني! لا تسخر بالمبتلىٰ، وادعو الله له بالعافية لئلّا تبتلي فيسخر بك، وإن أخطأت خطيئة فابعث في أثرها صدقة لتطفئ نارها، وإن دعتك قدرتك إلىٰ ظلم أحد من الناس فاذكر قدرة الله عليك وازدجر.

يا بني! أكرم الكبير ووقّره فإنّ إهانته من سخط الله، وربّما كبرت فتبتلى بالإهانة، وكما تدين تُدان.

يا بني! وتعطّف على الأرامل والأيتام، يتعطّف عليك الله من فوق ذلك.

يا بني! وكن للطفل الصغير راحماً، وعليه حانياً، فإنّ الله تعالى أرحم ما يكون له ولمن رحمه، عطف عليه أُمّه، فتركت له نومها وراحتها، وعطف عليه أبوه، فوجد به سروره وإيناسه، وعطف عليه الناس، فمن رأىٰ ضحكه عجب وتبسّم، ومن رأىٰ بكاءه رقّ وتألّم، وما عليك أن لا يكون ابن مسلم فإنّ الطفل الصغير لا ذنب له[1].

٢ ـ وصيّة أردشير لابنه:

يحدّث العتبي عن بعض علماء الفرس: أنّ أردشير قال لابنه:

يا بنيّ! إنّ الملك والدين أخوان، ولا غنىٰ بأحدهما عن صاحبه، ولا قوام له إلّا به، الدين أُسّ، والملك حارس، فما لم يكن له أُسّ فهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع.

يا بني! إجعل مرتبتك مع أهل المراتب، وعطيّتك لأهل الجهاد، وبشرك لأهل الدين، وسرّك لمن يعنيه ما عناك من أهل العقل[2].

* * *

(١) الاختصاص: ٣٣٦ ملخصاً.

(٢) العقد الفريد ١: ٢٣.

وأوصىٰ رجل إبنه فقال: إنّ وصيّتي مع وصيّة الله عزّ وجلّ لهجنة، وإنّ في التذكرة ليقظة، وعود الخير محمود، وأنا أسترعي لك بعد وفاتي الذي أحسن إليك في حياتي، تحرّ في كلّ أمرك طاعة الله تنجك وإياك والأُخرىٰ فتردك، وابذل لجلّة الناس إكرامك تنصرف إليك أبصارهم، وابذل لسائرهم بشرك يطب ذكرك في أفواههم، وأصلح بكلّ الآداب لسانك، واستعمل في إصلاحها بدنك، فإنّ الأدب أوّل مدلول به علىٰ عقلك.

٣ ـ وصيّة عبد الله بن شداد:

لما حضرت عبد الله بن شداد الوفاة، دعا إبنه محمّداً، فقال له:

يا بني! أرىٰ داعي الموت لا يقلع، ومن مضىٰ منّا لا يرجع، ومن بقي فإليه ينزع، وليس أحد عليه بممتنع، وإنّي أوصيك يا بني بوصيّة فاحفظها: عليك بتقوى الله العظيم، وليكن أولى الأمور بك الشكر لله، وحسن النيّة في السرّ والعلانية، واعلم بأنّ الشاكر مزاد، والتقوى خير زاد، وكُن يا بني كما قال الحطيئة:

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد
وما لابدّ أن يأتي قريب ... ولكن الذي يمضي بعيد

يا بني! لا تزهدنّ في معروف، فإنّ الدهر ذو صروف، والأيّام ذات نوائب على الشاهد والغائب، فكم من راغب كان مرغوباً إليه، وطالب قد أصبح مطلوباً ما لديه. واعلم بأنّ الزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان يرى الهوان، وكن كما قال أخو بني الدئل:

وعدِّد من الرحمن فضلاً ونعمةً ... عليك إذا ما جاء للخير طالب
وإنّ امرءً لا يُرتجىٰ الخير عنده ... يكن هيّناً ثقلاً علىٰ من يصاحب
فلا تمنعنّ ذا حاجة جاء طالباً ... فإنّك لا تدري متىٰ أنت راغب

رأيت تصاريف الزمان بأهله ... وبينهم فيه تكون النوائب

يا بني! كن جواداً بالمال في موضع الحق، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق، فإنّ أحمد جود الحر الانفاق في وجوه البر، وإنّ أحمد بُخل الحرّ الضنّ بمكتوم السرّ، وكن يا بني كما قال قيس بن الخطيم:

أجود بمضنون التلاد وإنني ... بسرّك عمّن سالني لضنين
إذا جاوز الاثنين سرّ فإنّه ... بنثٍّ[1] وتكسير الحديث قمين
وإن ضَيَّع الاخوان سرّاً فإنّني ... كتوم لأسرار العشير أمين
وعندي له يوماً إذا ما ائتمنته ... مكان بسوداء الفؤاد مكين

يا بني! وإن غُلبت يوماً عن المال فلا تدع الحيلة بكلّ مكان، فإنّ الكريم محتال، واللئيم مغتال، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً، أقلّ ما تكون في الباطن مالاً. واعلم أنّ الكريم من كرمت عند الحاجة طبيعته، وظهرت عند الانفاد نعمته، وكن كما قال الشاعر:

وجدت أبي قد أورثه أبوه ... خلالاً قد تُعدّ من المعالي
فأكرم ما تكون عليّ نفسي ... إذا ما قلّ في الأزمات مالي
فتحسن سيرتي وأصون عرضي ... ويجعل عند أهل الرأي حالي
فإن نلت الغنىٰ لم أغل فيه ... ولم أخصص بجفوتي الموالي

يا بني! وإن سمعت كلمة من حاسد فكن كأنّك لست بالشاهد، فإنّك إن أمضيتها حيالها وقع العيب علىٰ من قالها، وقد كان يقال أنّ الأريب العاقل هو الفطن المتغافل، وكن كما قال حاتم الطائي:

وما من شيمتي شتم ابن عمّي ... وما أنا مخلف من يرتجيني
وكلمة حاسد من غير جرم ... سمعت فقلت مرّي فانفذيني
فعابوها عليّ ولم تعبني ... ولم يعرق لها يوماً جبيني

---

(١) النَّثُّ: نشر الحديث.

وذو اللـــونين يــلقاني طـليقاً وليس إذا يـــغيب يأتــليني

يا بني! لا تواخ أخاً حتّىٰ تعاشره، وتعرف أمره، وتتفقّد مـوارده ومـصادره، فإذا استطبت العشرة، ورضيت الخبرة فآخه عـلىٰ إقـالة العـثرة، والمـواسـاة في العسرة، وكن يا بني كما قال المقنع الكندي:

إبـل الرجـال إذا أردت إخـاءهم وتَـــوَسمن فـــعالهم وتـــفقَّدِ
فإذا ظفرت بـذي الأمـانة والتـقىٰ فـيه اليـدين قـرير عـين فـاشددِ
وإذا رأيت ولا محــــالة زلّــــةً فعلىٰ أخيك بفضل حلمك فـاردُدِ

يا بني! وإذا أحببت حبيباً فلا تفرط، وإذا أبغضت بغيظاً فلا تشطط، فإنّه قد قال عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: أحبب حبيبك هوناً ما عسىٰ أن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما عسىٰ أن يكون حبيبك يوماً ما. وكن كما قال الشاعر:

وكن معقلاً للخير واصفح عن الخـنىٰ فـــإنّك راءٍ مـــا حـــييت وســـامع
وأحـــبب إذا أحـــببت حـبّاً مـقارباً فـــإنّك لا تـــدري متىٰ أنت نـازع
وأبـغض إذا أبـغضت بـغضاً مـقارناً فـــإنّك لا تـــدري مـتى الودّ راجـع

وعليك يا بني بصحبة الأخيار، وصدق الحديث، وإيّاك وصحبة الأشرار فإنّه عار، وكن كما قال الدارمي:

صاحب الأخـيار وارغب فـيهم ربّ من صاحبته مـثل الجَـرَبْ
ودع النـــاس فـــلا تشـــتمهم وإذا شـــاتمت فـاشتم ذا حسب
إنّ مـــن شـــاتم وغـداً كـالذي يشتري الصـفر بأعـيان الذهب
واصـــدق النـاس إذا حـدّثتهم ودع الكـذب فمـن شـاء كـذب
رب مــــهزول سمــين عــرضه وسمين الجسم مـهزول الحسب

يا بني! وإذا آخيت فآخ من يُعدّ لنوائب الزمان، وعليك بذوي الألباب الذين ثقّفتهم الآداب، ووثّقتهم الأحساب، فإنّهم أطيب مختبر، وأكرم محتضر، وأعذب معتصر، واحذر إخاء كلّ جهول، وصحبة كلّ عجول، فإنّه لا يغفر الزلّة وإن عرف

العلّة، سريعٌ غضبه، عال لهبه، إن سأل ألحف، وإن وعد أخلف، يرىٰ ما يعطيك غرماً، وما يأخذ منك غُنماً، فهو يرضيك ما طمع فيك، فإذا يئس من خيرك مال إلىٰ غيرك، وفي مثله يقول الشاعر:

لا تواخ الدهر جبساً[1] راضعاً ملهب الشرّ قليل المنفعه
ما ينل منك فأحلىٰ مغنم ويرىٰ ظرفاً به أن يمنعه
يسأل الناس ولا يعطيهم ثكلته أُمّه ما أطمعه

يا بني! من عتب على الزمان، وتتبّع عثرات الاخوان، قطعه صديقه، وملّه رفيقه، واحتماه الأهلون، وظفر به الشامتون. ومن سار في البلاد ثمر المراد، وطالبُ الكفافُ بالقناعة والعفاف يعيش حميداً فقيداً. وقد قال النابغة:

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه شكا الفقر أو لام الصديق فأكثرا
وصار على الأدنينَ كلّاً وأوشكت صلات ذوي القربىٰ له أن تنكرا
فسر في بلاد الله والتمس الغنىٰ تعش ذا يسارٍ أو تموت فَتُعذرا
وما طالب الحاجات في كلّ وجهة من الناس إلّا من أجدّ وشمّرا
ولا ترض من عيش بدون ولا تنم وكيف ينام الليل من كان مُعسرا

ثمّ قال: وليكن إخوانك وأهل بطانتك أولي الدين والعفاف، والمروّآت والأخلاق الجميلة، فإنّي رأيت إخوان المرء يده التي يبطش بها، ولسانه الذي يصول به، وجناحه الذي ينهض به، فاصحب هؤلاء تجدهم إخواناً، وعلى الخير أعواناً، واجتنب الصغار الأخطار، اللئام الأقذار، الذين لا يحامون علىٰ حسب، ولا يرجعون إلىٰ نسب، ولا يصبرون علىٰ نائبة، ولا ينظرون في عاقبة، فإنّهم إن رأوك في رخاء سألوك، وإن رأوك في شدّة أسلموك، ولعلّهم أن يكونوا عليك مع بعض الأعداء.

واعلم بأنّ الرجل بلا خدِين[2] كذي الشمال بلا يمين، واخلط نفسك مع الأبرار،

---

(١) الجبس: الجبان الفَدْمُ، وقيل: الضعيف اللئيم، وقيل: الثقيل الذي لا يجيب إلى خير، والجمع أجباس وجُبُوس.

(٢) الخدين: هو الصديق الحميم...

وطهّرها من الفجّار، فالمرء يُعرف بقرينه، فقد قال الشاعر:

وقارن إذا قارنت حُرّاً فإنّما ... يزين ويزري بالفتىٰ قرناؤه
ولن يهلك الإنسان إلّا إذا أتىٰ ... من الأمر ما لم يرضه نصحاؤه
إذا قلّ ماء الوجه قلّ حياؤه ... ولا خير في وجه إذا قلّ ماؤه

يا بني! قد جمعت لك مصالح نفسك، فاستفتح الله بمسامع عقلك، وتفهّم ما وصفت لك بالتجارب، تحز صلاح العواقب.

واعلم إنّ من حاسب نفسه تورّع، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن اعتبر أبصر، ومن فهم علم، وفي التواني تكون الهلكة، وفي التأنّي السلامة، وزارع البرّ يحصد السرور، والقليل مع القناعة في القصد خير من الكثير مع السرف في المذلّة، التقوىٰ نجاة، والطاعة ملك، وحليف الصدق موفّق، وصاحب الكذب مخذول، وصديق الجاهل تعب، ونديم العاقل مغتبط.

فإذا جهلت فسل، وإذا ندمت فاقلع، وإذا غضبت فامسك، ومن لاقاك بالبشر فقد أدّىٰ إليك الصنيعة، ومن أقرضك الثناء فاقضه الفضل. وضع يا بني الصنائع عند الكرام ذوي الأحساب، ولا تضعنّ معروفك عند اللّئام فتضيّعه، فإنّ الكريم يشكرك ويرصدك بالمكافاة، وإنّ اللئيم يحسب ذلك حتماً، ويؤول أمرك معه إلى المذلّة، وقد قال الشاعر:

إذا أوليت معروفاً لئيماً ... فعدّك قد قتلت له قتيلا
فعد من ذاك معتذراً إليه ... وقل إنّي أتيتك مستقيلا
فإن تغفر فجترم عظيم ... وإن عاقبت لم تظلم فتيلا
وإن أوليت ذلك ذا وفاء ... فقد أودعته شكراً طويلا

٤ ـ وصيّة المهلب لولده وأهله:

لمّا حضرت المهلب بن أبي صفرة الوفاة، قال لولده وأهله:

أوصيكم بتقوى الله، وصلة الرحم، فإنّ تقوى الله تعقب الجنّة، وإنّ صلة الرحم تنسئ[1] الأجل، وتثري المال، وتجمع الشمل، وتكثر العدد، وتعمّر الديار، وتعزّ الجانب. وأنهاكم عن معصية الله تعالى فإنّ معصية الله تعقب النار، وإنّ قطيعة الرحم تورث الذلّة والقلّة، وتقلّ العدد، وتفرّق الجمع، وتذر الديار بلا قع، وتذهب المال، وتطمع العدو، وتبدي العورة.

يا بني! قومكم قومكم إنّه ليس لكم فضل عليهم، بل هم أفضل منكم، إذ فضّلوكم، وسوّدوكم، أوطؤوا أعقابكم، وبلغوا حاجتكم فيما أردتم، وأعانوكم، فإن طلبوا فاطلبوهم، وإن سألوا فاعطوهم، وإن لم يسلموا فابتدؤهم، وإن شتموا فاحتملوهم، وإن غشوا أبوابكم فلتفتح لهم، ولا تغلق دونهم.

يا بني! إنّي أحبّ للرجل منكم أن يكون لفعله الفضل علىٰ لسانه، وأكره للرجل منكم أن يكون للسانه الفضل علىٰ فعله.

يا بني! اتّقوا الجواب، وزلّة اللسان، فإنّي وجدت الرجل تعثر قدمه فيقوم من زلّته، وينتعش منها سوياً، ويزلّ لسانه فيوبقه ويكون فيه هلكته.

يا بني! إذا غدا عليكم رجل وراح، فكفىٰ بذلك مسألة وتذكرة بنفسه.

يا بني! ثيابكم علىٰ غيركم أجمل منها عليكم، ودوابكم تحت غيركم أجمل منها تحتكم.

يا بني! أحبّوا المعروف وانكروا المنكر واجتنبوه، وآثروا الجود على البخل، واصطنعوا العرب وأكرموهم، فإنّ العربي تَعده العِدّة فيموت دونك ويشكر لك، فكيف بالصنيعة إذا وصلت إليه في احتماله لها وشكره، والوفاء منه لصاحبها.

يا بني! سودوا أكابركم، واعرفوا فضل ذوي أسنانكم، وارحموا صغيركم وقرّبوه وألطفوه، واجبروا يتيمكم وعودوا عليه بما قدرتم، ثمّ خذوا علىٰ أيدي سفهائكم، وتعاهدوا فقراءكم وجيرانكم بما قدرتم عليه، واصبروا للحقوق ونوائب

(١) نَسأ الشيء يَنْسَؤه نَسْأً وأنْسأه: أخّره.

الدهور، واحذروا عار غد، وعليكم في الحرب بالأناة، والتوأدة في اللقاء، وعليكم بالتماس الخديعة في الحرب لعدوّكم، وإيّاكم والنزق والعجلة، فإنّ المكيدة والأناة والخديعة أنفع في الشجاعة والشدّة.

واعلموا أنّ القتال والمكيدة مع الصبر، فإذا كان اللقاء نزل القضاء المبرم، فإن ظفر المرء وقد أخذ بالحزم قال القائل: قد أتى الأمر من وجهه، وإن لم يظفر قال: ما ضيع ولا فرط، ولكن القضاء غالب.

يا بني! الزموا الحزم على أيّ الحالين وقع الأمر، وألزموا الطاعة والجماعة، وتواصلوا وتوازروا وتعاطفوا، فإنّ ذلك يثبت المودّة، وتحابّوا، وخذوا بما أوصيكم به بالجدّ، والقوّة، والقيام به، والتعهّد له، وترك الغفلة عنه، تظفروا بدنياكم ما كنتم فيها، وآخرتكم إذا صرتم إليها، ولا قوّة إلّا بالله.

يا بني! وليكن أول ما تبدؤون به أنفسكم إذا أصبحتم، تعلّموا القرآن والسنن وأداء الفرائض، وتأدّبوا بأدب الصالحين من قبلكم من سلفكم، ولا تقاعدوا أهل الدعارة والريبة، ولا تخالطوهم، ولا يطمعنّ في ذلك منكم، وإيّاكم والخفّة في مجالسكم وكثرة الكلام، فإنّه لا يسلم منه صاحبه، وأدّوا حقّ الله تعالى عليكم، فإنّي قد أبلغت اليكم في وصيّتي، واتّخذت الله حجّةً عليكم.

٥ ـ وصيّة العلّامة الحلّي ﵀ لولده:

قال في القواعد:(١)

يا بني! أوصيك كما افترض الله تعالى عليّ من الوصيّة، وأمرني به حين إدراك المنيّة، بملازمة تقوى الله تعالى، فإنّها السنّة القائمة، والفريضة اللّازمة، والجُنّة الواقية، والعدّة الباقية، وأنفع ما أعدّه الإنسان ليوم تشخص فيه الأبصار، ويعدم عنه الأنصار.

---

(١) قواعد الأحكام: ٣٤٦.

عليك باتّباع أوامر الله تعالى، وفعل ما يرضيه، واجتناب ما يكرهه، والانزجار عن نواهيه، وقطع زمانك في تحصيل الكمالات النفسانيّة، وصرف أوقاتك في اقتناء الفضائل العلميّة، والارتقاء عن حضيض النقصاء إلىٰ ذروة الكمال، والارتفاع إلىٰ أوج العرفاء عن مهبط الجهّال، وبذل المعروف، ومساعدة الاخوان، ومقابلة المسيء بالاحسان، والمحسن بالامتنان.

وإيّاك ومصاحبة الأرذال، ومعاشرة الجهّال، فإنّها تفيد خلقاً ذميماً، وملكة رديّة، بل عليك بملازمة العلماء، ومجالسة الفضلاء، فإنّها تفيد استعداداً تامّاً لتحصيل الكمالات، وتثمر لك ملكة راسخة لاستنباط المجهولات، وليكن يومك خيراً من أمسك، وعليك بالتوكل، والصبر، والرضا، وحاسب نفسك في كلّ يوم وليلة، وأكثر من الاستغفار لربّك، واتّق دعاء المظلوم، خصوصاً اليتامىٰ والعجائز، فإنّ الله تعالى لا يسامح بكسر كسير.

وعليك بصلاة الليل، فإنّ رسول الله ﷺ حثّ عليها، وندب إليها، وقال: «من ختم له بقيام الليل ثمّ مات فله الجنّة»[١]. وعليك بصلة الرحم، فإنّها تزيد في العمر، وعليك بحسن الخلق، فإنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم»[٢]. وعليك بصلة الذريّة العلويّة، فإنّ الله تعالى قد أكّد الوصيّة فيهم، وجعل مودّتهم أجر الرسالة والارشاد، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى : ٢٣].

وقال رسول الله ﷺ: «إنّي شافع يوم القيامة لأربعة أصناف ولو جاؤوا بذنوب أهل الدنيا: رجل نصر ذريّتي، ورجل بذل ماله لذريّتي عند الضيق، ورجل أحبّ ذريتي باللسان والقلب، ورجل سعىٰ في حوائج ذريّتي إذا طرّدوا وشرّدوا»[٣].

---

(١) التهذيب ٢ : ١٢٢ ح٢٣٣؛ والوسائل ٥ : ٢٧٤ ح ٢٤.
(٢) البحار ٧١ : ٣٨٣ ح١٩.
(٣) الكافي ٤ : ٦٠ ح٩؛ عنه الوسائل ١١ : ٥٥٦ ح ٢.

وقال الصادق ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادىٰ منادٍ: أيّها الخلائق انصتوا فإنّ محمّداً يكلّمكم، فينصت الخلائق، فيقوم النبي ﷺ فيقول: يا معشر الخلائق من كانت له عندي يد أو منّة أو معروف فليقم حتّىٰ أُكافيه، فيقولون: بآبائنا، وأُمّهاتنا، وأيّ يد، وأيّ منّة، وأيّ معروف لنا؟! بل اليد والمنّة والمعروف لله ولرسوله علىٰ جميع الخلائق. فيقول: بلىٰ، من آوىٰ أحداً من أهل بيتي، أو برّهم، أو كساهم من عرىٰ، أو أشبع جائعهم، فليقم حتّىٰ أُكافيه. فيقوم أُناس قد فعلوا ذلك، فيأتي النداء من عند الله: يا محمّد يا حبيبي! قد جعلت مكافاتهم إليك، فأسكنهم من الجنّة حيث شئت، فيسكنهم في الوسيلة، بحيث لا يحجبون عن محمّد وأهل بيته صلوات الله عليهم»(١).

وعليك بتعظيم الفقهاء، وتكريم العلماء، فإنّ رسول الله ﷺ قال: «من أكرم فقيهاً مسلماً لقي الله تعالى يوم القيامة وهو عنه راضٍ، ومن أهان فقيهاً مسلماً لقي الله تعالى يوم القيامة وهو عليه غضبان»(٢). وجعل النظر إلىٰ وجه العلماء عبادة، والنظر إلىٰ باب العالم عبادة، ومجالسة العلماء عبادة.

وعليك بكثرة الاجتهاد في ازدياد العلم، والفقه في الدين، فإنّ أمير المؤمنين ﷺ قال لولده: «تفقّه في الدين، فإنّ الفقهاء ورثة الأنبياء، وإنّ طالب العلم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتّى الطير في جوّ السماء، والحوت في البحر، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً به»(٣).

وإياك وكتمان العلم ومنعه عن المستحقّين لبذله، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِمَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقره: ١٥٩].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا ظهرت البدع في أُمّتي، فليظهر العالم علمه، فمن لم

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٦٥ ح١٧٢٧؛ والوسائل ١١: ٥٥٦ ح٣.
(٢) البحار ٢: ٤٤ ح١٣.
(٣) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٨٧ ح٥٨٣٤.

يفعل فعليه لعنة الله»[١]. وقال ﷺ: «لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»[٢].

٦ ـ وصيّة أوس بن حارثة:

روى ابن الكلبي قال: لما حضرت الوفاة أوس بن حارثة أخا الخزرج لم يكن له ولد غير مالك بن الأوس، وكان لأخيه الخزرج خمسة. قيل له: كنّا نأمرك بأن تتزوّج في شبابك فلم تفعل حتّىٰ حضرك الموت ولا ولد لك إلّا مالك، فقال: لم يهلك هالك ترك مثل مالك، وإن كان الخزرج ذا عدد، وليس لمالك ولد، فلعلّ الذي استخرج الغدق من الجريمة، والنار من الوثيمة، أن يجعل لمالك نسلاً، ورجالاً بسلاً، وكلّنا إلى الموت.

يا مالك: المنيّة ولا الدنيّة، والعتاب قبل العقاب، والتجلّد لا التبلّد، واعلم أنّ القبر خير من الفقر، ومن لم يعط قاعداً حرم قائماً، وشرّ الشرب الاستفاف[٣]، وشرّ الطعم الاعتفاف، وذهاب البصر خير من كثير من النظر، ومن كرم الكريم الدفع عن الحريم، ومن قلّ ذلّ، وخير الغنىٰ القناعة، وشرّ الفقر الخضوع.

الدهر صرفان: صرف رخاء، وصرف بلاء، واليوم يومان: يوم لك، ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصطبر، وكلاهما سينحسر، وكيف بالسلامة لمن ليس له إقامة، وحيّاك ربّك[٤].

٧ ـ وصيّة الحارث بن كعب بنيه:

وأوصى الحارث بن كعب بنيه فقال:

---

(١) البحار ١٠٨: ١٥.
(٢) البحار ٢: ٧٨ ح ٦٩.
(٣) سَفِفْتُ الماءَ أَسَفُّه سَفّاً: أكثرت منه وأنت في ذلك لا تروى.
(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧: ١١٨ باب ٥٣.

يا بني! قد أتت عليَّ مائة وستون سنة ما صافَحَتْ يميني يمين غادر، ولا قَنَعْتُ لنفسي بخلّة فاجر، ولا صَبَوتُ بابنة عمّ، ولا بُحْتُ لصديق بسرّ، ولا طَرَحْتُ عن مومسةٍ قناعاً، ولا بقي علىٰ دين عيسى بن مريم ـ وقد روي علىٰ دين شعيب ـ من العرب غيري، وغير تميم بن مرّة، وأسد بن خزيمة، فموتوا علىٰ شريعتي، واحفظوا وصيّتي، وإلٰهكم فاتّقوا يكفكم ما أهمّكم، ويصلح لكم حالكم، وإياكم ومعصيته فيحلّ بكم الدمار، ويوحش منكم الديار.

كونوا جميعاً ولا تفرّقوا فتكونوا شيعاً، وبزوا قبل أن تبزوا، فموت في عزّ خير من حياة في ذلّ وعجز، وكلّ ما هو كائن كائن، وكلّ جمع إلىٰ تباين، والدهر صرفان: صرف بلاء، وصرف رخاء، واليوم يومان: يوم خبرة، ويوم عبرة، والناس رجلان: رجل لك، ورجل عليك، زوّجوا النساء الاكفاء، وإلّا فانتظروا بهنّ القضاء، وليكن أطيب طيبهنّ الماء، وإياكم والورهاء، فإنها أدوأ الداء، وإنّ ولدها إلىٰ أفن يكون.

لا راحة لقاطع القرابة، وإذا اختلف القوم أمكنوا عدوّهم، وآفة العدوّ اختلاف الكلمة، والتفضّل بالحسنة يقي السيّئة، والمكافاة بالسيّئة دخول فيها، وعمل السوء يزيل النعماء، وقطيعة الرحم تورث الهمّ، وانتهاك الحرمة يزيل النعمة، وعقوق الوالدين يعقب النكد، ويخرب البلد، ويمحق العدد، والاسراف في النصحة هو الفضيحة، والحقد يمنع الرفد، ولزوم الخطيئة يعقب البليّة، وسوء الدعة يقطع أسباب المنفعة، والضغائن تدعو إلى التباين.

يا بني! إنّي قد أكلت مع أقوام وشربت، فذهبوا وغبرت، وكأنّي بهم قد لحقت، ثمّ قال:

أكلت شبابي فأفنيته ... وأبليت بعد دهور دهورا
ثلاثة أهلين صاحبتهم ... فبادوا وأصبحت شيخاً كبيرا
قليل الطعام عسير القيام ... قد ترك الدهر خطوي قصيرا

أبـــيت أرعــي نجـــوم السماء أقلب أمري بطونا ظـهورا(١)

٨ ـ وصيّة أكثم بن صيفي:

وَصّىٰ أكثم بن صيفي بنيه ورهطه فقال: يا بني تميم! لا يفوتنّكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي، إنّ بين حيزومي وصدري لكلاماً لا أجد له مواقع إلّا أسماعكم، ولا مقاراً إلّا قلوبكم، فتلقوه بأسماع مصغية، وقلوب واعية، تحمدوا مغبته.

الهوى يقظان، والعقل راقد، والشهوات مطلقة، والحزم معقول، والنفس مهملة، والروية مقيدة من جهة التواني، وترك الروية يتلف الحزم، ولن يعدم المشاور مرشداً، والمستبدّ برأيه موقوف علىٰ مداحض الزلل، ومن سمع سمع به، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع.

ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلّا في مقاتل الكرام، وعلى الاعتبار طريق الرشاد، ومن سلك الجدد أمن العثار، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه، ويشغل فكره، ويورث غيظه، ولا تجاوز مضرّته نفسه.

يا بني تميم! الصبر علىٰ جرع الحلم أعذب من جَنىٰ ثمر الندامة، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للندم، وكلم اللسان أنكىٰ من كلم السنان، والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم، فإذا نجمت مزجت، فهي أسد محرب، أو نار تلهب، ورأي الناصح اللبيب دليل لا يجوز، ونفاذ الرأي في الحرب أجدىٰ من الطعن والضرب(٢).

٩ ـ وصيّة يزيد بن المهلب:

وأوصىٰ يزيد بن المهلب إبنه مخلداً حين استخلفه علىٰ جرجان فقال له:

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧: ١١٩ باب ٥٣.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧: ١٢٠ باب ٥٣. (هو أحد حكماء العرب. قال ابن أبي الحديد: أكثم بن صيفي أحد بني أسد بن عمرو بن تميم، كان أكثر أهل الجاهلية حكماً ومثلاً وموعظة سائرة).

يا بني! قد استخلفتك علىٰ هذه البلاد فانظر هذا الحيّ من اليمن فكن لهم كما قال الشاعر:

إذا كنت مرتاد الرجال لنفعهم ... فرش واصطنع عند الذين بهم ترمي

وانظر هذا الحيّ من ربيعة، فإنهم شيعتك وأنصارك، فاقض حقوقهم، وانظر هذا الحيّ من تميم، فأمطرهم ولا تزه لهم، ولا تدنهم فيطمعوا، ولا تقصهم فيقطعوا، وانظر هذا الحيّ من قيس، فإنهم أكفّاء قومك في الجاهلية، ومناصفوهم المنابر في الإسلام، ورضاهم منك البشر.

يا بني! إنّ لأبيك صنائع فلا تفسدها، فإنه كفىٰ بالمرء نقصاناً أن يهدم ما بنىٰ أبوه. وإياك والدماء، فإنه تقيّة معها. وإياك وشتم الأعراض فإنّ الحرّ لا يرضيه عن عرضه عوض. وإياك وضرب الأبشار فإنه عارٍ باق، ووتر مطلوب، واستعمل على النجدة والفضل دون الهوىٰ، ولا تعزل إلّا عن عجز أو خيانة.

ولا يمنعك من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه، فإنك إنما تصطنع الرجال لفضلها، وليكن صنيعك عند من يكافئك عنه العشائر، احمل الناس علىٰ أحسن أدبك يكفوك أنفسهم، وإذا كتبت كتاباً فاكثر النظر فيه، وليكن رسولك فيما بيني وبينك من يفقه عنّي وعنك، فإنّ كتاب الرجل موضع عقله، ورسوله موضع سرّه، واستودعك الله فلابدّ للمودّع أن يسكت، وللمشيّع أن يرجع، وما عفّ من المنطق وقلّ من الخطيئة أحبّ إلىٰ أبيك[1].

١٠ ـ وصيّة قيس بن عاصم:

وأوصىٰ قيس بن عاصم المنقري بنيه، فقال:

يا بني! خذوا عنّي فلا أحد أصلح لكم منّي إذا دفنتموني فانصرفوا إلىٰ رحالكم فسوّدوا[2] أكبركم، فإنّ القوم اذا سوّدوا أكبرهم خلفوا أباهم، وإذا سوّدوا

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧ : ١٢١ باب ٥٢.
(٢) سوّدوا: اجعلوه رئيسكم وسيدكم.

أصغرهم أزرىٰ ذلك بهم في أكفائهم.

وإياكم ومعصية الله، وقطيعة الرحم.

وتمسّكوا بطاعة أُمرائكم، فإنّهم من رفعوا ارتفع، ومن وضعوا اتّضع.

وعليكم بهذا المال فاصلحوه فإنه منبهة للكريم، وجنّة لعرض اللئيم. وإياكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل، وإنّ أحداً لم يسأل إلّا ترك الكسب.

وخذوا عنّي ثلاث خصال: إياكم وكلّ عرق لئيم أن تلابسوه فإنه إن يسرركم اليوم يسؤكم غداً. واكظموا الغيظ، واحذروا بني أعداءكم فإنهم علىٰ منهاج آبائهم. ثمّ قال:

أحيا الضغائن آباء لنا سلفوا فلن تبيد وللآباء أبناء(١)

١١ ـ وصيّة عمرو بن كلثوم الثعلبي:

وأوصىٰ عمرو بن كلثوم الثعلبي بنيه، فقال:

يا بني! إنّي قد بلغت من العمر ما لم يبلغ أحد من آبائي وأجدادي، ولابدّ من أمر مقتبل، وأن ينزل بي ما نزل بالآباء والأجداد والأُمّهات والأولاد، فاحفظوا عنّي ما أوصيكم به، إني والله ما عيّرت رجلاً قط أمراً إلّا عُيّر بي مثله إن حقاً فحقاً وإن باطلاً فباطلاً. ومن سبّ سُبَّ، فكفّوا عن الشتم فإنّه أسلم لأعراضكم.

وصلوا أرحامكم تعمر داركم، وأكرموا جاركم يحسن ثناؤكم، وزوّجوا بنات العمّ فإنْ تعدّيتم بهنّ إلى الغرباء فلا تألوا بهنّ الأكفّاء، وأبعدوا بيوت النساء من بيوت الرجال، فإنه أغضّ للبصر، وأعفّ للذكر، ومتىٰ كانت المعاينة واللقاء ففي ذلك داء من الأدواء، ولا خير فيمن لا يغار لغيره كما يغار لنفسه، وقلّ من انتهك حرمة لغيره إلّا انتهكت حرمته.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧: ١٢٢ باب٥٢. (هو الذي وفد علىٰ رسول الله ﷺ فقال في حقه: هـذا سيد أهل الوبر. فجعله سيد خندف وقيس ممن يسكن الوبر).

وامنعوا القريب من ظلم الغريب، فإنك تذلّ علىٰ قريبك، ولا يحلّ بك ذلّ غريبك، وإذا تنازعتم في الدماء فلا يكن حقّكم للقاء، فربّ رجل خير من ألف، وودّ خير من خلف، وإذا حُدِّثتم فعوا، وإذا حَدَّثتم فأوجزوا، فإنّ مع الاكثار يكون الاهذار، وموت عاجل خير من ضنىٰ آجل، وما بكيت من زمان إلّا دهاني بعده زمان، وربما شجاني من لم يكن أمره عناني، وما عجبت من أُحدوثة إلّا رأيت بعدها أُعجوبة.

واعلموا أنّ أشجع القوم العطوف، وخير الموت تحت ظلال السيوف، ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب، ولا فيمن إذا عوتب لم يعتب، ومن الناس من لا يرجىٰ خيره، ولا يخاف شرّه، فبكوؤه خير من درّه، وعقوقه خير من برّه، ولا تبرحوا في حبّكم فإنه من أبرح في حبٍّ آل ذلك إلىٰ قبيح بغضٍ، وكم زارني إنسان وزرته فانقلب الدهر بنا فبرته.

واعلموا أنّ الحكيم سليم، وأنّ السيف كليم، إنّي لم أمت ولكن هرمت، ودخلتني ذلّة فسكتّ، وضعف قلبي فاهترت، سلّمكم ربّكم وحيّاكم[(١)].

١٢ ـ وصيّة ابن سعيد المغربي لابنه وقد أراد السفر:

أودعك الرحمن في غربتك ... مرتقباً رحماه في أوبتك
فلا تطل حبل النوىٰ إنّني ... والله أشتاق إلىٰ طلعتك
واختصر التوديع أخذاً فما ... لي ناظر يقوىٰ علىٰ فرقتك
واجعل وصاتي نصب عين ولا ... تبرح مدى الأيام من فكرتك
خلاصة العمر التي حنكت ... في ساعة زفت إلىٰ فطنتك
فللتجاريب أمور اذا ... طالعتها تشحذ من غفلتك
فلا تنم عن وعيها ساعة ... فإنها عون إلىٰ يقظتك

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧ : ١٢٣ باب ٥٣.

وكــــل مــــا كــــابدته في النــــوىٰ إيــــاك أن يكــــسر مــــن همّــــتك
فــليس يــدري أصــل ذي غــربة وإنمــــا تــعرف مــــن شــيمتك
وامش الهـــوينا مـــظهراً عــفّة وابـغ رضـا الأعـين عـن هـيئتك
وانـــطق بحـــيث الغـي مسـتقبح واصمت بحيث الخير في سكـتتك
ولج عـــلىٰ رزقك مـــن بـــابه واقـصد له مـا عشت في بكـرتك
ووفّ كـــلاً حـــقّه ولتكـــن تكسر عـند الفـخر مـن حـدّتك
وحـــيثما خـــيمت فـــاقصد الى صحبة مـن تـرجـوه في نـصرتك
ولـلـــرزايـــا وثـــبة مـــا لهـــا إلّا الذي تـذخر مـن عـدّتك
ولا تـــقل أسـلم لي وحـدتي فــقد تــقاسي الذلّ في وحـدتك
ولتـــجعل العـــقل محكاً وخـــذ كـــلّاً بمـــا يـظهر في نـقدتك
واعـــتبر النـــاس بألفـــاظهم واصحب أخاً يرغب في صحبتك
كـم مـن صـديقٍ مـظهر نـصحه وفكـره وقـف عـلىٰ عـثرتك
إيـــــاك أن تـــقربه إنـــه عــون مـع الدهـر عـلىٰ كـربتك
وانمُ نمـــوّ النـــبت قـــد زاره غبّ النـدىٰ واسم إلىٰ قـدرتك
ولا تـــضيّع زمـــناً ممكـــناً تــذكاره يـذكي لظـىٰ حسـرتك
والشرّ مـهما إسـطعت لا تأتـه فــإنه جــور عــلىٰ مـهجتك

يا بني الذي لا ناصح له مثلي، ولا منصوح لي مثله، قد قدمت لك في هذا النظم ما أن أخطرته بخاطرك في كلّ أوان، رجوت لك حسن العاقبة إن شاء الله تـعالى، وإن أخف منه للحفظ، وأعلق بالفكر، وأحقّ بالتقدّم قول الأوّل:

يزين الغريب إذا ما اغترب ثلاث فمنهنّ حسـن الأدب
وثــانية حسـن أخـلاقه وثــالثة اجـتناب الريب

واصغ يا بني إلى البيت الذي هو يتيمة الدهر، وسُلَّمُ الكرم والصبر.

ولو أنّ أوطان الديار نبت بكم لسكـنتم الأخـلاق والآدابـا

إذ حسن الخلق أكرم نزيل، والأدب أرحب منزل.

ولتكن كما قال بعضهم في أديب متغرب: وكان كلّما طرأ على ملك فكأنه معه ولد، وإليه قصد، غير مستريب بدهره، ولا منكر شيئاً من أمره، وإذا دعاك قلبك إلىٰ صحبة من أخذ بمجامع هواه فاجعل التكلّف له سلّماً، وهبّ في روض أخلاقه هبوب النسيم، وحل بطرفه حلول الوسن، وانزل بقلبه نزول المسرّة، حتّىٰ يتمكّن لك وداده، ويخلص فيك اعتقاده، وطهّر من الوقوع فيه لسانك، وأغلق سمعك، ولا ترخص في جانبه لحسود لك يريد إبعادك عنه لمنفعة، أو حسود له يغار لتجمّله بصحبتك، ومع هذا فلا تغترّ بطول صحبته، ولا تتمهّد بدوام رقده فقد ينبّهه الزمان، ويتغيّر منه القلب واللسان، وإنما العاقل من جعل عقله معياراً وكان كالمرآة يلقى كلّ وجه بماثله.

وفي أمثال العامة: من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل، فاحتذّ بأمثلة من جرّب، واستمع إلىٰ ما خلّد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال فإنّها خلاصة عمرهم، وزبدة تجاربهم، ولا تتّكل علىٰ عقلك فإنّ النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم، وابتاعوه غالياً بتجاربهم، يربحك ويقع عليك رخيصاً.

وإن رأيت من له عقل ومروءة وتجربة، فاستفد منه ولا تضيع قوله وفعله، فأنّ فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك وحثاً لك واهتداء، وليس كلّ ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه حتّىٰ تتدبّره، فإن كان موافقاً لعقلك، مصلحاً لحالك، فراعِ ذلك عندك، وإلّا فانبذه نبذ النواة، فليس لكلّ أحد يُتَبسّم، ولا كلُّ شخص يُكلَّم، ولا الجود ممّا يعمّ به، ولا حسن الظنّ وطيب النفس ممّا يعامل به كلّ أحد، ولله درّ القائل:

وما لي لا أوفي البرية قسطها ... علىٰ قدر ما يعطىٰ وعقلي ميزان

وإياك أن تعطي من نفسك إلّا بقدر، فلا تعامل الدون بمعاملة الكفء، ولا الكفء بمعاملة الأعلى، ولا تضيع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع، ويثيبك علىٰ

مصلحة حاضرة عاجلة بغائبة آجلة، ولا تجف الناس بالجملة، ولكن يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملل، ولا ضجر، ولا جفاء، فمتىٰ فارقت أحداً فعلىٰ حسن في القول والفعل، فإنك لا تدري هل أنت راجع إليه فلذلك قال الأول: (ولما مضىٰ سِلمٌ بكيت علىٰ سِلمِ) وإياك والبيت السائر:

وكنت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عاراً

واحرص علىٰ جمع قول القائل: ثلاثة تبقي لك الودّ في صدر أخيك: أن تبدأه بالسلام، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحبّ الأسماء إليه. واحذر كلّ ما بيّنه لك القائل: كلّ ما تغرسه تجنيه إلّا ابن آدم فإذا غرسته يقلعك. وقول الآخر: إبن آدم ذئب مع الضعف، أسد مع القوّة.

وإياك أن تثبت علىٰ صحبة أحد قبل أن تطيل اختباره.

ويُحكىٰ أنّ ابن المقفّع خطب من الخليل صحبته فجاوبه أنّ الصحبة رقّ، ولا أضع رقّي في يديك حتىٰ أعرف كيف ملكتك.

واستملّ من عين من تعاشره، وتفقّد في فلتات الألسن، وصفحات الأوجه، ولا يحملك الحياء على السكوت عمّا يضرّك أن لا تبيّنه، فإنّ الكلام سلاح السلم، وبالأنين يعرف ألم الجرح. واجعل لكلّ أمرٍ أخذت فيه غاية يجعلها نهاية لك.

وخُذ من الدهر ما أتاك به من قرّ عيناً بعيشه نفعه

إذ الأفكار تجلب الهموم، وتضاعف الغموم، وملازمة القطوب عنوان المصائب والخطوب، يستريب به الصاحب، ويشمت العدوّ والمجانب، ولا تضرّ بالوساوس إلّا نفسك، لأنّك تنصر بها الدهر عليك، ولله درّ القائل:

إذا ما كنت للأحزان عوناً عليك مع الزمان فمن تلوم

مع أنّه لا يرد عليك الغائب الحزن، ولا يرعوي بطول عتبك الزمن.

ولقد شاهدت بغرناطة شخصاً قد ألفته الهموم، وعشقته الغموم، ومن صغره إلىٰ كبره لا تراه أبداً خلياً من فكرة حتىٰ لقّب بـ«صدر الهمّ»، ومن أعجب ما رأيته

منه أنّه يتنكّد في الشدّة ولا يتعلّل بأن يكون بعدها فرج، ويتنكّد في الرخاء خوفاً من أن لا يدوم وينشد: «توقّع زوالاً إذا قيل تم» وينشد: «وعند التناهي يقصر المتطاول».

وله من الحكايات في هذا الشأن عجائب، ومثل هذا عمره محسور يمرّ ضياعاً.

ومتىٰ رفعك الزمان إلىٰ قوم يذمّون من العلم ما تحسنه حسداً لك وقصداً لتصغير قدرك عندك، وتزهيداً لك فيه فلا يحملك ذلك علىٰ أن تزهد في علمك، وتركن إلى العلم الذي مدحوه، فتكون مثل الغراب الذي أعجبه مشي الحجلة، فرام أن يتعلّمه فصعب عليه، ثمّ أراد أن يرجع إلىٰ مشيه فنسيه، فبقي مختلّ المشي كما قيل:

إنّ الغراب وكان يمشي مشية ... فيما مضىٰ من سالف الأجيال
حسد القطا وأراد يمشي مشيها ... فأصابه ضرب من العقّال
فأضلّ مشيته وأخطأ مشيها ... فلذاك كنّوه أبا مرقال

ولا يفسد خاطرك من جعل يذمّ الزمان وأهله، ويقول: ما بقي في الدنيا كريم ولا فاضل، ولا مكان يرتاح فيه، فإنّ الذين تراهم علىٰ هذه الصفة أكثر ما يكونون ممّن صحبه الحرمان، واستحقّت طلعته للهوان، وأبرموا على الناس بالسؤال فمقتوهم، وعجزوا عن طلب الأُمور من وجوهها، فاستراحوا إلى الوقوع في الناس، وأقاموا الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم، ولا تزل هذين البيتين من فكرك:

لن إذا ما نلت عزاً ... فأخو العزّ يلين
فإذا نابك دهر ... فكما كنت تكون

والأمثال تضرب لذي اللّب الحكيم، وذو البصر يمشي على الصراط المستقيم، والفطن يقنع بالقليل، ويستدلّ باليسير، والله سبحانه خليفتي عليك، لا ربّ سواه.

الفصل الثاني
الامام علي عليه السلام ووثيقة حقوق الانسان

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالْاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَّقَنِي[1] رَأْيِي، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَىٰ بِي إِلَىٰ جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ.

وَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّىٰ كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي، مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ».

لقد سبق لنا أن قلنا: إنّ هذه الوصيّة هي من أفصح الكلام وأبلغه، وأجمعه لدقائق الحكمة العملية ولطائفها، وأكمل رسالة لتوجيه الفكر الحديث، والتعليم الأُممي، وأنّها تمكّن للناس في القربىٰ، لا قربىٰ النسب بل قربىٰ الثقافة، والعلم، والأدب، وهي أبهج وأجمع قربىٰ، ولأنّ في هذا تثقيفاً وتأليفاً ينتفع به الشرف

---

(١) في نهج البلاغة: فصدفني.

الإنساني، لما يحمل من كنوز القرائح، ومُثل الحياة العليا، ومن مسرّة النفس، ولذّة العقل.

* * *

إدبار الدنيا واقبال الآخرة:

قوله ﷺ: «فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالْإِهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي».

يريد ﷺ من الادبار تدرّج العمر في المضي، وأزوفه إلى الانصرام والفناء شأن كلّ متمتّع بالحياة.

وإقبال الآخرة هنا مرادف لما فسّرنا به إدبار الدنيا، فإنّ الإنسان كلّما بعد من مبدء السير، قرب إلىٰ منتهاه.

وأما (جموح الدهر) فهو لعدم ملائمته للنوايا الصالحة، ولمعاكسة الزمان إياه، وتأخر أهله عن إنجاح مقاصده الإلهية التي لا ينفك عنها مثل مولانا أمير المؤمنين ﷺ، فهو سلام الله عليه يريد تزهيد الناس عن التولّع في الدنيا وحبّها لجهتين، أولاهما: أنّها منصرمة لا محالة، والثانية: أنّها عريّة عن إنالة أبنائها مقاصدهم المطلوبة، قصيّة عن رغباتهم. وكلّ من هاتين يحقّ معها الاعراض عنها، فكلّ منصرم عقيم الانتاج، وكلّ ما لا يجدي صاحبه نفعاً حريّ بالنكوص عنه.

وإنما وصفه ﷺ من الدارين المقبلة والمدبرة هو الذي يحقّ معه عدم الاهتمام بغير النفس، وتدرّجها في الكمال، فإنّ للإنسان بذلك وازعاً عن غيره، فلا يضرّه من ظلّ إذا اهتدى، ولا ينهكه إذا صلح في هديه من انحرف عن الهدى، وهذا لا ينافي وجوب النهي عن المنكر، فإنّ الغاية هاهنا أن لا يسترسل هو مع رغبات الضالين، ولا يهملج في شهواتهم. وأما باب النهي عن المنكر فهو أن يردّهم عن متابعة الهوى، وأن ينقم ما سلكوه من المسالك الوعرة.

همّ النَفس يُشغِل عن هموم الناس:

وقوله ﷺ: «غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَّقَنِي رَأْيِي، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ».

إنّما تفرّد ﷺ بهمّ نفسه لأنّه أعزّ الأنفس وأشرفها، وأعودها للأُمّة بمنافع ومنجيات، علىٰ أنّ فيه تعليماً للملأ الديني، بأن كيف تكون حالهم في تهذيب النفس وتربيتها، وإنمائها نموّاً صالحاً، وأن يكون هم من أنفسهم وما يشوبها من أكدار ومعائب شاغل عن غيرهم، وعن التجسّس عن عيوب الناس والوقيعة فيهم.

هاهنا أصحر سلام الله عليه بنتيجة ما جاء به من سلوك، بأنّها مصدّقة من قبل الحقيقة الراهنة، الموصولة بالحقّ المبين، محبّذة بما هنالك من مبادئ قدسيّة التي وعاؤها قلب الإمام ﷺ، ومصدرها عقله الفيّاض، وهو الذي صرفه عن الهوى لحضوتِهِ بالعصمة اللّازمة لكلّ مُتَسَنِّمٍ مثل مقامه من الامامة.

وهو سلام الله عليه لا يكلّف الناسّ بكلمته هذه أن يكونوا معصومين كمثله، فإنّ ذلك مستحيل على العاديين من الناس، وإنّما يحبّذ ﷺ أن يقتصّوا أثره حسب القدرة والاستطاعة، لذا قال في مورد آخر: «أما إنّكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورعٍ واجتهاد»[1].

وفي ذلك إيعاز إلىٰ أنّ السير الحثيث وراء أيّ حقيقة ملازم للتوصّل اليها كما توصّل هو سلام الله عليه فصدّقه رأيه، وصرفه عن الهوى، وصرّح له محض أمره، بعيداً عن الشوائب والأكدار، فهو ﷺ يرغب في أن تكون شيعته، مقتصّة أثره فيما بينّاه من السير والتوصّل، ويرغّبهم في ذلك بكلمته الذهبية، وبيانه الشافي.

وهو أصدق من أصحر بحقيقة حيث يعرف نفسه الكريمة، بأنّ تفكيره فيما أفضىٰ به إلىٰ جدّ لا يكون فيه لعب، وصدق لا يشوبه كذب، فإلى اقتصاص أثره يا

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٤٥، إلىٰ عثمان بن حنيف.

مؤمّلي النجاة به وبهديه وهداه يا شيعته جميعاً.

* * *

الحنان الأبوي:

قوله ﷺ: «وَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّىٰ كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي، مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ».

هذا حنان أبوي لبيان تمحيص النصح، وإسداء أقصىٰ ما يسع أيّ ابن أُنثىٰ أن يسديه من محض الخير، والإمام في طليعة من يفيض البر، ويحثّ على المعروف، وهو سلام الله عليه ليست حياته حياة دمويّة، ولا كيانه كياناً مادّياً، حتّىٰ تثيره لإرشاد ولده المحبوب عاطفة طبيعية، أو حبّ بشري، ولكن له وجود مكيّف بالفيض الأقدس، وحياة مزيجها المواهب الإلهية، فليس فيما ينيله إلّا الخير محضاً، ولكن كلّما كملت قابليّة القابل عظم النصح المبذول.

وفي المقام لا قصور في الفاعل والقابل، فلا قصور في مدىٰ كلٍّ منهما، غير أنّه سلام الله عليه استعمل هذا النوع من الخطاب جرياً علىٰ ما هو المطرد في العادة، من أنّ الإنسان لا يدّخر برّه عمّن هو أقرب الناس إليه من قربى وولده. وهو بخطاب ابنه العزيز يرمي إلى المجتمع الديني كلّه من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة»، فعلى كلّ فرد أن يأخذ منه منيته من المقدرة، وقسطه من المعرفة.

أجل هكذا كان الإمام ﷺ يتّجه إلى الناس بحكمه، وأمثاله، ونصائحه الرائعة التي لا تجد لها أشباهاً إلّا في حكم النبي وأمثاله ونصائحه.

حكم تتبلور فيها طبائع الصديق والعدوّ، والمحسن والمسيء، والأحمق والعاقل، والبخيل والكريم، والصادق والمنافق، والظالم والمظلوم، والمعوز والمتخم، وصاحب الحق، وصاحب الباطل، ومفهوم الخلق السليم والخلق السقيم، وشؤون

الجاهل والعالم، والناطق والصامت، والأرعن والحليم، وصفات الطامع والقانع، وأحوال العسر واليسر، وتقلّبات الزمان وما لها من أثر في أخلاق الرجال، وما إلىٰ ذلك من أُمور لا تحصىٰ في فصل أو باب، وكلّها مركّزة على الواقع، يدركها العقل الصحيح، فيأخذ منها قواعد لا تتأثر بظرف، ولا تتعلّق بزمان.

كان ﷺ يحرّك في الأفراد عواطف الخير، ويوقظ فيهم ما غشته الأيام من الضمائر السليمة، ويعمل علىٰ إنمائها وينصح برعايتها.

كان يتوجّه إلى الضمائر بتوصياته، وخطبه، وعهوده، وأقواله جميعاً؛ لأنّه لم يفته أنّ لتهذيب الخُلُق شأناً في رعاية النظم العادلة، وفي بثّ الحرارة في المعاملات بين الناس. وقد ساعده في ذلك ما أوتي من مقدرة خارقة ينفذ بها الى أعماق الناس أفراداً وجماعات، فيدرك ميولهم وأهواءهم، ويعرف طباعهم وأخلاقهم، فيزن خيرها وشرّها، ثمّ يصوّر ويطوّر، ويأمر وينهىٰ، علىٰ ضوء ثقته الهائلة بالضمير الإنساني الذي يتوجّه إليه.

كانت ثقته بالضمير الإنسان ثقة العظماء الذين تألف فيهم العقل النيّر، والقلب الزاخر بالدفء الإنساني، النابض بالحبّ العميق الذي لا يعرف حدوداً.

كانت ثقته بهذا الضمير ثقة المسيح، ومحمّد، وسقراط، وسائر العظماء الذين مدّهم القلب بنور يخبو لديه كلّ نور، وعلىٰ أساس هذه الثقة أرسىٰ ﷺ حكمه وأمثاله، وعلىٰ أساسها تترابط الأفكار والتوجيهات التي يخاطب بها وجدانات الناس.

إنّ وصايا الإمام التي توجّه بها نحو الضمير الفردي والجماعي تعتبر بمنزلة وصايا الأنبياء بما تحمل من عمق الفهم، وحرارة العاطفة وسموّ الغاية، هذه الوصايا التي أرادها ﷺ حصناً منيعاً للأخلاق العامة، والعطف الإنساني، وتركيز العمل النافع علىٰ أُسس من الايجابية في العقل والضمير.

وإنّ من أروع ما وضعه نحو المصلحة العامة، وحريّة الفرد وحقوق الإنسان

دستوره لمالك الأشتر ﷺ، وهو من جلائل وصاياه، وأجمعها لقوانين المعاملات المدنيّة، والحقوق العامة، والتصرّفات الخاصّة.

فليخفّف الغرب من إعجابه في «شرعة حقوق الإنسان» التي نشرته هيئة الأُمم المتّحدة في القرن العشرين، وملؤوا الدنيا عجيجاً فارغاً حول ما صنعوا وما يصنعون، وأكثروا من الدعاوة لأنفسهم علىٰ صورة ينفر منها الصدق والذوق جميعاً، وأزعجوا الإنسان بمظاهر غرورهم، وحمّلوه ألف منّة، وألف حمل ثقيل.

فقد فكّر فيها الإمام ﷺ منذ أربعة عشر قرناً، وصاغها صريحة تعلن عن ذاتها جوهراً في كلّ حين، ونصّاً وجوهراً في أكثر الأحيان.

وإنّك لتجدها في آثاره متماسكة متفاعلة لا تترك فيما بينها منفذاً لما ينفضها في خطوطها العامّة، أو في جزئياتها الخاصّة.

وما شأن علي ﷺ بذلك إلّا شأن عظماء العصور الذين يوغلون في الحياة حتّىٰ يكشفوا عن خطوطها الكبرىٰ المتماسكة، فيعلنون عمّا اكتشفوه بصدق وبساطة وحرارة. فإذا بالذي يكشفونه، ويعلنون عنه يؤلّف قسمين اثنين: قسماً يتناول الأصول الكبرىٰ فيبقىٰ لكلّ زمان ومكان، كما تبقى القواعد العلميّة الثابتة، وقسماً يتناول التفاصيل والجزئيات فيتبدّل ويتغيّر مع الزمان والمكان.

مقارنة مع وثيقة حقوق الانسان:

وقد آن لنا الآن أن نثبت في هذا الفصل أهمّ ما جاء في الوثيقة الدوليّة لاعلان حقوق الإنسان، ليرى القارئ بنفسه إذا كان هنالك من فرق بين مذهب الإمام ﷺ في الحقوق العامة وهذه الوثيقة، ثمّ يدرك أين يستقرّ هذا الفرق وما هي أسبابه.

أما نحن، فإذا جاز لنا أن نقول قولاً موجزاً بهذا الصدد، فإنّا نشير إلىٰ أنّه يصعب على المرء أن يجد اختلافاً بين مذهب الإمام والوثيقة الدوليّة هذه من حيث الروح، أمّا الفوارق في الفروع، ثمّ في الصيغ فمحتومة مع اختلاف الزمان.

أمّا الأُسس، فليس من أساس بوثيقة حقوق الإنسان التي نشرتها هيئة الأمم المتّحدة إلّا وتجد له مثيلاً في دستور الإمام علي ﷺ، ثمّ تجد في دستوره ما يعلو ويزيد.

أمّا إذا كان هنالك من فرق صحيح فارق فهو إنّما يتعلّق بواضعي الوثيقتين، ويتلخّص في نظرنا بنقاط:

الفرق الأول: هو أنّ الوثيقة الدولية لاعلان حقوق الإنسان وضعها أُلوف من المفكّرين، ينتمون لمعظم دول الأرض أو لها جميعاً، والدستور العلوي وضعه عبقريّ واحد هو عليّ بن أبي طالب ﷺ.

والفرق الثاني: هو أنّ الإمام ﷺ يسبق واضعي هذه الوثيقة ببضعة عشر قرناً.

والفرق الثالث: هو أنّ واضعي هذه الوثيقة، أو جامعي شروطها ـ والقول أصح ـ قد ملأوا الدنيا ـ كما ذكرنا ـ عجيجاً فارغاً حول ما صنعوا، وأكثروا من الدعاوة لأنفسهم علىٰ صورة ينفر منها الصدق والذوق جميعاً، وحمّلوا الإنسان ألف منّة. وفيما تواضع الإمام للناس وربّ العالمين فلم يستعل ولم يستكبر، بل رجا الله والناس في أن يغفروا له ما عمل وما لم يعمل.

أما الفرق الرابع والأهم: فهوأنّ معظم هذه الدول المتّحدة التي ساهمت في وضع وثيقة حقوق الإنسان واعترفت بها، هي التي تسلب الإنسان حقوقه، فينتشر جنودها في كلّ ميدان تمزيقاً لهذه الوثيقة وهدراً لهذه الحقوق فيما مزّق الإمام ﷺ صور الاستبداد والاستئثار، حيث حطّت له قدم، وحيث سمع له قول، وحيث تلامع سيفه نور الشمس، وسوّىٰ بها الأرض، ومشىٰ عليها الأقدام، ثمّ قضىٰ شهيدَ الدفاعِ عن حقوق الأفراد والجماعات بعد أن استشهد في حياته ألف مرّة.

نص الوثيقة:

وإلى القارئ الآن أجل ما في وثيقة الأُمم المتّحدة، نأخذها من كتاب «صوت

العدالة الإنسانية» وأخذها هو من كتاب «تاريخ إعلان حقوق الإنسان» الذي وضعه الكاتب الفرنسي «البيربابيه» ونقله إلى العربية «محمّد مندوّر» ونشرته جامعة الدول العربية:

١ ـ يولد الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، مزوّدين بالعقل والضمير، وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضاً بروح الأُخوّة.

٢ ـ لكلّ إنسان أن يتمتّع بكافة الحقوق والحريّات الواردة في هذه الوثيقة، وذلك بدون أيّ تمييز، وخاصة ما كان بسبب الجنس واللون والذكورة أو الأُنوثة واللغة والدين، والرأي السياسي أو أيّ رأي خلافه، والأصل الوطني النازح منه الفرد، أو الأصل الاجتماعي وحالة الغنىٰ والفقر والمركز العائلي، أو أي مركز خلافه.

٣ ـ تمتدّ الحقوق الواردة في هذه الوثيقة إلىٰ جميع سكّان الأراضي الموضوعة تحت الوصاية، والأراضي غير المتمتعة بالحكم الذاتي، وذلك علىٰ قدم المساواة مع سكان البلاد ذات السيادة.

٤ ـ لكلّ فرد الحقّ في الحياة، وفي الحرية، وفي أن يعيش آمناً مطمئناً.

٥ ـ لا يجوز أن يعيش إنسان في الرقّ أو الاستعباد، والرقّ والنخاسة في كافة صورهما محظوران.

٦ ـ لا يجوز أن يعذّب إنسان، أو أن توقع عليه عقوبات قاسية غير إنسانية، أو مزرية بالكرامة.

٧ ـ لكلّ إنسان الحقّ في أن يعترف له في كلّ مكان بشخصيّته القانونية.

٨ ـ الجميع متساوون أمام القانون، ولكلّ فرد ـ دون أيّ تمييز وعلىٰ قدم المساواة ـ الحقّ في أن يحتمي به. وللجميع الحقّ في الحماية ضدّ كلّ تمييز يعتبر خروجاً علىٰ هذه الوثيقة، وضدّ كلّ تحريض علىٰ هذا التمييز.

٩ ـ لكلّ إنسان الحقّ في الالتجاء الفعلي إلى القضاء الوطني المختصّ بالنظر في كلّ إعتداء على الحقوق الأساسية المعترف له بها في الدستور والقوانين.

١٠ ـ لا يجوز القبض علىٰ أحد، أو حبسه، أو نفيه باجراء تحكّمي.

١١ ـ لا يجوز أن يتعرّض أحد لتدخّل تحكّمي في حياته الخاصّة، أو في أُسرته أو منزله أو مراسلاته، ولا أن يعتدىٰ علىٰ شرفه وسمعته. لكلّ إنسان الحقّ في حماية القانون ضدّ مثل التدخّل وذلك الاعتداء.

١٤ ـ لكلّ فرد الحقّ في التنقّل بحريّة، وفي اختيار داخل الدولة. لكلّ إنسان الحقّ في أن يغادر أيّ بلد بما في ذلك بلده، وأن يعود إليه.

١٥ ـ لكلّ إنسان الحقّ أزاء الاضطهاد في أن يبحث عن ملجأ، وأن يستفيد من وجود هذا الملجأ في بلاد أُخرىٰ.

١٦ ـ لكلّ فرد الحقّ في الملكية سواء بصفة فردية أو اجماعية. لا يجوز حرمان أحد من ممتلكاته باجراء تحكّمي.

١٧ ـ لكلّ إنسان الحقّ في حرية التفكير والاعتقاد والديانة.

١٨ ـ لكلّ شخص الحقّ في حرية الرأي والتعبير، بما يتضمّنه ذلك من الحقّ في أن لا يزعج بسبب آرائه.

١٩ ـ لكلّ إنسان الحقّ في أن يساهم في إدارة شؤون بلاده العامّة، وذلك سواء بصفة مباشرة أو بواسطة ممثّلين منتخبين انتخاباً حرّاً. لكلّ شخص الحقّ في تولّي الوظائف العامّة في بلده علىٰ أساس المساواة. إرادة الشعب هي مصدر السلطات العامّة.

٢٠ ـ لكلّ إنسان الحقّ في الضمان الاجتماعي، بأن يحصل على الحقوق الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية اللّازمة لكرامته، ولتنمية شخصيّته تنمية طليقة، وذلك بفضل المجهود القومي، والتعاون الدولي.

٢١ ـ لكلّ شخص الحقّ في العمل والحريّة في اختياره بشروط عادلة مجرّبة، كما أنّ له الحق في الحماية من البطالة.

للجميع الحقّ دون أيّ تميز، في الحصول علىٰ أجرٍ متساوٍ عن عملٍ متساوٍ.

لكلّ من يعمل الحقّ في أجر عادل مجزٍ يضمن له ولأُسرته حياة تتّفق مع الكرامة البشريّة. ويكمّل عند الضرورة هذا الأجر بأيّة وسيلة من وسائل الحماية الاجتماعية.

٢٢ ـ لكلّ فرد الحق في مستوىً من الحياة يضمن له ولأُسرته الصحّة والرخاء، وبخاصّة فيما يتعلّق بالمأكل والملبس والمسكن والخدمات الصحيّة، والخدمات الاجتماعية الضرورية، كما أنّ له حقّ الضمان في حالة البطالة والعجز عن العمل، والترمّل والشيخوخة، وفي الحالات التي يعقد فيها وسائل كسب قوّته نتيجةً لظروف لا دخل لارادته فيها.

٢٣ ـ لكلّ إنسان الحقّ في التعليم، ويجب أن يكون التعليم مجانياً. والتعليم الأوّلي إجباري.

يجب أن يهدف التعليم إلىٰ تنمية الشخصية البشرية، وتقوية احترام حقوق الإنسان وحريّاته الأساسيّة، ومن الواجب أن يناصر الفهم المتبادل، والتسامح، والصداقة بين كافة الأُمم وكافة الجماعات، كما يعمل علىٰ تعزيز مجهودات الأُمم المتحدة للمحافظة على السلام.

٢٤ ـ على الفرد واجبات نحو الهيئة الاجتماعية التي من الممكن أن تنمو فيها وحدها شخصيّته نموّاً كاملاً.

٢٥ ـ لا يخضع الفرد عند مزاولة حقوقه، والتمتّع بحريّاته إلّا للقيود التي ينصّ عليها القانون لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحريّاتهم واحترامها، ثمّ لحماية مقتضيات الأخلاق الدقيقة والنظام العام، والرفاهيّة العامة في مجتمع ديموقراطي.

لا يمكن في أيّة حالة مزاولة هذه الحقوق والحريّات علىٰ نحو يتعارض مع أهداف ومبادئ الأُمم المتّحدة.

٢٦ ـ لا يجوز أن يفسّر أيّ نصّ من نصوص هذه الوثيقة علىٰ أنّه يتضمّن بالنسبة لأيّة دولة، أو أيّة هيئة، أو أيّ فرد الحقّ في أن يزاول أيّ نشاط، أو أن يقوم

بأيّ عمل يرمي إلىٰ تحطيم الحقوق والحريّات الواردة فيها.

* * *

هذا أهمّ ما جاء في وثيقة الأُمم المتّحدة لاعلان حقوق الإنسان وحريّاته، هذه الحقوق والحريّات التي ما تزال دول الأُمم المتّحدة تحطّمها فيما تدّعي المحافظة عليها والعمل من أجلها.

وأظنّ أنّ القارئ سوف يدرك بالعاجل القريب ما بين مواد هذه الوثيقة، وبين دستور الإمام علي ﷺ من علاقة وقرابة، إلّا ما ارتبط منها بالزمان وتطوّراته. هذا بالاضافة إلىٰ إطار من الحنان الإنساني العميق يحيط بـه الإمـام ﷺ دسـتوره في المجتمع، ولا تحيط الأُمم المتّحدة وثيقتها بمثله.

وهنالك وثيقة أُخرىٰ نحو حقوق الإنسان الطبيعية، ونحو حمايته مـن الظـلم والعبودية، ونحو تحريره من كلّ خوف، ومن كلّ سوط.

ولقد كان من الضروريّ النافع أن نبسط للقارئ هذه الوثيقة؛ لنجلو له عدم الفارق، ووحدة الموضوع بينها وبين ما وضعه الإمام علي ﷺ منذ أربعة عشر قرناً.

هذه الوثيقة هي التي نظمت عقودها الحكومة الفرنسية وغلت وأسرفت في الغلوّ، فإذا الحبّة عندها قبّة، وتبجّحت وافتخرت بها علىٰ دول أوربا قاطبة.

ولو أنّها عرفت ونظرت أنّ الوثيقة التي صاغت شـعاراتهـا ومـبادئها، هـي أصول موضّحة ومركّزة عند الإمام علي ﷺ في «نهج البلاغة» بكثير وكثير مـن المتانة، لاندهشت وذهلت وانخفظ صـوتها، حـتّىٰ لكأنّ الإمـام عـاش أيّـامهم، وتطوّرات زمانهم، وأحوال مجتمعاتهم، وأدرك الكثير من تجاربهم واختباراتهم.

وإذا أنت تابعت سيرة الإمام علي ﷺ بتفهّم وعمق، تجده لا يغفل عن صغيرة أو كبيرة ممّا يخصّ الحقوق الإنسانية. وإذا به ينبهك إلىٰ ما يراه ولا تراه، لا جاهداً ولا متكلّفاً، وإذا أقواله وأعماله في هذا الباب واحدة لا تتناقض ولا تتعارض بل تنبع من معين واحد، كما تنبع المياه من الأرض، لا يتبدّل طعمها بين ليل ونهار ولا

يختلف، فإذا اختلف فإنّما يختلف لفظاً وعبارةً لا جوهراً وأصلاً.

وإذا أقواله وأعماله تدور جميعاً علىٰ محور واحد ذي قطبين:

أمّا القطب الأول (أو المصدر): فالشخصية الواحدة المتأجّجة بنار واحدة، الآخذة المعطية علىٰ صعيد واحد.

وأمّا القطب الثاني (أو الغاية): فخدمة الإنسان واحترام الحياة. وإذا توحّد المصدر، وتوحّدت الغاية جاءت الأفكار والنظريّات والأعمال واحدة وإن اختلفت ظروفها، وتباينت موضوعاتها. وهذا الذي ينبثق عنه في مختلف الأحوال والظروف، هو الذي يجعل لأقواله، وتعاليمه، وعهوده، قيمة الدستور المنظم، المبني علىٰ أصول، والموجّه الى غايات.

أما الآن، فإلى الكلام عن وثيقة «حقوق الإنسان» المنبثقة عن جهود الإنسانية بكاملها، والتي وضعت الثورة صيغتها، ثمّ إلى الكلام عمّا كشف الإمام علي عليه السلام من أُصولها وأركانها.

أوّل ما نلفت إليه الأنظار هنا، هو أنّ فارق الزمان أمر حريّ بالاعتبار، وعلىٰ هذا يجب أن ينظر في الأصول العميقة التي تجوز حدود الزمان والمكان، وتصطبغ بالصبغة الإنسانية العامة. أمّا ما يتعلّق بالزمان والمكان فليس بذي شأن كثير في موضوع هذه المقابلة إذا التقى الوجهان المقابلان علىٰ صعيد الإنسانية العام.

ونعطيك علىٰ هذا مثالاً عاجلاً: فالذي يقول لك اليوم: «لا تذهب إلىٰ تلك المدينة إلّا راكباً سيارة» كالذي قال لك من ألف سنة: «لا تذهب إلىٰ تلك القرية إلّا راكباً جملاً»؛ فالعام المتعلّق بجوهر هذا الطلب هو «الركوب لا المشي»، والخاصّ المتعلّق بالزمان والمكان وهو: «السيارة والجمل»، فإذا تمّ المعنى العام أو الجوهر في الطلبين جازت المقابلة.

وعلىٰ كلّ حال، فالعبرة هنا بروح النصّ وبما يتحمّل من تفصيل يتعلّق بجوهره، ثمّ بما يتضمّنه من معان شاملة، وسوف ترىٰ أن النصّ الذي لم يفرغه

علي ﷺ في القالب العصري ـ كما نفهمه اليوم ـ مفرغ في سلسلة من التجارب العملية الحيّة التي تعطيها معنى العلم كما تعطيها في أكثر الأحيان قالبه وشكله.

المقارنة بالتفصيل:

أمّا وثيقة حقوق الإنسان الفرنسيّة فإليك مبادئها واحداً واحداً، متبوعاً كلّ منها بما أعطاه الإمام علي ﷺ من أُصول توافقها في المعنىٰ، ومن نصوص ترادفها أو تماشيها في الغاية.

المبدأ الأول: الحرية والمساواة:

يقول المبدأ الأول:

«الناس يولدون ويظلّون أحراراً ومتساوين في الحقوق».

فيما يخص الشق الأول من هذا المبدأ «الناس يولدون ويظلون أحراراً» يقول الامام علي ﷺ: «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً»(١).

هذه الآية العلوية توافق الشق الأول من الوثيقة الفرنسية روحاً وغاية ونصاً، ولا حاجة بنا الآن لايضاح ما هو واضح فيها. وقد تحدّثنا طويلاً في كتابنا ـ علي ونهج البلاغة ـ عن عمل علي في إيقاظ روح الحرية في الناس، وعن اعترافه الصريح بأن قوة الوجود جعلت الناس أحراراً، لهم أن ينظروا في شؤونهم فيستغنوا بما علموا، لا إكراه في ذلك ولا قسر. ولهم أن ينكروا متىٰ شاؤوا، وأن يؤازروا، وأن يكونوا من أمورهم جميعاً علىٰ ما يبدو لهم، فلا سلطان لانسان علىٰ إنسان بحكم المولد، ولا منّة يطوق بها رجل عنق رجل بما أذن له به من حرية التصرّف، فكلا الرجلين موجود حراً يرىٰ ويفكر ويعلم ويريد.

نعم: ربما خشي علي ﷺ ألا يستشعر الناس بقوة وجلاء أنهم أحرار أصلاً،

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب رقم ٣١.

وأنهم يظلون أحراراً بما يترتب علىٰ هذه الأصالة. فاذا به يمكّن فكرة الحرية في نفوسهم ويسعىٰ في تدعيمها بكلّ وسيلة، فيخاطبهم جميعاً وفيهم الصديق والعدو، والمحب والكاره، والمعاون والمنابذ، فيقول: «لم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين». ويقول أيضاً: «وليس لي أن أحملكم علىٰ ما تكرهون».

ومعنىٰ هاتين العبارتين مترتب علىٰ معنىٰ العبارة الأولىٰ: «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً». فالذي جُعل حرّاً لا يمكن أن يكون في شيء من حالاته مكرهاً لأن الاكراه ينقض الحرية. ويمعن في ذلك فيقول لأحد خصومه: «وقد أذنت لك أن تكون من أمرك علىٰ ما بدا لك»[١]. ومعنىٰ ذلك:

أنّ السلطة التي كانت بيد علي ﷺ ليست بالسلطة التي تجيز لنفسها نقض الأصل الذي هو «حرية الرأي وحرية الاختيار». وحرية الرأي والاختيار لا تكون لازمة للإنسان إلّا إذا كان «مولوداً حرّاً» علىٰ نحو ما في الوثيقة الفرنسية، ولا يترتّب نقضها إلّا إذا نقض هذا الأصل.

وفي هذا الضوء الساطع من الاعتراف الصريح بأنّ الناس يولدون أحراراً، يتوجّه علي إلى الآباء قائلاً لهم: «لا تقسروا أولادكم علىٰ أخلاقكم فإنّهم مولودون لزمان غير زمانكم»[٢].

وفي هذا المبدأ من تعريف «الولادة الحرّة» شيء كثير؛ فإنّ الأبناء إن تخلّصوا من القسر والإكراه والاستعباد من جانب السلطة والقوانين، فإنّهم لا يتخلّصون عادةً من أخلاق آبائهم، وعاداتهم، وميولهم، وسائر ما يفرض عليهم فرضاً بحكم نزوع الآباء إلىٰ أن ينشأ أولادهم علىٰ ما نشأوا عليه.

فإذا بعليّ ﷺ يلتفت إلىٰ هذا الواقع، إلتفاتاً هو من صميم الاعتراف بحريّة المولد، ومن صميم الاشارة إلىٰ أنّ الحريّة لا تتقيّد حتّىٰ بشروط يضعها الآباء قسراً

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم٢٠٨.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢٠ : ٢٦٧ باب ١٠٢.

أو فرضاً؛ لأنّ الحريّة في أقصىٰ معانيها وأهدافها دافع إلى التطوّر وباعث على التقدّم.

ومذهب علي ﷺ في الحريّة يوجب عليه أن ينتبه إلى الجانب الوجداني منها تنبّهاً شديداً، فيلحظ أنّ الإكراه إساءة إلىٰ حياة الإنسان الداخلية تلحق الأذىٰ في المكرِه والمكرَه، فيقول: «**إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالاً وَإِدْبَاراً، فَأْتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ**»[١].

وفي هذا الموقف السليم يقطف عليّ من وجدان الناس اعترافاً أصيلاً بأنّهم أحرار في المولد والمنشأ لا قسر عليهم ولا إكراه.

وهكذا، فإنّ الناس «يولدون ويظلّون أحراراً» في وثيقة حقوق الإنسان الفرنسيّة، وهي كذلك في دستور الإمام علي ﷺ مع مراعاة ما يختلف بعض الاختلاف الشكلي في صيغة هذه المادة من الوثيقة الفرنسيّة وصيغة العبارات العلويّة.

هذا من ناحية الشقّ الأوّل من المادة الأُولىٰ، أمّا الشقّ الثاني منها فيقول: «ومتساوين في الحقوق».

ولعليّ ﷺ نصوص كثيرة تجدها في عهوده إلى الولاة، منها ما يقرّر مباشرةً هذه «المساواة في الحقوق» بين جميع الناس، ومنها ما يشير إليها، ومنها ما يدور في روحها، ويؤول إلىٰ معناها.

وإليك ما يقوله بصدد «المساواة في الحقوق» نصّاً صريحاً كأنّه منتزع من المبدأ الأوّل من وثيقة حقوق الإنسان، أو كأنّ هذا المبدأ منتزع منه.

«**اَلْحَقُّ لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَىٰ عَلَيْهِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَىٰ لَهُ**»[٢].

وليس في هذا المبدأ العلوي ما يحتاج إلىٰ توضيح، فهو الشقّ الثاني من أوّل

---

(١) نهج البلاغة: قصار الحكم ١٩٣.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ٢١٦.

مبادئ وثيقة حقوق الإنسان معنىً ولفظاً.

ثمّ إنّنا نجد في عهده إلى الأشتر النخعي هذه القاعدة:

«إياك والاستئثار بما الناس فيه أُسوة». أي احذر أن تخصّ نفسك أو غيرك من البشر بكثير أو قليل من الأُمور التي تجب فيها المساواة بين الناس وهي: الحقوق العامّة.

ثمّ يقول له ولسواه: «وليكن أمر الناس عندك في الحقّ سواء». ومعنىٰ هذه العبارة، كما هو واضح، أنّ الناس متساوون في الحقوق لا فرق فيهم بين كبير وصغير، أو بين قريب وبعيد، أو بين عربي وأجنبي؛ لأنّ هؤلاء جميعاً هم الذين يعبّر عنهم بلفظة «الناس».

ثمّ يشدّد عليّ علىٰ هذا المعنىٰ خشية أن يلتبس على الولاة ما أراد، فينبّه كلاًّ منهم إلىٰ أصل الأصول، وهو أنّ البشر جميعاً متساوون في الحقوق؛ لأنّهم متساوون في المولد، ثمّ في صفة الإنسان قبل أن يكونوا أقارب وأباعد، عرباً وعجماً، قائلاً: «كلّ إنسان نظير لك في الخلق»[1].

ولذلك كان «للأقصىٰ ـ في دستور علي ـ مثل الذي للأدنىٰ». ولذلك يقول في غير المسلمين: «أموالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا» ما جاز عليهم جاز علىٰ غيرهم، وما حرّم عليهم حرّم علىٰ غيرهم كذلك.

وعلىٰ هذا فإنّ الناس «يولدون ويظلّون أحراراً ومتساوين في الحقوق» في وثيقة حقوق الإنسان التي انجلت عنها الثورة الفرنسيّة الكبرىٰ. وهم كذلك في دستور الإمام علي ﷺ.

المبدأ الثاني: حق الملكية والأمن:

وإليك الآن المبدأ الثاني من وثيقة حقوق الإنسان:

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

«الغاية من كلّ مجتمع إنساني صيانة الحقوق الطبيعيّة للإنسان. تلك الحقوق التي لا تزول مهما تقادم عليها الزمان، وتعاقب الليل والنهار وهي: الحريّة، والتملّك، وطمأنينة النفس ـ أو الأمن ـ ومقاومة الجور والاضطهاد».

تبيّن لنا أنّ مجتمع الإمام علي عليه السلام ليس بالمجتمع القبلي. فالمجتمع القبلي في عُرفه غاشم ظالم يأخذ أبناءه بالقسوة دون اللين، وبالعصبيّة دون الشعور الإنساني الرفيع، وبامتيازات الوجهاء دون حقوق المواطنين ودون جهودهم، والنزعة القبليّة تستوجب المفاخرة بظنّ لا يصيب، وتدعو المرء إلىٰ أن يتكبّر علىٰ ابن أُمّه، ويتجبّر علىٰ أبيه، وحجّته في ذلك غواية أو هي من حبال الهوي. وهي فوق ذلك مدعاة للفتنة، والفتنة خراب البلاد، وهلاك العباد، ويأس القلوب، وظلمة الأرض.

وتبيّن لنا كذلك أنّ مجتمع علي عليه السلام ليس بالمجتمع العنصري الذي يرىٰ للعربي فضلاً على الأعجمي بمولده ونسبه. فالمجتمع العنصري في عرفه هو المجتمع القبلي الغاشم الظالم، ولكن علىٰ نطاق أوسع في عدد الناس، فكما أنّ علياً لم يكن ليرىٰ فضلاً لقرشيّ علىٰ تميمي، أو أسدي أو عبسي، ولا لمضري علىٰ ربعي، لم يكن ليرىٰ فضلاً لعربيّ علىٰ روميّ أو فارسي بالمولد والنسب. فالانسان لديه هو الإنسان لا فرق بينه وبين أخيه إلّا بما يعلم ويعمل.

فالعلم والعمل هما أساس المفاضلة بين الناس؛ لأنّ «أقلّ الناس قيمةً أقلّهم علماً وأبعدهم عن أن يعمل بعلمه»؛ ولأنّ أكثرهم قيمةً «من كان يومه خيراً من أمسه، وغده خيراً من يومه»؛ ولأنّ الناس متساوون علىٰ هذا النحو كان عليهم أن يعقدوا فيما بينهم «حبل الأُلفة فينتقلوا في ظلّها ويأووا إلىٰ كنفها»؛ لأنّ «الأُلفة نعمة أرجح من كلّ ثمن، وأجلّ من كلّ خطر».

وكلّ من النزعة القبليّة والعصبيّة العنصريّة مدعاة إلىٰ تفكيك المجتمع الذي يريده علي إنسانياً يعيش بنعمة الأُلفة، ويتعاون على الخير.

والعصبيّة علىٰ كلّ حال هي نخوة الشيطان، وغاية شرّه، وما وضع أساس العصبيّة غير الشيطان، فباتت مأخذ يده، وموطئ قدمه؛ لأنّها تجمع أبناءها على التكبّر، والحقد، والعداوة، والغضب، والاستئثار، والاحتكار، والحميّة الفارغة.

يقول علي ﷺ في خطبته المعروفة بالقاصعة:

«... اعترضته الحميّة ـ يعني إبليس ـ فافتخر علىٰ آدم بخلقه، وتعصّب عليه لأصله، فَعُدّ إمام المتعصّبين، وسلف المتكبّرين، الذي وضع أساس العصبيّة».

ثمّ يقول مخاطباً للناس:

«فاطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبيّة، وأحقاد الجاهلية، واعتمدوا علىٰ خلع التكبّر من أعناقكم، ولا تكونوا كالمتكبّر علىٰ ابن أُمّه من غير فضل فيه سوىٰ ما ألحقت العصبيّة بنفسه من عداوة الحسد. واستعيذوا بالله من لواقح الكبر كما تستعيذونه من طوارق الدهر. واحذروا ما نزل بالأُمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال، وذميم الأعمال فتذكروا في الخير والشرّ أحوالهم»(١).

ونعيد هنا ما سبق أن ذكرناه من قول علي ﷺ الذي يدلّ بصراحة مطلقة علىٰ وحدة الجنس البشري، ووحدة الجهود المشتركة بين الناس جميعاً، ثمّ علىٰ وحدة الواجبات، ووحدة الحقوق بين أبناء المجتمع الذي لا يكون علىٰ هذه الصورة إلّا مجتمعاً إنسانياً خالص الإنسانيّة لا نزعة قبليّة فيه، ولا عصبيّة عنصريّة.

قال: «ثمّ جعل الله حقوقاً لبعض الناس علىٰ بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها، ويوجب افتراض بعضها بعضاً، ولا يستوجب بعضها إلّا ببعض»(٢).

وعلىٰ هذا يكون المجتمع العلوي إنسانيّاً، وهو كذلك بالضرورة لا بالاختيار؛ لأنّ واجبات الناس نحو الناس سلسلة متواصلة متماسكة، وكذلك حقوقهم التي تتكافأ ولا يستوجب بعضها إلّا ببعض.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٢١٦.

فالمجتمع في المبدأ الثاني من وثيقة حقوق الإنسان مجتمع «إنساني» لا فرنسي، وهو في دستور علي «إنساني» كذلك لا عربي.

أمّا الغاية من هذا «المجتمع الإنساني» في الوثيقة الفرنسيّة، فهي «صيانة الحقوق الطبيعيّة للإنسان»، فما هي في مجتمع الإمام علي. يقول علي عليه السلام نصّاً:

«إنّه لا ينبغي أن يكون الوالي على الناس البخيل فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيظلمهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتّخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع.»

وفي هذا النصّ من الصراحة ما لا يحتاج إلىٰ كثير من التفسير أو التعليق. فمن صفة الوالي القائم علىٰ رأس الحكومة تعرف الحقوق الواجبة على الحكومة نحو هذا المجتمع كما تعرف الغاية من وجود هذا المجتمع.

فالانسان الذي يعيش في مجتمع الإمام الإنساني، هو كائن مصانة حقوقه فأمواله له، وهو آمن لا يعتدىٰ عليه، ولا يضطهد في حال من أحواله، وهو مطمئن إلىٰ أنّ حكومته لا تجفو فتقطعه عنها وعن المجتمع بهذا الجفاء، وهو مطمئنّ كذلك إلىٰ أنّه مساوٍ لجميع المواطنين؛ لأنّ القانون يفرض هذه المساواة فلا يتمتّع بحمايته قوم دون قوم، ولا يلجأ إلىٰ حماة إنسان دون إنسان.

وهو واثق بأنّ سائر حقوقه، صغيرها وكبيرها، قليلها وكثيرها، لن تذهب عنه الى سواه؛ لأنّ وظيفة الحكم أن يصونها لا أن يذهب بها. وكلّ من الناس يجب أن يرعىٰ حقّه في دستور علي القائل للحاكم: «وكلّ من الناس قد استرعيت حقّه»(١).

وهذه الحقوق في الوثيقة الفرنسيّة هي: الحريّة، والتملّك، وطمأنينة النفس ـ أو الأمن ـ ومقاومة الجور.

وهي كذلك في دستور علي عليه السلام.

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣.

أمّا حقّ الحريّة، فقد مرّ الكلام عليه.

وأمّا حقّ التملّك، فلعلي فيه نصّ يعترف به ويثبته، يقول: «ولا تمسنّ مال أحد من الناس»[1]. والمال كناية عن الملك، وهذا الملك الذي يحوزه من عمل في مذهب علي، لا من احتكر أو استغفل، أو أضاف إلىٰ نفسه جهد سواه، جدير بأن يدعو صاحبه للمحافظة عليه، ولئلّا ينام عن اغتصابه. وفي ذلك يقول علي ﷺ: «ينام الرجل على الثكل ولا ينام على الحرب»[2]. والحرب هو سلب الأموال، واغتصاب الملك.

ويقول علي في مكان آخر: «لا تبخسوا الناس أشياءهم»، «وإنّما يعاب من أخذ ما ليس له» و «المال مال الناس». وفي ذلك كلّه اعتراف بأنّ للناس أشياء، وهم مالكوها، وبأنّ الدولة هي المحافظة علىٰ هذه الأشياء، أو هذه الحقوق، ويجب ألّا يبخس صاحب الحقّ حقّه.

أمّا حقّ الأمن، فعلي يضعه في طليعة الحقوق، وهو ميسور بها جميعاً مترتّب عليها، فإذا نهىٰ عن الحرب والفتنة؛ فلأنّ «في السلم أمناً للبلاد»؛ ولأنّ كلّ إساءة إلىٰ هذا الأمن في غير موضعها هي شر، و «الغائب بالشر مغلوب». وعلي لا يرىٰ لمجتمعه الإنساني الحقوق العامّة غاية أجمل من أن يسوده الأمن، فيطمئنّ الناس بعضهم الى بعض، ويرتفع سلطان واحدهم عن الآخر، لذلك نراه ينسب التعدّي إلى الوحوش الضواري كما ينسب الجشع في الابتلاع إلى البهائم، فيقول: «إنّ السباع همّها التعدّي، وإنّ البهائم همّها بطونها»[3].

أمّا الإنسان فهمّته في غير ذلك، همّة الإنسان في شرع الإمام علي ﷺ هي أن يكون امرءاً «لا تخاف له غائلة، آمن جاره». وهو لا يرىٰ في كلّ دستور، وفي كلّ شريعة أعظم من أن تكون في هذه الشريعة أو ذاك الدستور وفي خاتمة كلّ

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٥١.

(٢) نهج البلاغة: قصار الحكم ٣٠٧.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٣.

حساب: «أمان أهل الأرض» فالرغبة في الأمن في نظر الإمام عليه السلام واجب خلقي يتميّز به الإنسان عن الوحش الضاري. والأمن لديه غاية ينتهي إليها كلّ دستور صالح وكلّ شريعة، وهو كذلك واجب يرعاه الوالي وترعاه الدولة. وبرعاية الأمن ورفع التعدّي ـ بعد رعاية الحقوق العامّة كافّة ـ يستقيم أمر الناس لدولهم في نهج الإمام.

ومفهوم الأمن عنده ليس مفهوم الأمن عند كثير من فلاسفة العصور القديمة، وولاتها ومشرّعيها، فالأمن عند كثير من أولئك لا يعني أكثر من الاستكانة إلىٰ أمر السلطان، والخضوع لأوامره، والاستسلام للحالة الراهنة مهما طغى الطغاة، وتجبّر المتجبّرون، وهدرت حقوق الناس.

أمّا الأمن عند علي عليه السلام فهو رضىٰ الناس عن حكومتهم، وقبولهم العافية لما يُصان من حقوقهم، ويتوفّر من أسباب عيشهم، ويشيع بينهم من عدل، ويراعىٰ فيهم حقّ المساواة، بهذا وحده يسود الأمن في الناس وتظهر مودّتهم لحكومتهم.

يقول علي عليه السلام في دستوره: «وإنّ أفضل قرّة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودّة الرعيّة، وأنّه لا تظهر مودّتهم إلّا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلّا بقلّة استثقال دولهم»[1].

إذن، فالناس في مجتمع علي عليه السلام من حقّهم أن يكونوا آمنين، والدولة من واجباتها رعاية هذا الحقّ بكلّ وسائلها الطبيعية الممكنة. وعلىٰ أيّة حال فإنّ علياً عليه السلام هو صاحب هذا المبدأ: «من أمنت أذيّته فارغب في أُخوّته» وهو كذلك أوّل من رأىٰ أنّ الدولة هي من الناس بمنزلة الوالدين قائلاً لعامله علىٰ مصر ـ مالك الأشتر ـ: «ثمّ تفقّد من أُمورهم ما يتفقّد الوالدان من ولدهما» وهذه هي الغاية التي لا غاية بعدها في ما يؤول إلى الأمن، وفي واجب الدولة نحو الناس وهم «أبناؤها».

---

(١) من عهده عليه السلام الىٰ الأشتر.

أمّا حقّ «مقاومة الجور» الذي تعلنه وثيقة الثورة الكبرىٰ، فإنّ الحديث عنه يملأ نهج علي عليه السلام، وقلّما تخلو خطبة له، أو وصيّة أو عهد من إعلان هذا الحقّ، وتنبيه الجماعة إليه، ويتميّز علي عن أكثر مفكّري العصور السابقة بأنّه لم يجعل دفع الظلم أمراً منوطاً بإرادة الحاكم أو المشرّع إن شاء ظلمَ وإن شاء عدل؛ بل جعله حقاً من حقوق الجماعة يولون من يرفع عنهم الجور، ويعزلون من جار واضطهد وأساء.

وأوامره التي يعلن بها عن حقّ الإنسان في مقاومة الظلم والاضطهاد، تخالها مصوغة بروح مفكّري الثورة الكبرىٰ وبأُسلوبهم. يأمر أتباعه أوّل الشيء قائلاً لهم: «كونوا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»[1] و «خذوا علىٰ يد الظالم السفيه».

ثمّ يضع مقاومة الجور موضع المقابلة مع الرفق، فيرىٰ أنّ الرفق أولىٰ في كلّ حال، إلّا ساعة يشتدّ ظالم علىٰ مظلوم فإنّ أخذ الأُمور أخذاً رفيقاً إذ ذاك لا يغني ولا يفيد، فيقول: «وارفق ما كان الرفق أرفق، واعتزم الشدّة حين لا يغني عنك إلّا الشدّة»[2].

ومقاومة الظالم بالسيف حقّ مشروع للناس، لذلك يحذّر علي عليه السلام الحاكم من أن يظلم، مذكّراً إيّاه بحقّ الناس في قتاله جائراً مستبدّاً، فيقول لممثّل الحكومة: «استعمل العدل، واحذر العسف والحيف، فإنّ العسف يعود بالجلاء، والحيف يدعو إلى السيف»[3] أمّا العسف فالشدّة في غير حقّ، وأمّا الحيف فالظلم. وغاية علي عليه السلام من إطلاق هذه العبارة ـ كما هو واضح ـ النزوع بالمظلومين إلى القتال لانقاذ أنفسهم.

ومن هذا الباب قوله مخاطباً من وقع عليهم الظلم وظلّوا ساكتين: «ألا تسخطون وتنقمون أن يتولّىٰ عليكم السفهاء الظالمون، فتعمّوا بالذلّ، وتقرّوا بالخسف، ويكون نصيبكم الخسران». ويقرّر هذا الحقّ في أقوال أُخرىٰ منها:

---

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٤٧.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب رقم٤٦.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٤٧٦.

«ألا إنّ لكلّ دمٍ ثائراً، ولكلّ حق طالباً»[1]. ومنها هذه الآية الصريحة في حمل الناس علىٰ دفع الظلم من حيث أتىٰ: «ردوّا الحجر من حيث جاء». وردّ الحجر من حيث جاء، كناية عن مقابلة الشرّ بما يدفعه ويردع فاعله عن أن يعود إليه، هذا إذا لم تنفع الحسنىٰ. ومنها: «الوفاء لأهل الغدر، غدر عند الله».

المبدأ الثالث: الشعب مصدر السلطات:

وإليك المبدأ الثالث من وثيقة حقوق الإنسان الفرنسيّة:

«كلّ سلطة مصدرها الشعب وحده، ولأيّ فرد أو جماعة أن يأمروا أو ينهوا إلّا إذا استمدّوا السلطة من الشعب».

يتعارض مدلول لفظة «شعب» أو «أُمّة» عادة مع مدلول «طبقة» أو «خاصّة». أمّا اللفظة التي كانت تعني «الشعب» في زمن علي ﷺ فهي لفظة «العامة»، وكانت «الخاصة» معارضة لها، ومثل «العامة» لفظة «السواد» أي الأكثريّة الساحقة من الناس، وكذلك لفظة «الجماعة». فإذا أدركنا ذلك تبيّن لنا أنّ علياً لا يقبل السلطة إلّا أن تكون ممثّلة لإرادة الشعب أو الأُمّة. وفي ذلك يقول نصّاً:

«وألزموا السواد الأعظم فإنّ يد الله مع الجماعة»[2] أي سيّروا القوانين والأنظمة بما يتّفق مع مصلحة الشعب؛ لأنّه هو الأصل، وهو السبب في وجود السلطة، ويد الله معه وحده، ومن الطبيعي ألّا ترضىٰ «الفئة القليلة» بأن تعلوها إرادة الجماعة؛ لأنّها تريد القوانين في خدمتها. لذلك تسخط، وتثور، وتحاول قلب الأوضاع لمصالحها.

وعلي ﷺ يأبىٰ أن يكون في الناس راضون وساخطون، ولكن السخط إذا جاء

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٥.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٧.

من قبل الخاصة التي جعلت همّها اغتصاب الخيرات واحتكار المنافع، والاستئثار بما الناس فيه أسوة، فليسخطوا ولينقموا؛ لأنّ العافية لا تكون إلّا برضى المجموعة الشعبية. وفي ذلك يقول: «سخط الخاصّة يغتفر مع رضا العامّة».

وعلي ﷺ لا يرىٰ معنىٰ لوجود السلطة إذا لم تكن ممثّلة لإرادة الشعب. لذلك يحدّد معنىٰ أصحاب السلطة هذا التحديد الجمهوري الذي لا يختلف معنىً ولا لفظاً عن تحديدات الثورة الفرنسيّة لها، فيقول في القائمين على السلطة إنّهم: «خزّان الرعيّة، ووكلاء الأُمّة» وخزّان الرعيّة هم الذين يتولّون خدمة الناس، فهم بذلك خدّام الشعب، ومصرفوا أعماله، والمحافظون علىٰ مصالحه وأمواله وحقوقه، ولا عمل لهم في غير ذلك. ووكلاء الأُمّة هم نوّابها الذين تثق بهم فينوبون عنها في رعاية شؤونها والسهر علىٰ حقوقها، ولا عمل لهم في غير ذلك.

وبما أنّ مصدر السلطة هو الشعب وحده في نهج علي ﷺ فإنّ وجودها لا يعني أكثر من تجسيم هذه الإرادة العامّة. فإذا استقام أمر الناس بأصحاب السلطة، استقامت السلطة وبقي أصحابها في مناصبهم، وإلّا فليعزلوا في الحال: «ولا تصلح الولاة إلّا باستقامة أمر الرعيّة»[1] وأمر كلّ سلطة مرهون بهذه الإرادة العامّة: «أفضل قرّة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودّة الرعيّة، وأنّه لا تظهر مودّتهم إلّا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلّا بقلّة استثقال دولهم»[2].

ولمّا ولّي علي الخلافة بادر الناس بهذا القول: «أيّها الناس، إنّما أنا واحدٌ منكم لي ما لكم وعليّ ما عليكم، والحقّ لا يبطله شيء»[3]. وكان يقول: «ولا أخفيت شيئاً من الأمر عنكم».

وكان ﷺ يضع نظريّته في معنى السلطة موضع التنفيذ في كلّ حال، فينبّه الشعب إلىٰ حقّه في مراقبة صاحب السلطان، وإلىٰ أنّ مصدر هذا السلطان مستقرّ

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٢٧.
(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣.
(٣) شرح نهج البلاغة ٧ : ٣٦ باب ٩١.

فيه. فكان إذا ولّي أحدهم إقليماً من الأقاليم، أو مدينة من المدن، أعطاه عهداً يقرأه على الناس. فإذا أقرّه الناس بعد أن يقرأ عليهم العهد، كان هذا العهد عقداً بينهم وبينه، لا يجوز له أن يتأوّله أو يخالفه في كثير أو قليل. فإذا تأوّله أو خالفه عزل في الحال. ومن تأكيداته هذا القول يخاطب به الوالي:

«فإن ولّوك في عافية، وأجمعوا عليك بالرضا، فقم في أمرهم، وإن اختلفوا عليك فدعهم وما هم فيه».

وأظنّ أنّ الصلة الجوهريّة بين هذا المبدأ ومبدأ «سيادة الشعب» الذي تبنّته وثيقة الثورة، واضح ساطع الوضوح.

علىٰ هذه الصورة نجد المبدأ الثالث من مبادئ الثورة الفرنسيّة الكبرىٰ، في دستور الإمام علي ﷺ معنىً ونصاً صريحين.

المبدأ الرابع: عدم إلحاق الضرر بالآخرين:

أمّا المبدأ الرابع فيقول:

«قوام الحريّة أن يستطاع عمل كلّ ما لا يضرّ بالغير، فرداً أو جماعةً».

علمنا أن القاعدة في نهج الإمام علي ﷺ هي إقرار حقّ الناس بأن يكونوا أحراراً في ما يعملون، فليس لأحدٍ أيّاً كان، أن يقسر آخراً أيّاً كان علىٰ عمل لا يرتضيه، ولا يرىٰ فيه خيراً.

غير أنّا علمنا أيضاً، أنّ هذه الحريّة مقيّدة في نهجه بمصلحة الجماعة. فليس حرّاً في عمله من يحمل الأذىٰ للآخر فيا يعمل. من ذلك ما رأينا ممّا أباحه للتجّار وأهل الصناعة من حريّة، وممّا أوجبه على الحكومة من حمايتهم ورعايتهم، حتّىٰ إذا استأثروا واحتكروا عدّهم معتدين، فقيّد حريّتهم إلّا أن يتركوا الاحتكار.

ومن ذلك ما رأينا ممّا أباحه للناس من حريّة الاعتقاد والمذهب السياسي، حتّىٰ إذا أساء هؤلاء استخدام هذه الحريّة فتصرّفوا بما يضرّ الجماعة حمل عليهم،

وقيّد حريّتهم، وضبط تصرّفاتهم، في نطاق من مصلحة الهيئة العامّة.

وكانت آياته في ذلك تدور جميعاً حول هذا المعنىٰ: «قد أذنت لك أن تكون علىٰ ما بدا لك من رأي وعمل إلّا أن تسيء وتؤذي». ومن أوامره التي أنزلها منزلة القانون: «ولا يطمعنّ منك أحداً في اعتقاد عقدة تضرّ بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك»[١].

المبدأ الخامس: لا يحق للقانون منع الاعمال غير المضرة:

أمّا المبدأ الخامس فيقول:

«لا يحقّ للقانون أن يمنع غير الأعمال المضرّة بالهيئة العامّة».

هذا المبدأ ليس في حاله أكثر من حدّ لحريّة القانون في نطاق ما يصلح الجماعة، وهو يجري من المبدأ السابق جرياً منطقيّاً خالصاً. فإذا كان قوام الحريّة أن يستطاع عمل كلّ ما يضرّ بالغير، فإنّ القانون لا يمكنه عند ذاك أن يمنع غير هذه الأعمال المضرّة.

وقد تبيّن معنا هنا وهناك أنّ علياً ﷺ لم يتشدّد في قول، أو عمل من شأنه أن يرفع القانون الى غير مكانة، فيجعله في مرتبة فوق مصلحة الناس. وقول علي وعمله كانا بمثابة القانون بوصفه مشرّعاً ومنفّذاً وقدوةً. قد رأيناه يخضع كلّ قانون لمفاهيم الخير العام. ورأيناه يعطي الحريّة، التاجر والصانع والزارع فيما يعملون، ويرعىٰ هذه الحريّة حتّىٰ إذا تحوّلت إلىٰ نشاط عدواني يضرّ بالهيئة العامة، قيّدها في الحال أو عطّلها.

ورأيناه يعطي الحريّة للولاة، والعمّال، والقضاة، ورؤساء الجند، حتّىٰ إذا طغوا، واستبدّوا، واعتدوا، وسلكوا في الهيئة العامّة مسلكاً مضرّاً، قيّد هذه الحريّة أو عطّلها في الحال.

(١) من عهده ﷺ الى الأشتر.

ورأيناه يأذن لأخصامه في العقيدة والمذهب أن يكونوا علىٰ ما بدا لهم، حتّىٰ إذا خرجوا، وأفسدوا، وأقلعوا فأضروا بالهيئة العامّة، قيّد حريّتهم في الحال أو عطّلها.

ورأيناه يفعل أكثر من ذلك، رأينا يعطّل القانون نفسه إذا كان في تعطيله ما ينفع الهيئة العامّة بكاملها، أو ببعض طبقاتها المعوزة، فإذا نصّ القانون علىٰ جباية الخراج في مواسم معيّنة، بعث إلى الناس من يجبي هذا الخراج، فاذا أنكروا حقّ الحكومة في هذه الجباية لفقر أو لحاجة، عطّل القانون وأمر بألّا يؤخذ مال الخراج من أهله حتّىٰ تزول عنهم الشدّة، ويسارعوا من أنفسهم لدفع هذا المال.

وإذا نصّ القانون علىٰ حدّ الزانية بما فعلت، عالج أحوالها واستنطقها، فإذا تبيّن له أنّها زنت لضرورة قاهرة، عطّل القانون في الحال، وخلّىٰ سبيلها إصلاحاً لأمرها ورحمةً بها.

فمن ذلك ما رواه البيهقي في «السنن» قال:

«أُتي عمر بن الخطاب في خلافته بامرأة جهدها العطش فمرّت علىٰ راعٍ فاستسقته، فأبى الراعي أن يسقيها إلّا أن تمكنه من نفسها، ففعلت فشاور عمر الناس في رجمها. فقال علي ﷺ: هذه مضطرّة أرىٰ أن يخلّىٰ سبيلها، ففعل»[1].

وفي كلّ ذلك اعتراف من الإمام، بأنّ القانون ليس شيئاً مقدّساً بذاته؛ وإنّما يكتسب هذه القداسة حين يكون خدمة ورحمة ورعاية. ومن ثمّ فليس لهذا القانون أن يتغاضىٰ عن حاجات الناس، وليس له أن يمنع عملاً لا يضرّ بالهيئة العامّة.

المبدأ السادس: القانون تعبير عن إرادة الأُمة:

ويقول المبدأ السادس:

«القانون هو مظهر الإرادة العامّة، ولكلّ المواطنين الحقّ في أن يشتركوا في

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٨: ٢٣٦.

وقيّد حريّتهم، وضبط تصرّفاتهم، في نطاق من مصلحة الهيئة العامّة.

وكانت آياته في ذلك تدور جميعاً حول هذا المعنىٰ: «قد أذنت لك أن تكون علىٰ ما بدا لك من رأي وعمل إلّا أن تسيء وتؤذي». ومن أوامره التي أنزلها منزلة القانون: «ولا يطمعنّ منك أحداً في اعتقاد عقدة تضرّ بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك»[1].

المبدأ الخامس: لا يحق للقانون منع الاعمال غير المضرة:

أمّا المبدأ الخامس فيقول:

«لا يحقّ للقانون أن يمنع غير الأعمال المضرّة بالهيئة العامّة».

هذا المبدأ ليس في حاله أكثر من حدّ لحريّة القانون في نطاق ما يصلح الجماعة، وهو يجري من المبدأ السابق جرياً منطقيّاً خالصاً. فإذا كان قوام الحريّة أن يستطاع عمل كلّ ما يضرّ بالغير، فإنّ القانون لا يمكنه عند ذاك أن يمنع غير هذه الأعمال المضرّة.

وقد تبيّن معنا هنا وهناك أنّ علياً ﵇ لم يتشدّد في قول، أو عمل من شأنه أن يرفع القانون الى غير مكانة، فيجعله في مرتبة فوق مصلحة الناس. وقول علي وعمله كانا بمثابة القانون بوصفه مشرّعاً ومنفّذاً وقدوةً. قد رأيناه يخضع كلّ قانون لمفاهيم الخير العام. ورأيناه يعطي الحريّة، التاجر والصانع والزارع فيما يعملون، ويرعىٰ هذه الحريّة حتّىٰ إذا تحوّلت إلىٰ نشاط عدواني يضرّ بالهيئة العامة، قيّدها في الحال أو عطّلها.

ورأيناه يعطي الحريّة للولاة، والعمّال، والقضاة، ورؤساء الجند، حتّىٰ إذا طغوا، واستبدّوا، واعتدوا، وسلكوا في الهيئة العامّة مسلكاً مضرّاً، قيّد هذه الحريّة أو عطّلها في الحال.

---

(١) من عهده ﵇ الى الأشتر.

ورأيناه يأذن لأخصامه في العقيدة والمذهب أن يكونوا علىٰ ما بدا لهم، حتّىٰ إذا خرجوا، وأفسدوا، وأقلعوا فأضروا بالهيئة العامّة، قيّد حريّتهم في الحال أو عطّلها.

ورأيناه يفعل أكثر من ذلك، رأينا يعطّل القانون نفسه إذا كان في تعطيله ما ينفع الهيئة العامّة بكاملها، أو ببعض طبقاتها المعوزة، فإذا نصّ القانون علىٰ جباية الخراج في مواسم معيّنة، بعث إلى الناس من يجبي هذا الخراج، فاذا أنكروا حقّ الحكومة في هذه الجباية لفقر أو لحاجة، عطّل القانون وأمر بألّا يؤخذ مال الخراج من أهله حتّىٰ تزول عنهم الشدّة، ويسارعوا من أنفسهم لدفع هذا المال.

وإذا نصّ القانون علىٰ حدّ الزانية بما فعلت، عالج أحوالها واستنطقها، فإذا تبيّن له أنّها زنت لضرورة قاهرة، عطّل القانون في الحال، وخلّىٰ سبيلها إصلاحاً لأمرها ورحمةً بها.

فمن ذلك ما رواه البيهقي في «السنن» قال:

«أُتي عمر بن الخطاب في خلافته بامرأة جهدها العطش فمرّت علىٰ راعٍ فاستسقته، فأبى الراعي أن يسقيها إلّا أن تمكنه من نفسها، ففعلت فشاور عمر الناس في رجمها. فقال علي ﷺ: هذه مضطرّة أرىٰ أن يخلّىٰ سبيلها، ففعل»[١].

وفي كلّ ذلك اعتراف من الإمام، بأنّ القانون ليس شيئاً مقدّساً بذاته؛ وإنّما يكتسب هذه القداسة حين يكون خدمة ورحمة ورعاية. ومن ثمّ فليس لهذا القانون أن يتغاضىٰ عن حاجات الناس، وليس له أن يمنع عملاً لا يضرّ بالهيئة العامّة.

المبدأ السادس: القانون تعبير عن إرادة الأُمة:

ويقول المبدأ السادس:

«القانون هو مظهر الإرادة العامّة، ولكلّ المواطنين الحقّ في أن يشتركوا في

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٨: ٢٣٦.

وضعه بأنفسهم أو بواسطة نوّابهم، وهو واحد بالنسبة للجميع سواء أكان مانحاً أم مانعاً، حامياً أم معذراً. والناس سواء أمام المراتب والوظائف العامّة لا تفاضل بينهم إلّا في اختلاف كفاءاتهم، ولا تمييز إلّا فيما تقتضيه فضائلهم ومواهبهم».

من الواضح انّ هذا المبدأ إعادة أو تأكيد للمبدئين الأوّل والثالث من الوثيقة الفرنسيّة. أمّا الشقّ الأوّل من هذا المبدأ فهو إعادة وتأكيد وتفصيل للمبدأ الثالث القائل بأنّ «كلّ سلطة مصدرها الشعب وحده». وأمّا الشقّ الثاني فهو إعادة وتأكيد وتفصيل للمبدأ الأوّل القائل بأنّ «الناس يولدون ويظلّون أحراراً ومتساوين في الحقوق». وعلى هذا يكون الكلام على المبدأ السادس قد مرّ في الكلام على هذين الأصلين من مبادئ الوثيقة، فارجع إن شئت إليه.

المبدأ السابع والثامن: العقوبة عند مخالفة القانون:

أمّا المبدآن السابع والثامن، فيقولان:

«لا يمكن الشكوى على أيّ إنسان كان، أو القبض عليه، أو توقيفه، إلّا في الأحوال المبنيّة في القانون، وكلّ من ينفّذ أمراً إستبدادياً مخالفاً للقوانين، أو يأمر به أو يوعز بتنفيذه يستحقّ العقاب».

«لا يسوغ للقانون أن يضع غير العقوبات الضرورية ضرورة أكيدة وصريحة، تستلزمها الحالة الاجتماعية. ولا يمكن معاقبة أيٍّ كان إلّا بموجب قانون وضع ونشر، وأصبح نافذاً قبل وقوع الجرم وعمل به على النظام».

يقول علي عليه السلام في نطاق من روح هذين المبدأين قولاً يختلف عنهما نصّاً وينزع عن جوهرهما موضوعاً وغايةً، وممّا جاء في بعض عهوده:

«اطلق عن الناس عقدة كلّ حقد، واقطع عنك سبب كلّ وتر، وتغاب عن كلّ ما لا يصح لك، ولا تعجلنّ الى تصديق ساع فإنّ الساعي غاش وإن تشبّه بالناصحين. وإيّاك والعجلة بالأُمور قبل أوانها، أو التسقّط فيها عند إمكانها، أو

الوهن عنها إذا استوضحت، فضع كلّ أمر موضعه، وأوقع كلّ أمر موقعه»[١].

وأظنّ أنّ القارئ واقع علىٰ ما بين المبدأين السابع والثامن وبين قول علي عليه السلام من وحدة في موضوع الكلام وجوهره. فإذا لم يتعجل الحاكم بالأمور قبل أوانها ـ والحاكم هو منفّذ القانون ـ وإذا تغابىٰ عن كلّ ما لا يصحّ له ـ أي ما لا يأمر به القانون ـ وإذا لم يأخذ الناس بغش المساعي، فإنّما ينتهي الأمر إلى النتيجة ذاتها التي ينتهي إليها هذا القول: «لا يمكن الشكوىٰ علىٰ أي إنسان كان أو القبض عليه أو توقيفه» الخ.

وكذلك إذا لم يتهاون في الأمور عند إمكانها، ولم يهن عنها إذا استوضحت، بل وضع كلّ أمر موضعه وأوقع كل أمر موقعه، وقطع عن نفسه سبب كل عداوة ـ أي قطع سبب كلّ هوىٰ يعطل القانون الصالح ـ فإنّه عند ذاك لا ينفّذ أمراً استبدادياً مخالفاً للقوانين، ولا يأمر به ولا يوعز بتنفيذه، علىٰ نحو ما جاء في الوثيقة الفرنسية. أمّا إذا فعل شيئاً من هذا، فهو معاقب في مبادئ الوثيقة، وهو معاقب كذلك في دستور علي عليه السلام؛ لأنّه «آثم ظالم مخالف لمصلحة الرعية».

أما كون القانون «لا يسوغ له أن يضع غير العقوبات الضرورية ضرورة أكيدة تستلزمها الحاجة العامة» فقد مرّ الكلام عليه في حديثنا عن المبدأ الخامس.

المبدأ التاسع: كل انسان بريئ حتىٰ تثبت إدانته:

وإليك المبدأ التاسع من الوثيقة الفرنسية:

«يعتبر كلّ إنسان بريئاً حتّىٰ تثبت إدانته، فإذا دعت الضرورة للقبض علىٰ امرئ واستعمل بحقّه عنف لم يكن ضرورياً للتأمين من شخصه، فعلىٰ القانون أن يعاقب علىٰ ذلك بكلّ شدّة».

يتألّف هذا المبدأ من شقّين اثنين؛ أما الشقّ الأول القائل: «يعتبر كلّ إنسان

---

(١) من عهده إلى الأشتر.

بريئاً حتىٰ تثبت إدانته»، فيقول علي عليه السلام في معناه هذا القول الصريح: «لا آخذ على التهمة ولا أُعاقب على الظنّ» أي أنّ براءة جميع الناس هي الأصل، فاذا اتّهموا أو ظنّ بهم الخروج على القوانين العامة، فلا يؤخذون علىٰ تهمة، ولا يعاقبون علىٰ ظن، وإنّما يظلّون في نظر القانون أبرياء إلىٰ أن تثبت إدانتهم فإذا ثبتت جاز عقابهم.

وفي هذا المعنى يقول أيضاً متمّماً هذا المبدأ من دستوره عليه السلام: «لا يجوز القصاص قبل الجناية». وهاتان الآيتان العلويتان هما الشقّ الأوّل من المبدأ التاسع من مبادئ الوثيقة الفرنسية نصّاً ومعنىً. أضف إليهما هذه الثالثة التي يطلقها علي عليه السلام لتلفّ القانون والناس جميعاً بجمال المنطق الإنساني ودفء العاطفة الإنسانية، فإذا هي قانون وما فوق القانون في وقت معاً: «واعذروا من لا حجّة لكم عليه».

أما الشقّ الثاني الذي يعاقب بموجبه كلّ من لجأ إلى العنف في أخذ امرئ قُبض عليه قبل ثبوت إدانته، فلعلي بمعناها أوامر كثيرة، وهو لا يرىٰ عذراً في منطق القانون لمن يعاقب امرءاً عقاباً ما قبل أن تثبت عليه تهمة تستوجب هذا العقاب. ولفظة «العمد» التي ترد في أقوال علي بهذا الموضوع تعني: الأخذ بما لا يبرّره القانون، سواء أكان هذا الأخذ عنيفاً أو ليّناً. يقول عليه السلام في عهده إلى الأشتر:

«ولا تقوينّ سلطانك بسفك دم حرام، فإنّ ذلك ممّا يضعفه ويوهنه، بل يزيله وينقله، ولا عذر لك عندي في قتل العمد».

ومعنىٰ هذا أنّ عقاب امرئ بالقتل قبل ثبوت إدانته ممّا يستوجب هذا العقاب أمراً لا عذر لصاحبه لدى القانون، والذي يرتكب مثل هذا العمل يعاقب بزوال سلطانه.

ومن أخبار علي عليه السلام التي تعود بالايضاح علىٰ ما لديه من مبدأ يتّفق والمبدأ التاسع من وثيقة حقوق الإنسان الفرنسية، ما رواه ابن أبي الحديد في شرح النهج، قال: قال علي عليه السلام: «... ثمّ جاءني ـ أحدهم ـ فقال لي: إنّي قد خشيت أن يفسد

عليك عبد الله بن وهب، وزيد بن حصين الطائي. إنّي سمعتهما يذكرانك بأشياء لو سمعتها لم تفارقهما حتّىٰ تقتلهما أو توثقهما، فلا يزالان بمحبسك أبداً، فقلت له: إنّي مستشيرك فيهما فماذا تأمرني به؟

قال الرجل: إنّي آمرك أن تدعو بهما فتضرب رقابهما. فعلمت أنّه لا ورع له ولا عقل، فقلت له: ما أظنّ لك ورعاً ولا عقلاً لقد كان ينبغي أن تعلم أنّي لا أقتل من لم يقاتلني ولم يظهر لي عداوته، ولقد كان ينبغي لك لو أردت قتلهم أن تقول لي: إتّق الله، بم تستحلّ قتلهم ولم يقتلوا أحداً»(١).

ومن نهجه في أخذ من تثبت إدانته أخذاً يكون فيه قصاص عادل لا إهانة ولا تعنيف ولا تعذيب، قوله مشيراً إلىٰ من أساؤوا: «ونكّل بهم في غير إسراف».

المبدأ العاشر: حريّة إبداء الآراء:

«لا يجوز تنكيد أيٍّ كان بسبب آرائه حتّى الدينيّة منها مادام إبداؤها لا يخلّ بالنظام العام الذي يقرّره القانون».

المضمون العام لهذا المبدأ إعادة وتأكيد لما رأيناه في المبدأين الرابع والخامس، تضاف إلىٰ ذلك التفاتة خاصة الى حقّ الناس في الاعتقاد بما يشاؤون.

وقد مرّ بنا الكلام في مجال البحث في المبدأين الأول والثاني، علىٰ أنّ علياً عليه السلام يعترف للناس في دستوره بحقّهم في أن يدينوا بما يريدون، شرط ألّا يلحقوا ضرراً بالقانون الذي هو قانون الجماعة. ونعيد هنا رأيه الصريح في هذا الشأن، قال:

«لو ثنيت لي وسادة فجلست عليها لحكمت في أهل التوراة بتوراتهم، وفي أهل الانجيل بانجيلهم، وفي أهل القرآن بقرآنهم، حتّىٰ تركت كلّ كتاب ينطق من نفسه»(٢).

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ١٤٨ باب ٤٤.

(٢) راجع البحار ٤٠: ١٥٣ ح٥٤.

لقد صدق علي ﷺ، ومن صفات القانون الرئيسي عنده ألّا يؤذىٰ إنسان بسبب عقيدته الدينية. قال مخاطباً الناس الذين يعيشون في ظلّ سلطة عادلة: «ولا ظلم منكم مسلم ولا معاهد».

ومن أوامره العامة لمنفّذي القوانين: «آمرك بالعدل علىٰ أهل الذمّة، وبانصاف المظلوم، وبالشدّة على الظالم، وبالعفو عن الناس والاحسان ما استطعت». ومنها أيضاً: «لا تبغ علىٰ أهل القبلة، ولا تظلم أهل الذمّة»[1].

وليس بعد هذه الأقوال غاية تقصد في معنىٰ حرية الاعتقاد، وفي تقرير حقّ الناس في ما يذهبون إليه من رأي في الدين يخالف آراء الآخرين.

المبدأ الحادي عشر: حريّة النشر:

أما المبدأ الحادي عشر فيقول:

«حرية نشر الأفكار والآراء حقّ من أثمن حقوق الإنسان، فلكلّ امرئ إذن أن يتكلّم ويكتب ويطبع بملء الحريّة إلّا أنّه مسؤول عن خرق هذه الحريّة في الأحوال المعيّنة في القانون». هذا المبدأ إعادة وتأكيد للمبدأ السابق.

المبدأ الثاني عشر:

«ضمان حقوق الإنسان والوطنيّين ستلزم قوّة عامة وهذه القوّة ـ أو السلطة ـ العامة منشأة لمصلحة المجموع لا لمصلحة من يوكّل إليهم إدارتها».

يتألّف هذا المبدأ من أصلين، الأول: ضرورة وجود سلطة عامة، والثاني: قيام هذه السلطة للمصلحة العامة.

أما في الأصل الأوّل فيقرّر علي ﷺ أنّه: «لابدّ للناس من إمام». أي لابدّ من حكومة تضمن للناس حقوقهم وترعىٰ فيهم العدل وتقيم الحق. وقد قرّر هذا المبدأ

---

(١) من عهده إلى الأشتر.

بعد أن قال الخوارج: «لا إمرةَ إلّا لله». ويستنتج من قول الإمام في هذا الظرف بالذات، أنّ الناس لا يتركون في رعاية الله وحده، ولا في رعاية أنفسهم، بل في رعاية قانون زمني ترعاه حكومة زمنية تحيي حقاً وتزهق باطلاً، وتجعل البشر سواسية أمامه.

ومن أقواله في ضرورة قيام حكومة مركزيّة يعود إليها تصريف الأمور بناءً علىٰ قاعدة ودستور، هذه الكلمة التي يؤنّب بها القوم ساعة ينزعون عن إرادتهم الفرديّة في ما يتعلّق بالتصرّفات العامة: «... وتعويلهم في المهمّات على آرائهم كأنّ كلّ امرئ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرىٰ بعرىٰ ثقات، وأسباب محكمات»[1].

وهو لا يلومهم مثل هذا اللوم إلّا ساعة تقوم بينهم حكومة ديموقراطيّة الاتجاه تعي مسؤوليّاتها ولا تجهل وظيفتها، وهم لا يستشعرون لها وجوداً، لذلك يلحق هذا القول بقول آخر هو: «عليكم بطاعة من لا تعذرون بجهالته»[2].

والجهل في الحاكم أو صاحب السلطة، عذر للناس في ألّا يطيعوا في نهج علي عليه السلام.

أمّا الأصل الثاني من هذا المبدأ، فلعليّ فيه أوامر وأحكام تحدّثنا عنها، وخلاصته: أنّ من يوكّل إليهم ادارة السلطة العامة ليسوا إلّا بشراً في خدمة القانون ـ الذي وضع في خدمة الناس ـ يصون ما عليهم من المسؤوليات؛ لأنّهم «خزان الرعيّة، ووكلاء الأُمّة»؛ ولأنّ «عملهم ليس بطعمة»؛ ولأنّ الأموال التي تحت أيديهم «ليست لهم بل هي أموال من جاء قبلهم من الناس ومن سيأتي بعدهم»؛ ولأنّ «الإمام رجل من الناس، له ما لهم وعليه ما عليهم».

وإذا كان الأمر كذلك، فعلىٰ أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بالعامة، ومن

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٨٨.

(٢) نهج البلاغة: قصار الحكم ١٥٦.

أوامره عليه السلام التي تشرع للحاكم هذه المساوات بينه وبين الناس جميعاً والتي تقصيه عن كلّ امتياز شخصي، قوله عليه السلام لحكّام زمانه:

«إيّاك والاستئثار بما الناس فيه أُسوة، والتغابي عمّا تعنىٰ به ممّا قد وضح للعيون، فإنّه مأخوذ منك لغيرك. وعمّا قليل تنكشف عنك أغطية الأمور، وينتصف منك للمظلوم، والواجب عليك أن تتذكّر ما مضىٰ لمن تقدّمك من حكومة عادلة، وتجتهد لنفسك في اتّباع ما عهدت إليك في عهدي هذا، واستوثقت من الحجّة لنفسي عليك، لكي لا تكون لك علّة عند تسرّع نفسك الى هواها.

وأنا أسأل الله أن يوفّقني وإيّاك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه، وإلىٰ خلقه مع حسن الثناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد»[1].

المبدأ الثالث عشر: الضرائب العامة:

«يتحتّم للقيام بهذه القوّة العامة ونفقات الادارة وضع رسوم عامّة يجب توزيعها علىٰ جميع المواطنين بالسواء كلٌّ علىٰ قدر طاقته».

مرّ الكلام علىٰ هذا الموضوع في بحث الضرائب، فعد إليه إن شئت.

المبدأ الرابع عشر: الضرائب يحدّدها الشعب:

«لأهل البلاد جميعاً الحقّ في أن يقرّروا بأنفسهم أو بواسطة نوّابهم الضرائب التي تستلزمها القوّة العامة، وأن يقبلوا بها عن رضىٰ، وأن يحدّدوا مقدارها ومدّتها وكيفية تقسيمها وتحصيلها، وأن يتتبّعوا كيفية إنفاقها».

لو تتبّعنا أعمال الإمام علي عليه السلام وأقواله في ما يتّصل بمضمون هذه المادة لرأينا عجباً، ولعلّ الإمام عليه السلام أوّل حاكم في تاريخ الشرق، بل في تاريخ الإنسانيّات القديمة جميعاً، يأمر بما لا يألفه زمانه، وأبناء زمانه ففيما كان حكام العصور القديمة

---

(١) من عهده عليه السلام إلى الأشتر.

مشرّعوها وفلاسفتها يحدّدون الضرائب العامة إستناداً إلىٰ نظريّاتهم الخاصّة وحسب، ويحدّدون طرق جبايتها على الأُسلوب الذي يقرّرونه هم وحدهم، ويسلكون في إنفاقها الطريق الذي يرون، لا نظر للجمهور في كلّ ذلك ولا رأي، كان الإمام عليه السلام ينزع في هذا الباب المنزع الذي أقرّه مفكّروا فرنسا في القرن الثامن عشر، وأصبح القاعدة الأصل لكلّ ما يتعلّق بالضرائب في أنحاء الأرض في عصرنا هذا.

ولقد ألقينا ضوءاً علىٰ أُسلوب الإمام في معنىٰ هذه المادة، بصدد الحديث عن الضرائب، وإليك قليلاً من المزيد للتأكيد والتقرير.

رأينا أنّ علياً عليه السلام يطلق على الحكّام لقب «نوّاب الأُمّة».

ثمّ رأيناه يأمر هؤلاء النوّاب بأن يساووا بين الناس في الضرائب، وألّا يجبوا منها إلّا ما تستلزمه المصلحة العامة، وألّا يأخذوا من أحد الناس ضريبة لا يتمكّن من دفعها، بل أن يسقطوها عنه كليّاً ويأخذوا عوضاً عنها من أموال الأغنياء.

ثمّ رأيناه يربط بين يسر الناس وتحصيل الضريبة ربطاً محكماً، ويأمر الناس أنفسهم بألّا يدفعوا ضريبةً إلّا عن رضاً، فإن لم يرضوا عنها أُعيد النظر فيها، فإن لم يرضوا بعد ذلك تركوا وشأنهم.

ورأينا فوق ذلك يأمر هؤلاء الحكّام بألّا ينفقوا قرشاً واحداً من أموال الضرائب إلّا في المصلحة العامة، ثمّ يطلب إلى الناس أن يستخدموا حقّهم في مراقبة هذا الانفاق فإمّا رضاً وإمّا إنكاراً، فإن رضوا بقىٰ للحاكم سلطان عليهم تحدّده مصلحة الجماعة، وإن أنكروا زال هذا السلطان من تلقاء نفسه.

وفي ذلك كلّه ما تستوي فيه نظرية الإمام ومضمون المادّة الرابعة عشرة من وثيقة الثورة الكبرىٰ، وفيه ما يتجاوز هذا المضمون إلىٰ عطف على الناس عظيم، وإحسان إليهم لا مزيد عليه، ممّا ينسجم مع دستوره في لزوم التعاطف والتعاون الكاملين بين الحاكم والشعب أو بين «الوالد وأبنائه» علىٰ حدّ تعبيره عليه السلام. أمّا ما

يتجاوز في دستوره مضمون المادّة المذكورة فهو إسقاط الضريبة عمّن لا يستطيع إلىٰ تأديتها سبيلاً.

المبدأ الخامس عشر: حق المحاسبة:

«للهيئة العامة أن تسأل كلّ موظّف عام عن إدارته، وتراقبه في أعماله».

يقول علي عليه السلام مخاطباً الحاكم:

«إن ظنّت بك الرعيّة حيفاً فأصحر لهم بعذرك، واعدل عنك ظنونهم باصحارك»(١). أي: إذا ظنّ بك الناس اعوجاجاً أو انصرافاً عن لزوم الحقّ والعدل، فما عليك إلّا أن تبرز لهم في الحال وتبيّن عذرك؛ لأنّك مسؤول أمامهم ولأنّهم محقّون في سؤالك عمّا تفعل وفي مراقبة أعمالك، فأنت «نائب الأُمّة».

ومن مقرّراته عليه السلام هذا القول الذي أطلقه قانوناً وأشهد عليه الناس وعمل به: «أيّها الناس، إنّما أنا واحد منكم، لي ما لكم وعليّ ما عليكم، والحقّ لا يبطله شيء»(٢). وهذا القول أيضاً: «ولا أخفيت شيئاً من الأمر عنكم».

وفي كلّ ذلك أساس واضح المعالم للمبدأ الذي يعترف بحقّ الهيئة العامة في مراقبة القائمين علىٰ أمر الدولة، وسؤالهم عمّا يعملون.

المبدأ السادس عشر: الفصل بين السلطات:

«كلّ هيئة عامّة لا ضمانة فيها لحقوق الإنسان، ولا فصل فيها بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، تعتبر أنّها ليست علىٰ شيء من القانون الأساسي».

تبيّن معنا أنّ دستور علي يوجب ضمانة الحقوق العامة. أمّا الفصل بين

---

(١) من عهده عليه السلام إلى الأشتر.

(٢) شرح نهج البلاغة ٧: ٣٦ باب ٩١.

السلطات الثلاث فليس القول فيه إلّا من نتاج العصور الحديثة. لذلك لا نجد مثل هذا الفصل في دستور علي عليه السلام. إلّا إنّا نستدرك ونلفت النظر إلىٰ ما رأيناه من الأساس الذي وضعه علي لفصل القضاء ـ مبدئياً ـ عن السلطة التنفيذية.

المبدأ السابع عشر:

«ولما كان التملّك حقاً مقدّساً لأيّ شخصٍ، فلا يمكن نزعه عن أيّ إنسان كان، إلّا إذا استلزمت ذلك المصلحة العامة استلزاماً بيّناً ثابتاً شرعاً، وبشرط دفع تعويض عادل مقدماً».

تبيّن معنا أنّ التملّك حقّ من حقوق الناس في دستور الإمام عليه السلام، وكذلك نزع هذا الحقّ عن أحد الناس لمصلحة الجماعة، وإنّا نجد في أوامره وأعماله ما يشير دائماً إلىٰ ذلك، إذ يقرّر الأصل الذي هو مصلحة الجماعة أوّلاً. من ذلك أنّه انتزع من الولاة والأغنياء الذين أثروا في عهد عثمان علىٰ غير بلاء، واقتطعوا الأراضي والضياع ما كانوا يملكون من زمن بعيد، إنتصافاً منهم للمصلحة العامة.

وأخال القارئ بعد هذا كلّه قد أدرك ووعىٰ أنّ هذه المبادئ التي أشاعها أُدباء الإنسانية، ولم تأخذ صيغتها القريبة من الكمال إلّا في عقول أُدباء الثورة الكبرىٰ وفي قلوبهم، إنّما هي مبادئ فكّر بها منذ أربعة عشر قرناً عملاق العقل العربي عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وصاغها صريحة تعلن عن ذاتها جوهراً في كلّ حين، ونصّاً وجوهراً في أكثر الأحيان.

قصّة ظريفة:

وهنا قصة ظريفة أودّ أن أروي خطوطها للقارئ بشيء من الايجاز غير المخلّ، وفيها ختام الفصل، مع علمي أنّها توقد شعلة الأسىٰ والأسف في قلب كلّ مسلم غيور، أرسمها في كتابي هذا ـ علي والأُسس التربوية ـ وأنا في النجف الأشرف

عاصمة العالم الإسلامي سنة ١٣٧٨ هـ، أجل أرسمها لعلّ أن ينتبه المسلمون من رقادهم، وقد آن وقت الانتباه.

ذكر جورج جرداق في كتابه «صوت العدالة الإنسانية» قال: حدّثني الكاتب اللبناني الصديق ج.ح. قال:

يوم كنت في أحد البلدان الأوربية التي تسعىٰ في تحرير الإنسان من العوز والفاقة وويلاتها، قلت لوزير معارف ذلك البلد: نحن العرب سبقناكم أكثر من ألف عام إلىٰ إدراك حقيقة المجتمع الطبقي التي تعملون أنتم اليوم علىٰ توضيحها. فقال الوزير الأوربي: وكيف كان ذلك، قال: منذ بضعة عشر قرناً قال عليّ بن أبي طالب: «ما رأيت نعمةً موفورةً إلّا ألىٰ جانبها حقّ مضيّع».

فقال الأوربي: إنّما نحن أفضل منكم، قال: لم؟ وكيف؟ قال: لأنّ عربيّاً منكم اكتشف هذه الحقيقة منذ بضعة عشر قرناً وأنتم ما تزالون في مظلمة اجتماعية، فيما طبّقناها نحن قبلكم، فأنتم متأخّرون عنّا بضعة عشر قرناً في هذا المعنىٰ.

الفصل الثالث
معالجة القلب

«فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ أَيْ بُنَيَّ، وَلُـزُومِ أَمْـرِهِ، وَعِـمَارَةِ قَـلْبِكَ بِـذِكْرِهِ، وَالْاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ، أَحْيِي قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْـيَا، وَحَـذِّرْهُ صَـوْلَةَ الدَّهْرِ، وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَآعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وَعَمَّا آنْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمُ آنْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِـبَّةِ، وَحَلُّوا دارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ، فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ، وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ، وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ، وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ».

تقوى الله تعالىٰ:

قوله عليه السلام: «فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ أَيْ بُنَيَّ وَلُزُومِ أَمْرِهِ».

هذا فصل يتكفّل سعادة الدارين للإنسان، وعمدة ما يهمّ في النظام النـوعي والفردي، وأهمّ ما يقرّره علم الاجتماع.

ففي هذه الكلمة الحثّ على التقوى التي لا يعتمد جمام الإنسان وراحة البشر إلّا عليها. فرجل التقوىٰ هو الذي تأمن الناس بوادره، وتأمل نجعته ورفـده، ولا يتحرّىٰ إلّا مرضاة ربّه، ويخشىٰ غضبه. وعامل التقوىٰ يحدوا إلىٰ هذه كلّها، ولزوم أمره سبحانه مساوق لما ذكرناه من لوازم التقوىٰ.

ولم تكن هنالك خصلة أصلح للعبد، وأجمع للخير وأعـظم بـالقدر، وأنجـح للآمال من التقوى، والقرآن الكريم مشحون بمدحها وفـضلها، وعـدّد في مـدحها خصالاً:

١ ـ المدحة والثناء بقوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

٢ ـ الحفظ والتحصين من الأعداء وهو قوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٣ ـ التأييد والنصر وهو قوله: ﴿أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

٤ ـ إصلاح العمل وهو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ● يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

٥ ـ غفران الذنوب وهو قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

٦ ـ محبّة الله تعالى وهو قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

٧ ـ قبول العمل وهو قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

٨ ـ الإكرام وهو قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

٩ ـ البشارة عند الموت وهو قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ● لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٣-٦٤].

١٠ ـ النجاة من النار كما في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: ٧٢].

١١ ـ الخلود في الجنّة كما في قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

١٢ ـ تيسير الحساب كما في قوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الانعام: ٦٩].

١٣ ـ النجاة من الشدائد والرزق الحلال كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً • وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

فلينظر الإنسان إلىٰ ما جمعت هذه الآيات من السعادة والخير، فلا ينس نصيبه منها.

* * *

ذكر الله تعالىٰ:

قوله عليه السلام: «وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ».

عمارة القلب بذكر الله تعالى ذكراً لا يعتريه النسيان، يستتبع ملازمة الطاعة له، والانسلال عن معصيته في جميع أطوار الإنسان وشؤونه، في سرّه وعلانيته، وفي حلّه ومرتحله، فلا يرد إلّا في طاعة، ولا يصدر إلّا عن معصية، فمن كان محبوّاً بهذه الفضيلة فالناس جميعاً محبورون بفضائله وفواضله.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا أُنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخيرٌ لكم من إعطاء الورق والذهب، وخيرٌ لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله عزّ وجلّ[1].

وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً: سبق المفرّدون، سبق المفرّدون، قيل: ومن هم يا رسول الله؟

(١) المحاسن ١: ١٠٩ ح ٤٥؛ عنه البحار ٩٣: ١٥٧ ح ٢٩.

قال: المستغرقون بذكر الله تعالى، وضع الذكر عنهم أوزارهم، فوردوا القيامة خفافاً[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. وقد انكشف لأرباب البصائر المستنيرة بنور المعرفة أنّ ذكر الله أفضل الأعمال الروحية، والقلبية، والنفسية، والبدنية، ولكن له مراتب بعضها قشور، وبعضها لبوب. وللذاكر أيضاً مراتب بحسبه، ولكلّ ذكر نتيجة أيضاً فإنّ نتيجة ذكر العبد لله ذكر الله له كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقيل: في هذه العبارة تقديم وتأخير لأنّ الله أمرهم بالذكر مع فاء التعقيب كقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وذلك لأنّ ذكر العبد لله تعالى نتيجة ذكر الله له كما أنّ محبّتهم له ورضاءهم عنه تعالى نتيجة محبّته إيّاهم، ورضوانه عنهم.

والحقّ أنّ لكلّ من القولين وجهاً وجيهاً؛ لأنّ التقدّم في الأول علىٰ سبيل الاعداد والتهيئة، وفي الثاني علىٰ سبيل العلّية واللزوم؛ لأنّ جميع حالات العبد تابعة لما في علم الله وقضائه الاجمالي ثمّ التفصيلي، فذكرنا له تعالى مسبّب عمّا في اللوح المحفوظ والذكر الحكيم.

وأيضاً فإنّ ذكر العبد لله، ومحبّته له، ورضاءه عنه، وسائر صفاته الحسنة، وأعماله الصالحة مؤدّية له إلىٰ أمثال هذه النتائج علىٰ وجه أكمل وأعلىٰ، فإنّ لكلّ شيء حادث، كما له مبدءاً كذلك يكون له غاية. والمبادئ للأشياء ذوات الغايات هي نفس الغايات بالذات، وغيرها بالاعتبار كما حقّق في مظانّه. أو لا ترىٰ أنّ تصوّر كلّ فاعل مختار لنتيجة فعله وكمال عمله متقدّم علماً علىٰ ثبوت تلك الغاية، وهي متأخّرة عنه عيناً.

فإذا كان هكذا فنقول: لمّا كان الله سبحانه مبدء كلّ شيء وغايته، وأوّل كل

---

(١) الجامع الصغير ٢: ٤٤ ح٤٦٥١، وكنز العمال ١: ٤١٧ ح١٧٧٣.

فكر وذكر ونهايته، وظاهر كل موجود وباطنه، فالأوّل فيه عين الآخر، والباطن عين الظاهر، والعلم هناك عين العين فقد صحّ كلٌّ من الوجهين في الذكر.

وهذا أيضاً من العلوم المختصّة بأحبّاء الله ومشتاقيه المجذوبين إليه.

هذا ولنرجع إلىٰ ما كنّا فيه من بيان مراتب الذكر والذاكر ونتيجة كل مرتبة فنقول: أما مراتب الذكر والذاكر: فذكر اللسان، وذكر الجوارح والأركان، وذكر النفس، وذكر القلب، وذكر الروح، وذكر السرّ.

وأمّا تعيينها وتعيين نتائجها: فذكر اللسان الاقرار، ونتيجته حقن الدم والمال بالأمان «فاذكروني بالايمان أذكركم بالأمان».

وذكر الأركان باستعمال الطاعات والعبادات للوصول إلى المثوبات «فاذكروني بالطاعات أذكركم بالمثوبات».

وذكر النفس بالاستسلام للأوامر والنواهي، للفوز بنور الاسلام «فاذكروني بالاستسلام اذكركم بنور الاسلام». وذكر القلب بتبديل الأخلاق الذميمة، وتحصيل الأخلاق الكريمة للتشبّه بالحق والانخراط في سلك أحبّائه، والاتّصال بجنابه، «فاذكروني بالأخلاق أذكركم بالاستغراق».

وذكر الروح بالتغريد والمحبّة، لحصول المعرفة والحكمة «فاذكروني بالتغريد والمحبّة، أذكركم بالتوحيد والقربة».

وذكر السرّ ببذل الوجود لوجدان المعبود «فاذكروني ببذل الوجود والفناء أذكركم بنيل الشهود والبقاء».

وهذا حقيقة قوله في الحديث القدسي: «وإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي».

وهذا هو لبّ الألباب، وهو الذكر الحقيقي، والغاية الأخيرة لما في الخطاب. وهو يجعل الذاكر مذكوراً، والمذكور ذاكراً. بل الذكر والذاكر والمذكور واحد، كما قال سبحانه: ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر : ١٦].

وقال الشاعر:

رقّ الزجاج ورقّة الخمر فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنّه خمر ولا قدح وكأنّه قدح ولا خمر

فافهم ذلك واعرف قدره، فإذا تقرّر ذلك فقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] يحتمل القياس للجميع، وكذا قياس ما هو نتيجة له بحسب الأقسام من قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فلكلّ ذكر من أقسام الأذكار فلاح يناسب معناه.

فاذكروا الله باللسان لعلّكم تفلحون بالاحقان والأمان، وبعمل الأركان لعلّكم تفلحون بالوصول إلىٰ مثوبات الجنان، وبالنفس بالاستسلام لعلّكم تفلحون بنور الإسلام، وبمحبّة القلب لعلّكم تفلحون بالاستغراق في محبّته، وبالروح لعلّكم تفلحون بمعرفته وحكمته، وبالسرّ من جهة الفناء فيه لعلّكم تفلحون بنيل شهوده وجماله والبقاء به بعد الفناء فيه.

* * *

الاعتصام بحبله تعالىٰ:

قوله ﷺ: «وَالْاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ».

الاعتصام بحبل الله تعالى يعصم الإنسان عن التورّط في مساقط الهوىٰ، والانهماك في مهاوي الشهوات، فمتىٰ راقه أن يقترف إثماً، أو يلمّ بسيّئة، وجد من نفسه ما يضرب علىٰ يده، ويجعجع به عن السير في سنن الهلكات، كما أنّه لا يبارحه حاثّ من نفسه علىٰ عمل الخيرات، وما فيه صالح نفسه ومناجح البشر عامة، وليس حبل الله وعروته الوثق التي يجب أن يستمسك بها غير ذينك الأصلين الذين فيهما السعادة الخالدة، وفوز الدارين.

ثمّ إنّه ﷺ أكّد أمره بالاعتصام بحبله تعالى بأنّه أوثق العرىٰ، وأقوى الأسباب،

وفي شريعة الحجىٰ أنّه يجب أن يؤخذ بما لا يخشى انقطاعه ولا يحاذر انفصامه، ولا يدنو منه السقوط والهلكة، ولا يحتمل معه التدهور والتقهقر، فيكون العامل قد ارتجّ علىٰ نفسه أبواب الضعة، وكبح الضرر المحتمل الذي يجب المحاذرة عنه.

وهذه مواد حيوية للنفس، يجب التحلّي بها، أفاضها عليه علىٰ كلّ البشر وهو يخاطب ابنه المحبوب، فجاء مسير كلامه كما قلنا مسير المثل السائر ـ إياك أعني واسمعي يا جارة ـ فإنّ الإمام المجتبىٰ صلوات الله عليه هو منبثق أنوار العظات البالغة، ومنار الحكم والأحكام كلّها، وآية العدل، وشارة الأخلاق، منذ بدء حياته، فهو في غنىً عن المواعظ والوصايا.

عليّ رمز الاعتصام:

وقيل: المراد بالحبل هو الولاء لعلي وأولاده الطاهرين المعصومين، والأخبار مستفيضة بذلك، جاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «آل محمّد هم حبل الله المتين الذي أمر بالاعتصام به فقال تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾» [آل عمران: ١٠٣]. وجاء أيضاً عن الإمام الكاظم عليه السلام: «إنّ عليّ بن أبي طالب هو حبل الله المتين»[١].

وفي تفسير البرهان عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: وفد علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله أهل اليمن، فقال النبي صلى الله عليه وآله: جاءكم أهل اليمن يبسّون بسيساً، فلمّا دخلوا علىٰ رسول الله قال صلى الله عليه وآله: قوم رقيقة قلوبهم، راسخ إيمانهم، منهم المنصور يخرج في سبعين ألفاً ينصر خلفي وخلف وصيّي، حمائل سيوفهم المسك.

فقالوا: يا رسول الله ومن وصيّك؟ فقال: هو الذي أمركم الله بالاعتصام به، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. فقالوا: يا رسول الله بيّن لنا ما هو الحبل، فقال: قول الله ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ

(١) البحار ٦٨: ٢٣٣؛ وتفسير البرهان ١: ٣٠٦ ح٦ و ٧؛ عن تفسير العياشي ١: ١٩٤ ح١٢٢ و ١٢٣.

النّاسِ﴾ [آل عمران : ١١٢]. فالحبل من الله كتابه، والحبل من الناس وصيّي، فقالوا: يا رسول الله ومن وصيّك؟

فقال: هو الذي أنزل الله فيه ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾ [الزمر : ٥٦]، فقالوا: يا رسول الله وما جنب الله هذا؟ فقال: هو الذي يقول الله فيه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان : ٢٧] هو وصيي والسبيل إليّ من بعدي، فقالوا: يا رسول الله بالذي بعثك بالحق نبيّاً أرناه فقد اشتقنا إليه.

فقال: هو الذي جعله الله آية للمتوسّمين، فإن نظرتم إليه نظر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، عرفتم أنّه وصيّي كما عرفتم أنّي نبيّكم، فتخلّلوا الصفوف، وتصفّحوا الوجوه، فمن أهوت إليه قلوبكم فإنّه هو، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول في كتابه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم : ٣٧] إليه وإلىٰ ذريّته عليهم السلام.

قال جابر: فقام أبو عامر الأشعري في الأشعريين، وأبو غرة الخولاني في الخولانيين، وظبيان، وعثمان بن قيس، وعزّة الدوسي في الدوسيين، ولاحق بن علاقة، فتخلّلوا الصفوف، وتصفّحوا الوجوه، وأخذوا بيد الأصلع البطين، وقالوا: إلىٰ هذا أهوت أفئدتنا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: أنتم نخبة حين عرفتم وصيّ رسول الله قبل أن تعرفوه، فبِمَ عرفتم أنّه هو؟

فرفعوا أصواتهم يبكون، وقالوا: يا رسول الله نظرنا إلى القوم فلم نجش(١) لهم، ولما رأيناه وجفت(٢) قلوبنا، ثمّ أظمأ نفرسنا، فانجاشت أكبادنا، وهملت أعيننا، وتبلّجت صدورنا، حتّىٰ كأنّه أبٌ لنا ونحن عنده بنون.

فقال النبي ﷺ: وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم، أنتم منه بالمنزلة التي سبقت لكم بها الحسنىٰ، وأنتم عن النار مبعدون. قال جابر: فبقي هؤلاء القوم

(١) النجش: استثارة الشيء.
(٢) وجف: اضطرب.

حتىٰ شهدوا مع أمير المؤمنين عليه السلام الجمل، وصفين، فقتلوا بصفين. وكان النبي صلى الله عليه وآله قد بشّرهم بالجنّة، وأخبرهم أنّهم يستشهدون مع علي عليه السلام[١].

وجاء فيه أيضاً عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله جالساً ذات يوم ومعه أصحابه في المسجد، فقال صلى الله عليه وآله: يطلع عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنّة، يسأل عمّا يعنيه، فطلع علينا رجل طوال، شبيه برجال مصر، فتقدّم فسلّم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله فجلس فقال: يا رسول الله إنّي سمعت الله عزّ وجلّ يقول فيما أنزل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، فما هذا الحبل الذي أمرنا الله بالاعتصام به، ولا نتفرّق عنه.

فأطرق رسول الله ملياً ثمّ رفع رأسه، فأشار بيده إلىٰ علي عليه السلام وقال: هذا حبل الله الذي مَن تمسّك به عصم به في دنياه، ولم يضلّ في آخرته، فوثب الرجل إلىٰ علي فاحتضنه من وراء ظهره وهو يقول: اعتصمت بحبل الله، وحبل رسوله، ثمّ قام فولّىٰ.

فقام رجل من الناس فقال: يا رسول الله ألحقه فأسأله أن يستغفر الله لي، فقال رسول الله: إذاً تجده موفقاً، فلحقه الرجل فسأله أن يستغفر له، فقال له: أفهمت ما قال لي رسول الله وما قلت له؟ قال: نعم، قال: فإن كنت متمسّكاً بذلك فغفر الله لك، وإلّا فلا غفر الله لك[٢].

ونظير هذا ما حدّث به السيد الرضي أعلى الله مقامه في كتابه الخصائص، نقلاً عن أبي الحسن موسى الكاظم صلوات الله وسلامه عليه، في خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه، فقال صلى الله عليه وآله: أُدعو لي عمّي ـ يعني العباس ـ فدُعي له، فحمله وعلي حتّىٰ أخرجاه فصلّىٰ بالناس، وإنّه لقاعد.

ثمّ حمل فوضع على المنبر بعد ذلك، فاجتمع لذلك جميع أهل المدينة من

---

(١) تفسير البرهان ١: ٣٠٥ ح ١ سورة آل عمران.
(٢) تفسير البرهان ١: ٣٠٦ ح ٢ سورة آل عمران.

المهاجرين والأنصار، حتّىٰ برزت العواتق من خدورها، فبين باك وصائح، ورسول الله ﷺ يخطب ساعة ويسكت ساعة، وكان فيما ذكر في خطبته أن قال:

يا معاشر المهاجرين والأنصار ومن حضرني في يومي وساعتي هذه من الانس والجنّ، ليبلغ شاهدكم غائبكم، ألا وإنّي قد خلّفت فيكم كتاب الله، فيه النور والهدىٰ، والبيان لما فرض الله تبارك وتعالى من شيء، حجّة الله عليكم، وحجّتي وحجّة وليّي، وخلّفت فيكم العلم الأكبر، علم الدين، ونور الهدىٰ وضياءه، وهو عليّ بن أبي طالب، وهو حبل الله ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

أيّها الناس هذا عليّ من أحبّه وتولّاه اليوم وبعد اليوم، فقد أوفىٰ بما عاهد عليه الله، ومن عاداه وأبغضه اليوم وبعد اليوم، جاء يوم القيامة أصمّ أعمىٰ، لا حجّة له عند الله(١).

ومن النوادر التي ناسب ذكرها هنا ما ذكره البيهقي في كتابه (المحاسن والمساوي) في باب محاسن عليّ بن أبي طالب ﷺ: فقد حدّث عن أبي عثمان قاضي الري، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير قال: كان عبد الله بن عباس بمكّة يحدّث علىٰ شفير زمزم ونحن عنده، فلمّا قضىٰ حديثه قام إليه رجل فقال: يا ابن عباس إنّي امرؤ من أهل الشام من أهل حمص، إنّهم يتبرّؤون من عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه ويلعنونه.

فقال: بل لعنهم الله في الدنيا والآخرة، وأعدّ لهم عذاباً مهيناً، أَلِبُعْدِ قرابته من رسول الله ﷺ، وأنّه لم يكن أوّل ذكران العالمين إيماناً بالله ورسوله، وأوّل من صلّىٰ وركع وعمل بأعمال البر؟! قال الشامي: إنّهم والله ما ينكرون قرابته وسابقته، غير

---

(١) خصائص الأئمة: ٧٤؛ عنه البحار ٢٢: ٤٨٦ ضمن حديث ٣١.

أنّهم يزعمون أنّه قتل الناس.

فقال ابن عباس: ثكلتهم أُمّهاتهم إنّ علياً أعرف بالله عزّ وجلّ وبرسوله وبحكمها منهم، فلم يقتل إلّا من استحقّ القتل، قال: يا ابن عباس إنّ قومي جمعوا لي نفقة، وأنا رسولهم إليك وأمينهم، ولا يسعك أن تردّني بغير حاجتي، فإنّ القوم هالكون في أمره، ففرّج عنهم فرّج الله عنك، فقال ابن عباس: يا أخا أهل الشام إنّما مثل عليّ في هذه الأُمّة في فضله وعلمه، كمثل العبد الصالح الذي لقيه موسىٰ عليه السلام لما انتهىٰ إلىٰ ساحل البحر، فقال له موسىٰ: «هل أتبعك علىٰ أن تعلّمني ممّا علّمت رشداً».

قال العالم: «إنّك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر علىٰ ما لم تحط به خبراً» قال موسىٰ عليه السلام: «ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً» قال له العالم: «فإن اتّبعتني فلا تسألني عن شيء حتّىٰ أُحدّث لك منه ذكراً، فانطلقا حتّىٰ إذا ركبا في السفينة خرقها» وكان خرقها لله عزّ وجلّ رضىً، ولأهلها صلاحاً، وكان عند موسىٰ سخطاً وفساداً، فلم يصبر موسىٰ وترك ما ضمن له، فقال: «أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً».

قال له العالم: «ألم أقل إنّك لن تستطيع معي صبراً» قال موسىٰ عليه السلام: «لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً» فكفّ عنه العالم: «فانطلقا حتّىٰ إذا لقيا غلاماً فقتله» وكان قتله لله عزّ وجلّ رضىً، ولأبويه صلاحاً، وكان عند موسىٰ ذنباً عظيماً، قال موسى ولم يصبر: «أقتلت نفساً زكيةً بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً».

قال العالم: «ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبراً» «قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنّي عذراً، فانطلقا حتّىٰ إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه» وكانت إقامته لله عزّ وجلّ رضىً، وللعالمين صلاحاً، فقال موسىٰ: «لو شئت

لاتّخذت عليه أجراً قال هذا فراق بيني وبينك» [الكهف : ٦٦-٧٨].

وكان العالم أعلم بما يأتي من موسىٰ ﷺ، وكبر علىٰ موسى الحق وعظم إذ لم يكن يعرفه. هذا وهو نبيّ مرسل من أولي العزم، ممّن أخذ الله جلّ وعزّ ميثاقه على النبوّة منه، فكيف أنت يا أخا أهل الشام وأصحابك. إنّ علياً ﷺ لم يقتل إلّا من كان يستحلّ قتله، وإنّي أخبرك إنّ رسول الله ﷺ كان عند أمّ سلمة بنت أبي أميّة، إذ أقبل علي ﷺ يريد الدخول على النبي ﷺ، فنقر نقراً خفيّاً، فعرف رسول الله نقره، فقال: يا أمّ سلمة قومي فافتحي الباب.

فقالت: يا رسول الله، من هذا الذي يبلغ خطره أن أستقبله بمحاسني ومعاصمي؟ فقال: يا أمّ سلمة إنّ طاعتي طاعة الله جلّ وعزّ، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء : ٨٠] قومي يا أمّ سلمة فإنّ بالباب رجلاً ليس بالخرق، ولا النزق، ولا بالعجل في أمره، يحبّ الله ورسوله، يا أمّ سلمة إنّه إن تفتحي الباب له فلن يدخل حتّىٰ يخفىٰ عليه الوطء.

فلم يدخل علي ﷺ حتّىٰ غابت عنه، وخفي عليه الوطء، فلما لم يحسّ لها حركة دفع الباب ودخل، فسلّم على النبي ﷺ فردّ عليه السلام، وقال: يا أمّ سلمة هل تعرفين هذا؟ قالت: نعم هذا عليّ بن أبي طالب، فقال رسول الله ﷺ: نعم هذا علي سيط[1] لحمه بلحمي، ودمه بدمي، وهو منّي بمنزلة هارون من موسىٰ إلّا أنّه لا نبيّ بعدي.

يا أمّ سلمة هذا علي سيّد، مبجّل، مؤمّل المسلمين وأمير المؤمنين، وموضع سرّي، وعلمي، وبابي الذي يؤوى إليه، وهو الوصيّ علىٰ أهل بيتي، وعلى الأخيار من أمّتي، وهو أخي في الدنيا والآخرة، وهو معي في السناء الأعلىٰ، إشهدي يا أمّ سلمة إنّ علياً يقاتل الناكثين، والقاسطين، والمارقين، قال ابن عباس: وقتلهم لله

---

(١) قال في لسان العرب: السوط: خلط الشيء بعضه ببعض،... وحديثه مع فاطمة رضوان الله عليها: «مسوط لحمها بدمي ولحمي» أي ممزوج ومخلوط.

رضى، وللأُمّة صلاح، ولأهل الضلالة سخط.

قال الشامي: يا ابن عباس من الناكثون؟ قال: الذين بايعوا علياً بالمدينة، ثمّ نكثوا فقاتلهم بالبصرة أصحاب الجمل، والقاسطون معاوية وأصحابه، والمارقون أهل النهروان ومن معهم، فقال الشامي: يا ابن عباس ملأت صدري نوراً وحكمةً، وفرّجت عنّي فرّج الله عنك، أشهد أنّ علياً عليه السلام مولاي ومولىٰ كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ[1].

* * *

إحياء القلب بالموعظة:

قوله عليه السلام: «أَحْيِي قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ».

أمره عليه السلام بإحياء قلبه بالموعظة لما فيها من تنشيط العامل إن كان متحلياً بما تقتضيه الموعظة، وإرجاعه إلى الأمر الحكيم إن كان خلواً منها، فهو كلّ حين بين النشاط والمسرّة، بما آب إليه من الجميل المبهج بلحاظ عواقبه السارّة.

وليس شيء أنفع للمرء من الموعظة، فإنّها تحيي القلب، وتفتح البصيرة، وتوقظ الفكرة، وتشدّ الهمّة، وتبعث العزيمة، وما أُتي الناس إذ تسقط أخلاقهم، وتذهب آدابهم، وينتشر الفساد فيهم إلّا من قبل عدم الموعظة والواعظين لهم.

وإنّك لتجد الفرق ظاهراً بين رجل يحضر مجالس الوعظ والتذكير، وبين رجل أهمل ذلك، وتباعد عنه، فإنّك ترىٰ من لين الأول وأدبه ورقّته وعطفه، وانصياعه للقول، وإقباله على النصيحة، ما لا ترىٰ في الثاني بل هو على العكس من الأوّل في خشونته، وجفائه، وقطيعته، وعدم التزامه بشيء من الأدب والدين، يمثل الوحوش الضواري في بطشها وسطوتها، وهب أنّه متعلّم فإنّ كثيراً من المتعلّمين يؤتون من قبل علمهم إذا فسدت أخلاقهم، فيتّخذون ما بأيديهم من العلم سلاحاً

(١) المحاسن والمساوي: ٤٣ في محاسن عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

يتوصّلون به إلىٰ مقاصدهم الفاسدة، وأغراضهم الخبيثة.

أُنظر هذه الأُمم المتناحرة التي يصول بعضها علىٰ بعض، ويحاول بعضها ابتلاع بعض، أليس الذين علىٰ رأسها هم أكثر الناس علماً، وأوفرهم معرفةً كما يزعمون، أين ذهب عنهم علمهم، وأين ولّت عنهم معارفهم، لو كانت المعارف والعلوم وحدها هي الرادع عن الشر، والوازع عن الأذىٰ والظلم. لا جرم أنّ الأُمم بأخلاقها، وأنّ الأخلاق تأتي من قبل العلم الصحيح، والعلم الصحيح يأتي من قبل القائمين عليه الحافظين لحدوده، وهو والدين الصحيح سواء.

كذب من قال: «العلم في جنبٍ، والدين في جنبٍ» بل هما أخوان متلازمان، وعضدان متوازران، لا ينفك أحدهما عن الآخر، والعقل سراجهما المنير، ومستشارهما الناصح، والوعظ جلاؤه وبه حياته، يقول ﷺ: «إحيي قلبك بالموعظة». ويقول في مقام آخر: «إنّ الله سبحانه جعل الذكر ـ التذكير والموعظة ـ جلاءً للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة[1]، وتنقاد به بعد المعاندة»[2].

ولشرف الوعظ وفضله تولّاه الله سبحانه، ثمّ أمر أنبياءه ورسله أن يتولّوه ويقوموا به.

ومواعظ الله في خلقه كثيرة، ونصائحه لهم عظيمة، يكتبها الدهر، وتقرأها عليك الليالي والأيّام، وأفصحها كتبه المنزلة، وشرائعه المفصلة.

وأفضل كتبه القرآن ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة : ٢٣١] وأكمل شرائعه خاتمتها، وأفصح أنبيائه وأنصحهم محمّد ﷺ ﴿رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨]. ومن السابقين لقمان إذ يقصّ الله علينا من مواعظه ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ

---

(١) العشوة: ضعف البصر.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٢٢٢.

يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٣و١٦].

وروي أنّ داود ﷺ كان ينصب له منبراً فيجلسه عليه، ثمّ يجلس هو تحت منبره يستمع لحكمته.

ولقد أهمل الوعظ والتذكير في هذه العصور، تركه العالمون فأنف من الاستماع الجاهلون، ومتىٰ لم يستعمل العالم علمه أنف الجاهل أن يتعلّم.

وإنّ للواعظ شرائط إذا أهملت كلاً أو بعضاً، قلّ التأثير ففات الغرض، الأوّل: أن يكون عالماً. الثاني: أن يكون ناصحاً. الثالث: أن يكون ذا بيانٍ. الرابع: أن يكون حكيماً، وذلك أنّ الجاهل لا يعرف ما يعظ به، وغير الناصح ربّما يتخيّر من الكلام، ويستخدم من البيان ما له فيه غرض وغاية ومنفعة، صلح به الناس أم فسدوا.

والذي لا بيان له لا يقدر على التصرّف في إيراد الكلام وإصداره حسبما تقتضيه المصلحة، أما تسمع موسى بن عمران ﷺ حيث يقول وقد كلّف أمر الرسالة: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونَ﴾ [القصص: ٣٤]. وغير الحكيم ربما كان ضرره أكبر من نفعه، لوضع وعظه في غير محلّه، وإيراده في غير موقعه، إنّ الوعظ حكمة، والحكمة إذا أعطيتها لغير أهلها فقد ضيّعتها وظلمتها، والواجب أن يعطىٰ لكلٍّ ما يناسبه، وما ينتفع به ويفهمه.

لقد أُلقيت هذه الوظيفة الشريفة اليوم إلىٰ غير أهلها، وحملها من لا قدرة له على القيام بعبئها، ولكن الذي يخفّف المصيبة أنّه لا تخلو الأرض من عامل عليها بخير وأنّه:

«ما برح لله عزّت آلاؤه في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات، عباد ناجاهم في فكرهم، وكلّمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع

والأبصار والأفئدة، يذكّرون بأيّام الله ويخوّفون مقامه، بمنزلة الأدلّة في الفلوات، فمن أخذ القصد حمدوا إليه الطريق وبشّروه بالنجاة، ومن أخذ يميناً وشمالاً ذمّوا إليه الطريق وحذّروه من الهلكة، وكذلك كانوا مصابيح تلك الظلمات وأدلّة تلك الشبهات»[1]. وهكذا يكونون، «ولله الحجّة البالغة». ولابدّ لنا في هذا المقام من التنبيه علىٰ أُمور:

الأوّل: في التنبيه علىٰ آداب الواعظ مع من يعظه.

الثاني: في التنبيه علىٰ آداب من يستمع الموعظة.

التنبيه الأول: في آداب الواعظ:

إنّ للواعظ آداباً ينبغي أن يتحلّىٰ بها، ويحرص عليها، لتُعينه علىٰ مراده، وتوصله إلىٰ غرضه وقصده.

منها: أن لا يواجه المستمعين بالشدّة، ولا يستقبلهم بالعنف، ولا يلومهم، ولا يعيّرهم لما في اللوم والتعيير من شدّة التحمّل له، ومشقّة الصبر عليه، فيكون الوعظ حينئذٍ سبباً للنفرة، وداعياً لعدم الاصغاء، وموجباً للتباعد عن القبول والاقبال، وكثيراً ما يوقع في عكس المقصود.

بل الواجب استعمال الرفق واللين، فإنّه أوصل للقصد، وأجلب للقلب، وأقرب إلىٰ مرضاة الرب، ألا ترىٰ وتسمع كيف يأمر الله سبحانه موسىٰ وهارون أن يقولا لفرعون الطاغية المتمرّد: ﴿قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه : ٤٤].

وإذا كان يرجى استجلاب فرعون وخشيته وتذكّره علىٰ كبريائه وجبروتيّته فكيف غيره، وكم يكون من عداه قريباً من الحقّ حريّاً بالخشية، جديراً بالتذكّر إذا وعظ باللين، وخوطب بالرفق، ودعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

روى الشيخ المفيد ﷺ في إرشاده: أنّ رسول الله ﷺ لما قسّم غنائم حنين في

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٢٢٢.

قريش خاصّة، وأجزل القسمة للمؤلّفة قلوبهم كأبي سفيان (صخر بن حرب)، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أُميّة، والحرث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وزهير بن أبي أُميّة، وعبد الله بن أُميّة، ومعاوية بن أبي سفيان، وهشام بن المغيرة، والأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن وأمثالهم، وانّه جعل للأنصار من ذلك شيئاً يسيراً، لما فعل ذلك غضب قوم من الأنصار لذلك، وبلغ رسول الله عنهم مقالاً أسخطه، فنادىٰ فيهم فاجتمعوا، ثمّ قال لهم: اجلسوا ولا يقعد معكم أحد من غيركم.

فلمّا قعدوا وجاء النبي ﷺ يتبعه أمير المؤمنين ﷺ حتّىٰ جلسا في وسطهم، وقال لهم: إنّي سائلكم عن أمر فأجيبوني، فقالوا: قل يا رسول الله، قال: ألستم كنتم ضالّين فهداكم الله بي؟ فقالوا: بلىٰ والله، فلله المنّة ولرسوله، قال: ألم تكونوا علىٰ شفا حفرة من النار فأنقذكم الله بي؟ قالوا: بلىٰ فلله المنّة ولرسوله، قال: ألم تكونوا قليلاً فكثّركم الله بي؟ قالوا: بلىٰ فلله المنّة ولرسوله، قال: ألم تكونوا أعداء فألّف الله بين قلوبكم بي؟ قالوا: بلىٰ فلله المنّة ولرسوله.

قال: ثمّ سكت النبي ﷺ هنيئة، ثمّ قال: ألا تجيبوني بما عندكم؟ قالوا: بما نجيبك فداؤك آباؤنا وأُمّهاتنا، قد أجبناك بأنّ لك الفضل والمنّ والطول علينا، قال: أما لو شئتم لقلتم، وأنت قد كنت جئتنا طريداً فآويناك، وجئتنا خائفاً فآمنّاك، وجئتنا مكذّباً فصدّقناك، قال: فارتفعت أصواتهم بالبكاء وقام شيوخهم وساداتهم إليه، وقبّلوا يديه ورجليه.

ثمّ قالوا: رضينا بالله وعنه، وبرسوله وعنه، وهذه أموالنا بين يديك، فإن شئت فاقسمها علىٰ قومك، وإنّما قال من قال منّا علىٰ غير وغر[1] صدر، وغلّ في قلب، ولكنّهم ظنّوا سخطاً عليهم، وتقصيراً لهم، وقد استغفروا في ذنوبهم، فاستغفر لهم يا رسول الله.

فقال النبي ﷺ: اللّهمّ اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار، يا

(١) الوغر: الحقد والضغن.

معشر الأنصار، أما ترضون أن يرجع غيركم بالشاة والنعم، وترجعون أنتم سهمكم رسول الله؟ قالوا: بلىٰ رضينا[(١)].

وروى أبو الفرج الاصبهاني في كتابه (مقاتل الطالبيين) ما مضمونه:

أنّ أبا جعفر المنصور لما قتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بباخمرى، بعث على العلويين الذين في المدينة فأُتي بهم إلى الكوفة ـ حيث مقر ملكه وسلطانه يومئذٍ ـ قال: فمكثوا شهراً يتوقّعون فيها القتل، ثمّ دخل عليهم الربيع بن يونس ـ حاجب المنصور ـ فقال: أين هؤلاء العلويّة ليدخل اثنان من ذوي الحجى منكم علىٰ أمير المؤمنين، وكان في العلويين الإمام جعفر بن محمّد الصادق ﷺ، والحسن بن زيد، وكان الحسن بن زيد أسنّ من الصادق ﷺ، ومن هنا قال له الصادق ﷺ: اجعل لي الكلام اليوم.

فلما دخلا قال المنصور للصادق ﷺ: أنت الذي يعلم الغيب.

فقال الصادق ﷺ: لا يعلم الغيب إلّا الله.

قال: أنت الذي يُجبىٰ إليك هذا الخراج؟

قال: إليك يُجبى الخراج يا أمير المؤمنين.

قال: أتدري لم أتيت بكم؟ قال: لا.

قال: أريد أن أهدم رباعكم، وأعقر نخيلكم، وأترككم بالسراة، لا يقرب اليكم أحد من أهل الحجاز ولا من أهل العراق، فإنّهم لكم مفسدة.

قال الصادق ﷺ: إن أيّوب ابتلي فصبر، وإنّ يوسف ظلم فغفر، وإنّ سليمان أُعطي فشكر، وأنت من ذلك النسل. وكان المنصور مغضباً فتبسّم ضاحكاً وقال: أعد عليّ هذا القول فأعاده، فقال: مثلك يكون خطيب القوم، ولأصلنّ رحمكم اليوم[(٢)].

(١) الارشاد: ٧٦ في غزوة حنين: عنه البحار ٢١: ١٥٨ ح٦.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٣٠٠.

فانظر كيف كفّ سورة غضبه، وأعاده إلىٰ رشده، وحمله علىٰ صلة رحمه لين كلمته. وهكذا ينبغي أن يكون الواعظ، وهل يقدر علىٰ أن يكون هكذا إلّا العالم؟

مشيناها خُطىٰ كتبت علينا ومن كتبت عليه خُطىٰ مشاها

التنبيه الثاني: في آداب من يستمع الموعظة:

ما مني الناس بمرض أفتك في عقولهم، وأردىٰ لنفوسهم من عدم الاتّعاظ، ومن الاعراض عن قبول النصيحة والموعظة، وإنّ من سدّ علىٰ نفسه هذا الباب فقد سدّ عليها كلّ باب من أبواب الخير، وكلّ سبيل من سبل الهداية والرشد، وتركها ميداناً لتجوال الهوىٰ، ومسرحاً لعبث الغواية، وملعباً تلعب وتعبث بها بواعث الشهوات، ودواعيها وشياطينها، وما أقرب من كان كذلك إلى الهلكة المخزية، وسوء المصير المردي، أعاذنا الله منه.

فأوّل واجبات المرء أن يأخذ نفسه به أخذاً شديداً، ويحملها عليه حملاً مرغماً لا هوادة فيه، وليفضل الحضور في مجالس الوعظ والتذكير علىٰ كلّ أمر وإن عزّ وعظم، وليقبل على الاصغاء والاستماع للواعظ بكلّ ما أُوتي من فهم، وليحرص علىٰ من يسمعه ويفهمه منه بكلّ ما عنده من قابلية واستعداد، وليعلم أنّ الانتفاع به يحتاج إلىٰ أمرين.

الأوّل: إصلاح العقيدة، فإنّ من فسدت عقيدته قلّت عظته، وعميت بصيرته، وقسا قلبه ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

الثاني: اجتناب أكل المال الحرام، فإنّه يورث القسوة، ويحجب البصيرة، ويمنع من استماع الموعظة والتأثر بالنصيحة.

قال الحسين عليه السلام يوم الطفّ لمن أقدم علىٰ قتاله، واستباح الفتك بعياله وأطفاله، بعدما تقدّم إليهم بمواعظه البالغة، ونصائحه المنجية فلم يسمعوا، قال عليه السلام: وكيف

تسمعون لي وقد ملأت بطونكم من الحرام[١].

ولقد كان بعض السلف الصالحين من أهل العلم يقتاتون ببطن الاضطرار[٢]، إحتياطاً لأنفسهم من أكل المال الحرام، يرون أنّ ما يأكلونه علىٰ هذا الوضع وإن كان حلالاً في الظاهر فإنّه يحتمل أن يكون حراماً في الواقع، فيقتصرون منه علىٰ ما يضطرّون إليه، فإن كان حلالاً فقد انتفعوا بكبح جماح أنفسهم، وقمعها عن شهواتها، وإن كان حراماً لا يضرّهم؛ لأنّ لهم عند الاضطرار أن يتناولوا من الحرام بمقدار ما يقيم صلبهم، ويدفع الموت عن أنفسهم.

وقد كان حجة الإسلام الشيخ محمّد طه نجف رضوان الله عليه، يفتي بلزوم التقيّؤ علىٰ من أكل حراماً ثمّ عرف حرمته بعد ازدراده، والظاهر أنّ ذلك نظراً منه إلىٰ أنّ الحرام يوجب ظلمة في النفس يبتعد بها المرء عن الله سبحانه.

وإنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا يبالغون في الاجتناب عن ذلك، حتّىٰ أنّهم اقتصروا علىٰ أن يأكلوا ممّا كسبت أيديهم، والذي لم يتهيّأ له ذلك يأكل من حشائش الأرض ومنابتها المباحة لسائر الحيوانات.

فكان موسىٰ عليه السلام يقتات من حشائش الأرض، حتّىٰ كانت خضرة الحشيش تُبان من صفاق بطنه، وما سأل ربّه حيث قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص : ٢٤] إلّا خبزاً يأكله. وكان عيسى عليه السلام يقول: «زادي تقواي، وراحلتي رجلاي، وأكلي ممّا تنبت الأرض». وكان سليمان يسفّ الخوص ويأكل من ثمنها، وكذلك كان أبوه داود، يصنع الدروع ويبيعها ويأكل من ثمنها.

حدّث السيد المرتضىٰ ﷺ في كتابه تنزيه الأنبياء: «إنّ داود كان في بدء أمره يأكل من بيت المال، فسئل يوماً عن سيرة نفسه، وكان المسؤول جبرئيل عليه السلام، فقال: نعمت السيرة إلّا أنّه يأكل من بيت المال.

---

(١) البحار ٤٥: ٨.

(٢) كناية عن عدم الاكل الا عند الضرورة وبمقدارها.

وما كان ذلك عليه حراماً، ولكن الله أراد أن يتنزّه عن ذلك، فقال داود: لقد آلىٰ داود علىٰ نفسه أن لا يأكل من بيت المال، ولما علم الله منه صدق النيّة ألان له الحديد، فكان يصنع منه الدروع ويبيعها ويأكل من ثمنها.

وإنّ محمّداً ﷺ كان أكله خبز الشعير، وما شبع من خبز برّ قط، وكان أحبّ شيء إليه أن يكون خائفاً جائعاً.

وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام يضع خبز الشعير في جراب، ثمّ يختم عليه خوفاً من الحسن والحسين عليهما السلام أن يلتاه[1] بسمن أو زيت، وهو القائل: وكأنّي بقائلكم يقول: إذا كان هذا طعام ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن مبارزة الأقران، ومنازلة الشجعان[2].

وأنت ترىٰ أنّ هؤلاء الأنبياء وأتباعهم، ما كانوا يمنعون أنفسهم ممّا أحلّ الله لهم، إلّا لمثل هذه الملاحظات القيّمة التي كشفنا لك عن أحدها والله خبير بما يعملون.

فيمن وعظ بقليل الموعظة فاتّعظ:

إنّه من الصعب حتّىٰ على الجهبذ المعرفة بنفسيّات الناس والنفوذ إلى العلم بمنطويّاتهم، وإلى الاطلاع على سرائرهم، وفهم قابليّاتهم واستعداداتهم.

نعم ربّما تطفح علىٰ وجه المرء إمارات، وتظهر منه أفعال وأعمال، تكشف عن منوياته ومخفياته، إلّا أنّ العالم بذلك قليل نادر، ولقد وضع الناس لذلك علماً خاصاً سمّوه علم الفراسة، وهو نوع منها يعلم بالدلائل والتجارب والأخلاق، فمن ذلك قولهم: «إنّ سعة الجبهة في الإنسان تدلّ علىٰ سعة خلقه، وعرض الصدر يدلّ علىٰ شجاعته».

---

(١) يلتاه: بمعنىٰ يخلطاه.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٤٥؛ عنه البحار ٣٣: ٤٧٣.

ومن الفراسة ما يوقعه الله في قلوب أوليائه، فيعلمون بعض أحوال الناس بنوع من الكرامات، وإصابة الحدس والظنّ، وهو المشار إليه في الحديث: «اتّقوا فراسة المؤمن، فإنّه ينظر بنور الله»[١].

ومن ذلك قول أمير المؤمنين علي ﷺ لابن عباس في وقعة الجمل: «لا تلق طلحة، فإنّك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه، يركب الصعب، ويقول: هو الذلول، وألق الزبير، فإنّه أرقّ قلباً، وقل له: يقول ابن خالك: عرفتني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق، فما عدا ممّا بدا»[٢].

لقد كان علي ﷺ يعرف نفسيّات الناس، وينفذ بفكره النيّر إلىٰ منويّاتهم ومطويّاتهم، عرف مصير همام وما ينتهي إليه حين سأله أن يصف له المتّقين، فتثاقل عن جوابه حتّىٰ عزم عليه، فما انتهى أمير المؤمنين من كلامه حتى صعق همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال ﷺ: أما والله لقد كنت أخافها عليه، ثمّ قال ﷺ: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها[٣].

قصة بشر الحافي:

ولا شكّ إنّ في بعض النفوس قابلية واستعداداً لتلقّ الموعظة وقبولها، والتأثّر بها أكثر من بعض، فإذا خرجت الموعظة من أهلها، وصادفت محلّها أثّرت أثرها وفعلت فعلها، فمن أولئك الأفذاذ الذين وعظوا بقليل الموعظة فاتّعظوا ـ بشر الحافي ـ كان هذا الرجل في بدء أمره من أهل المعازف والملاهي فتاب.

ذكر العلّامة في (منهاج الكرامة) سبب اتّعاظه وتوبته: هو أنّه اجتاز مولانا الإمام موسى بن جعفر ﷺ علىٰ داره ببغداد، فسمع الملاهي وأصوات الغناء والقصف، فخرجت من تلك الدار جارية وبيدها قمامة فرمت بها في الدرب.

---

(١) البحار ٢٤: ١٢٨ ح٩.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٣١؛ عنه البحار ٣٢: ٧٥ ح٤٩.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.

فقال عليه السلام لها: يا جارية، صاحب هذه الدار حرّ أم عبد؟ فقالت: بل حر، فقال عليه السلام: صدقت، لو كان عبداً خاف من مولاه. فلمّا دخلت قال مولاها وهو علىٰ مائدة السكر: ما أبطأك؟ فقالت: حدّثني رجل بكذا وكذا، فخرج حافياً حتّىٰ لقي الإمام موسى الكاظم عليه السلام، فتاب علىٰ يده واعتذر، وبكىٰ لديه استحياءً من عمله[1].

ويظهر أنّه قد أخلص لله فى التوبة حتّىٰ كان ممّن فاق أهل عصره في الورع والزهد، وتفرّد بوفور العقل وأنواع الفضل، ولا جرم أنّ من أخلص لله كان كذلك.

واستفاضة الحكمة من قلبه علىٰ لسانه.

ومن حكميّاته قوله: عقوبة العالم في الدنيا أن يعمىٰ بصر قلبه.

وقوله: ومن طلب الدنيا فليتهيّأ للذلّ.

وقوله: اجعل الآخرة رأس مالك، فما أتاك من الدنيا فهو ربح.

وقوله: حسبك أنّ قوماً موتىٰ تحيا القلوب بذكرهم، وأنّ قوماً أحياء تقسوا القلوب برؤيتهم.

وقيل له: بأيّ شيء تأكل الخبز؟ قال: أذكر العافية فأجعلها أداماً.

ويحكىٰ عنه انّه كان يقول:

أقسم لمصّ النوىٰ — وشرب ماء القُلَب[2] المالحة
أعزّ للإنسان من حرصه — ومن سؤال الأوجه الكالحة
فاستغن بالله تكن ذا غنىٰ — مغتبطاً بالصفقة الرابحة
اليأس عزّ والتقىٰ سؤدد — ورغبة النفس لها فاضحة
من كانت الدنيا له مَرةً — فإنّها يوماً له ذابحة

وسئل عن القناعة، فقال: لو لم يكن في القناعة شيء إلّا التمتّع بعزّ الغنىٰ لكان ذلك يجزي، ثمّ أنشأ يقول:

---

(١) منهاج الكرامة: ٣٢ ضمن الوجه الرابع (مخطوط).

(٢) القلب: جمع قليب وهو البئر.

ومن الفراسة ما يوقعه الله في قلوب أوليائه، فيعلمون بعض أحوال الناس بنوع من الكرامات، وإصابة الحدس والظنّ، وهو المشار إليه في الحديث: «اتّقوا فراسة المؤمن، فإنّه ينظر بنور الله»(١).

ومن ذلك قول أمير المؤمنين علي عليه السلام لابن عباس في وقعة الجمل: «لا تلق طلحة، فإنّك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه، يركب الصعب، ويقول: هو الذلول، وألق الزبير، فإنّه أرقّ قلباً، وقل له: يقول ابن خالك: عرفتني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق، فما عدا ممّا بدا»(٢).

لقد كان علي عليه السلام يعرف نفسيّات الناس، وينفذ بفكره النيّر إلىٰ منويّاتهم ومطويّاتهم، عرف مصير همام وما ينتهي إليه حين سأله أن يصف له المتّقين، فتثاقل عن جوابه حتّىٰ عزم عليه، فما انتهى أمير المؤمنين من كلامه حتى صعق همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال عليه السلام: أما والله لقد كنت أخافها عليه، ثمّ قال عليه السلام: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها(٣).

قصة بشر الحافي:

ولا شكّ إنّ في بعض النفوس قابلية واستعداداً لتلقّي الموعظة وقبولها، والتأثّر بها أكثر من بعض، فإذا خرجت الموعظة من أهلها، وصادفت محلّها أثّرت أثرها وفعلت فعلها، فمن أولئك الأفذاذ الذين وعظوا بقليل الموعظة فاتّعظوا ـ بشر الحافي ـ كان هذا الرجل في بدء أمره من أهل المعازف والملاهي فتاب.

ذكر العلّامة في (منهاج الكرامة) سبب اتّعاظه وتوبته: هو أنّه اجتاز مولانا الإمام موسى بن جعفر عليه السلام علىٰ داره ببغداد، فسمع الملاهي وأصوات الغناء والقصف، فخرجت من تلك الدار جارية وبيدها قمامة فرمت بها في الدرب.

(١) البحار ٢٤: ١٢٨ ح ٩.
(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٣١؛ عنه البحار ٣٢: ٧٥ ح ٤٩.
(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.

فقال عليه السلام لها: يا جارية، صاحب هذه الدار حرّ أم عبد؟ فقالت: بل حر، فقال عليه السلام: صدقت، لو كان عبداً خاف من مولاه. فلمّا دخلت قال مولاها وهو علىٰ مائدة السكر: ما أبطأك؟ فقالت: حدّثني رجل بكذا وكذا، فخرج حافياً حتّىٰ لقي الإمام موسى الكاظم عليه السلام، فتاب علىٰ يده واعتذر، وبكىٰ لديه استحياءً من عمله[1].

ويظهر أنّه قد أخلص لله في التوبة حتّىٰ كان ممّن فاق أهل عصره في الورع والزهد، وتفرّد بوفور العقل وأنواع الفضل، ولا جرم أنّ من أخلص لله كان كذلك.

واستفاضة الحكمة من قلبه علىٰ لسانه.

ومن حكميّاته قوله: عقوبة العالم في الدنيا أن يعمىٰ بصر قلبه.

وقوله: ومن طلب الدنيا فليتهيّأ للذلّ.

وقوله: اجعل الآخرة رأس مالك، فما أتاك من الدنيا فهو ربح.

وقوله: حسبك أنّ قوماً موتىٰ تحيا القلوب بذكرهم، وأنّ قوماً أحياء تقسوا القلوب برؤيتهم.

وقيل له: بأيّ شيء تأكل الخبز؟ قال: أذكر العافية فأجعلها أداماً.

ويحكىٰ عنه انّه كان يقول:

أقسم لمصّ النوىٰ	وشرب ماء القُلُب[2] المالحة
أعزّ للإنسان من حرصه	ومن سؤال الأوجه الكالحة
فاستغن بالله تكن ذا غنىٰ	مغتبطاً بالصفقة الرابحة
اليأس عزّ والتقىٰ سؤدد	ورغبة النفس لها فاضحة
من كانت الدنيا له مَرةً	فإنّها يوماً له ذابحة

وسئل عن القناعة، فقال: لو لم يكن في القناعة شيء إلّا التمتّع بعزّ الغنىٰ لكان ذلك يجزي، ثمّ أنشأ يقول:

---

(١) منهاج الكرامة: ٣٢ ضمن الوجه الرابع (مخطوط).

(٢) القلب: جمع قليب وهو البئر.

أفـــادتني القـــناعة أيّ عـــزّ ولا عـــزّ أعـــزّ مـن القـناعة
فخذ مـنها لنـفسك رأس مـال وصيّر بعدها التـقوىٰ بـضاعة
تحز حـالين تـغنىٰ عـن بخـيل وتسعد في الجنان بصبر سـاعة

قصة إبراهيم بن أدهم:

ومنهم إبراهيم بن أدهم: قال شيخنا الفقيه المعتمد عزّ الدين حسين بـن عـبد الصمد، والد شيخنا البهائي ﷺ في كتابه المسمّىٰ بـ(العقد الطهماسي): إنّ بعض الملوك والأكابر من أهل الدنيا إذا علت هممهم، وكـثر عـلمهم بـالله، ولحـظتهم العـناية الربانية، تركوا الدنيا، وتعلّقوا بالله وحده، كـإبراهـيم بـن أدهـم، وبـشر الحـافي، وأصحاب الكهف، فإنّهم لكمال رشدهم لا يرضون أن يشغلوا قـلوبهم بـغير الله تعالى لحظة عين[١]، فإنّ الموعظة التي أثّرت في إبراهيم ذلك الأثر ونقلته ممّا كـان عليه من عزّ الملك والسلطان، إلىٰ اختيار الفـقر والهـوان، والسـياحة في المـمالك والبلدان، أمر عظيم لابدّ من معرفته، والاطلاع عليه، وها أنا ذا أُقدّمه بين يديك.

قال صاحب روضات الجنّات: نقل في سبب توبته أنّه نـظر يـوماً إلىٰ رجـل ساكن في ظلّ قصره قد أخرج من جراب خلق كان عنده رغيف كـعك، فأكـله وشرب عليه من ماء كان معه، ثمّ استلقىٰ علىٰ قفاه ونام، فقام إبراهيم من رقـدته، وأخذ يفكّر أنّ النفس إذا كانت تقنع بمثل هذا فما نصنع بالدنيا وزخـارفها التي لا تبقىٰ إلّا حسرة في صدورنا حين وداعنا إيّاها، ثمّ خرج في ساعته من زيّ الملوك، وأخذ طريقة الفقراء في السير والسلوك[٢].

ونقل: إنّه كان في الصيد ومعه حاشيته وخدمه، قد أعدّوا له مائدة، ووضـعوا بها جدياً مشويّاً، فلما رجع هو ومن معه من أصحابه، رأىٰ طائراً إنقضّ علىٰ ذلك

(١) راجع روضات الجنات ١: ١٣٩ رقم ٣٤ عن العقد الطهماسبيّ.
(٢) روضات الجنات ١: ١٤٠ رقم ٣٤.

الجدي فاحتمله وطار به، فلحقه الفرسان الذين كانوا معه علىٰ خيولهم يتوقّعون إدراكه لكونه مثقلاً، فرأوه قد انحطّ إلىٰ جهة هناك.

فتبادروا إليه وإذا يرون هناك رجلاً مكتوفاً والطير يأخذ اللحم بمنقاره ويضعه في فمه، فلمّا رآهم طار، وسألوا الرجل، فقال: إنّي تاجر، وصلت إلىٰ هذا المكان، فخرج عليّ لصوص أخذوا ما معي وأوثقوني كتافاً، وتركوني على هذا الحال، وإنّي منذ سبعة أيّام هنا، وهذا الطير يأتيني برزقي، فخلوا كتافه، وأتوا به إلىٰ إبراهيم فاتّعظ بذلك.

وإنّ بعضهم سأل إبراهيم عن بدوّ أمره، فقال: كان أبي ملكاً من ملوك خراسان، وكنت شاباً فركبت يوماً الى الصيد علىٰ فرس لي ومعي كلب، فأثار أرنباً أو ثعلباً، فبينما أنا أطلبه إذ هتف بي هاتف لا أراه وهو يقول: يا إبراهيم ألهذا خلقت، أم بهذا أمرت.

ففزعت ووقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أرَ أحداً، فقلت: لعن الله إبليس، ثمّ حرّكت فرسي وركضت الثانية، ففعل بي مثل ذلك ثلاث مرّات، ثمّ هتف بي هاتف من قربوس السرج، فقال: والله ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، فقلت: أنبهت وانتبهت، جاءني نذير من ربّ العالمين، والله لا عصيت الله بعد يومي إذا ما عصمني ربّي، فرجعت إلىٰ أهلي، فخلّيت عن فرسي ثمّ جئت إلىٰ رعاة لأبي، فأخذت من راعٍ جبّة وكساء، ودفعت إليه ثيابي ثمّ أقبلت إلى العراق.

وكيفما كان فإنّه ممّن وعظ بقليل الموعظة فاتّعظ وتاب ونصح في توبته، وأخلص في عمله، وإنّ له أفعالاً حميدة، وأقوالاً عالية مجيدة[1].

نبذ من أفعاله وأقواله:

فمن أفعاله: اعتزاله عن الناس، وانقطاعه للعبادة وطلبه الحلال من المال،

---

(١) روضات الجنات ١: ١٤١ رقم ٣٤.

وأكله من كسب يده، والتحاقه بالأئمة من آل محمّد ﷺ.

ومن أخباره أنّه قال: قدمت بغداد فعملت بها أياماً، فلم يصف لي بها شيء من الحلال، فشاورت في ذلك بعض العلماء، فقالوا: إذا أردت الحلال فعليك ببلاد الشام، فصرت إلىٰ مدينة يقال لها المنصورة فعملت بها أياماً أنظر البساتين، وأحصد الحصاد، فلم يصف لي شيء من الحلال، فسألت بعض المشايخ فقال لي: إن أردت الحلال الصافي فعليك بطرطوس، فإنّ فيها المباحات، والعمل الكثير، فتوجّهت إلىٰ مدينة طرطوس، فعملت بها أياماً أنظر البساتين وأحصد الحصاد.

ومن أقواله: وقد نزل من جبل فقيل له: من أين أقبلت؟ قال: من الأُنس بالله، وقيل له: لم لا تصحب الناس؟ فقال: إن صحبت من هو دوني آذاني بجهله، وإن صحبت من هو فوقي تكبّر عليّ، وإن صحبت من هو مثلي حسدني، فاشتغلت بمن ليس في صحبته ملال، ولا في وصله انقطاع، ولا في الأُنس به وحشة.

وقال لرجل جاءه بعشرة آلاف درهم، والتمس منه أن يقبلها فأبىٰ عليه، فلحّ الرجل به فقال له: يا هذا! أتريد أن تمحي اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم لا أفعل ذلك أبداً.

وقال لشقيق البلخي وقد قدم مكة ـ وإبراهيم فيها ـ: يا شقيق علىٰ ماذا أصلتم أُصولكم؟ فقال شقيق: أصلنا أُصولنا علىٰ أنّا إذا رزقنا أكلنا، وإذا منعنا صبرنا، فقال إبراهيم: هكذا كلاب بلخ إذا رزقت أكلت، وإذا منعت صبرت، فقال شقيق: فعلىٰ ماذا أصلتم أُصولكم يا أبا إسحاق؟ قال: أصلنا أُصولنا علىٰ أنّا إذا رزقنا آثرنا، وإذا منعنا حمدنا وشكرنا، فقام شقيق وجلس بين يديه وقال: يا أبا إسحاق أنت أُستاذنا.

وقال: وقد قال له بعضهم: أوصني، فقال: اتّخذ الله صاحباً، ودع الناس جانباً.

وكتب إلىٰ سفيان الثوري: ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن طال أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه.

قصة النعمان بن المنذر:

ومنهم النعمان بن المنذر ـ صاحب الخورنق ـ:

قال البستاني في كتابه (دائرة المعارف) ما مضمونه: إنّ النعمان صعد ذات يوم إلىٰ غرفة من غرف قصره الخورنق، فنظر إلىٰ نهر العاقول يجري من تحته، فأعجبه ذلك، ودخل عليه في تلك الحال وزيره، وكان رجلاً عاقلاً، فقال له النعمان: أرأيت أجمل من هذا؟ يشير إلىٰ تلك المناظر.

فقال له: لا أيّها الملك لكن لو كان يدوم، فقال النعمان: وهل هناك شيء يدوم؟ قال الوزير: نعم، الجنّة نعيمها دائم ثمّ وصفها له، فقال النعمان: بماذا تُنال؟ فقال الوزير: بطاعة الله، والانقطاع إلىٰ عبادته، فقام النعمان من فوره، وخرج من القصر، فلم يعد إليه ولا علم أين ذهب إلى الآن[1].

وهذا حديث غريب جداً، ووجه غرابته إنّ الملوك بعيدون عن قبول الموعظة، وعن الاتّعاظ بها مهما بلغت من البلاغة، وتعالت في أساليب الاقناع، ذلك أنّ زهو الملك وكبريائه، والاعجاب بالنفس والغرور بما في أيديهم ووقوعه موقع الرضا والقبول من أفئدتهم، وانعكافهم عليه، وحبّهم إليه غشي علىٰ بصائرهم، وأبعدهم عن النظر والالتفات الى مصائرهم، فكيف يقبلون علىٰ واعظ، أو يلتفتون إلىٰ لفظ لافظ.

ولكن لا أستبعد ذلك فإنّ لله خواصّاً في الأزمنة والأمكنة والأشخاص، وإنّ النعمان كان من الفهم ودقّة الاحساس، وحدة الخاطر، وغلبة العقل، وكماله في نفوذ أمره وسلطانه بمنزلةٍ لا توصف، وهذا قليل في الناس وحقّ لأُولئك القليل أن يرفع ذكرهم، وينشر خبرهم، ويعلن أمرهم، ليقتدىٰ بهم ويهتدىٰ إلىٰ طريقهم، وليجري من كان له قلب علىٰ سبيلهم.

وتشبّهوا إن لم تكونوا مثلهم   إنّ التشبّه بالكرام فلاح

---

(١) دائرة المعارف ٧: ٤٩٨ حرف الخاء/خورنق.

إماتة القلب بالزهد:

قوله ﷺ: «وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ».

الزهد يكبح جماحه عن الشهوات وما يخالج الإنسان من دواعي النهمة والشره، فكأنّ القلب إذا انكفأ عنها بتصوير مغباتها السيئة، فإنّ روح الحركات الذميمة قد انتزعت منه وكأنّه ميّت عن الدنايا، وإن كانت تزامله الحياة السعيدة الخالدة.

درجات الزهد:

ومعلوم أنّ الزهد من عظائم مكارم الصالحين، وجلائل صفات المتّقين، وجملة مقامات السالكين إلى الله تعالى بقدمي الطاعة واليقين، وهو في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته علىٰ ثلاث درجات:

الدرجة السفلىٰ منها أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتهي، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها ملتفت ولكن يجاهدها ويكفّها، وهذا يسمّى المتزهّد في حقّ من يصل إلىٰ درجة الزهد بالكسب والاجتهاد، والمتزهّد يذيب أولاً نفسه ثمّ كيسه، والزاهد يذيب أوّلاً كيسه ثمّ يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر علىٰ ما فارقه، والمتزهّد علىٰ خطر فانّه ربّما تغلبه نفسه، وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا والاستراحة بها في قليل أو كثير.

الدرجة الثانية: أن يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إيّاها بالاضافة إلىٰ ما طمع فيه، كالذي يترك درهماً لأجل درهمين فإنّه لا يشقّ عليه ذلك وإن كان يحتاج إلىٰ انتظار قليل، ولكن هذا الزاهد يرىٰ لا محالة زهده ويلتفت إليه، كما يرى البائع المبيع يلتفت إليه، فيكاد يكون معجباً بنفسه وبزهده، ويظنّ بنفسه أنّه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه، وهذا أيضاً نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا أن يزهد طوعاً، ويزهد في زهده فلا يرىٰ زهده، إذ

لا يرىٰ أنّه ترك شيئاً إذا عرف أنّ الدنيا لا شيء، فيكون كمن ترك خنفساء وأخذ جوهرة فلا يرىٰ ذلك معاوضة، ولا يرىٰ نفسه تاركاً شيئاً. والدنيا بالاضافة إلى الله ونعيم الآخرة أخسّ من خنفساء إلىٰ جوهرة، فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كمال المعرفة. ومثل هذا الزهد أمن من خطر الالتفات إلى الدنيا، كما أنّ تارك الخنفساء بالجوهرة أمن من طلب الاقالة في البيع.

قال أبو زيد لأبي موسىٰ عبد الرحيم: في أيّ شيء تتكلّم؟ قال: في الزهد، قال: في أيّ شيء؟ قال: في الدنيا، فنفض يده وقال: ظننت أنّك تتكلّم في شيء، الدنيا لا شيء، أيش تزهد فيه[1].

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة، وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه عن باب الملك كلب علىٰ بابه، فألقىٰ إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتّىٰ نفّذ أمره في جميع مملكته، أفترىٰ أنّه يرىٰ لنفسه يداً عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلىٰ كلب في مقابلة ما يناله.

فالشيطان كلب علىٰ باب الله يمنع الناس من الدخول مع أنّ الباب مفتوح والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة خبز إن أكلها فلذّتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع، ثمّ يبقىٰ ثقله في المعدة، ثمّ ينتهي إلى النتن والقذر، ويحتاج إلىٰ إخراج الثقل، فمن يتركها لينال عزّ الملك كيف يلتفت إليها.

ونسبة الدنيا كلّها أثمن ما يسلم لكلّ شخص منها وإن عمّر مائة سنة بالاضافة إلىٰ نعيم الآخرة أقلّ من لقمة بالاضافة إلىٰ ملك الدنيا، إذ لا نسبةَ للمتنبّت إلىٰ ما لا نهاية له، والدنيا متناهية على القرب ولو كان يتمادىٰ ألف ألف سنة صافية عن كلّ كدورة، لكان لا نسبة له إلى الأبد، فكيف ومدّة العمر قصيرة، ولذّات الدنيا مكدّرة غير صافية، فأيّ نسبةٍ لها إلىٰ نعيم الأبد، فإذن لا يلتفت الزاهد إلىٰ زهده إلّا إذا

---

(١) راجع كشف المحجّة ٧: ٣٥٨ كتاب الفقر والزهد.

التفت إلىٰ ما زهد فيه، ولا يلتفت إلىٰ ما زهد فيه إلّا لأنّه يراه شيئاً معتدّاً بـه، ولا يراه شيئاً معتدّاً به إلّا لقصور معرفته، فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة.

فهذا تفاوت درجات الزهد، وكلّ درجة من هذه أيضاً لها درجات، إذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضاً باختلاف قدر المشقّة في الصبر، وكذلك درجة المعجب بزهده في قدر التفاته إلىٰ زهده.

درجات الزهد بالاضافة الىٰ المرغوب فيه:

وأما انقسام الزهد بالاضافة إلى المرغوب فيه، فهو أيضاً علىٰ ثلاث درجات:

الدرجة السفلىٰ: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار وسائر الآلام كعذاب القبر، ومناقشة الحساب، وخطر الصراط، وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار إذ فيها أنّ الرجل ليوقف في الحساب حتّىٰ لو ورد مائة بعير عطاشىٰ علىٰ عرفه لصدرت رواء، فهذا زهد الخائفين، وكأنّهم رضوا بالعدم لو أعدموا فإنّ الخلاص من الألم يحصل بمجرّد العدم.

الدرجة الثانية: أن يزهد رغبةً في ثواب الله ونعيمه، واللّذات الموعودة في جنّته من الحور والقصور وغيره هذا زهد الراجين، فإنّ هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعةً بالعدم والخلاص من الألم، بل طمعوا في وجود دائم علىٰ نعيم قائم لا آخر له.

الدرجة الثالثة وهي العليا: أن لا تكون له رغبة إلّا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها، ولا إلى اللّذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق الهمّ بالله تعالى، وهو الذي أصبح وهمومه همّ واحد، وهو الموحّد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى ـ لأنّ من طلب غير الله فقد عبده، وكلّ مطلوب معبود، وكلّ طالب عبد بالاضافة إلىٰ مطلوبه، وطلب غير الله من الشرك الخفي ـ.

وهذا زهد المحبّين وهم العارفون؛ لأنّه لا يحبّ الله خاصّة إلّا من عرفه، وكما أنّ من عرف الدينار وعرف الدرهم وعلم أنّه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحبّ إلّا

الدينار، فمن عرف الله وعرف لذّة النظر إلىٰ وجهه الكريم، وعرف أنّ الجمع بين تلك اللّذة وبين لذّة التنعّم بالحور العين، والنظر إلىٰ نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن، فلا يحبّ إلّا لذّة النظر ولا يؤثر غيره.

ولا تظنّن أنّ أهل الجنّة عند النظر إلىٰ وجه الله تعالى يبقىٰ للذّة الحور والقصور متّسع في قلوبهم، بل تلك اللّذة بالاضافة إلىٰ لذّة نعيم الجنّة كلذّة ملك الدنيا، والاستيلاء علىٰ أطراف الأرض ورقاب الخلق بالاضافة إلىٰ لذّة الاستيلاء علىٰ عصفور واللعب به، والطالبون لنعيم الجنّة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب، كالصبيّ الطالب اللعب بالعصفور والتارك للذّة الملك، وذلك لقصوره عن إدراك لذّة الملك لا لأنّ اللعب بالعصفور في نفسه أعلىٰ وألذّ من الاستيلاء بطريق الملك علىٰ كافّة الخلق.

درجات الزهد بالاضافة إلى المرغوب عنه:

وأمّا انقسامه بالاضافة إلى المرغوب عنه، فقد كثرت فيه الأقاويل، ولعلّ المذكور فيه يزيد علىٰ مائة فلا نشتغل بنقل الأقاويل، ولكن نشير إلىٰ كلام محيط بالتفاصيل حتّىٰ يتّضح أنّ أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الاحاطة بالكلّ فنقول:

المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام، وبعضها أجمع للجمل. أمّا الاجمال في الدرجة الأُولىٰ فهو كلّ ما سوى الله، فينبغي أن يزهد فيه حتّىٰ يزهد في نفسه أيضاً، والاجمال في الدرجة الثانية: أن يزهد في كلّ صفة للنفس فيها متعة، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها.

والاجمال في الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما يرجع حظوظ النفس. وفي الدرجة الرابعة: أن يزهد في العلم والقدرة، والدينار والدرهم والجاه، وإن كثر أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة، وأعني به كلّ علم وقدرة

مقصودها ملك القلوب، إذ معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها، كما أنّ معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها، فإن جاوزت هذا التفصيل إلىٰ شرح وتفصيل أبلغ من هذا يكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر.

وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها، قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران : ١٤] ثمّ ردّه في آية أُخرىٰ إلىٰ خمسة، فقال: ﴿إِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد : ٢٠] ثمّ ردّه في موضع آخر إلىٰ واحد، فقال: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ● فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات : ٤٠-٤١].

فالهوىٰ لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن يكون الزهد فيه، وإذا عرفت طريق الاجمال والتفصيل، عرفت أنّ البعض من هذا لا يخالف البعض، وإنّما يفارقه في الشرح مرّة والاجمال أُخرىٰ.

وصفوة القول أنّ الزهد عبارةً عن الرغبة عن حظوظ النفس كلّها، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لا محالة؛ لأنّه يريد البقاء ليتمتّع، ويريد التمتّع الدائم بإرادة البقاء، فإنّ من أراد شيئاً أراد دوامه، ولا معنىٰ لحبّ الحياة الدنيا إلّا حبّ دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة، فإذا رغب عنها لم يردها.

ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء : ٧٧] أي لستم تريدون البقاء إلّا لمتاع الدنيا.

فظهر عند ذلك الزاهدون، وانكشف حال المنافقين، أمّا الزاهدون المحبّون لله فقاتلوا في سبيل الله كأنّهم بنيانٌ مرصوص، وانتظروا إحدى الحسنيين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنّة، ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء

البارد حرصاً علىٰ نصرة دين الله، أو نيل رتبة الشهادة، وكلّ من مات منهم علىٰ فراشه يتحسّر علىٰ فوت الشهادة استبدال الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

وأمّا المخلصون فإنّ الله تعالى ﴿اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] فلمّا رأوا أنّهم تركوا تمتّع عشرين سنة أو ثلاثين سنة بتمتّع الأبد، استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به، وهذا بيان المزهود فيه، وإذا فهمت هذا علمت أنّ ما ذكر المتكلّمون في حدّ الزهد لم يشيروا به إلّا إلىٰ بعض أقسامه، فذكر كلّ واحد ما رآه غالباً علىٰ نفسه أو علىٰ من كان يخاطبه.

وقد ذكر أبو حامد الغزّالي جملة من أقاويل الناس في الزهد، وبيّن قصورها واحداً واحداً، ثمّ قال[1]: وفي الزهد أقاويل وراء ما قلناه فلم نر في نقلها فائدة، فإنّ من طلب كشف حقائق الأُمور من أقاويل الناس ورآها مختلفة، فلا يستفيد إلّا الحيرة. وأمّا من انكشف له الحقّ في نفسه، وأدركه بمشاهدةٍ من قلبه ـ لا بتلقّفٍ ممّن سمعه ـ وثق بالحقّ واطّلع علىٰ قصور من قصّر لقصور بصيرته، وعلىٰ اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته.

وهؤلاء كلّهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة ولكنّهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة. والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف، وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه، والأحوال تختلف فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف، وأمّا الحقّ نفسه فلا يكون إلّا واحداً، ولا يتصوّر أن يختلف.

أقول: وفي الكافي عن السجاد عليه السلام: «إنّ الزهد في آية من كتاب الله تعالى ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]»[2].

---

(١) راجع المحجّة البيضاء ٧: ٣٦٢.
(٢) الكافي ٢: ١٢٨ح ٤.

وقد ورد هذا في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهي الكلمة الجامعة في الزهد، قال عليه السلام: «الزهد في الدنيا قصر الأمل، وشكر كلّ نعمة، والورع عن كلّ ما حرّم الله عزّ وجلّ»[١].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن الزاهد في الدنيا، فقال: «الذي يترك حلالها مخافة حسابه، ويترك حرامها مخافة عقابه»[٢].

وفي مصباح الشريعة عنه عليه السلام قال: «الزهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار، وهو تركك كلّ شيء يشغلك عن الله من غير تأسف علىٰ فوتها، ولا إعجاب في تركها، ولا انتظار فرج منها وطلب محمدة عليها، ولا عوض لها بل ترىٰ فوتها راحة. وكونها آفة، وتكون أبداً هارباً من الآفة معتصماً بالراحة.

والزاهد الذي يختار الآخرة على الدنيا، والذلّ على العزّ، والجهد على الراحة، والجوع على الشبع، وعافية الآجل علىٰ محبّة العاجل، والذكر على الغفلة، وتكون نفسه في الدنيا وقلبه في الآخرة»[٣].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»[٤]، ألا ترىٰ كيف أحبّ ما أبغضه الله، وأيّ خطأ أشدّ جرماً من هذا.

وقال بعض أهل البيت عليهم السلام: «لو كانت الدنيا بأجمعها لقمة في فم طفل لرحمناه، فكيف حال من ينبذ حدود الله خلف ظهره في طلبها والحرص عليها»[٥].

والدنيا دار لو أحسنت إلىٰ ساكنها لرحمتك وأحسنت وداعك، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لما خلق الله الدنيا أمرها بطاعته فأطاعت ربّها، فقال لها: خالفي من طلبك ووافقي من خالفك، فهي علىٰ عهد الله إليها وطبعها عليه»[٦].

---

(١) الكافي ٥: ٧١ ح٣.
(٢) البحار ٧٠: ٣١٠ ح٦.
(٣) مصباح الشريعة: ١٣٧؛ انظر المحجة البيضاء ٧: ٣٦٣.
(٤) البحار ٧٠: ٣١٥ ح٢٠.
(٥) البحار ٧٠: ٣١٥ ح٢٠؛ والمحجة البيضاء ٧: ٣٦٣ عن مصباح الشريعة.
(٦) المصادر نفسها.

قال أبو حامد: فهذا بيان انقسام الزهد بالاضافة إلىٰ أصناف المزهود فيه. فأمّا بالاضافة إلىٰ أحكامه فينقسم الى فرض ونفل وسلامة: فالفرض هو الزهد في الحرام، والنفل هو الزهد في الحلال، والسلامة هو الزهد في الشبهات. وقد ذكرنا درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد، إذ قيل لبعض السلف ما الزهد فقال: «التقوىٰ».

وأمّا بالاضافة إلىٰ خفايا ما يترك فلا نهاية للزهد فيه إذ لا نهاية لما تتمتّع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات لا سيّما خفايا الرياء، فإنّ ذلك لا يطّلع عليه إلّا سماسرة العلماء، بل الأُمور الظاهرة أيضاً درجات الزهد فيها لا يتناهىٰ.

فمن أقصىٰ درجاتها زهد عيسىٰ ﷺ إذ يتوسّد حجراً في نومه، فقال له الشيطان: أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك؟ فقال: وما الذي تجدد؟ فقال: توسّدت الحجر ـ أي تنعّمت برفع رأسك عن الأرض في النوم ـ فرمى الحجرَ وقال: خذه فقد تركته لك.

وروي عن يحيى بن زكريا أنّه لبس المسوح حتّىٰ نقب جلده تركاً للتنعّم بلين الثياب، واستراحة حسّ اللمس، فسألته أمّه أن يلبس مكانها جبة صوف ففعل فأوحى الله إليه: يا يحيى أثرت على الدنيا، فبكىٰ ونزع الصوف وعاد إلىٰ ما كان. وجلس عيسىٰ ﷺ في ظلّ حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط، فقال: ما أقمتني أنت إنّما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعّم بظلّ الحائط.

فإذن درجات الزهد ظاهراً وباطناً لا حصر لها، وأقلّ درجاته: الزهد في كلّ شبهة ومحظور. فإن قلت: مهما كان الصحيح هو أنّ الزهد كلّ ما سوى الله فكيف يتصوّر ذلك مع الأكل والشرب واللبس، ومخالطة الناس ومكالمتهم، فكلّ ذلك اشتغال بما سوى الله.

فاعلم أنّ معنى الانصراف من الدنيا إلى الله الاقبال بكلّ القلب إليه ذكراً

وفكراً ولا يتصوّر ذلك إلّا مع البقاء، ولا بقاء إلّا بضرورات النفس فيما اقتصرت من الدنيا علىٰ دفع المهلكات عن البدن، وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلاً بغير الله، فإنّ ما لا يتوصّل إلى الشيء إلّا به فهو منه، فالمشتغل بعلف الناقة في طريق الحج ليس معرضاً عن الحج.

ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج، ولا غرض لك في تنعّم ناقتك باللذّات، بل غرضك مقصوراً علىٰ دفع المهلكات عنها حتّىٰ تصير بك إلىٰ مقصدك، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب، وعن الحرّ والبرد المهلك باللباس والمسكن، فيقتصر علىٰ قدر الضرورة، ولا نقصد التلذّذ بل التقوّي علىٰ طاعة الله فذلك لا يناقض الزهد، بل هو شرط الزهد[1].

* * *

قوّة القلب باليقين:

قوله ﷺ: «وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ».

تقوية القلب باليقين هو النزوع إلىٰ أسبابه وموجباته في جميع المعارف الإلهية منذ المبدأ الأعلىٰ إلىٰ منصرم ما يدركه الفكر حتّىٰ يقف البعث والنشور، والتفكير حول هذه المعارف وتصوير براهينها وآثارها لا يبارح الاعتقاد الجازم وهو اليقين المطلوب.

ويشرق لك من أُفق البيانات المطلّة من سماء الشريعة، أنّ اليقين أمرٌ جليل في نفسه، قال ﷺ: «اليقين الايمان كلّه»[2] وإنّه عزيز الحصول صعب المنال، قال ﷺ: «أقلّ ما أُوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أُوتي حظّاً منهما لم يبال ما فاته من صيام

(١) راجع المحجة البيضاء ٧: ٣٦٢–٣٦٤.

(٢) كنز العمال ٣: ٤٢٧ ح ٧٣٣١.

النهار وقيام الليل»[١] وأنّه جيّد الثمرة، مجيد العاقبة، مستقيم الطريق.

قال ﷺ: «ما آدمي إلّا وله ذنوب ولكن من كانت غريزته العقل، وسجيّته اليقين لم تضرّه الذنوب؛ لأنّه كلّما أذنب ذنباً تاب واستغفر وندم، فتكفّر ذنوبه ويبقىٰ له فضل يدخل به الجنّة»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «انّ العمل القليل الدائم على اليقين، أفضل عند الله تعالى من العمل الكثير علىٰ غير يقين»[٣].

وقال عليه السلام: «انّ الله تعالى بعدله وقسطه، جعل الروح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن في الشكّ والسخط»[٤].

وفي وصيّة لقمان لابنه: «لا يستطاع العمل إلّا باليقين، ولا يعمل المرء إلّا بقدر يقينه، ولا يقصر عامل حتّىٰ ينقص يقينه»[٥].

وهذه النفاسة في اليقين، واستقامة الطريق به، وطيب الثمرة منه، يبعثنا على البحث في معناه، وفي الأسباب المحصّلة له، وفي الموانع المبعدة عنه، وإليك البيان:

كلّ من التفت لأمر ما، فامّا أن يكون شاكّاً فيه أو ظانّاً أو عالماً، وذلك أنّه إن كان متردّداً فيه كان شاكّاً، وإن كان مرجّحاً لأحد الطرفين مع احتمال الطرف الآخر كان ظانّاً، وإن كان لا مع احتمال الآخر كان عالماً، ثمّ العلم إن كان مع عدم مطابقة الواقع فهو الجهل المركّب، وإن كان مع مطابقة الواقع فهو اليقين.

تعريف اليقين:

ومن هنا قالوا في تعريف اليقين وتحديده. لغةً: أنّه العلم الذي لا شكّ فيه.

---

(١) البحار ٨٢: ١٣٧ ح٢٢.
(٢) احياء العلوم ١: ٧ / آفات العلم.
(٣) الكافي ٢: ٥٧ ح٣؛ عنه البحار ٧٠: ١٤٧ ح٨.
(٤) الكافي ٢: ٥٧ ح٢؛ عنه البحار ٧٠: ١٤٣ ح٧.
(٥) احياء العلوم ١: ٧ / آفات العلم.

اصطلاحاً: اعتقاد مطابق للواقع، ثابت لا يمكن زواله، وعند أهل الحقيقة ـ رؤية العيان بقوّة الايمان لا بالحجّة والبرهان ـ وقيل: مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب، وملاحظة الأسرار بمحافظة الأفكار.

مراتب اليقين:

ومراتبه ثلاثة: علم اليقين، عين اليقين، حقّ اليقين. وقد ذكر القرآن هذه المراتب الثلاثة، في سورة الواقعة قال تعالى: ﴿إِنَّ هٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وفي التكاثر قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ • لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ وفيها أيضاً: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥ – ٧].

وهذه المراتب هي مرتبة في الفضل والكمال، وهي مثل مراتب معرفة النار، فالعلم بالنار مثلاً بتوسّط الدخان هو علم اليقين، وهو العلم الحاصل لأهل النظر والاستدلال بالبراهين القاطعة، والعلم بمعاينة جرم النار المفيض للنور هو عين اليقين وهو العلم الحاصل بالكشف للخلّص من المؤمنين، الذين اطمأنّت قلوبهم بالله، وتيقّنوا بمعاينة القلوب ﴿إِنَّ اللهَ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] كما وصف به نفسه، والعلم بالنار بالوقوع فيها والاحتراق بها، ومعرفة كيفيتها هو حقّ اليقين، وهو العلم الحاصل بالاتّصال المعنوي لأهل الشهود والفناء في الله.

وهذه المرتبة الأخيرة هي الدرجة العليا، والمنزلة الفضلىٰ التي سألها الإمام علي زين العابدين ﷺ في بعض أدعيته من الصحيفة بقوله: «واجعل يقيني أفضل اليقين».

وتحصل المرتبة الأولى بالنظر والفكر، ثمّ السير على الطريق المستقيم، فإنّ من فكّر أبصر، ومن سار على الدرب وصل، ولقد أخذ الله تعالى علىٰ نفسه الوعد بالهداية لمن جاهد فيه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] والله لا يخلف وعده.

ولقد حدّثنا القرآن والتاريخ عن رجال من الأُمم السابقة نظروا لأنفسهم، وفكّروا في أمرهم، ثمّ ساروا على الطريق فوصلوا، منهم أصحاب الكهف، ومنهم مؤمن آل فرعون، ومنهم آسية بنت مزاحم ـ امرأة فرعون ـ، في كثير من أمثالهم من هذه الأُمّة: منهم سلمان الفارسي، ومنهم أبو ذر الغفاري، ومنهم المقداد بن أبي الأسود الكندي، ومنهم عمار بن ياسر العبسي. فارجع إلىٰ تاريخهم، واستعن علىٰ نفسك بذكر أحوالهم، والاقتداء بهم تفلح.

وتحصل المرتبة الثانية بالرياضة والتصفية، وحصول التجرّد التام للنفس، وهذه التصفية والتجرّد إنّما تأتي من العمل بموجبات اليقين علىٰ ضوء المرتبة الأُولىٰ، أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقول الرسول ﷺ: «الصلاة معراج المؤمن»(١).

فمن حاول الوصول إلى المرتبة الثانية من مراتب اليقين بغير الجهاد في الطاعة حاول عبثاً، أيكون الرقي بغير المرقاة، والعروج بغير المعراج؟ هيهات ذلك، فكما لا يحصل اليقين بغير الدليل، لا يحصل الوصول بغير المسير، فالمشاهدة والرؤية لا تكون إلّا بعد قطع المسافة والنظر.

روي أنّه سأل ذعلب اليماني علياً أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: أرأيت ربّك؟ فقال له عليه السلام: «لم أعبد ربّاً لم أره»(٢). أراد من الرؤية هذه الرؤية القلبيّة الحاصلة من اليقين، كما فسّر هو ذلك في مقام آخر حيث يقول عليه السلام مشيراً إلى الله سبحانه: «لم تره العيون بمشاهدة العيان، بل رأته القلوب بحقائق الايمان»(٣)، وبقوله: «رأىٰ قلبي ربّي» ولقد وصف المتّقين بقوله: «فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن رآها فهم فيها معذّبون»(٤).

---

(١) تفسير صدر المتألهين ١: ١٦٨.
(٢) ارشاد القلوب ٢: ٣٧٤.
(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٧٩؛ عنه البحار ٤: ٥٢ ح٢٩.
(٤) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣؛ عنه البحار ٦٧: ٣١٥ ح٥٠.

وتحصل المرتبة الثالثة بحصول وحدة معنويّة، وربط حقيقي بين العاقل والمعقول ـ أي بين المتيقِّن والمتيقَّن به ـ؛ بحيث يرى العاقل ذاته رشحة من المعقول، ومرتبطاً به غير منفكّ عنه، ويشاهد دائماً ببصيرته الباطنة فيضان الأنوار والآثار منه إليه.

وعبّر بعضهم عن هذه المراتب بتعبير أوضح وأجلىٰ، فقال:

للعلم ثلاث مراتب، أوّلها: علم اليقين، وهي مرتبة البرهان. وثانيها: عين اليقين، وهو أن يرى المعلوم عياناً فليس الخبر كالعيان. وثالثها: حقّ اليقين، وهو أن يصير العالم والمعلوم والعلم واحداً، ولعلّه لا يعرف حقّ هذه المرتبة إلّا من وصل إليها كما أنّ طعم العسل لا يعرفه إلّا من ذاقه.

ولعزّة هذه المرتبة وقلّة الواصلين إليها، لم يتعرّض لبيانها الأكثرون.

قال الشيخ بيان الحقّ أبو القاسم محمود بن أبي الحسن النيسابوري في كتاب (خلق الإنسان): قالوا: إنّ اليقين يقينان: أحدهما ينفي الشكّ، وهذا لا يغلب الشهوة، وهو يقين التوحيد، والآخر نور مشرق للصدر، غالب للشهوات، مبطل للاختيار، صارت لصاحبه أُمور الدنيا والآخرة وأحوال الملكوت معاينة، وأصبحت لأمره خاضعة طائعة، وعلىٰ هذا جاء عن الله تعالى في الزبور المنزل علىٰ داود ﷷ: «لو صدق يقينكم ثمّ قلتم للجبل انتقل فقع في البحر فوقع».

وذلك أنّ القلب إذا وصل إلى الله تعالى وامتلأ من عظمته، وأشرق بنور جلاله وهيبته، فبعد ذلك أينما وقع البصر دار الفكر حوالي ما امتلأ به القلب إذ وصل إلى الله، وامتلأ من عظمته من العمل الصرف الصافي الخالص غير الممزوج بالشبهات المكدّربالشائبات، بمنزلة الشمس إذادار قرنها واستوىٰ حاجبها،وأشرق ضياؤها.

فحيث ما سرت من بلاد الله فضوؤها منك يريك الأشياء بألوانها وهيآتها وتقاديرها وأشكالها، فكذلك شمس اليقين اذا أشرقت واستضاءت بنورها النفس، أراه ذلك أمر الملكوت وأحوال الدنيا والآخرة، وبواطن الأشياء والأسرار التي في

الغيوب ممّا كشفها الله لأنبيائه، وأطلع عليها قلوب خيرته وأصفيائه.

وممّا يؤيّد هذا المعنىٰ ما رواه ثقة الإسلام في الصحيح بإسناده عن إسحاق بن عمار، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّىٰ بالناس الصبح، فنظر إلىٰ شابّ في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفرّاً لونه قد نحف جسمه، وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول الله موقناً.

فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله وقال: إنّ لكلّ يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك؟ فقال: إنّ يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني، وأسهر ليلي، وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتّىٰ كأنّي أنظر إلىٰ عرش ربّي وقد نصب للحساب، وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأنّي أنظر إلىٰ أهل الجنّة يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون، على الأرائك متّكؤون، وكأنّي أنظر إلىٰ أهل النار، وهم فيها معذّبون مصطرخون، وكأنّي الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هذا عبدٌ نوّر الله قلبه بالايمان، ثمّ قال له: ألزم ما أنت عليه، فقال الشابّ: أُدع لي يا رسول الله أن أُرزق الشهادة معك، فدعا له رسول الله، فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وآله فاستشهد بعد تسعة نفر، وكان هو العاشر[1]. وهذا الشاب هو حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري.

وممّا يدلّ على التفاوت في اليقين حتّىٰ في الأنبياء عليهم السلام ما روي في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «اليقين يوصل العبد إلىٰ كلّ حال سني، ومقام عجيب»[2].

وكذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله من عظم شأن اليقين حين ذكر عنده عيسى بن مريم عليه السلام وأنّه كان يمشي على الماء، فقال صلى الله عليه وآله: «لو زاد يقينه لمشىٰ في الهواء»[3].

---

(١) الكافي ٢: ٥٣ ح ٢؛ عنه البحار ٧٠: ١٥٩ ح ١٧.
(٢) مصباح الشريعة: ١٧٧؛ راجع البحار ٧٠: ١٧٩ ح ٤٥.
(٣) المصدر نفسه.

فدلّ بهذا أنّ الأنبياء ﷺ مع جلالة محلّهم من الله، كانت تتفاضل علىٰ حقيقة اليقين لا غير، ولا نهاية لزيادة اليقين إلى الأبد، والمؤمنون أيضاً متفاوتون في قوّة اليقين وضعفه، فمن قوي منهم يقينه فعلامته التبرّي من الحول والقوّة إلّا بالله، والاستقامة علىٰ أمر الله، واستقامته علىٰ أمر الله وعبادته ظاهراً وباطناً قد استوت عنده حالتا العدم والوجود، والزيادة والنقصان، والمدح والذمّ، والعزّ والذل؛ لأنّه يرىٰ كلّها من عين واحدة.

ومن ضعف يقينه تعلّق بالأسباب، ورخّص لنفسه بذلك، واتّبع العادات وأقاويل الناس بغير حقيقة، والسعي في أُمور الدنيا وجمعها وإمساكها، يقرّ باللسان أنّه لا مانع ولا معطي إلّا الله، وإنّ العبد لا يصيب إلّا ما رزق وقسم له، والجهد لا يزيد في الرزق وينكر ذلك بفعله وقلبه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

ومن أخبار أهل اليقين: ما حكاه إبراهيم الخواص، قال: لقيت غلاماً في التيه كأنّه سبيكة فضّة، فقلت: إلىٰ أين؟ فقال: إلىٰ مكّة، فقلت: بلا زاد ولا راحلة، فقال: يا ضعيف اليقين، الذي يحفظ السماوات والأرض لا يقدر أن يوصلني إلىٰ بيته بلا علاقة، فلمّا دخلت مكة إذا هو في الطواف يقول:

يا عين سحي أبدا ... يا نفس موتي كمدا
ولا تحبّي أحدا ... إلّا الجليل الصمدا

فلمّا رآني ناداني: يا شيخ أنت بعد علىٰ ذلك الضعف من اليقين، إنّ من وثق بالله في رزقه، لم يطلب الرزق قبل وقته.

موانع اليقين:

إنّ للحصول على اليقين والاستمرار عليه إلى النهاية موانعاً وحجباً وسدوداً، تعرض للسالك فتمنعه عن الوصول إلىٰ معرفة الحق، والاستمرار عليه فضلاً عن

اليقين به والثبات فيه.

منها: ما يعرض له في طريقه، ويقف له في سبيله فيلويه عن الجادة، ويحيد به عن الطريق السوي، وهما التعصّب لما هو عليه، والتقليد الأعمىٰ لمن اقتدىٰ به، فإنّ كثيراً ما يحيد بالمرء تعصّبه، ويميل به تقليده فيتأوّل الأدلّة ويتصرّف بالبراهين فيفسّرها بغير معانيها، ويحملها علىٰ غير وجوهها، إرضاءاً لتعصّبه، وانقياداً لتقليده. ومحال أن يقتنع بغير ما هو عليه، وينصرف إلىٰ غير ما هو فيه، ولو أتيتهم بكلّ آية ما اتّبعوا قبلتك.

وثالث الموانع الهوىٰ والغرض، فإنّه يعمي ويصمّ «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان، اتّباع الهوىٰ، وطول الأمل، أمّا اتّباع الهوىٰ فيصدّ عن حقّ»(١).

وإنّك لتجد الكثير من الناس تسلّط عليهم الهوىٰ والغرض، فهم له تبع قد أعماهم عن الحقّ، وأضلّهم عن سواء السبيل، ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمّد : ١٤].

ومنها: ما يزيغ بالمرء ولو بعد الوصول فينأىٰ به عن الحق، ويبعد به عن الهدىٰ، ويعمىٰ به عن الرشد، ويُحال بينه وبين الاستمرار علىٰ معارج اليقين، ولقد حكى الله عن قوم صالحين علموا أنّ القلوب تزيغ بعد الهداية فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران : ٨].

ومن نظر في كتاب الله علم أنّ الله سبحانه إنّما يزيغ قلوبهم عن المعرفة والهداية عند الزيغ عن الطاعة ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف : ٥].

تقول فتاة الحي تطمع أن ترىٰ — بعينيك ليلىٰ مُت بداء المطامع
وكيف ترىٰ ليلىٰ بعين ترىٰ بها — سواها وما طهّرتها بالمدامع
وتلتذّ منها بالحديث وقد جرىٰ — حديث سواها في خروق المسامع

* * *

(١) الكافي ٢ : ٣٣٦؛ عنه البحار ٧٠ : ٨٨ ح ١٩.

تنوير القلب بالحكمة:

قوله ﷺ: «وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ».

إنارة القلب بالحكمة بلحاظ أنّ المبدع الحكيم سبحانه لم يخلقه عبثاً، وإنّما أبدع خلقه لأشرف الغايات والتدرّج في الرقي إلىٰ مستوى الإنسان الكامل، والتحيّز في منبثق أنوار الطاعة نصب عين البارئ الكريم، وحيث تلوح مرضاته، ويشهد رغباته، فيجب عليه وهو عالم بهذه الحكمة البالغة أن لا يفتر عن العمل الصالح، وإسداء الجميل الى أُمّته بالتعليم والارفاد فيكون واعظاً ومتّعظاً.

ومن المحتمل أن يكون مراده صلوات الله عليه من الحكمة، معرفة علل الأشياء ومعلولاتها، باعتبار كونها علماً غامضاً صعباً، لا يكاد يطّلع عليه ويصل إليه إلّا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم والقائمون مقامهم بالحقّ، ثمّ المرتاضون بالعلوم الإلهية والحكم الربانيّة، الآخذون أنوار الحكمة من مشكاة النبوّة والولاية، وهم الفلاسفة الحقّة الذين أفعالهم محكمة، وصنايعهم متقنة، وأقاويلهم صادقة جميلة، وآراؤهم صحيحة، وأعمالهم زكيّة، وعلومهم حقيقيّة.

وهي معرفة حقيقة الأشياء، وكمّيّة أجناسها وأنواع تلك الأجناس، وخواصّ تلك الأنوار، واحداً بعد واحد، والبحث عن عللها، بهل هي، وما هي، وكم هي، وكيف هي، وأين هي، ومتىٰ هي، ولِمَ هي، ومَن هي.

فالحكيم المستحقّ اسم الحكمة بعد أن يجيب علىٰ هذه المسائل التسعة إذا سئل عنها، ويقيم عليها الأدلّة والبراهين الشاهدة على صحّتها، من بلغت نفسه النطقية إلىٰ كمالها العقلي، واستغنى عن الحركات والأفكار، فحينئذٍ يصير علمها عملاً، وعملها علماً كما أنّ العلم والقدرة في المفارقات بالنسبة إلىٰ ما تحتها واحد.

تعريف الحكمة:

فالحكمة علىٰ ما قيل: استكمال النفس الإنسانيّة بتحصيل ما عليه الوجود في

نفسه، وما عليه الواجب ممّا ينبغي أن يكتسب تعلّمها، ليصير عالماً معقولاً مضاهياً للعالم الموجود، ويستعدّ للسعادة القصوىٰ الأُخرويّة بحسب الطاقة البشريّة.

والأسماء تختلف بحسب اختلاف طرق التعليم، فإن أدركها بزمان يسير من غير تعلّم بشري وكان مأموراً من الملأ الأعلىٰ باصلاح النوع الإنساني، سمّيت نبوّة مأخوذة من النبوة ـ وهو ما ارتفع من الأرض ـ، فمعنى النبوّة الرفعة، ومعنى النبيّ الرفيع.

وإن كان بالتعلّم والدراية، سمّيت الفلسفة في لسان اليونانيّين، والفيلسوف محبّ الحكمة، وأصله «فيلاسوفا»، و «فيلا» هو المحبّ، و «سوفا» الحكمة، وهي أُمّ الفضائل، ومعرفتها مبعدة عن الرذائل، وموصلة الى الأوائل.

لوازم الحكمة:

ويلزمها صفات شريفة:

أحدها: أنّها تنوّر النفس بالنور الإلهي، فيشرف علىٰ جميع المجهولات العلمية، فلا يخفىٰ عليه شيء من المجهولات. كما يقال: «إنّ آخر درجة الحكمة أوّل درجة النبوّة».

ثانيها: أنّها تزهد في هذا العالم، وتحقّره عند النفس؛ لأنّ الزهد من الدنيا من ضرورة الحكمة، ومن لم يزهد في الدنيا ما ظفر بالحكمة، فإنّ المشتغل بأُمور الدنيا، والمتكالب علىٰ ما يقوم بجال جسده ومشتهياته، غير مستحقّ لعلم الفلسفة والتسمّي بالحكيم، ومثله كمثل من جلس بعد النبي في مجلسه للتسلّط والتسلطن، والتفوّق على الأُمّة والتحكيم، فيصير مستعدّاً للعذاب الأليم.

ثالثها: أنّها ترغّب في الرحلة عن هذا العالم الفاني إلىٰ ذلك العالم الباقي؛ لأنّ الموت يطيب ويسهل على العارفين الذين قد استقاموا علىٰ طريق النجاة، وتحقّقوا أنّهم ملاقوا ربّهم، فعند ذلك يتمنّون الموت، واللّحوق بدار السعادة، ومفارقة دار

البلاء والهوان، فهم كما قال بعض أهل العرفان:

اقتلوني اقتلوني يا ثقات إنّ في قتلي حياةً في حياة

ورابعها: أنّها يعرف ما علّة هذا العالم وما معلوله، وما المتوسّط بين العلّة والمعلول، فعلّة العلل هو الباري تعالى، والعلل المتوسّطة هي العقول الثابتة المجرّدة، والمعلول الجسم وما يتعلّق به من الجسمانيّات، والمتوسّط بينهما النفس، فمن أدرك المتوسّط أدرك الطرفين، لكون العقل مضيئاً بالنور الأوّل تعالى لا يشوبه ظلمة وكدر أصلاً.

ومعرفته في أوّل وهلة من غير متوسّط مشكل جدّاً، والجسم وقواه لا علم له ولا معرفة لكثرة القشور والأدناس، فبقيت النفس متوسّطة في أُفقها، ولكن كلّما كانت أشرق قلّ قشورها، وكثر ضياؤها، فتيسّر لها بقوّة نورها إدارك الطرفين، ومعرفة الجانبين.

ومن هذا لما سُئِل المعلّم الأوّل أرسطاطاليس: كيف تَعمىٰ النفس عن معرفة نفسها وهي أُمّ الحكمة؟ فقال: اذا غابت الحكمة عن النفس عميت عن نفسها وغيرها، كما يعمىٰ البصر عن نفسه وغيره إذا غاب عنه المصباح.

ومن كلامه أيضاً: «انّ العقل الذي هو السيّد يوجد في النفس كثيراً والنفس متّصلة به، إلّا أن يتعدّىٰ حدودها، ويرتدّ عن رقيها، فإذا فارقته كان ذلك هو موتها وفسادها، فإذا اتّصلت به يصير كأنّهما شيءٌ واحد حيث بحياة دائمة».

وما أحسن ما قال بعض الحكماء: «إنّ العلوم كلّها في النفس بالقوّة، فإذا عرفت ذاتها صارت العلوم كلّها بالفعل».

فالنفس العاقلة في العالم الصغير ـ الذي هو الإنسان ـ بمنزلة النبي في الإنسان الكبير ـ الذي هو العالَم ـ إلّا أنّ العقل لا يهتدي إلى الأحكام إلّا بمعاونة ضوابط الشرايع، فإنّ معرفة كثير من الجزئيات أو حلّها بحيث يجب الاحتراز عن الأولى دون الثانية، لا يعرفه العقل ولا سبيل له إلىٰ معرفته بدون الشرع، كما في كثير من

الجزئيات المعلومة بالشرع، كالمنع من وطء الحائض وجوازه في المستحاضة، واختلاف العدّة وأمثال ذلك ممّا يطول تعدّده، أنّىٰ للعقل أن يدركه فإنّه إنّما يوصل به إلىٰ كليّات الأُمور دون جزئيّاتها، والشرع يحكم على الكليّات والجزئيّات.

فعلم أنّ بالشرع حصلت الاعتقادات، واستقامة الأحوال بين صحيحها وسقيمها، فهو الدليل على المصالح الدنيوية والأُخروية. فالضالّ عنه ضالّ عن قصد السبيل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الاسراء: ١٥] فالعقل بامداد الشرع يسوق سفينة النفس عن آفات بحر الدنيا، ويوصل إلىٰ ساحل النجاة.

قال بعض أهل العرفان:

العقل نور الله إلّا أنّه ... للعالَم المحسوس غير ممازج

فمتى اكتفيت بفعل عقلٍ داخل ... فَسَدت أُمورك كلّها من خارج

وبالحقيقة العقل شرع من داخل، والشرع عقل من خارج، فهما متعاونان متعاضدان.

الحكمة لا تخالف الشريعة:

وقد يتوهّم أكثر الضعفاء أنّ أقوال الحكماء وحججهم مخالفة للشرايع الإلهيّة ولما جاءت به الأنبياء عليهم السلام، وليس الأمر كذلك فإنّ الحكمة الحقّة المتقنة غير مخالفة للشرايع الإلهية، وإنّما يقول بمخالفتها من لا معرفة له بتطبيق الخطابات الشرعيّة على البراهين الحكمية، ولا يعرف ذلك إلّا من هو مؤيّد من عند الله عزّ مجده، كامل في العلوم الشرعية والحكمية، مطّلع على الأسرار النبويّة، فإنّه قد يكون الإنسان كاملاً في الحكمة، ولا حظّ له من العلوم الشرعية بالعكس، ومن أحاط الجانبين، وأحرز الطرفين، وجد توافقهما وتطابقهما.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾

[النساء : ٨٣] قيل: إنّ الفضل هو العقل، والرحمة هو الشرع، وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ إشارةً إلىٰ أنّ هناك طائفة هم الصفوة والخيار من البريّة ليس من شأنهم اتّباع الشيطان باعتبار الاصطفاء والاختيار، ولولا هم لما كانت الأكوان ولا دارت الأدوار.

والمرويّ أنّ مولانا موسى بن جعفر ﷺ قال لهشام بن الحكم: «يا هشام إنّ لله على الناس حجّتين: حجّة ظاهرية وحجّة باطنية، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة ﷺ، وأمّا الباطنية فالعقول»(١).

فبان أنّ درجة الحكمة منحة، ولا مرتبة في المعاد عنده تعالى للجاهل بها، والقرآن العزيز وأحاديث أصحاب العصمة سلام الله عليهم وكلمات أساطين أهل الولاية مشحونة بمدحها.

الأمر بتحصيل الحكمة:

والحكيم المطلق هو الله تعالى، وكلّ من أدرك من المعقولات نصيباً سمّي علىٰ سبيل التجوّز حكيماً لدنوّه من الله تعالى وتشبّهه به، وقربه منه بالادراك والعلم الذي هو صفته تعالى شأنه بالقرب المعنوي والدنوّ الإدراكي، فإذا كانت السعادة الأبديّة هو القرب منه، ومشاهدة جلاله ومعاينة كبريائه، وذلك لا يحصل ولا يتيسّر إلّا بالحكمة، فلا شيء أعظم ولا أتمّ فائدة منها.

وقد أمر أمير المؤمنين علي ﷺ بتعلّم الحكمة أين وجدت، ولو من المنافقين بقوله: «خذ الحكمة أنّىٰ كانت، فإنّ الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلج في صدره حتّىٰ تخرج فتسكن إلىٰ صاحبها في صدر المؤمن»(٢).

وقال أيضاً: «الحكمة ضالّة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق»(٣).

---

(١) البحار ١ : ١٣٧ ح ٣٠.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم ٧٩؛ عنه البحار ٢ : ٩٩ ح ٥٦.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم ٨٠؛ عنه البحار ٢ : ٩٩ ح ٥٧.

كنّىٰ عليه السلام بتلجلجها عن اضطرابها وعدم ثباتها في صدر المنافق، وكونه ليس مطيّةً لها، فهي غير مستقرّة فيه إلىٰ أن تخرج إلىٰ مطيّتها، وهي صدر المؤمن فتسكن إلىٰ صاحبها، فيجب على المؤمن أخذها من مطيّته، وإخراجها من غير أهلها، فإنّ الحكمة تفسد عند غير أهلها كما تقلب السبخة طيب البذر إلى العفن.

ومن هنا ورد في كلامه عليه السلام: «إنّ كلام الحكماء إذا كان صواباً كان دواءً، وإذا كان خطأً كان داءً»[(١)]. وذلك لقوّة اعتقاد الخلق فيهم، وشدّة قبولهم لما يقولونه، فإن كان حقّاً كان دواءً من الجهل، وإن كان باطلاً وجب للخلق علاج داء الجهل.

روى الشيخ الكليني طاب ثراه عن مولانا أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «قام عيسى بن مريم عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل لا تحدّثوا الجهّال بالحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تعينوا الظالم علىٰ ظلمه فيبطل فضلكم»[(٢)].

فمن منح الجهّال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وما زال الحكماء والسلّاك يوصون تلاميذهم بكتمان العلم، وصيانة الحكمة عن غير المستوجبين، ويوجبون عليهم بذل ذلك إلى المستعدّين وأهل الاستيهال.

قال بعض الأعاظم من علمائنا: إنّ الحكمة سداها ولحمتها نفض غشاوة الوهم، ورفض كورة الطبيعة، والاستضاءة بأضواء عالم القدس، ومن ليست تلك شاكلته فهو في سبيل العلم كالأكمه في ساحة الأرض، أو كالزمن في أن يكون قيحاً.

آداب الحكيم:

فينبغي لمن أراد الشروع في الحكمة أن يكون علىٰ ما نصّ عليه معلّم الصناعة

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم ٢٦٥؛ عنه البحار ٢: ٩٩ ح ٥٥.

(٢) الكافي ١: ٤٢ ح ٤؛ والبحار ٢: ٦٦ ح ٨.

(الشيخ الفارابي): «شاباً صحيح المزاج، متأدّباً بآداب الأخيار، وقد تعلّم القرآن وعلوم الشرع واللغة أوّلاً، ويكون عفيفاً صدوقاً، معرضاً عن الفسق والفجور والغدر، والخيانة والمكر والحيلة.

ويكون فارغ البال من مصالح معاشه، مقبلاً علىٰ أداء الوظائف الشرعيّة، غير مخلّ بركنٍ من أركانها، ولا بأدبٍ من آدابها، معظماً للعلم والعلماء، ولا يكون لشيء عنده قدراً إلّا العلم وأهله، ولا يتّخذ علمه لأجل الحرفة، ومن كان بخلاف ذلك فهو حكيم زور ولا يعدّ من الحكماء».

الحكمة العلميّة والعمليّة:

ولمّا كانت السعادة هي المطلوبة لذاتها، وإنّما يكدح الإنسان لنيلها والوصول إليها، وهي لا تنال إلّا بالحكمة الحقّة، فالحكمة امّا ليُعلَم بها وامّا ليُعمَل بها، فانقسمت الحكمة حينئذٍ إلىٰ قسمين: علمي وعملي. والقسم العملي هو عمل الخير، والقسم العلمي هو علم الحق، والقسمان ممّا يوصل إليهما بالعقل الكامل والرأي الراجح.

وأكثر الأنبياء ﷺ أُيّدوا بامداد روحانيّة لتقرير القسم العملي، وبطرف ما من القسم العلمي.

فغاية الحكيم هو أن يتجلّىٰ لعقله أصل الكون، ويتشبّه بإله الحق بغاية الامكان، وغاية النبيّ أن يتجلّىٰ له نظام الكون، فيقدّر علىٰ ذلك مصالح العامة حتّىٰ يبقىٰ نظام الكون وتنتظم أُمور بني آدم.

قال الحكيم المهرجاني من حكماء إخوان الصفا: «إنّ الشريعة طبّ المرضاء، والفلسفة طبّ الأصحاء، والأنبياء يطبّبون المرضىٰ حتّىٰ لا يتزايد مرضهم، ويزول المرض بالعافية فقط، وأمّا الفلاسفة فإنّهم يحفظون الصحة على أصحابها حتّىٰ لا يعتريهم مرض أصلاً».

أقول: الظاهر أنّ حفظ الصحّة أسهل من مداواة المرض؛ لأنّ حفظ الحاصل واستدامته أسهل من تحصيل الزائل واسترداده، فإنّ الطبيب الجسماني لا يحتاج في حفظ الصحّة إلّا الىٰ سبب واحد، وأمّا في مداواة المرض فإنّه يحتاج الى تحصيل أسباب متعدّدة.

وما هو موقوف علىٰ سبب أسهل ممّا هو موقوف علىٰ أسباب متعدّدة، وإنّ المخاطرة في المرض أشدّ؛ لأنّ خطر المرض الموت وخطر الصحّة المرض، فالاحتياج إلىٰ إزالة المرض أشد، وعموم الناس اليه أحوج.

فبان أنّ المزيل للأمراض الروحانية هو المفيض للحياة الدائمة[١].

* * *

تذليل القلب بذكر الموت:

قوله عليه السلام: «وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا».

وتذليله بذكر الموت: هو كفّه عن غلوائه في مظانّ الغرور ومواقع الخيلاء.

وتذكيره بالفناء: بإعلامه أنّ الإنسان في منصرم أمره، ومنتهىٰ عمره لابدّ أن يلاقي أجله المحتوم له، فهنالك منقطع حياته وعمله وأمله وإن بلغ من الكبر عتيّاً، ومن طول البقاء أمراً قصيّاً، وحينئذٍ فلا التكبّر يجديه، ولا المطامع تنفعه، ولا الآمال تنجعه، ويعود هو وجشعه ونهمته كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.

وتبصيره بفجائع الدنيا: هو حمله علىٰ النظر في تلكم الكوارث والمحن بنظر الاعتبار، ولفت نظره إلىٰ أنّه ليس من مخبأ عن تلكم الفجائع، ولا من منجا عن إصابتها دون من أصابته من الغابرين، وبطبع الحال أنّ «حكم الأمثال في ما يجوز وفي ما لا يجوز واحد» وبهذا يعلم المغزىٰ.

* * *

(١) من كتابنا «الحكمة والحكماء» مخطوط(المؤلف).

تحذير القلب:

قوله ﷺ: «**وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ، وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ**».

فإنّ من الأُصول الموضوعة أنّ الزمان ليس من المشخّصات، وأنّ من الممكن التشابه في أجزاء الدهر، وما أصاب السابقين إن كانت عقوبة على ذنب فليحذر الإنسان عن اقتراف مثله، وإن كانت بلاءً حسناً يستوجب عليها الأجر فليسأل المولىٰ سبحانه أن يجزل أجره بغير هاتيك الشدائد.

وفي تذكيره بأخبار الماضين، وبما أصاب من قبله من الأوّلين عظات بالغة وعبر، فلينظر الإنسان كيف طوت أُولئك صروف الدهر وطحنتهم فجائع الأيام، وفي غالب الظنّ أنّه سيمضي لدة(١) أُولئك النفر، فليبتهل إلىٰ ربّه أن يكفّ عنه الأسواء والسيّئات، ويكفه عن المآثم والموبقات الموجبة لمشارفة الملمّات الوبيلة.

* * *

التدبّر في آثار الماضين:

قوله ﷺ: «**وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا، وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمُ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ، فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ**».

والسير في ديارهم: أعمّ من الحلّ والترحال في مرابض الأقوام المذكورين، ومن سِيَرِ أخبارهم والنظر في أعمالهم السيئة والحسنة، وتحرّي الحسن ممّا جاؤوا به، ورفض القبيح ممّا اجترحوه حتىٰ يبلغ في سيره إلىٰ مستوى الصلاح، متنكّباً عن قاعة السوء، ومقيل الأهواء والشهوات.

والنظر في ما ارتحلوا عنه: إشارةً إلى الموت الذي لابدّ منه في منصرم الحياة، وأنّه لا خلود للانسان فيطيل معه الأمل أو يتسامح في العمل، فهنا يعرف الإنسان

(١) كذا في الأصل.

أنّهم ما انتقلوا إلّا عن الأحبّة، وعن أُنس الديار المألوفة، وبهجة الحياة المونقة، إلىٰ وحشة المقابر والأجداث، وممارسة الديدان والحشرات، ومحاولة الغربة والكربة.

فمن واجب الإنسان أن يتّخذ من العمل الصالح مصباحاً لذلك المنفى المظلم، ومؤنساً لذاك المعهد الوعر الموحش؛ لأنّه قال عليه السلام: عن قريب يصير كأحدهم فيصيبه ما أصابهم، فليكن غالب جهده في أن لا تصيبه إلّا السعادة والخير، وتكون الصالحات جنّة له عن شقاء المقتبل، فليصلح مثواه ولا يبع آخرته بدنياه.

* * *

الاحتياط في القول والعمل:

قوله عليه السلام: «وَدَعِ ٱلْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِف، وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ، وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حِيرَةَ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ».

وترك القول فيما لا يعرف يصون الإنسان عن مزلّات الجهل، ومغبّات الخطأ التي يتدهور إليها الإنسان من حيث لا يشعر متىٰ رمىٰ القول علىٰ عواهنه، ولهج بما لا يتقنه من الكلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض أصحابه: «كيف بك اذا بقيت في حثالة من الناس، مَرِجتْ عهودهم وأماناتهم، وصاروا هكذا، وشبّك بين أصابعه؟ قال: فقلت: مُرني يا رسول الله، فقال: خُذ ما تعرف، ودَع ما لا تعرف، وعليك بحويضة نفسك»[1].

ومثله التدخّل فيما لا يُعنىٰ الإنسان به، حذراً من أن يصيبه المكروه من جرّاء ما ليس بصالحه، من قول أو عمل. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[2] من جهة أنّ التكلّم فيما لا يعني المرء ممّا لا فائدة فيه أصلاً، لا في الدين ولا في الدنيا علىٰ أنّه مذموم شرعاً، وقد وردت في ذمّه أخبار كثيرة، والسرّ

---

(١) كنز العمال ١١: ٢١٢ ح ٣١٢٧٠.

(٢) البحار ١: ٢١٦ ح٢٨.

في ذلك أنّه ربّما أدّىٰ الى الكذب بالزيادة والنقصان.

فقد ورد أنّه استشهد يوم أُحد غلام من أصحاب النبي ﷺ، ووجد علىٰ بطنه صخرة مربوطة من الجوع، فمسحت أمّه التراب من وجهه، وقالت: هنيئاً لك الجنّة يا بني، فقال النبي ﷺ: وما يدريك لعلّه كان يتكلّم بما لا يعنيه ويمنع ما لا يضرّه[1].

وورد أيضاً أنّ رسول الله ﷺ قال لبعض أصحابه وهو مريض: أبشر، فقالت أُمّه: هنيئاً لك الجنّة، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك لعلّه قال ما لا يعنيه حوسب عليه، وإنّما تتهنّأ الجنّة لمن لا يُحاسب، ومن يتكلّم فيما لا يعنيه حوسب عليه، وإن كان كلامه مباحاً فلا يتهنّأ بالجنّة مع المناقشة في الحساب فإنّه نوع من العذاب[2].

وكما أنّ التكلّم بما لا يعني المرء مذموم، كذلك سؤاله غيره عمّا لا يعنيه مذموم، بل هو أشدّ ذماً، حتىٰ قال بعض أهل العرفان ـ ولعلّه مصيب في رأيه ـ: لو سألت غيرك عن عبادته، فتقول له: هل أنت صائم، فهو سؤال عمّا لا يعنيك، وربّما كنت مذموماً عليه محاسباً من جهته، لأنّه إذا قال لك: نعم، كان مُظهراً عبادته، فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل الرياء سقطت عبادته لا أقل من ديوان عبادة السر، وعبادة السرّ تفضل عبادة الجهر بدرجات.

وإن قال: لا، كان كاذباً، والكذب ممقوت عليه صاحبه، وإن سكت كان مستحقراً إيّاك وتأذّيت به، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر الى تعب وجهد فيه، فكنت عرّضته بالسؤال، امّا للرياء أو الكذب أو للإستحقار أو التعب في حيلة الدفع.

وكذلك سؤالك عن كلّ ما يخفي الإنسان ويستحي من إظهاره، أو عمّا يحتمل أن يكون في إظهاره مانع، كأن يحدّث به أحداً غيرك فتسأله وتقول: ماذا تقول،

---

(١) الترغيب والترهيب ٣: ٥٤١ ح ٥٤.

(٢) المحجة البيضاء ٥: ٢٠٠ / كتاب آفات اللسان.

وفيم أنتم، فإنّ جميع ذلك وأمثاله من فضول الكلام والخوض فيما لا يعني، ويتضمنّ إثماً وإيذاءً، وليس من مجرّد التكلّم بما لا يُعنيه والفضول، وإنّما مجرّد ما لا يُعنيه هو ما لا يتصوّر فيه إيذاء، وكسر خاطر واستحياء من الجواب.

كما روي أنّ لقمان دخل ذات يوم على داود عليه السلام وهو يسوّي الدرع ولم يكن يراها قبل ذلك، فجعل يتعجّب ممّا يرىٰ، فأراد أن يسأله عن ذلك، فمنعته الحكمة، فأمسك نفسه ولم يسأله، فلمّا فرغ داود قام ولبسها وقال: نِعْمَ الدرع للحرب، فقال لقمان: الصمت حكمة وقليلٌ فاعله(١).

فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر، وايقاع في رياء أو كذب، فهو ممّا لا يعني وتركه من حُسن الإسلام.

وقد ورد أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال ذات يوم: إنّ أوّل من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنّة، فلمّا دخل قالوا له: أُخبرنا بأوثق عملك من نفسك ترجو الله به، فقال: إنّي رجل ضعيف العمل، وأوثق ما أرجو الله به سلامة الصدر وترك ما لا يعني(٢).

وقال صلى الله عليه وآله لأبي ذر: ألا أُعلّمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان؟ قال: بلىٰ يا رسول الله، قال: هو الصمت، وحسن الخلق، وترك ما لا يعنيك(٣).

وقال صلى الله عليه وآله: طوبىٰ لمن أمسك الفضل من لسانه، وأنفق الفضل من ماله(٤). ولكن أُنظروا كيف قلبنا الأمر فأمسكنا فضل المال وأطلقنا فضل اللسان.

وقيل للقمان الحكيم: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عمّا كفيت، ولا أتكلّف ما لا يعنيني(٥).

---

(١) المحجة البيضاء ٥: ٢٠٣ / آفات اللسان.
(٢) المحجة البيضاء ٥: ٢٠١ / آفات اللسان.
(٣) المحجة البيضاء ٥: ٢٠١ / آفات اللسان.
(٤) البحار ٧٥: ٢٩ ح ٢٢.
(٥) البحار ١٣: ٤١٧ ح ١٠.

وقد نقل أنّ ابن عباس قال: خمس هنّ أحسن وأنفع من حُمُر النِعَم:

لا تتكلّم فيما لا يعنيك فإنّه فضل، ولا أؤمن عليك الوزر منه.

ولا تتكلّم فيما لا يعنيك حتّىٰ تجد له موضعاً، فإنّه رُبّ متكلّم في أمرٍ يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعبث.

ولا تمار حليماً ولا سفيهاً، فإنّ الحليم يغلبك بصمته، وإنّ السفيه يؤذيك بمنطقه.

واذكر أخاك إذا يغيب عنك بما تحبّ أن يذكرك به، واعفه ممّا تحبّ أن يعفيك منه.

واعمل عمل رجل يرىٰ أنّه مجازىٰ بالاحسان مأخوذ بالجرائم[(١)].

خطبة الامام علي عليه السلام في صون اللسان:

ولعليّ أمير المؤمنين عليه السلام خطبة في هذا الموضوع ذكرها الرضي في نهج البلاغة، قال عليه السلام:

«إيّاكم وتهزيع[(٢)] الأخلاق وتصريفها، واجعلوا اللسان واحداً، وليختزن الرجل لسانه، فإنّ هذا اللسان جموح بصاحبه، والله ما أرىٰ عبداً يتّقي تقوىٰ تنفعه حتّىٰ يختزن لسانه، وإنّ لسان المؤمن من وراء قلبه، وإنّ قلب المنافق من وراء لسانه، لأنّ المؤمن إذا أراد أن يتكلّم بكلام تدبّره في نفسه فإن كان خيراً أبداه وإن كان شرّاً واراه، وإنّ المنافق يتكلّم بما أتىٰ علىٰ لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه.

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يستقيم إيمان عبد حتّىٰ يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتّىٰ يستقيم لسانه، فمن استطاع منكم أن يلقى الله سبحانه وهو نقيّ الراحة من دماء المسلمين وأموالهم، سليم اللسان من أعراضهم، فليفعل»[(٣)].

---

(١) الترغيب والترهيب ٣: ٥٣٥ ح٣٨، والمحجة البيضاء ٥: ٢٠١ / آفات اللسان.

(٢) هزّعت الشيء تهزيعاً: كسّرته وفرّقته.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦؛ عنه البحار ٧١: ٢٩٠ ح٦٢.

أخذ ﷺ بالتحذير عن تهزيع الأخلاق الملازمة للنفاق، فقال: إيّاكم وتهزيع الأخلاق وتفريقها وتصريفها وتقليبها، ونقلها من حال إلىٰ حال، كما هو شأن المنافق فإنّه لا يبقىٰ علىٰ خُلُق، ولا يستمرّ علىٰ حال واحدة، بل قد يكون صادقاً وقد يكون كاذباً، وتارةً وفيّاً وأُخرىٰ غادراً، ومع الظالمين ظالماً ومع العدول عادلاً.

﴿إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالىٰ، يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلّا قليلاً • مذبذبين بين ذلك لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٣]. ليسوا من المؤمنين وليسوا من المسلمين، يظهرون الايمان ويصيرون إلى الكفر والتكذيب لعنهم الله.

اللسان الواحد:

ولما حذّر ﷺ عن تصريف الأخلاق والنفاق، أخذ في اتّحاد اللّسان بقوله: «واجعلوا اللسان واحداً» وذلك أنّ تعدّد اللسان أيضاً من وصف المنافق؛ لأنّه يقول في السرّ غير ما يقوله في العلانية، وفي الغياب غير ما يقوله في الحضور، ويتكلّم مع هذا غير ما يتكلّم مع ذاك.

يقول الإمام الصادق جعفر بن محمّد ﷺ: «بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطري أخاه شاهداً ويأكله غائباً، إنْ أُعطي حسده، وإن ابتلى خذله»[1].

وقال أيضاً: إنّ الله تعالى قال لعيسى: يا عيسىٰ ليكن لسانك في السرّ والعلانية لساناً واحداً، وكذلك قلبك، إنّي أُحذّرك نفسك وكفىٰ بي خبيراً، لا يصلح لسانان في فم واحد، ولا سيفان في غمدٍ واحد، ولا قلبان في صدرٍ واحد، وكذلك الأذهان»[2].

---

(١) البحار ٧٨: ٣١٠ ح ١.
(٢) الكافي ٢: ٣٤٣ ح ٣؛ عنه البحار ٧٥: ٢٠٦ ح ١٤.

قال بعض شرّاح الكافي: إنّ الله تعالى أمره بثلاث خصال هي أُمّهات جميع الخصال الفاضلة والأعمال الصالحة.

الأوّل: أن يكون لسانه في جميع الأحوال واحداً، يقول الحقّ ويتكلّم به، فلا يقول في السرّ خلاف ما يقول في العلانية كما هو شأن الجهّال؛ لأنّ ذلك خدعة ونفاقاً، وحيلةً وتفريقاً بين العباد وإغراء بينهم.

الثاني: أن يكون قلبه واحداً للحقّ وحده، غير متلوّث بالحيل، ولا متلوّث بالمكر والختل، فإنّ ذلك يميت القلب ويبعده من الحقّ، ويورثه أمراضاً مهلكة.

الثالث: أن يكون ذهنه واحداً وهو الذكاء والفطنة، ولعلّ المراد به هنا الفكر في الأُمور الحقّة النافعة ومباديها، وبوحدته خلوصه عن الفكر في الباطل والشرور، وتحصيل مباديها وكيفيّة الوصول إليها، وبالجملة أمره أن يكون لسانه واحداً، وقلبه واحداً، وذهنه واحداً، ومطيه واحداً.

ولما أمرهم ﷺ بجعل لسانهم واحداً أردفه بالأمر بحفظه وحرزه فقال: «وليختزن الرجل لسانه» يعني ليلازم الصمت، فإنّ هذا اللسان جموح بصاحبه، يقحمه في المعاطب والمهالك، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «نجاة المؤمن من حفظ لسانه»(١).

وعن أبي الحسن ﷺ قال: «من علامات الفقيه العلم والحلم والصمت، إنّ الصمت باب من أبواب الحكمة، إنّ الصمت يكسب المحبّة، إنّه دليل علىٰ كلّ خير»(٢).

وورد عن أبي عبد الله الصادق ﷺ أنّه قال: «لا يزال العبد المؤمن يكتب محسناً ما دام ساكتاً، فإذا تكلّم كتب محسناً أو مسيئاً»(٣).

إذ لا يخلو كلامه إمّا أن يكون مرضيّاً أو لا يكون، فقد أراد بذلك كلّه أنّ

---

(١) الكافي ٢: ١١٤ ح٩؛ عنه البحار ٧١: ٣٠٠ ح٧٣.

(٢) قرب الاسناد: ٣٦٩ ح١٣٢١؛ عنه البحار ٧١: ٢٧٦ ح٨.

(٣) الكافي ٢: ١١٦ ح٢١؛ عنه البحار ٧١: ٣٠٧ ح٨٥.

سلامة الإنسان في حفظ اللسان، وأنّ نجاته من وبال الدنيا ونكال الآخرة في الإمساك عن فضول الكلام.

توقف التقوىٰ علىٰ صون اللسان:

وإليه أشار عليه السلام بقوله: «والله ما أرىٰ عبداً يتّقي تقوىٰ ينفعه حتّىٰ يختزن لسانه»[1].

فإنّ التقوى النافع هو ما يحفظه من غضب الجبّار، وينجيه من عذاب النار، ولا يحصل ذلك إلّا بالاتّقاء من جميع المحرّمات والموبقات الموقعة في الجحيم والسخط العظيم.

والكذب والغيبة والهجاء والسعاية والنميمة والقذف والسبّ ونحوها من حصائد الألسن من أعظم تلك الموبقات، فلابدّ من الاتّقاء منها واختزان اللسان عنها.

ولمّا أمر عليه السلام باختزان اللسان ونبّه علىٰ توقّف التقوى النافع عليه، أردفه بالتنبيه علىٰ أنّ اختزانه من فضول الكلام، وسقطات الألفاظ من خواصّ المؤمن، وعدم اختزانه من أوصاف المنافق، وذلك قوله عليه السلام: وإنّ لسان المؤمن من وراء قلبه ـ يعني أنّ لسانه تابع لقلبه ـ وإنّ قلب المنافق من وراء لسانه ـ يعني قلبه تابع للسانه ـ.

لسان المؤمن وراء قلبه:

بيان ذلك ما أشار إليه عليه السلام بقوله: لأنّ المؤمن إذا أراد أن يتكلّم بكلام تدبّره في نفسه وتفكّر في عاقبته، فإن كان خيراً ورشداً تكلّم به ـ أي أظهره وأبداه ـ، وإن كان شرّاً وغيّاً اختزن عنه ـ أي واراه وأخفاه ـ؛ لأنّه تابع قلبه، حيث أنّه نطق به

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦.

بعد العقل وإجازته.

وإنّ المنافق يسبق حذفات لسانه وفلتات كلامه مراجعة فكره، ويتكلّم من دون فكر ورويّة بما أتىٰ علىٰ لسانه، لا يدري ماذا له وماذا عليه، فكأنّ قلبه تابع لسانه؛ لأنّه بادر إلى التكلّم من غير ملاحظة، ثمّ رجع إلىٰ قلبه فعرف أنّ ما تكلّم به مضرّة له، ثمّ استشهد ﷺ بالحديث النبوي علىٰ أنّ استقامة الايمان هو باستقامة اللسان على الحق، وخزنه عن الباطل وهو قوله: «ولقد قال رسول الله ﷺ: لا يستقيم إيمان عبدٍ حتّىٰ يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتّىٰ يستقيم لسانه»[١].

كنّىٰ ﷺ باستقامة الايمان والقلب واللسان عن كمالها، يعني من أراد أن يكون إيمانه كاملاً، أي إيماناً نافعاً في العقبىٰ، لابدّ من أن يكمل قلبه ـ يعني يكون بريئاً سالماً من الأمراض النفسانيّة ـ.

ولما كان القلب رئيس الأعضاء والجوارح كلّها، ومن جملتها اللسان، كان استقامته مستلزمة لاستقامتها، وكذلك استقامتها مستلزمة لاستقامته؛ لأنّها لو لم تكن مستقيمة ـ بأن صدر منها الذنب والباطل ـ، يسري عدم استقامتها أي فسادها إلى القلب فيفسد بفسادها.

ويدلّ علىٰ ذلك ما رواه صاحب الكافي عن زرارة عن أبي جعفر ﷺ قال: «ما من عبدٍ إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب واستغفر ذهب ذلك السواد، وإن تمادىٰ في الذنوب زاد ذلك السواد حتّىٰ يغطي البياض، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلىٰ خيرٍ أبداً، وهو قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[٢].

فإنّ هذه الرواية والآية المستشهد بها كما ترىٰ مضافة إلى الروايات الأُخر، تدل على اسوداد لوح القلب بكثرة الذنوب الصادرة من الجوارح، وفي الحقيقة

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الكافي ٢: ٢٧٣ ح ٢٠؛ عنه البحار ٧٣: ٣٣٢ ح ١٧.

الغرض من الحديث، التنبيه والإرشاد إلىٰ تكميل القلب واللسان لتحصيل كمال الايمان.

ونظيره ما رواه الحلبي رفعه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمسك لسانك فإنّها صدقة تصدَّق بها علىٰ نفسك»، ثمّ قال عليه السلام: «ولا يعرف عبدٌ حقيقة الايمان حتّىٰ يخزن من لسانه»[1].

وقوله ﷺ: «من استطاع منكم أن يلقى الله تعالى وهو نقيّ الراحة والكف من دماء المسلمين ـ يعني سالماً من قتلهم وأموالهم ـ، سليم اللسان من أعراضهم ـ يعني متجنّباً من الغيبة والفحش والنميمة والهجاء ونحوها ـ فليفعل»[2]؛ لأنّ ذلك من شرائط الإسلام ولوازم الايمان، فإنّ المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه.

واللسان رحب الميدان، وسيع الجولان، ليس له مَرَدٌّ، ولا لمجاله منتهىٰ ولا حدّ، فله في الخير مجال رحب، وفي الشرّ مجرىٰ سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مُرخىٰ العنان، سلك به الشيطان في كلّ ميدان، وأوقعه في أودية الضلالة والخذلان، وساقه إلىٰ شفا جرفٍ هارٍ إلىٰ أن يضطرّه إلى الهلكة والبوار.

ولذلك قال سيّد الرسل محمّد ﷺ: «وهل يكبّ الناس علىٰ مناخرهم في النار إلّا حصائد ألسنتهم»[3]. فلا يُنجىٰ من شرّ اللسان إلّا أن يقيّد بلجام الشرع، ولا يطلق إلّا فيما ينفع في الدنيا والآخرة، ويكفّ عن كلّ ما يخشىٰ غائلته في العاجلة والآجلة.

فضيلة الصمت:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «الصمت شعار المحقّقين بحقائق ما سبق وجفّ به القلم، وهو مفتاح كلّ راحة من الدنيا والآخرة، وفيه رضاء الربّ، وتخفيف

(١) راجع الكافي ٢: ١١٤ ح٧؛ عنه البحار ٧١: ٢٩٨ ح٧١.
(٢) راجع نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦.
(٣) البحار ٧١: ٣٠٣ ضمن حديث ٧٨.

الحساب، والصون من الخطايا والزلل، قد جعله الله ستراً على الجاهل، وزيناً للعالم، ومعه عزل الهوىٰ، ورياضة النفس، وحلاوة العبادة، وزوال قسوة القلب، والعفاف والمروّة، فاغلق باب لسانك عمّا لك منه بدلاً، سيّما إذا لم تجد أهلاً للكلام والمساعد في المذاكرة لله وفي الله.

كان بعض أصحاب رسول الله ﷺ يضع حصاة في فمه، فإذا أراد أن يتكلّم بما علم أنّه لله وفي الله ولوجه الله أخرجها»(١).

حكاية الربيع بن الخيثم:

وكان الربيع بن خيثم ـ وهو من أصحاب علي ﷺ ـ لم يتكلّم بشيءٍ من أُمور الدنيا عشرين سنة، وكان يضع قرطاساً بين يديه فيكتب كلاماً يتكلّم به، ويحاسب نفسه عشيّة ما له وما عليه، ويقول: واهٍ، نجى الصامتون وبقينا، فما رُؤي متكلّماً بشيء من أُمور الدنيا عشرين سنة، إلّا أنّه قال: العجب من قوم يعملون لدارٍ يبعدون منها كلّ يوم مرحلة، ويتركون العمل لدار يرحلون إليها كلّ يوم مرحلة، ثمّ ندم.

ولم يتكلّم إلىٰ أن قتل مولانا الحسين ﷺ جاءه رجل فقال له: يا ربيع قتل ابن رسول الله، فلم يتكلّم، ثمّ جاءه آخر وأخبره بذلك، فلم يقل شيئاً إلىٰ أن ورد عليه ثالث بالخبر، فبكىٰ وقرأ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر : ٤٢] ثمّ قال: آه آه قُتل والله من كان النبي ﷺ يجلسه في حجره، ويضع فاه علىٰ فيه، ثمّ قال لرجل ممّن شهد واقعة الطفّ: جئتم بها معلّقات ـ يعني برؤوس الشهداء ـ علىٰ أسنّة الرماح، فوالله لقد قتلتم صفوةً لو أدركهم رسول الله ﷺ لقبّل أفواههم، وأجلسهم في حجره.

* * *

(١) البحار ٧١ : ٢٨٤ ح٣٨.

الفصل الرابع
الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

«وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ ٱلْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ، وَجَاهِدْ فِي ٱللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي ٱللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَخُضِ ٱلْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَىٰ ٱلْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ ٱلْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي ٱلْحَقِّ! وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَىٰ إِلٰهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَىٰ كَهْفٍ حَرِيزٍ، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ. وَأَخْلِصْ فِي ٱلْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ ٱلْعَطَاءَ وَٱلْحِرْمَانَ، وَأَكْثِرِ ٱلاسْتِخَارَةَ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحاً، فَإِنَّ خَيْرَ ٱلْقَوْلِ مَا نَفَعَ. وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ».

* * *

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قوله ﷺ: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ ٱلْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ».

هذان أصلان قويمان يتقوّم بهما الدين الحنيف، وتحكم بهما أُسسه ويُشاد علاه، وهما من فروض الكفاية، تعاقب الأمر بهما والحثّ عليهما في الكتاب والسنة، وقام إجماع الأُمة علىٰ وجوبهما، وتصافقت علىٰ ذلك آي الكتاب الكريم، وتواترت الأحاديث النبوية، والمأثور عن أئمة الهدىٰ ـ صلوات الله عليهم ـ.

وهما بمنزلة القوة المجرية، والسلطة المنفذة لطقوس الإسلام ونواميسه، وهما اللذان يخضعان النفوس الجامحة، والطبايع الشرسة للإئمار والانتهاء، ولا سيما إذا كانا مشفوعين بالارهاب حيث تستدعيه الحالة وتقتضيه الحكمة.

وأمّا كون العامل بهما من أهل المعروف، فلأنّه إن كان الأمر خاضعاً للأمر الربوبي حق الخضوع، وواعياً إيّاه حق الوعي في إلزام الناس للأوامر الإلهية، وزجرهم عن مناهي المولىٰ، فهو نفسه أولىٰ من غيره بأن يمضي عليها ويتمرّن بها، فإنّه مهما بلغ من التسامح وإسلاس قياد النفس، فليس يرضى لها الوقوع في الهلكة المسببة عن اقتراف المآثم، وليس هو بعدوّ نفسه لا محالة.

ومن مراتب النهي عن المنكر مباينة مرتكبيه بكلّ ما يملكه الناهي ويسعه من حول وطول، بيده ولسانه والاعراض عنه، والتظاهر بالاشمئزاز مما يرتكبه، وجعل العراقيل دون سيره الوبيل.

فعل المعروف والأمر بالمعروف:

المعروف إسم جامع لكل فعل يعرف حسنه بالعقل والشرع.

المعروف إسم جامع لما عرف من طاعة الله سبحانه والاحسان إلى الناس في الواجب المندوب.

المعروف ضدّ المنكر في معناه ومصداقه، والتباين بين المنكر والمعروف بنحو السلب الكلي من الطرفين، فلا شيء من المنكر بمعروف، ولا شيء من المعروف بمنكر.

المعروف صفة شريفة معروفة، المنكر صفة رديئة منكرة، يختص المعروف بالأفعال الواجبة والمندوبة شرعاً وعقلاً، ولا يدخل فعل المباحات شرعاً وعقلاً في فعل المعروف، لأنّه خلو من الرجحان، وما لا رجحان فيه لا خير فيه، والمعروف كله خير.

ويختصّ المنكر بالمحرّمات شرعاً وعقلاً، فكلّ ما منع الشرع العقل من فعله ففعله منكر، وأما ما منع منه الشرع والعقل علىٰ نحو التنزيه عن فعله بدون إلزام بالمنع ـ وهو المكروه ـ، فلا ريب في خروجه عن دائرة المعروف، وهو أشدّ خروجاً من المباح، المباح لا يدخل في المنكر، وأما المكروه فربما كان بعض المكروهات من المنكرات إذا تكرّر فعله.

يمتاز أهل المعروف بمعروفهم، ولهم مكانة معروفة، وفي الحديث الشريف «من بذل معروفه آتاه الله جزاء معروفه» وفيه «أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة»[1]. ومعناه أن أهل المعروف في الدنيا يصنعون المعروف في الآخرة، أو أنّهم معروفون في الآخرة.

وفي حديث ابن عباس قال: «يأتي أهل المعروف يوم القيامة فيُغفر لهم لمعروفهم، وتبقى حسناتهم تامّة فيعطونها لمن زادت سيئاته علىٰ حسناته، فيُغفر لهم فيدخلون الجنّة، فيجتمع لهم الاحسان إلى الناس في الدنيا والآخرة»[2].

هذا الحديث ينطبق علىٰ الأولياء والنقباء، وأهل الاخلاص في ذات الله، الذين بذلوا أنفسهم وما لديهم في مرضاة الله سبحانه.

وفي الحديث «ليس شيء أفضل من المعروف الّا ثوابه» وفي الحديث: «ليس كلّ من يحب أن يصنع المعروف إلى الناس يصنعه، وليس كلّ من يرغب فيه يقدر عليه، ولا كلّ من يقدر عليه يؤذن له فيه، فإذا اجتمعت الرغبة والقدرة والاذن،

---

(١) البحار ٧٤: ٤١٢ ح ٢٥؛ وكنز العمال ٣: ٤٠٧ ح ٧١٧٠.

(٢) كنز العمال ٦: ٥٨٠ ح ١٦٩٩٨ نحوه.

تمّت السعادة للطالب والمطلوب إليه»[١].

* وفي هذا الحديث دلالة علىٰ أن الأعمال الخيرية تحتاج إلى التوفيق من الله سبحانه بعد الرغبة والقدرة.

وفي الحديث «صنائع المعروف تدفع ميتة السوء، وتقي مصارع الهوان»[٢]. وهذا يدلّ علىٰ أنّ فعل الاحسان إلى الناس والرفق بهم، سبب للوقاية من موارد الذلّ والهوان.

إنّ من المعروف الأمر بالمعروف:

لا نرتاب بأنّ الأمر بالمعروف من أهله في محله ربما كان أعظم من فعل المعروف، لأنّ فيه حفظ النظام بين أفراد النوع الإنساني علىٰ ما ذكرنا، وبه إكتساب الفضائل الدينية والعقلية، وإزالة الأخلاق الفاسدة، والعمل بما فيه الحياة في الدارين.

ولا أراك تشك بأن التهذيب والتعليم والالزام لشخص بما فيه ظهور كماله، وجميل صنعه، وحسن سيرته خير له من إعطائه ألف دينار يتنعم بها في معاشه مع تلوثه بأقذار المفاسد، وتدهوره في هوّة الجهالة.

وجوب الأمر بالمعروف وشروطه:

الأمر بالمعروف وفعل المعروف واجبان بحكم العقل والشرع وجوباً كفائياً علىٰ كافة العقلاء، ولا شرط لوجوب فعل المعروف سوى القدرة عليه، إن تأثير الأمر بالمعروف له شروط يتوقف تحريك خطابه للمكلّفين عليها:

الأول: القدرة علىٰ الأمر بالمعروف، وغير القادر لا يجب عليه.

---

(١) البحار ٧٤: ٤١٤ ح٣١.

(٢) البحار ٩٦: ١٧٧ ح٩.

الثاني: العلم أو الظن أو إحتمال التأثير فيمن يأمره بالمعروف.

الثالث: أن يكون الآمر بالمعروف عاملاً به، وإلّا لم يكن أهلاً لأن يأمر به لأن «فاقد الشيء لا يعطيه»، نعم فاقد الشيء لا يعطيه، إذ كل شيء تتصوّره وترى أنك تفقده يستحيل أن تعطيه لمن يطلبه منك، فالمرتكب للمنكر نجد من المنكر نهيه عنه، فضلاً عن كونه لا يؤثّر نهيه بأحد، والتارك للفعل الحسن مع قدرته عليه لا يحسن منه أن يأمر به ولا يؤثّر أمره بأحد، كلّ ذلك لأنّ «فاقد الشيء لا يعطيه».

جاء النص في القانون الإسلامي علىٰ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال سبحانه: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ [آل عمران: ١٠٤].

دلّت هذه الآية الشريفة علىٰ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصرّحت بانحصار الفلاح فيمن قام بهما، والعقل يحكم بلزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظاً للنظام، وسدّاً لأبواب الفساد.

ومن ظاهر الآية عرفنا أن الوجوب كفائي حيث قال سبحانه: ﴿ولتكن منكم أُمة﴾ ولو كان الوجوب عينياً لكن الخطاب بغير هذا البيان.

وقال سبحانه في صفة من آمن بالله حقيقة الايمان:

﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ [آل عمران: ١١٤].

قرن ايمانهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تنبيهاً علىٰ أهمية وجوبهما وأثرهما.

قال صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأمين محمّد ﷺ: «من أمر بالمعروف ونهىٰ عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله، وخليفة كتابه»[1].

وقال ﷺ حين سئل عن خير الناس قال: «آمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن

---

(١) كنز العمال ٣: ٧٥ ح ٥٥٦٤.

المنكر، وأتقاهم وأرضاهم»[١].

وقال ﷺ: «لتأمرنّ بالمعروف وتنهونّ عن المنكر أو ليسلّطنّ الله عليكم سلطاناً ظالماً، لا يجلّ كبيركم، ولا يرحم صغيركم، وتدعوا خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تُنصرون، وتستغيثون فلا تُغاثون»[٢].

وقال ﷺ: «يأتي علىٰ الناس زمان لئن يكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر»[٣].

أعاذنا الله من بلاء ذلك الزمان، ووفقنا لفعل المعروف والأمر به، وترك المنكر والنهي عنه.

* * *

الجهاد في الله:

قوله ﷺ: «وَجَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ».

الجهاد هو تحمّل الجهود الجبّارة لنصرة الدين، سواءً كان ذلك بالانضواء إلىٰ راية الحق والمناضلة بالآلات الحربية حسب ما تقتضيه الظروف الحاضرة، من غير جمود علىٰ كونه بالسيف والسنان، فمن مصاديقه القتال بالبنادق والمدافع، وفي البوارج وعلى الطائرات علىٰ حدّ قوله تعالى: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم﴾[٤].

فاعداد القوى والارهاب يشملان كل هاتيك، ورباط الخيل لا غنى عنه في ساحة الحرب في أغلب صورها، وسواء كان بالقلم واكتساح معرّة الشكوك والشبهات، وتفنيد ورطات المرجفين بالاسلام، كما في الكتب المؤلّفة والكلم

(١) كنز العمال ٣ : ٦٨٩ ح ٨٤٧٤.
(٢) احياء العلوم ٢ : ٢٨٧ / في الأمر بالمعروف ...
(٣) احياء العلوم ٢ : ٢٨٧ / في الأمر بالمعروف ...
(٤) الانفال : ٦٠.

المنشورة على الصحف، والدعاوات المبثوثة علىٰ صهوات الأعواد.

وبما أنّ هذا الجهاد قد تحفّ به لائمة من مناوئ، أو مخاطرة من مُدافع، طفق الإمام يوصي ولده البار بعدم الاكتراث بشيء من ذلك، فإنّ تثبيت الحقّ أهمّ من التحفّظ على البقيا وجمام النفس، أو التفصّي عن لومة اللوائم.

الجهاد في سبيل الله:

خلق الله تعالى الإنسان وأودع فيه قوّتين مختلفتين، احداهما: نزّاعة إلى الشر، أمارة بالسوء، والأُخرىٰ: نزّاعة إلىٰ الخير ميّالة للعدل، محبّة للقرب من الله تعالى، توّاقة للوصول إليه.

وقد اقتضت حكمته عزّ وجلّ ـ رحمة للإنسان وإرادة لسعادته وكماله ـ أن يشرفه بالتكليف، وهو عبارة عن جهاد ونضال بين هاتين القوّتين المتخالفتين في المنازع والأغراض، جهاد لا نهاية له إلّا بانتهاء الحياة وافتراق البدن والروح.

فالانسان ما وجد في هذه الحياة الدنيا إلّا للمجاهدة والكفاح في ميادينها الواسعة النطاق، المترامية الأطراف، وعلىٰ قدر جهاده وكفاحه تكون منزلته من الله تعالى ومقامه عنده، ويكون ترقيه في مقامات الرفعة والكمال.

ومن كلمات الصوفية في هذا المقام: «من زيّن ظاهره بالمجاهدة زيّن الله باطنه بأنوار اليقين، ومن كانت بدايته محرقة كانت نهايته مشرقة».

يريدون أنّ كمال المعرفة واشراق القلب بنور اليقين لا يكون مع التكاسل والتخاذل، بل لابدّ من المجاهدة والمكابدة، وإماتة صفات النفس المذمومة، واستبدال الأخلاق الفاضلة بها، وليس يعجز الله تعالى أن يمنح الكمال بلا مشقّة، ويكرم عبده بدون جهاد ولا تكليف، ولكن هكذا سبق في علمه القديم، وتقديره الحكيم أنّ لكلّ شيء سبباً، فالفوائد في طيّ الشدائد، والعطايا علىٰ متن البلايا.

والله تعالى أحكم الحاكمين ناط السعادة بالجد، والمثوبة بالعمل الصالح إظهاراً

لحكمته، وإشعاراً بجلال ربوبيّته ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو علىٰ كل شيء قدير ● الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾ [الملك: ١ـ٢].

أنواع الجهاد:

والجهاد لا يكون إلّا بين خصمين متنازعين، وعدوّين متشاحنين، وأنواعه ثلاثة: ١ ـ جهاد النفس والشيطان. ٢ ـ جهاد المتهاونين في الدين وفي أحكامه وتعاليمه. ٣ ـ جهاد أعداء الدين المخالفين لنا في العقيدة.

أما النوع الأول جهاد النفس والشيطان، فهو الجهاد الأكبر لأنّه جهاد مع عدو باطن يراك ولا تراه، شديد المكر، عظيم الحيلة، ملازم لك في الليل والنهار، في النوم واليقظة، والحركة والسكون، يجري منك مجرى الدم في العروق، ومن أجل ذلك جعل الرسول الأعظم ﷺ جهاد النفس من أعظم درجات الجهاد فيما روي من قوله: «أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه»(١).

وفي رواية «أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله»(٢).

وفي حديث آخر «المجاهد من جاهد نفسه»(٣).

بل لقد سمّى الرسول ﷺ جهاد الكفار جهاداً أصغر في جانب جهاد النفس حيث قال: «قدمتم خير مقدم، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، مجاهدة العبد هواه»(٤).

ومرجع هذا الجهاد إلىٰ تخلية النفس من أوصافها الذميمة كالحقد والحسد، والكبر والعجب، والرياء والبخل، والطمع والحرص، وما إلىٰ ذلك من الأمراض

(١) كنز العمال ٤: ٤٣٠ ح ١١٢٦٢.
(٢) كنز العمال ٤: ٤٣ ح ١١٢٦٥.
(٣) الوسائل ١١: ١٢٤ ح ١٠.
(٤) كنز العمال ٤: ٤٣٠ ح ١١٢٦٠.

الباطنية المهلكة، وتحليتها بالأخلاق الفاضلة الكريمة.

والنوع الثاني من أنواع الجهاد هو الجهاد مع إخواننا في الدين، المشتركين معنا في الانتماء إليه، ولكن فَتَنَتهم الدنيا بمناظرها الجذّابة، ومظاهرها الخلّابة، حتّىٰ أصبحوا أُسارىٰ بأيدي الشهوات، سكارىٰ بمحبة اللذات، تساهلوا في تطبيق أحكام الدين والعمل بأوامره ونواهيه، من غير جحود ولا إنكار.

وهذا الضرب من الجهاد، هو عبارة عن التصدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد اشتدّ مسيس الحاجة إليه في الآونة الحاضرة لما انتشر فينا من القبائح والزور، ولما فشا بيننا من التفريط والاهمال، مع أنّه أساس حياة الأُمّة وبدونه لا تتوفر لها سعادة ولا هناء، كما صرحت الأحاديث الشريفة.

كقوله ﷺ: «من رأى منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان».

وقال أيضاً: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا علىٰ سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا علىٰ من فوقهم فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا علىٰ أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

والقائم في حدود الله معناه المنكِر لها، القائم في دفعها وازالتها، والمراد بالحدود ما نهىٰ الله عنه، ومعنى استهموا اقترعوا.

والنوع الثالث من الجهاد هو جهاد مخالفينا في العقيدة والدين، فمحصّله: القيام بالدعاية الدينية المنظَّمة، والمجادلة بالتي هي أحسن، الخالية من الشدة والعنف، وعندنا أنّ هذا النوع من الجهاد متىٰ نُظّم وأُحكمت وسائله فإنّه يأتي بأحسن النتائج وأطيب الثمرات.

وقد رسم لنا رسول الله ﷺ خطّته بما قام به في أُخريات حياته المباركة من إرسال البعوث والرسائل إلى القبائل والنواحي لنشر الدين، وتبليغ أحكامه

وآدابه.

هذا، والجهاد في قوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾ [العنكبوت : ٦٩] معناه شامل لهذه الأنواع الثلاثة من الجهاد، أي جاهدوا النفس والهوى والشيطان، وجاهدوا كل خارج على الدين أصوله وفروعه على الطريقة التي سار عليها رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي طريقة واضحة جليّة لا لبس فيها ولا ابهام، سداها ولحمتها الاخلاص لله تعالى والتفاني في محبته، والاعتماد عليه مع الثبات على الحق وعدم المساومة فيه، أو الانخداع عنه بالحيل المموّهة.

* * *

قوله عليه السلام: «وَخُضِ ٱلْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ».

يريد ـ صلوات الله عليه ـ تأكيد مسألة الجهاد بالتفاني دونه ولومع الاستماتة، والتهيّؤ لاصابة الشدائد والأهوال، فلا تذهب بالقارئ الظنون إلىٰ أنّ للجهاد أمداً محدوداً، ومنصرماً حيث تصادمه الأضرار، فهناك تتعلّل النفوس الخائرة بسقوط التكليف، وأما النفوس القويّة ذوات الايمان الكامل فلا يزالون يمضون قدماً إلىٰ إنقاذ الحق وتحقيقه وتثبيته، ولو باسالة النفوس كما سبق إلىٰ ذلك الشهداء الصالحون، كل ذلك حيث يجدي التفاني نفعاً يبقى معه التكليف.

واما النطاح حيث لا قبل للإنسان به فمن التكليف بما لا يطاق، إلّا أن يكون بقتل الإنسان وإبادته في حد نفسه أثر مرموق إليه مرغوب فيه، كما جاء به إمام الهدى وسيد الشهداء الحسين عليه السلام، فقتل هو وآله وذووه وصحبه ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ.

* * *

التفقه في الدين:

قوله عليه السلام: «وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ».

التفقّه في الدين هو أقصى ما يراد من أيّ ابن أنثىٰ، فهو الغاية في الخلقة، وأبهج حُلّة للإنسان الكامل، وكان الإمام الصادق عليه السلام يتمنّى أن تكون السياط علىٰ رؤوس أصحابه حتىٰ يتفقّهوا في الدين[1]. وفي أخبار الإمام الحجة ـ عجل الله تعالىٰ فرجه ـ انّه يقتل من بلغ العشرين ولم يتفقّه في الدين[2].

ومراتب التفقه مقولة بالتشكيك[3]، فيصدق علىٰ من ألمَّ بتعلّم الفتاوى المجرّدة فحسب للعمل بها، فهو أول واجب للمكلَّف، وهو مناط صحة العبادة، وعلىٰ من تطلّبها بتدبّر في المبادئ والغايات، كما هو وظيفة العارفين والأفاضل، وعلىٰ من حصَّل عليها عن استنباط في الأدلّة، وهو سُنّة المجتهدين،وهم تدرّج في مراتب العلم والعمل، ففاضل وأفضل، وكلّ منهم فقيه في ذاته وإن تفاوتت الفضيلة المقسطة بينهم علىٰ حسب مراتبهم في الفقاهة، ولا يكلّف صاحب المرتبة الدانية بما تحلّىٰ به صاحب المرتبة العالية، ولا يُقتنع من الأفضل بما يقتنع به من الأحسن، فالحجة عليه أتم، والتكليف عليه أعظم.

والغرض المقصود من الفقه حفظ «الدين» بالعبادات، و «النفس» بشرع القصاص والديات، و «العقل» بحظر ما يزيله من المسكرات، و «النسب» بالمناكح والمواليد، و «المال» بالمعاملات والمداينات، و «الكل» بالسياسيّات كالحدود والتعزيرات والقضاء والشهادات.

أدلّة الفقه:

وأدلّته الموصلة إلىٰ معرفة أحكامه بعد معرفة كيفيّة الاستدلال بها أربعة: الكتاب والسنة والاجماع والعقل. ويحتاج من يريد الوصول إليها إلىٰ معرفة علم

---

(١) الكافي ١: ٣١ ح٨.

(٢) اعلام الورىٰ: ٤٤٥، عن البحار ٥٢: ٣٨١، في التذييل.

(٣) التشكيك مصطلح منطقي يُقصد به تعدّد المراتب والدرجات في مقابل (المتواطيء) حيث يقصد به وحدة المرتبة واستواء الدرجة في جميع الافراد المنظورة.

النحو، والصرف، والتفسير، واللغة، والبلاغة لأجل معرفة معاني الكتاب والحديث، وإلىٰ معرفة علم المنطق وأُصول الفقه لأجل معرفة كيفية الاستدلال، وإلىٰ علم الحساب لأجل معرفة الفرائض والمواريث.

ومن هنا كانت هذه العلوم مبادئ لعلم الفقه، وربما رأوا إدخال علم الكلام أيضاً فيها وجعله منها، باعتبار أنّ العلم بالتكليف فرع عن العلم بالمكلِّف وهو علم الكلام، فلا بد من معرفة المكلِّف قبل العلم بالتكليف، ويدخل في ذلك أيضاً علم الحكمة باعتباره مقدمة لعلم الكلام، فتكون العلوم المتوقف عليها علم الفقه لهذا الاعتبار ـ تسعة ـ ولابد من إضافة علم دراية الحديث لمعرفة صحيح الحديث من غيره. وعلم الرجال لمعرفة حامليه من عدل وغير عدل، فيكون المجموع أحد عشر علماً.

ولا يعتبر من هذه العلوم الاجتهاد فيها، بل يكفي من ذلك الالمام بمسائلها، بصورة يتمكّن من الرجوع في المسألة المتوقّفة عليها الىٰ مظانّها واستنباط الحكم منها.

قال شيخنا المتبحّر الشيخ ملّا كاظم ﷺ[1] في باب الاجتهاد والتقليد من كفايته: «لا يخفىٰ احتياج الاجتهاد الىٰ معرفة العلوم العربيّة في الجملة، ولو بان يقدر علىٰ معرفة ما يبتني عليه الاجتهاد في المسألة بالرجوع الىٰ ما دوّن فيه، ومعرفة التفسير كذلك، وعمدة ما يحتاج اليه هو علم الأصول، ضرورة أنّه ما من مسألة إلا ويحتاج في استنباط حكمها إلىٰ قاعدة أو قواعد برهن عليها في الاصول.

وبالجملة لا محيص لأحد في استنباط الأحكام الفرعية من أدلّتها إلا بالرجوع الىٰ ما بني عليه في المسائل الأصولية، وبدونه لا يكاد يتمكن من استنباط واجتهاد، مجتهداً كان أو أخبارياً»[2].

---

(١) الملقب بالآخوند الخراساني.

(٢) كفاية الاصول: ٥٣٤، في بيان ما يتوقف عليه الاجتهاد.

ويظهر من كلامه أنّ الاجتهاد في الفقه يتوقّف علىٰ الاجتهاد في أصول الفقه، أما غيره من العلوم فيكفي منها الالمام بها، كما انه ظهر منه عدم اعتبار العلوم الأخرىٰ التي أشرنا اليها وهي الصحيح.

حدّث العلامة الجليل الشيخ حبيب المهاجر العاملي حفظه الله تعالىٰ في كتابه ـ الاسلام في معارفه ـ قال: «ومن الطرائف انّي اجتمعت ببعض علماء إخواننا السنة ـ ومذهبهم بسد باب الاجتهاد في الفقه معروف ـ وببعض المناسبات قال لي: إنّ الاجتهاد يتوقّف علىٰ معرفة مائة الف حديث ـ تأمّل ـ قلت: لا يحتاج إلىٰ معرفة ولا حديث، وإنّما يحتاج إلى العلم بما أُشير إليه، فمتى حصل علىٰ ذلك أمكنه استخراج الحكم الشرعي من دليله، وصحّ له العمل برأيه، وصحّ للعامي أن يقلّده ويرجع إليه في الفتوىٰ والحكم بعد احراز عدالته وتقواه.

نعم إذا تعدّد المجتهدون وتفاوتت درجاتهم، فالمتعيّن الأخذ بقول الأعلم لأنّه أصوب، ولأنّ الأخذ بقوله مبرئ للذمة قطعاً، وغيره مختلف فيه، فالرجوع إلى المقطوع به مقدم على الرجوع إلى المختلف فيه.

إغلاق باب الاجتهاد:

ولقد تنبّه جمع من أعلام السنة وعلىٰ رأسهم المرحوم الشيخ محمّد عبده مفتي الديار المصرية إلى الخطأ في هذه المسألة، وعرفوا أنّهم قد أخذوا بها، وأنّه قد خبا نور الشريعة عندهم، وانطفأ مصباحه لديهم، وان ليس التجاؤهم إلىٰ فقه غيرهم في المحاكمات الجزائية وغيرها من المحاكم المدنية إلّا نتيجة الذهاب إلى القول بسد باب الاجتهاد[1] الأمر الذي جعلهم يرضخون إلىٰ أحكام القوانين غير الإسلاميّة،

---

(١) قالت جمعية التقريب بين المذاهب الإسلامية، في ص٧ من بيانها الذي أصدرته: «ثم جاءت بعد ذلك طبقات من المقلدين والمتعصبين للمذاهب، كلّت هممهم عن حمل ما كان يحمله سلفهم من العلم والنظر، وصادف ذلك عهود الضعف السياسي، وانقسام الأمّة إلىٰ دويلات صغيرة، قالت بهذا وبغيره تأثر أكثر المشتغلين بالفقه، ←

وفي ذلك من الفساد ما لا يخفى وباله، ولا يتلافى وهنه ولا يجبر كسره ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة: ٤٤].

والعجب كيف يرضى الناس لأنفسهم الرضوخ والخضوع لغير حكم الله[١] وعندهم القرآن فيه حكم الله، ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ [المائدة: ٥٠].

مخاطر إغلاق باب الاجتهاد:

أجل لقد نبع من المسلمين رجال تقدّموا في تلك المضامير، وتأخّر آخرون قعدت بهم الهمم وتقاعست منهم النفوس، فارتأوا أن يقيّدوا حريّة الناس، ويحبسوهم أو يمنعوهم عن النظر والجولان في معالم دينهم، بارجاعهم إلىٰ أشخاص مخصوصين لم يكونوا في ذلك العصر، بداهة أنّ ذلك كان في القرن الرابع الهجري، في عصر الشريف المرتضى، والأئمّة الأربعة الذين أرجعوا الناس إليهم وهم: أبو حنيفة، والشافعي، والمالكي، والحنبلي، كانوا قبل ذلك.

ثم رأوا إغلاق باب الاجتهاد كأنه باب خشب بيدهم فتحه وإغلاقه، فنتج من ذلك أمور ثلاثة، كلّ واحد منها كاف بان يقضي علىٰ هذه الأُمة، ويطفئ نورها، ويرجعها إلى الوراء تمشي خلف غيرها.

الأمر الأول: أنّه انطفأ نور الشريعة، وخبا ضوؤها، وأمست جواهرها المكنونة، ولآلئها المبذولة في بحري الكتاب والسنة، لا غائص عليها، ولا باحث عنها.

الثاني: أنّ لكلّ واحد من المقلّدين أتباع، أخذ يؤيّد مقلّده ومتبوعه بشتّى

← فحكموا علىٰ أنفسهم وعلىٰ جميع أهل العلم في زمانهم بأنهم ليسوا أهلاً للنظر والاستنباط، ولا لفهم كتاب الله وسنة رسوله، ومن ثم حكموا باغلاق باب الاجتهاد، وترتّب علىٰ ذلك أن وقّف الفقه وجمد».

(١) قالت جمعية التقريب في بيانها ص٨: «ومن ثم رأينا القذى في العيون، والشجى في الحلوق، حين رأينا أُمم الإسلام تحكم في بلادها بغير فقه الإسلام ومنهاج الإسلام».

الأساليب ومختلف الوسائل، الأمر الذي أدى إلى التنازع والخصام، ثم إلى التفسيق والتكفير، ثم إلى القتل والقتال، وانتهاب الأعراض والأموال.

الثالث: الرجوع إلىٰ فقه الغير بحكم الحاجة إليه، نظراً للجمود الذي عرا الفقه الإسلامي، والتحجر الذي أصابه من أهله، حتىٰ أدّى الأمر إلىٰ ما ترون، وحتىٰ أصبح المسلمون وهم أهل دين الله، يرضخون ويخضعون ويحكمون بغير أحكام الله مستعبدين مستعمرين.

إنّ رسول الله ﷺ جاء للناس بشريعة وقوانين، يريد أن يدخل العالم كله تحت حكمها، يريد أن يجعل من الناس كلهم أمة واحدة تجمعهم ثقافة واحدة، ولغة واحدة، ودين واحد، يريد أن يجعل من الدنيا جنة ينعم بها الناس قبل انتقالهم إلى الجنة الكبرىٰ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّلَ علىٰ محمّد وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ [محمّد : ٢].

فما بال المسلمين أصبحوا عيالاً علىٰ غيرهم في ثقافتهم وفي فقههم وفي أخلاقهم، من أين أُوتوا، أليس هذا من تفرّقهم واختلافهم، من انصرافهم عن البحث في فقههم، وعدم الانتاج والاستنباط من لآلئ علومهم، وعلم الفقه من أهمّ العلوم بعد علم التوحيد، وأعظمها نفعاً وأجلّها فائدة، وأحراها وأجدرها بالحرص والاستباق إليه.

أوّل من صنّف الفقه:

وأوّل من صنّف فيه، وسبق إليه، وجمعه ورتّبه علىٰ الأبواب المألوفة هو «علي بن أبي رافع» مولى رسول الله ﷺ من التابعين، وكان كاتباً لأمير المؤمنين عليه السلام.

قال النجاشي في ذكر الطبقة الأُولىٰ من المصنّفين من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام: «علي بن أبي رافع مولىٰ رسول الله ﷺ هو تابعي من خيار الشيعة، كانت له صحبة من أمير المؤمنين عليه السلام وكان كاتباً له، وحفظ كثيراً، وجمع كتاباً في فنون الفقه

والوضوء والصلاة وسائر الأبواب»[١].

ولعلّ من هنا تجد كثيراً من المؤلّفين يبدؤون في كتبهم ويقدّمون فيها مباحث الوضوء، مع أن الترتيب يقتضي تقديم مباحث المياه وما يتلوها لأنها مقدّمة للوضوء، ولكنهم جروا علىٰ ما جرى عليه علي بن أبي رافع، بملاحظة انّه تفقّه علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام وجمع كتابه في أيامه، فلابد أنّه كان ذلك باشارته.

قال النجاشي: «تفقّه علىٰ أمير المؤمنين وجمعه ـ يعني كتابه ـ في أيامه، أوّله باب الوضوء، إذا توضّأ أحدكم فليبدأ باليمين قبل الشمال من جسده، قال: وكانوا يعظّمون هذا الكتاب»[٢]

* * *

الصبر علىٰ المكاره:

قوله عليه السلام: «وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَىٰ الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ!».

فضيلة الصبر:

التصبّر هو الحجر الأساسي للملكات الفاضلة كلّها، فإنّه اما أن يكون على الطاعة أو عن المعصية، فإن كان تحمّلاً علىٰ جهود الطاعة ففيه أنواع العبادات البدنية، وإن كان جَلَداً علىٰ بثّ الثراء فمن العبادات المالية، وإن كان تحمّلاً علىٰ وعثاء السفر وضرب آباط الإبل، فهو المرغبات التي تكون في الضرب في الأرض كالحج والأسفار المشروعة كلها.

وإن كان صبراً علىٰ مضاضة الحروب، وعضّ السلاح والمخاطرة بالنفس، ومعاناة الجروح الدامية، ومقاسات الحبوس والمشانق والأسر، فتلك فضيلة

(١) رجال النجاشي: ٦ رقم ٢.

(٢) رجال النجاشي: ٧ رقم ٢.

الجهاد، وقد يكون بمكافحة النفس، وكسر سورة الغضب، وكظم الغيظ الثائر، فذلك الحلم الذي رغب فيه العقل والشرع.

ولن تجد في الصفات الفاضلة صفة تلازم مخالفة النفس، أو السير في سفر الطاعة إلّا ولها أتمّ صلة بالصبر أو ابتناء عليه، ولذلك تطابق الكتاب والسنة على الحثّ به، والترغيب فيه والدعوة إليه، فهو جماع الفضائل، وأصل تفرّعت منه فروع البر والاحسان، وأسس بنيت عليها قواعد الطاعة والايمان.

قال رسول الله ﷺ: «الصبر نصف الايمان، واليقين الايمان كله ولن يفترقا»(١). واليقين هو المعرفة بالله عزّ وجلّ الباعثة علىٰ طاعته. والصبر هو العمل بمقتضى المعرفة التي تحمله على الطاعة وإن شقت، وتصرفه عن المعصية وإن عذبت ولذت.

وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، فلا خير في إيمان لا صبر معه كما لا خير في جسد لا رأس معه»(٢).

وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل النبي ﷺ علىٰ الأنصار، فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا، فقال أحدهم: نعم يا رسول الله، قال: فما علامة ايمانكم؟ فقال: نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة(٣).

وقال ابن عباس: «أفضل العدة الصبر عند الشدة» لما في ذلك من محمود العاقبة في العاجل والآجل.

وأكثر الناس يصبرون ولكنّهم لا يستحقّون اسم الصبر، لأنّ الصابر على الحقيقة لا يشك أن الذي يصيبه من المصائب، وينزل به من الحوادث هو خير له، لعلمه بحسن لطف الله تعالى به وجميل صنعه له، كمثل غارس الجنة الذي لا يزال

---

(١) كنز العمال ٣: ٢٧١ ح٦٤٩٨.

(٢) نهج البلاغة: قصار الحكم ٨٢.

(٣) احياء العلوم ٤: ٦١ في فضيلة الصبر، المحجة البيضاء ٧: ١٠٧.

يجيد عمارتها، ويوالي سقيها، ودفع الضر عنها، وهو مع ذلك يتعهّدها بتقليم أغصانها، وتعريتها من بعض أوراقها لما يعلم في ذلك من المنفعة لها، ويرجوه من دفع المضرّة عنها.

فلو علم ابن آدم لطف الله تعالى به، وميّز جميل صنعه فيه، وعرف حسن تدبيره له لأيقن رفقه، ووفى الصبر حقه، وعلم النعمة في المنع هي النعمة الطائلة الدائمة، وأنّ النعمة في الاعطاء والاتساع في أحوال الدنيا ربما كان مؤدّياً إلىٰ منع نعيم الأخرى، ألا ترى إلىٰ قول الله عزّ وجلّ: ﴿**إن الإنسان ليطغى ● أن رآه استغنى**﴾ [العلق : ٦–٧].

وقال لقمان لابنه: «يا بني الذهب يجرب بالنار، والعبد الصالح يجرب بالبلاء»[(١)].

وقال الفضل بن عيّاض: «إن الله ليتعهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعهّد الرجل أهله بالخير»[(٢)].

ولولا أنّ في حلول الكوارث ونزول الحوادث تخفيفاً من الأوزار، وحطّاً من الذنوب، ومحواً من السيئات ما استطعنا عليها صبراً، ولولا أنّ في موافقة اللذات، ومقارفة الشهوات أنواعاً من المكاره وأصنافاً من الشدائد ما وجدنا عنها صبراً، ولكثر إليها إسراعنا، وقلّ عنها امتناعنا.

لا جرم أنّ جميع خلال الخير، وخصال البر، وأحوال الطاعة، وما جعل الله في الإنسان من حسن الشيم، وكرم الأخلاق، وأسباب الديانة، ودواعي الايمان إنّما هي كلّها مرتبطة بالصبر، وراجعة إلى الصبر، ومحمولة على الصبر، وجارية مع الصبر كيفما تأملتها، وعلىٰ أيّ حال تدبرتها، فإنّه قطب تدور عليه جميع الأفعال المحمودة.

---

(١) احياء العلوم ٤ : ١٢٧ / الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر.

(٢) احياء العلوم ٤ : ١٢٧ / الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر.

ألا ترىٰ أنّ الكرم صبر علىٰ مفارقة المال وعلىٰ حبه، وأنّ العدل صبر علىٰ إمضاء الحكم وإن شقّ، وأنّ الصدق صبر فربما خالطه شوائب تكره، وانّ الحلم جامع لأشتات الصبر.

والأخبار في فضيلة الصبر على البلاء وعظم ثوابه وأجره أكثر من أن تحصى، فينبغي للمرء أن يتدرّع به، ويروض نفسه منذ زمن الحداثة عليه.

أقسام الصبر:

والصبر في أصل معناه اللغوي الحبس، وهو باعتبار متعلّقه ينقسم ثلاثة أقسام: (الصبر عن...) (والصبر على...) (والصبر في...):

فالأول: حبس النفس عن فعل السوء والشر، ودواعي الهوى والشهوة، وكلّ ما يمسّ كرامه الإنسان، ويشوّه سمعته.

والثاني: الصبر على المكروه والألم، وتحمّل الرزايا والمصائب، وكل ما يقلق الراحة، وينغص العيش، ومن ذلك الصبر علىٰ ما يفوت الإنسان من المآرب والحظوظ الدنيوية.

والثالث: الصبر في مواطن الخوف والذعر، بل في مواطن الخطر أحياناً دفاعاً عن حق، أو حماية لمصلحة، أو وقاية لعرض وشرف، وهذا النوع من الصبر يسمّى الشجاعة والاقدام، فالشجاعة إذ ذاك ضرب من الصبر، قال الله تعالىٰ: ﴿**والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾ [البقرة : ١٧٧].

وقال بعض الحكماء: «ليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوي الجسد على الكد والتعب، لأنّ هذا تشاركه فيه الدابة، ولكن أن يكون للنفس غلوباً، وللخطوب حمولاً، ولجأشه عند الحفاظ مرتبطاً».

وانّ أعزّ شعوب هذا العصر، وأرفعها شأناً، وأوسعها سلطاناً هو الشعب الذي

عرف من أخلاقه الصبر والثبات في مواطن الأخطار، ولدى اشتداد الأهوال، فهو يعدّ للأُمور عدّتها، ويهيّئ لها أسبابها ووسائلها، ثم يصبر صبراً بعد صبر، حتّىٰ يحين الوقت، ويتضح الأمر، وإذ ذاك يجني ثمرته، ويجتني فائدته.

هذا الخُلُق يصح أن نسمّيه «الخلق القرآني» لكثرة ما ذكر في القرآن من التنويه به، والحضّ عليه في أكثر من سبعين آية: من ذلك قوله تعالى: ﴿واصبر علىٰ ما أصابك إن ذلك من عزم الأُمور﴾ [لقمان: ١٧]، ومعنى كون الصبر من عزم الأُمور أنّه مما يتأكد طلبه، وتجب على الشخص ممارسته من أُمور الأخلاق.

﴿وأن تصبروا خير لكم﴾ [النساء: ٢٥].

﴿إن الله مع الصابرين﴾ [الأنفال: ٤٦].

﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا﴾ [السجدة: ٢٤].

وأما الاستسلام إلى المكروه والصبر على المصيبة، والتقاعد عن دفعها بالطرق والوسائل المشروعة الممكنة، فليس مما يرضاه الشرع ولا العقل لنا، ولا يكون الصبر حينئذ صبراً محموداً، ولا خُلُقاً مشكوراً، ينزل بالمرء فقر أو ضائقة، وله عيال يتضوّرون جوعاً، وأسباب الرزق ممهدة بين يديه، فيعرض عنها ويقول: «إنّه صابر وإنّ الصبر مفتاح الفرج».

يصاب المرء بمرض مؤلم، ويكون له علاج أو دواء ناجع أو مخفف، فيتقاعد المريض عن تناول ذلك العلاج، ويقول عن نفسه: «إنّه صابر، وإنّ الصبر سلاح المؤمن».

يعتدي معتد عليك، أو يغتصب بعض حقك، ويكون في مكنتك كفّ أذاه باحدى الطرق والوسائل، لكنك لا تفعل بل تذل وتخضع، وتدّعي أنّك صابر، وأنّ الله مع الصابرين، وغير ذلك كثير من أحوال الناس وأطوارهم التي تتكرر مشاهدها تحت مواقع أبصارنا من وقت إلىٰ آخر.

كلّ أولئك ليس من الصبر في قليل ولا كثير، ولا ينبغي أن يُقرَّظ صاحبه

عليه، وإنّ استنكار ذلك وبعده عن الأخلاق، ومنافاته للخلال الفاضلة، أمرٌ ظاهر لا يحتاج إلىٰ استدلال، بل يكاد يكون الشعور باستنكاره أمراً بديهيّاً.

وقد مني المسلمون في أخريات أيّامهم بشيء كثير من هذا الذي يسمّونه صبراً وتوكّلاً، فساءت حالهم، ووهت عزائمهم، وكلَّت هممهم، فصاروا أُكلَة لآكل، وغرضاً لنابل.

* * *

اللجوء الىٰ الله:

قوله عليه السلام: «وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَىٰ إِلٰهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَىٰ كَهْفٍ حَرِيزٍ، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ».

إنّ في هذا التصميم جمام النفس في الدنيا، وراحة المنقلب غداً، فإنّ العقل مهما استند إلىٰ ملجأ لا يخاف انهياره، استقبلته الطمأنينة في اتجاهه، فلا يخشى خوراً ولا يحاذر ذلاً إن كان صادقاً في إلتجائه، (لا يسر حسواً في ارتغاء) فيفضحه الكذب في قوله، والخيانة في عمله.

فهذه الطمأنينة لا تبارحه في حياته كلّها لأنّه استند إلىٰ كهف حريز، ومانع عزيز لا تدانيه سطوة عدوّ أو غلبة مناجز، وهو متى وحّد اتجاهه نحوه سبحانه، وعلم أن لا مَنجىٰ منه إلّا إليه توحَّد فكره، وانحسر عن المناحي المتفرقة فلا يذهب شعاعاً، وينصرف عن الأباطيل جمعاء إلى الذي يوحّده في العبادة والالتجاء والآمال والأعمال، فلذلك حسن أن يتوكّل عليه، ويَلْتَجِئ في كلّ أُموره إليه.

التوكل على الله:

نصّ القانون الإسلامي على التوكل في جميع الأُمور على الله، وهو السبب لتحقيق الرضا والتسليم، وأثره ترك الجشع والعدوان، فهو من مكارم الأخلاق.

التوكل هو اظهار العجز والانقطاع إلىٰ من يتكل عليه، فإذا أظهر الإنسان عجزه عن فعل من الأفعال لإنسان مثله، وانقطع إليه كان متوكّلاً عليه، ولا ريب في أنّه يسعى له في قضاء فعله إذا كان ذلك الفعل تحت قدرته، وكانت صفات الإنسانية كاملة في ذلك الإنسان، وإن لم يكن تحت قدرته يعتذر إليه، ولم يكن ذلك الاتكال مصادفاً لمحلّه.

أما التوكل على الله سبحانه القادر علىٰ كلّ شيء، المنزه عن ظلم عباده لاستغنائه عنهم وقدرته عليهم، فإنّ العقل السليم حاكم برجحانه، وإنّ التوكل على الله ـ وإن لم يرد به نصّ من الله في كتابه الكريم ـ فهو لازم على الإنسان، لأنّ وظيفة العبد الاتكال علىٰ مولاه في تدبير أُموره، فالانسان يتوجه بحسب إرادته ورغبته إلىٰ ما يرتضيه من الأعمال، ويسعى بمقدار قدرته، وهو متوكّل على الله في نجاح سعيه وإتمام عمله، فإن كان صلاحه في إتمامه أقدره الله عليه، وإلّا رجع عنه بعد أن كان تحت قدرته وفي قبضته بحسب ما يراه.

وربما أنّه يرى أن لا يمنعه منه أحد، فإذا رجع عنه قد يظهر له بلا مهلة عدم حسن ذلك الفعل، ويمكن ظهوره بعد زمان طويل كما يمكن استمرار جهله بحسنه وعدمه. فالعارف بالله المؤمن به لا يتوكّل علىٰ انسان مثله في قضاء عمل له، نعم له أن يطلب منه قضاءه وهو متوكّل على الله بأن يقدره عليه بتوسط ذلك الإنسان أو غيره من العباد، وهذا الذي ينطبق عليه نص القانون الإسلامي، ويساعد عليه الوجدان والنص، قال سبحانه: ﴿ألّا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ [الاسراء : ٢].

هذه الآية صريحة بالنهي منه سبحانه لعباده عن الاتكال والاعتماد في شيء من أمورهم علىٰ أحد من العباد، إذ لا يمكن أن يقضي أحد حاجة أحد إلّا بالاقدار والتوفيق من الله سبحانه، فالذي يحسن أن يتخذه الإنسان وكيلاً ومعتمداً هو الله، يقول سبحانه: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق : ٣] أي من يعتمد على الله في أموره فالله يكفيه ولا يلجئه إلىٰ أحد سواه، وقال سبحانه ﴿وعلى الله فليتوكل

المتوكلون﴾ [إبراهيم : ١٢].

إنّ هذه الآية الشريفة لمن تدبّرها وعرف المراد منها نعمة نفسية، وحياة قلبية، يكفيانه في الحياة الدنيوية، وفيها الكفاية في باب التوكل تعطيك معنى التوكل بجوهره، وتعرب لك عن لبابه لأنّها بكل صراحة نصها: ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ [ابراهيم : ١٢].

ولم يكن نصها وعلى الله فليتوكل العباد أو الانسان أو العقلاء، فالمتوكلون جمع، واحده متوكل، وهو هنا بمعنى المتيقن، فهو عبارة عن المتوكل على الله عن يقين ثابت، وهو التوكل على الله حق توكله، وذلك بأن يجزم بأن كل رزق وعطاء ونعمة وسعادة من الله سبحانه، ثم يسعى في الطلب على الوجه الجميل بحيث يخاف من الله وحده، ولا يطمع في أحد سواه.

وربما يتوهم البسطاء أن التوكل على الله هو عبارة عن ترك التكسب والسعي في أمر المعاش، وهذا توهم فاسد، وتفسير قد منع الشارع منه.

مراتب التوكل:

ومِنَ التدبر في الآيات الربانية، والآثار الوجدانية، نعلم بأن التوكل له مراتب، فأضعفه ما كان توكلاً بسيطاً لا يقين معه، وأرقى منه ما كان معه يقين يتخلله الشك في موارد التوكل، والمرتبة العليا هي التوكل على الله عن يقين ثابت بحيث لا يعترضه الشك في موارد التوكل، وهذا القسم هو المراد من هذه الآية.

ولا ينافي هذا القسم فضلاً عما تقدّمه أن يكون لمن توكل على الله في أموره حتى التوكل سعي تام، وحركة عقلائية، وأسباب عادية للتوصل إلىٰ مطلوبه، لأنّ الله سبحانه أمر بالسعي وجعل لكل شيء سبباً، فإذا كان كذلك في أحواله كان جارياً علىٰ ما هو تكليفه وتحت قدرته، ونحن وكل مؤمن عرف حقيقة الايمان لا نرتاب بأن التوكل علىٰ الله من كمال الايمان، وفيه ما فيه من التسليم والرضا، وهو

السبب في ارتياح النفس واطمئنانها وتجردها عن البغي والجشع.

وهيهات هيهات بعد تحقق هذه المرتبة الأخلاقية أن ينازع الإنسان من فوقه بالمعصية، أو من يساويه ومن دونه بالغلبة، وفي ذلك سلامة الإنسان في أكوانه من العبث والفساد، والظلم والالحاد، وبذلك ينال السعادة في الدارين.

* * *

الاخلاص في المسألة:

قوله ﷺ: «وَأَخْلِصْ فِي ٱلْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ ٱلْعَطَاءَ وَٱلْحِرْمَانَ».

هذا من ولائد ما قدّمنا شرحه من صدق الالتجاء، فإنّ الإنسان إذا كان غير خائن فيما يلفظه من قول، أو يرتكبه من عمل، أو ينظاهر به من عقيدة، فلا مناص له إلّا الصدق والاخلاص، لأنّه جد عليم أنّه لا ينجيه إلّا ذلك، وأن المولى سبحانه لا تنطلي عنده اكذوبة خائن ولا غشّ مخادع، علىٰ انّه لا تنقطع آماله من ربه الغني، فهو كلّ حين بين مسألة لمنح عطاء، أو منع خطر مخبت لأنّ بيده جلَّت قدرته لا بيد غيره العطاء والمنع.

* * *

استخارة الله:

قوله ﷺ: «وَأَكْثِرِ الاسْتِخَارَةَ».

هذا من توابع ما سبق من صدق الالتجاء والاخلاص في القول والعمل، فإنّ تلكم المراتب لا يبارحها طلب الخير من الله سبحانه بعد اليقين والعقيدة الجازمة بأنه لا منيل للخير سواه، ولا منال له في غير ساحة قدسه، إن أريد من الاستخارة طلب الخير كما هو ظاهر من متعارف الأخبار والاحاديث، ومتفاهم الكثير من العلماء الفطاحل.

وإن أريد بها ما هو المتداول بين الناس من استكشاف الخير والشر بكيفيات مأثورة بالحصى، والبنادق[1]، وآي القرآن الكريم، والقرعة، فهو أيضاً من مظاهر طلب الخير ومصاديقه، وإن كان إطلاق اللفظ وشموله عليها على الاطلاق ممنوعاً.

فلسفة الاستخارة:

من المعلوم أنّ عالم الدنيا وهو الذي يعبّر عنه عند أرباب العلوم العقلية بعالم الشهود، دار تزاحم وتمانع، والتضارب واقع على الدوام بين الأسباب المقتضية لمسبباتها، فإنّ سبباً قد يقتضي شيئاً ويمانعه آخر فيدفعه عن مقتضاه.

ألا ترىٰ انّ الأرض الصالحة للزرع إذا كفّرت[2] فيها الحبة، وسقيت علىٰ نظام قانون الري، تكون سبباً لنبات تلك الحبة، وبلوغها إلىٰ غايتها المتوخاة التي هي الاثمار، فإذا صادفها برد شديد يمانعها في مقتضاه فيميت الزرع.

والإنسان في جميع حركاته وسكناته يطلب ما هو الأصلح له في دنياه وآخرته، وبما أن الدافع له إلىٰ طلب شيء أو إلىٰ الهرب منه ليس إلّا إحرازه السبب المرجح للطلب أو الهرب، فإذا أحرز ذلك حسب ما تصل إليه فكرته، وأحرز وجود الشرائط وفقدان الموانع، لا يتوقف في الحركة بل يجري علىٰ مقتضى إحرازه.

وقد يقع بين سببين متساويين بالاضافة إلى الايجاب والسلب في حيرة توجب الوقفة، وحيث أنّه محجوب عن الاحاطة بجميع المصالح النفس الأمرية[3]، وخارج عن وسعه ترجيح ما هو الراجح في نفس الأمر فيقف عن الحركة.

والشارع الحكيم من لطفه علىٰ عبده يريد جريه على العمل، وإخراجه عن الحيرة، جعل له طريقاً إلىٰ كشف ما هو الراجح في نفس الأمر، والأصلح بحاله في

---

(١) البنادق: جمع بندقيّة وهي كل حبّة متسديرة علىٰ شكل كرة.

(٢) كُفرت: بمعنىٰ أُخفيت ودُفنت، والكفر لغةً بمعنىٰ الاخفاء، ومنه يطلق علىٰ من يكفر بالله حيث أنه يخفي فطرته، ويدفن وجدانه.

(٣) النفس الأمري: مصطلح فلسفي يُقصد به الواقع الذي هو في علم الله تعالىٰ.

الواقع، وذلك الطريق هو الاستخارة التي هي استرشاد واستهداء ممن لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة إلىٰ ما فيه الرشد والصلاح.

ومن هذا الباب أيضاً أمرهم بالمشورة، فإنّ فيها تتعاضد العقول إلىٰ معرفة الأصلح، وعند وقوفها عن إحرازه أمرهم بالرجوع إلىٰ خالق العقول وجاعل الألباب بالاستخارة، والأحاديث في أمر الاستخارة مستفيضة متكاثرة.

فقد أثر عن الصادق جعفر بن محمّد ﷺ انّه كان يقول: «إذا استخرتُ الله في أمر لا أُبالي علىٰ أيّ جنبي وقعت»[1]. وعنه ﷺ انّه قال: «يقول الله عزّ وجلّ: من شقاء عبدي أن يعمل الأعمال ولا يستخيرني»[2].

وقال ﷺ: «من دخل في أمر بغير استخارة ثم ابتلي لم يؤجر»[3].

وقال ﷺ لبعض أصحابه وقد سأله من أكرم الخلق على الله تعالى؟ «قال: أكثرهم ذكراً لله وأعملهم بطاعته، قلت: فمن أبغض الخلق إلى الله تعالى؟ قال: من يتّهم الله، قلت: وأحد يتّهم الله؟ قال: نعم، من استخار الله فجاءته الخيرة بما يكره فسخط، فذلك يتّهم الله تعالىٰ»[4].

وجاء عن رسول الله ﷺ انّه قال لعلي ﷺ لما بعثه إلى اليمن والياً، فكان من جملة ما أوصاه أن قال له: «يا علي ما حار من استخار، ولا ندم من استشار»[5].

طرق الاستخارة:

وللإستخارة عدة طرق ووجوه:

الطريق الأول: الاستخارة بالقرآن، قال العلامة المجلسي ﷺ ـ في مفاتيح

---

(١) البحار ٩١: ٢٢٣ ضمن حديث ٣.
(٢) البحار ٩١: ٢٢٢ ح ١.
(٣) المحاسن ٢: ٤٣٢ ح ٤؛ عن البحار ٩١: ٢٢٣ ح ٢.
(٤) المحاسن ٢: ٤٣٢ ح ٥؛ عن البحار ٩١: ٢٢٣ ح ٢.
(٥) البحار ٩١: ٢٢٥ ح ٥.

الغيب ـ «إنّه المشهور وهو الدعاء بطلب الخيرة من الله تعالى، وفتح القرآن، والنظر إلىٰ أول الصفحة اليمنى والعمل بها، فإن كانت آية رحمة، أو أمر بخير فهي جيدة، وان كانت آية غضب، أو نهي عن شر، أو أمر بعقوبة فهي ردية، وإن كانت ذا وجهين فهي متوسطة».

ويدلّ علىٰ جواز الاستخارة بهذا النحو ما رواه الشيخ في «التهذيب» عن اليسع بن عبد الله القمي قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: اني أريد الشيء فأستخير الله فيه، فلا يوثق فيه الرأي أفعله أو أدعه، فقال عليه السلام: أنظر إذا قمت إلى الصلاة ـ فإنّ الشيطان أبعد ما يكون من الإنسان إذا قام إلى الصلاة ـ أي شيء يقع في قلبك فخذ به، وافتح المصحف فانظر إلىٰ أول ما ترى فيه فخذ به»[1].

ـ والظاهر ـ ان المراد بأوّل ما يراه أول الصفحة اليمنى، لو قوع النظر عليه غالباً ابتداءاً، ولأنّه أمر مضبوط تحسن الاحالة عليه، ولو أريد أول ما يقع عليه النظر من أي موضع كان لم يكن إحالة علىٰ أمر مضبوط، إذ ربما يقع النظر علىٰ آيتين تدلّ إحداهما على الخير والأُخرىٰ على الشر، أو أكثر من آيتين.

ومما يؤيد جواز الاستخارة بالقرآن، ما عن السيد ابن طاووس رحمه الله في كتاب «فتح الأبواب» انّه قال: ذكر الشيخ الإمام المستغفري الخطيب في سمرقند في دعواته، إذا أردت أن تتفأل بكتاب الله عزّ وجلّ فاقرأ سورة الاخلاص ثلاث مرات، ثم صلّ على النبي وآله ثلاثاً، ثم قل: «اللهم اني تفألت بكتابك، وتوكلت عليك، فأرني في كتابك ما هو المكتوم في سرّك المكنون في غيبك» ثم افتح الجامع ـ يعني القرآن ـ وخذ الفأل من الخط الأول في الجانب الأول من غير أن تعد الأوراق أو الخطوط، كذا ورد مسنداً إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله[2].

الطريق الثاني: الاستخارة بالسبحة: ما نقله العلامة المجلسي رحمه الله في «مفاتيح الغيب» عن والده، عن شيخنا البهائي انّه كان يقول: «سمعنا مذاكرة عن مشايخنا

---

(١) التهذيب ٣: ٣١٠ ح٦ باب ١٣.
(٢) فتح الابواب: ١٥٦ الباب السادس؛ عن البحار ٩١: ٢٤١ ح١.

عن صاحب الأمر ـ صلوات الله عليه ـ في الاستخارة بالسبحة انّه يأخذها ويصلي على النبي ﷺ ثلاث مرات، ويقبض على السبحة، ويعد إثنتين إثنتين، فإن بقيت واحدة فهو إفعل، وإن بقيت إثنتان فهو لا تفعل».

الطريق الثالث: الاستخارة بالرقاع؛ وهذه أضبط الاستخارات، وأحسنها وأشهرها، وصورتها ما رواه الكليني في «الكافي»، والشيخ في «التهذيب» بأسانيد معتبرة عن هارون بن خارجة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا أردت أمراً فخذ ست رقاع، واكتب في ثلاث منها: بسم الله الرحمن الرحيم خيرة من الله العزيز الحكيم لفلان ابن فلانة إفعله. وفي ثلاث منها: بسم الله الرحمن الرحيم، خيرة من الله العزيز الحكيم لفلان ابن فلانة لا تفعله.

ثم ضعها تحت مصلاك، ثم صلِّ ركعتين، فإذا فرغت فاسجد سجدة وقل فيها مائة مرة: «استخير الله برحمته خيرة في عافية» ثم استوي جالساً وقل: «أللهم خر لي واختر لي في جميع أموري في يسر منك وعافية» ثم اضرب بيدك إلى الرقاع فشوشها وأخرج واحدة واحدة، فإن خرج ثلاث متواليات لا تفعل فلا تفعله، وإن خرجت واحدة إفعل والأخرى لا تفعل، فأخرج من الرقاع إلىٰ خمس فانظر أكثرها فاعمل به، ودع السادسة لا تحتاج إليها»[1].

* * *

العلم النافع:

قوله عليه السلام: **«وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحاً، فَإِنَّ خَيْرَ ٱلْقَوْلِ مَا نَفَعَ، وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، ولا يُنتفع بعلم لا يحق تعلّمه».**

العلم النافع هو ما أعقب تفقهاً في الدين، أو تهذيباً للنفس، أو سجاحة[2] في

(١) التهذيب ٣: ١٨١ ح٦، الكافي ٣: ٤٧ ح٣.
(٢) خُلُقٌ سجيح: ليّن سهل.

الخُلُق، أو دماثة في الضرائب، أو عظة بالغة، أو عبرة زاجرة، وهناك علوم لم تمنع عنها الشريعة، ولعلّ في غضون مأثوراتها ترغيباً في تعلّمها، أو أنّ لها صلة بغير واحد من الأحكام الدينية، كغير واحد من الرياضيات من حساب، وهندسة، والعلوم الفلكية والجغرافية الطبيعية.

وهناك علوم جمة باقية علىٰ إباحتها، وهي مجلبة للفضل والكمال لمن تطلّبها إذا لم تكن ملهية عن الدينيات.

وعلوم محظور تعلمها، وهي التي لا خير فيها كما في قوله ﷺ، لأنّ في تعلمها صدّ عن سلوك سبيل الله، والعلم المؤدي إليه، وتلك هي العلوم التي نهت الشريعة عن تعلمها كالسحر والكهانة والنجوم ونحوها مما لا يكون فيها سبيل إلىٰ المقاصد الحقيقيّة التامة.

العلوم المحرّمة:

والذي يلوح من سرّ نهي الحكمة النبوية عن تعلم هذه العلوم أمران:

أحدهما: إشتغال متعلّمها بها، واعتماد كثير من الخلق السامعين لأحكامها فيما يرجون ويخافون، فما يسنده إلى الكواكب والأوقات، والاشتغال بالفزع إليه وإلىٰ ملاحظة الكواكب عن الفزع إلى الله تعالى، والغفلة عن الرجوع إليه فيما يهم من الأحوال، وهذا يضاد مطلوب الشارع الأقدس، لأنّ غرضه ليس إلّا دوام التفات الخلق إلى الله سبحانه، وتذكرهم لمعبودهم بدوام حاجتهم إليه.

الثاني: انّ أحكام هذه العلوم إخبارات عن أمور ستكون، وهي تشبه الاطلاع علىٰ الأُمور الغيبية، وأكثر الخلق من العوام والنساء والصبيان لا يميزون بينها وبين علم الغيب والاخبار به، فكان تعلم تلك الأحكام والحكم بها سبباً لضلال كثير من الخلق، وموجباً لاعتقاداتهم في المعجزات ـ إذ الاخبار عن الكائنات منها ـ والشك في عظمة بارئهم، ويشككهم في صدق عموم قوله تعالىٰ ﴿قل لا يعلم

من في السماوات والأرض الغيب إلّا الله﴾ [النمل : ٦٥]، ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو﴾ [الأنعام : ٥٩]، وقوله تعالىٰ:﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ [لقمان : ٣٤].

فصاحب هذه العلوم إذا حكم لنفسه بأنه يصيب كذا في وقت كذا، فقد ادعى أنّ نفسه تعلم ما تكسب غداً، وبأي أرض تموت، وذلك عين التكذيب للقرآن، وهذان الوجهان المقتضيان لتحريم هذه العلوم.

وصفوة القول: أن كل علم لا يحق تعلمه ـ أي لا يثبت في الشريعة تعلمه وجوباً ولا ندباً ـ فهو علم لا ينتفع به في طريق الآخرة فلا خير فيه، لأنّ الخير الحقيقي هو المنفعة الباقية عند الله، فما لا منفعة فيه لا خير فيه، ولذلك استعاذ الرسول ﷺ منه فقال ﷺ: «وأعوذ بك من علم لا ينفع»[1] فينتج أن كل علم لا يحق تعلمه فلا خير فيه.

العلوم الواجبة:

فالواجب اذاً تحصيله من العلوم كما هو أشرفها وأحسنها، هو العلم الإلهي المعرّف لأصول الدين، وعلم الأخلاق المعرف لمنجيات النفس ومهلكاتها، وعلم الفقه المعرف لكيفية العبادات والمعاملات، وهذه العلوم الثلاثة وإن وجب أخذها إجمالاً إلّا أنّها في كيفية الأخذ مختلفة.

فعلم الأخلاق: يجب أخذه عيناً علىٰ كل أحد علىٰ ما بينته الشريعة، وأوضحه علماء الأخلاق.

وعلم الفقه: يجب أخذ بعضه عيناً أما بالدليل أو التقليد من مجتهد حي، والتارك للطرفين غير معذور عند الله عزّ وجلّ، ولذا ورد الحث الاكيد على التفقه

(١) البحار ٨٦: ١٨ ح ١٥.

في الدين.

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه‌السلام: «عليكم بالتفقه في دين الله، ولا تكونوا أعراباً فإنّه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر إليه يوم القيامة ولم يوزن له عمل»[١].

وقال ـ صلوات الله عليه ـ: «ليت السياط على رؤوس أصحابي حتّىٰ يتفقهوا في الحلال والحرام»[٢].

وقال: «إن الكذاب بأن يخبرك بخبر السماء والأرض والمشرق والمغرب فإذا سألته عن حرام الله وحلاله لم يكن عنده شيء»[٣].

وأما أُصول العقائد فيجب أخذها من الشرع والعقل، وهما متلازمان لا يتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر، إذ العقل هو حجة الله الواجب امتثاله، والحاكم العدل الذي تطابق أحكامه الواقع، ولولاه لما عرف الشرع، ولذا ورد أنّه «ما أدّى العبد فرائض الله حتّىٰ عقل عنه»[٤].

ولا يبلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما يبلغ العاقل، فهما متعاضدان ومتظاهران، وما يحكم به أحدهما يحكم به الآخر أيضاً. وكيف يكون مقتضى الشرع مخالفاً لمقتضى ما هو حجة قاطعة، وأحكامه للواقع مطابقة. فالعقل هو الشرع الباطن والنور الداخل، والشرع هو العقل الظاهر والنور الخارج.

وما يتراءى في بعض المواضع من التخالف بينهما إنما هو لقصور في العقل، أو لعدم ثبوت ما ينسب إلى الشرع منه، فإنّ كل عقل ليس يدرك كل شيء، وكلما ينسب إلى الشرع ليس ثابتاً منه. فالمناط هو العقل الصحيح، وأصح العقول وأقواها، وأمتنها وأصفاها هو عقل صاحب الوحي، ولذا يدرك بنوريته ما لا سبيل لأمثال عقولنا إلىٰ دركه.

---

(١) الكافي ١: ٣١ ح٧؛ البحار ٧: ٢٢٣ ح ١٤٠ عن المحاسن.
(٢) المحاسن ١: ٣٥٨ ح١٦٧؛ عنه البحار ١: ٢١٣ ح ١٢.
(٣) الكافي ٢: ٣٤٠ ح٨؛ عنه البحار ٧٢: ٢٤٨ ح ١١.
(٤) الكافي ١: ١٢ ضمن حديث ١١.

ثم ما اجتمعت الأُمّة المختارة عليه من أُصول العقائد هو أن الواجب سبحانه موجود، وأنّه واحد في الألوهية، وبسيط عن شوائب التركيب، ومنزه عن الجسمية وعوارضها، وأن وجوده وصفاته عين ذاته، وأنّه متقدم على الزمان والمكان ومتعال عنهما، وأنّه حي قديم، أزلي قادر، مريد عالم بجميع الأشياء، وعلمه بها بعد إيجادها كعلمه بها قبله، ولا يزداد باحداثها علماً، وإن قدرته عامة بالنسبة إلىٰ جميع الممكنات، وأنّه يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، وبالجملة مستجمع لجميع الصفات الكمالية وليس كمثله شيء.

وان القرآن كلامه، ومحمّد ﷺ رسوله، وما أتى به من أمور النشأة الأخرى من الجنة والحساب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان، والشفاعة وغير ذلك مما ثبت في شريعته المقدسة حق ثابت، فيجب حينئذ علىٰ كلّ مؤمن أن يأخذ بجميع ذلك، ويتشبث به، ويجرّد باطنه له بحيث لو أورد عليه ما ينقضه لم يقبله، ولم يعرضه شك وريب.

ثم ان المكلّفين مختلفون في كيفية التصديق والاذعان بالعقائد المذكورة، فبعضهم فيها علىٰ يقين مثل ضوء الشمس بحيث لو كشف عنهم الغطاء ما ازدادوا يقيناً، كتصديق أهل البيت ـ صلوات الله عليهم ـ إذ يقول علي أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»[1].

وبعضهم علىٰ يقين دون ذلك، وأقل هؤلاء رتبة أن تصل مرتبة يقينهم إلىٰ طمأنينة لا اضطراب فيها، وبعضهم علىٰ مجرد تصديق ظني يتزلزل من الشبهات والقاء النقيض، وإلىٰ هذه الاختلافات أشار الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام بقوله:

«إنّ المؤمنين علىٰ منازل: منهم علىٰ واحدة، ومنهم علىٰ اثنين، ومنهم علىٰ ثلاث، ومنهم علىٰ أربع، ومنهم علىٰ خمس، ومنهم علىٰ ستة، ومنهم علىٰ سبع، فلو وهبت لصاحب الواحدة إثنان لم يقو، ولصاحب الاثنين ثلاث لم يقو، وقس علىٰ

(١) البحار ٦٩: ٢٠٩ ح ٢٢.

ذلك»[١].

والإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام بقوله: «إن للايمان حالات ودرجات، وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه»[٢].

ولا ريب في أنّ تحصيل ما يطمئنّ به القلب في العقائد الواجبة أخذه مما لا بد منه لكل مكلف، ومجرد التصديق من غير اطمئنان القلب غير كاف للنجاة الأخروي، والوصول إلىٰ مراتب المؤمنين، ومع حصول الاطمئنان تحصل النجاة والفوز بالفلاح.

وجوب الاطمئنان:

أجل أن الاطمئنان لازم لجميع العبادات والأعمال، لا لمجرد التصديق والاذعان بالعقائد فقط، فإنّ الصلاة التي هي من أهم العبادات والواجبات إذا لم يكن فيها اطمئنان لا ينظر إليها، فقد ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وآله قال: «لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه وبدنه» فالاطمئنان في الصلاة هو عبارة عن حضور القلب والتفاته إلىٰ ما يقوله، بحيث لا يشغله شاغل من أمور الدنيا إذا قام إلى الصلاة ووقف بين يدي ربه.

والصلاة المشتملة على الاطمئنان هي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر كما قال تعالى: ﴿إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وجاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «إن العبد ليرفع له من صلاته نصفها وثلثها وخمسها وربعها، فما يرفع له إلّا ما أقبل عليها بقلبه»[٣] وقال النبي صلى الله عليه وآله: «إنما الصلاة، تمكُّن وتواضع، وتضرّع وتبأس، وتندّم وتقنّع».

(١) الكافي ٢: ٤٥ ح٣؛ عنه البحار ٦٩: ١٦٧ ح٦.

(٢) الكافي ٢: ٣٤ ضمن حديث ١؛ عنه البحار ٦٩: ٢٣ ح٦.

(٣) البحار ٨٤: ٢٣٨ ح١٨.

آداب الصلاة:

فالأحوال التي تكمل بها الصلاة، ويحكم العقل بلزومها، وورد الشارع المقدس بها، والتي تنهى عن الفحشاء والمنكر، هي ستة: حضور القلب، والتفهم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء، فهذه ست خصال شريفة، وحالات كريمة، وملكات عظيمة لا يوجد جميعها إلّا في مؤمن قوي الايمان، ثابت الجنان، نوّر الله قلبه بنور الايمان والعرفان.

١ ـ **أما حضور القلب**: فهو تفريغه عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به، وصرفه إلىٰ ما يتلبس به من الأفعال ويتكلم به من الأقوال، فإذا حصل ذلك للمصلي، وعرف بأن الغرض المطلوب منه هو الايمان والتصديق بأمر الآخرة خير وأبقى، وأن الصلاة وسيلة إليها، وأضاف إلىٰ تلك المعرفة العلم بحقارة الدنيا وحسنها وزوالها، انصرف القلب حينئذ عن مهماتها لا محالة، وتوجه إلىٰ صلاته الموصلة له إلىٰ سعادة الآخرة، وهذا معنى حضور القلب.

ويقول الإمام الصادق ؈ في هذا المعنى: «إني لأحب للرجل المؤمن منكم إذا قام في صلاة فريضة أن يتوجه بقلبه إلى الله تعالى، ولا يشغل قلبه بأمر الدنيا، فليس من عبد يتوجه بقلبه في صلاته إلى الله تعالى إلّا أقبل الله بوجهه إليه، وبقلوب المؤمنين إليه بالمحبة بعد حب الله إياه»(١).

وقال أمير المؤمنين علي ـ صلوات الله عليه ـ: «لا يقومنّ أحدكم في الصلاة متكاسلاً ولا عابثاً، ولا يفكرنّ في نفسه فإنّه بين يدي ربه عزّ وجلّ، وإنما للعبد من صلاته ما أقبل عليها بقلبه»(٢).

وقد علمتم لما كانت الصلاة في الحقيقة هي معراج المؤمن، ومناجاة الرب المعبود، فلا بد حينئذ أن يكون فيها من الاقبال، لأنّ من لا يقبل عليك لا يستحق

---

(١) البحار ٨٤: ٢٤٠ ح ٢٤.
(٢) البحار ٨٤: ٢٣٩ ح ٢١.

إقبالك عليه، كما لو حادثك من تعلم غفلته عن محادثتك، وإعراضه عن محاورتك، فإنّه يستحق إعراضك عن خطابه، واشتغالك بجوابه.

قال الإمام الصادق عليه‌السلام: «من أراد أن ينظر منزلته عند الله فلينظر منزلة الله عنده، فإنّ الله ينزل العبد مثل ما ينزله العبد من نفسه»(١).

٢ ـ وأما التفهم: فهو التدبر في معنى اللفظ، وهو أمر وراء حضور القلب، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللفظ، فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو المراد بالتفهم، وقد ذمّ الله أقواماً علىٰ ترك التدبر حيث قال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم علىٰ قلوب أقفالها﴾ [محمّد: ٢٤].

وفي الحديث قال أبو عبد الله الصادق عليه‌السلام: «من صلى ركعتين يعلم ما يقول فيهما انصرف وليس بينه وبين الله ذنب إلّا غفر له»(٢).

ثم الناس في هذا المقام ـ أعني مقام التفهم ـ متفاوتون، إذ ليس يشترك الجميع في تفهم معاني القرآن والتسليمات، وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم تكن بقلبه قبل ذلك، ومن هذا الوجه كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فانما يفهم أموراً هي مانعة من الفحشاء لا محالة.

فعن أبي عبد الله الصادق عليه‌السلام أنّه قال: «إن الصلاة حجزة الله في الأرض، فمن أحب أن يعلم ما أدرك من نفع صلاته فلينظر، فإن كانت صلاته حجزته عن الفواحش والمنكر فانما أدرك من نفعها بقدر ما احتجز، ومن أحب أن يعلم ما له عند الله فليعلم ما لله عنده»(٣).

وعن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله انّه قال: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلّا بعداً(٤)، لأنّ الله تعالى هو الذي يقول: ﴿إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾

---

(١) البحار ٧١: ١٥٦ ح ٧٤.
(٢) البحار ٨٤: ٢٣٩ ح ٢٢.
(٣) البحار ٧٨: ١٩٩ ح ٢٣.
(٤) كنز العمال ٧: ٥٢٥ ح ٢٠٠٨٣.

[العنكبوت: ٤٥].

وعنه ﷺ: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وإطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر»(١).

وروي أن رجلاً من الأنصار كان يصلي الصلاة مع النبي ﷺ ويرتكب الفواحش، يوصف ذلك إلى النبي ﷺ فيقول ﷺ: «إن صلاته تنهاه يوماً مّا فلم يلبث أن تاب»(٢).

وعن أبي عبد الله ﷺ قال: «من أحب أن يعلم أن صلاته قبلت أم لم تقبل، فلينظر هل منعته صلاته عن الفحشاء والمنكر، فبقدر ما منعته قبلت منه»(٣).

هذا هو الحق الذي لا محيص عنه، لأنّ القرآن ورد بثبوت هذه الخاصية للصلاة، فالذي لم تكن فيه هذه الخاصية، ووجدت فيه الصورة، فلا محالة يكون العمل من النفاق الخالص، لأنّه لو وجد فيه شيء من الروح فبقدره يؤثر في النهي عن الفحشاء، فما لم يوجد فيه شيء من التأثير علم عدم وجود شيء من الروح فيه، فعمل لم يوجد فيه من حقيقة الصلاة حتّىٰ جزء يسير فهو من النفاق الخالص، والأخبار عن أئمة الهدىٰ ـ صلوات الله عليهم ـ في هذا الباب مستفيضة.

٣ ـ وأما التعظيم: فهو أمر وراء حضور القلب والفهم، فربما يخاطب الرجل عبده بكلام وهو حاضر القلب فيه متفهم لمعناه ولا يكون معظماً له، فالتعظيم أمر زائد عليهما، وهو حالة للقلب منشؤها معرفة جلال الرب سبحانه، وكبريائه وعظمته، مع معرفة حقارة النفس وخشعتها، وكونه عبداً مسخراً مربوباً، فيتولد من هاتين المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه، فيعبر عنه بالتعظيم.

ففي الحديث عن أبي عبد الله ﷺ قال: اذا كنت في صلاتك فعليك بالخشوع

---

(١) البحار ٨٢: ١٩٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

والاقبال علىٰ صلاتك فانّ الله تعالىٰ يقول: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾[1] [المؤمنين : ٢].

ثم الخشوع كما يكون في القلب كذلك يكون في الجوارح، ويدلّ عليه ما رواه الطبرسي ـ في مجمع البيان ـ ان النبي ﷺ رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال ﷺ: «أما انّه لوْ خشع قلبه لخشعت جوارحه»[2].

٤ ـ وأما الرجاء: فلا شك انّه زائد علىٰ ما سبق، فكم من معظّمٍ مَلِكاً من الملوك يهابه أو يخاف سطوته، ولا يرجو إنعامه ومبرته، والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله، كما انّه خائف بتقصيره عقاب الله.

ومنشأ الرجاء معرفة لطف الحق وكرمه، وعميم جوده وإحسانه، وشمول رحمته وإنعامه، ومعرفة صدقه في وعده على الصلاة بالثواب، وبشراه بالجنة وحسن المآب، فمجموع المعرفة بلطفه سبحانه، والمعرفة بصدقه، يحصل الرجاء.

قال رسول الله ﷺ: «الصلاة مرضات الله، وحب الملائكة، وسنّة الأنبياء، ونور المعرفة، وأصل الايمان، وإجابة الدعاء، وقبول الأعمال، وبركة في الرزق، وراحة في البدن، وسلاح علىٰ الأعداء، وكراهة الشيطان، والشفيع بين صاحبها، والسراج في القبر، والفراش تحت جنبه، وجواب منكر ونكير، والمؤنسة في السرّاء والضرّاء، والصائرة معه في قبره إلىٰ يوم القيامة»[3].

٥ ـ وأما الحياء: فزيادة علىٰ ما سبق واضحة مستنده إستشعار تقصير وتوهّم ذنب، ومنشأ استشعار التقصير وتوهّم الذنب علم المكلف بالعجز عن القيام بوظائف العبودية، والتعظيم علىٰ ما يليق بحضرة الربوبية سبحانه، ويزيد ذلك بالاطلاع علىٰ كثرة عيوب النفس وآفاتها، وفرط رغبتها في أفعالها وحركاتها وسكناتها إلى الدنيا وشهواتها، وقلة إخلاصها في طاعاتها، مع العلم بعظيم ما

(١) البحار ٨٤: ٢٦٠ ضمن حديث ٥٩.
(٢) مجمع البيان / تفسير سورة المؤمنين.
(٣) ارشاد القلوب : ١٩١؛ عن البحار ٨٧: ١٦٠ ح٥٢؛ ومستدرك الوسائل ٦: ٣٣٥ ح٦٩٤٢.

يقتضيه جلال الله وعظمته وكبريائه، ومع المعرفة بأنه خبير بصير مطلع على السرائر، عالم بالضمائر، وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعث منها الحياء.

٦ ـ وأما الهيبة: فأمر زائد على التعظيم والرجاء والحياء، وهي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم، لأنّ من لا يخاف لا يُسمىٰ هائباً، والمخافة من العقرب والحية وسائر المؤذيات، ومن العقوبة وسوء خلق العبد وما يجري مجرى ذلك من الأسباب الخسيسة لا تسمى مهابة.

فالهيبة خوف مصدره الاجلال، وهي متولدة من المعرفة بقدرة الله وسطوته، ونفوذ أمره ومشيته فيه، مع قلة مبالاته به، وانّه بحيث لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه مثقال ذرّة، لا سيما إذا انضم إلىٰ ذلك ملاحظة ما جرى علىٰ الأنبياء والأولياء من أنواع المحن والمصائب والبلايا.

وكلما زاد العلم بالله وكبريائه زادت الهيبة والخشية، ولأجل ذلك قال تعالىٰ: ﴿إنما يخشىٰ الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨].

روي أن إبراهيم الخليل ﷺ كان يُسمع له وهو في صلاته أزيز[١] كأزيز المرجل، وكان يسمع تأوّهه علىٰ حد ميل، وكذلك كان يسمع من صدر سيدنا رسول الله ﷺ مثل ذلك[٢].

قال بعض أزواجه: كان النبي ﷺ يحدّثنا ونحدّثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه[٣].

وكان أمير المؤمنين علي ﷺ إذا أخذ في الوضوء يتغيّر وجهه من خيفة الله، وكان إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلوّن، فقيل له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال فأَبَينَ

---

(١) أزّت القدر: إذا اشتدّ غليانها.
(٢) عدة الداعي: ١٥١.
(٣) عدة الداعي: ١٥٢.

أن يَحملْنَها وأشفقن منها[١].

وروي أنّه وقع نصل في رجله عليه السلام فلم يمكّن أحداً من إخراجه، فقالت أم كلثوم: أخرجوه في حال صلاته فإنّه لا يحسّ حينئذ بما يجري عليه، فأُخرج وهو في صلاته فلم يحس به أصلاً، وما ذاك إلّا لاشتغال حواسه وجميع جوارحه بالعالم القدسي.

وكانت فاطمة عليها السلام تنهج في الصلاة من خيفة الله، وكان الحسن بن علي عليه السلام إذا فرغ من وضوئه تغير لونه، فقيل له في ذلك فقال: حق علىٰ من أراد أن يدخل علىٰ ذي العرش أن يتغير لونه[٢].

وكان الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام إذا توضأ اصفرّ لونه، فيقال له: ما هذا الذي يعتورك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يديَ من أريد أن أقوم[٣].

وقال أبو حمزة الثمالي: رأيته يصلي فسقط رداءه عن منكبه، فلم يسوّه حتّىٰ فرغ من صلاته، فسألته عن ذلك فقال: ويحك أتدري بين يديَ من كنت؟ ان العبد لا تقبل منه صلاة إلّا ما أقبل فيها بقلبه، فقلت: جعلت فداك هلكنا، قال: كلا انّ الله يتم ذلك بالنوافل[٤].

وروي أنّه عليه السلام إذا قام إلى الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه إلّا ما حركت الريح منه[٥].

---

(١) البحار ٨٤: ٢٤٨ ضمن حديث ٣٩.

(٢) عدة الداعي: ١٥١.

(٣) البحار ٨٠: ٣٤٧ ح٣٣.

(٤) البحار ٤٦: ٦٦ ح٢٨.

(٥) البحار ٨٤: ٢٤٨ ضمن حديث ٣٩.

الفصل الخامس
عوامل في بناء شخصية الانسان

«أَيْ بُنَيَّ، إنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إلَيْكَ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسْبِقَنِي إلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ ٱلْهَوَىٰ وَفِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ. وَإنَّمَا قَلْبُ ٱلْحَدَثِ كَالْأَرْضِ ٱلْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ، فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذٰلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَٱسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ».

* * *

رأي في صدور هذا النص:

اتّفق لنا أن اجتمعنا بسماحة شيخنا الحجة المتبحّر، الشيخ محمّد علي

الأُوردبادي[١] ـ حفظه الله تعالى ـ في أثناء مشغوليتنا بكتابة هذه الفصول، فجرت مذاكرة حول هذه الفقرات وتوضيح المراد منها، فأنكر الشيخ صدورها عن الإمام أشد الانكار، وبرهن علىٰ رأيه بالبرهنة العقلية حسب عرفانه الجمّ، فطلبنا إليه أن يملي علينا رأيه، فأجاب وأفاد وإليك ما أفاد:

«هذه الفقرات ممّا تسلب الثقة عن صدورها عن مبدأ الخلافة الكبرىٰ، لأنّ الإمام معصوم عن الخطأ والزلل وعن كل ما يصم مقامه، وينفّر عنه القلوب، من الخبل والعطل الذي هو النقص في الرأي، وهذا أصل مسلّم من أُصول الشيعة المسلّمة عندهم جمعاء.

وإن النقص في الرأي من طبيعيات الإنسان متىٰ طعن في السن، لكنه من لوازم الأفراد العاديين لا الإمام الذي شرع سواء في أوّليّاته وأُخرياته، فإنّه مكلوء عن تسرّب النقص إليه في كل الحالات.

وقد دعمت ذلك البرهنة العقلية والسمعية، بالرغم مما تحذلق به ابن أبي الحديد من أنّه يدلّ علىٰ بطلان قول من قال إنّه لا يجوز أن ينقص في رأيه، وأن الإمام معصوم عن أمثال ذلك.

وخبط آخر خبط عشواء بقوله: إن القوى النفسانية تضعف عند علوّ السن لضعف الأرواح الحاملة لها، فينقص بذلك تصرّف العقل وتحصيله للآراء الصالحة، وهذا من الأغلاط الشائنة، لأنّ من واجب المنصب أن يكلأه المولى سبحانه عن كل ما يزري به، وينقص من محله، ويجلب الشماتة إليه، وأيّ منقصة أعظم من أن يُعتقد أن الإمام كغيره يخرف في أُخرياته، إذن فتسلب الثقة عمّا يبلّغه ويفوه به في منصرم أمره، ولسنا نذعن لمن حسب أن الإمام كالنبي ﷺ إذا أزف إليه الموت فإنّه يهجر فيما يقول.

---

(١) هو من علماء النجف الأشرف، كان زاهداً ناسكاً، وعالماً أديباً، اعتمد العلامة الأميني عليه كثيراً في كتابه القيم (الغدير) صدر له كتاب (علي وليد الكعبة) وكانت تربطه مع العلامة القبانجي رابطة مصاهرة.

وينجلي لديك ما ارتأيناه ـ من عدم الثقة بصدور هذه الفقرات من الإمام ـ قوله ﷺ: «أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوىٰ، وفتن الدنيا، فتكون كالصّعب النّفور»، أفمن المعقول أن يكون الإمام السبط المجتبىٰ، تعترضه غلبات الهوىٰ فيكون معها في صراع يسفر عن غلبة الهوىٰ علىٰ عقله الواسع، ويسفر عن الخور في مقاومة النفس الأمّارة، أو أن يبلغ من الانحطاط حداً يشبه فيه بالصعب النفور، فيصعب بذلك حمله على الحق وجذبه إليه، كما حسبه بعض من أخذ بالظواهر من الشراح.

وقد غلط ابن أبي الحديد فأظهر ما انطوى عليه ضميره من مناوأة أئمة الهدىٰ ﷺ بقوله من تتمة ما أسلفناه من القول الشائن: (كذلك قوله ﷺ للحسن: «أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا يدل علىٰ انّ الامام لا يجب أن يعصم عن غلبات الهوىٰ ولا عن فتن الدنيا)[1].

أو أن نُشَبِّه قلب الإمام ﷺ بالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قبلته، فهذه وإن كانت سنة طبيعية في العاديين، لكن لا في من قيَّضه المولى سبحانه حجة على العالمين كالأنبياء والحجج الذين هم الوسائط بين المولى وعبيده، فمنهم من بعثه بالرسالة صبياً، ومنهم من جعله في المهد نبياً، فالطفولة والكبر غير داخلين في حقيقة المنصب ولياقة المنصوب.

أوَ مِنَ الجائز أن يقسو قلب الإمام عن الانقياد للحق؟ ويشتغل لبُّه بالأُمور الباطلة كما يرتأيه بعض من لم يتعدَّ الظاهر من الألفاظ من شراح الخطبة.

لا ها الله تلك هي جمل مدسوسة، تقوّلها أضداد الحق والمناوؤن للمبادئ الصميمة.

أضف إلىٰ هذه كلها ما تقدَّم في أوليات الوصية من قوله: «عبد الدنيا، وتاجر الغرور» فنحن بأيّ شيء فسّرنا العبد والتاجر، فليس من المستطاع تطبيقه بأئمة الهدى، الذين هم في منتأىٰ عن الغرور وعبادة الدنيا.

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ١٦: ٦٧ باب ٣١.

هذا ما نرتأيه في المقام ونحن لا نلين لأي متعصّب في القـول، أو مـتحذلق في العقيدة، ونرتأي أيضاً أن من يقول بمقتضيات هذه العبائر فإنّه قد ارتكب عظيماً، وارتقى مرتقىً صعباً».

مناقشة العلامة الأُوردبادي:

وهذا الرأي مع حظّه العظيم من المتانة والانصاف مدفوع بأن الإمام عليه السلام فرد من أفراد المجموعة البشرية يجري عليه ما يجري على الفرد منها، إلّا أن الصـارف الإلهي الذي تحلّىٰ به الإمام يصرفه عن كل ما يشين وينفّر، وهذه الفقرات صادرة منه ـ صلوات الله عليه ـ علىٰ أُصول العظات، والقواعد التربوية لبـيان مـا عـليه البشر من حيث هو بشر، من الانتكاس في بدنه ورأيه في أُخريات وجـوده، وإن كان هو ومن في مرتبته بحسب المنصب الإلهي والخلافة الكبرىٰ مصوناً من أمثال هذه المزريات.

فكلامه ـ صلوات الله عليه ـ يجري مجرى كلام النبي يوسف الصـديق عليه السلام إذ يقول: ﴿وما أبرّئ نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلّا ما رحم ربي﴾ [يوسف : ٥٣] وكقوله تعالى حكاية عـنه: ﴿وإلّا تصرف عنّي كـيدهنّ أصبُ إليهـنّ وأكـن مـن الجاهلين﴾ [يوسف : ٣٣].

عود الىٰ شرح النص:

قال الشيخ الجليل ابن ميثم رحمه الله في شرح هذه الفقرات:

في هذا الفصل مقاصد: الأول أنّه اشار عليه السلام إلىٰ بعض العلل الحاملة له علىٰ هذه الوصية، وهي كونه قد بلغ سناً عالياً، وأخذ ازدياداً في الضعف، وذلك أنّه كان عليه السلام قد جاوز الستين، فلزم من ذلك خوفه لأحد الخصال المذكورة، وعـدّ مـن تـلك الخصال ثلاث:

الأُولىٰ: أن يُعجّل به أجله إلىٰ الآخرة قبل أن يوصل إليه ما في نفسه من الحكمة الأدبية والمعاني النفسانية.

الثانية: أن ينقص في رأيه، وذلك أن القوى النفسانية تضعف عند علوّ السن لضعف الأرواح الحاملة لها، فينقص بسبب ذلك تصرف العقل وتحصيله للآراء الصالحة.

الثالثة: أن يسبقه إليه بعض غلبات الهوىٰ وفتن الدنيا، فإنّ الصبي إذا لم يؤخذ بالآداب في حداثته، ولم تروّض قواه لمطاوعة العقل وموافقته، كان بصدد أن تميل به القوى الحيوانية إلىٰ مشتهياتها، وينجذب في قياد هواه إلى الاستعمال بها، فيفتنه ويصرفه عن الوجهة الحقيقية وما ينبغي له، فيكون حينئذ كالصعب النفور من الابل، ووجه التشبيه أنّه يعسر حمله على الحق وجذبه إليه بعد ذلك، كما يعسر قود الجمل الصعب النفور.

ثم نبّه عليه السلام علىٰ وجوب المبادرة إليه بالأدب وزرعه في قلبه ـ أي بقلب الصبي ـ فقال عليه السلام: «وإنما قلب الحدَث كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قبلته»، وذلك أن قلب الحدث لما كان خالياً من الانتقاش بالعقائد وغيرها، مع كونه قابلاً لما يلقىٰ إليه من خير أو شر فينتقش به، أشبه الأرض الخالية من النبات والزرع القابلة لما يلقى فيها من البذر، وكل قلب كان كذلك فيجب أن يسبق إليه ببذر الآداب وغرس الحكمة، فلذلك يجب أن يبادره قبل أن يقسو قلبه عن الانقياد للحق، والاشتغال بالأُمور الباطلة»[١].

التربية منذ الطفولة:

ليس لدى الطفل إلّا المدركات الحسية التي تناسب القوة الشهوية والغضبية، فهو في هذه الحال بمنزلة الحيوان، يهوى المحسوسات إذا تخيّل فيها نفعاً، وينفر إذا

---

(١) شرح نهج البلاغة (ابن ميثم) ٥: ١٥ الفصل الرابع.

تخيّل ضرراً، فقوّته العاقلة بمنزلة جوهرة نفيسة خالية من النقش قابلة لما يرسم فيها من حسن أو قبيح، فهو أمانة في يد أبويه، أو من وكلت إليه تربيته، فعليه أن يحفظه من موارد التلف.

فإن نقش فيها المعلومات الحقة المفيدة، وطبّعه علىٰ الأخلاق الفاضلة، وجنبه الأباطيل والرذائل، وعوّده خير الأعمال أثابه الله علىٰ حفظ تلك الأمانة، والعمل الصالح الذي كان به كمال ذلك الطفل، ذلك الكمال الذي أفاده وأفاد أسرته ومعاشريه بل أمته وبني الإنسان، وإلّا كان ضاراً لنفسه بعدوله عن حفظ ما إئتُمِنَ عليه، ضاراً لتلك الأمانة ولأُسرتها ولأُمّتها.

يرشد إلىٰ هذا قول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو يمجّسانه»[1] والمرء كما هو مسؤول عن إصلاح نفسه وإفسادها، مسؤول عن إصلاح نفس من وكلت إليه تربيته وإفسادها.

يجب أن يعلّم الطفل من المعلومات النافعة شيئاً فشيئاً على المقدار الذي يصل إليه عقله، كما يجب الاحتراس من تعليمه شيئاً أعلىٰ من مداركه، ولا يلق إليه شيء من المعلومات الباطلة، والأقاصيص الكاذبة، فإنّ ذلك مجلبة فساد الأخلاق وباطل الآمال، فمن الأشياء الموجبة لسوء تربية النشء قراءة الأقاصيص والروايات المملوءة بالأباطيل، فانها توصّل فيه الأماني الكاذبة فوق ما تجلبه من الخوف والكذب، واتباع هوى النفس، وليس ذلك بمقصود في مبحثنا هذا لأنّه من مباحث علم النفس.

غرس الفضيلة في الطفل:

ولنذهب إلى القول في طريق إنماء القوّة الحِكَمِيّة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة فيه، وهو خلو من هذه أو من أضدادها، فإنّه أسهل وأنسب بطريقنا،

(١) البحار ٦١: ١٨٦ ح٥٢.

وأنفذ للوصول إلى الكمال المطلوب.

١ ـ وجوب التبكير في غرس الفضيلة:

إذ إلقاء بذر في مغرس خال لا يحوج إلىٰ عناء، كالعناء الذي ينشأ عن إلقائه في أرض مملوءة بالحشائش الفاسدة، والجذور المتلفة لنماء ذلك البذر، فإنّه يستدعي قبل الالقاء تعباً عظيماً في تنقية ذلك المغرس من تلك الحشائش والجذور العائقة عن إنبات البذر نباتاً طيباً يثمر ثمراً حسناً.

٢ ـ أثر القدوة:

يجب أن يُعوَّد الطفل الصدق في كل أقواله، ومن أقوم السبل إلىٰ ذلك نشأته بين أسرة لا تقول إلّا حقاً، فلا يُرَغَّب ترغيباً كاذباً ممن هو بينهم لأنهم بذلك يجرونه إلى الكذب، وإذا درج عليه مرة درج أخرى وهكذا حتّىٰ يكون خُلُقاً راسخاً يصعب علاجه.

فالطفل قابل لما يودع في نفسه من حَسَنٍ أو قبيح، ألا ترى أنّه ينبت علىٰ مثال كافله ومربيه، وأخلاق مربيه تصل إلىٰ قرارة نفسه من حيث لا يشعر، فإنّه يراه أعظم منه لكونه قائماً بشأنه، صاحب أمره ونهيه، فيحاكيه محاكاة المفضول للفاضل.

ولذا ترى الأبناء يتشبهون بآبائهم في حركاتهم وسكناتهم، فيجب أن يكون القائم بتربيته ممن عرفوا بمحاسن الأخلاق، والتمسك بالتقوى جهد الاستطاعة، ومن ثم حظرت الشريعة أن يعهد في تعليمهم إلىٰ معلم فاسق.

٣ ـ التشجيع على الفضيلة:

ويحسن بالمربين تشجيع الطفل على الفضيلة بالاحسان إليه إذا قال صدقاً،

وترك معاقبته إذا أجرم، وأن ينهى عن الكذب ويأمر بالصدق في كل أقواله، ويكافئ عليه بما يعده حسناً، وعن ترك النميمة لكبير الأسرة فيما يحصل داخل المنزل من أحد أفراد أسرته، ويعالج في ذلك بالقضاء عليها قبل نموها.

وأن يُعوَّد العطف والخير علىٰ من معه، وأن يستحسن منه ما هو حسن ويكافئ عليه، ويستقبح منه ما هو قبيح بالنصح وإظهار الاستياء منه، فإن رأىٰ أن النصح كاف في الردع والزجر، فلا يعدل عنه إلى العقوبة لأنها تولد في القلب هلعاً وخوفاً يذهبان بالصراحة والحرية المطلوبة في المقال والافعال.

ويجب حثّه على التمسك بأذيال تقوى الله، فيعوّد القيام بامتثال أوامر الشرع واجتناب نواهيه قدر استطاعته، حتّىٰ إذا جاء دور التكليف وجده مألوفاً، فلا يصعب علىٰ مربيه في بدء أمره تهذيبه، وحمله علىٰ الأخلاق الفاضلة متى كان القائم بتربيته حكيماً عالماً بطبائع النفوس ووجوه إصلاحها.

ولقد أتى علىٰ علماء التربية حين من الدهر كانوا يعتقدون أن المربي بيده كل شيء، وأن المربية قادرة لا يعجزها شيء، لأنّه قد ملك عقائدهم أن الطفل يولد صفحة بيضاء يخط المربي فيها ما يشاء، وعجينة لينة هينة يصورها كما يريد ويبغي، لا يصدّه عن ذلك صادّ، ولا يحجبه حجاب.

من هذا ما قاله إراسم الروتردامي:

«إن الفطرة اذا وهبت لك إبناً فانما تسلمك كتلة فجة، ومن شأنك أن تعطي هذه المادة القابلة للتهيئة والتشكل بكل شيء أحسن صورة تريدها، فأنت إن أهملتها حصلت منها بهيمة، وإن عنيت بتربيتها حصلت منها، ـ إن صح القول ـ مَلَكاً كريماً».

يمكننا أن نفهم الآن أن التربية في استطاعتها أن تمد يدها إلى الطفل لتخرج غرائزه الصالحة من أكمامها، وتكشف عنها غطاءها، وتحفظها من كل ما يعوق نموّها، وتحوطها بشيء من الرعاية حتّىٰ يستطيع الطفل بعد نضوج جسمه،

وتسوية خلقه، وتهذيب عقله أن يزج بنفسه في المجال العام لحضارة الإنسان ورقيه، وذلك عمل إيجابي تقوم به التربية.

الغرائز الكامنة في الطفل ليست كلها من ذلك النوع الشريف الذي يتخذ أساساً لكل رفعة وكمال، بل بجانب تلك الغرائز الشريفة غرائز أخرى لها خِسَّتها وحقارتها، لأنها دعامة كل مبتذل وخسيس يلمح في الطفل، كالجبن والكذب والكسل، وغير ذلك من كل رذيلة تفيض بها الاثرة الإنسانية.

فالتربية أمام تلك الغرائز الدنية تحصد شوكتها، وتغيّر وجهتها، وتحسن استخدامها، فللتربية إذاً عملان:

١ ـ إيجابي: وهو إحياء الغرائز الشريفة ورعايتها حق رعايتها.

٢ ـ سلبي: وهو إضعاف سلطان الغرائز الدنية، وتصريفها في طريق غير طريقها.

وغير خاف أن هذين العملين ضروريان، ولا يغني أحدهما عن الآخر، وكل منهما شرط في الثاني، فالشيئان المتساويان لا ترجح كفة أحدهما إلّا إذا خفت كفة الآخر.

لهذا كان لزاماً أن يبدأ العملان في وقت واحد، وأن يسيرا جنباً لجنب دون أن يتقاعد أحدهما، أو يتباطأ أو يخلد إلى الأرض، أو يثاقل حتّىٰ ينشأ عنهما إنسان كامل.

الموانع أمام التربية:

نرى التربية وهي قائمة بعمليها: الايجابي والسلبي ذات يد غير مبسوطة إلّا إلىٰ حد معين، وذات قوة لا تظهر إلّا بقدر معلوم، إذ يحجبها عن القدرة المطلقة والارادة الحرة في اختيار سبيل غير ذي عوج حدود كامنة خافية، ومظاهر سافرة واضحة، هذه المظاهر وتلك الحدود تقعد بالتربية عن السير في طريقها سيراً حراً.

أما الحدود الكامنة: فانها تُعرف من غرائز الطفل التي خُلِقَت معه ومصدرها الوراثة.

وأما المظاهر السافرة: فانها تتجلى في بيئة الطفل الكفيلة بتحديدها وتعيينها فمصدرها البيئة، يطلع الجنين ويشرق وجهه، فتطلع معه مواهبه الباطنة وتشرق، واياه خواصه الذاتية التي ورثها عن آبائه السالفين.

يولد فتولد معه تلك الغرائز الكامنة، وينمو فتنمو معه دون أن يبدأ المربي أول خلقها، أو يكون له أثر في نشأتها وتكوينها. فالطفل إذ ذاك صورة آبائه الصادقة، وتاريخ أجداده الصامت الناطق، تهدي سطوره القارئة إلىٰ ما تحلى به أسلافه من مزايا، وما توطن في نفوسهم من خواص، وما درجت عليه عقولهم من ميول، وبرزت فيه هممهم من شؤون، وما استقر فيهم من عادات ذات خلق سوي أو غير سوي.

وما أشبهه في ذلك بالغصن تعرف به شجرته والأثر يدل علىٰ مؤثره. فالطفل صورة مصغرة لحياة سابقة قطعت دهوراً، وأفنت أعواماً.

لم يصل العلم إلىٰ معرفة ما تجري عليه سنة التوارث من ضوابط، وما تسير علىٰ ضوئه من قوانين، وغاية ما في استطاعتنا أن نحفظ لتلك المواهب خلاها، ونعد لها عدتها باعتبارها قوة هائلة، ذات سلطان قاهر، وحياة بارزة تحدد من موقف المربي أمامها، فلا يدور بخلده حينئذ أن يحصل من الطفل علىٰ ما ترمي إليه إرادته، ويشير إليه رأيه.

ولكن الذي يستطيع الوصول إليه من الطفل ما يوحي إليه به استعداد ذلك الطفل، وتدل عليه غرائزه، وتولي وجهها شطر خواصه التي ركبت فيه، وانتقلت إليه في طريق طويل من أجيال عمّرت آلافاً من السنين.

نقف أمام الطفل فإذا به لغز مظلم، وعقدة وثيقة محكمة لا يجسر أحد باديْ ذي بدء أن يحلها، ويعرف ما انحنت عليه من مواهب الطفل التي استقرت فيه، لأنّ سماءه

لا تطلع فيها غرائز أسرة واحدة بل غرائز أسر كثيرة.

فالطفل له أبوان لكل واحد منهما أبوان، والأربعة لكل واحد منهم أبوان وهكذا... وكل أب وأم من أسرة تختلف عن الأسرة الثانية في خواصها وغرائزها.

فالطفل إذاً مجال تجري فيه غرائز أسر عديدة مختلفة، وصفحة ترقم فيها خواصها المتباينة.

من ذلك يمكننا أن نفهم التباين الذي يقع بين الأخوة الأشقاء والأخوات الشقيقات في الأخلاق والعادات، وقوة الفكرة وحصافة الرأي، إلىٰ غير ذلك مما يرجع تكوينه إلىٰ أسر سابقة، وينسب ظهوره إلى الوراثات المتعاقبة.

أثر البيئة:

لقد عرفنا أن تأثير المربي في تلك الغرائز تأثير محدود فهو محكوم لها، خاضع لأمرها، نازل علىٰ إرادتها، لهذا كانت التربية أمراً غير ذي بال لو أن العامل الوحيد في نمو الطفل وتكوينه يرجع إلى الوراثة وحدها، ولكن العالم الفرنسي «لامرك» دلّنا بنظريته علىٰ أن هناك عاملاً آخر لا يقل خطراً عن الأول ذلك هو عامل المخالطة، وهي ما نسميها البيئة.

فكل مخلوق قُدِّر له أن يتأثر نموه بما يخالطه ويشاركه في الوطن وما حواه، ومن شواهدهم علىٰ ذلك ما جاء في احدى المجلات إذ قالت: «النبات المعروف بسنّ الأسد ينبت بين نباتين عاليين من نبات المروج بأوراق قائمة، علىٰ حين أنّه اذا نبت وحده هنالك نامت أوراقه الوردية الشكل علىٰ الأرض.

وبعض أنواع المسك والنبات المعروف بقدم الديك إذا نبت على الشاطئ الجاف يكون له أوراق ذات فلقتين فقط، وإذا نبت في الماء نبتت له من أحد جانبيه أوراق قائمة عريضة ذات فلقتين تطفو علىٰ سطح الماء، وفي جانبه الآخر أوراق دقيقة علىٰ شكل خيوط تحت الماء».

علىٰ هذه السنة تدرج نفس الطفل، وتشق سفينته طريقها في الحياة.

لذلك كان لزاماً أن نعرف البيئة التي يلقى الطفل بين أناسها، إذ كل شيء في الحياة يدع في نفسه أثراً يختلف قوة وضعفاً علىٰ حسب قوة مصدره.

غير أننا لا نستطيع أن ننتقي بيئة خَيِّرة لا يزورها الفساد، ولا تمر بها عواصف الشر، وبخاصة المدن حيث يكثر الازدحام، ويطغى سيل الحضارة، فالطفل في بيئته أمام عوامل لا تحصى، كامنة له في كل مرصد، مقتنصة إياه في كل مكان، تدخل عينه فتقيدها، وتنفث في أسماعه فتملكها، وتصل إلىٰ قرارة نفسه فتأسرها وتغويها، وتساور فؤاده مساورة السموم القاتلة، لا يمتنع عنها بحيلة، ولا يفر منها بوسيلة، فهو مضطر إلىٰ أن يختلط بالتلاميذ في مدرسته، وبالناس في طريقه، وأن ينظر ما يوضع على الجدران من إعلانات وصور، إلىٰ غير ذلك مما يقحم الطفل ولجات الشر، ويحله ورطات الفساد، ويجعل واجب المربي شاقاً غير يسير، ينحني عجزاً أمام تلك القوة الهائلة قوة المخالطة «البيئة».

تنازع الوراثة والبيئة وأثر المربي:

فالوراثة والبيئة إذ ذاك يتنازعان الطفل، بقوة خارجة على الجملة عن دائرة المربي، إلّا أننا إذا لحظنا أن المربي نفسه من ضمن البيئة التي لها تلك القوة فإنّه يستطيع بجانبها أن يفعل شيئاً في نفس الطفل، ويؤثر فيها تأثيراً ما.

لذلك كان من الضروري انتقاء المربين واصطفاؤهم أخياراً بررة صالحين، لينقضوا لمؤثرات البيئة الضارة غزلها، ويميتوا ما عسى أن يظهر من ضروب الاستعداد السيء، أو يوجهوها وجهة صالحة، وأن تقوم رقابتهم علىٰ دعائم من اليقظة الصادقة والاحساس الحي، حتىٰ يكونوا في التأثير أورى قدحاً، وأعلىٰ كعباً، وأرجح وزناً، وبذلك يصلحون أبواباً فتحت إلىٰ تهذيبه وأسباباً ذللاً إلىٰ كماله.

أثر الوالدين:

لا نكون بعد هذا متجانفين لغلو إذا قلنا: إن التبعة الكبرى منصبة على الوالدين، لأنهما اكثر الناس اختلاطاً بالطفل، وهو أخشع لهما، وأعظم استكانة لأمرهما، واستسلاماً لطاعتهما، يهوي إليهما فؤاده، وتسكن لجوارهما نفسه.

فعلى الوالدين والمربين أن يضعوا أمام عينهم أنهم قدوة طيبة، ومثل مشكور، يحتذيه أبناؤهم، وأن يخلعوا قناع الخسَّة، ويلبسوا لباس الكمال الذي يملأ القلوب جلالاً، والعيون جمالاً، وأن يتنازلوا عن كثير مما يشتهون نفياً للرذيلة أن يراها الطفل، وإبعاداً للنقيصة أن يدنو منها.

العوامل الثلاثة في بناء الشخصية:

نستخلص من هذا أنّه يعمل علىٰ تنمية الطفل تنمية صالحة، بأيد مترادفة تجتاز به عن كل أمر يكسر الفقرة، ويوهن الهمَّة، ويدنيه إلى البهيمة إلىٰ حيث ينشر الخُلُق القيّم عليه جناحه، ويسيل له جداول نعيمه، يعمل علىٰ ذلك ثلاثة أمور:

١ ـ الوراثة   ٢ ـ المخالطة   ٣ ـ المربّون

تبدأ الثلاثة عملها من حين الولادة بدرجات مختلفات، فقد ينشط أحدها ويتباطأ غيره، ولهذا لا يحمل الوالدان الهجينة[1] وحدهما إذا نما الطفل نزّاعاً إلى الشر، كما لا يُنَسب إلى المربّي وحده ما يحمل الطفل من استقامة محترمة، وسلوك حازم، لأنّ للمربي شريكين لهما أثَرهما: الوراثة والمخالطة.

العامل الأول: الوراثة:

الإنسان خاضع لقانون الوراثة كالحيوان والنبات، وقد أثبت العلماء صحة هذا القانون بتجارب كثيرة لا تخفى على المتأمل، ولا يقتصر تأثير الوراثة علىٰ

(١) الهجينة: بمعنىٰ العار ومنه مستهجَن أي مستعار.

حالات الإنسان البدنية، بل يتعدى إلىٰ عقله وأخلاقه، فالانسان يكاد يكون جسماً وعقلاً نتيجة لازمة لما كان عليه أسلافه.

ينشأ الصغير علىٰ ما كان والده إنّ الأصول عليها ينبت الشجرُ

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ولقد كان العرب يؤمنون بتوارث الطبائع والعادات.

كان لأبي أخزم الطائي ابن يقال له أخزم، كان عاقاً، فمات وترك بنين، فوثبوا يوماً علىٰ جدهم أبي أخزم فأدموه، فقال:

إن بنيَّ ضرجوني بالدم شنشنة أعرفها من أخزم

يعني: أن أحفاده لطخوه بالدم، وقد أشبهوا أباهم أخزم في العقوق.

وكذلك كانوا يعترفون بالتوارث عن الأم، ويظهر ذلك في قول شاعرهم:

إن الكريمةَ ينصرُ الكرَم ابنُها وابنُ اللئيمة للئام نصير

وقد أشار إلىٰ ذلك النبي الكريم ﷺ بقوله: «تخيروا لنطفكم فإنّ العرق دّساس»(١) وفي الأمثال «الولد علىٰ سرّ أبيه».

ويظهر تأثير الوراثة واضحاً في زمن الحمل، إذ هو الزمن الذي يوضع فيه أساس القوى الإنسانية.

وقد أثبت الأطباء ان انفعالات الحامل من سرور وخوف وحزن وحب وبغض وغيرها تؤثر في جنينها، وأوصوا بادخال السرور على الحامل والعناية بصحتها، وترويح نفسها بالمناظر الجميلة، والبعد عن كل ما يثير انفعالاً سيّئاً في نفسها.

وكثير من المتعلمات فطنّ لقانون الوراثة، وعملن علىٰ غرس الأخلاق الحميدة في نفوس أجنّتهنّ وهم في طور التكوين، بارتياحهنّ في أثناء الحمل إلى الفضيلة ونفورهنّ من الرذيلة، فجاء أطفالهنّ علىٰ ما شئن أن يكونوا عليه، وعلىٰ

---

(١) نحوه كنز العمال ١٥: ٨٥٥ح ٤٣٤٠٠.

ما اتخذن من الوسائل الموصلة إلىٰ غرضهنّ.

ومهما كان الإنسان خاضعاً لقانون الوراثة، ومهما كان ايماننا بهذا القانون، فلا يمكننا أن نقف جامدين أمام تأثير التهذيب والصقل.

ومهما كانت قابلية النفس البشرية للتأثر بالتهذيب، فليس في الامكان مقاومة ما استكن في النفس عن الوراثة والغرائز مقاومة تامة، فقد نرى بعض أبناء الصالحين طالحين، كما نرى بعض أبناء الأشرار أخياراً.

العامل الثاني: المخالطة:

إذ هي التي تغيّر في الإنسان كثيراً من أخلاقه وعاداته من حيث يدري ولا يدري، ومن حيث يريد ولا يريد، وأثرها فينا لا يستطيع انكاره منكر، بل إنك لتجد أثرها في الجماد والحيوان، وهما دون الإنسان قبولاً للتأثر.

فالماء يطيب ريحه، ويعذب في الفم مذاقه إذا جاور الأزهار، ويخبث ريحه ويشتد غصصه إذا جاور الجيف، والحصان الشرود إذا قرن بآخر ذلول صار ذلولاً سهل القياد.

وإن العوامل التي تتخذ في التربية لتجعل الشرير خيراً، والفاسد صالحاً، من وعد ووعيد، وتحذير وترغيب، وثواب وعقاب، قد لا تأتي في الغالب علىٰ ما في نفس الإنسان، ولا تنتقل به من حال إلىٰ حال، أما المخالطة فانها لا تحصل بدون أن يكون لها أثر ظاهر في حال الإنسان الخلقية والاعتقادية والفكرية.

وكل أنواع التربية تعرض وتزول كالمدرسة والبيت إلّا المخالطة فانها تربية لا تنقضي إلّا بالموت، فإنّ حسنت أثمرت ثمراً طيباً، وإن ساءت كانت شراً وبلاء.

عنى الباحثون وعلماء الأخلاق والدين، والمثقفون في كل أمة وعصر بوصف العشراء والخلطاء، وأرسلوا القول في ذلك شعراً ونثراً، ما شاءت لهم البلاغة ووحي البيان، ولم تفرط الشريعة الإسلامية في شيء من ذلك، والأحاديث الواردة

فيها أكثر من أن تعيها أذن واعية، أو يلم بها قلب حافظ أو راوية.

من ذلك قوله ﷺ: «مَثَل الجليس الصالح كمثل الداري إن لم يجدك من عطره يعلقك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل التبن إن لم يحرقك بشرره يؤذك بدخانه»[١].

وقوله: «من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه»[٢]، ذلك لأنّ للمخالطة أثراً بيناً في تكوين أخلاق الإنسان، وفيما يصدر عنه من أفعال الخير والشر، وفيما يناله من سعادة وشقاء ونعيم الحياة وبؤسها، ولأنّ الإنسان موسوم بسمات من يخالطه ومنسوب إليه فعله.

قال عبد الله بن مسعود: «ما من شيء أدلّ على شيء، ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب».

اختيار الصديق:

لهذا ينبغي للإنسان أن يعرف فيمن يختارهم لمخالطته، ويصطفيهم لمعاشرته أموراً لابد منها لتستقيم الصحبة وتدوم الالفة.

١ ـ العقل والتجربة:

فمن ذلك أن يكون العشير موفور العقل، كامل التجربة لأنّ الأحمق لا تدوم مودته، ولا تطول عشرته، وقد يصيب الإنسان بضرره أكثر مما يصيبه بخيره، وقد أبان القرآن الكريم عن هذا أوضح بيان، قال تعالى: ﴿ويوم يعضّ الظالم علىٰ يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً • يا ويلتىٰ ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا • لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

---

(١) كنز العمال ٩: ٢٢ ح٢٤٧٣٧ نحوه.
(٢) البحار ٧٧: ١٦٤ ح٢.

وقال رسول الله ﷺ: «البذاء لؤم، وصحبة الأحمق شؤم».
وقال بعض الحكماء: «عداوة العاقل أقل ضرراً من مودة الأحمق».

٢ ـ الدين:

ومنها أن يكون ذا دين يقف به على الخير وينهاه عن الشر، لأنّ تارك الدين عدوّ نفسه فكيف يكون صديق غيره، ولهذا قال بعض الحكماء: «اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب، والرأي والأدب، فإنّه ردء لك عند حاجتك، ويدلك عند نائبتك، وأنس عند وحشتك، وزين عند عافيتك».

وقال علي أمير المؤمنين ﷺ: «فاصحب من إذا صحبته زانك، وان خدمته صانك، وإن عرضت لك مؤونة أعانك، وإن قلت صدق قولك، وإن بدت عنك عورة سدّها، وإن رأى منك حسنة عدَّها، وإن سألته أعطاك، وإن نزلت بك ملّمة واساك، ومن لا تأتيك منه البوائق، ولا يخدعك عند الحقائق»[1].

٣ ـ حسن الاخلاق:

ومنها أن يكون رضي الأخلاق، حميد الفعال، يؤثر الخير على الشر، ويفعله ويأمر به، فإنّ مخالطة سيّئ الخُلُق تكسب العداوة، وتفسد الأخلاق، ولا خير في مودّة تجلب عداوة، وتورث صاحبها مذمة وملامة.

قال بعض العقلاء: «مخالطة الأشرار علىٰ خطر، والصبر علىٰ صحبتهم كركوب البحر، من سلم منه ببدنه من التلف لم يسلم بقلبه من الحذر منه».

* * *

أجل للمخالطة الصالحة نتائج حسنة إذ يستحي الإنسان في الغالب من رفقائه والمتصلين به، ولا سيما من عرفوا منهم بالترفع من الدنايا وفي هذا ما يبعده عن

---

(١) مستدرك الوسائل ٨: ٢١١ ح ٩٢٧٨.

الشر ويدنيه من الخير، كما يأمن علىٰ أخلاقه بمعاشرتهم، ومن آثارها أن يـذكره اخوانه بالخير فيفعله، والشر فيجتنبه، وأنّه يكتسب بصحبتهم شرفاً، ويجد منهم عوناً في الملمات، وعضداً في النائبات.

فالمخالطة عامل من عوامل التربية، ومن أجل ذلك يجب علىٰ الآباء والمربين أن يعيروا المخالطة عنايتهم كلها، لأنّ أثرها في التربية تنقطع دونه جميع الأسباب.

ولتحقيق الغرض الصالح منها يجب أن يُمنع الأطفال من مخالطة من ساءت أخلاقهم، ولو زمناً قليلاً، وأن يمنعوا من الذهاب إلى المجتمعات العامة وحدهم، ولا سيما التي يغشاها ذوو الدناءة والأخلاق السيئة.

وأن يختار لهم آباؤهم وأولياؤهم إذا بعثوهم ليتعلموا في بلد بعيد أُناساً ممن عرفوا بكرم الأخلاق، وصحة الآداب ليشرفوا عليهم، وألّا يتركوا لهم الحبل على الغارب في اختيار الأصدقاء والخلّان، فإنّ قلة خبرتهم ونقص تجربتهم تدعوهم في الغالب إلىٰ اختيار من يضرّون ولا ينفعون، ويفسدون ولا يصلحون.

العامل الثالث: التربية:

المنزل هو أول بيئة يعيش فيها الطفل، وهو أكثر ما يكون قبولاً للتهذيب.

المنزل هو المدرسة الاولى التي يتأدّب الطفل بآدابها ويُعتاد عاداتها، ويقف علىٰ كثير من أفكارها وآرائها واعتقاداتها، فإن كانت الأُسرة التي تسكن في المنزل شريفة تنسّم فيه الطفل نسيم الفضيلة، وإلّا انغمس في حمأة الرذيلة.

ولا نشك في أن البيئة التي عليها مدار تربية الطفل عندنا الآن موبوءة، فالكذب والبذاءة والخرافات متفشية فيها بحال مروّعة لا تتفق، وتربية الأطفال الذين نعدُّهم للحياة.

والأُسرة الشريفة والدنيئة سواء في تكوين الأخلاق وإن اختلف الأثران، غير أن الأُسرة الدنيئة خير من بعض الوجوه من الأُسرة المهملة، لأنّ الدنيئة كثيراً

ما تغرس في نفس الحَدِث مضاء العزيمة ليصل إلىٰ غاية وضيعة، ولكن قد يدركه حسن الطالع فيغسل وزره بالتوبة ويضرب في سبيل الفضيلة، وحينذاك يجد ما نبت في نفسه من قوة العزيمة سلاحاً نافعاً له في الوصول إلىٰ محاسن الأعمال، أما من نشأ في أُسرة مُهمِلة فإنّه يقف أمام مصاعب الحياة مغلول اليدين يذهب مع كل خاطر، ليس له رأي سديد ولا إرادة حازمة.

وغير خاف أن رؤساء المنزل ومعلميه هم الآباء والأُمّهات، فإذا كانوا علىٰ بيّنة من المهمة الخطيرة الملقاة علىٰ عواتقهم، قادرين علىٰ أن يربوا أولادهم تربية حسنة، أمدوا أمتهم برجال نافعين أصحّاء الأجسام، كريمي الأخلاق.

وينشأ ناشئ الفتيان منّا   علىٰ ما كان عوَّده أبـوه

فالناشؤون بحكم غريزة المحاكاة مدفوعون إلىٰ محاكاة آبائهم وغيرهم من المحتكين بهم، وإذا عرف المربون قيمة هذه الغريزة واستثمروها بأن حفظوا عيون أولادهم من أن تقع إلّا علىٰ كل جميل، وآذانهم من أن تسمع إلّا كل قول حميد، وصانوهم من مخالطة ذوي النقائص، ومن غشيان مجالس اللهو والمجون نشؤوا نشأة حسنة.

إذا أراد الوالدان مثلاً أن ينميا الاحساسات الطيبة في نفس الناشيء، عرضا عليه مواضع الشفقة على الإنسان والحيوان، ووجهاه إلىٰ مواضع الرحمة ومساعدة الضعفاء، واشتركا معه في أعمال البر، وأبعداه عن كل ما يميت هذا الشعور عنده، وبذلك يمهدان له السبيل إلىٰ أرقى الأخلاق.

وإن لم يحسن الآباء تربية أولادهم شبوا على الرذيلة، وضعف الرجاء في إصلاحهم، فإنّ من شب علىٰ شيء شاب عليه.

إنّ الغصون إذا قوّمتها اعتدلت   ولن يلين اذا قوَّمته الخشب

وأكبر جناية يجنيها الآباء علىٰ أولادهم سوء تربيتهم.

قال سبنسر[١]: «لم يهمل الآباء شيئاً إهمالهم إنعام الفكر في تأديب أطفالهم، وتعويدهم حميد الخصال وجميل الفعال، ولعلّهم ظنوا الأمر هيّناً، وحسبوا أنّهم قادرون بلا فحص ولا بحث علىٰ أن يودعوا طبائع صبيانهم ما شاؤا من المناقب، وجهلوا أن علم تهذيب النفس علم صعب المأخذ، عسر الملتمس، من جهل قواعده خاب في تأديب غلامه، وبدهي أن من سار إلى الشيء من غير طريقه لا يصل، ومن دخل الظلام بغير سراج فقد ضلّ».

ويؤخذ من كلام سبنسر أن علم النفس ضروري للآباء والأُمّهات، وبدونه لا يهتدون إلى الطريقة المثلى في تهذيب أبنائهم، ولتكون علىٰ بينة من خطأ الآ الآباء في تربية أولادهم إذا جهلوا علم النفس.

حكاية في التربية:

أذكر لك حكاية يتبين لك منها كيف يسيرون في طريقهم علىٰ غير هدىٰ:

أراد والد أن يعلِّم إبنه الصدق، وأن يحبّبه إليه ليَشُبَّ صادقاً، فأخذ يذكر له جملة ممّا جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف خاصاً بفضيلة الصدق وجزاء الصادقين، وبينما هو يسدي إليه من عبارات النصح والوعظ ما هو كفيل بتثبيت هذه الفضيلة في نفسه إذا بقادم دقّ الباب، فنهض الولد ليفتح له فاستمهله الوالد وأطلّ من النافذة، فرآه زائراً لا يودّ مقابلته، فأمر ابنه أن يقول له: إنّ والدي يا سيدي غير موجود هنا.

فمن الخطأ نسبة الشر إلىٰ الأطفال وتبرئ آبائهم منه، فما الأطفال إلّا صورة آبائهم، وما أصدق قول «سبنسر» في ذلك: «ولقد نرى الناس ينسبون الهفوات والعيوب إلىٰ الأطفال ويخلون الآباء منها، شأنهم مع الحكومة إذ يُبَرِّئون الولاة من كلّ عيب، وينسبون إلىٰ الرعية كل نقص، والحقيقة أنّ سوء معاملة الآباء أصل

---

(١) هو أحد أبرز علماء الاجتماع الحديث.

أكثر ما ينسب إلىٰ عناد الأطفال وتشبثهم».

وإذا انتقل النشء من المنزل إلى المدرسة شيّد المدرِّسون أخلاقهم علىٰ الأساس الذي وُضع في المنزل، فإن كان وطيداً زادته المدرسة توطيداً، وإن كان واهياً صعب اصلاحه على المدرسة، وهي مهما بذلت من المجهود في تقويمه فلابد أن يبقىٰ للتربية المنزلية أثر ظاهر أو خفي في نفوس النشء.

وبالاجمال، فاننا لا ننتظر من وراء التربية المنزلية نتيجة خُلُقية سارَّة إلّا إذا كان الآباء والأُمّهات علىٰ خُلُق عظيم.

هذا ما أردنا بيانه وتوضيحه مما يجب أن يؤخذ به الطفل في حال صباه من التربية والتعليم، وغرس الفضيلة في قلبه، إذ في هذا الدور يكون التعليم أرسخ في الذهن وأكثر أثراً.

التربية في لسان الأدب:

ومن حِكَم العرب وأمثالها العالية قولهم: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر، والعلم في الكبر كالخط على الماء». ومن حكمهم أيضاً: «من أدّب ولده صغيراً، سُرّ به كبيراً».

ومن قولهم في الشعر:

عوّد بنيك علىٰ الآداب في الصغر ... كيما تَقَر بهم عيناك في الكبر
فإنما مَثَل الآداب تجمعها ... في عنفوان الصبا كالنقش في الحجر
هي الكنوز التي تنمو ذخائرها ... ولا يخاف عليها حادث العبر
إنّ الأديب إذا زَلّت به قدم ... يهوى علىٰ فُرُش الديباج والسرر

وقال آخر:

لكل شيء زينة في الورى ... وزينة المرء تمام الأدب
قد يشرف المرء بآدابه ... فيناً وإن كان وضيع النسب

وقال آخر:

ما وهب الله لامرئٍ هبة　　أفضل من عقله ومن أدبه
هما حياة الفتىٰ فإن فقدا　　فإنّ فقد الحياة أحسن به

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «يا بُني أُحرز حظك من الأدب، وفرّغ له قلبك، فإنّه أعظم من أن يخالطه دَنَس، واعلم انّك إذا افتقرت غنيت بـه، وإن تغربت كان لك كالصاحب الذي لا وحشة معه، يا بُـني الأدب لقـاح العـقل، وعنوان الفضل، وذكاء القلب، واعلم أنّه لا مروة لأحد بماله ولا حاله، بل الأدب عماد الرجل، وترجمان عقله، ودليله علىٰ مكارم أخلاقه، وما الإنسان لولا الأدب إلّا بهيمة مهملة»[1].

وأوصىٰ بعض الحكماء بنيه فقال: «الأدب أكرم الجواهر طبيعة، وأنفسها قيمة، يرفع الأحساب الوضيعة، ويفيد الرغائب الجميلة، ويُعز بلا عشيرة، ويكثر الأنصار لغير ذرية، فألبسوه حُلَّة، وتزيّنوه حِلية، يؤنسكم في الوحشة، ويجمع لكم القلوب المختلفة».

وأوصىٰ آخر ابنه فقال: «يا بُني الأدب دعامة أيَّد الله بها الألباب، وحِلية زيَّن بها عواطل الأحساب».

وقال ابن المقفع: «ما نحن إلىٰ ما تتقوّى به حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منّا إلىٰ الأدب الذي هو لقاح عقولنا، فإنّ الحبة المدفونة في الثرىٰ لا تقدر أن تطلع زهرتها ونضرتها إلّا بالماء الذي يعود عليها من مستودعه».

حكاية الحجاج:

ومن ظرائف الأدب ولطائفه أن الحجاج نهى الناس أن يخرجوا ليلاً وقال لحرسه: كل من وجدتموه اضربوا عنقه، ففي بعض الليالي وجد الحرس في منتصف

(١) اعلام الدين للديلمي: ٨٤.

الليل أربعة من الشبان عليهم أثر الشراب، فقبضوا عليهم وقال لهم صاحب الحرس: من أنتم حتىٰ خالفتم الأمير وخرجتم في هذا الوقت، فقال أحدهم:

أنا ابن من دانت الرقاب له ... ما بين مخدومها وخادمها
تأتيه بالرغم وهي صاغرة ... يأخذ من مالها ومن دمها

فسكت عنه صاحب الحرس وقال: لعله من أقارب أمير المؤمنين، ثم سأل الثاني فقال:

أنا ابن الذي لا ينزل الدهر قدره ... وإن نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناس أفواجاً علىٰ ضوء داره ... قيام لها من حولها وقعود

فسكت عنه وقال: لعله من أشرف العرب، ثم سأل الثالث فأنشأ يقول:

أنا ابن الذي يعلو الرقاب بسيفه ... ويضرب أعناق الرجال القشاعم
ولا ذاك من دخل ولا هو ثائر ... ولكنه حاوي العلا والمكارم

فسكت عنه وقال: لعله ابن حاكم العرب، ثم سأل الرابع فأنشأ يقول:

أنا ابن الذي خاض الصفوف بعزمه ... وقوّمها بالسيف حتّىٰ استقامتِ
ركاباه لا تنفك رجلاه منهما ... إذا الخيل في يوم الكريهة ولّت

فسكت عنه وقال: لعله ابن أشجع العرب.

فلما أصبح الصباح جاء بهم إلى الحجاج فكشف عن حالهم، فإذا الأول ابن حجام، والثاني ابن طباخ، والثالث ابن صيقل، والرابع ابن حائك، فأعجب الحجاج لبلاغتهم فأطلقهم وقال لجلسائه: علّموا أولادكم الأدب، فوالله لولا أدبهم لضربت أعناقهم، ثم أخذ يقول:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً ... يغنيك محمودُه عن النسب
إنّ الفتىٰ من يقول ها أنا ذا ... ليس الفتىٰ من يقول كان أبي

ومن نُكَت الأدب المُلّذة أنْ قدم وفد من العراق علىٰ عمر بن عبد العزيز، فنظر عمر إلىٰ شاب فيهم يريد الكلام، فقال عمر: أولوا الأسنان أولىٰ، فقال الفتىٰ: يا

أمير المؤمنين إن الأمر ليس بالسن، ولو كان كذلك لكان في المسلمين من هو أسنّ منك، فقال: صدقت تكلَّم.

قال: يا أمير المؤمنين إنّا لم نأتك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقدمت علينا في بلادنا، وأما الرهبة فقد آمننا الله بعدلك من جورك، قال: فما أنتم؟ قال: وفد الشكر، قال: لله أنت ما أحسن منطقك.

وقيل: عزم الفضل بن الربيع علىٰ تطهير[1] بعض ولده فأتى الرشيد فقال: يا سيدي قد عزم عبدُك علىٰ تطهير وَلَده خادمك، فإن رأىٰ أمير المؤمنين أن يزيِّن عبده بنفسه، ويصل نعمته هذه بنعمته المتقدمة، ويتمّ سروره فعل متفضلاً علىٰ عبده متمنناً بذلك، فقال: نعم.

فغدا إليه وقد أصلح جميع ما يحتاج إليه، ووضعت الموائد، وقعد الناس يأكلون، وأقبل الرشيد يدور في داره، فرأىٰ صبياً صغيراً أول ما نطق، فقال: يا صبي أيّما أحسن داركم هذه أم دار أمير المؤمنين؟ فقال: دارنا هذه أحسن ما دام أمير المؤمنين فيها، فإذا صار أمير المؤمنين إلىٰ داره فداره أحسن، فضحك منه الرشيد وتعجَّب من نجابته، ووهب له عشر قريات، وماءة ألف درهم.

قال الإمام محمّد الجواد عليه السلام:

«وحقيقة الأدب إجتماع خصال الخير، وتجافي خصال الشر، وبالأدب يبلغ الرجل مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة، ويصل به إلى الجنة، والأدب عند الناس النطق بالمستحسنات لا غير، وهذا لا يعتد به ما لم يوصل به إلىٰ رضاء الله سبحانه، والأدب الحقيقي هو أدب الشريعة، فتأدّبوا بها تكونوا أدباء حقاً، ومن صاحب الملوك بغير أدب أسلمه ذلك إلى الهلكة، فكيف بمن يصاحب ملك الملوك وسيد السادات»[2].

---

(١) هو الختان.

(٢) ارشاد القلوب: ١٦٠.

الأدب مع الله:

وقد روي أن الله تعالى يقول في بعض كتبه:

«عبدي أمِنَ الجميل أن تناجيني وأنت تلتفت يميناً وشمالاً؟ ويكلّمك عبد مثلك تلتفت إليه وتدعني؟ وترىٰ من أدبك إذا كنت تحدّث أخاً لك لا تلتفت إلىٰ غيره، فتعطيه من الأدب ما لا تعطيني؟ فبئس العبد عبد يكون كذلك»[1].

وروي: أن النبي ﷺ خرج إلىٰ غنم له، فوجد الراعي عرياناً يفلي ثيابه، فلما رآه الراعي كأنه استحى منه فلبس ثيابه، فقال له ﷺ: يا هذا امضِ لشأنك فلا حاجة لنا في رعايتك، فقال: ولم ذلك؟ فقال ﷺ: إنّا أهل بيتٍ لا نستخدم من لا يتأدّب مع الله، ولا يستحي منه في خلواته، وإنما فعل ذلك ﷺ لأنّ الراعي أعطاه من الأدب فوق ما أعطى ربّه[2].

وروي أنّه ﷺ سلَّم عليه غلام دون البلوغ وبشّ له وتبسم فرحاً بالنبي، فقال له ﷺ: أتحبني يا فتى؟ فقال: إي والله يا رسول الله، فقال: مثل عينيك؟ فقال: أكثر، فقال: مثل أبيك؟ فقال: أكثر، فقال: مثل امك؟ فقال: أكثر، فقال: مثل نفسك؟ فقال: أكثر والله يا رسول الله.

فقال ﷺ: أمثل ربك؟ فقال: الله الله يا رسول الله ليس هذا لك ولا لأحد، فانما أحببتك لحب الله تعالى لك، فالتفت النبي ﷺ إلىٰ من كان معه وقال: هكذا كونوا، أحبّوا الله لإحسانه اليكم وإنعامه عليكم، وأحبوني لحب الله تعالى، فاختبره ﷺ علىٰ صحة أدبه في المحبة في الله سبحانه[3].

فالأدب مع الله تعالى الاقتداء بآدابه وآداب نبيه ﷺ وأهل بيته، وهو العمل بطاعته، والحمد له على السرّاء والضرّاء، والصبر على البلاء، ولهذا قال أيوب النبي ﷺ: ﴿أني مسّني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ [الأنبياء : ٨٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ارشاد القلوب : ١٦١.

(٣) المصدر السابق.

فقد تأدّب هنا من وجهين: أحدهما أنّه لم يقل: إنك مسستني بالضر، والآخر لم يقل: إرحمني، بل عرّض تعريضاً فقال: أنت أرحم الراحمين، وإنما فعل ذلك حفظاً لمرتبة الصبر.

وكذا قال إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ [الشعراء : ٨٠] ولم يقل: إذا أمرضتني، حفظاً للأدب. وقال أيوب ﷺ في موضع آخر: ﴿أني مسّني الشيطان بنصب وعذاب﴾ [ص : ٤١] أي ببلاء وشر، يريد مرضه وما كان يقاسيه من أنواع النَصَب، ـ ويقال: النصب في البدن، والعذاب في ذهاب الأهل والمال ـ وأما نسبته إلى الشيطان لأنّه كان يوسوس إليه من عظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه من الجزع، فالتجأ إلى الله تعالى، كل ذلك تأدباً منهم مع الله جل وعلا في مخاطبتهم إياه.

آداب الصلاة:

ومن هنا كان أهل العرفان من الأنبياء والأولياء والحكماء، يلزمون العبد إذا قام بين يدي الله في حال صلاته أن يتأدّب في خطابه، ويخشع لعظمته، ولا يلتفت ولا يعبث، ولا يتثاءب، ولا يتمطىٰ، ولا يفرقع أصابعه، وبالجملة لا يتحرك لغير الصلاة، ولا يفعل شيئاً من المكروهات، إذ الغرض الأصلي من الصلاة ـ بل وسائر العبادات ـ هي تصفية النفس وتصقيلها، فكل عمل يكون أشد تأثيراً يكون أفضل، «**أفضل الأعمال أحمزها**».

وهذه الأشياء لا تبطل الصلاة سواء كانت عمداً أو سهواً، ولكن تخرج بها عن الحسن والكمال، وزيادة الأجر والثواب، فهي بمنزلة الحاجبين واستقواسهما واللحية والأهداب، وتناسب الخلقة وغير ذلك مما يفوت بفوات بعضها الحسن والجمال، وبفوات بعض كمالها، ويصير الشخص مشوه الخلقة، مذموماً غير مرغوب فيه، إذا علمت ذلك فاني أضرب لك مثلاً في المقام، إذ الأمثال إنما توضع

لكشف الغوامض.

أقول: فليعلم كل إنسان أن صلاته قربة وتحفة، يتقرّب بها إلىٰ حضرة ملك الملوك، كوصيفة[1] يهديها طالب القرب والجاه من السلطان إليه، وهذه التحفة تعرض على الله ثم ترد إلى الإنسان في يوم العرض الأكبر، فإلى الرجل الخيرة في تحسين صورتها أو تقبيحها.

فمن أدّاها على النحو المأمور به بأعمالها الواجبة والمندوبة، وشرائطها الظاهرة والباطنة، مع الاخلاص والتأدّب وحضور القلب، كان كمن أهدى عبداً صحيحاً سوياً شاباً جميلاً عاقلاً كاملاً إلىٰ ملك من الملوك، ومن اقتصر علىٰ أعمالها الظاهرة، وغفل عن الحضور، والتوجه، والتأدّب، والقربة، والاخلاص، كان كمن أهدىٰ عبداً ميتاً إلىٰ ملك من الملوك.

ومن ترك عمداً شيئاً من واجباتها، كان كمن أهدى عبداً مقتولاً إليه، ومن اقتصر علىٰ أقلّ ما يجزي، كان كمن أهدىٰ إليه عبداً حيّاً لكنّه أعمى أو أصم أو أبكم، أو مقطوع الأطراف أو هرماً، أو قبيح المنظر، أو مجروح الأعضاء، أو أمثال ذلك.

فليتنبّه المرء ويتأمّل في أنّه إذا أراد أن يهدي تحفة إلىٰ ملك من ملوك الدنيا، بل إلىٰ من دونه بمراتب كثيرة من الأُمراء والحكام، كيف يجتهد ويسعى في تجويدها وتحسينها ليقبلها، إذاً فما باله يغفل ويتساهل من تحسين هديته وتحفته إلىٰ ملك الملوك الذي منه بدؤه وإليه عوده، وقد ورد أن كل صلاة لا يتم الإنسان ركوعها وسجودها فهي الخصم الأول علىٰ صاحبها يوم العرض الأكبر، تقول: ضيّعك الله كما ضيّعتني[2].

وقد شبّه أهل العرفان الصلاة بالانسان، قالوا: كما أن الإنسان حقيقة مركبة

---

(١) الوصيفة هي الجارية.

(٢) البحار ٨٣: ٩ ح ٢.

من أجزاء معيّنة، فهو لا يكون إنساناً موجوداً كاملاً إلّا بمعنى باطني (وهو الروح)، وأعضاء محسوسة بعضها في جوفه وبعضها في ظاهره، وهذه الأعضاء متفاوتة المراتب إذ بعضها مما ينعدم الإنسان بعدمه، وتزول الحياة بزواله كالقلب والدماغ والكبد والمعدة وأمثالها، وبعضها وإن لم ينعدم بعدمه اصل الحياة إلّا أنّه يرتفع به تمامية الإنسان، ويصير ناقصاً كاليد والرجل وأمثالها.

وكذلك الصلاة، وهي حقيقة مركبة، وصورة صوَّرها الشرع من أُمور متفاوتة، وتعبدنا باكتسابها، فروحها النية والقربة، وأعمالها الأركانية من تكبيرة الاحرام والركوع والسجود والقيام بمنزلة الأعضاء الرئيسية، فتفوت بفواتها الصلاة على الاطلاق ولا يمكن تحققها وصحتها بدونها.

وسائر الأعمال الواجبة من الفاتحة، والسورة، وأذكار الركوع، والسجدتين، والطمأنينة فيهما، وفي رفع الرأس منهما، والتشهد، والتسليم، وغير ذلك من الأعمال الواجبة التي تبطل الصلاة بتركها عمداً لا سهواً، بمنزلة اليدين والرجلين وآلات التناسل وغير ذلك مما تفوت الحياة بزوالها، وقد لا تفوت به.

الصلاة ظاهرها وباطنها:

أما صلاة الظاهر المأمور بها شرعاً، والمفروضة علىٰ كافة المكلفين سمعاً، فأعدادها معلومة، وأوقاتها مرسومة، وأركانها مضبوطة، وأحكامها في الكتب مسطورة لا حاجة بنا إلىٰ تفصيلها، لشهرتها وكفالة الكتب الفقهية في تعيين شرائطها وأحكامها، وإذا مدَّ الله في العمر نشير إلىٰ اركانها وواجباتها، ومبطلاتها وشكوكها وغير ذلك، ونبيّنها لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وأما صلاة الباطن فنشير إلىٰ بعض أسرارها، ويسير مما ينبغي لها ليكون الإنسان علىٰ مقربة استعداد، وأوفى عدة عند القيام بها بحيث يأتي بها علىٰ وجه البصيرة والمعرفة، إن كان من أهل القرب والطاعة، فنقول:

أولها: الطهارة؛ وهي من مفاتيح الصلاة والطرف الأهم، إذ بواسطتها تقبل الصلاة كما جاء في الحديث: «لا صلاة إلّا بطهور»(١) وإذا تفكّر العاقل في هذا الحكم إجمالاً، ونظر في حقيقتها وثمرتها، عرف أن السعادة ظاهرة وباطنة في النظافة.

ثم إذا تفكّر فيما ورد فيها من الآيات القرآنية لا سيما قوله تعالىٰ: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم﴾ [المائدة: ٦] ويضم الىٰ ذلك قوله تعالى: ﴿والله يحب المطهرين﴾ [التوبة: ١٠٨]، ويعقل معنى حب الله جل وعلا، وأن ثمرته كشف الحجب عن قلب العبد، فيلقي به كل نور وسعادة، ثم في قوله ﷺ: «الطهور نصف الايمان»(٢)، فيستشعر من ذلك أن المراد من الطهور إنما هو التخلّي والتنظيف من موجبات الأكدار والقذارات عن الظاهر.

ويكون النصف الآخر من الايمان عبارة عن التحلّي والتزيُّن بالفواضل والفضائل في الظاهر والباطن، مثلاً طهارة البدن بالوضوء واجتناب المعاصي، وحليته بالعطر والأعمال الصالحة، وطهارة القلب بتزكيته عن الأخلاق الرذيلة، وحليته بالأخلاق الحسنة الجميلة، وطهارة السر بنسيان ما سوى الله، وحليته بذكر الله، وبعبارة أخرى نفي الموهوم، وتصحيح المعلوم، وكشف سبحات الجمال.

فإن قلت: الطهارة تطلق في عرف الفقهاء علىٰ التنظيف من الأخباث والأحداث، فمن أين يستشعر أنّ المراد منها هذا المعنى العام؟ قلت: يستشعر ذلك من النقل والعقل، أما النقل: فيكفي قوله تعالى: ـ في سورة الشمس ـ بعد تلك الأقسام العظيمة: ﴿قد أفلح من زكّاها • وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: ١٠-٩]. وهذا التأكيد العظيم إنما يدلّ علىٰ أنّ الأمر في طهارة القلب أهمّ بمراتب من طهارة البدن.

وأما العقل: فمن تأمّل في لطف الله تعالى في طلبه من الإنسان طهارة المكان

(١) التهذيب ١: ٤٩ ح٨٣؛ ومن لا يحضره الفقيه ١: ٥٨ ح١٢٩.
(٢) مستدرك الوسائل ١: ٣٥٧ ح٨٤٣.

الذي هو مجاور لك، ثم اللباس الذي هو ملاصق لبدنك، ثم البدن الذي هو قشر لحقيقتك، يعلم من ذلك بالعلم القطعي أنّه ـ تعالىٰ ـ لا يهمل طهارة قلبك وسرّك من الأقذار والأرجاس المعنوية التي لا يقاس خبثها ورجاستها بالأرجاس الظاهرية بوجه.

ثانياً: ستر العورة؛ فمعناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق ـ أعني سكان عالم الأرض ـ فإذا وجب عليك ستر ظاهر البدن عن الخلق وهم مخلوق مثلك، فما ظنّك في عورات باطنك، وفضائح سرّك الذي هو موضع نظر معبودك وخالقك، فانها أولى بالستر وأحرى.

فأحضر تلك الفضائح ببالك، وطالب نفسك بسترها بالندم والخوف والحياء، ونزّل نفسك منزلة العبد المجرم المسيء الآبق الذي ندم فرجع إلىٰ مولاه، ناكساً رأسه من الحياء والخوف، فإنّ الله تعالى ألطف ما يكون بك، أطعته فأحبك، وعصيته فأمهلك، ورجعت إليه فقبلك.

فقد روي: أنّ شاباً من بني إسرائيل أطاع الله عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، فنظر ذات يوم وهو يترائىٰ في مرآت إلىٰ شيب في لحيته فتأوّه وندم علىٰ ما فرّط، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: إلهي أطعتك عشرين سنة وعصيتك عشرين سنة، وها أنا تائب ونادم، أفتقبلني؟ صدر النداء من الجليل جل وعلا: عبدي أطعتنا أحببناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإذا رجعت إلينا قبلناك.

ثالثها: الاستقبال؛ فهو إستقبال ظاهر وجهك من سائر الجهات إلىٰ جهة البيت الحرام، أفترى أنك مأمور بذلك ولست مأموراً بتوجيه قلبك إلىٰ معبودك!؟ فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك، وكما لا يمكن التوجه إلى البيت إلّا بالالتفات عن سائر الجهات، فكذلك لا يمكن التوجه إلى الحق إلّا بالاعراض عن كل ما عداه، والانقطاع بكليته إلى الله تعالى.

رابعها: القيام؛ فليكن علىٰ ذكرك في الحال خطر القيام بين يدي الرب المتعال

في القيامة، وهول المطلّع في مقام العرض والسؤال حين ما أيقن أهل الجرائم بالعقاب، وعاينوا أليم العذاب، فقم بين يديه سبحانه قيام عبد ذليل بين يدي ملك جليل، وعليك بخفوت أنفاسك، وهدو أطرافك، وسكون جوارحك، وخشوع أجزائك، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وزن نفسك قبل أن توزن.

خامسها: النية؛ فاعلم ان الأعمال بالنيات، وأن النية رأس العبادات، فاجتهد في تحصيل الاخلاص رجاءً للثواب، وخوفاً من العقاب، وطلباً للقرب إلىٰ رب الأرباب.

قال الإمام الصادق ﷺ: «إذا كان أول صلاته بنية يريد بها ربه، فلا يضر ما دخله بعد ذلك، فليمض في صلاته، وليخسأ الشيطان من نفسه»[1].

سادسها: التكبير؛ فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذّبه قلبك، فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله، وأنت أطوع له، فقد اتخذته إلهاً لك ومعبوداً من دون الله كما قال تعالى: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ [الفرقان : ٤٣] فقولك: «الله أكبر» يكون حينئذ كلاماً بمجرّد اللسان من دون أن يساعده القلب والجنان، فيشهد الله سبحانه عليك بأنك كاذب في تكبيره وتعظيمه، كما شهد على المنافقين بأنهم لكاذبون في قولهم: «نشهد أنك لرسول الله» وما أعظم الخطر في ذلك لولا التدارك بالتوبة والاستغفار.

سابعها: القراءة؛ والناس فيها علىٰ ثلاثة أقسام: السابقون وهم المقرّبون، وأصحاب اليمين وهم أهل الجنّة، وأصحاب الشمال وهم أهل النار.

فرجل يتحرك لسانه وقلبه غافل عما هو فيه وما يتكلم به، بل مشغول الفكر بأغراض نفسه ومعاملاته وتجاراته وخصوماته وغيرها، وهو مقام أصحاب الشمال.

ورجل يتحرّك لسانه، وقلبه يتبع اللسان، فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من

---

(١) الكافي ٣: ٢٦٨ ح٣؛ الوسائل ١: ٨٠ ح٣.

غيره، وهو مقام أصحاب اليمين.

ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أولاً، ثم يخدمه اللسان فيترجمه، كما ربما يخطر بالبال شيء فينبعث من الرجل داعية الشوق إلى التكلّم به، وفرق بين اللسان الذي هو ترجمان القلب، وبين أن يكون القلب ترجماناً تابعاً للسان، والمقربون لسانهم ترجمان قلوبهم.

وجماع القول من كلّ ما ذكرناه، هو إتقان الفريضة، وحفظ أصولها، والتدبر في معانيها لأنّها الطرف الأعلىٰ والركن المهم من الدين. يقول السيد الجليل بحر العلوم في أرجوزته:

إن الصلاة هي أفضل القرب وأكمل الطاعات طُرّاً وأحب
عمود هذا الدين والعنوان لسائر الأديان والميزان
إن قبلت فغيرها بها قبل وإن تُردُّ ظلّ سعي من عمل[1]

وليكن المصلي داخلاً تحت عنوان قوله تعالى: ﴿إن الصلوة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ [النساء : ١٠٣]. وإنما خصّ الله تعالى المؤمنين بالذكر دون غيرهم، لأنّ الصلاة التي تكون صحيحة مقبولة عنده هي صلاة المؤمنين، وغيرهم لا تقبل منه الصلاة كما تقبل منهم، والعلة واضحة، وذلك لعدم قيامهم بشرائطها التي منها الايمان بالله، ولعدم إمتثالهم لأمر الله ونهيه.

وإن شدة إيمان المؤمن هو الذي يدعوه إلى المحافظة على الصلاة، والشوق إليها، والاقبال عليها لأنّها معراجه، وبها يصل إلىٰ أعلىٰ مراتب السعادة، ولقد كان النبي ﷺ كثير الشوق إليها، شديد التعب بها، فقد كان يصلّي الليل كلّه، فعاتبه الله تعالى علىٰ ذلك وأنزل عليه ﴿طه ● ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [طه : ١-٢] وأمره بأن يخفّف علىٰ نفسه، وذكر أنّه ما أنزل عليه الوحي ليتعب كلّ هذا التعب.

وعن الإمام الكاظم عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال:

---

(١) الدرّة النجفيّة: ٨١ كتاب الصلاة.

في القيامة، وهول المطلّع في مقام العرض والسؤال حين ما أيقن أهل الجرائم بالعقاب، وعاينوا أليم العذاب، فقم بين يديه سبحانه قيام عبد ذليل بين يدي ملك جليل، وعليك بخفوت أنفاسك، وهدو أطرافك، وسكون جوارحك، وخشوع أجزائك، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وزن نفسك قبل أن توزن.

خامسها: النية؛ فاعلم ان الأعمال بالنيات، وأن النية رأس العبادات، فاجتهد في تحصيل الاخلاص رجاءً للثواب، وخوفاً من العقاب، وطلباً للقرب إلىٰ رب الأرباب.

قال الإمام الصادق ﷺ: «إذا كان أول صلاته بنية يريد بها ربه، فلا يضر ما دخله بعد ذلك، فليمض في صلاته، وليخسأ الشيطان من نفسه»[1].

سادسها: التكبير؛ فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذّبه قلبك، فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله، وأنت أطوع له، فقد اتخذته إلهاً لك ومعبوداً من دون الله كما قال تعالى: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ [الفرقان : ٤٣] فقولك: «الله أكبر» يكون حينئذ كلاماً بمجرّد اللسان من دون أن يساعده القلب والجنان، فيشهد الله سبحانه عليك بأنك كاذب في تكبيره وتعظيمه، كما شهد على المنافقين بأنهم لكاذبون في قولهم: «نشهد أنك لرسول الله» وما أعظم الخطر في ذلك لولا التدارك بالتوبة والاستغفار.

سابعها: القراءة؛ والناس فيها علىٰ ثلاثة أقسام: السابقون وهم المقرّبون، وأصحاب اليمين وهم أهل الجنّة، وأصحاب الشمال وهم أهل النار.

فرجل يتحرك لسانه وقلبه غافل عما هو فيه وما يتكلم به، بل مشغول الفكر بأغراض نفسه ومعاملاته وتجاراته وخصوماته وغيرها، وهو مقام أصحاب الشمال.

ورجل يتحرّك لسانه، وقلبه يتبع اللسان، فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من

(١) الكافي ٣: ٢٦٨ ح٣؛ الوسائل ١: ٨٠ ح٣.

غيره، وهو مقام أصحاب اليمين.

ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أولاً، ثم يخدمه اللسان فيترجمه، كما ربما يخطر بالبال شيء فينبعث من الرجل داعية الشوق إلى التكلّم به، وفرق بين اللسان الذي هو ترجمان القلب، وبين أن يكون القلب ترجماناً تابعاً للسان، والمقربون لسانهم ترجمان قلوبهم.

وجماع القول من كلّ ما ذكرناه، هو إتقان الفريضة، وحفظ أصولها، والتدبر في معانيها لأنَّها الطرف الأعلىٰ والركن المهم من الدين، يقول السيد الجليل بحر العلوم في أُرجوزته:

إن الصلاة هي أفضل القرب وأكمل الطاعات طُرّاً وأحب
عمود هذا الدين والعنوان لسائر الأديان والميزان
إن قبلت فغيرها بها قبل وإن تُردُّ ظلّ سعي من عمل[1]

وليكن المصلي داخلاً تحت عنوان قوله تعالى: ﴿إن الصلوة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ [النساء: ١٠٣]. وإنما خصّ الله تعالى المؤمنين بالذكر دون غيرهم، لأنّ الصلاة التي تكون صحيحة مقبولة عنده هي صلاة المؤمنين، وغيرهم لا تقبل منه الصلاة كما تقبل منهم، والعلة واضحة، وذلك لعدم قيامهم بشرائطها التي منها الايمان بالله، ولعدم إمتثالهم لأمر الله ونهيه.

وإن شدة إيمان المؤمن هو الذي يدعوه إلى المحافظة على الصلاة، والشوق إليها، والاقبال عليها لأنّها معراجه، وبها يصل إلىٰ أعلىٰ مراتب السعادة، ولقد كان النبي ﷺ كثير الشوق إليها، شديد التعب بها، فقد كان يصلّي الليل كلّه، فعاتبه الله تعالى علىٰ ذلك وأنزل عليه ﴿طه ● ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [طه: ١-٢] وأمره بأن يخفّف علىٰ نفسه، وذكر أنّه ما أنزل عليه الوحي ليتعب كلّ هذا التعب.

وعن الإمام الكاظم عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال:

---

(١) الدرّة النجفيّة: ٨١ كتاب الصلاة.

«لقد قام رسول الله ﷺ عشر سنين علىٰ أطراف أصابعه، حتّىٰ تورّمت قدماه، واصفرّ وجهه، يقوم الليل أجمع، حتّىٰ عوتب في ذلك، فقال الله تعالى: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقىٰ﴾[1] ـ والشقاء بمعنى التعب ـ.

فكان ﷺ أعبد الخلق من لدن آدم إلىٰ آخر رجل في العالم، فكان لم يسبقه في العبادة سابق، ولا يتعلّق به مرافق، إلّا أخوه وابن عمّه أمير المؤمنين علي ﷺ، فقد كان يسلك منهاجه في العبادة، ويقفو أدراجه في تلك السعادة.

فكان ﷺ يصلي كما هو المتواتر في اليوم والليلة ألف ركعة، ولم تعرف ليلة من الدهر لم يقم بها أمير المؤمنين ﷺ لعبادة ربه إلّا ليلة الفراش بمكة فإنّه نام فيها، ولكن قابلها بليلة صفين فإنّه قام فيها.

أما ليلة الفراش فإنّ طوائف من قريش تعاقدت علىٰ قتل رسول الله ﷺ وجعلوا موعدهم ليلة عيّنوها، فأخبر الله تعالى نبيّه بذلك، فبيّت النبي علياً علىٰ فراشه تلك الليلة، وهاجر من مكة لئلّا يجد المشركون فراش رسول الله خالياً فيعلموا بهجرته فيتبعوه.

فبات علي ﷺ علىٰ ذلك الفراش، باذلاً دمه في سبيل الله، جاعلاً جسمه دريئة لأعداء الله، فنام والمشركون حوله يظنّونه رسول الله، فلو أنّه قام تلك الليلة لعبادة ربّه لعرفوه وتبعوا رسول الله، فبقي ﷺ نائماً والحجارة ترضخه إلىٰ أن عرف هم الصباح فقام، فذلك المنام أفضل من كل قيام، وفي ذلك يقول شاعره:

فدىٰ النبي بنفسٍ حين بات علىٰ فراشه يوم رامته أعاديه
قالوا تصوّر من نوم فقلت لهم لأنّه بات ليلاً لم يصلّيه
لو أنّه قام قالوا ذاك حيدرة فنام في عين باريه يناجيه

ولم يتركها أمير المؤمنين ﷺ ـ أعني تلك الليلة ـ قائماً وقاعداً إلّا لعبادة هي أفضل وأوفىٰ، وأشد زلفىٰ إلى الله تعالى، وأما ليلة صفين: فإنّ الله تعالى قد قصر

---

(١) البحار ٧١: ٢٦.

الصلاة الواجبة في الجهاد عند الخوف إشفاقاً على المسلمين، ورعاية لهم، كما أمر نبيّه أن يصنع ذلك في حروبه، وأمير المؤمنين عليه السلام صلىٰ النافلة بصفين بين أعداء الله اللئام، وصناديد أهل الشام.

قال نصر بن مزاحم: ضارب علي بصفين، فشقّ صفوف أهل الشام، وجعل يضرب فيهم قُدماً، فلا يرون إلّا وميض سيفه، ولا يسمعون إلّا تكبيره، وكان عليه السلام يكبّر عند كل شجاع يقتله، فعدّوا له في تلك الحملة سبعين تكبيرة ثم خفي صوته، فانتدبت له رجال من ربيعة وقحطان، فشقّوا الصفوف فرأوه قائماً يصلّي النافلة بين أعدائه.

الفصل السادس
أهمية العلم والتعلّم وعلوم القرآن

«أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ؛ حَتَّىٰ عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ؛ بَلْ كَأَنِّي بِمَا ٱنْتَهَىٰ إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذٰلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نخيله، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي ٱلْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ ٱلْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ ٱلْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، لَا أُجَاوِزُ ذٰلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ».

* * *

طرق تحصيل العلم:

قوله ﷺ: «أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي -إلىٰ قوله: فَعَرَفْتُ

صَفْوَ ذٰلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ».

يبيّن ـ صلوات الله عليه ـ في هذه الفقرات شتّىٰ طرق تحصيل العلم بتلكم الأحوال للإنسان الملمّ بآثار الماضين وأخبارهم وتجاربهم، وكلّ هذه طرق معقولة عدا ما كان عند الإمام عليه‌السلام من العلم بالحاضر والغابر، وما كان وما سوف يكون ممّا ثبت في العقيدة حصوله له، ولا يعزب علمه عنه.

والنظر الذي يوعز إليه ـ سلام الله عليه ـ في الحقيقة هو النظر بالمنظار الإلهي، وهو محض التنبّه إلىٰ ما جريات الأحوال، وما ترتّب عليها من حسنة وسيّئة، وليس كنظر غير الإمام في الوقائع الغير الملموسة، فإنّها في غيره في حاجة ماسّة إلى القرب الزماني والمكاني، فهو لا يعرفها إلّا إذا نظر إليها من كثب، أو أخبر عنها المطلّع عليها من أمم.

فموقفنا من التأريخ موقف عظات وعبر، نطالع أخبار من سبق فكأنّنا معهم، تحزننا المآسي، وتسوؤنا المخازي، وتنغّص عيشنا المجازر البشرية، وتنشّطنا الأفراح، وتبعث في نفوسنا البهجة والحياة الروحية.

فإذا قرأنا حديث مولد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وما فيه من إرهاصات النبوّة، فإنّا نجد أنفسنا محلقة إلى الملأ الأعلىٰ، لتشاركهم في أفراحهم وسعاداتهم، ثمّ نراها تهبط لتشارك من في الأرض في البشر والهناء، ثمّ لا تلبث أنفسنا حتّىٰ تجد لها مسارب إلىٰ سكان البحار لتجاريهم في مغداتهم ومراحتهم، ثمّ تطفو علىٰ وجه الماء لترىٰ نور النبوّة المشعّ في شرق الأرض وغربها.

وتعكسنا الحالة إذا تلونا في صحيفة التاريخ أسطراً سوداء من مأساة يوم الطف، يوم تطاولت الأيدي الأثيمة إلىٰ سيّدنا السبط المفدّىٰ، فأبدت تلكم القسوة والخزاية التي ما سنح لها الدهر بمثيل.

إذن فالتاريخ ليس سلوةً للمتسلّي، ولا أُلعوبة بيد الصغير؛ بل هو درس من دروس الحياة، نستقي منه كيفية الحياة وأنّها كيف يجب أن تدرج، ثمّ هو يكسح من

أمام أرجلنا دياجير الظلام، لينير لنا الطريق اللاحب المهيع الذي سلكه الماضون فنجحوا أو خابوا.

وجوب الوعظ والارشاد والتعليم:

قوله ﷺ: «فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نخيله ـ إلىٰ قوله: ـ وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ».

هاهنا يوعز ـ سلام الله عليه ـ إلىٰ أنّ الإنسان إذا كملت عنده مواد الحكمة ونتائج العلم، يجب عليه أن لا يحتكرها، أو يؤثر بها نفسه فحسب، فيصغّر دائرة المنفعة، ويضيّق منفذ الخير، ولما لهذه من أهمية ومنزلة ومكانة اجتماعية، جاء الحديث عمّن لا تجود نفسه ببثّ الموعظة والعلم عند الحاجة إليها: «إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يُظهر علمه، ومن لم يفعل لعنه الله».

وفي الناس من لا تجود نفسه حتّىٰ علىٰ نفسه ـ وهو العالم الذي لا يعمل بعلمه ـ وهنا يتراءىٰ لنا المثل المشهور: «العلم يهتف بالعمل وإلّا ارتحل» فيرينا أنّ فائدة العلم منوطة بالعمل.

وبدهي أنّ مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا، ولا نظام للدين إلّا بانتظام الدنيا، ولا يستقيم نظام الدنيا إلّا بتفهّم عالم المخلوقات بالبحث عن طبائع الموجودات وخواصّها، وذرائع استخدام ما لا غنىٰ عنه في بقاء الإنسان أو كماله، ثمّ استقراء شؤون الاجتماع وما يتبع ذلك من سنن التعاون علىٰ أسباب المعيشة وضبطها، وطرق اصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس، وارشادها إلىٰ ما فيه رفعتها في الدنيا وسعادتها في الآخرة.

ومن هذا يتبيّن أنّ الإنسان لا تتمّ له حكمة خلقه، وتسخير هذا الكون له إلّا بالعلم والعمل، فبهما سعادة الدنيا، وهما طريق الفوز في الأُخرىٰ، ولو أنّ شخصاً جمع علوم الأوّلين والآخرين ثمّ لم يكن له أثر يذكر في هذه الحياة وتطوّرها فهو من أهل القبور، بل الأموات خير منه، فالعبرة بآثار المعرفة وفوائدها لا بالمعرفة نفسها.

العلم:

كلمة العلم من أكثر الكلمات شياعاً المستعملة قديماً وحديثاً، وهي في كلّ دور من أدوارها تطلق علىٰ ما يضادّ الجهل على الاطلاق، وكثيراً ما لحق بها التخصيص في أحوال معيّنة فصارت تعني ما يضادّ الجهل بنوع محدود من المعارف.

فالمعتبر من حال هذه الكلمة عند العرب مثلاً في حال جاهليّتهم، أنّها كانت تُطلق علىٰ ما ينافي الجهل بمعارف الجاهليّين المحدودة، وكانت لا تتعدّى الشعر، والكهانة، والقيافة، والخطابة، والأنساب، فلمّا ظهر الإسلام كان يراد من العلم ما ينافي الجهل بما ظهر من المعارف الجديدة، وهي الكتاب والسنّة وأخبار الملاحم.

ولمّا ازدادت معارف العرب صارت تطلق علىٰ ما ينافي الجهل بما ظهر من المعارف الجديدة؛ كالفقه، والتفسير، وشرح السنّة، والتاريخ، وطبقات رواة الحديث، والنحو، ثمّ انتشرت العلوم الكونيّة فيهم، وتشعّبت المعلومات لديهم فصار يستعملها كلّ فريق فيما هو بسبيله، فاتّسع مدلولها اتّساعاً يناسب اتّساع مجالات المعارف الجديدة، ولكنّها اليوم تعني في أوربا مجموع المعارف الإنسانية المؤيّدة بالدلائل الحسّية، وجملة النواميس التي اكتشفت لتعلّل حوادث الطبيعة تعليلاً مؤسّساً علىٰ تلك النواميس الثابتة، ولا تستعمل إلّا مفردة.

ومع هذا فقد تطلق علىٰ مجموع معارف في فرع خاص من المعارف الإنسانية، وفي هذه الحالة يلحق بها التخصيص فيقال: علم الكيمياء وعلم الفلك مثلاً، وقد يعتريها الجمع فيقال: العلوم الكونية والعلوم الرياضية، وقد كابد العلم تخصيصاً معنوياً في هذه القرون المتأخّرة، فصار لا يطلق إلّا على المعارف التي تقع تحت أحكام المشاعر وتخضع لامتحانها.

فإذا قال قائل: «العلم قرّر ذلك» خرج منه علم الدين، لأنّ مدار الدين على المسائل الاعتقادية، ومعتمد التسليم بمقرّرات لا تخضع للإمتحان والتجربة، ومن هذا نشأت مسألة المناقضة بين العلم والدين، فالعلم لا يعترف بمسألة إلّا إذا قبلها

العلم وأيّدها الحسّ، وقبلت الخضوع لأُسلوبه من الاختبار والتمحيص، ولكن الدين يفرض التسليم بأُمور غيبية يسندها إلى الوحي، ويعزوها إلى الله تعالى أو يعلن سموها عن كلّ جدال.

وقد اتّخذ الماديون في أُوربا هذا الأمر سلاحاً لمقاتلة الدينيين والنعي عليهم، فلم يجيء القرن التاسع عشر حتّىٰ كان أنصار الدين في ضعف مطلق أمام خصومهم، وظهرت المبادئ المادية ظهوراً لا مزيد عليه، وتذرّعوا بهذا السلاح لنكران الخالق والروح والخلود، لخروج هذه العقائد عن دائرة اختصاص العلم.

وما زال الماديون ظاهرين علىٰ خصومهم حتّىٰ ظهرت المباحث الروحانيّة في سنة (١٨٤٦) بأمريكا أوّلاً، ثمّ انتقلت منها إلىٰ أُوربا وتناولها فيهما رجال العلم من كلّ المذاهب، فثبت منها ـ بالاختبار والتجربة، وهما من مميّزات العلم الطبيعي ـ إنّ الحياة تقوم بغير المادّة، وإنّ ماوراء هذه الطبيعة المحسوسة طبيعة روحانية أرقىٰ منها سمّاها بعضهم عالم الأرواح.

وتوقّف بعضهم عن تسميتها، فأصبح علم الدين في أُوربا الآن مؤسّساً علىٰ نفس الأُسس التي تأسّس عليها العلم الطبيعي، ومرادنا بالدين المطلق لا ديناً خاصّاً، فصارت العقائد الأوّلية العامة لجميع الأديان، مثل الروح والخلود وعلم الملأ الأعلىٰ، ممّا يدخل في دائرة اختصاص العلم.

تاريخ العلم:

يختلط تاريخ العلم بتاريخ العقل الإنساني وتدرّجه نحو الكمال، ويبتدئ مع ظهور الإنسان نفسه علىٰ سطح الأرض.

قال العلّامة الفرنسي «كوندرسيه»: «يولد الإنسان متمتّعاً بخاصة قبول الشعورات، وملاحظة وتمييز البسائط المؤلّفة منها، وحفظها ومعرفتها ومزج بعضها ببعض، والمقارنة بين هذه الممتزجات، وأخذ ما هو مشترك بينها، والحاق

علامات بكلّ منها ليعرفها علىٰ أحسن وجه، وليسهل تمييزه لممتزجات أُخرىٰ جديدة، ولقد تمّت فيه هذه الخاصة بفعل المؤثرات الخارجية عليه أي بوجود شعورات مركّبة ثباتها في تشابهها وفي نواميس تغيّراتها مستقلّ عنه كلّ الاستقلال.

ثمّ إنّ هذه الخاصيّة فيه تزداد نموّاً بالوسائط الصناعية التي يصل إليها الإنسان بتلك الوسائل الأوّلية، شعورات الإنسان يصحبها ألم ولذّة، وللإنسان في مقابل ذلك خاصّة تحويل هذه التأثيرات الوقتيّة إلىٰ شعورات عند مواجهته، أو تذكّره للذّات أو آلام كائنات أُخرىٰ شاعرة، وباتّحاد هذه الخاصّة بخاصّة تكوينه وتأليفه أفكاراً جديدة تتولّد بينه وبين أمثاله علاقات تؤدّي إلىٰ حقوق وواجبات ناطت الطبيعة بها الشقّ الأثمن من سعادتنا، والجانب الأوجع من آلامنا».

هذا غاية ما يقال عن قبول الإنسان للإجتماع، وهو الدافع الأوّل له لاكتناه العلوم والجري وراء المعارف، فالعلوم نشأت عن الصنائع المفيدة، وهذه الصنائع ما كانت لتوجد لولا تضامن الأقوام الأوّلين في حياتهم واستعانة بعضهم ببعض، وإنّ العلاقات الاجتماعية ضرورية حتّىٰ لتكوين أبسط نظريّة علميّة.

أوّل ما عُرف من آثار العلم هو ما نشأ في آسيا الغربية، وهي آثار ضئيلة في حقيقتها، ولكنّها كانت بذرة العلم العظيم الشأن الذي بلغ نموّه الآن في أُوربا، فنشأت أوّل نظريات علم الفلك في بلاد الكلدانيّين، فقد كانوا يدرسونها هناك للعمل بها، فقد كان كهنة ذلك الشعب يعتقدون أنّ لسير الكواكب تأثيراً على الحياة الإنسانية الأرضية، ولذلك كان اهتمامهم بدرس حركاتها وانقلاباتها عظيماً جدّاً، ليدركوا حوادث المستقبل من وراء ذلك.

وقد نشأت صناعة البناء والملاحة عند الأقوام المحصورين في الأراضي الجافّة المحرقة، معرّضين لجميع أنواع التقلّبات الجويّة، ومجاورين للبحر مع جواذبه غير المتناهية، فظهرت النظريّات الأوّلية في علم الهندسة والميكانيك، وقد دفعت

الحاجة إلىٰ الأدوات والأسلحة للدفاع عن الذات لصناعة استخراج المعادن في باطن الأرض.

ولمّا ساح المؤرّخ اليوناني «هيردوت» في مصر وجد أنّ المصريّين يعرفون أنّ السنة الشمسية عدد أيّامها ثلاثمائة وخمسة وستّون يوم، أمّا في بلاد الآشوريّين فكانوا يعرّضون المرضىٰ للمارّة في الطرقات ليدلّهم من يكون قد أُصيب بمثل دائهم على العلاج الذي شفي هو به، وكان المريض الذي يشفىٰ من دائه يذهب إلىٰ هيكل إله الطبّ فيكتب داءه والعلاج الذي نال به الشفاء، وقد رووا أنّ أبقراط استفاد علماً جمّاً من هذه الكتابات في هيكل «كوس».

وقد روى المؤرّخ «ديودورد وسيسيل» إنّ المصريّين القدماء كانوا يعرفون المقيئات المسهلات وفوائد الحمية في إزالة الأمراض، وكانوا يعرفون من تصبير الموتىٰ ما لا يعرفه أحد الآن، وقد نقل المؤرّخ القديم «هيرودوت» أنّه كان لدى المصريّين طبيب خاصّ لكلّ نوع من أنواع الأمراض.

ليس لنا أن نكثر من أمثال هذه الأقوال عن بدايات العلوم، ويكفينا أن نقول: أنّ العلم لم ينشأ إلّا من الصنائع النافعة، وإنّ الحاجة كانت السائق الأكبر للإنسان إلى الجري وراء المعلومات المختلفة.

ثمّ إنّ الصنائع ذاتها لم تنشأ إلّا رويداً رويداً، ولم تتكمّل إلّا في أدوار متعاقبة أدرك الإنسان في خلالها نقصها، وحملته الحاجة إلىٰ تكميلها، وفي أثناء تطوّراته هذه نشأت النظريّات الأوّلية علىٰ مواد وأدوات تلك الصنائع، ومن هنا نشأت البذرة الأوّلية للعلم.

ولا شبهة في أنّ الحاجة للحساب وللملاحة وللسكنىٰ نشأت منها العلوم الحسابية والميكانيكيّة والهندسية، والحاجة لشفاء الأمراض نتجت عنها النظريّات الأُولىٰ لعلم الطبّ، والمباحث السطحيّة لعلم التشريح، ثمّ أنّ البحث عن المعادن لاستخدامها لعمل الأدوات والأسلحة أدّىٰ بلا مشاحة إلىٰ مبادئ علم الكيمياء.

في هذا العهد كانت المعارف الإنسانية كلّها مندمجة بعضها ببعض يطلق عليها اسم الفلسفة، فكان على العالم في هذا الدور أن يحيط بكلّ المعارف الإنسانية جملة، لاعتقاد العلماء وهم الفلاسفة إذ ذاك أنّ الكلّ شيء واحد، وهذا من المدركات العالية إلّا أنّ قصور عقل الفرد عن إدراك الكلّ علىٰ درجة مرضيّة أصاب العلم بالقصور المطلق، وأسر العقل الإنساني مدّة طويلة.

هذه الحال أوجبت علىٰ كبار الفلاسفة أن يقسّموا العلم تقسيماً يناسب المباحث المختلفة، فكان هذا دور جديد للعلم خرج منه من أسر الحدود الأوّل، وارتقىٰ علىٰ يد الاختصاصيّين إلىٰ منصّات عالية، وحصل كلّ فرع منه علىٰ استقلال ذاتي كان له أكبر الأثر في جملة المعارف الإنسانيّة.

فكابدت الفلسفة في هذا الدور تجزّءاً في دائرتها المعروفة، فانقسمت إلىٰ علم النفس، وعلم ماوراء الطبيعة، وهذا العلم الأخير قد حاولت الفلسفة الحسّية أن تحذفه من دائرة المباحث العلمية، ثمّ حدث حادث لم يسمع بمثله في تاريخ المعارف الإنسانية، وهو التنازع بين العلم والفلسفة علىٰ نحو التنازع الذي كان بين الفلسفة والدين، فاقتصر العلم علىٰ المباحث التجريبيّة المؤيّدة بالمشاهدات والملاحظات الدقيقة، وأخذ ينازع الفلسفة حقّها من السيطرة علىٰ العقول مبيّناً لها أخطاءها المعيبة وأساليبها الناقصة.

العصر الذي كانت فيه الفلسفة هي مجموع المعارف البشرية، كان علىٰ عهد الفيلسوفين «طاليس» و «فيثاغورس» وكانا قد نقلاها عن مصر وبابل، كان فيثاغورس هذا تلميذاً لطاليس فترك بلاد اليونان ورحل إلىٰ بلاد آشورية، ثمّ رحل منها إلىٰ مصر ولازم كهنتها سنين طويلة، وأخذ عنهم أسرار الفلسفة وأُصول العلم.

ثمّ عاد إلىٰ بلاد اليونان، فرفع عن وجه الحقائق العرفانية كثيراً من الحجب التي أسدلتها عليها الوساوس الكهنوتيّة، ودعم العلم علىٰ دعائم وإن كانت قليلة

المتانة إلاّ أنّها أخرجته من حالته الطلسمية إلى الباحات الجليّة، فاعتبر فيثاغورس وطاليس مؤسّساً للعلم الذي أثمر ونفع الإنسانية، ولا يزال ينفعها إلى اليوم، فاتّبع العلم خطّة الترقي من ذلك العهد.

ولم يزل يأخذ حظّه من النموّ والترقي إلىٰ أن جاءت «القرون الوسطىٰ» ـ وهي فترة تبلغ ألف سنة، من القرن الرابع إلى الخامس عشر ـ وقع فيها العالم الأُوربي في ظلام حالك من الجهل ونضوب المعارف، العماية طمست عندهم معالم العلم، ودرست مناره، وأصبح الناس كما كانوا علىٰ عهد الجاهلية الأُولىٰ، ذلك بالتأثير المزدوج لغلبة فلسفة أرسطو وسلطة العقائد الدينية، فتنازل العلم عن وظيفته للتعصّب الذي قام به رجال الدين هناك.

وكان من يتجرّأ على التلفّظ بكلمة علم أو نظرية جديدة يجازىٰ بالقتل حرقاً باسم مبتدع، وقد عدّ من أحرق من العلماء العاملين، والمؤلّفين المفكّرين في أُوربا لذلك العهد، فبلغ نحو ثلاثمائة ألف وخمسين ألفاً، إلىٰ أن جاء «القرن الخامس عشر» وقد كانت النفوس قد حقدت أشدّ الحقد علىٰ رجال الكنيسة الذين أسرفوا في الانتصار لأُصولهم فظهرت «البروتستانتيّة» في جميع الممالك، وشجّع أهل العلم على المجاهرة بعلومهم ونظريّاتهم، وسمّي ذلك الدور بدور النهضة الفكرية لأُوربا.

أجل، إنّ أُوربا في القرون الوسطىٰ علىٰ ما بينّا وقعت في ظلام حالك من الجهل، فوقف بها تيّار العلم، ونضبت[1] موارد الحكمة، وبقي الناس في غياهب مظلمة نحواً من ألف سنة، بينما كانت بلاد المسلمين في تلك الفترة ملجأ العلم والحكمة، وموطن المدنيّة والحضارة، فبلغت فيها المعارف والفنون أرفع ما قدّر لها في تلك القرون البعيدة.

---

(١) نضب الماء نضوباً: غار في الأرض.

اعترافات علماء الغرب:

ولسنا نسمح لأنفسنا بأن نصف ما كانت عليه بلاد المسلمين في ذلك العهد من النور والحياة الراقية بقلمنا حتىٰ لا ننسب للتحيّز، فندع القول لكبار علماء الغرب ومؤرّخيه، وهم أبعد الناس عن محاباتنا في هذه الوجهة ليكون القول أوقع في النفوس.

قال العلّامة «درابر» الأُستاذ بجامعة نيويورك الأمريكية في كتابه «المنازعة بين العلم والدين» في النسخة الفرنسية في طبعتها العاشرة التي ظهرت سنة ١٩٠٠ ما ترجمته:

وبعد وفاة محمّد ترجمت إلى اللغة العربية أهمّ المؤلّفات اليونانية، وترجمت القصائد اليونانية الشهيرة «كالألياذة» و «الأوديسية» إلى اللغة السريانية ليطّلع عليها العلماء دون العامّة لما رأوه فيها من الأقاصيص الخرافية عن آلهة اليونانيّين ممّا يخشىٰ منه علىٰ عقائدهم.

ولمّا ولّي الخلافة أبو جعفر المنصور من سنة ٧٥٣ إلىٰ ٧٧٥ نقل عاصمة الملك إلىٰ بغداد وجعلها عاصمة فخمة، فلم يأل جهداً في بذل الوسع في درس العلوم الفلكية، وتأسيس مدارس الطبّ والشريعة، ولمّا جلس حفيده هارون الرشيد علىٰ عرش الملك سنة ٨٧٦ اتّبع أثر جدّه في هذه الفتوحات العلمية، وأمر باضافة مدرسة إلىٰ كلّ مسجد في جميع أرجاء ملكه.

ولكن عصر العلم الزاهر في القارّة الآسويّة لم يشرق إلّا في خلافة المأمون الذي تولّى الخلافة من سنة ٨١٣ إلىٰ ٨٣٢، فإنّه جعل بغداد العاصمة العلميّة العظمىٰ، وجمع إليها كتباً لا تُحصىٰ، وقرب إليه العلماء، وبالغ في الحفاوة بهم.

هذا المركز الذي اكتسبه العرب(١)، وهذا الذوق السليم في العلم استمرّ لديهم

(١) سوف نلاحظ في مجمل كلمات المستشرقين عن التاريخ والحضارة الاسلامية تأكيدهم علىٰ البُعد القومي العربي، واذا لم يكن ذلك بأهداف مقصودة مسبقاً لصبغ الاسلام بالصبغة القومية فانه قد يكون ناشئاً من اعتبار اللغة العربية هي لغة الثقافة الاسلامية / المصحح.

حتّىٰ بعد أن انقسمت المملكة إلىٰ ثلاث أقسام حتّىٰ أنّ العباسيّين في آسيا، والفاطميّين في مصر، والأُمويّين في اسبانيا لم يكونوا متناظرين متغايرين علىٰ الحكومة فقط، بل كانوا كذلك علىٰ الآداب والعلوم أيضاً.

ذاق العرب في الفنون الأدبية كلّ ما من شأنه أن يحدّ القريحة ويصقل الذهن، وقد افتخروا فيما بعد بأنّهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الأُمم كلّها مجتمعة، أمّا في العلوم فقد كان تفوّقهم فيها ناشئاً من الأُسلوب الذي توخّوه في المباحث، وهو أُسلوب أخذوه عن فلاسفة اليونان الأُوربيّين، فإنّهم قد تحقّقوا أنّ الأُسلوب العقلي النظري لا يؤدّي إلى التقدّم، وإنّ الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها.

ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم الأُسلوب التجريبي، والدستور العملي الحسّي، وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات ومعدّات لعلم المنطق.

وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكيا والايدروستاتيك (علم موازنة السوائل وضغطها علىٰ جدران أوعيتها) ونظريات الضوء والأبصار، بأنّهم قد اهتدوا إلىٰ حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات، وهذا هو الذي قاد العرب لأن يكونوا أوّل الواضعين لعلم الكيمياء، والمكتشفين لجملة آلات التقطير والتصعيد والاسالة (إسالة الجوامد) والتصفية، الخ.

وهذا بعينه أيضاً هو الذي جعلهم يستعملون في أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة، والسطوح المعلمة، والأُسطرلابات (هي آلات لقياس أبعاد الكواكب)، وهو أيضاً الذي بعثهم لاستخدام الميزان في العلوم الكيمياوية، وقد كانوا علىٰ ثقة تامّة من نظريّته.

وهو أيضاً الذي أرشدهم لعمل الجداول عن الأوزان النوعية للأجسام، والأزياج الفلكية (وهي جداول تعرف منها حركات الكواكب) مثل التي كانت في بغداد وقرطبة وسمرقند، وهو أيضاً الذي أوجب لهم هذا الترقي الباهر في الهندسة

وحساب المثلثات، وهو أيضاً الذي همّ بهم لاكتشاف علم الجبر، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية، هذا هو ثمرة تفضيلهم لأُسلوب أرسطو الاستدلالي علىٰ مقالات افلاطون الاستنتاجية.

ولقد دأبوا علىٰ جمع الكتب بصفة منتظمة لأجل أن يتوصّلوا إلىٰ تكوين المكتبات التي تكلّمت عنها، وقد قيل أنّ المأمون نقل إلىٰ بغداد مائة حمل بعير من الكتب، وقد كان أحد شروط معاهدة الصلح بينه وبين الامبراطور «ميشيل الثالث» أن يعطيه إحدىٰ مكتبات القسطنطينيّة التي كانت فيها بين الذخائر الثمينة الأُخرىٰ كتاب بطليموس علىٰ الرياضيّات السماوية، فأمر المأمون بترجمته للعربية وسمّاه «المجسطي».

وقد حصلت عناية بأمر هذه المكتبات حتّىٰ أنّ مكتبة القاهرة كان بها نحو من مائة ألف كتاب، أُعتني بكتابتها وتجليدها غاية الاعتناء، وكان يوجد من بين هذه الكتب ستّة آلاف وخمسمائة مجلّد في الطبّ والعلوم الفلكية فقط، وكان من نظام هذه المكتبة أنّها تعير كتبها للطلبة الساكنين في القاهرة، وكان بتلك المكتبة كرتان أرضيّتان إحداهما من الفضّة والأُخرىٰ من البرنز، قيل أنّ الأُولىٰ صنعها بطليموس الفلكي نفسه، وإنّها استدعت ثلاثة آلاف كورون (نقود يونانيّة) من الذهب.

وقد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس فيما بعد علىٰ ستمائة ألف مجلّد، وكان جدول أسمائها وحده محتوياً في أربعة وأربعين جزءاً وغير هذا، فقد كان بالأندلس سبعون مكتبة عامة، وكثير من المكتبات الخاصّة.

وممّا يحكىٰ أنّ أحد الدكاترة العرب رفض دعوة سلطان بخارىٰ له محتجّاً بأنّ كتبه لا يمكن نقلها إلّا علىٰ أربعمائة بعير، لقد كان يوجد في كلّ مكتبة محلّ خاص للنسخ والترجمة، وقد كان لبعض الخاصّة مثل ذلك، فإنّ هونيان الطبيب النسطوري كان له محلّ من هذا القبيل ببغداد سنة ٨٠٥ ترجم فيه كتباً لأرسطو وافلاطون وهيبوكرات وغاليان، الخ.

أمّا المؤلّفات الحديثة فقد كان من عادة أساتذة هذه الجامعة أن يؤلّفوا كتباً في الفروع العلمية التي تُطلب منهم، وكان لكلّ خليفة مؤرّخ خاصّ يكتب تاريخه، ومن ينظر إلىٰ تلك الأقاصيص والحكايات التي هي ألف ليلة وليلة يعرف مقدار التطوّر الشعري الذي كان لدى العرب.

ولم يقف بحث العرب عند حد، فقد كتبوا في كلّ فن وفي كل علم، كالتاريخ والشريعة والسياسة والفلسفة وتراجم الرجال وتراجم الخيول والابل، وكل هذه المؤلّفات كانت تنشر بدون رقابة ولا حجر، وما يعلم من المراقبة على الكتب اللّاهوتية فقد حدث فيما بعد هذا التاريخ، وقد كانت الكتب الزاخرة بالمعلومات التي تصلح لأن تتّخذ مادة في العلوم كثيرة جداً في الجغرافية والاحصاءات والطبّ والتاريخ وقواميس اللغة.

وكان لديهم دائرة معارف علميّة ألّفها «محمّد أبو عبد الله»، وكان للعرب ذو دقيق في صنع الورق النظيف الناصع البياض، وفي اعطاء الحبر الألوان المختلفة، وفي زخرفة وجوه الكتب بتشبيك تلك الألوان المتلفة من الحبر والابداع في تنميقها وتذهيبها علىٰ صفات شتّىٰ.

كان الملك الإسلامي العربي مملوءاً بالمدارس والكلّيات، وكانت بلاد المغول والتتار ومراكش والأندلس حاصلة علىٰ عدد منها، وكان في طرف من أطراف هذه المملكة الواسعة ـ التي فاقت المملكة الرومانية كثيراً ـ مرصد في سمرقند لرصد الكواكب، وكان يقابله في الطرف الآخر مرصد «جيراك» في الأندلس، وقال جيبون عند ذكر الحماية والرعاية التي بذلها المسلمون للعلوم ما يأتي:

«كان أُمراء المسلمين في الأقاليم يناظرون الملوك في حماية العلم والعلماء، وكان من نتيجة تنشيطهم هذا للعلماء أن انتشر الذوق العلمي في المسافة الشاسعة التي بين سمرقند وبخارى إلىٰ فاس وقرطبة، ويروى عن وزير لأحد السلاطين انّه تبرّع بمائتي ألف دينار لتأسيس كلية علمية في بغداد، ووقف عليها خمسة عشر ألف

دينار سنويّاً.

وكان عدد الطلبة فيها ستة آلاف لا فرق بين الغني والفقير، فكان ابن السيد العظيم وابن الصانع الفقير على السواء، وكانوا يكفون التلاميذ الفقراء مؤنة دفع أجر التعليم، ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة، وكانت المؤلّفات الجديدة الأدبية تنسخ وتجمع سدّاً لحاجة أهل العلم وشهوة الأغنياء في جمع الكتب» انتهى كلام العلّامة جيبون.

ثمّ قال درابر: وكانت قيادة المدارس مودعة لذوي المدار الواسعة، فكانت بيد النسطوريّين أو اليهود، لأنّ المسلمين لم يكونوا يتحرّون عن جنسية العالم وديانته، وما كانوا يزنون قدره إلّا من أعماله، ولقد فاه الخليفة الكبير «المأمون» بفكره عن حقيقة العلماء فقال: «إنّ صفوة خليقة الله وأفضل عباده وأنفعهم، هم الذين يقفون حياتهم على تربية مواهبهم الطبيعية، وإنّ الذين يعملون العلم والحكمة للناس هم مصابيح العالم، لولاهم لارتكس الخلق في عماية الجهالة وغياهب البربرية».

ثمّ قال درابر: وقد اتبعت المدارس الطبّية عامة، مثال مدرسة الطبّ في القاهرة في اختبار الطلبة قبل اخراجهم نهائياً بحيث لا يستطيع أحدهم أن يشتغل بمهنة التطبيب إلّا بهذا الشرط.

أوّل مدرسة أُنشئت من هذا القبيل في أُوربا هي المدرسة التي أسّسها العرب في «سالون» من ايطاليا، وأوّل مرصد أُقيم فيها هو الذي أقامه المسلمون في أشبيلية بأسبانيا، ولو أردنا أن نستقصي كلّ نتائج هذه الحركة العلمية العظمىٰ لخرجنا عن حدود هذا الكتاب، فإنّهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدّاً، وأوجدوا علوماً أُخرىٰ لم تكن معروفة من قبلهم.

ثمّ تكلّم المؤلّف علىٰ براعتهم في العلوم الرياضية، وعلى التسهيلات التي أدخلوها عليها، وعلىٰ تفوّقهم في حساب المثلثات والعلوم الفلكية، وما ألّفوه فيها من الكتب وما سطروه من الجداول والتقاويم، ثمّ قال:

العلماء الفلكيّون من العرب اهتمّوا أيضاً بتحسين آلات الارصاد وتهذيبها، وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة الأشكال، والساعات المائية والسطوح المدرجة الشمسية، وهم أوّل من استعمل البندول (الرقاص) لهذا الغرض.

أمّا في عالم العلوم التجريبية فقد اكتشفوا الكيمياء، وبعضاً من محلّلاتها الشهيرة، مثل حمض الكبريتيك، وحمض النتريك والكحول (الاسبرتو)، استخدم العرب علم الكيمياء في الطبّ لأنّهم أوّل من نشر علم تحضير العلاجات والأقرباذينات، واستخراج الجواهر المعدنية.

أمّا في علم الميكانيكا فإنّهم عرفوا وحدّدوا قوانين سقوط الأجسام، وكانوا عارفين تمام المعرفة بعلم الحركة، أمّا في «الايدروستاتيك» وهو علم موازنة السوائل، وتقدير الضغط الواقع منها علىٰ أوانيها، فقد كانوا أوّل من عمل الجداول المبيّنة لأنواع الأوزان النوعية، وكتبوا أبحاثاً علىٰ الأجسام السابحة والغائصة تحت الماء.

أمّا في نظريات الضوء والإبصار فقد غيّروا الفرض اليوناني الذي مقتضاه انّ الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئي، وقالوا بعكس ذلك أيْ أنّ الإبصار يحصل بوصول الشعاع من المرئي إلىٰ العين، وكانوا يعرفون نظريات انعكاسات الأشعة وانكساراتها، وقد اكتشف الحسن الشكل المنحني الذي يأخذه الشعاع في سيره في الجو، وأثبت بذلك أنّنا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة في الأُفق، وكذلك في الغروب نراهما قليلاً بعد أن يغيبا.

إنّ نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليّاً بالتقدّم الباهر الذي نالته الصنائع في عصرهم، فقد استفادت منها فنون الزراعة في أساليب الري، والتسميد، وتربية الحيوانات، وشتّى النظامات الزراعية الحكيمة، وإدخال زراعة الأرز والسكّر والبن، وقد انتشرت المعامل والمصانع لكلّ نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن، وكانوا يذيبون المعادن، وكانوا يجرون في عملها علىٰ ما حسّنوه

وهذّبوه من صنعها وسبكها.

وكان العرب من عشّاق الموسيقى والشعر، وقد وهبوهما وقتاً كبيراً وحبوهما مكانة من أفئدتهم، وهم الذين علّموا الأُوربيّين لعب الشطرنج، وبثّوا فيهم ذوق مطالعة الأقاصيص.

وكان للعرب لذّات روحية حتّىٰ في المجلّات الزاهرة للأدبيات الفلسفية، فكان لديهم مؤلّفات عالية جداً في تقلّب الأحوال الإنسانية وعلىٰ نتائج عدم التديّن، وعلىٰ زوال النعم، وعلىٰ أصل العالم وبقائه وآخرته، وإنّا ندهش أحياناً حينما نرىٰ في مؤلّفاتهم من الآراء العلمية ما كنّا نظنّه من نتائج العلم في هذا العصر، من ذلك أنّ مذهب النشوء والتحوّل للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهباً حديثاً كان يُدرس في مذاهبهم، وقد كانوا وصلوا به إلىٰ أبعد ممّا وصلنا إليه، وذلك بتطبيقه على المواد الجامدة والمعدنية أيضاً، فإنّ النظرية التي ابتنىٰ عليها علم الكيمياء (كيمياء استخراج الذهب) هي زعمهم أنّ المعادن تكوّنت تكوّناً تدريجياً.

قال الخازني: إذا سمع الجهّال قول العلماء بأنّ الذهب تكوّن بالتدريج علىٰ طريق الترقي، يفهمون من هذا بأنّه استحال أوّلاً إلىٰ معادن أُرىٰ بمعنىٰ أنّه كان في مبدأه رصاصاً، ثمّ صار خارصيناً، ثمّ برنزاً، ثمّ صار فضّةً، ثمّ استحال إلى الذهب، ولم يعلموا أنّ الفلاسفة يقولون ما يقولونه عن الذهب كما يقولون عن الإنسان، أي أنّه ما صار إنساناً إلّا من طريق الترقي التدريجي، وهذا لا يستلزم أن يكون قد استحال إلىٰ استحالات نهائية كأن كان أوّلاً ثوراً، ثمّ صار حماراً، ثمّ صار قرداً، ثمّ انتهىٰ أخيراً بأن صار إنساناً. انتهىٰ ما نقلناه عن «درابر».

وجاء في كتاب «تمدّن العرب» للدكتور الشهير «جوستاف لوبون»، قال الدكتور المومأ إليه ما نصّه:

العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع، فقد أكسبت علومهم لصنائعهم جودة عالية جدّاً، وإنّنا وإن كنّا لم نزل نجهل أكثر

الطرائق التي سلكوها في ذلك إلّا انّنا نعرف نتائجها وآثارها، فنعرف مثلاً انّهم احتفروا المناجم، واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب، وانّهم قد برعوا جدّاً في صناعة الصباغة، وانّهم مهروا في سقي الفولاذ مهارةً بعيدة المدىٰ حتىٰ أنّ صفائح طليطلة أصدق البراهين علىٰ ذلك، ونعرف أيضاً أنّه كان لمنسوجاتهم وأسلحتهم ومدبوغاتهم من الجلود ولورقهم شهرة عامة، وانّهم في كثير من فنون الصنائع برعوا براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن. (تأمّل)

ومن بين المكتشفات المعزوّة للعرب أشياء ذات شأن كبير كالبارود مثلاً، وهذه المكتشفات لا يجمل بنا أن نسردها سرداً بل علينا أن نهبها شيئاً من التفصيل ... إلىٰ أن قال: ممّا مرّ يتجلّىٰ للقارئ أنّ ديوان المكتشفات العربية في العلوم الطبيعية لا يقل في الخطورة والقدرة عمّا كان لهم منها في العلوم الرياضية والفلكية، وما نسرده عليك هنا يبرهن لك عن تلك الخطورة، وذلك انّه كانت لهم معلومات عالية في الطبيعة النظرية، خصوصاً في نظريّات الضوء والإبصار، وقد حفظ عنهم اختراعهم لأجهزة ميكانيكية من أدقّ ما يعرف من نوعها، واكتشافهم للجواهر التي تعدّ من أعظم أركان علم الكيمياء، مثل الكحول وحمض النتريك وحمض الكبريتيك، وقد سجّلت لهم أكبر الأعمال الأساسية مثل التقطير مثلاً، وأثر عنهم استخدام الكيمياء لفنّ الصيدلة.

هذا بعض ما كتبه علماء أُوربا عن اشتغال آبائنا بالعلوم الكونية والفلسفة التي لها الفضل الأوّل علىٰ مدنيّة أُوربا.

أنواع العلوم عند المسلمين:

المطّلع علىٰ ما دوّنه المسلمون من العلوم يدهش من توسّعهم في أسمائها وموضوعاتها، فقد عدّ لهم العلّامة شمس الدين محمّد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري في رسالته «إرشاد القاصد إلىٰ أسنى المقاصد» ستّين علماً.

هذا ولم تكن العلوم الحديثة النشأة كالبكتريولوجيا، والباليونتوجيا وغيرها قد ظهرت، وهو ما يدلّ القارئ علىٰ أنّ العرب كانوا من أميل الأُمم إلى العلوم والتوسّع فيها والجري وراء غاياتها، ونحن لا يسعنا في هذا الفصل إغفال ذكر أنواع العلوم التي كان يدرسها المسلمون أيّام عظمتهم المدنيّة، فلنأت علىٰ ذكرها مستفادة من رسالة العلّامة شمس الدين محمّد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري المذكور فنقول:

القول في حصر العلم:

كلّ علم فأمّا أن يكون مقصوداً لذاته أو لا، والأوّل العلوم الحِكَميّة، والمراد بالحكمة هنا استكمال النفس الناطقة قوّتيها النظرية والعملية بحسب الطاقة الإنسانية، والأوّل يكون بحصول الاعتقادات اليقينيّة في معرفة الموجودات وأحوالها، والثاني يكون بتزكية النفس باقتنائها الفضائل، واجتنابها الرذائل، وأمّا الثاني وهو ما لا يكون مقصوداً لذاته بل آلة لغيره، فأمّا للمعاني وهو علم المنطق وأمّا لما يتوصّل به إلى المعاني من اللفظ والخط، وهو علم الأدب.

العلوم الحكمية النظرية:

والعلوم الحكمية النظرية تنقسم إلىٰ أعلىٰ وهو العلم الإلهي، وأدنىٰ وهو العلم الطبيعي، وأوسط وهو العلم الرياضي، وذلك لأنّ نظره وإن كان في أُمور مجرّدة عن المادة الجسمية وعلائقها في العقل والحسّ فهو العلم الإلهي، وإن كان في أُمور مادية في الذهن وفي الخارج فهو العلم الطبيعي، وإن كان في أُمور يصحّ تجرّدها عن الماديات في الذهن فهو العلم الرياضي، وعكس هذا القسم ممتنع لاستحالة تجرّد شيء في الخارج دون الذهن.

وتنحصر العلوم الرياضية في أربعة علوم: الهندسة، والهيئة، والعدد،

والموسيق، لأنّ نظره أمّا أن يكون فيما يمكن أن يفرض فيه أجزاء تتلاقىٰ علىٰ حدّ مشترك بينها أو لا، وكلّ واحد منهما قار الذات أو لا، والأوّل الهندسة، والثاني الهيئة، والثالث العدد، والرابع الموسيقى.

العلوم الحكمية العملية:

والعلوم الحكمية العملية تنقسم إلى السياسة والأخلاق وتدبير المنزل، وذلك لأنّ اعتباره أمّا للأُمور العامة فعلم السياسة، أو الأُمور الخاصة، فأمّا بالشخص وحده فعلم الأخلاق، أو مع خاصّته فعلم تدبير المنزل، فهذه العلوم الأصلية وما عداها فهي فرعية، فلنذكر هذه العلوم مرتبة فنقول:

١ ـ علم الأدب: وهو علم يتعرّف منه التفاهم عمّا في الضمائر بأدلّة الألفاظ والكتابة، وموضوعه اللفظ والخط، ومنفعته إظهار ما في نفس الإنسان من المعاني وايصاله إلىٰ شخص آخر من النوع الإنساني حاضراً كان أو غائباً، وهو حلية اللسان والبيان وبه يتميّز ظاهر الإنسان علىٰ سائر الحيوان.

وإنّما ابتدأت به لأنّه أوّل أدوات الكمال، ولذلك من عري عنه لم يهتمّ بغيره من الكمالات.

وتنحصر مقاصده في عشرة علوم، وهي: علم اللغة، وعلم التصريف، وعلم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، وعلم القوافي، وعلم النحو، وعلم قوانين الكتابة والقراءة، وذلك لأنّ نظره امّا في اللفظ والخطّ، والأوّل فأمّا في اللفظ المفرد أو المركّب أو ما يعمّهما، وأمّا نظره في المفرد فاعتماده أمّا علىٰ السماع وهو اللغة، أو على الحجة وهو التصريف، وأمّا نظره في المركب فأمّا مطلقاً أو مختصّه بوزنه، والأوّل إن تعلّق بخواص تركيب الكلام وأحكامه الاسنادية فعلم المعاني وإلّا فعلم البيان.

والمختصّ بالوزن فنظره أمّا في الصورة أو المادّة، والثاني علم البديع، والأوّل إن كان مجرّد الوزن فهو علم العروض وإلّا فعلم القوافي، وما يعمّ المفرد والمركّب علم

النحو، والمتعلّق بالخطّ أمّا بوضعه فعلم قوانين الكتابة، أو بالاستدلال به فعلم قوانين القراءة، وهذه العلوم لاتختصّ بالعربية بل توجد في سائر لغات الأُمم.

٢ ـ علم اللغة: هو علم نقل الألفاظ الدالّة على المعاني المفردة وضبطها وتمييز الخاصّ بذلك اللسان من الدخيل، وتفصيل ما يدلّ علىٰ فيه الذوات ممّا يدلّ علىٰ الأحداث وما يدلّ علىٰ الأشخاص، وبيان الألفاظ المتباينة والمترادفة والمشتركة والمتشابهة، ومنفعته الإحاطة بهذه المعلومات خبراً، وطلاقة العبارة، والتمكّن من التفنّن في الكلام، وايضاح المعاني بالألفاظ الفصيحة والأقوال البليغة، ويحتاج إلىٰ علمي النحو والتصريف.

٣ ـ علم التصريف: هو علم بأُصول أبنية الكلم وأحوالها، فيبحث فيه عن الحروف البسيطة كم هي، وأين مخارجها وأحوال تركيبها، وما هو مضاعف وتقديره، وما هو ثلاثي أو رباعي ونهاية ذلك، وما الأصلية منها التي لا تبدّل وما المزيدة، ومعرفة الصحيح منها والمعتلّ، وأنواع الأبنية وتغيّرها عند اللواحق، وأمثلة الألفاظ المفردة في الزنة والهيئة، وما يختصّ منها بالأفعال وما يختصّ بالأسماء.

وتمييز الجامد منها والمشتقّ، وأصناف الاشتقاق وكيف هو، وكيف يبدّل بصيغة الفعل حتّىٰ يصير أمراً ونهياً، وتعريف التثنية، والجمع، والفصل، والوصل، والوقف، والابتداء، وما يدغم من الحروف، وما يقلب، وما يخفىٰ، وما يجب إظهاره، وهو يتقدّم على المعاني والبيان تقدّماً ضرورياً، ويحتاج إليه في اللغة والقوافي، ولم يزل هذا العلم مندرجاً في علم النحو حتّىٰ ميّزه وأفرده أبو عثمان المازني.

٤ ـ علم المعاني: هو علم يُعرف منه أحوال الألفاظ المركّبة من خواص تركيبها وقيود دلالاتها ونسبها الاسنادية، وأحوال المسند والمسند إليه في الجمل، وأحوال الفصل والوصل بينهما، وصيغ الأجوبة بمقتضى الحال، ومنفعته فهم الخطاب وإنشاء الجواب بحسب المقاصد والأغراض جرياً علىٰ قوانين اللغة في التركيب، ويعين في

البلاغة معونة بليغة.

٥ ـ علم البيان: هو علم يُعرف فيه أحوال الأقاويل المركّبة المأخوذة عن الفصحاء والبلغاء من الخطب والرسائل والأشعار من جهة بلاغتها وخلوّها عن اللكن، وتأديتها المطلوب بها تأدية وافية، منفعته حصول الملكة علىٰ انشاء الأقاويل المذكورة بحسب المألوف منها، كافية في التأليف والتبيين إذا ضيف ذلك إلىٰ طبع منقاد وذهن وقاد.

٦ ـ علم البديع: هو علم يبحث فيه عن مواد الأقاويل الشعرية، وكيف تستعمل للتزيين والتحسين في سائر أحوالها، منفعته تكميل الأقاويل الشعرية نظماً كانت أو نثراً في بلوغها غايتها وتأدية المطلوب بها، وانّها كيف تفنّن بحسب الأغراض لتفيد ما يقصد بها من التحصيل الموجب لانفعال النفس من بسط وقبض، والشيء يذكر بضدّه، فتذكّر المحاسن بالذات والعيوب يحتاج إلى اللغة والنحو والتصريف والمعاني والبيان والاستكثار من مختار الشعر.

هذه العلوم هي وسائل فهم كتاب الله المنزل وكلام نبيّه المرسل، إذ كانا من الفصاحة والبلاغة في حدّ الاعجاز.

٧ ـ علم العروض: هو علم يتعرّف منه صحيح أوزان الشعر وفاسدها، وأنواع الأوزان المستعملة المسمّاة بالبحور، وكيفية تحليلها إلىٰ أجزائها المسماة بالتفاعيل، ومقادير الأبيات والمصاريع، وأصناف التغايير المسماة بالعلل والزحافات.

منفعته معرفة ما هو من الكلام شعر من حيث الصورة، وأي نوع هو، وما يجوز أن يستعمل فيه من الاختلافات، وربّما احتيج إليه في دفع المعاند في شعر ما، وقيل إنّه يستغني عنه السليم الطبع المستكثر لأنواع الشعر، وما ينتفع به البليد، ويحتاج إليه من عداهما وهم الأكثر.

٨ ـ علم القوافي: هو علم يتعرّف منه أحوال نهايات الشعر علىٰ أيّ وجه تكون، وكم هي وأيّ النهايات بحرف، وأيّها بأكثر من حرف، وكم أكثرها، وما

يجوز أن يبدّل منها بما يساويه في الزنة، منفعته نحو منفعة العروض وأشدّ لكثرة الاشتباه في القوافي وأحكامها.

٩ـ علم النحو: هو علم يتعرّف منه أحوال اللفظ المركب من جهة ما يلحقه من التغايير المسماة بالاعراب والبناء، وأنواعها من الحركات والحروف، ومواضعها ولوازمها، وكيفية دخولها في الحلّ لتبيين دلالتها على المقصود ودفع اللبس عن سامعها، فإنّ القائل: «ما أحسن زيد» بسكون الدال يحتمل أحد أمور ثلاثة: التعجّب من حُسنه، والاستفهام عن أي شيء منه أحسن، وسلب الاحسان عنه حتىٰ يعرف فيتميز.

١٠ـ علم قوانين الكتابة: هو علم يتعرّف منه صور الحروف المفردة وأوضاعها، وكيفية تركيبها خطاً، وما يكتب منها في السطور، وكيف سبيله أن يكتب وما لا يكتب، وابدال ما يبدّل منها وبماذا يبدّل ومواضعه.

١١ـ علم قوانين القراءة: هو علم يعرف منه العلامات الدالّة علىٰ ما يكتب في السطور من الحروف المميزة بين المشتركة منها في الصور المتشابهة في النقط والاشكال والعلامات الدالّة على الادغام والمدّ والقصر والوصل والفصل والمقاطع، وأحوال هذه العلامات وأحكامها.

١٢ـ علم المنطق: هو علم يتعلّم فيه ضروب الانتقالات من أُمور حاصلة في ذهن الإنسان إلىٰ أُمور مستحصلة فيه، وأحوال تلك الأُمور وأصناف ما ترتّب الانتقال فيه، وهيأته جارية على الاستقامة وأصناف ما ليس كذلك، موضوعه المعلومات التصوّرية والتصديقية من حيث توصل إلىٰ مطلوب تصوّري أو مطلوب تصديقي تأدياً صواباً، واشتقاقه من النطق الداخلي، أي القوّة العاقلة، وقد رتّبه ارسطوطاليس علىٰ تسعة أجزاء:

الأوّل: يسمّىٰ «ايساغوجي» ومعناه المدخل، ويتبيّن فيه الألفاظ والمعاني المفردة من حيث هي عامة كلية، وهي الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض

العام.

الجزء الثاني: يسمّىٰ «قاطيغورياس» أي المقولات، ويتبيّن فيه المعاني المفردة الشاملة بالعموم لجميع الموجودات، وهي الجـواهر والأعراض التسعة التي هـي: الكمّ والكيف والأين والوضع ومتىٰ والملك والاضافة والفعل والانفعال.

الجزء الثالث: يسمّىٰ «بارميناس» ومعناه العبارة، ويتبيّن فيه كـيفية تـركيب المعاني المفردة بالنسبة الايجابية أو السلبية حتّىٰ تـصير قـضيّة وخـبراً يـلزمه أن يكون صادقاً أو كاذباً.

الجزء الرابع: يسمّىٰ «أنولوطيقي» ومعناه التحليل بالعكس، ويتبيّن فيه كـيفية تركيب القضايا حتّىٰ يصير منها دليل يفيد علماً بمجهول وهو القياس.

الجزء الخامس: يسمّىٰ «باديبيطيقي» ومعناه البرهان، ويتبيّن فيه شرائط القياس اليقيني ومقدّماته.

الجزء السادس: يسمّىٰ «طوبيقي» ومعناه المواضع، ويراد بها الجدلية، ويـتبيّن منه القياس الجدلي النافع في مخاطبة من يقصر علمه عن البرهان، والمواضع التي يستخرج منها المقدّمات الجدلية ووصايا المجيب والسائل.

الجزء السابع: يسمّىٰ «ريطوريقي» ومعناه الخـطابي، ويـتبيّن مـنه القـياسات الخطابية والبلاغية المقنعة النافعة في مخاطبات الجمهور عـلىٰ سـبيل المشـاورات والمخاصمات والمشاجرات والحيل النافعة في الاستعطاف والاستمالة.

الجزء الثامن: يسمّىٰ «طوريقي» ومعناه الشعري، ويتبيّن فيه حال القـياسات الشعرية ومقدّمتها، وكيف يستعمل التشبيه المفيد للتخييل المـوجب للانـفعالات النفسانية، وقبول الترغيب والترهيب والمدح والذمّ والاغراء والتحذير والتحقير وما أشبهها.

الجزء التاسع: يسمّىٰ «سوفسطيقي» ومعناه نقض شبه المموّهين، ويـتبيّن فـيه القياسات الغالطية، وأصناف الغلط الواقعة في الحدود والأقيسة من جـهة اللـفظ

والمعنىٰ من مادة أو صورة، ووجه التحرّز منها، وربّما جعل هذا الجزء تالياً للبرهان فيكون سابقاً.

١٣ ـ العلم الإلهي: هو علم يبحث فيه عن الموجودات كلّها من حيث تعيّنها وثبوتها، وتحقّق حقائقها وما يعرف لها، ونسب ما بينها ما يعمّها وما يخصّها من حيث هي موجودات مجرّدة عن المادة وعلائقها، وموضوعه الموجودات وأحوالها من هذه الحيثيّة، ويعبّر عنه بالعلم الكلّي لاشتماله علىٰ علم الربوبيّة، وبالعلم الكلّي لعمومه وشموله بالنظر لكليّات الموجودات، وبعلم ما بعد الطبيعة لتجرّد موضوعه عن المواد ولواحقها.

أجزاؤه الأصلية خمسة:

الأوّل: النظر في الأُمور العامّة مثل الوجود، والماهية، والوحدة، والكثرة، والوجوب، والامكان، والقدم، والحدوث، والأسباب، والمسبّبات، وما يجري هذا المجرىٰ.

الثاني: النظر في مبادئ العلوم كلّها، ويتبيّن مقدّماتها ومراتبها.

الثالث: النظر في إثبات وجود الإله الحقّ، والدلالة علىٰ وحدته وتفرّده بالربوبيّة، واثبات صفاته، وبيان أنّها لا توجب كثرة في ذاته.

الرابع: النظر في اثبات الجواهر المجرّدة من العقول، والنفوس الإنسانية، والملائكة، والجنّ، والشياطين، وحقائقها وأحوالها.

الخامس: أحوال النفوس البشرية بعد مفارقتها الهياكل، وحال المعاد وكيفية ارتباط الخلق بالأمر.

١٤ ـ علم النواميس: هو علم يُعرف به أحوال النبوّة وحقيقتها ووجه الحاجة إليها، ويطلق الناموس على الوحي وعلىٰ الملك النازل به وعلى السنّة.

منفعته بيان وجوب النبوّة، وحاجة الإنسان إليه في بقائه ومنقلبه إلى الشرع، والفرق بين النبوّة الحقّة والدواعي الباطلة، ومعرفة المعجزات المختصّة بالصدّيقين

والأولياء.

وفيه كتاب لأرسطو وآخر لأفلاطون، وأكثر مسائله في خلال مسائل آراء المدينة الفاضلة لأبي نصر الفارابي الفيلسوف الإسلامي المشهور.

وينتظم في سلك هذا العلم ثمانية علوم شرعية؛ وهي علوم القراءة، ورواية الحديث، والأصول، وأُصول الفقه، والجدل، والفقه.

١٥ ـ علم القراءة: هو علم بنقل لغة القرآن وإعرابه الثابت بالسماع المتّصل.

١٦ ـ علم الحديث: هو علم بنقل أقوال النبي ﷺ وأفعاله بالسماع المتّصل وضبطها وتحريرها.

١٧ ـ علم التفسير: هو علم يشتمل علىٰ معرفة فهم كتاب الله واستخراج أحكامه وحكمه، والعلوم الموصلة إليه هي اللغة والنحو والتصريف والمعاني والبيان والبديع والقراءات، ويحتاج إلىٰ معرفة أسباب النزول، وأحكام الناسخ والمنسوخ، وإلىٰ معرفة أخبار أهل الكتاب، ويستعان فيه بعلم أُصول الفقه وعلم الجدل.

١٨ ـ علم رواية الحديث: هو علم يتعرّف منه أنواع الرواية وأحكامها، وشروط الرواة وأصناف المرويّات واستخراج معانيها، ويحتاج إلىٰ ما يحتاج إليه علم التفسير من اللغة والنحو والتصريف والمعاني والبديع والأُصول، ويحتاج إلىٰ تاريخ النقلة.

١٩ ـ علم أُصول الدين: هو علم يشتمل علىٰ بيان الآراء والمعتقدات التي صرّح بها رسول الله ﷺ واثباتها بالأدلّة العقلية، ونصرتها وتزييف كلّ ما خالفها.

أوّل من تكلّم في هذا العلم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وغيرهما من رجال المعتزلة لما وقعت لهم الشبهة في كتاب الله تعالى، كيف يكون محدثاً وهو صفة من صفات القديم، وكيف يكون قديماً وهو أمر ونهي وخبر.

والشبهة في مسألة القدر إذا كانت الأشياء الكائنة كلّها بقدرة الله ولا قدرة

للعبد في الخروج عنها فكيف العقاب، وإن كان للعبد قدرة علىٰ مخالفة المقدور فيلزم تغيّر علم الأوّل بالكائنات إلىٰ غير ذلك من المسائل، وأخذ عنهم أبو الحسن الأشعري وخالفهم في كثير من المسائل.

٢٠ ـ **علم أُصول الفقه**: هو علم يتعرّف منه تقرير مطالب الأحكام الشرعية العلمية، وطريق استنباطها ومواد حججها واستخراجها بالنظر.

٢١ ـ **علم الجدل**: هو علم يتعرّف منه تقرير الحجج الشرعية، ودفع الشبه وقوادح الأدلّة، وترتيب النكت الخلافية، وهذا متولّد من الجدل وهو أحد أجزاء المنطق، لكنّه خصّص بالمباحث الدينية.

٢٢ ـ **علم الفقه**: هو علم بأحكام التكاليف الشرعية العلمية كالعبادات والمعاملات والعادات ونحوها، والمشهور أنّ أوّل من دون كتبه وسبق إليه وجمعه ورتّبه هو «عليّ بن أبي رافع» مولىٰ رسول الله ﷺ علىٰ ما مرّ في الفصل الرابع.

٢٣ ـ **العلم الطبيعي**: هو علم يبحث فيه عن أحوال الجسم المحسوس من حيث هو متعرّض للتغيّر في الأحوال والثبات فيها، فالجسم من هذه الحيثية موضوعه، وقد جرى العرب فيه علىٰ ترتيب أرسطو علىٰ ثمانية أجزاء، هي:

الجزء الأوّل؛ ويسمّى السماع الطبيعي وسمع الكيان، يتبيّن فيه الأُمور العامّة لجميع الطبيعيّات، مثل المادة والصورة والحركة والطبيعة واللّانهاية وأشباهها.

الجزء الثاني؛ ويسمّى السماء والعالم، يتبيّن فيه أحوال الأثيريات والعناصر وطبائعها ومواضعها والحكمة في تنضيدها.

الجزء الثالث؛ ويسمّى الكون والفساد، يتبيّن فيه أحوال ما يتكوّن وما يفسد من المركّبات، والتولّد والتوالد والنشوء والبلى والاستحالات.

الجزء الرابع؛ ويسمّى الآثار العلوية، يتبيّن فيه أحوال العناصر قبل الامتزاج، وما يعرض لها من التخلخل والتكاثف، وأصناف الجزئيّات بتأثير السماويات فيها، وأحوال الكائنات في الجوّ مثل الغيوم، والأمطار، والرعد والبرق، والهالة، وقوس

قزح، والصواعق، والشهب، والعلامات، وأحوال الكائنات عنها فوق الأرض كالثلج، والبرد، والطل، والصقيع، والرياح، والبخار، والمدّ، والجزر، وأحوال الكائنات عنها تحت الأرض كالزلزلة، والرجفة، والخسف.

الجزء الخامس: المعادن، يتبيّن فيه أحوال الكائنات الجمادية من الفلزّات، والجواهر النفيسة، وغيرها من الزاجات والشبوب والأملاح والكباريت والزئبق وكيفية تولّدها.

الجزء السادس: النبات، يعرف فيه أحوال الكائنات غير الحسّاسة من النجم والشجر وكيفية اعتدالها ونشوئها وتوليدها.

الجزء السابع: الحيوان، يعرف فيه أحوال الكائنات النامية الحساسة المتحرّكة بالارادة من البحرية والهوائية والبريّة والأهلية، وما يتولّد منها وما يتوالد.

الجزء الثامن: يسمّى الحسّ والمحسوس، ويُعرف فيه القوى المحرّكة المدركة خصوصاً للإنسان، وأحوال النوم والرؤيا واليقظة.

منفعته أن يعرف منه أحوال الأجسام البسيطة والمركّبة من الأفلاك، والعناصر والمولّدات الثلاث وموادّها وصورها ومباديها الفاعلة لها، والغايات التي لأجلها وجدت، وأعراضها اللّازمة لها أو المفارقة، والاطّلاع علىٰ أسرارها كالخواصّ الفلكية، وغرائب الممتزجات العنصرية، كجذب حجر المغناطيس للحديد ونحوه، وحال الشجرة المعروفة بالعاشقة والمعروفة بالغيرانة ونحوهما، وغرائب المزاجات الثانية كلبن العذراء ونحوه.

وبالنسبة إلىٰ علم الهندسة لأنّ به مظهر معلوماته للحسّ، ويتسلّم منه بعض مباديه، وبالنسبة إلىٰ علم الهيئة أيضاً بهذا الاعتبار، وبالنسبة إلى العلم الإلهي فإنّه يمهّد الذهن لمباحثه، ولذلك قُدّم عليه في التعلّم، وبالنسبة إلى العلوم الفرعية التي تتفرّع عليه ممّا يأتي ذكره.

وأمّا العلوم التي تتفرّع عليه وتنشأ منه فهي عشرة: علم الطبّ، والبيطرة،

والبيزرة، والفراسة، وتفسير الرؤيا، وأحكام النجوم، والسحر، والطلسمات، والسيمياء، والكيمياء، والفلاحة، وذلك لأنّ نظره امّا أن يكون فيما يتفرّع علىٰ الجسم البسيط أو الجسم المركّب أو ما يعمّهما.

والأجسام البسيطة أمّا الفلكية فأحكام النجوم، وأمّا العنصرية فالطلسمات، والأجسام المركّبة أما ما يلزمه مزاج فهو علم السيمياء، أو يلزمه مزاج فأمّا بغير ذي نفس فالكيمياء، أو بذي نفس فأمّا غير مدركة فالفلاحة، وأمّا مدركة فأمّا لها مع ذلك أن تعقل أو لا.

الثاني البيطرة والبيزرة وما يجري مجراها، والذي بذي النفس العاقلة هو الإنسان، وذلك أمّا في حفظ صحّته واسترجاعها فهو الطب، أو أحواله الظاهرة الدالّة علىٰ أحواله الباطنة فالفراسة، أو أحوال نفسه حال غيبته عن حسّه وهو قصير الرؤيا، والعام البسيط المركّب السحر، فلنذكر هذه العلوم على النهج المتقدّم.

٢٤ ـ علم الطبّ: هو علم يبحث فيه عن بدن الإنسان من جهة ما يصحّ وما يمرض لالتماس حفظ الصحّة وازالة المرض.

موضوعه بدن الإنسان وما يشتمل عليه من الأركان، والأخلاط، والأعضاء، والأرواح، والقوىٰ، والأفعال، وأحواله من الصحّة، والمرض، وأسبابها من المآكل، والمشارب، والأهوية المحيطة بالأبدان، والحركات، والسكونات، والاستفراغات، والاحتقانات، والصناعات، والعادات، والأجناس، والأسنان، والواردات الغريبة، والعلامة الدالّة علىٰ أحوال من ضرر أفعاله، وحلالات بدنه، وما يبرز منه، وللتدبير بالمطاعم، والمشارب، واختيار الهواء، وتقدير الحركة، والسكون، والأدوية البسيطة والمركّبة، وأعمال اليد لغرض علم الصحّة، وعلاج الأمراض بحسب الامكان.

ينقسم إلىٰ جزءين: نظري وعملي، وقد كان قبل أن يتجذب تقتصر فرقة من أمره على التجارب وفرقة علىٰ القياس، والمحقّقون جمعوا بين التجربة والقياس.

ومباديه بعضها اتّفاقية تجربية، وبعضها إلهامات الهيّة.

٢٥ ـ علم البيطرة والبيزرة: الحال فيه بالنسبة إلىٰ هذه الحيوانات كالحال في الطبّ بالنسبة للإنسان.

وقد عني بالخيل دون غيرها من الأنعام لمنفعتها للإنسان في الطلب والهرب ومحاربة الأعداء، وجمال صورها وحسن أدواتها.

وعني علم البيزرة بالجوارح لمنفعتها وأدبها في الصيد وامساكه.

٢٦ ـ علم الفراسة: هو علم يتعرّف منه الأخلاق الإنسانية من هيئة الإنسان ومزاجه وتوابعه.

وحاصله انّه الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن، منفعته جليلة في تقدمة المعرفة بأخلاق من يضطرّ الإنسان إلىٰ مخالطته من صديق وزوج ومملوك، ليصير علىٰ بصيرة من أمره، فإنّ الإنسان ممنوّ بذلك لأنّه مدنيّ بالطبع.

ويقرب من هذا العلم قيافة الأثر، وقيافة البشر، وليست علوماً اكتسابية، وإنّما هي تخمينات حدسية، وكذلك النظر في غضون الأكف وأسارير الجبهة ونحوها.

٢٧ ـ علم التعبير: هو علم يتعرّف منه الاستدلالات من التخيّلات الحلمية علىٰ ما شاهدته النفس حال النوم من عالم الغيب، فخيلته القوّة المخيلة بمثال يدلّ عليه في عالم الشهادة.

٢٨ ـ علم أحكام النجوم: هو علم يتعرّف منه الاستدلال بالتشكيلات الفلكية على الحوادث السفلية.

٢٩ ـ علم السحر: هو علم يُستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقدر بها علىٰ أفعال غريبة بأسباب خفيّة، فطريق الهند فيه تصفية النفس وتجريدها عن الشواغل البدنية بحسب الطاقة الإنسانية، لأنّهم يرون أنّ تلك الآثار إنّما تصدر عن النفس البشرية.

وطريق النبط عمل أشياء مناسبة للغرض المطلوب، مضافة إلىٰ رقية ودخنة بعزيمة نافذة في وقت مختار له، وتلك الأشياء تارةً تكون تماثيل كالطلسمات، وتارةً تكون تصاوير ونقوشاً كالشعابيذ، وتارةً عقداً تعقد وينفث عليها، وتارةً كتباً تكتب ونحو ذلك وتُدفن في الأرض، أو تُطرح في الماء، أو تُعلّق في الهواء، أو تُحرق بالنار، وتلك الرقية يكون فيها تضرّع إلى الكوكب لاعتقادهم أنّ هذه الآثار إنّما تصدر عن الكواكب، وقد نقل كتاب سحر النبط «ابن وحشية» وهو يشتمل علىٰ تفصيل هذا الاجمال.

وطريق اليونان تسخير روحانية الأفلاك والكواكب، واستنزال قواها بالوقوف والتضرّع إليها، لاعتقادهم أنّ هذه الآثار إنّما تصدر عن روحانية الأفلاك والكواكب لا عن أجرامها، وهذا هو الفرق بينهم وبين الصابئة، وللوقوف لكلّ واحد من الكواكب وقت خاص، وترتيب وشرائط مخصوصة، ولها أيضاً مطالب تختصّ بكلّ واحد منها تشتمل علىٰ معرفتها كتب الوقوفات للكواكب.

وفي كتاب طيماوس لأرسطو وغيره من كتبه ورسائله إلى الاسكندر ذكر فصول من هذا الباب هي قواعده.

وفي كتاب غاية الحكيم لـ«مسلمة المجريطي» منها أيضاً جمل كافية، وقدماء الفلاسفة يميلون إلىٰ هذا الرأي.

وطريق العبرانيّين والقبط والعرب الاعتماد علىٰ ذكر أسماء مجهولة المعاني كأنّها أقسام وعزائم بترتيب خاصّ كأنّهم يخاطبون بها حاضراً لاعتقادهم إنّ هذه الآثار إنّما تصدر عن الجن، ويدعون في تلك الأقسام انّها تسخر ملائكة قاهرة للجنّ.

ويحصرون الطرق الموصلة إلىٰ تسخير الروحانية في ثلاثة: الاستخدام وهو أعلاها وأعمقها نفعاً، وإنّما تقع الاجابة فيه بعد مدّة، وتختلف المدّة باختلاف جهات الاستخدام، ويليه الاستنزال، والاجابة فيه علىٰ الفور إلّا أنّ الانتفاع به إنّما هو في

كشف أُمور غائبة وفي علاج المصاب ونحوه، وأدناها الاستحضار ولا يتعدّىٰ كشف الأُمور، وإذا كان يقظة بتوسّط تلبّس الروح ببدن منفعل كالصبي والمرأة، والنطق بلسانه حال غيبته عن الحسّ أطلقوا عليه اسم الاستحضار.

وإذا كان مناماً فأحضره فأطلقوا عليه اسم الجليان، ويقرب من السحر اظهار غرائب خواص الامتزاجات ونحوها فكأنّه من جملة مقدّماته عند النبط واليونان، يجعلونه علماً برأسه ويعبرون عنه بالنيرنجات، وألحق معهم بالسحر ما هو من الأفعال العجيبة مرتّب علىٰ سرعة الحركة وخفّة اليد، وهذا ليس بعلم إنّما هذا هو الشعبذة، كما ألحق بعضهم بالسحر غرائب الآلات الموضوعة علىٰ ضرورة عدم الخلاء الذي هو من فروع الهندسة.

٣٠ ـ علم الطلسمات: هو علم يتعرّف منه كيفية تمزيج القوى العالية الفعّالة بالقوى السافلة المنفعلة ليحدث عنها فعل غريب في عالم الكون والفساد، وقد نقل «ابن وحشية» كتاب طيقانا عن النبط، وهو انموذج عمل الطلسمات ومدخل إلىٰ عملها، وكتاب غاية الحكيم للمجريطي أودعه قواعد هذا العلم لكنّه ضنّ بالتعليم فيه كلّ الضنّ.

٣١ ـ علم السيمياء: قد يُطلق علىٰ غير الحقيقي من السحر وهو الأشهر، وحاصله احداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحس، ويُطلق علىٰ ايجاد تلك المثالات بصورها في الحس، وتكون صوراً في جوهر الهواء، وسبب سرعة زوالها سرعة تغيّر جوهر الهواء وكونه لا يحفظ ما يقبله زماناً طويلاً لكنّه سريع القبول لرطوبته، وأمّا كيفية احداث هذه الصورة وعللها فليس هذا موضعه.

٣٢ ـ علم الكيمياء: علم يُراد به سلب الجواهر المعدنية خواصّها، وافادتها خواصّ لم تكن لها، والاعتماد فيه علىٰ أنّ الفلزات كلّها مشتركة في النوعية، والاختلاف الظاهر بينها إنّما هو أُمور عرضية يجوز انتقالها، لأنّ الاستحالة في الطبيعة غير منكرة.

والجمهور من الحكماء يدبرون دواء يعبّرون عنه بالأكسير وعن مادّته بالحجر المكرم، يلقون الأكسير على الحجر حال انفعاله بالذوبان فيحيله كإحالة اسم الجسد الوارد عليه لكن إلى الاصلاح، ولهم بدل عن الحجر يقوم منه إكسير دون إكسير الحجر، ولهم شبيه بالحجر وشبيه بالبدل.

٣٣ـ علم الفلاحة: يتعرّف منه كيفية تدبير النبات من بدء كونه إلىٰ تمام نشوئه، وهذا التدبير إنّما هو إصلاح الأرض بالماء وبما يخلخلها ويحميها من المعفنات كالسماد ونحوه مع مراعاة الأهوية.

٣٤ـ علم الهندسة: يتعرّف منه أحوال المقادير ولواحقها وأوضاع بعضها عند بعض، ونسبها وخواص أشكالها، والطرق إلىٰ عمل ما سبيله أن يعمل بها، واستخراج ما يحتاج إلىٰ استخراجه بالبراهين اليقينيّة، وموضوعه المقادير المطلقة أعني الجسم التعليمي والسطح والخطّ ولواحقها من الزاوية والنقطة والشكل، وأجزاءه الأصلية عشرة:

الأوّل: يتبيّن فيه أحوال الخطوط المستقيمة من كيفية اتّصالها وانفصالها وأوضاعها.

الثاني: يتبيّن فيه أحوال الدوائر والقسي الواقعة في أسطحة مستوية وأوتارها والخطوط المماسة لها.

الثالث: يتبيّن فيه حال الخطوط المنحنية التي تسمّى الزائد والناقص والمكافي وخواصّها، وإضافتها إلى الخطّ المستقيم والمستدير والأشكال الحادثة عنها.

الرابع: يتبيّن فيه حال الأشكال المستقيمة الخطوط وإحاطتها بالدوائر وإحاطة الدوائر بها.

الخامس: يتبيّن فيه النسب الكلية الاجمالية والتفصيلية.

السادس: يبرهن فيه على الخواص العددية.

السابع: يتبيّن فيه حال الأشكال الحادثة عن الدوائر الواقعة على الكرة.

الثامن: يتبيّن فيه أحوال المجسمات المستوية السطوح.

التاسع: يتبيّن فيه أحوال المجسمات الكروية والأسطوانية والمخروطية.

العاشر: يتبيّن فيه حال الكرة المتحرّكة وخواصها.

وأمّا العلوم المتفرّعة عليه فهي عشرة علوم: عقود الأبنية، والمناظر، والمرايا المحرقة، ومراكز الأثقال، والمساحة، وانباط المياه، وجرّ الأثقال، والبنكامات، والآلات الحربية، والآلات الروحانية.

٣٥ ـ علم عقود الأبنية: يتعرّف منه أحوال أوضاع الأبنية، وكيفية شقّ الأنهار، وتقنية القنى، وسدّ البثوق، وتنضيد المساكن، ومنفعته عظيمة في عمارة المدن والقلاع والمنازل وفي الفلاحة.

٣٦ ـ علم المناظر: يعرف منه أحوال المبصرات في كمّيتها وكيفيتها باعتبار قربها وبُعدها عن المناظر، واختلاف أشكالها وأوضاعها وما يتوسّط بين الناظر والمبصرات وعلل ذلك، ومنفعته معرفة ما يغلط فيه البصر من أحوال المبصرات، ويُستعان به علىٰ مساحة الأجرام البعيدة والمرايا المحرقة أيضاً.

٣٧ ـ علم المرايا المحرقة: يتعرّف منه أحوال الخطوط الشعاعية المنعطفة والمنعكسة والمنكسرة ومواقعها وزواياها ومراجعها، وكيفية عمل المرايا المحرقة بانعكاس أشعّة الشمس عنها ونصبها ومحاذاتها، ومنفعته بليغة في محاصرات المدن والقلاع.

٣٨ ـ علم مركز الأثقال: يتعرّف منه كيفية استخراج مركز ثقل الجسم المحمول، والمراد بمركز الثقل حدّ في الجسم عنده يتعادل بالنسبة إلى الحامل، ومنفعته كيفية معرفة معادلة الأجسام العظيمة بما هو دونها لتوسّط المسافة كما في القرسطون.

٣٩ ـ علم المساحة: يتعرّف منه مقادير الخطوط والسطوح والأجسام بما يقدرها من الخطّ والمربع والمكعب، ومنفعته جليلة في أمر الخراج، وقسمة الأرضين، وتقدير المساكن وغيرها.

٤٠ ـ علم أنباط المياه: يتعرّف منه كيفية استخراج المياه الكامنة في الأرض واظهارها.

٤١ ـ علم البنكامات: يتبيّن منه كيفية ايجاد الآلات المقدّرة للزمان، ومنفعته معرفة أوقات العبادات، واستخراج الطوالع من الكواكب، وأجزاء فلك البروج.

٤٢ ـ علم الآلات الحربية: يتبيّن فيه كيفية ايجاد الآلات الحربية كالمجانيق وغيرها.

٤٣ ـ علم الآلات الروحانية: يتبيّن فيه كيفية ايجاد الآلات المرتبة علىٰ ضرورة عدم الخلاء ونحوها من آلاف الشراب وغيرها، ومنفعته ارتياض النفس بغرائب هذه الآلات، كقدحي العدل والجور والسرج والقطارة وأمثال ذلك.

٤٤ ـ علم الهيئة: يُعرف منه أحوال الأجرام البسيطة العلوية والسفلية وأشكالها وأوضاعها ومقاديرها وأبعاد ما بينها، وحركات الأفلاك والكواكب ومقاديرها، وموضوعه الأجسام المذكورة من حيث كمّياتها وأوضاعها وحركاتها اللّازمة لها، أجزاؤه الأصلية أربعة:

الأوّل: يبحث فيه عن جملة الأفلاك ووضع بعضها عند بعض ونسبها، وبيان أنّها متحرّكة وأنّ الأرض ساكنة.

الثاني: يتبيّن فيه حركات الأجرام السماوية وأنّها كلّها كروية، وكم هي، وكيف هي، وما منها بالارادة، وما منها بالقسر، وجهاتها والسبيل إلىٰ معرفة مكان كلّ واحد من الكواكب من أجزاء البروج في كلّ وقت، ولواحق الحركات السماوية مثل الخسوف والكسوف وغيرهما.

الثالث: يبحث فيه عن الأرض المغمور منها والمعمور والخراب، وقسمة المعمور بالأقاليم وأحوال المساكن، وما يلزمها من الحركة اليومية، وما يتعلّق بها من المطالع والمغارب ومقادير الليالي والأيام.

الرابع: يتبيّن فيه مقادير أجرام الكواكب وأبعادها ومساحة الأفلاك.

أمّا العلوم المتفرّعة عليه فهي خمسة: علم الزيجات، والتقاويم، والمواقيت، وكيفية الإرصاد، وتسطيح الكرة، والآلات الحادثة عنه، والآلات الظلية، وذلك لأنّه أمّا أن يبحث عن ايجاد ما يبرهن بالفعل أو لا، الثاني كيفية الإرصاد، والأولى أمّا حساب الأعمال أو التوصّل إلىٰ معرفتها بالآلات، والأوّل منهما ان اختصّ بالكواكب المتحيّزة فهو علم الزيجاب والتقاويم وإلّا فهو علم المواقيت والآلات أمّا شعاعية أو ظلّية.

٤٥ـ علم الزيجات: يتعلّم منه مقادير حركات الكواكب السيارة منتزعاً من الأُصول الكلّية، منفعته معرفة وضع كلّ واحد من الكواكب بالنسبة إلىٰ فلكه وإلىٰ فلك البروج وانتقالاتها ورجوعها واستقامتها وتشريقها وتغريبها وظهورها واختفائها في كلّ مكان وزمان، وما يلزم ذلك من اتّصال بعضها ببعض، وكسوف وخسوف القمر وما يجري هذا المجرىٰ.

٤٦ـ علم المواقيت: يتعرّف منه أزمنة الأيام والليالي وأحوالها وكيفية التوصّل إليها، منفعته معرفة أوقات العبادات وتوخّي جهتها والطوالع والمطالع من أجزاء البروج من الكواكب الثابتة التي منها منازل القمر ومقادير الظلال والارتفاعات وانحراف البلدان بعضها عن بعض وسموتها.

٤٧ـ علم الأرصاد: يتعرّف منه كيفية تحصّل مقادير الحركات الفلكية والتوصّل بها بالآلات الرصدية، منفعته كمال علم الهيئة وحصول عمله بالفعل.

٤٨ـ علم تسطيح الكرة: يتعرّف منه كيفية ايجاد الآلات الشعاعية، منفعته الارتياض بعلم هذه الآلات وعملها، وكيفية انتزاعها من أُمور ذهنية مطابقة للأوضاع الخارجية، والتوصّل إلىٰ استخراج المطالب الفلكية.

٤٩ـ علم الآلات الظلّية: يتعرّف منه مقادير ظلال المقاييس وأحوالها والخطوط التي ترسمها بأطرافها، منفعته معرفة ساعات النهار بهذه الآلات كالبسائط والقائمات والمائلات من الرخامات ونحوها.

٥٠ـ علم العدد: ويسمّى الأرثماطيقي، يتعرّف منه أنواع العدد وأحوالها وكيفية تولّد بعضها من بعض، موضوعه الأعداد من جهة لوازمها وخواصّها، ينقسم إلىٰ جزئين:

الأوّل منهما: يبحث فيه عن لواحق الأعداد في ذاتها كالزوجية والفردية ونحوها.

وثانيها: يبحث فيه عن لواحق الأعداد عند اضافة بعضها إلىٰ بعض كالتساوي والتفاضل والتناسب والتباين ونحوها، واستخراج ما سبيله أن يستخرج منها، وهذا العلم كالعلم الإلهي في استغنائه عن غيره، وتتفرّع عنه ستّة علوم وهي: الحساب المفتوح، وحساب التخت والميل، وحساب الجبر والمقابلة، وحساب الخطأين، وحساب الدور والوصايا، وحساب الدرهم والدينار.

٥١ـ علم الحساب المفتوح: يتعرّف منه كيفية مزاولة الأعداد لاستخراج المعلومات الحسابية من الجمع والتفريق والتناسب، منفعته ضبط المعلومات، وحفظ الأموال، وقضاء الديون، وقسمة التركات وغيرها، يحتاج إليه في العلوم الفلكية وفي المساحة والطب، وقيل يحتاج إليه في سائر العلوم.

٥٢ـ علم حساب التخت والميل: يتبيّن فيه كيفية مزاولة الأعمال الحسابية برقوم تدلّ علىٰ الآحاد وتغني عمّا بعدها من المراتب، وهذه الرقوم التسعة منسوبة إلى الهند، منفعته تسهيل الأعمال الحسابية وسرعتها خصوصاً الفلكية.

٥٣ـ علم الجبر والمقابلة: يتبيّن منه كيفية استخراج المجهولات العددية بمعادلتها لمعلومات تخصّها، ومعنى الجبر أنّه إذا كانت مقادير يُراد معادلتها لمقادير أُخر وفيها استثناء، رفع ذلك الاستثناء بزيادة الناقص ويُزاد في الجهة الأُخرىٰ نظيره ليعتدلا في المعادلة.

ومعنى المقابلة اسقاط الزائد من أحد الجملتين بعد الجبر ليعتدلا في المعادلة، وسير المقدّرات الموزونة بالوزن يقع فيه جبر ومقابلة، منفعته استعلام المجهولات

العددية إذا كانت معلومة العوارض ورياضة الذهن.

٥٤ ـ علم حساب الخطأين: يتبيّن منه استخراج المجهولات العددية إذا أمكن صيرورتها في أربعة أعداد متناسبة، منفعته نحو منفعة علم الجبر والمقابلة إلّا أنّه أقلّ عموماً منه وأسهل عملاً، وإنّما سمّي حساب الخطأين لأنّه يفرض فيه المطلوب شيئاً ويختبر فإن وافق فذاك وإلّا حفظ الخطأ الثاني، واستخرج المطلوب منهما ومن المقدارين المفروضين وعلىٰ هذا إذا اتّفق وقوع المسألة أوّلاً في أربعة أعداد متناسبة أمكن استخراجها بخطأ واحد.

٥٥ ـ علم الدور والوصايا: يتبيّن منه مقدار ما يوصى به إذا تعلّق بدور في بادئ النظر، ولابدّ من ايضاح هذا المعنىٰ لصورة من صور مثالها: رجل وهب لمعتقه في مرض موته مائة درهم لا مال له غيرها، فقبضها ومات قبل سيّده وخلّف بنتاً والسيد المذكور، ثمّ مات السيد، فظاهر المسألة إنّ الهبة تمضي من المائة في ثلثها فإذا مات المعتق رجع إلىٰ السيّد ثلثي الجائزة بالهبة، بناءاً علىٰ أنّ منجزات المريض من الثلث لا من أصل المال.

٥٦ ـ علم حساب الدرهم والدينار: يتبيّن منه استخراج المجهولات العددية التي تزيد عدّتها على المعادلات الجبرية، وهذه الزيادة لقّبوا تلك المجهولات بالدرهم والدينار والفلس ونحوها، منفعته نظير منفعة الجبر والمقابلة فيما تكثر فيه أجناس المعادلة.

٥٧ ـ علم الموسيق: يتبيّن به النغم والايقاع وأحوالها، وكيفية تأليف اللحون وايجاد الآلات الموسيقية، موضوعه الصوت من جهة تأثيره في النفس باعتبار نظامه في طبقته وزمانه، أجزاءه خمسة:

الأوّل: في المبادئ وكيفية استنباطها.

الثاني: في النغمات وأحوالها، والنغم صوت لابث زماناً ما، يجري من الألحان مجرى الحروف من الألفاظ، وبسائطها سبع عشرة نغمة، وأدوارها أربعة وثمانون

دوراً، اختار الفرس منها اثني عشر دوراً لقّبوها البردوات وأسماؤها: عشاق، نوى، بوسليك، راست عراق، اصفهان، كجك، نزرك، زنكولة، رهاوي، حسيني، حجازي، وأتبعوها بستّة أدوار لقبّوها الأوزات وهي: شهناز، مائة، سلك، نوروز، كردانية، كوشت، والعرب كانت تنسب النغمات إلىٰ شدود العود لشهرته.

الثالث: في الايقاع وهو اعتبار زمان الصوت، وأدوار الايقاعات عند العرب ستّة: الثقيل الأوّل والثاني، والماحوزي، والرمل وخفيفه، والهزج، والفرس تقتصر علىٰ أربعة أضرب، ضرب يعلم بضرب الأصل وهو قريب من الثقيل الأوّل، وضرب يعلم بالمخمس وهو قريب من الماحوزي، وضرب يعلم بالتركي، وضرب يعلم بالفاختي وهو من الفروع.

الرابع: في كيفية تأليف الألحان وبيان الملائم منها.

الخامس: في ايجاد الآلات الموسيقية وتقديرها، وإنّما وضعوا هذه الآلات لضرورة ومنفعة، أمّا الضرورة فاشتغال الأصوات الإنسانية بالتنفّس ونحوه فيتخلّلها فترات تخلّ باللذة، وأمّا المنفعة فما وجد في بعض الآلات ممّا ليس في الطبيعة فلم يحسن الاخلال به.

٥٨ ـ علم السياسة: يتعرّف به أنواع الرياسات والسياسات والاجتماعات المدنيّة وأحوالها، موضوعه المراتب المدنية وأحكامها، منفعته معرفة الاجتماعات المدنية الفاضلة والردية، ووجه استبقاء كلّ واحد منها وعلّة زواله، ووجه انتقاله وما ينبغي أن يكون على الملك في نفسه وحال أعوانه، وأمر الرعية وعمارة المدن.

٥٩ ـ علم الأخلاق: يعلم منه أنواع الفضائل وكيفية اكتسابها، وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها، موضوعه الملكات النفسية من الأُمور العادية، منفعته أن يكون الإنسان كاملاً في أفعاله بحسب امكانه لتكون أولاه سعيدة وأُخراه حميدة.

٦٠ ـ علم تدبير المنزل: يعلم منه الأحوال المشتركة بين الإنسان وزوجه وولده وخدمه ووجه الصواب فيها، موضوعه أحوال الأهل والخدم، منفعته انتظام

أحوال الإنسان في منزله ليتمكّن من كسب السعادة العاجلة والآجلة.

هذه جملة أسماء العلوم التي كان يعرفها العرب، وألّفوا فيها المؤلّفات الكثيرة في أبان حضارتهم، وقد حرصنا أن نأتي عليها بأسمائها عندهم وحدودها لديهم، مع استخدام عباراتهم التي كانت خاصّة بهم، ليدرك القارئ مبلغ ما كان عليه العرب من البسطة العلمية في الوقت الذي كانت فيه أوربا تخبط في دياجير جهالة القرون الوسطىٰ.

ولولا أن أصاب المسلمين جمود يشبه الموت البحت، لترقّت هذه العلوم مع الزمن وبلغت أعظم شأوها اليوم، وهي عربية خالصة من العجمة، ولم تكن في حاجة لنقل العلم الأوربي إلىٰ لغتنا، وكانت آتتنا من ثمراتها في الصنائع والفنون بما يباري ما لدىٰ أوربا منهم أو يزيد عليها، ولكنّ الله قضىٰ غير هذا ولا رادّ لقضائه، ولا شكّ أنّ في ذلك حكمة لا ندركها.

* * *

علوم القرآن:

قوله ﷺ: «وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيم كِتَابِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ ٱلْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَا أُجَاوِزُ ذٰلِكَ بِكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ».

وأن ابتدئك بتعليم كتاب الله عزّ وجلّ وتأويله، إذ أهمّ ما يلزم للمرء تعلُّم القرآن والتدبّر في معانيه، والوقوف علىٰ حقائقه ومتشابهاته، وناسخه ومنسوخه، لأنّ فيه قوانين الإسلام ومعرفة الحلال والحرام، وفيه ما تحتاجه الأُمّة في شؤون عقائدهم ومعادهم ومعاشهم، بل حتّىٰ ما يعود لصحّتهم.

قال ﷺ: «إنّ في القرآن علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم»[1].

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٨ عنه البحار ٩٢: ٢٣ ح ٢٤.

يريد الإمام بكلمته هذه أن يقول: إنّ في القرآن علم ما يأتي وعلم ما كان، وهو المعبّر عنه بقوله: «حديث الماضي» وفيه علم الحاضر، المعبّر عنه بقوله: «دواء دائكم» وهو علم الطبّ نفسياً وبدنياً ووقائياً، وبقوله: «نظم ما بينكم» وهو سائر العلوم سياسية وثقافية واجتماعية، لأنّ في كلّ من هذه تنظيماً لحياتنا الجماعية.

ولولا ما نعتصم به من نظام في حياتنا لكنّا من غير نوع الإنسان المسيطر علىٰ ما دونه من الحيوان والنبات والجماد، والفضل في ذلك للعقل القائم في تهذيب الإنسان علىٰ تعاليم القرآن ووصاياه، فليتدبّر قارئي ما أفضي إليه به من التدليل علىٰ هذا الحكم.

الطب في القرآن:

قال صاحب لي وهو يتحدّث إليّ: يتناقل أهل القرية التي هي مولدي وكانت فيها نشأتي الأُولىٰ، يتناقل أهلها بحيث أسمع، أنّ فتاة تلقّب «بالكبشة» وقد رأيتها، أصابها داء الصرع وهي صبيّة، فبعثت أُمّها أخاها إلىٰ عالِم معروف بفقه الدين والتقوىٰ، بعثت أخاها ومعه هدية للشيخ ليكتب «تميمة» لابنتها المريضة، وكان أخوها لا يثق بهذا النوع من العلاج، فتصرّف بالهدية وعاد إليهما آخر النهار، وقد احتال عليهما بقرطاس لقطه من الشارع وذهب به إلى الخرّاز فخاط عليه جلدة يوهمها أنها تميمة، ويشاء الله أن تحمل هذه المريضة التميمة الوهمية ويكون في حملها شفاء لها من داء الصرع، ثمّ يشاء الله أن يموت الفقيه بعد عام وأن يتحدّث الناس بفضله، ومن هؤلاء الناس أم طالب وهي أُمّ المريضة، ظلّت تشيد بفضل الفقيه الراحل علىٰ ابنتها بتميمة شفتها من داء الصرع، ويضيق ابنها ذرعاً بحديثها فيصارحها بأنّ التميمة من صنعه هو، وأنّ العلاج بالتمائم من خرافات العقل البائد، فتعمّد الأُمّ وابنتها إلىٰ فكّ التميمة فيتّضح صدق ابنها وتزول الثقة من نفس الأُم والبنت، فإذا بها تعود إلى الصرع ثمّ ترافقها إلىٰ القبر.

سقت هذا المثل لأدلّ علىٰ أنّ العلم الحديث لم يخطئ بارجاع كثير من الأمراض إلىٰ علم النفس، وقد أصبح العلاج النفسي لمرضىٰ الأعصاب من البديهيّات، وأنّ تأثير العقيدة، والارادة، والاطمئنان، والثقة على الجسم في رأس الأُصول التي يقوم عليها الطبّ النفسي.

وأنّ العقيدة لها المكان الأوّل في التأثير على النفس، سواء كانت صحيحة أو فاسدة، ففي الحديث الشريف: «لو اعتقد أحدكم بالحجر لأفاده» وليس ذلك بضارّ في الدين لأنّ الإسلام لم يأت بخلق جديد في العقائد، وإنّما جاء ليصحّحها بالتوجيه إلى الحقّ، كما أنّه لم يأت بما يمحق العواطف العاصفة بالعقل وإنّما جاء ليهذّبها ويصرفها عن الشرّ إلى الخير.

من هنا نصل إلىٰ أنّ العقيدة في الصنم أحالها الدين إلىٰ عقيدة بالله، من أجل كرامة الإنسان، وأنّ هذا العقل القائم فيه لا يليق به عبادة الحجر أو الشجر، وإنّما هو نور يشقّ للإنسان حجب الغيب عن ربّه الخليق بالدينونة والعبودية.

ففي القرآن دواء دائنا حقّاً لأنّ عقيدة المسلم وقفت عنده، واستحالت فيه من وراء عقله المؤمن به والشاخص إليه، فكان من الطبيعي، وهو الصلة بينه وبين ربّه خالق الموت والحياة، أن يتّخذ منه وسيلة لشفائه من كلّ داء، وقد آمن بذلك الطبّ الحديث وعمل به، إذ وجدنا كلّ طبيب نفسي يأتي مريضه من طريق المؤثرات عليه عقلياً ونفسياً، ثمّ يعالجه بالطريقة القائمة علىٰ علم النفس.

والعقيدة هذه لا تؤثر علىٰ صاحبها فقط، وإنّما تتعدّاه إلىٰ غيره.

قال صاحبي وهو مستمرّ في حديثه: حدّثتني أُمّي وصادق علىٰ حديثها أبي: أنّ أخاً لي ولدته قبلي وكان اسمه اسمي، وكانت قد يئست بعده من الحمل، وأنّ أبي أيقظها ليلة القدر، وكان قد قرأ تلك الليلة حديث: «من مات له ثلاثة أولاد وصبر فله الجنّة»، وكان قد فقد ولدين.

فأيقظ والدتي ثمّ قرأ عليها الحديث وقال لها: إنّ أعمالنا لا توجب لنا دخول

الجنّة وقد فقدنا ولدينا وصبرنا، فلندع الله إن كان هذا الحديث صحيحاً أن يأخذ أحد هذين الولدين، فاطمة ومحمّد، ليكون لنا بفقد الثلاثة سبيل إلىٰ رحمته، قالت أُمّي: فصمت إذ ذاك ثمّ بكيت وقلت له: سأنزل علىٰ حكم الله وسأصبر علىٰ بلائه، فافعل ما تشاء فأنا راضية بما أنت به راضٍ والله علىٰ ما أقول شهيد.

قال أبي إذ سألته صدق الحديث عن أُمّي: لقد صدقت وإنّي لأذكر أنّي صلّيت ركعتين قربىٰ لله بعد أن هجعت أُمّك ثمّ سألت الله: إن صحّ هذا الحديث فأنا متنازل عن أحبّ الولدين وهو أخوك محمّد، فلم نصبح تلك الليلة حتّىٰ كانت الحمىٰ تغور في جسد أخيك ولم تمهله أكثر من ليلتين، وإذا به يفارقنا، فلم نجزع ولعلّنا كنّا على العكس فرحين بأن أجاب الله ما سألناه وصدّق ما رواه الرواة عن رسوله، ثمّ لم تلبث أُمّك بضعة أشهر حتّىٰ حملت بك بعد يأسها وكنت أنت خليفة أخيك.

فما قول علماء النفس في هذا الحدث؟ وما هو تعليلهم هذا التأثير من أبٍ يصلّي، وطفل هاجع لا يعلم ما وراء هجوعه؟ وهل يستجيب الله لرجل يضحّي بولده في سبيل الزلفىٰ إلىٰ ربّه؟ هل عند علماء النفس تعليل لهذا غير أنّ للروح عالماً تتجاوب جزئيّاته في حدود كلّية العام؟

أنّ للمادة عالماً تتجاوب جزئيّاته كذلك في حدود كلّية القائم فيه، فكما أنّ الجرم المادي يتأثّر من وراء اصطدامه بجرم مادي آخر كذلك نرىٰ انّ الجرم الروحي يتأثر من وراء اصطدامه بجرم روحي آخر، وكما أنّ تأثّر الجرم المادي بمثله يختلف قوّة وضعفاً باختلاف الجرمين في الكبر والصغر، كذلك نجد تأثّر الجرم الروحي مختلفاً قوّة وضعفاً باختلاف الجرمين في الكبر والصغر، ومن هنا كان تأثير الارادة القوية على الارادة الضعيفة قوياً فيما نسمّيه بالعين.

فقوّة الارادة في الأب أو الشجاع أو المظلوم وهو يتصوّر الموت ويستنزله لوليده أو مبارزه أو ظالمه أثّرت علىٰ ضعف الارادة في الولد أو المبارز الجبان أو الظالم الغافل، وهو يتصوّر الحياة ابقاء علىٰ نفسه، فجزئي الروح في الفاعل له

السلطان على جزئي الروح في المنفعل، لذلك نرى القوي والغني والعالم يسيطرون على الضعيف والفقير والجاهل، ونرى هؤلاء يستجيبون لأولئك في الخضوع لارادتهم والاستسلام لسلطانهم.

هذا من ناحية الطبّ النفساني، وأمّا الطبّ البدني فالقرآن يضمّ الكثير من عقاقيره، ففي قوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا﴾ [الأعراف: ٣١] أبلغ عقار لدرء الأمراض الباطنية إذ كانت المعدة وما زالت بيت الداء، وأكثر أدوائها ينشأ عن التخم الناشئة عن اسراف الأكل في طعامه أو شرابه.

وفي تحريم القرآن لكثير من المآكل الخبيثة كالميتة والدم ولحم الخنزير، وتحريم الخمور والخبائث من الشراب الآسن والطعام المتعفّن، وتحريم القذارة وسؤر الكلاب والخنازير، والزام الإنسان بالطهارة في عبادته أو سلوكه مع غيره، أقول: إنّ في تحريم ذلك وايجاب هذا كثيراً ممّا يفتقر إليه الطبّ البدني الحديث في الوقاية والعلاج.

ذكرنا في بعض فصول هذه الوصية شيئاً من اثبات أنّ علم ما بين أيدينا طبّاً وسياسةً وقضاءً واجتماعاً مشار إليه في القرآن، إمّا تصريحاً أو تلميحاً. فالتصريح فيما مرّ، وأمّا التلميح ففي أمثال قوله عزّ من قائل: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾ [النمل: ٨] فقوله: يخلق ما لا تعلمون، تلميح يكاد ينافس التصريح في الدلالة على آلات البخار والكهرباء وما ينشأ عنها من مسخّرات الإنسان للركوب وغيره.

وهذا كلّه يشير إلى علوم حديثة لم تكن ثمّ كانت، ولعلّ التصريح بها في ذلك العهد يعزّز الأرجاف والشكّ في صدور ضعيفيّ الايمان بالأخبار عن أشياء يستعصي تصوّرها على عقولهم الضعيفة، ولذلك كان في صميم الرسالة الإسلامية الدعوة إلى العلم، والحضّ عليه من المهد إلى اللحد لتقوى عقولنا على تصوّر العلوم والفنون، ولتحقّق في مستقبلنا ما كان قبلاً من قبيل الخيال.

علم الماضي والمستقبل في القرآن:

أمّا إنّ في القرآن علم ما كان المعبّر عنه في قول الإمام بالحديث عن الماضي، فلا يحتاج إلىٰ تدليل ويكفي لاثباته ما يشير إليه الكتاب الكريم في قصّة ذي القرنين، وقصّة أهل الكهف، وقصص الأنبياء والرسل، فإنّها مشحونة بعلوم الأوّلين. منها ما حقّقه العلم الحديث كبساط الريح، وعرش ملكة سبأ في قصّة سليمان، إذ كان العلم يدرك السرعة التي أوتيها سليمان في الطيران بواسطة الأثير «اللّاسلك».

وأمّا سرعة النقل بحيث يقطع الجرم في مسيره آلاف الأميال ببضع ثوان كما فعل مستشار سليمان في نقل العرش، أمّا هذه السرعة فقد أشار إلىٰ امكانها العلم الحديث في استخدام الذرّة للسلام العالمي، إذ صرّح أحد علماء الذرّة بأنّ في الامكان القريب سير الأجرام بسرعة الضوء.

وهكذا نجد أنّ حديث الماضي في القرآن لا يشعرنا بعلم ما كان فحسب، وإنّما يتعدّاه بالاشارة إلىٰ علم ما يكون، كما في قصّة أهل الكهف من اغفالهم قروناً ثمّ بعثهم أحياء، وفي قصّة موسى وعيسى من فلق البحر وانفجار الصخر عن الماء، واحياء الموتىٰ وابراء الأكمه والأبرص.

وفي قصّة سليمان من تكليم الطير، وغير ذلك ممّا يصل إلىٰ تعليله وتأويله أهل الحضارة بالعلوم والفنون، وفي ذلك ما يثبت صحّة قول الإمام عليه السلام بأنّ في القرآن علم ما يأتي به مستقبل الإنسان.

فخذ مثلاً علىٰ ذلك علوم الأثير اليوم وفي طليعة فنّ التوجيه للطائرات والصواريخ، في سنة ١٩٤٦ جرى في أمريكا توجيه أوّل طائرة قذفاً باللّاسلكي من نيويورك إلىٰ لندن كما يقذفون الأصوات مركّزة علىٰ موجات الأثير بالأجهزة اللّاقطة في المذياع، وذهب في الطائرة بعض المهندسين لا لقيادتها بل للإشراف علىٰ ضبط سيرها فقط، وبعد أن أصابت الهدف بهم وهبطت الهوينا علىٰ أرض لندن،

قدّموا تقريراً لمصادر التوجيه في أنّ القذف أضبط من القيادة، وأنّها لم تحدّ في سيرها عن الخطّة التي رسمت لها قط.

في قوله تعالى: ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل • ترميهم بحجارة من سجّيل • فجعلهم كعصفٍ مأكول﴾ [الفيل: ٥-٣] اشارة تكاد تكون صريحة في الدلالة علىٰ توجيه القذائف بواسطة الأثير، فكلمة أبابيل مجهولة المعنىٰ، ولعلّها من قبيل ميكائيل واسرافيل وعزرائيل، وغيرها من الأسماء المضافة إلىٰ اسمه تعالى، فيكون المقصود بالطير جماعة من الملائكة تقذف هؤلاء المعتدين على الكعبة والذين هم أصحاب الفيل، تقذفهم بحجارة.

قيل في التفسير: إنّ كلّ حجر مكتوب عليه اسم الذي قذف به، فكان يصيبه فيصعقه ولا يتجاوز إلىٰ غيره، ويفسّرون السجيل بالطين المطبوخ، وأرىٰ أنّه من التسجيل وهو الرقم ليتناسب مع التفسير، بأنّ اسم كلّ مقذوف من العتاة وجد محفوراً على الحجر الذي قُذف به، فيكون المعنىٰ، والله أعلم: إنّ ملائكة أبابيل رمت هؤلاء الطغاة بقذائف سجّلت عليها أسماء المقذوفين بها لئلّا تتعدّاهم.

كما نرى اليوم في الحروب القائمة ـ بآلاتها المدمّرة ـ على العلوم الحديثة من أنّها تحكم بتوجيه القذائف لأعدائها بحيث لا تتعدّاهم إلىٰ غيرهم من المسالمين، وكما نرىٰ من ضبط ارسال الصوت في الأثير علىٰ موجات خاصّة لا تتعدّاها إلىٰ غيرها من الأمواج الأثيرية، والقرآن الكريم حافل بكثير ممّا يفتح للأجيال المقبلة طرق الكشف والابداع في مجال الحياة لمن أراد أن يستقصي ويتعمّق في البحث عن ذلك.

فضائل القرآن وخصائصه:

ومن هنا نرى الإمام عليّاً عليه السلام يصف القرآن بأدقّ وصف، يستعرض محاسنه وما اشتمل عليه من درر الفوائد، بقوله في خطبة له:

«ثمّ أنزل عليه ـ أي على النبي ﷺ ـ الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً

لا يخبو توقّده، وبحراً لا يُدرك قعره، ومنهاجاً لا يضلّ نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوءه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وبنياناً لا تهدم أركانه، وشفاءً لا تخشىٰ أسقامه، وعزّاً لا تهزم أنصاره، وحقّاً لا تخذل أعوانه، فهو معدن الايمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي[1] الإسلام وبنيانه، وأودية الحقّ وغيطانه»[2].

في كلامه هذا ـ صلوات الله عليه ـ: نبذ من فضائل القرآن وخصائصه ومناقبه وفوائده.

أوّلها: كونه نوراً لا تطفأ مصابيحه: أمّا انّه نور فلاهتداء الناس به من ظلمات الجهل، كما يهتدىٰ بالنور المحسوس في ظلمة الليل، وأمّا مصابيحه: فاستعارة لطريق الاهتداء، وفنون العلوم التي تضمّنها القرآن.

ثانيها: كونه سراجاً لا يخبو توقّده: أمّا انّه سراج لا يخبو توقّده فالمراد به عدم انقطاع اهتداء الناس به واستضاءتهم بنوره.

والثالثة: أنّه بحر لا يُدرك قعره: وذلك أنّ استعارة البحر له باعتبار اشتماله على النكات البديعة، والأسرار الخفيّة، ودقائق العلوم التي لا يدركها بُعد الهمم، ولا ينالها غوص الفطن، كما لا يدرك الغائص قعر البحر العميق.

الرابعة: كونه منهاجاً لا يضلّ نهجه: أي طريقاً واضحاً مستقيماً إلى الحقّ لا يضلّ سالكه.

والخامسة: كونه شعاعاً لا يظلم ضوءه: أي حقّاً لا يدانيه شكّ وريب، ولا تشوبه ظلمة الباطل فتغطّيه وتستره، كما قال تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ [البقرة : ٢] وقال: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت : ٤٢].

---

(١) الأثافي ـ جمع أثفية: الحجر يوضع عليه القدر، أي عليه قام الإسلام.

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٩٨، عنه البحار ٩٢: ٢١ ح ٢١.

والسادسة: كونه فرقاناً لا يخمد برهانه: أي فارقاً بين الحقّ والباطل، وفاصلاً بينهما لا تنتفي براهينه الجلية، وبيّناته التي بها يفرق بينهما، كما قال تعالى: ﴿إنّه لقول فصل • وما هو بالهزل﴾ [الطارق : ١٤-١٣] وقال: ﴿هدى للناس وبيّنات من الهدىٰ والفرقان﴾ [البقرة : ١٨٥].

والسابعة: كونه بنياناً لا تهدم أركانه: شبّهه ﷺ ببنيان مرصوص وثيق الأركان فاستعار له لفظه، والجامع انتظام الأجزاء واتّصال بعضها ببعض، وقوله ﷺ: لا تهدم أركانه: ترشيح للاستعارة، وفيه اشارة إلىٰ أنّ البنيان الوثيق كما أنّه مأمون من التهافت والهدم والانفراج، فكذلك الكتاب العزيز محفوظ من طرق النقص والخلل والاندراس.

والثامنة: كونه شفاءً لا تخشىٰ أسقامه: يعني أنّه شفاء للأبدان والأرواح، أمّا الأبدان فبالتجربة والعيان، مضافاً إلى الأحاديث الواردة في خواصّ أكثر الآيات المفيدة للاستشفاء والتعويذ بها، مثل ما في «الكافي» في اسناده عن السكوني، عن الإمام الصادق، عن آبائه ﷺ قال: «شكى رجل وجعاً إلى النبي ﷺ في صدره فقال: استشف بالقرآن فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وشفاء لما في الصدور﴾» [يونس : ٥٧][1].

وعن سلمة بن محرز، قال: سمعت أبا جعفر يقول: «من لم يبرءه الحمد لم يبرءه شيء»[2].

وعن إبراهيم بن مهزم، عن رجل سمع أبا الحسن يقول: «من قرأ آية الكرسي عند منامه لم يخف الفالج إن شاء الله، ومن قرأها في دبر كلّ فريضة لم يضرّه ذو حمة»[3].

---

(١) الكافي ٢ : ٦٠٠ ح٧.
(٢) الكافي ٢ : ٦٢٦ ح٢٢.
(٣) الكافي ٢ : ٦٢١ ح٨.

وفي «مجمع البيان» من كتاب العياشي باسناده إنّ النبي ﷺ قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: ألا أعلمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه؟ قال: فقال له جابر: بلىٰ بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله علّمنيها، قال: فعلّمه الحمد أُمّ الكتاب.

ثمّ قال: يا جابر ألا أُخبرك عنها؟ قال: بلىٰ بأبي أنت وأُمّي فأخبرني، فقال: هي شفاء من كلّ داء إلّا السام ـ والسام الموت ـ[1]، إلىٰ غير هذه الأحاديث المستفاضة ممّا لا حاجة إلىٰ ايرادها هنا بعد أن استوفيناها في المجلّد الثاني من كتابنا «الجواهر الروحية».

وأمّا الأرواح فلأنّه بما تضمنه من فنون العلوم شفاء لأمراض الجهل، فقد ظهر بذلك كونه شفاءً للأبدان من الأوجاع والأسقام، وشفاءً للقلوب من كلّ شك وريب وشبهة، ويصدّق ذلك قوله تعالى في سورة فصّلت آية ٤٤: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ وفي سورة بني اسرائيل آية ٨٢: ﴿وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلّا خساراً﴾.

قال الطبرسي: وجه الشفاء فيه من وجوه: منها ما فيه من البيان الذي يزيل عمى الجهل وحيرة الشك، ومنها ما فيه من النظم والتأليف والفصاحة البالغة حدّ الاعجاز الذي يدلّ علىٰ صدق النبي ﷺ، فهو من هذه الجهة شفاء من الجهل والشك والعمىٰ في الدين، ويكون شفاءً للقلوب.

ومنها أنّه يتبرّك به وبقراءته، ويستعان به علىٰ دفع العلل والأسقام، ويدفع الله به كثيراً من المكاره والمضارّ علىٰ ما تقتضيه الحكمة، ومنها ما فيه من أدلّة التوحيد والعدل وبيان الشرائع، فهو شفاء للناس في دنياهم وآخرتهم، ورحمةً للمؤمنين ـ أي نعمةً لهم ـ وإنّما خصّهم بذلك لأنّهم المنتفعون به، فقد يحصل من ذلك أنّه شفاء لا يخاف أن يعقب سقماً، لأنّ الكمالات النفسانية الحاصلة من قراءته وتفكّره وتدبّر آياته تصير ملكات راسخة لا تتبدّل بأضدادها ولا تتغيّر.

---

(١) مجمع البيان ١ : ٣٦؛ عن تفسير العياشي ١ : ٢٠ ح ٩.

والتاسعة: كونه عزّاً لا تهزم أنصاره: أي لا تغلب ولا تقهر.

والعاشر: كونه حقّاً لا تخذل أعوانه: والمراد بأعوانه وأنصاره هم المسلمون العارفون بحقّه، العاملون بأحكامه.

والحادية عشر: ما أشار إليه ﷺ بقوله: «فهو معدن الايمان وبحبوحته» أمّا أنّه معدن الايمان فلأنّ المعدن عبارةً عن منبت الجوهر من ذهب وفضة ونحوهما، ولما كان الايمان بالله وبرسوله جوهراً نفيساً لا جوهر أنفس منه ولا أعلىٰ عند ذوي العقول، ولما كان يستفاد من القرآن ويستخرج منه جعله معدناً له، وأمّا أنّه بحبوحته ووسطه فلأنّ الايمان بجميع أجزائه وشرائطه ومراسمه يدور عليه، فهو بمنزلة القطب والمركز لدائرة الايمان كما هو ظاهر.

والثانية عشر: أنّه ينابيع العلم وبحوره، أمّا انّه ينابيع العلم: فلأنّ العلوم بجميع أقسامها منه تفيض كالعيون الجارية منها المياه، وأمّا انّه بحوره فلاحتوائه بفنون العلم كاحتواء البحر بمعظم الماء.

والثالثة عشر: أنّه رياض العدل وغدرانه، أمّا كونه رياض العدل فلأنّ الرياض عبارةً عن مجامع النبات والزهر والرياحين التي تبتهج النفوس بخضرتها، وتستلذّ الطباع بحسنها وبهجتها، كما قال تعالى: ﴿حدائق ذات بهجة﴾ [النمل : ٦٠] فشبّه التكاليف الشرعية المجعولة عن وجه العدل والحكمة بالزهر والنبات الحسن لايجابها لذّة الأبد، وجعل الكتاب العزيز رياضاً لها لاجتماعها فيه واستنباطها منه.

وأمّا كونه غدران العدل، فلأنّ الغدير عبارةً عن مجمع الماء، فشبّه الأحكام العدلية بالماء لما فيها من حياة الأرواح كما أنّ بالماء حياة الأبدان، وجعله غديراً لجامعيّته لها.

والرابعة عشر: أنّه أثافي الإسلام وبنيانه: والأثافي هي عبارةً عن الأحجار التي عليها القدر، فجعله ﷺ أثافياً للإسلام لاستقراره وثباته عليه، مثل استقرار القدر علىٰ الأثافي، وبهذا الاعتبار أيضاً جعل الصلاة والزكاة والولاية أثافيه.

لمحة عن أهمية الصلاة:

جاء في «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أثافي الإسلام ثلاثة: الصلاة والزكاة والولاية، ولا تصحّ واحدة منهنّ إلّا بصاحبتها»(١).

قال المحدّث المجلسي رحمه الله: وإنّما اقتصر عليها لأنّها أهمّ الأجزاء، وأهمّ من الكلّ الصلاة لأنّها كعمود الفسطاط لهن، فإذا سقط العمود سقط الفسطاط، كما أنّها أحبّ الأعمال إلى الله تعالى.

قال عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّه ليس عمل أحبّ إلى الله تعالى من الصلاة، فلا يشغلكم عن أوقاتها شيء من أُمور الدنيا، فإنّ الله عزّ وجلّ ذمّ أقواماً فقال: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ [الماعون: ٥] ـ يعني أنّهم غافلون ـ استهانوا بأوقاتها»(٢).

وجاء في «الكافي» باسناده عن معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن أفضل ما يتقرّب به العباد إلىٰ ربّهم، فقال عليه السلام: «ما أعلم شيئاً بعد المعرفة من هذه الصلاة، ألا ترىٰ أنّ العبد الصالح عيسى بن مريم قال: ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حيّاً﴾» [مريم: ٣١](٣).

فما أحسن الرجل يسبغ الوضوء ثمّ يتنحّىٰ حيث لا يراه أنيس، فيشرف عليه وهو راكع وساجد، إنّ العبد إذا سجد فأطال السجود نادىٰ إبليس: يا ويلي أطاعوا وعصيت، وسجدوا وأبيت(٤).

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا قام العبد المؤمن في صلاته نظر الله إليه وأقبل عليه حتّىٰ ينصرف، وأظلّته الرحمة من فوق رأسه إلىٰ أُفق السماء، والملائكة تحفّه إلىٰ أُفق السماء، ووكّل الله تعالى به ملكاً قائماً علىٰ رأسه،

---

(١) الكافي ٢: ١٨ ح ٤.
(٢) البحار ٨٣: ١٣ ح ٢١.
(٣) الكافي ٣: ٢٦٤ ح ١.
(٤) الكافي ٣: ٢٦٤ ح ٢.

يقول: أيّها المصلّي لو تعلم من ينظر إليك ومن تُناجي ما التفتّ، ولا زلت من موضعك أبداً»[١].

فعلى المصلّي إذاً التدبّر فيما يقول، فإنّ التدبّر من أجزاء الصلاة، فإذا قلت: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، فانو به التبرّك باسمه تعالى، واعلم أنّ الأُمور كلّها لله، وهي من فيض رحمته في الدنيا والآخرة، فإذا كانت النعم الدنيوية والأُخروية مبدأها وجوده، وكانت كلّها من بحر كرمه كما قال تعالى: ﴿وما بكم من نعمةٍ فمن الله﴾ [النحل : ٥٣] فاعلم أنّه لا يليق الحمد والثناء إلّا لله سبحانه فقل: ﴿الحمد لله﴾.

فلو كنت ترىٰ نعمة من عند غيره، وتتوقّع منه الوصول إليها، وتقرع بيد السؤال بابه بزعم استقلاله فيها لا باعتقاد أنّه واسطة في ايصالها إلىٰ يديك، فشكره بذلك واجب، ففي تسميتك وتحميدك نقصان، وأنت بقدر التفاتك إلىٰ غيره كاذب فيها.

ثمّ اعلم أنّك تأسّيت في تحميدك لله بالملائكة المقرّبين حيث قالوا قبل أن يخلق الله سبحانه هذه النشأة: ﴿نحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك﴾ [البقرة : ٣٠] وبعباد الله الصالحين حيث أنّهم بعدما يحكم بينهم وبين المجرمين الحاقة فيحمدون ربّهم كما أخبر عنهم تعالى بقوله: ﴿وقضي بينهم بالحقّ وقيل الحمد لله ربّ العالمين﴾ [الزمر : ٧٥].

وبعدما يعبرون الصراط، ويجدون رائحة الجنان يقولون: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ [الاعراف : ٤٣]، وبعدما يتمكّنوا في قصور الجنّات، ويجلسون في وسط الروضات يقولون: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ [الزمر : ٧٤]، وبعدما ينالون غاية الآمال ويجزون الحسنىٰ بالأعمال، يكون آخر كلامهم حمداً لربّ المتعال ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين﴾ [يونس : ١٠].

---

(١) الكافي ٣: ٢٦٥ ح ٥.

فإذا كان بداية العالم ونهايته مبنية على الحمد، فاجتهد أن يكون بداية عملك ونهايته كذلك، وكما أنّ حمد هؤلاء المقرّبين ناشئ عن وجه الاخلاص واليقين، فليكن ثناؤك كذلك.

وإذا قلت: ﴿ربّ العالمين﴾ فاعلم أنّه سبحانه مربّيك ومربّي سائر الخلائق أجمعين، حيث أنّه خلقهم، وقدّر أرزاقهم، ودبّر أُمورهم، وقام بمصالحهم، وبدأ بالآمال قبل السؤال، وأنه ربّاهم بعظيم ما لديه من دون جلب ربح ومنفعة منهم إليه، كما هو شأن سائر المربّين والمحسنين ليربحوا علىٰ ذلك، وينتفعوا به إمّا ثواباً أو ثناءً.

فإذا كان تربيته كذلك فليثبت منك مزيد الشوق والرجاء إلىٰ فضله ونواله، وليشتدّ ذلك الرجاء إذا قلت: ﴿الرحمن الرحيم﴾ فإنّ رحمته سبحانه لا نهاية لها، فبرحمته الرحمانية خلق الدنيا وما فيها، وبرحمته الرحيمية يجزي المؤمنين الجزاء الأوفىٰ.

وهو الذي ينادي عبده، ويشرّفه بألطف الخطاب، حين ما واروه في التراب، وودّعه الأحباب، يقول: «عبدي بقيت فريداً وحيداً، فأنا أرحمك اليوم رحمةً يتعجّب الخلائق منها».

نماذج من رحمة الله ولطفه:

وفي ودّي أن أستعرض بعض النكت العجيبة الدالّة علىٰ عظمة رحمة الجليل جلّ وعلا ولطفه بخلقه، فمن ذلك ما حكي عن إبراهيم بن أدهم أنّه قال: كنت ضيفاً لبعض القوم فقدّم المائدة، فنزل غراب وسلب رغيفاً، فأتبعته تعجّباً فنزل في بعض التلال، وإذا برجل مقيّد مشدود اليدين، فألقى الغراب ذلك الرغيف علىٰ وجهه.

وروي عن ذي النون أنّه قال: كنت في البيت إذ وقعت ولولة في قلبي، وصرت بحيث ما ملكتُ نفسي، فخرجت من البيت وانتهيت إلىٰ شطّ النيل فرأيت عقرباً

يعدو فتبعته، فوصل إلىٰ طرف النيل فرأيت ضفدعاً واقفاً علىٰ طرف الوادي، فوثب العقرب علىٰ ظهر الضفدع، وأخذ الضفدع يسبح ويذهب، فركبت السفينة وتبعته.

فوصل إلى الطرف الآخر من النيل، ونزل العقرب من ظهره وأخذ يعدو فتبعته، فرأيت شاباً نائماً تحت شجرة ورأيت أفعى يقصده، فلمّا قربت الأفعىٰ من ذلك الشاب، وصل العقرب إلىٰ الأفعى فلذعه والأفعىٰ أيضاً لذع العقرب، فماتا معاً وسلم الشابّ منهما.

ويحكىٰ أيضاً أنّ ولد الغراب إذا خرج من قشر البيضة يخرج من غير ريش، فيكون كأنّه قطعة لحم أحمر، والغراب يفرّ منه ولا يقوم بتربيته، ثمّ أنّ البعوض يجتمع عليه لأنّه يشبه قطعة لحم ميّت، فإذا وصلت البعوض إليه التقمها واغتذىٰ بها، ولا يزال علىٰ هذه الحال إلىٰ أن يقوى وينبت ريشه ويخفى لحمه تحت الريش، عند ذلك تعود إليه أُمّه، فظهر بهذه الأمثلة أنّ فضل الله عام، وإحسانه شامل، ورحمته واسعة.

وروي أنّ فتىً قرب وفاته اعتقل لسانه عن شهادة أن لا إله إلّا الله، فأتوا النبي ﷺ وأخبروه به، فقام ﷺ ودخل عليه، وجعل يعرض عليه الشهادة وهو يتحرّك ويضطرب ولا يعمل لسانه، فقال ﷺ: أما كان يصلّي، أما كان يصوم، أما كان يزكّي؟ فقالوا: بلىٰ، فقال: هل عقّ والديه؟ فقالوا: بلىٰ، فقال: هاتوا بأُمّه.

فجاءت وهي عجوز عوراء، فقال ﷺ: هلّا عفوت عنه، فقالت: لا أعفو لأنّه لطمني ففقأ عيني، فقال ﷺ: هاتوا بالحطب والنار، فقالت: وما تصنع بالنار؟ فقال: أحرقه بين يديك جزاءً لما عمل بك، فقالت: عفوت، أللنار حملته تسعة أشهر، أللنار أرضعته سنتين، فأين رحمة الأُم، فعند ذلك انطلق لسانه وذكر الشهادة.

والنكتة أنّها كانت رحيمة وما كانت رحمانة، فلأجل ذلك القدر القليل من الرحمة ما جوّزت الاحراق بالنار، فالرحمن الرحيم الذي لم يتضرّر بجنايات عبيده

مع عنايته بعباده، كيف يستجيز أن يحرق المؤمن الذي واظب علىٰ شهادة أن لا إله إلّا الله سبعين سنة بالنار.

ثمّ مع هذا كلّه فينبغي لك أن لا تغتر بذلك، ولا تأمن من غضبه، واستشعر من قلبك الخوف وإذا قلت: ﴿مالك يوم الدين﴾ فأحضر في نظرك أنواع غضبه وقهره علىٰ أهل الجرائم والجرائر، واعلم أنّه لا مانع ذلك اليوم من سخطه، ولا رادّ من عقابه لانحصار الملك يومئذٍ فيه، فليس لأحد لجاء يؤويه.

ثمّ إذا حصلت بين الخوف والرجاء فجرّد الاخلاص والتوحيد وقل: ﴿إيّاك نعبد﴾ أي لا يستحقّ العبادة إلّا أنت، ولا معبود سواك، ولا نعبد إلّا إيّاك، وتفطن لسرّ التكلّم بصيغة الجمع نكتة تشريك الغير معك في الاذعان بالعبودية، وهو أنّ من باع أمتعة كثيرة صفقة بعضها صحيح وبعضها معيب، فاللّازم على المشتري أمّا قبول الجميع أو ردّ الجميع، ولا يجوز له ردّ المعيب وأخذ الصحيح.

فهاهنا قد مزجت عبادتك بعبادة غيرك من الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقرّبين، وعباد الله الصالحين، وعرضت الجميع صفقة واحدة علىٰ حضرة ربّ العالمين، فهو سبحانه أجلّ من أن يرد المعيب ويقبل الصحيح، فإنّه نهىٰ عباده عن ذلك، فلا يليق بكرمه ذلك، كما لا يليق به ردّ الجميع لكون بعضها مقبولاً ألبتة، فلم يبق إلّا قبول الجميع وهو المطلوب.

ثمّ القيام منك بوظائف العبودية الايمان بلوازم الطاعة، لما لم يكن ممكناً إلّا باعانة منه سبحانه، وافاضة منه الحول والقوّة إليك، فتضرّع إليه تعالى، واطلب منه التوفيق والاعانة وقل: ﴿وإيّاك نستعين﴾.

وتحقّق أنّه ما تيسّرت طاعتك إلّا باعانته، وانّه لولا توفيقه لكنت من المطرودين، ثمّ إذا ظهرت حاجتك إليه سبحانه في افاضة الاعانة والتوفيق فغيّر مسؤولك، واطلب منه تعالى أهمّ حاجاتك، وليس ذلك إلّا طلب القرب من جواره، ولا يكون ذلك إلّا بالحركة والسكون نحوه، وسلوك السبيل المؤدّي إليه،

ولا يمكن ذلك إلّا بهدايته سبحانه فقل: ﴿إهدنا الصّراط المستقيم﴾.

قال الإمام الصادق ﷺ: «يعني ارشدنا للزوم الطريق المؤدّي إلىٰ محبّتك، والمبلغ إلىٰ جنّتك، والمانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب، أو نأخذ بآرائنا فنهلك»(١).

وزد ذلك شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً بقولك: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ وهم الذين أنعم عليهم بالتوفيق والطاعة لا بالمال والصحة، وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿ومن يطع الله والرسول فأُولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً﴾ [النساء: ٦٩].

وأمّا الذين أنعم عليهم بالمال والصحّة فربّما يكونون كفّاراً وفسّاقاً من الذين لعنهم الله وغضب عليهم، أو من الضالّين المكذّبين، ولذلك حسن التأكيد بأن تقول: ﴿غير المغضوب عليهم﴾ وهم اليهود، قال تعالى فيهم: ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ [المائدة: ٦٠]، ﴿ولا الضالين﴾ وهم النصارىٰ، قال تعالى فيهم: ﴿قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً﴾ [المائدة: ٧٧].

فإذا فرغت من قراءة فاتحة الكتاب فاقرأ ما شئت من السور، وعليك بالترتيل، وتعمّد الاعراب في الألفاظ التي تقرؤها، والتفكّر في معناها، وسؤال الرحمة والتعوّذ من النقمة عند قراءة آيتيهما، ثمّ إذا فرغت في القراءة فجدّد ذكر كبرياء الله سبحانه وعظمته، وارفع يديك حيال وجهك وقل: «الله أكبر» استجارةً بعفوه من عقابه، واتّباعاً لسنّة رسوله.

ثمّ تستأنف له ذلّاً وتواضعاً بركوعك، وتجهد في ترقيق قلبك، وفي استشعار الخشوع له، وعليك بالطمأنينة والوقار، وتسوية ظهرك، ومدّ عنقك، فقد قال الإمام أبو جعفر الباقر ﷺ: «من أتمّ ركوعه لم تدخله وحشة في القبر»(٢)، وكان رسول الله ﷺ إذا ركع لو صبّ علىٰ ظهره الماء لاستقرّ لاستواء ظهره، وأمّا مدّ

(١) البحار ٢٧: ٢٢٢ ح ١١.
(٢) البحار ٦: ٢٤٤ ح ٧١.

العنق فمعناه إنّي آمنت بك ولو ضربت عنقي.

ثمّ تشهد علىٰ ربّك بالعظمة وأنّه أعظم من كلّ عظيم فتقول: «سبحان ربّي العظيم وبحمده» وتكرّر ذلك على القلب وتؤكده بالتكرير، ثمّ تنتصب قائماً وتقول: «سمع الله لمن حمده» ثمّ تهوي إلى السجود وهو أعلىٰ درجات التذلّل والاستكانة، حيث ألصقت أعزّ جوارحك وأشرفها وهو الجبهة، بأذلّ الأشياء وأخسّها وهو التراب، وقد نهيت عن السجود على الذهب والفضّة، والمطاعم، والملابس لأنّها متاع الحياة الدنيا، والسجدة زاد الآخرة.

ثمّ اجلس للتشهّد وهو تجديد العهد لله سبحانه بالشهادة بالرسالة، وتصلّي على النبي ﷺ وآله، الذين هم وسائط الفيوضات النازلة، وبهم قبول الصلاة وسائر العبادات، وبالتقرّب إليهم يرجىٰ نزول الرحمة من الحقّ، لكونهم واسطة بينك وبين الرسول، كما أنّه واسطة بين الله وبين الخلق.

ثمّ أحضر شخصه ﷺ في قلبك وقل: «السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته» لتدخل في زمرة المؤمنين المجيبين لنداء: ﴿يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً﴾ [الاحزاب: ٥٦] ثمّ سلّم علىٰ نفسك وعلىٰ عباد الله الصالحين، وتأمل إنّ الله تعالى يردّ عليك سلاماً بعدد عباده الصالحين.

وأمّا قولك: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» فتقصد بخطابك فيه الأنبياء والملائكة والأئمة عليهم السلام والمؤمنين من الجنّ والإنس، وتحضرهم ببالك وتخاطبهم به، وإلّا كان التسليم بصيغة الخطاب لغواً وإن كان مخرجاً عن العهدة.

وحقيقة هذا التسليم هو الرجوع عن الحقّ إلى الخلق، فإنّ الصلاة معراج للمؤمن كما ذكرنا، ومناجاة للعبد مع معبوده، وحضور له من الله تعالى، وغيبة له عمّا سواه، فإذا انصرف منه لزم عليه تجديد العهد بالخلق، والتسليم عليهم كما يسلّم الغائب إذا قدم من سفره.

الفصل السابع
في التقوىٰ ومكارم الأخلاق

«وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَىٰ ٱللهِ وَٱلْاقْتِصَارُ عَلَىٰ مَا فَرَضَهُ ٱللهُ عَلَيْكَ، وَٱلْأَخْذُ بِمَا مَضَىٰ عَلَيْهِ ٱلْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذٰلِكَ إِلَىٰ ٱلْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَٱلْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذٰلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذٰلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ، وَعُلَقِ ٱلْخُصُومَاتِ.

وَٱبْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذٰلِكَ بِالْاسْتِعَانَةِ بِإِلٰهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَىٰ ضَلالَةٍ. فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذٰلِكَ هَمّاً وَاحِداً، فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ أنت لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ ٱلْعَشْوَاءَ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ. وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَٱلْإِمْسَاكُ عَنْ ذٰلِكَ أَمْثَلُ».

إنّ مسألة التقوىٰ لم يفتأ الإمام ﷺ يكرّر الوصية بها في مواعظه وارشاداته البالغة، كما يتّضح ذلك بجلاء إذا ما عطفت نظرة واحدة علىٰ هذه الوصيّة الخاصّة، وبقية وصاياه ومواعظه عامّة، ومنشأ ذلك: هو أنّ التقوىٰ أساس التعبّد، وأصل الطاعة، وبها تؤتى الأعمال علىٰ أتمّ الوجوه.

حقيقة التقوىٰ:

ولقد كان من أهمّ ما دعا إليه الرسول الأعظم ﷺ بعد الدعوة إلى الايمان والإسلام، الدعوة إلى التقوىٰ، وجعلها معيار التفاضل بين المسلمين حيث يقول: «لا فضل لعربي علىٰ أعجمي، ولا لأبيض علىٰ أسود إلّا بالتقوىٰ»(١).

وبقوله تعالى: ﴿يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣].

وقضى ﷺ كلّ أيّامه وهو ينصح المؤمنين بالتزامها والتزوّد منها، حيث يقول تعالى: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوىٰ واتّقون يا أُولي الألباب﴾ [البقرة: ١٩٧] وجاء القرآن مليئاً بالآيات التي تدعو إلى التقوىٰ ـ كما سبق لنا أن أشرنا إلىٰ ذلك في الفصل الثالث من هذا الكتاب ـ وأخبرنا جلّ وعلا بأنّ جميع الأعمال التعبدية، لم تشرع إلّا لتكون وسائل إلى التقوىٰ، بما تطبعه في النفس من ملكة مراقبة الله، فتكون تقيّة نقيّة، راضية مرضية.

ولقد حسبها بعض الناس درجة في الصلاح لا تنال إلّا بالتفرّغ للصلوات، وملازمة المساجد، والانقطاع عن الدنيا، والزهد في كلّ ما فيها من الملذّات، ممّا يكون دليله في الظاهر الفقر والمسكنة، ولبس مرقوع الثياب، وهذا خطأ لا يقرّه الإسلام.

فالتقوىٰ في اللغة مشتقّة من اتّقىٰ فلاناً ـ أي حذره وخافه ـ فتقوى الله مخافته وتجنّب كلّ ما يغضبه.

---

(١) الاختصاص: ٣٤١؛ عنه البحار ٢٢: ٣٤٨ ح ٦٤.

وهي أثر الايمان الكامل بالله، وهي النتيجة الطبيعية التي يصل إليها كلّ من يؤمن بأنّ الله الذي خلقه وأبدع كلّ دقيقة في جسمه، قادر علىٰ تعذيبه عاجلاً وآجلاً، إذا هو أقدم علىٰ معصيةٍ واستهان بأوامره، كما يوقن بعلمه تعالى بكلّ شيء يصدر منه، بحيث يتصوّره مشرفاً عليه حتّىٰ في خلواته، ورقيباً علىٰ جميع حركاته وسكناته، فيحمله هذا علىٰ محاسبة نفسه عن كلّ فعل، فلا يقدم علىٰ أيّ أمر فيه معصية خالقه أو الاضرار بمصالح عباده، وفي هذا يقول تعالى: ﴿إنّ الذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون﴾ [الأعراف : ٢٠١].

وذكر الله العصاة بعلمه بكلّ ما يصدر منهم، وتوعّدهم بعذابه حيث قال: ﴿أرأيت إن كذّب وتولّىٰ • ألم يعلم بأنّ الله يرىٰ • كلّا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية﴾ [العلق ١٥-١٣] وأمرنا أن نتخيّر في أعمالنا ما ينفعنا في الحياة الأُخرىٰ حيث قال: ﴿يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد واتّقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون﴾ [الحشر : ١٨].

خمس خصال للمتقين:

وأخبرنا الله جلّ وعلا بأنّه قد أعدّ الجنّة في الآخرة للمتّقين، ووصفهم لنا بأعمالهم المنبعثة عن قوّة ايمانهم بقلوبهم اشارةً إلىٰ أنّ التقوىٰ هي في الأُمور التي يشعر بها الإنسان في نفسه، فيدرك مبلغ قربه من ربّه ورضائه عنه، ولو لم تدلّ علىٰ ذلك مظاهره حيث يقول تعالى:

﴿وسارعوا إلىٰ مغفرةٍ من ربّكم وجنّة عرضها السماوات والأرض أُعدّت للمتّقين • الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين • والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلّا الله ولم يصرّوا علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون • أُولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربّهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر

العاملين﴾ [آل عمران : ١٣٦-١٣٣].

وهذا صريح في أنّ التقوىٰ ليست بكثرة الصلاة والصوم وأمثالها من العبادات الظاهرة، وليست هي بالتقشّف والدروشة، وإنّما تتحقّق بخمس خصال هي:

١ ـ حبّ البذل والانفاق في سبيل الله في حالتي الشدّة والرخاء.

٢ ـ ضبط النفس ومقاومة هواها فيما يغضب مولاها.

٣ ـ الأخذ بمبدأ التسامح والعفو عند القدرة.

٤ ـ الاحسان إلى المسيء.

٥ ـ مراقبة الله ودوام الخوف منه والرجوع إليه من أثر المعاصي بالندم والاستغفار، وعدم الاصرار علىٰ فعل السيّئات.

فالتقوىٰ بهذا الاعتبار من الأُمور التي لا تمنع المسلم في هذه الحياة من العمل للدنيا، ولا تحرمه من التمتّع بملذّاتها المشروعة، ولا تفرض عليه مقاومة نفسه إلىٰ حدّ المستحيل في ترك المعاصي كلياً، بل إنّما تدعوه فقط إلىٰ مراقبة الله، والخوف منه والثقة به، والرجوع إليه بطلب الرحمة والغفران في كلّ وقت لا سيّما عند كلّ زلّة ومعصية.

ومن أجل هذا حرص الرسول الأعظم ﷺ علىٰ أن يمكّن في قلوب أتباعه خوف الله، واليقين بقدرته علىٰ كلّ شيء إلىٰ حدّ ينتفي معه الخوف من غيره تعالى، وحصر الأمل فيه جلّ وعلا دون سواه، باعتباره هو وحده صاحب السلطان المطلق، القادر علىٰ وقاية كلّ من يريد وقايته في كلّ مكروه، وينصر من يريد نصرته بما يملك من قوىٰ خفيّة وظاهرة، حيث يقول تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون﴾ [آل عمران : ١٠٢].

حق التقوىٰ:

وحقّ التقوىٰ هو خوف الله أكثر من كلّ ما سواه، وإلىٰ هذا أشار تعالى بقوله:

﴿أتخشونهم فالله أحقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ [التوبة : ١٣].

وحقّ التقوىٰ هو أن يؤثر الإنسان عفو الله وغفرانه وثوابه في الآخرة عن كلّ شيء في الدنيا، بل يتحمّل في سبيل ذلك مرّ العذاب، ولذلك امتدح الله في كتابه أُولئك السحرة الذين آمنوا بالله ايماناً لم يبالوا معه بالجهر بعقيدتهم، برغم ما توعّدهم به فرعون من أنواع العذاب حيث:

﴿قالوا آمنّا بربّ هارون وموسىٰ • قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنّه لكبيركم الذي علّمكم السحر فلأُقطّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأُصلبنّكم في جذوع النخل ولتعلمنّ أيّنا أشدّ عذاباً وأبقىٰ • قالوا لن نؤثرك علىٰ ما جاءنا من البيّنات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنّما تقضي هذه الحياة الدنيا • إنّا آمنّا بربّنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقىٰ﴾ [طه : ٧٣-٧٠].

نتيجة التقوىٰ:

ولقد أشار سبحانه وتعالى إلىٰ ما يترتّب على التقوىٰ وخوف الله، من مجانبة النفس للشهوات الممقوتة، وما يكون جزاءها علىٰ ذلك في الآخرة بقوله: ﴿وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوىٰ • فإنّ الجنّة هي المأوىٰ﴾ [النازعات : ٤١-٤٠]، ﴿وأزلفت الجنّة للمتّقين غير بعيد • هذا ما توعدون لكلّ أوّاب حفيظ • من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلبٍ منيب﴾ [ق : ٣٣-٣١].

ولم يكتف الله بهذا في حضّ الناس على التقوىٰ، بل إنّه تعالى أكّد لهم تخليص المتّقين في الدنيا من كلّ ما يعترضهم من مشاكل الحياة، وتيسير سبيل الرزق لهم من حيث لا يأملون، حيث يقول: ﴿ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً • ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكّل على الله فهو حسبه إنّ الله بالغ أمره قد جعل الله لكلّ شيء قدراً﴾ [الطلاق : ٤-٣].

ذلك لأنّ التقوىٰ معناه دوام ذكر الله تعالى ومراقبته في جميع الأحوال وحصر

الأمل فيه، وهذا من شأنه أن يمنع الإنسان عن الاقدام علىٰ كلّ أمر يعصى الله به، ويضرّ أحداً من خلقه، ويجعله كريم الخلق والعادات، وكلّ هذا ممّا يسبّب عون الله للإنسان وتأييده في كلّ موقف، وشموله برحمته وحسن رعايته، وخوف الله يقتضي تجريد قلب الإنسان من خوف غيره، ويعود هذا عليه بأعظم الفوائد في هذه الحياة.

قرأت في كتاب: «الرعاية لحقوق الله»: وقد روي في الحديث: إنّ المنادي ينادي يوم القيامة: ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ [الزخرف: ٦٨] فترفع الخلائق رؤوسهم يقولون: نحن عباد الله عزّ وجلّ، ثمّ ينادي الثانية: ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ [الزخرف : ٦٩] فينكس الكفار رؤوسهم، ويبقى الموحّدون رافعي رؤوسهم.

ثمّ ينادي الثالثة: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾ [يونس : ٦٣] فينكس أهل الكبائر رؤوسهم، ويبقىٰ أهل التقوىٰ رافعي رؤوسهم، قد أزال الكريم عنهم الخوف والحزن كما وعدهم، لأنّه أكرم الأكرمين لا يخف وليّه ولا يسلمه عند الهلكة.

* * *

إتخاذ القدوة الصالحة:

قوله عليه السلام: «وَٱلْأَخْذُ بِمَا مَضَىٰ عَلَيْهِ ٱلْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ».

أمره عليه السلام أن يتّخذ من سلفه الصالح قدوة يتّجه معهم حيثما اتّجهوا، وفيه واضح دلالة علىٰ أنّ من سبقوه من سلفه الطاهر، هم بمنزلة يصحّ أن يأمر مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ولده البارّ أن يقفو أثرهم، ويتّبع خطاهم في السلوك المرضيّ عند الله تعالى ولا غرو في ذلك.

فإنّ أعظم من يقتدىٰ به من أُولئك الأطهار، هو رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين نفسه، وسروات المجد من هاشم، كشيخ الأُمّة وأبي الأئمّة وسيّد الأبطح أبي طالب ـ سلام الله عليه ـ.

لمحة عن شخصية أبي طالب:

فقد كان ممّن انتهت إليه الوصاية من لدن الأنبياء.

فنهض بعبء الدعوة الإلهية في ظعنه وإقامته، ولم يأل جهداً في مكافحة الزندقة وعبّاد الأوثان، فهو رجل الايمان، ومثال التقوىٰ، لم يعبد صنماً قط، ولا جنح إلىٰ باطل يوماً ما، بالرغم ممّا تحذلق به بعض المؤرّخين المغرضين، أهل الأحن والأضغان، الذين لم يجدوا طريقاً لعليّ ﷺ أن يصموه بكلّ نقيصة، فاتّجهوا نحو أبيه فوصموه بما هو منه براء من عبادة الأوثان، وسوق القرابين إليها إذا أصابه جدب.

والمأثور من شعره الرائع ونثره البليغ، ما فيه دلالة واضحة علىٰ تأصّل التوحيد في أعماق نفسه، وتغلغل الروح الإسلامية فيه، وبهذه المناسبة استعرض أبياتاً لشيخنا الحجّة العلم الأوحد المجاهد دون الحقّ ببيانه ولسانه الشيخ محمّد علىٰ الأُردبادي ـ حفظه الله ـ قالها في رجل الايمان أبي طالب ﷺ:

بشيخ الأبطحين فشا الصلاح ... وفي أنواره زهت البطاح
براه الله للتوحيد عضباً ... يلين به من الشرك الجماح
وعمّ المصطفىٰ لولاه أضحىٰ ... حمى الإسلام نهباً يستباح
نضاً للدين منه صفيح عزم ... عنت لمضاءه القضب الصفاح
وأشرع للهدىٰ بأساً مريعاً ... تحطّم دونه السمر الرماح
وأصحر بالحقيقة في قريض ... عليه الحقّ يطفح والصلاح
صريخة هاشم في الخطب لكن ... تزم لنيله الابل الطلاح
أخو الشرف الأثيل أقام أمراً ... حداه لمثله الشرف الصراح
فلا عاب يدنسه ولكن ... غرائز ما برحن به سجاح
فعلم زانه خلق كريم ... ودين فيه مشفوع سماح
ومنه الغيث إمّا عمّ جدب ... وفيه الغوث إن عنّ الصباح

وصـفو القـول أنّ أبـا عـلي ... له الديـن الأصـيل ولا بـراح
ولكـن لابـنه نـصبوا عـداءاً ... ومـا عـن حـيدر فـضل يـزاح
فـنالوا مـن أبـيه ومـا المـعالي ... لكـلّ محـاول قـصداً يـتاح
وضـوء البـدر أبـلج لا يـوارىٰ ... وإن يك حـوله كـثر النـباح
(وهبني قلت هـذا الصبح ليـل) ... أهل يخـفىٰ لذي العـين الصـباح
فـدع بمـتاهة التـضليل قـوماً ... بمـرتبك الهـوىٰ هـم التـياح
فـذا شـيخ الأبـاطح في هـداه ... تـصافقه الامـامة والنـجاح
أبـو الصـيد الأكـارم مـن لوي ... مـقاديم جـحاجحة وضـاح
لهـم كأبـيهم إن جـال سهـم ... لأهـل الفـضل فـائزة قـداح

أجل إنّ ايمان أبي طالب عليه السلام أجلىٰ من أن يعتريه شكّ أو ريب، وإنّما الشكّ جاء من مرض القلوب وعمى البصائر، وهذا المرض الدفين وتلك العماية البارزة، هما اللذان دفعا بالأُمم السابقة لمقاومة الأنبياء باليد واللسان، وجهّزا لقريش والعرب جنوداً تطوّعت لحرب النبي الأمين صلى الله عليه وآله حتىٰ أرغمها الله بسيف أمير المؤمنين عليه السلام، فخضعت لكلمتي الشهادة طوعاً وكرهاً، ورغبةً ورهبة.

ولكن ما زالت تلك الأمراض مستولية على القلوب، والعمىٰ آخذ بالبصائر، غير أنّ السيف حاجز عن اظهار ما في القلوب والنفوس، ولما وجدوا الفرصة بموت النبي صلى الله عليه وآله انتهزوها للوثبة، فأظهروا حسيكة النفاق، واستمرّوا على الانقلاب، يقاومون الحقّ وأهله، فمن يوم السقيفة إلىٰ يوم الشورىٰ، إلىٰ يوم البصرة، إلىٰ يوم صفّين، إلىٰ يوم النهروان.

أين أنت عن يوم الطفّ الذي تجلّت فيه الضلالة، أَخفي على القوم أنّه ابن بنت رسول الله وسبطه، وريحانته، وسيّد شباب أهل الجنّة؟ أفهل أنكر عليه أحد يوم احتجّ عليهم بملابسه وشمائله، إذ قال لهم هل تعلمون أنّ هذه عمامة جدّي رسول الله أنا لابسها؟ قالوا: اللّهمّ نعم ...

ولكن ما قادهم لحربه إلّا الضغائن والأحقاد، والطلب بثارات بدر وتلك المواقف، وأنا لا أدري أكان الطفل الرضيع صاحب الثار حتّىٰ ينتقموا منه، أو النساء المخدّرات حتّىٰ ينتصفوا منها بسلب الأبراد ونهب الرحال.

الدليل علىٰ إيمان أبي طالب ﷺ:

وكيفما قلت سنتلو عليك الدليل المفصّل في اسلام أبي طالب ﷺ ولا نخرج بما سنسجّله عن المروي في كتب أهل السنّة، ولا ننقل إلّا مقال علمائهم الأعيان، وفقهائهم المتبحرين، فقد عدّوه من أكابر الصحابة وفضلائهم، وخذ ما أورده العلماء المتتابعون علىٰ تكفيره، اصراراً وعناداً وستراً لوجه الحقيقة.

فمن تلك المصرّحات بخلوص ايمانه أشعاره الرائقة، وخطبه الفائقة التي في جميعها يقول: أنا مسلم ومؤمن بنبوّة ابن أخي محمّد، ومصدّق بدعواه، وأثق انّ ما جاء به هو حق، وأنّه من عند الله، وأنّ الله ابتعثه، وانّ دينه من خير الأديان.

نقل ابن أبي الحديد في شرحه مجلد ٣ : ٣١٥ قوله:

يا شاهد الله علي فاشهد ... انّي علىٰ دين النبي أحمد
من ضلّ في الدين فإنّي مهتد

وقوله ينعىٰ علىٰ قريش القطيعة، ويحذّرهم الحرب:

تطاول ليلي لأمر نصب ... ودمع كسح السقاء السرب
للعب قصي بأحلامها ... وهل يرجع الحلم بعد اللعب
وقالوا لأحمد أنت امرؤ ... خلوف الحديث ضعيف السبب
وإن كان أحمد قد جاءهم ... بصدق ولم يأتهم بالكذب

فكيف يكون الإسلام؟ وبماذا يعرف الايمان؟ وهل بين قوله ـ وإن كان أحمد قد جاءهم بصدق ولم يأتهم بالكذب ـ وبين قول المسلم: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، فرق عند ذي اللبّ والمعرفة الذي ينهى النفس عن الهوىٰ،

ويتنكّب سبل الردىٰ؟

وقوله يخاطب قريشاً في القطيعة أيضاً:

وبلغ على الشحناء أفناء غالب	لوياً وتيماً عند نصر العرائم
ألم تعلموا أنّ القطيعة مأثم	وأمر بلاء قاتم غير حازم
وإنّ سبيل الرشد يعرف في غد	وإنّ نعيم اليوم ليس بدائم

فقوله: «وإنّ سبيل الرشد يعرف في غد» يريد يوم القيامة، وقوله: «وإنّ نعيم اليوم ليس بدائم» يريد نعيم الدنيا ليس بدائم ونعيم الآخرة دائم، وهذا إذا تأمله منصف رآه اقراراً صريحاً من أبي طالب عليه السلام، بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله من القيامة والبعث والنشور، والثواب والعقاب وغير ذلك من أمور الآخرة، ألا ترىٰ إلىٰ قوله: «إنّ القطيعة مأثم» والاثم هو ما يجازىٰ عليه في الآخرة.

وإنّ أُمية بن خلف الجمحي جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله بعظم نخر فسحقه في وجهه وقال: أنت تزعم يا محمّد أنّ هذا العظم يعود حيّاً، تكذيباً لما جاء به الرسول، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يُحيِ العظام وهي رميم • قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة وهو بكلّ خلقٍ عليم﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩][1].

وأبو طالب ـ سلام الله عليه ـ صرّح في هذه الأبيات وغيرها بالاقرار بالبعث بخلاف ما عند القوم، ومنها قوله:

فلا تسفهوا أحلامكم في محمّد	ولا تتبعوا أمر الغواة الأشائم
يمنونكم أن تقتلوه وإنّما	أمانيكم تلكم كأحلام نائم
فإنّكم والله لا تقتلونه	ولما تروا قطف اللحىٰ والجماجم
ولم تصر الأموات منكم ملاحماً	تحوم عليها الطير بعد ملاحم
وتدعو بأرحام أواصر بيننا	وقد قطع الأرحام وقع الصوارم
ونسموا بخيل نحو خيل تحثّها	إلى الروع أولاد الكماة القماقم

(١) البحار ٧: ٢٣ ح ٢.

أخلتم بأنّا مسلمون محمّداً ولمّا نقاذف دونه ونزاحم
من القوم مفضال أبي على العدى تمكّن في الفرعين من آل هاشم
أمين محبّ في العباد مسوّم بخاتم ربّ قاهر للخواتم
يرى الناس برهاناً عليه وهيبة وما جاهل في فعله مثل عالم
نبيّ أتاه الوحي من عند ربّه فمن قال لا يقرع بها سنّ نادم

أفلا ينظر العاقل وذو الحلم الرصين إلىٰ هذا الاقرار بالنبوّة، وتوحيد الربّ جلّت عظمته في قوله: «أتاه الوحي من عند ربّه» ومن أين يعرف الكفّار الوحي، ثمّ يقول في هذه الأبيات: «فمن قال لا يقرع بها سنّ نادم» يريد أنّ من لا يقرّ بنبوّة محمّد ﷺ يندم إذا شاهد عذاب الله.

وقوله: «محبّ في العباد مسوّم» يريد أنّه ﷺ موسوم بخاتم النبوّة الذي كان بين كتفيه، وقلّما ذكره ﷺ أحد من شعراء المسلمين في شعر، إلّا وذكر الخاتم وقريشاً ودعاهم إلى الإسلام، فمن ذلك قول الشاعر:

وآمنوا بنبيّ لا أباً لكم ذي خاتم صاغه الرحمن مختوم

وقول ابن الزبعري للنبي ﷺ حين أسلم بعد العداوة والمضاغنة والمباينة والمكاشفة:

وعليك من نور الإله دلالة وجه أغرّ وخاتم مختوم

فهل فوق هذا الاقرار إقرار، وبعد هذا الايمان ايمان، وهل يسع مسلم يسمع هذا الاقرار بنبوّة محمّد من أحد الكفّار، ولا يجري عليه أحكام المسلمين ويخرجه من جملة الكافرين، وإن لم يكن في الإسلام ذا بلاءٍ عظيم وعناءٍ جسيم.

وقوله ﷺ يذكّر أمر الصحيفة الذي ذكرناه:

ألا من همّ آخر الليل منصب وشعب العصا في قومك المتشعب

إلىٰ قوله:

فأمسىٰ ابن عبد الله فينا مصدقاً علىٰ سخط من قومنا غير متعب

وهل يكون اقرار بالرسالة، أو ايمان بالنبوّة أبلغ من هذا، ولكن العناد يمنع من اتّباع الحق، ويصدّ عن قول الصدق، ومن يكون بمنزلة أبي طالب عليه السلام من البصيرة في الأمور والعقل الغزير، ويعلم أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله نبيّ مقرّب، ويقرّ له بذلك في شعره، كيف يتقدّر منه أن يكفر به، وهذا هو العناد العادل عن سبيل الرشاد.

وقوله لما غضب لعثمان بن مظعون عندما عذّبته قريش:

ألا يـــرون أقـــلّ الله خـــيرهم ... أنّـا غـضبنا لعثمان بـن مـظعون
ونمنع الضيم من يرجو مـضيمتنا ... بكلّ مـطرد في الكـفّ مسـنون
ومـرهفات كأنّ المـلح خـالطها ... نشفي بها الداء من هـام المجـانين
حتّىٰ تـقرّ رجـال لا حـلوم لهـم ... بعد الصـعوبة بـالأسماح واللـين

إلىٰ قوله:

أو يؤمنوا بكتاب مـنزل عـجب ... علىٰ نبيّ كموسىٰ أو كذي النـون

فعجباً للبصير كيف يتعامىٰ عندما يقرأ هذه الأبيات، ويرىٰ اقرار أبي طالب عليه السلام بالكتاب، وأنّه منزل عجب، كما قال تعالى حاكياً عن مؤمني الجنّ حين سمعوا القرآن: ﴿إنّا سمعنا قرآناً عجباً ● يهدي إلى الرشد فآمنّا به﴾ [الجن : ١ و ٢].

وإلىٰ قوله: «علىٰ نبيٍّ كموسىٰ أو كذي النون» فسبحان الله من أين يعرف الجاهلي موسى ويونس عليهما السلام ، ومن أين يعرف الكتاب المنزل، وهل يؤمن بأنبياء الله تعالى ورسله وكتبه من يشرك به، إنّ هذا إلّا هوىً قاهر، وعناد ظاهر.

ثمّ ما كفىٰ أبا طالب صريح الاقرار ومحض الايمان، حتّىٰ حثّ المشركين علىٰ اتّباعه، والايمان به، فأمر ولده أن يؤمنوا به، ويصدّقوه ويصلّوا خلفه، ولا يؤمن هو به، وهو ذو الحلم الرصين، والعقل المتين، وهذا هو المحال الذي لا يخفىٰ علىٰ أرباب الحجال.

قال أبو ضوء بن صلصال: «كنت أنصر النبي صلى الله عليه وآله مع أبي طالب قبل اسلامي فإنّي يوماً لجالس بالقرب من منزل أبي طالب في شدّة القيظ، إذ خرج أبو طالب

إليّ شبيهاً بالملهوف، فقال لي: يا أبا الغضنفر، هل رأيت هذين الغلامين ـ يعني النبي وعلياً ـ؟ فقلت: ما رأيتهما مذ جلست، فقال: قم بنا في الطلب فلست آمن قريشاً أن تكون اغتالتهما.

قال: فمضينا حتّىٰ خرجنا من أبيات مكة، ثمّ صرنا إلىٰ جبل من جبالها، فاسترقبناه إلىٰ قلّته فإذا النبي ﷺ وعليّ ﷺ عن يمينه، وهما قائمان بازاء عين الشمس يركعان ويسجدان.

فقال أبو طالب ﷺ لجعفر ابنه وكان معنا: صلّ جناح ابن عمّك، فقام جنب علي، فأحسّ بهما النبي ﷺ فتقدّمهما وأقبلوا علىٰ أمرهم حتّىٰ فرغوا ممّا كانوا فيه، ثمّ أقبلوا نحونا فرأيت السرور يتردّد في وجه أبي طالب ﷺ، ثمّ انبعث يقول:[1]

إنّ علياً وجعفراً ثقتي ... عند ملمّ الزمان والنوب
لا تخذلا وانصرا ابن عمّكما ... أخي لأُمّي من بينهم وأبي
والله لا أخذل النبي ولا ... يخذله من بني ذو حسب

قال القاضي دحلان في «أسنى المطالب»: فلولا أنّه مصدّق بدينه، لما رضي لبنيه أن يكونا معه، وأن يصلّيا معه، بل ولا كان يأمرهما بالصلاة، فإنّ عداوة الدين أشدّ العداوات كما قيل:

كلّ العداوة قد ترجىٰ إماتتها ... إلّا عداوة من عاداك في الدين

ثمّ قال: فهذه الأخبار كلّها صريحة في أنّ قلبه طافح وممتلئ بالايمان بالنبي ﷺ، وللسائل أن يسأل كيف أمر أبو طالب ابنه جعفراً بالصلاة مع النبي ﷺ ولم يصلّ هو، إذا قلتم: إنّه كان بالله مؤمناً وبرسوله، قلنا: إنّما منعه من ذلك مراقبته لصاحبه الذي جاء معه، ونصره وآزره، لئلّا يحرفه عنه استبقاءً لنصرته، وحفظاً لمساعدته، ليقوى أمر النبي ﷺ، وتنتشر دعوته، وتشيع كلمته.

ألا ترىٰ أنّ صاحبه الذي جاء معه ينصره، كيف روى في حديثه انّه كان ينصر

---

(١) علىٰ ما حدّثنا به ابن الحديد في شرحه ٣: ٣٧٣ ط مصر؛ والخطيب البغدادي في تأريخه ٣: ٣٧٤.

النبي مع أبي طالب عليه السلام وهو بعد لم يسلم، فلم يأمن أبو طالب إذا صلىٰ ظاهراً أن يفشي صاحبه أمره في جميع أنصاره وأعوانه، وعامّتهم مقيم على الشرك، متظاهر بالكفر، فيصيرون يداً عليه، ويوجهون عداوتهم إليه، ويفسد عليه أُموره، ويبطل تدبيره، لأنّه عليه السلام كان يخادع القوم لتقوىٰ شوكة رسول الله، ويظهر دين الله.

وقال يأمر أخاه حمزة بن عبد المطّلب رضي الله عنه بالاسلام، ويحضّه علىٰ نصر نبيّ الهدىٰ:

فصبراً أبا يعلى علىٰ دين أحمد	وكن مظهراً للدين وفقت صابرا
وحطّ من أتىٰ بالدين من عند ربّه	بصدق وحق لا تكن حمز كافرا
فقد سرّني إذ قلت أنّك مؤمن	وكن لرسول الله في الله ناصرا
ونادي قريشاً بالذي قد أتىٰ به	جهاراً وقل ما كان أحمد ساحرا

لم يكفه عليه السلام أمره لأخيه بالصبر علىٰ عداوة قريش والنصر للنبي صلى الله عليه وآله حتّىٰ أمره باظهار الدين والاجتهاد في حياطته، والدفاع عن بيضته، ثمّ شهد لأخيه حمزة أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله أتىٰ بالدين من عند ربّه بصدق وحقّ، وحذّره الكفر في قوله: «لا تكن حمز كافرا».

ثمّ يقول له: «قد سرّني إذ قلت أنّك مؤمن» فتراه يسرّ لأخيه بالايمان، ويختار لنفسه الكفر الموجب لغضب الجبّار والخلود في النار، وهل يتصوّر مثل هذا من ذي عقل، وهل يعلم الإسلام بشيء أبين من هذا؟! ولكن العناد يصدّ عن سلوك نهج الرشاد.

وقوله عليه السلام يمدح النجاشي، وذلك لمّا حلّ جعفر ومن معه من المسلمين بساحته، واستقوا من روايته، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله لما كثر أصحابه وظهر أمره، اشتدّ علىٰ قريش ذلك، وأنكر بعضهم علىٰ بعض، وقالوا قد أفسد محمّد بسحره سفلتنا، وأخرجهم عن ديننا، فلتأخذ كلّ قبيلة من فيها من الصباة، ولتعذّبه حتّىٰ يعود عمّا علّق به من دين محمّد صلى الله عليه وآله.

وكانت كلّ قبيلة تعذّب من فيها من المسلمين، فيأخذ الأخ أخاه وابن العمّ ابن عمّه فيشدّه ويوثقه كتافاً، ويضربه ويخوفه وهم لا يرجعون، حتّىٰ أنزل الله تعالى علىٰ نبيّه: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ [النساء: ٩٧] فخرج جماعة من المسلمين إلى الحبشة، يقدمهم جعفر بن أبي طالب، فنزلوا على النجاشي ـ ملك الحبشة ـ فأقاموا عنده في كرامة ورفيع منزلة وحسن جوار.

وعرفت قريش ذلك فأرسلوا إلى النجاشي عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي، فلمّا قدما على النجاشي في رهط من أصحابهما، فتقدّم عمرو فقال: أيّها الملك إنّ هؤلاء قوم من سفهائنا صباة، قد سحرهم محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب، فادفعهم عنك فإنّ صاحبهم يزعم أنّه نبيّ قد جاء بنسخ دينك ومحو ما أنت عليه، فلم يلتفت النجاشي إلىٰ قوله، ولم يحفل بما أرسلت به إليه قريش، وجرىٰ علىٰ اكرام جعفر وأصحابه، وزاد في الاحسان، بلغ ذلك أبا طالب فقال يمدحه:[1]

ألا ليت شعري كيف في الناس جعفر ... وعمرو وأعداء النبي الأقارب
وهل نال إحسان النجاشي جعفراً ... وأصحابه أم عاق ذلك شاغب
تعلم خيار الناس إنّك ماجد ... كريم فلا يشقىٰ لديك المجانب
تعلم بأنّ الله زادك بسطةً ... وأسباب خير كلّها لك لازب

فلمّا بلغت الأبيات النجاشي سرّ بها سروراً عظيماً، ولم يكن يطمع أن يمدحه أبو طالب بشعر، فزاد من اكرامهم، وأكثر من اعظامهم، فلمّا علم أبو طالب عليه السلام بسرور النجاشي، قال يدعوه إلى الإسلام، ويحثّه علىٰ اتّباع النبي صلى الله عليه وآله:

تعلم خيار الناس أنّ محمّداً ... وزير لموسىٰ والمسيح بن مريم
أتىٰ بالهدىٰ مثل الذي أتيا به ... فكلٌّ بأمر الله يهدي ويعصم
وإنّكم تتلونه في كتابكم ... بصدق حديث لا حديث المترجم

(١) نقل ذلك العلّامة ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣: ٣١٤ ط مصر.

فـلا تجـعلوا لله نـدّاً وأسـلموا　　　فإنّ طـريق الحـقّ ليس بمـظلم[1]

فمن أنصف الحقّ، وترك العناد، ونظر إلىٰ هذه الشهادة لمحمّد ﷺ من عمّه وكافله، أنّه وزير لموسىٰ والمسيح ﷺ، وأنّه أتىٰ بالهدىٰ مثل الذي أتيا به، أيقن يقيناً لا شكّ فيه، أنّه ايمان محض بالنبيّين، واعتراف بما جاؤوا به من الهدىٰ، فهل فوق هذا تصديق، وأعظم منه تحقيق، ثمّ يقول: فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا.

أليس هذا أمراً صريحاً منه بالتوحيد لله تعالى، والإسلام الذي جاء به ابن أخيه، ثمّ يقول: «فإنّ طريق الحقّ ليس بمظلم»، فياليت شعري من يرىٰ طريق الحقّ ليس بمظلم، وأنّه واضح وهو سديد عاقل، كيف يختار الضلال والشرك، نعوذ بك اللّهمّ من اتّباع الهوىٰ المورد لظى النار، والموجب لغضبك، اللّهمّ انتقم ممّن ظلم عمّ رسولك وافترىٰ عليه، ونسب إليه ما هو بريء منه.

نبذة من أشعاره في التوحيد:

وأمّا أشعاره المتضمّنة إقراره بالتوحيد لله تقدّست أسماؤه، فهي مسطورة في كتب العلماء، وتعاليق الأُدباء، كثيرة لا يبلغ مداها، ولا يحصر منتهاها، ونحن نذكر منها نبذة وجيزة، وأبياتاً قليلة، كراهية الاطناب، فمنها قوله ﷺ:

مليك الناس ليس له شريك　　　هـو الجـبّار والمـبدي المـعيد
ومـن فـوق السماء له بحـقّ　　　ومـن تحت السماء له عـبيد

وقوله:

لا تيأسنّ إذا ما ضقت من فـرج　　　يأتي به الله في الروحـات والدلج
فما تجـرع كأس الصـبر معتصم　　　بـالله إلّا سـقاه الله بـالفرج

روي عن الحسن بن جمهور القمي البصري يرفعه قال: أنشد عمر بن الخطّاب قول زهير بن أبي سلمى:

---

(١) أورد هذه الأبيات الحاكم النيسابوري في المستدرك ٣: ٦٣٣ ط حيدر آباد.

فلا تكتمنّ الله ما في نفوسكم ليخفىٰ ومهما تكتم الله يعلم
يؤخّر فيوضع في كتاب فيدّخر ليوم الحساب أو يعجّل فينقم

فقال عمر: ما رأيت جاهلياً أعلم بالحكم من زهير، ولو قلت إنّ شعره شعر مؤمن يدخل الجنّة لإقراره بالبعث والنشور لقلت حقّاً.

فيا لله وللمسلم، ألا يرى اللبيب أنّ من أعجب العجيب أنّ عمر بن الخطّاب يسمع بيتي شعر لزهير، في أحدهما ذكر الحساب فيقطع له بالجنّة، ولا يرتاب مع شهادته عليه أنّه جاهلي، لم يدرك الإسلام ولم يعرف الايمان، وهذا أبو طالب ﷺ ابن عبد المطّلب له ديوان شعر يضاهي شعر زهير في الكثرة أو يزيد عليه، يتضمّن جميعه الاقرار بالرسول ﷺ والتصديق له، والحثّ علىٰ اتّباعه والتوحيد لله وذكر المعاد والحساب.

قال ابن شهر آشوب في كتابه «متشابه القرآن» في ضمن تفسير قوله تعالى: ﴿ولينصرنّ الله من ينصره﴾ [الحج : ٤٠] ما هذا لفظه: إنّ أشعار أبي طالب الدالّة علىٰ ايمانه، تزيد على ثلاثة آلاف بيت، يكاشف فيها من يكاشف النبي ﷺ، ويصحّح نبوّته، ثمّ أورد جملةً وافية منها[1].

وأهل العصبية الباطلة، والحمية الفاسدة يجعلونه من الكفّار الخالدين في النار، ولا يتدبّرون ما يؤثرون من أخباره الشاهدة بايمانه، ولا يتفكّرون فيما يروونه من أشعاره الناطقة باسلامه.

فقهاء المذاهب يفتون بكفر من أبغض أبي طالب:

وشتّان بين جعله من الكفّار الخالدين في النار، وبين إفتاء جماعة من أعلامهم بكفر من أبغضه ومن ذكره بمكروه، لأنّ ذلك أذيّةً للنبي.

قال مفتي الشافعية العلّامة الدحلاني في كتابه «أسنى المطالب» ص ٦٠ ما هذا

(١) متشابه القرآن ٢ : ٦٥.

لفظه: ذكر الإمام أحمد بن الحسين الموصلي الحنفي المشهور بابن وحشي في شرحه على الكتاب المسمّىٰ بـ«شهاب الأخبار» للعلّامة ابن سلامة القضاعي: «إنّ بغض أبي طالب كفر».

ونصّ علىٰ ذلك أيضاً من أئمّة المالكية العلّامة علي الأجهوري في «فتاويه»، والتلمساني في «حاشيته على الشفا» فقال عند ذكر أبي طالب: «ولا ينبغي أن يذكر إلّا بحماية النبي ﷺ لأنّه حماه ونصره بقوله وفعله، وفي ذكره بمكروه أذيّةً للنبي ﷺ، ومؤذي النبي كافر يُقتل».

وقال أبو طاهر: «من أبغض أبا طالب فهو كافر» والحاصل أنّ ايذاء النبي ﷺ كفر يُقتل فاعله إن لم يتب، وعند المالكية يُقتل وإن تاب، ـ إلىٰ أن قال: ـ وكثيراً من الأولياء العارفين من أرباب الكشف قالوا بنجاة أبي طالب، منهم القرطبي، والسبكي، والشعراني، وخلائق كثيرون وقالوا: هذا الذي نعتقده وندين الله به.

ـ ثمّ قال: ـ فقول هؤلاء الأئمّة بنجاته أسلم للعبد عند الله تعالى، وهؤلاء إنّما حكموا بنجاته من حيث أنّه مات مسلماً، فكيف يتقدّر للإنسان بعد هذا أن يعرف الحقّ ويعدل عنه معانداً، ويلقى الله بعد معرفته جاحداً.

وإذا رجع الخصم إلىٰ شعر أبي طالب ﷺ محلّلاً منه نفسيّته ومستكشفاً منه ميله وهواه، لوجده أصدق شاهد علىٰ اسلام شيخ الأبطح، وانقياده إلىٰ هذا الدين، بل لوجد روح الايمان الصادق تتجلّىٰ له من خلال أبياته، وتلوح لعينيه ظاهرة بين فجواته ومنعرجاته.

هذا شيخ الأبطح بملأ فيه منادياً كما مرّ: «يا شاهد الله عليّ فاشهد»، ونداؤه أيضاً:

ولقد علمت بأنّ دين محمّد　　　من خير أديان البريّة دينا

حقاً إن لم يكن هذا صريحاً في الايمان فلا أقل انّه صريح في إلقاء السلم كما لا يخفىٰ، وإلّا فما الذي حدا أمنع الناس داراً، وأعزّهم جواراً أن يهتف بهذا النداء،

ويشهد الله علىٰ ما يقول سوى الانقياد لمحمّد ﷺ، ففي هذه الجمهرة من شعره ما يكفي لافلاج حجة الخصم، وإقامة الحجّة عليه فيما تمحل له من التشكيك في ايمان شيخ الأبطح[1].

* * *

الأخذ بالمعارف:

قوله ﷺ: «فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذٰلِكَ إِلَىٰ ٱلْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَٱلْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا».

أجل فإنّهم لم يقتصروا على التقليد في مسائل الفقه، بل نظروا لأنفسهم، وتأمّلوا أدلّة الشرع الشريف، ودقّقوا فيها، فأخذوا بما عرفوا وعملوا بما استنبطوا، بمعنىٰ أنّهم اجتهدوا فعملوا باجتهادهم، وأراحوا أنفسهم من مرحلة التقليد التي هي اليوم من أصعب المراحل.

الاجتهاد والتقليد:

يعتقد الامامية، أنّ لله بحسب الشريعة الإسلامية في كلّ واقعة حكماً حتّىٰ أرش الخدش، وما من عمل من أعمال المكلّفين من حركة أو سكون، إلّا ولله فيه حكم من الأحكام الخمسة: الوجوب، والحرمة، والندب، والكراهة، والاباحة.

وما من معاملة علىٰ مال أو عقد نكاح ونحوهما، إلّا وللشرع فيه حكم صحّة أو فساد، وقد أودع الله سبحانه جميع تلك الأحكام عند نبيّه خاتم الأنبياء، وعرفها النبي بالوحي من الله أو الالهام، ثمّ انّه ـ سلام الله عليه ـ حسب وقوع الحوادث أو حدوث الوقائع وحصول الابتلاء، وتجدّد الآثار والأطوار، بيّن كثيراً منها للناس، وبالأخصّ لأصحابه الحافّين به الطائفين كلّ يوم بعرش حضوره، ليكونوا هم

---

(١) هذا فصل من فصول كتابنا «منية الطالب في حياة أبي طالب» أثرنا نقله هنا من حيث المناسبة.(المؤلف).

المبلّغين لسائر المسلمين في الآفاق، ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة : ١٤٣].

وبقيت أحكام كثيرة لم تحصل الدواعي والبواعث لبيانها، أمّا لعدم الابتلاء بها في عصر النبوّة، أو لعدم اقتضاء المصلحة لنشرها، والحاصل أنّ حكمة التدريج اقتضت بيان جملة من الأحكام وكتمان جملة، ولكنّه ـ سلام الله عليه ـ أودعها عند أوصيائه، كلّ وصي يعهد به إلى الآخر لينشره في الوقت المناسب له، حسب الحكمة من عام مخصّص أو مطلق مقيّد، أو مجمل مبيّن إلىٰ أمثال ذلك. فقد يذكر النبيّ عامّاً ويذكر مخصّصه بعد برهة من حياته، وقد لا يذكره أصلاً بل يودعه عند وصيّه إلىٰ وقته.

ثمّ انّ الأحاديث التي نشرها النبي في حياته، قد يختلف الصحابة في فهم معانيها علىٰ حسب اختلاف مراتب أفهامهم وقرائحهم، ﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها﴾ [الرعد : ١٧].

ولكن تأخذ الأذهان منه علىٰ قدر القرائح والفهوم

ثمّ انّ الصحابي قد يسمع من النبي في واقعة حكماً ويسمع الآخر في مثلها خلافه، وتكون هناك خصوصية في أحدهما اقتضت تغاير الحكمين، وغفل أحدهما عن الخصوصية، أو التفت إليها وغفل عن نقلها مع الحديث، فيحصل التعارض في الأحاديث ظاهراً ولا تنافي واقعاً.

ومن هذه الأسباب وأضعاف أمثالها احتاج حتّىٰ نفس الصحابة، الذين فازوا بشرف الحضور في معرفة الأحكام إلى الاجتهاد والنظر في الحديث، وضمّ بعضه إلىٰ بعض، والالتفات إلى القرائن الحالية، فقد يكون للكلام ظاهر ومراد النبي خلافه، اعتماداً علىٰ قرينة كانت في المقام، والحديث نُقل والقرينة لم تنقل، وكلّ واحد من الصحابة ممّن كان من أهل الرأي والرواية ـ إذ ليس كلّهم كذلك بالضرورة ـ، تارةً يروي نفس ألفاظ الحديث للسامع من بعيد أو قريب، فهو في

هذا الحال راوٍ ومحدّث، وتارة يذكر الحكم الذي استفاده من الرواية أو الروايات بحسب نظره واجتهاده، فهو في هذا الحال مفتٍ وصاحب رأي، وأهل هذه الملكة مجتهدون، وسائر المسلمين الذين لم يبلغوا إلىٰ تلك المرتبة إذا أخذوا برأيه مقلدون.

وكان كلّ ذلك قد جرىٰ في زمن صاحب الرسالة وبمرأىٰ منه ومسمع، بل ربّما أرجع بعضهم إلىٰ بعض علىٰ أنّ الناس من هذا بازاء أمر واقع لا محالة.

وإذا أنعمت النظر في ما ذكرناه، اتّضح لديك أنّ باب الاجتهاد كان مفتوحاً في زمن النبوّة وبين أصحابه فضلاً عن غيرهم، وفضلاً عن سائر الأزمنة التي بعده، نعم غايته أنّ الاجتهاد يومئذٍ كان خفيف المؤنة جدّاً لقرب القرائن، وامكان السؤال المفيد للعلم القاطع.

ثمّ كلّما بعد العهد من زمن الرسالة، وتكثرت الآراء واختلطت الأعارب بالأعاجم، وتغيّر اللحن، وصعب الفهم للكلام العربي علىٰ حاق معناه وتكثرت الأحاديث والروايات، وربّما دخل فيها الدسّ والوضع، وتوفّرت دواعي الكذب على النبيّ ﷺ، أخذ الاجتهاد ومعرفة الحكم الشرعي يصعب ويحتاج إلىٰ مزيد مؤنة واستفراغ وسع، وجمع بين الأحاديث، وتمييز الصحيح منها من السقيم، وترجيح بعضها علىٰ بعض.

وكلّما بعد العهد وانتشر الإسلام، وتكثّرت العلماء والرواة ازداد الأمر صعوبة، ولكن مهما يكن الحال فباب الاجتهاد كان في زمن النبي ﷺ مفتوحاً، بل كان أمراً ضرورياً عند من يتدبّر، ثمّ لم يزل مفتوحاً عند الامامية إلى اليوم، والناس بضرورة الحال لا يزالون بين عالم وجاهل، وبسنّة الفطرة وقضاء الضرورة أنّ الجاهل يرجع إلى العالم، فالناس إذاً في الأحكام الشرعية بين عالم مجتهد، وجاهل مقلّد، يجب عليه الرجوع في تعيين تكاليفه إلىٰ أحد المجتهدين، والمسلمون متّفقون أنّ أدلة الأحكام الشرعية منحصرة في الكتاب والسنّة، ثمّ العقل والاجماع، ولا فرق في هذا بين الامامية وغيرهم من فرق المسلمين.

خصائص مذهب الامامية:

ثمّ يفترق الامامية عن غيرهم هنا في أُمور:

منها: أنّ الامامية لا تعمل بالقياس، وقد تواتر عن أئمّتهم عليهم السلام: «إنّ الشريعة إذا قيست محق الدين»[1] والكشف عن فساد العمل بالقياس يحتاج إلىٰ فضل بيان لا يتّسع له المقام.

ومنها: انّهم لا يعتبرون من السنّة ـ أعني الأحاديث النبويّة ـ إلّا ما صحّ لهم من طرق أهل البيت عن جدّهم ـ يعني ما رواه الصادق عن أبيه الباقر، عن أبيه زين العابدين، عن الحسين السبط، عن أبيه أمير المؤمنين، عن رسول الله سلام الله عليهم جميعاً ـ، أمّا ما يرويه مثل أبي هريرة، وسمرة بن جندب، ومروان بن الحكم، وعمران بن حطان الخارجي، وعمرو بن العاص ونظائرهم، فليس لهم عند الامامية من الاعتبار مقدار بعوضة، وأمرهم أشهر من أن يذكر، كيف وقد صرّح كثير من علماء السنّة بمطاعنهم، ودلّ علىٰ جائفة جروحهم.

ومنها: أنّ باب الاجتهاد ـ كما عرفت ـ لا يزال مفتوحاً عند الامامية، بخلاف جمهور المسلمين فإنّهم قد سدّ عنهم هذا الباب وأقفل علىٰ ذوي الألباب، وما أدري في أي زمان، وبأي دليل، وبأي نحو كان ذلك الانسداد، ولم أجد من وفىٰ هذا الموضوع حقّه من علماء القوم، وتلك أسئلة لا أعرف من جواباتها شيئاً، والعهدة في ايضاحها عليهم.

وما عدا تلك الأُمور، فالامامية وسائر المسلمين فيها سواء لا يختلفون إلّا في الفروع كاختلاف علماء الامامية أو علماء السنّة فيما بينهم من حيث الفهم والاستنباط.

والمراد بالمجتهد: من زاول الأدلّة واستفرغ وسعه فيها، حتّىٰ حصلت له ملكة وقوّة يقتدر بها علىٰ استنباط الحكم الشرعي من تلك الأدلّة، وهذا أيضاً لا يكفي

---

(١) راجع الكافي ١: ٥٧ ح ١٥.

في جواز تقليده، بل هناك شروط أُخرىٰ ـ أهمّها العدالة ـ وهي: ملكة يستطيع معها الكفّ عن المعاصي، والقيام بالواجب، كما يستطيع من له ملكة الشجاعة اقتحام الحرب بسهولة بخلاف الجبان، وقصاراها أنّها حالة من خوف الله ومراقبته تلازم الإنسان في جميع أحواله، وهي ذات مراتب أعلاها العصمة التي هي شرط في الإمام.

ثمّ انّه لا تقليد ولا اجتهاد في الضروريات، كوجوب الصلاة والصوم وأمثالها ممّا هو مقطوع به لكلّ مكلّف، ومنكره منكر لضروري من ضروريات الدين، كما لا تقليد في أصول العقائد كالتوحيد، والنبوّة، والمعاد، ونحوهما ممّا يلزم تحصيل العلم به من الدليل علىٰ كلّ مكلّف. فإنّها تكاليف علمية، وواجبات اعتقادية لا يكفي الظنّ والاعتماد فيها علىٰ رأي الغير ﴿فاعلم أنّه لا إله إلّا الله﴾ [محمد : ١٩] وما عداها من الفروع فهو موضع الاجتهاد والتقليد.

وأعمال المكلّفين التي هي الموضوع لأحكام الشرع، يلزم معرفتها اجتهاداً أو تقليداً، ويعاقب من ترك تعلّمها بأحد الطريقين، لا تخلو امّا أن يكون القصد منها المعاملة بين العبد وربّه، فهي العبادات الموقوف صحّتها علىٰ قصد التقرّب بها إلى الله تعالى (بدنيّة) كالصوم والصلاة والحجّ، أو «مالية» كالخمس والزكاة والكفارات، أو «المعاملة» بينه وبين الناس، وهي امّا أن تتوقّف علىٰ طرفين كعقود المعاوضات والمناكحات، أو تحصل من طرف واحد كالطلاق والعتق ونحوهما، أو المعاملة مع خاصّة نفسه، ومن حيث ذاته كأكله وشربه ولباسه وأمثال ذلك.

والفقه يبحث عن أحكام جميع تلك الأعمال في أبواب أربعة: العبادات، المعاملات، الايقاعات، الأحكام.

العبادات الكبرىٰ في الاسلام:

وأُمّهات العبادات ستّة: اثنتان بدنيّة محضة، وهي الصلاة والصوم، واثنتان

مالية محضة، وهما الزكاة والخمس، واثنتان مشتركة على المال والبدن وهما الحجّ والجهاد ﴿جاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾ [التوبة : ٤١] أمّا الكفارات فعقود خاصة علىٰ جرائم مخصوصة.

الصلاة:

الصلاة عند الامامية بل عند عامة المسلمين عمود الدين، والصلة بين العبد والربّ ومعراج الوصول إليه، فإذا ترك الصلاة فقد انقطعت الصلة والرابطة بينه وبين ربّه، ولذا ورد في أخبار أهل البيت ﷺ: «انّه ليس بين المسلم وبين الكفر بالله العظيم إلّا ترك فريضة أو فريضتين»(١).

وعلىٰ أيٍّ فإنّ للصلاة بحسب الشريعة الإسلامية مقاماً من الأهمية، لا يوازيه شيء من العبادات، واجماع الامامية علىٰ أنّ تارك الصلاة فاسق لا حرمة له، قد انقطعت من الإسلام عصمته، وذهبت أمانته، وحلّت غيبته، وأمرها عندهم مبني على الشدّة جدّاً، والواجب منها بحسب أصل الشرع خمسة أنواع: الفرائض اليومية، صلاة الجمعة، صلاة العيدين، صلاة الآيات، صلاة الطواف، وقد يوجبها المكلّف علىٰ نفسه بسبب من نذر أو يمين أو استئجار، وما عدا ذلك فنوافل.

وأهمّ النوافل عندنا «الرواتب» يعني رواتب اليوم والليلة، وهي ضعف الفرائض التي هي «سبع عشرة ركعة» فمجموع الفرائض والنوافل في اليوم والليلة عند الشيعة إحدىٰ وخمسون، وخطر علىٰ بالي هنا ذكر ظريفة أوردها الراغب الاصفهاني في كتاب «المحاضرات» وهو من الكتب الممتعة، قال: كان بأصبهان رجل يقال له الكناني في أيّام أحمد بن عبد العزيز، وكان يتعلّم أحمد منه الإمامة، فاتّفق أن تطلّعت عليه أمّ أحمد يوماً فقالت: يا فاعل جعلت ابني رافضياً، فقال الكناني: يا ضعيفة العقل الرافضة تصلّي كلّ يوم احدىٰ وخمسين ركعة، وابنك لا

(١) راجع البحار ٨٢: ٢٠٢ ح٢.

يصلّي في كلّ أحد وخمسين يوماً ركعة واحدة، فأين هو من الرافضة(١).

ويليها في الفضل والأهمية نوافل شهر رمضان، وهي: ألف ركعة زيادة عن النوافل اليومية، وهي كما عند اخواننا من أهل السنّة سوىٰ أنّ الشيعة لا يرون مشروعيّة الجماعة فيها (إذ لا جماعة إلّا في فرض)، والسنّة يصلّونها جماعة، وهي المعروفة عندهم بالتراويح، وباقي الفرائض كالجمعة، والعيدين، والآيات وغيرها كبقيّة النوافل قد استوفت كتب الامامية بيانها علىٰ غاية البسط، وتزيد المؤلّفات فيها علىٰ عشرات الأُلوف، ولها أوراد، وأدعية، وآداب، وأذكار مخصوصة قد أفردت بالتأليف، ولا يأتي عليها الحصر والعدّ.

ولكن تتحصّل ماهية الصلاة الصحيحة عندنا شرعاً من أُمور:

الأوّل: الشروط: وهي أوصاف تقارنها، واعتبارات تنتزع من أُمور خارجة عنها، وأركان الشروط التي تبطل بدونها ستّة: الطهارة، الوقت، القبلة، الساتر، النيّة. أمّا المكان فليس من الأركان وإن كان ضرورياً، ويشترط إباحته وطهارة موضع السجود.

الثاني: أجزاؤها الوجودية ـ التي تتركّب الصلاة منها ـ وهي نوعان ركن تبطل بدونه مطلقاً وهي خمسة:

الأوّل: النيّة؛ وهي القصد لامتثال أمر المولىٰ قربة إليه بتلك الصلاة المعيّنة. لأنّ الصلاة عبادة، والعبادة بلا نيّة كالجسم بلا روح، ويكفي فيها الداعي القلبي، ولا يعتبر فيها الاخطار بالبال ولا التلفّظ، فحال الصلاة وسائر العبادات حال سائر الأعمال والأفعال الاختيارية من حيث النيّة، نعم تزيد عليها باعتبار القربة فيها بأن يكون الداعي والمحرّك هو الامتثال والقربة، ولغايات الامتثال درجات:

١ ـ وهو أعلاها أن يقصد امتثال أمر المولىٰ، لأنّه تعالى أهل للعبادة والطاعة، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك،

(١) المحاضرات ٢: ٤٤٩ باب الأذان المعير بترك الصلاة.

ولا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»[١].

٢ ـ أن يقصد به شكر نعم الله التي لا تُحصىٰ.

٣ ـ أن يقصد به تحصيل رضاه، والفرار من سخطه.

٤ ـ أن يقصد به حصول القرب إليه.

٥ ـ أن يقصد به الثواب ورفع العقاب، بأن يكون الداعي إلى إمتثال أمره رجاء ثوابه وتخليصه من النار، فهذه آداب يلزم حفظها ولفت النظر إليها، حتّىٰ يكون العمل خالصاً لوجهه تعالى غير مشوب بشيء.

الثاني: تكبيرة الاحرام؛ وهي أوّل الأجزاء الواجبة للصلاة، وأن يأتي بها مقارناً للنيّة، وصورتها «الله أكبر» من غير تغيير ولا تبديل، ولا يجزي مرادفتها ولا ترجمتها بالعجمية أو غيرها.

الثالث: القيام حال تكبيرة الاحرام، والقيام المتّصل بالركوع؛ بمعنىٰ أن يكون الركوع عن قيام، فلو كبّر للإحرام جالساً أو في حال النهوض بطل ولو كان سهواً، وكذا لو ركع لا عن قيام، بأن قرأ جالساً ثمّ ركع، أو جلس بعد القراءة أو في أثنائها وركع، أو نهض متقوّساً إلىٰ هيئة الركوع القيامي، وكذا لو جلس ثمّ قام متقوّساً من غير أن ينتصب ثمّ يركع، ولو كان ذلك كلّه سهواً فبجميع صوره باطل، هذا لمن كان فرضه القيام، أو ما يقوم مقامه للعاجز عن القيام علىٰ حسب مراتب العجز.

الرابع: الركوع؛ وهو الانحناء المتعارف بقدر ما يمكنه من وضع أصابعه بل راحته علىٰ ركبتيه، وهو ركن تبطل الصلاة بتركه عمداً كان أو سهواً، وكذا بزيادته.

الخامس: السجود؛ وهو وضع الجبهة علىٰ الأرض أو علىٰ ما أنبتته، ممّا لا يؤكل ولا يُلبس، ووضع الكفّين والركبتين، ورؤوس أباهم الرجلين علىٰ الأرض، أو علىٰ ما هو مستقرّ عليها بقصد الخضوع لله سبحانه، ويسجد سجدتين في كلّ ركعة وهما معاً ركن في الصلاة.

---

(١) البحار ٧٠: ١٨٦ ح١.

فهذه الأركان الخمسة المعروفة بأركان الصلاة، وبقي هناك واجبات أُخر، وهي النوع الثاني من الأجزاء الوجودية، لكن الفرق بينها وبين الأركان، أنّ الأركان تبطل الصلاة بزيادتها ونقصانها عمداً أو سهواً، وتلك إنّما تبطل الصلاة بزيادتها أو نقصانها عن عمد ولا تبطل عن سهو، كالقراءة، والذكر، والتشهّد، والتسليم، والترتيب، والموالاة، فإنّها يمكن تداركها إذا زاد أو نقّص فيها عن سهوٍ.

فينبغي للمرء حفظ هذه الأُمور واتقانها، لئلّا يخلّ بشيء منها فتبطل صلاته وببطلان الصلاة بطلان جميع الأعمال، كما أنّ بقبولها قبول جميع الأعمال، وقد ورد في الحديث: «إن قُبلت قُبل ما سواها، وإن ردّت رُدّ ما سواها»(١).

وصية الامام عليّ بالصلاة:

ولعليّ أمير المؤمنين عليه السلام خطبة في موضوع الصلاة، يحثّ الناس علىٰ حفظها والمسارعة إليها والاستكثار منها، بقوله:

«تعاهدوا أمر الصلاة، وحافظوا عليها واستكثروا منها وتقرّبوا بها، فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، ألا تسمعون إلىٰ جواب أهل النار حين سئلوا: ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلّين، وإنّها لتحتّ الذنوب حتّ الورق، وتطلقها اطلاق الربق.

وشبّهها رسول الله صلى الله عليه وآله بالحمّة تكون علىٰ باب الرجل، فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرّات فما عسىٰ أن يبقىٰ عليه من الدرن، وقد عرف حقّها رجال من المؤمنين الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع، ولا قرّة عين من ولد ولا مال، يقول الله سبحانه: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ [النور : ٣٧]»(٢).

(١) راجع البحار ١٠ : ٣٩٤.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٩.

يريد ﷺ بقوله: «تعاهدوا أمر الصلاة» أي جدّدوا العهد بها وراقبوا عليها في أوقاتها المخصوصة ولا تضيّعوها ولا تغفلوا عنها، لأنّها عماد الدين، ومعراج المؤمنين، وقربان كلّ تقي ومؤمن نقي، وأوّل ما يحاسب به العبد، إن قُبلت قُبل ما سواها وإن رُدّت رُدّ ما سواها، وقد ذمّ الله أقواماً توانوا عنها واستهانوا بأوقاتها، فقال: ﴿فويل للمصلّين • الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ [الماعون: ٥-٤] يعني أنّهم غافلون.

وقوله ﷺ: «وحافظوا عليها» أي علىٰ أوقاتها ورعاية آدابها وسننها وحدودها ومراسمها وشروطها وأركانها، فلقد قال رسول الله ﷺ: «من ترك صلاته متعمّداً فقد هدم دينه»[١].

وقال: «لا تضيّعوا صلاتكم فإنّ من ضيّع صلاته حشره الله مع قارون وفرعون وهامان، وكان حقّاً على الله أن يُدخله النار مع المنافقين، فالويل لمن لم يحافظ علىٰ صلاته»[٢].

وقد أمر الله تعالى بمحافظتها في الكتاب العزيز بقوله: ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطىٰ وقوموا لله قانتين﴾ [البقرة: ٢٣٨] أي داوموا على الصلواة المكتوبات في مواقيتها بتمام أركانها، ثمّ خصّ الوسطىٰ تفخيماً لشأنها فقال: ﴿والصلوة الوسطىٰ﴾ وهي صلاة الظهر علىٰ الأظهر، وذلك لأنّها واقعة بين صلاتين بالنهار، ولأنّها في وسط النهار.

وإنّما خصّها الله تعالى وأكّد بالمحافظة عليها من دون غيرها من الصلاة، لأنّها أشدّ على الإنسان من بقيّة الصلاة، فهي تقع في شدّة الحرّ والهاجرة، وهي وقت شدّة تنازع النفس إلى النوم والراحة، فكانت بهذه المناسبة أشقّ على المرء «وأفضل العبادات أحمزها» وأيضاً الأمر بمحافظة ما كان أشقّ أنسب وأهم، لأنّها

(١) جامع الأخبار: ١٨٥ ح ٤٥٥؛ عنه البحار ٨٢: ٢٠٢ ح ١.
(٢) جامع الأخبار: ١٨٦ ح ٤٥٩؛ عنه البحار ٨٢: ٢٠٢ ح ٢.

أوّل صلاة فرضت، ولأنّها في الساعة التي تفتح أبواب السماء فلا تغلق حتّىٰ تصلّى الظهر ويُستجاب فيها الدعاء، جاء عن رسول الله ﷺ: انّه كان يصلّي الظهر بالهاجرة ولم يكن يصلّي صلاة أشدّ عليه منها(١).

وقوله ﷺ: «واستكثروا منها»، فإنّها خير موضوع فمن شاء أقلّ منها ومن شاء أكثر، حدّث الإمام الصادق ﷺ وقد ذُكرت عنده الصلاة فقال: «إنّ في كتاب علي ﷺ الذي أملاه رسول الله ﷺ: انّ الله لا يعذّب علىٰ كثرة الصلاة والصيام ولكن يزيد خيراً»(٢).

وعنه ﷺ قال: «أتىٰ رسول الله رجل فقال: أُدع الله أن يدخلني الجنّة، فقال ﷺ: أعنّي بكثرة السجود»(٣).

وعن أبي جعفر العطّار قال: سمعت الصادق جعفر بن محمّد ﷺ يقول: «جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كثرت ذنوبي وضعف عملي، فقال ﷺ: أكثر السجود، فإنّه يحتّ الذنوب كما تحتّ الريح ورق الشجر»(٤) وغيرها من الأخبار الحاثّة علىٰ استكثار الصلاة.

وقوله ﷺ: «وتقرّبوا بها فإنّها قربان كلّ تقي»، قال الإمام الرضا ﷺ: «الصلاة قربان كلّ تقي»(٥).

وسئل الإمام الصادق ﷺ عن أفضل ما يتقرّب به العباد إلىٰ ربّهم، فقال ﷺ: ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة، ألا ترىٰ أنّ العبد الصالح عيسى بن مريم قال: ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً﴾ [مريم: ٣١](٦)، ولمّا أمر ﷺ بتعاهدها ومحافظتها والتقرّب بها، عقّب ذلك وعلّله بوجوه مرغبة.

---

(١) البحار ٨٢: ٢٧٧ ضمن حديث ٢٤.
(٢) البحار ٨٢: ٣٠٨ ح٨.
(٣) البحار ٨٢: ٢٣٢ ضمن حديث ٥٧.
(٤) البحار ٨٥: ١٦٢ ح٦.
(٥) البحار ٨٢: ٣٠٧ ح٤.
(٦) البحار ٨٢: ٢٢٥ ح٥٠.

أحدها قوله: «فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً» أي كانت على المؤمنين واجبة ومفروضة، وقيل معناه فرضاً موقوتاً أي منجماً يؤدّونها في أنجمها أي في أوقاتها.

عن داود بن فرقد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام قوله تعالى: ﴿**إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً**﴾ [النساء: ١٠٣] قال: كتاباً ثابتاً، وليس إن عجّلت قليلاً أو أخّرت قليلاً بالذي يضرّك، ما لم تضيّع تلك الاضاعة فإنّ الله جلّ وعلا يقول لقوم: ﴿**أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً**﴾ [مريم: ٥٩][١].

وتخصيص المؤمنين بها، لتحريضهم وترغيبهم علىٰ حفظها وحفظ أوقاتها حالتي الأمن والخوف، ومراعاة جميع حدودها في حالتي الأمن والايمان، وإنّ ذلك من مقتضى الايمان وشعار أهله فلا يجوز أن تفوتهم، وإنّ التساهل فيها يخلّ بالايمان.

الثاني: قوله عليه السلام: «ألا تسمعون إلىٰ جواب أهل النار» والغرض منه تنبيه المخاطبين علىٰ أنّ ترك الصلاة يوجب دخول النار، وسخط الجبّار، ليتحرّزوا من تركها ويحافظوا عليها، وذلك أنّ أهل النار حين سئلوا علىٰ ما حكى الله عنهم في سورة المدّثر بقوله:

﴿**كلّ نفسٍ بما كسبت رهينة ● إلّا أصحاب اليمين ● في جنّات يتساءلون ● عن المجرمين ● ما سلككم في سقر ● قالوا لم نكُ من المصلّين ● ولم نكُ نطعم المسكين ● وكنّا نخوض مع الخائضين ● وكنّا نكذّب بيوم الدين**﴾ [المدّثر: ٣٨-٤٦].

فكلّ نفس بما كسبت رهينة، أي محبوسة بعملها، مطالبة بما كسبته من طاعة أو معصية، ثمّ استثنىٰ سبحانه أصحاب اليمين، وهم الذين يعطوهم كتبهم بأيمانهم، وقوله تعالى: ﴿**يتساءلون عن المجرمين**﴾ أي عن حالهم وعن ذنوبهم التي استحقّوا بها النار ما سلككم في سقر، وهذا سؤال توبيخ، يعني يطلع أهل الجنّة علىٰ أهل

---

(١) البحار ٨٢: ٣١٥.

النار، فيقولون لهم: ما أوقعكم في النار؟ قالوا: لم نك من المصلّين، أي كنّا لا نصلّي الصلاة المكتوبة علىٰ ما قرّرها الشرع.

وفي هذا دلالة علىٰ أنّ الاخلال بالواجب يستحقّ به الذمّ والعقاب، لأنّهم علّقوا استحقاقهم العقاب بالاخلال بالصلاة، وقوله: ﴿ولم نكُ نطعم المسكين﴾ معناه لم نكُ نخرج الزكاة التي كانت واجبة علينا، والكفّارات التي وجب دفعها إلى المساكين وهم الفقراء، وقوله: ﴿وكنّا نخوض مع الخائضين﴾ أي كلّما غوىٰ غاوٍ بالدخول في الباطل غوينا معه، والمعنىٰ كنّا نلوّث أنفسنا في المرور بالباطل كتلويث الرجل بالخوض.

الثالث: قوله ﷺ: «انّها لتحتّ الذنوب حتّ الورق» أي تسقطها من الرقاب سقوط الأوراق من الأشجار، كما وقع التصريح به في الرواية عن سلمان الفارسي ﵁ قال: «كنّا مع رسول الله ﷺ في ظلّ شجرة، فأخذ غصناً منها فنفضه فتساقط ورقه، فقال ﷺ: ألا تسألوني عمّا صنعت؟ فقالوا: أخبرنا يا رسول الله، فقال: إنّ العبد المسلم إذا قام إلىٰ الصلاة تحاطّت خطاياه كما تحاطّت ورق هذه الشجرة»[1].

هذا والتشبيه في كلامه ﷺ من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس، وكذلك في قوله ﷺ: «وتطلقها اطلاق الربق» والمراد أنّها تطلق أعناق النفوس، أي تفكّها من أغلال الذنوب اطلاق أعناق البهائم من الارباق.

ولمّا ذكر ﷺ اسقاطها للذنوب، أيّده بقوله: «وشبّهها رسول الله ﷺ بالحمة تكون علىٰ باب الرجل فهو يغتسل منها، ويطهّر جسده من الأوساخ في اليوم والليلة خمس مرّات، فما عسىٰ أن يبقىٰ عليه شيء من الدرن» وكذلك من صلّى الصلوات الخمس لا يبقىٰ عليه شيء من الذنوب.

ولمّا أهبط آدم من الجنّة ظهرت به شامة سوداء من قرنه إلىٰ قدمه حتّىٰ طبعت بدنه بالسواد، فطال حزنه وبكاؤه علىٰ ما ظهر به، فأتاه جبرئيل فقال: ما يبكيك يا

---

(١) البحار ٨٢: ٢٠٨ ح١٧.

آدم؟ فقال: علىٰ ما ظهر بي، ألا ترىٰ هذه الشامة التي طبعت بدني بسوادها، قال: قم فصلّي فهذا وقت الصلاة الأُولىٰ.

فقام وجبرئيل يعلّمه فصلّى الصلاة فانحطّت الشامة إلىٰ عنقه، فجاءه في الصلاة الثانية، فقال: قم فصلّي فهذا وقت الصلاة الثانية، فلمّا صلّىٰ انحطّت الشامة إلىٰ سرّته، ثمّ جاءه للصلاة الثالثة ـ وهي المغرب ـ فلمّا صلّاها انحطّت الشامة إلىٰ ركبتيه، وكذلك في الرابعة والخامسة حتّىٰ ابيضّ بدنه، فقال له جبرئيل: يا آدم مثل ولدك في هذه الصلاة كمثلك في هذه الشامة[1].

الرابع: ما أشار إليه عليه‌السلام بقوله: «وقد عرف حقّها وقدرها رجال من المؤمنين لا تشغلهم عنها زينة متاع، ولا قرّة عين من ولد ولا مال» لعلمهم بأنّ المال والبنين زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربّهم ثواباً وخير أملاً.

* * *

الاستعانة بالله تعالىٰ:

قوله عليه‌السلام: «**وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذٰلِكَ بِالْاسْتِعَانَةِ بِإِلٰهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَىٰ ضَلَالَةٍ**».

أمره عليه‌السلام أن يبدأ قبل كلّ شيء بالاستعانة بربّه، بأن يطلب المعونة والمساعدة علىٰ اتمام عمل لا يستطيع المستعين الاستقلال بعمله وحده.

والاستعانة بالله كلية من كلّيات العقيدة الإسلامية، عميقة الأصل ظاهرة الأثر، فلا عبادة إلّا لله، ولا اتّجاه لغير الله، وما من قوّة في الكون إلّا قوّته، فالله وحده يعبد، والله وحده يستعان، يقول السبزواري في أُرجوزته:

أزمّة الأُمور طرّاً بيده والكلّ مستمدّة من مدده

وكما أمرنا الله تعالى بأن لا نعبد غيره؛ لأنّ السلطة الغيبية التي هي وراء

(١) البحار ١١: ١٦٦ ح ١١.

الأسباب ليست إلّا له دون غيره فلا يشاركه فيها أحد. كذلك أمرنا بأن لا نستعين بغيره أيضاً، وهذا يحتاج إلى البيان؛ لأنّه أمرنا أيضاً في آيات أُخرىٰ بالتعاون ﴿وتعاونوا على البرّ والتقوىٰ﴾ [المائدة: ٢] فما معنىٰ حصر الاستعانة به مع ذلك؟

الجواب: انّ كلّ عمل يعمله الإنسان تتوقّف ثمرته ونجاحه علىٰ حصول الأسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدّية إليه، وانتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه.

وقد مكّن الله تعالى الإنسان بما أعطاه من العلم والقوّة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب، وحجب عنه البعض الآخر، فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك، ونبذل في اتقان أعمالنا كلّ ما نستطيع من حول وقوّة، وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضاً علىٰ ذلك، ونفوّض الأمر فيما وراء كسبنا إلى القادر علىٰ كلّ شيء، ونلجأ إليه وحده، ونطلب المعونة المتمّمة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه، إذ لا يقدر علىٰ ما وراء الأسباب الممنوحة لكلّ البشر على السواء إلّا مسبّب الأسباب وربّ الأرباب.

والاستعانة بهذا المعنىٰ فزع من القلب إلى الله، وتعلّق من النفس به، وذلك من مخّ العبادة، فإذا توجّه العبد بها إلىٰ غير الله تعالى كان ضرباً من ضروب العبادة الوثنية التي كانت ذائعة في زمن التنزيل وقبله.

أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة من الإمام ﷺ إلىٰ أمرين عظيمين هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة:

أحدهما: أن نعمل الأعمال النافعة، ونجتهد في اتقانها ما استطعنا، لأنّ طلب المعونة لا يكون إلّا علىٰ عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفّه حقّه، أو يخشىٰ أن لا ينجح فيه، فيطلب المعونة علىٰ اتمامه وكماله، فمن وقع من يده القلم علىٰ المكتب لا يطلب المعونة من أحد علىٰ امساكه.

ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز على النهوض به وحده، يطلب المعونة من

غيره علىٰ رفعه، ولكن بعد استفراغ القوّة في الاستقلال به، وهذا الأمر هو مرقاة السعادة الدنيوية، وركن من أركان السعادة الأُخروية.

وثانيهما: تخصيص الاستعانة بالله وحده فيما وراء ذلك، وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص.

وهنا مفرق الطريق في التحرّر الإنساني المطلق من القوى المخلوقة جميعاً، قوى الإنسان أو قوى الطبيعة ـ أي التحرّر من عبودية النظم ومن عبودية الأوهام ـ وإذا كان الله وحده هو المستعان فقد تخلّص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص، فيكون المؤمن مع الناس حرّاً خالصاً وسيّداً كريماً لا سلطان لأحد عليه، ومع الله عبداً خاضعاً مخبتاً.

وأيضاً أنّ عبادة الله تعالى هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لألوهيّته، واستعانته هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لربوبيّته، أمّا الأوّل فظاهر؛ لأنّه هو الإله الحقّ فلا يعبد بحقّ سواه، وأمّا الثاني فلأنّه هو المربّي للعباد الذي وهب لهم جميع ما تكمل به تربيتهم الصورية والمعنوية.

ومن هنا تعلم أنّ ايراد ذكر العبادة والاستعانة بعد ذكر اسم الجلالة الأعظم، واسم الربّ الأكرم في القرآن المجيد إنّما هو لترتّبهما عليهما من قبيل ترتيب النشر علىٰ اللف.

والاستعانة بهذا المعنىٰ ترادف التوكّل على الله وتحلّ محلّه، وهو كمال التوحيد والعبادة الخالصة، ولذلك جمع القرآن بينهما في مثل قوله تعالى: ﴿ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كلّه فاعبده وتوكّل عليه﴾ [هود: ١٢٣].

فهذه الاستعانة هي ثمرة التوحيد واختصاص الله تعالى بالعبادة، فإنّ من معنىٰ العبادة الشعور بأنّ السلطة الغيبيّة التي هي وراء الأسباب العامة الموهوبة من الله تعالى لعباده كافة هي لله وحده، كما تنطق به الآية التي استشهدنا بها آنفاً علىٰ مقارنة العبادة بالتوكل.

فمن كان موحّداً خالصاً لا يستعين بغير الله تعالى قط، فما كان من أنواع المعونة داخلاً في حلقات سلسلة الأسباب كان طلبه بسببه طلباً من الله تعالى، ولكنّه يحتاج في تحقّق ذلك إلىٰ قصد وملاحظة وشهود قلبي، وما كان غير داخل فيها يتوجّه في طلبه إلى الله تعالى بلا واسطة ولا حجاب.

وبهذا البيان تعلم أنّه لا منافاة بين التوحيد والتوكّل من ناحية، وبين الأخذ بالأسباب وإقامة سنن الله تعالى فيهما من ناحية، بل الكمال والأدب في الجمع بينهما. فالسيّد المالك إذا نصب لعبيده وخدمه مائدة يأكلون منها غدواً وعشياً، وجعل لهم خَدَماً يقومون بأمرها لا يكون طلب الطعام منه إلّا بالاختلاف إلى المائدة، وإنّما ينبغي أن لا يغفلوا بها وبخدمها عن ذكر صاحب الفضل الذي أنشأها بماله، وسخّر أُولئك الخدم للآكلين عليها، ولا عن حمده وشكره.

هذا مثال مائدة الكون بأسبابه ومسبّباته، والعبد إذا احتاج شيئاً من الأشياء التي لم يجعلها سيّده مبذولة لجميع عبيده في كلّ وقت، طلبه منه دون سواه، فإن أظهر الحاجة إلىٰ غيره كان ذلك من قلّة ثقته بمولاه، وجعل ذلك الغير في مرتبته أو أجدر منه بالفضل.

هذا في العبيد مع السادة الذين لهم نظراء وأنداد، فكيف إذا كان العبد الذي يتوجّه إلىٰ مولاه لا يجد من يتوجّه إليه سواه إلّا أمثاله من العبيد المحتاجين إلى المولىٰ مثله، لأنّه هو السيّد الصمد الذي ليس له كفوًا أحد؟

ثمّ أنّ لفظ الاستعانة يشعر بأن يطلب العبد من الربّ تعالى الاعانة علىٰ شيء له فيه كسب ليعينه على القيام به، وفي هذا تكريم للإنسان يجعل عمله أصلاً في كلّ ما يحتاج إليه لا تمام تربية نفسه وتزكيتها، وإرشاد له إلىٰ أنّ ترك العمل والكسب ليس من سنّة الفطرة ولا من هدي الشريعة، فمن تركه كان كسولاً مذموماً لا متوكّلاً محموداً، وبتذكره من جهة أُخرىٰ بضعفه لكيلا يغترّ فيتوهّم أنّه مستغن بكسبه عن عناية ربّه فيكون من الهالكين في عاقبة أمره.

وصفوة القول إنّ الذي استعرضناه، هو الذي يقتضيه محض الايمان بالله، إذ الاستعانة بالله شعبة من شعب الايمان به وفرع من فروعه.

الايمان الذي هو ركن من أركان الإسلام، وأهمّ أصل من أُصوله، وقد نادت الشرائع والأديان كافّة بالايمان بالله، فقد كانت دعوة كلّ نبيّ ورسول علىٰ توالي الزمن أنْ آمنوا بالله.

وقد قرَّب الإسلام صفات الله للناس بما أوضحه لهم في القرآن الكريم من سمات هذه الأوصاف، وبما ضربه لهم من الأمثال علىٰ هذه الصفات.

فقطع القرآن الكريم بوحدانيّة الله، وحدانية منزّهة عن الشرك وعن المثل، فليس لله سبحانه وتعالى شريك، لم يلد ولم يولد، وقد تنزّه عن الأشياء فليس له كفواً أحد: ﴿قل هو الله أحد ● الله الصمد ● لم يلد ولم يولد ● ولم يكن له كفواً أحد﴾ [سورة الاخلاص].

﴿وما من إلهٍ إلّا إلهٌ واحد﴾ [المائدة : ٧٣].

﴿فاعلم أنّه لا إله إلّا الله واستغفر لذنبك﴾ [محمّد : ١٩].

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ [النساء : ٣٦].

﴿ما اتّخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾ [المؤمنون : ٩١].

﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلّا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء : ٢٢].

وقرّر الإسلام أنّ الله سبحانه وتعالى ربّ كلّ شيء في الوجود، فهو ربّ العالمين، العلوي والسفلي، والظاهر والباطن، ليس فوقه شيء، وهو الأوّل فليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، لا حول ولا قوّة إلّا به، له الملك لا شريك له ولا إله إلّا هو، إليه النشور، له الأمر كلّه، والحياة والموت بأمره، ربّ السماوات والأرض وربّ ما بينهما، وربّ العرش العظيم.

﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين﴾ [الاعراف : ٥٤].

﴿قل من ربّ السموات والأرض قل الله﴾ [الرعد : ١٦].

﴿ربّ السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته﴾ [مريم : ٦٥].

﴿الله لا إله إلّا هو ربّ العرش العظيم﴾ [النمل : ٢٦].

﴿ذلكم الله ربّكم فتبارك الله ربّ العالمين﴾ [غافر : ٦٤].

وهو الخالق، خلق كلّ شيء، السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما وما تحتهما وما فوقهما، ﴿قل الله خالق كلّ شيء وهو الواحد القهّار﴾ [الرعد : ١٦].

﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ [الأنعام: ١].

﴿إنّ في اختلاف الّيل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقومٍ يتّقون﴾ [يونس : ٦].

الآثار النفسيّة للايمان:

إنّ الايمان بالله الذي هذه سماته وصفاته، والذي هذه قدرته وقوّته يفعل في المؤمن به ما لا يستطيع الطب بكافة أنواعه أن يقوم به.

يقول الدكتور «كارل يونج» من أعظم أطبّاء النفس في كتابه «الإنسان العصري يبحث عن نفسه»: «وإنّ كلّ المرضىٰ الذين استشاروني خلال الثلاثين سنة الماضية من كلّ أنحاء العالم كان سبب مرضهم هو نقص ايمانهم وتزعزع عقائدهم، ولم ينالوا الشفاء إلّا بعد أن استعادوا ايمانهم».

ولقد قال أفلاطون: «إنّ أكبر أخطاء الأطبّاء أنّهم يحاولون علاج الجسد دون العقل، في حين أنّ العقل والجسد وجهان لشيء واحد، فلا ينبغي أن يعالج أحد الوجهين علىٰ حدة».

وبعد ألفين وثلاثمائة عام، وهي المدّة التي استغرقها علم الطبّ ليتحقّق من صدق هذا القول، أنشئ «الطبّ النفسي الجسماني» بعد أن أصبحت الخسائر التي تحدثها الأمراض النفسية في الأرواح عشرة آلاف ضعف خسائر مرض الجدري

مثلاً الذي تحاربه الدول، وتعقد الاتّفاقات الدولية في سبيل حماية العالم من شرّه.

وليست الأمراض النفسية أمراضاً وهمية، إذ يقول الدكتور «جوبر» كبير اتحاد المستشفيات بأمريكا: «ليست الأمراض النفسية أمراضاً وهمية بل هي حقيقة لها ألم يعدل ألم الأسنان التالفة وربّما أشدّ منها بمئات الأضعاف، وأذكر مثلاً لهذه الأمراض: عسر الهضم العصبي، وقرحة المعدة، واضطرابات القلب، والأرق، والصداع، وبعض أنواع الشلل».

وتعاني الإنسانية في كافّة الدول من الأمراض النفسية ما جعلها تضع الطبّ النفسي الآن في مقدّمة فروع الطب، وزوّدت المصانع والمؤسّسات ومعاهد التعليم في كلّ البلاد بالعيادات النفسية لخطورة ما تسبّبه هذه الأمراض.

وقد صرّح الدكتور «مايو» وهو أحد أصحاب المستشفىٰ المعروف بهذا الاسم في أمريكا: بأنّ أكثر من نصف عدد المخادع في كافة المستشفيات يشغلها أشخاص يشكون من اضطرابات عصبيّة لا جسمانية، واستقرّ الرأي أخيراً علىٰ أنّ قرحة المعدة سببها القلق، فيقول الدكتور «جوبر»: «إنّ القلق يجعل العصارات الهاضمة تتحوّل إلىٰ عصارات سامّة تؤدّي في كثير من الأحيان إلىٰ قرحة المعدة».

ويقول الدكتور «جوزيف مونتاجي» في كتابه «اضطرابات المعدة العصبيّة»: «إنّ قرحة المعدة لا تأتي ممّا تأكله ولكنّها تأتي ممّا يأكلك».

ويقول الدكتور «الكسيس كاريل» الحائز علىٰ جائزة نوبل في الطبّ: «إنّ الذين لا يكافحون القلق يموتون مبكراً».

ومن عجب أن يصل البُحّاث والأطبّاء إلىٰ أنّه لا علاج لهذه الأمراض إلّا الايمان بالله القادر الواحد الأحد، فيقول «وليم جيمس» أُستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد: «إنّ أعظم علاج للقلق ولا شكّ هو الايمان».

ويقرّر الدكتور «بريل»: «إنّ المرء المتديّن حقّاً لا يعاني قطّ مرضاً نفسياً».

ويقول ديل كارنيجي: «إنّ أطباء النفس يدركون أنّ الايمان القوي والاستمساك

بالدين كفيلان بأن يقهرا القلق والتوتّر العصبي، وأن يشفيا هذه الأمراض».

وهل هناك ايمان أقوىٰ من ذلك الذي دعـا إليـه الإسـلام في آيـات القـرآن الكريم؟!

أو ليست دعوة الإسلام إلىٰ الايمان المطلق بالله ايماناً كاملاً قوياً وقاية للإنسان وعلاجاً له من كافّة الأمراض النفسية وكثير من الأمراض العضوية.

الله مقدّر الأرزاق:

ومن ضمن الصفات التي وصف الإسلام بها الله سبحانه وتعالى: أنـه الرزّاق وغيره المرزوق، وأنّه صاحب الرزق ومقسمه إن شاء أعطىٰ بغير حساب وإن أراد قدَّر الرزق كيف يشاء.

﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القويّ العزيز﴾ [الشورىٰ : ١٩].

﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [النور : ٣٨].

﴿إنّ الله هو الرزّاق ذو القوّة المتين﴾ [الذاريات : ٥٨].

﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ [الرعد : ٢٦].

فليس إذاً للإنسان من أمر رزقه شيء، اللّهمّ إلّا السعي للحصول عليه دون أن يكون له فيه شيء من زيادة أو نقص، فما هدف الإسلام من ذلك؟

تدلّ الاحصاءات علىٰ أنّه في كلّ خمس وثلاثين دقيقة يقع حادث انتحار، وفي كلّ مائة وعشرين ثانية يصاب شخص بالجنون، ولقد تفشىٰ بين الناس ما سمّـي بمرض الانهيار العصبي، وهو أخطر الأمراض النفسية والعضوية، ومعظم حالات الانتحار والجـنون والانهـيار العـصبي إن لم تكـن كـلّها، مـرجـعها إلى الرزق أو الاصطراع في سبيله، أو الكارثة بفقده، أو الطمع في زيادته.

وقد جاء في احصائية نشرتها مجلة «ليديز هوم جورنال»: «أنّ سبعين في المائة من القلق الذي يعانيه الناس مرجعه إلى المال». وليس من وقاية للإنسان من هذه

الحوادث إلّا الايمان بالله الرزاق، الذي قسّم الأرزاق بين العباد دون أن يكون للمرء دخل فيها.

يقول «ديل كارنيجي»: «كان والداي يعملان جاهدين كالعبيد المسخّرين ستّ عشرة ساعة في اليوم، وبرغم ذلك فقد كان يثقلنا الدين ويركبنا سوء الطالع على الدوام، ولقد دأبت الفيضانات المتعاقبة علىٰ إغراق محصولاتنا وتحالف مع الفيضانات المتوالية وباء الكوليرا الذي كان يفتك بماشيتنا، وبعد أعوام طويلة من المجهود المضني والعمل الشاقّ الفينا أنفسنا لا معدمين فحسب بل مُرهَقين بالدين الفادح.

وانتهىٰ الأمر بأن رهنت مزرعتنا، ولقد طالما أذاقنا المصرف المرهونة لديه أرضنا صنوفاً من الهوان وفنوناً من الإذلال، وطالما هدّدنا بانتزاع ملكية الأرض التي هي مورد رزقنا الوحيد، وقد وقع أبي فريسة القلق وانهارت صحّته وتناقص وزنه، وأنبأ الطبيب والدتي أنّ أبي قد فقد الرغبة في مواصلة الحياة، وكثيراً ما سمعت والدتي تقول: إذا تأخّر أبي عن موعد عودته فإنّها تشفق أن تسعىٰ إليه فتجد جثّته متدلية من طرف حبل غليظ.

وفي ذات يوم جدّد المصرف وعيده لأبي بانتزاع مزرعتنا، فلمّا مرّ أبي في طريق عودته إلى البيت بجسر فوق النهر أوقف عربته وترجل منها، ووقف ذاهلاً شارداً يتأمّل مياه النهر المنسابة تحته، وكأنّما يهمّ بأن يلقي نفسه بين أحضانها، وقد حدّثني أبي بعد ذلك بأعوام فقال: إنّ الحائل الوحيد الذي منعه من القاء نفسه في اليمّ هو اعتقاده الراسخ بوجود الله، وأنّه سبحانه لابدّ متبع العسر بيسر، وكان أبي علىٰ صواب، فقد جاء الفرج بعد الكرب وعاش أبي بعد ذلك في رغد من العيش مدّة اثنين وأربعين عاماً».

هذا هو أحد أهداف الايمان المطلق بالله الرزّاق، ولو عرف كلّ إنسان أنّ رزقه هو كما شاء الله له، أفيطغىٰ شريك علىٰ آخر؟ أيأخذ مؤمن غير حقّه بهتاناً أو

زوراً؟ أيحقد انسان علىٰ غيره لسعة رزقه؟ أتظلّ الخلافات والحوادث التي سببها بغي الفرد وطمع الشريك في رزق قدّره الله ورتّبه وقرّره؟

الله عليم بكل شيء:

وهل اقتصر فضل الايمان بالله علىٰ ذلك؟

يعلمنا القرآن الكريم أنّ الله سبحانه وتعالى عليم بكلّ شيء، لا تخفىٰ عليه خافية، حتّىٰ الورقة التي تسقط، والحبّة في الظلمات، بل عليم بذات الصدور.

﴿إنّ الله عالم غيب السموات والأرض إنّه عليم بذات الصدور﴾ [فاطر : ٣٨].

﴿إنّ الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون﴾ [الحجرات : ١٨].

﴿يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرّون وما تعلنون﴾ [التغابن : ٤].

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقةٍ إلّا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين﴾ [الأنعام : ٥٩].

هذا العليم ـ إذا ما امتلأ القلب ايماناً به وبأنّه يرىٰ ويسمع في كلّ لحظة وآن، وفي كلّ مكان وأوان ـ هل يعصيه المؤمن؟ إنّ اللصّ لا يحاول أن يسرق إلّا في غفلة من الشرطي الذي يمثّل أمامه القوّة والسلطة، وأي مجرم لا يرتكب جرمه إلّا خلسة في جنح الظلام حتّىٰ يأمن الاختفاء من حُماة القانون، فهل يسرق المرء إذا آمن ايماناً كالذي يدعو إليه الإسلام؟ أيسرق وهو يعلم أنّ الله معه وأنّه يراه؟

أيزني وهو يعرف أنّ الله يرقبه؟ أيقتل وهو مؤمن بأنّ الله سيتولّىٰ قصاصه وحسابه؟ أيرتكب خيانة أو فحشاً مهما كان نوع الخيانة قولاً أو فعلاً؟

إنّ الإنسان يردعه وجود الأكبر منه معه أباً كان أخاً أو رئيساً أو قاضياً، فكيف بربّ السماوات والأرض؟ إنّ الانسان ليخشىٰ مع المخالفة سلطة القانون

فيحاول دائماً أن يرتكبها في غفلةٍ منه، فكيف ببطش ربّك الشديد، الذي يراك وتقلبك في كلّ آونة وحين؟

الايمان هو العلاج الحقيقي:

أولا يكون علاج المجتمع من جرائمه في ضرورة تفهّم المسلم ما أراده الله من الدعوة إلى الايمان بالله في الإسلام؟

وقد وصف الإسلام الله سبحانه وتعالى بالرحمة فهو الرحمن الرحيم، وإنّه هو الذي تفرّد بالرحمة وانفرد بالمغفرة.

﴿نبّئ عبادي أنّي أنا الغفور الرحيم﴾ [الحجر: ٤٩].

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا علىٰ أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرحيم﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثمّ يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ [النساء: ١١٠].

فايمان الإنسان بأنّ الله يغفر الذنوب جميعاً، وأنّه إذا استغفره الإنسان غفر له، من ضمن وسائل العلاج المستحدثة التي لم يصل إليها الطبّ إلّا في العصر الحديث، وإن كان لم يصل إلىٰ ما وصل إليه طبّ الإنسان في هذه الآيات الشريفة.

فقد قرّر علماء النفس ـ وعلىٰ رأسهم «فرويد» مؤسّس مدرسة التحليل النفسي ـ أنّ كافة الأمراض النفسية ترجع إلى الكبت الذي يسبّب عقداً نفسية لا شفاء منها إلّا بما يسمّونه التحليل النفسي الذي يتمّ بأن يجلس الإنسان في عيادة الطبيب النفساني ويعترف أمامه بأخطائه.

وهذا الاعتراف يقول عنه الأطبّاء إنّه صفة منطقية نفسية سلوكية تكشف عن أخطاء المريض فيراها ويشعر بها، فتحدث مهادنة بين النفس والضمير، فيتسامح الضمير، وإذا ما تسامح الضمير واستشعر الإنسان العفو منه والصفاء بينه وبين

النفس زالت العقدة النفسية، وعاد الإنسان إلىٰ حالته الطبيعية.

هذا والعقد النفسية ليست وهماً، وليس ما تسبّبه من أمراض وهماً، كما أنّ الألم والظواهر التي تصاحب هذه الأمراض إنّما هي أشدّ من الأمراض العضوية وتماثلها في الأعراض، وكثيراً ما تسبّب هذه العقد الصداع واضطرابات القلب، وأمـراض الضغط العالي وغيرها من الأمراض، وإذا كان علاجها هو الاعتراف بالخطأ أمام الطبيب ليتسامح الضمير فأيّ فرق بين الاعتراف أمام الله وأمام الطبيب؟ وأي فرق بين غفران الله وتسامح الضمير؟ هذا هو الفرق بين دعوة الإسلام إلى الايمـان بـالله وبين أيّة دعوة لغير الله.

الله مع الانسان:

ويدعو الإسلام الناس كافّة إلى الايمان بأنّ الله مع كلّ انسان على الدوام، ولذا فإنّ الإنسان ليس وحده في الدنيا.

﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستّة أيّام ثمّ استوىٰ على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير﴾ [الحديد : ٤].

﴿إنّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون﴾ [النحل : ١٢٨].

﴿ألم تر أنّ الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوىٰ ثلاثة إلّا هو رابعهم ولا خمسة إلّا هو سادسهم ولا أدنىٰ من ذلك ولا أكثر إلّا هو معهم أين ما كانوا ثمّ ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إنّ الله بكلّ شيء عليم﴾ [المجادلة : ٧].

﴿قال لا تخافا إنّني معكما أسمع وأرىٰ﴾ [طه : ٤٦].

وايمان الإنسان بأنّه ليس وحيداً وأنّ الله معه يعتبر وقاية من أخطر ما يصيب الإنسان بسبب وحدته وانعزاله، فكثيراً ما ينعزل طفل عن المجـموعة لسـبب أو غيره ممّا يمتّ للشعور بالوحدة، ويسبّب هذا الانعزال ما يسمّىٰ بالنكوص، وهـو

انطواء النفس علىٰ ذاتها وقطع صلتها بالغير.

ويعتبر أطبّاء علم النفس حالات النكوص أخطر المشاكل السلوكية التي تعترض الإنسان، إذ تتّخذ دائماً شكلاً مرضياً لا شكّ فيه، ولها أعراض مميّزة، بل لها أمراض مخصّصة هي نواتج لهذه الاحساسات، منها المرض السوداوي الذي من أعراضه الكآبة والخوف والتشاؤم وعدم الرغبة في الحياة والشعور بالرغبة في الانتحار الذي كثيراً ما يلجأ إليه المريض ليتخلّص من هذه الاحساسات.

ومن أمراض النكوص كذلك ما يسمّىٰ بالفصام الذي يظهر في سنّ المراهقة، وأعراضه تماثل أعراض المرض السوداوي إلّا أنّها تزيد عليه باحساس المريض بأنّه يعيش في عالم يفقد مادّيته وواقعيّته وحقيقته، وإذا اشتدّ هذا المرض سبّب ما يسمّى الجنون الهذائي التأويلي.

وأهمّ ما يشير به علماء النفس في علاج مثل هذه الحالات هي دفع المريض إلى الاشتراك في النشاط الاجتماعي، حتّىٰ يحسّ الإنسان بأنّه مع غيره وبأنّه عضو في مجتمع مرتبط به، وحتّىٰ يقيم أواصر مودّة مع غيره من أفراد المجتمع ليعوّض ما كان يحسّه من انطواء، كما أنّ أهمّ ما ينصح به أطبّاء النفس للوقاية والعلاج من مثل هذه الأمراض هي خلق صداقة مع المريض حتّىٰ ينعدم فيه الشعور بالانعزال.

وهل هناك نسبة بين الصديق ـ مهما كان هذا الصديق ـ وبين الله سبحانه؟ وإذا أحسّ الإنسان من يوم أن يدرك الحياة بأنّ الله معه، يسمعه ويراه، ويأخذ بيده ويرعاه، فهل يحسّ بالوحدة أو العزلة؟ وهل يحتاج بعد ذلك إلىٰ علاج؟[1] أو هل تنتابه مثل هذه الأمراض؟ وما أصدق ـ جون أنتوني ـ المحامي بمدينة هدستون بولاية تكساس وهو يقول:

«ما أسهل أن يهزم الرجل الذي يقاتل بمفرده، أمّا الرجل الذي يتّخذ من الله سنداً ونصيراً فممتنع على الهزيمة».

---

(١) فقد ورد الاشارة إلى هذا المعنى في المناجات الشعبانية حيث يقول: «الهي انّ من تعرّف بك غير مجهول، ومن لاذ بك غير مخذول... الهي انّ من انتهج بك لمستنير، وانّ من اعتصم بك لمستجير».

التقدير بيد الله:

وممّا أورده القرآن الكريم من صفات الله ـ التي طالب الإسلام الناس بالايمان بها ـ أنّه سبحانه المقدّر لكلّ أمر، الفعّال لكلّ ما يحدث في الكون والخلق، من قبل الخلق إلىٰ ما بعد الانتهاء، وأنّه سبحانه كما قدّر دوران الأكوان في مداراتها، قدّر حظّ كلّ كائن من يوم أن يخطو إلىٰ أن ينتهي به المسير، وهذه الصفات لله تحتم على الإنسان أن يؤمن بأنّ كلّ شيء كائن إنّما هو مقدّر من الله.

﴿هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء﴾ [آل عمران : ٦].

﴿وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾ [القصص : ٦٨].

﴿قل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾ [التوبة : ٥١].

﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس : ٨٢].

وكما أنّ الله سبحانه وتعالى قد رسم للأفلاك نظامها، فهي لا تحيد عنه إلّا بما شاء، كذلك رسم للإنسان ـ وهو أحد أحياء هذا الكون ـ ما ليس له فيه دخل، فرزقه وأجله وعقله ممّا لا دخل للإنسان فيه، أمّا العمل الصالح وغير الصالح فهو نسيج الإنسان وحده، فيقول الله في سورة يونس:

﴿قل يا أيّها الناس قد جاءكم الحقّ من ربّكم فمن اهتدىٰ فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾ [يونس : ١٠٨].

وفي سورة الإنسان:

﴿إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾ [الإنسان : ٣].

ولقد كان الايمان بالقضاء والقدر موضع دراسات كثيرة من يوم أن نادىٰ به الإسلام، وكان خصوم الإسلام يتّخذون من هذا التسليم المطلق لله وسيلة لقولهم إنّ الإسلام دين تواكل واستسلام، وقد أوضح العلم الحديث ـ بعد أن تقدّمت أبحاث علوم النفس والاجتماع ـ مدىٰ ما هدف إليه الإسلام بالايمان بالقضاء

والقدر من خير المسلم والإسلام.

إنّ الايمان بالقضاء والقدر يخلق في نفس المؤمن به رضاً يجعله يقبل كلّ ما يصيبه من مكروه ويسترجع ويستعيذ بالله القائل:

﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾ [البقرة : ١٥٦].

فهل هناك عزاء للنفس، وتصبير للمصاب أكثر من ذلك.

والاحساس بالرضا بما ليس منه بُد، هو ما ينصح به علماء النفس وحكماء العصر الحديث، فنصيحة «وليم جيمس» وهو أحد مشاهير الفلاسفة، التي يضعها علماء النفس موضع الاعتبار نصّها: «كن مستعداً لتقبّل ما ليس منه بد، فإنّ تقبل الأمر الواقع خطوة أولىٰ نحو التغلّب علىٰ ما يكتنف هذا الأمر الواقع من صعاب».

أمّا شوبنهور الفيلسوف المعروف فإنّه أودع نتائج دراسته لشؤون الحياة في حكمته القائلة: «إنّ التسليم بالأمر الواقع ذخيرة لا غناء عنها في رحلاتنا عبر الحياة».

وعندما قالت «مرجريت فوللر» إحدىٰ زعيمات النهضة النسائية في نيوإنجلند، في اجتماع كبير بها: «إنّني أرضىٰ بكلّ صروف الدهر» علّق «توماس كارليل» الكاتب المعروف قائلاً: «إنّ هذا والله خير ما تفعله». يقول «سينكا» أحد فلاسفة الرومان العظام: «إذا بدا لك كلّ ما لديك قليلاً فاعلم أنّك لو امتلكت الدنيا لاعتقدت أنّ ما لديك قليل».

ويقول «ديل كارنيجي»: «لقد قرأت خلال الأعوام الثمانية الماضية كلّ كتاب وكلّ مجلة وكلّ مقالة عالجت موضوع القلق، فهل تريد أن تعرف أحكم نصيحة وأجداها خرجت بها من قراءاتي الطويلة، إنّها: إرضَ بما ليس منه بد».

وايمان الناس بأنّ الله قد كتب عليهم كلّ ما يصيبهم يجعلهم يتوخّون في معاملاتهم السماحة، والصفاء، والحبّ، والسلام، طالما أنّ الرابح يعلم أنّ ربحه من الله، وغير الرابح يؤمن بأنّ هذا ما أراده الله فلا حقد إذاً ولا حسد، إنّما صفاء ومحبّة.

وكلّ خير يصيب الإنسان ويعلم بأنّ الله صاحبه، وكلّ نعمة يذكرها المرء علىٰ أنّها من عند الله لها تأثيرها في عقل الإنسان وجسمه فيقول الله في هذا: ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [النحل : ١٨]، ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ [آل عمران : ١٤٤].

والإسلام يطلب أن نعدّ نعمة الله، ويقرّر أنّنا بشكرنا الله علىٰ هذه النعم لنا الجزاء في الدنيا والآخرة، أمّا في الآخرة فسيتولّاه الله بما يعلم، وأمّا في الدنيا فقد أوضح علم النفس أنّ حديث الإنسان إلىٰ نفسه عمّا يستحقّ شكر الله عليه هو وسيلة النجاح في الحياة، والتخلّص من كلّ العقد النفسية التي تصيب الإنسان.

فيقول «ديل كارنيجي» مؤسّس معهد العلاقات الإنسانية بنيويورك: إنّ كالنتبورن بعد أن أصاب نجاحاً كبيراً في أعماله طلب منه نصيحة يقدّمها للشباب المتلهّف على النجاح فقال: «فليتحدّثوا كلّ يوم إلىٰ أنفسهم كما كنت أفعل، ففي هذا حفز على العمل وشحذ للهمم، فإنّ حياتنا من نسيج أفكارنا وخواطرنا.

وبحديثك إلىٰ نفسك كلّ صباح تستطيع أن تزوّد نفسك بخواطر الشجاعة والسعادة والقوّة والسلام، وبحديثك إلىٰ نفسك عن الأشياء التي تستحقّ أن تشكر الله عليها تملأ ذهنك بخواطر البهجة والانشراح، وإذا ملأت ذهنك بالأفكار الصحيحة وسعك أن تستمتع بأيّ عمل مهما يثقل عليك».

ويقول «جون ميللر» مؤلّف كتاب «إلق نظرة علىٰ نفسك»، إنّه قد التزم في حياته خطّة ينصح بها الدكتور سيروليم أوسلر الذي يعتبر من كبار رجال الطبّ والذي يسمّوه عبقرياً في معالجة الحياة، وهي: «أن تعاقب الليل والنهار كفيل من تلقاء ذاته بمحو القلق، فلذا لا أُفكّر في مشكلة تطرأ لي وتستحثّني على القلق حتّىٰ ينقضي عليها أُسبوع».

وبديهي أنّه بعد هذه المدّة إمّا أن تكون المشكلة حلّت، وإمّا أن يكون قد تغيّر التفكير فيها.

أمّا بودلي فيقول في «عشت في جنّة الله»:

«إنّني لم أعان شيئاً من القلق قطّ وأنا أعيش في الصحراء، بل هناك في جنّة الله وجدت السكينة والقناعة والرضا، وكثيرون من الناس يهزؤون بالجبرية التي يؤمن بها الأعراب، ويسخر من امتثالهم للقضاء والقدر، ولكن من يدري؟ فلعلّ الأعراب أصابوا كبد الحقيقة، فإنّي إذ أعود بذاكرتي إلى الوراء، وأستعرض حياتي، أرىٰ جلياً أنّها كانت تتشكّل في فترات متباعدة تبعاً لحوادث تطرأ عليها، ولم تكن قط في الحسبان أو ممّا أستطيع له دفعاً.

والعرب يطلقون علىٰ هذا اللون من الحوادث «مكتوب أو قسمة أو قضاء الله» وسمّه أنت ما شئت، وإنّني بعد انقضاء سبعة عشر عاماً علىٰ مغادرتي الصحراء ما زلت أتّخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأُقابل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة، ولقد أفلحت هذه الطباع التي كسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر ممّا تفلح آلاف المسكّنات والعقاقير».

ويقول ادوارد ايفانز في «مذكّراته» بعد أن أصابته كوارث مالية كادت أن تودي بحياته: «لم أستطع أن آكل أو أنام، وانتابني المرض، المرض الذي جرّه عليّ القلق وشيء غير القلق، وبينما أنا أسير ذات يوم أدركني الأعياء وتهاويت في عرض الطريق وحملني الناس إلىٰ بيتي، ولم ألبث حتّىٰ تفجّر جسمي بثوراً مؤلمة حتّىٰ إنّ مجرّد الرقاد في الفراش أصبح محنة شديدة.

وكان هزالي يزداد يوماً بعد يوم، وأخيراً أنهىٰ إليّ الطبيب أنّني لن أمكث حيّاً أكثر من أُسبوعين، وصدّقت ذلك وكتبت وصيّتي ولبثت في الفراش أنتظر النهاية المحتومة، لم يعد يجدي إذ ذاك الخوف والقلق، ومن ثمّ امتثلت للأقدار واسترخيت ورحت في نوم عميق بدأت بعده المتاعب التي كنت أحسّها تختفي وعادت شهوتي إليّ ... وبعد أسابيع قليلة استطعت المشي، ثمّ استطعت أن أعود إلى العمل مرّة أُخرىٰ».

وقد نجح «ايفانز» بعد ذلك نجاحاً منقطع النظير، وأصبح رجلاً من أنجح رجال الأعمال في الولايات المتّحدة، وفي «جرينلاند» الآن مطار يحمل اسمه.

أليس ذلك بسبب امتثاله لقضاء الله؟

هذا هو بعض ما هدف إليه الإسلام في دعوته إلى الايمان بالله، أوضحها التقدّم في العصر الحديث.

وهذا هو الايمان الذي دعا إليه الإسلام، ايمان بالله الذي لا حول ولا قوّة لأحد إلّا به، ولا ملجأ منه إلّا إليه، ولا تدب نملة سوداء علىٰ حجر صلد في الليل البهيم إلّا وهو يراها، ولا ينبض عرق في جزء من كائن في أيّ مكان إلّا بأمره، ولا يغفل عن شيء بآخر، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تقوم الحياة إلّا بأمره، وإذا أراد شيئاً فإنّما يقول له كن فيكون.

هذا الايمان بالله كما دعا إليه الإسلام، ليملأ شعاب القلب والفكر والنفس والحسّ، ويملك على المرء حواسّه ومشاعره، يجعل من الله الحقيقة الكبرىٰ، وفي ذلك يقول «جيمس متشز»: «وكثيراً ما أحسست وأنا أعيش بين المسلمين أنّ الله عندهم حقيقة أكبر ممّا هي عند المسيحيّين».

وصدق الله العظيم الذي يقول:

﴿يوم ترىٰ المؤمنين والمؤمنات يسعىٰ نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾ [الحديد: ١٢].

الفصل الثامن
الاعتراف بالجهل وطلب العلم

«فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي، وَٱعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ ٱلْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ ٱلْحَيَاةِ، وَأَنَّ ٱلْخَالِقَ هُوَ ٱلْمُمِيتُ، وَأَنَّ ٱلْمُفْنِيَ هُوَ ٱلْمُعِيدُ، وَأَنَّ ٱلْمُبْتَلِيَ هُوَ ٱلْمُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَىٰ مَا جَعَلَهَا ٱللهُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلنَّعْمَاءِ، وَٱلْابْتِلَاءِ، وَٱلْجَزَاءِ فِي ٱلْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَىٰ جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلاً ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ ٱلْأَمْرِ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ!».

* * *

التوحيد في كل الحالات:

قوله عليه السلام: «فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي، وَٱعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ ٱلْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ ٱلْحَيَاةِ، وَأَنَّ ٱلْخَالِقَ هُوَ ٱلْمُمِيتُ، وَأَنَّ ٱلْمُفْنِيَ هُوَ ٱلْمُعِيدُ، وَأَنَّ ٱلْمُبْتَلِيَ هُوَ ٱلْمُعَافِي».

يرمز ـ صلوات الله عليه ـ بهذا القول إلىٰ التوحيد فيما ينوب الإنسان من أحوال متفاوتة، وعوارض متباينة، ويعلم بذلك أنّه في كلّ حال تحت قبضة المولىٰ

سبحانه وقدرته مسيطرة عليه، فلا يمكنه الحيدان عن سلطانه، ولا المهرب من بطشه.

فإذا شيئت له الحياة فبمشيئته، وإذا تقرّرت له الوفاة فتحت نفوذه وقهره، وهو الذي يدير الأمر في الحالين ويدبّره، وإنّ الذي يباشر تكوينه منذ بدأ الخليقة هو الذي يعيد كيانه بعد فناء حياته وبلاء جثمانه، فهو الذي أنعم عليه بنعمة الخلقة أوّلاً وسوف يعيده إلى النعيم الخالد أو العذاب الواصب.

وقيّد خيرة الإنسان ما يرتئيه لمستقبله الكشّاف من خير وشر، قال تعالى: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾ [الأسراء : ٧] وإنّ الذي يمتحنه ليظهر مدىٰ صبره المتأكّد، وايمانه الراسخ هو الذي يمنحه العافية والنجاة.

والبلاء علىٰ ما يقال منحة ومحنة، فقد يراد التشديد عليه لاكبار مقامه وعلوّ رتبته، فيثاب عليه ويظهر فضله ومقدار صبره، وقد يرام منه الشدّة فحسب من غير انتهاء إلىٰ مثوبة فهو نقمة وخذلان نعوذ بالله منهما، وقديماً ما قيل «التكليف بلاء» لما فيه من المشقّة للبدن، والمخالفة للنفس.

الفقر في لسان الأحاديث:

ومن أجلىٰ مصاديق البلاء هو الفقر المدقع الشديد، وقد اختلفت المأثورات في ذمّه ومدحه، والحقيقة التي لا محيد عنها، أنّ الأحاديث الذامّة مسوقة لذمّ المعنى المصدري الذي هو المبدأ، وأمّا الأحاديث المادحة فالمراد بها حامل المبدأ كالفقير الذي قرن فقره بالصبر والشكر.

فمن الفريق الأوّل: قول أمير المؤمنين ﷺ في كلماته القصار: «لو كان الفقر رجلاً لقتلته»، وهو ﷺ القائل: «ما ضرب الله عباده بسوط أوجع من الفقر»[1].

وقال الصحابي الكبير الزاهد أبو ذر الغفاري ﵁: «عجبت لمن لا يجد القوت في

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٢٠ : ٣٠١.

بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه»، وهو القائل أيضاً: «إذا ذهب الفقر إلىٰ بلد قال له الكفر خذني معك»، وقال رسول الله ﷺ: «الفقر سواد الوجه في الدارين»[١].

ومن الفريق الثاني: قول رسول الله ﷺ: «الفقر فخري»[٢] وقال: «أكثروا معرفة الفقراء، واتّخذوا عندهم الأيادي فإنّ لهم دولة»[٣].

وقال ﷺ: «يقوم فقراء أمّتي يوم القيامة وثيابهم خضر، وشعورهم منسوجة بالدرّ والياقوت، وبأيديهم قضبان يخطبون على المنابر فيمرّ عليهم الأنبياء، فيقولون: هؤلاء من الملائكة، وتقول الملائكة: هؤلاء من الأنبياء، فيقولون: نحن لا ملائكة ولا أنبياء، بل من فقراء أمّة محمّد ﷺ، فيقولون: بم نلتم هذه الكرامة؟ فيقولون: لم تكن أعمالنا شديدة، ولم نصم الدهر، ولم نقم الليل، ولكن أقمنا على الصلوات الخمس، وإذا سمعنا ذكر محمّد ﷺ فاضت دموعنا علىٰ خدودنا»[٤].

والظاهر الجلي من هذه الرواية أنّ الذي سنّمهم هذا المرتقىٰ هو الايمان الخالص والحبّ البالغ لنبيّ العظمة ﷺ، وهو الذي كان يحدو بهم إلىٰ أن يجروا دموعهم غزاراً علىٰ خدودهم شوقاً ومودّةً.

وروي عن طريق أهل البيت عليهم السلام: «إنّ الله تعالى إذا أحبّ عبداً ابتلاه، وإذا أحبّه الحبّ البالغ اقتناه، قيل: وما اقتناه؟ قال: لم يترك له أهلاً ولا مالاً»[٥].

ويعلم من هذه الرواية: أنّ اقتناء العبد له سبحانه لحصر أمله فيه، وقطعه عن غيره، وبهذا الانقطاع يعلي سبحانه درجته، ويرفع مقامه في يوم الجزاء، في يوم تشخص إليه الأبصار، في يوم لا ظلّ إلّا ظلّه، ولا ملجأ إلّا إليه.

﴿يوم يفرّ المرء من أخيه • وأمّه وأبيه • وصاحبته وبنيه﴾ [عبس : ٣٤].

---

(١) البحار ٧٢: ٣٠ ح٢٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المحجّة البيضاء ٧: ٣٢٣.
(٤) جامع الأخبار: ٣٠١ ح٨٢٢، عنه البحار ٧٢: ٤٧ ح٥٨.
(٥) المحجة البيضاء ٧: ٣٢٢.

﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأوّلين﴾ [المرسلات : ٣٨].

﴿قل إنّ الأوّلين والآخرين ● لمجموعون إلىٰ ميقات يومٍ معلوم﴾ [الواقعة : ٤٩-٥٠].

﴿إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقّاً انّه يبدؤ الخلق ثمّ يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ [يونس : ٤].

هذا العود، وهذا الرجوع المعبر عنه بالمعاد الجسماني تضاربت فيه الآراء فبعدت وقربت، وإنّي أرىٰ من الخير النافع للقرّاء، أن أستعرض هذا البحث ـ بحث المعاد الجسماني ـ وأخوض فيه علىٰ ضوء ما آتاني الله من علم وهو ضئيل.

المعاد الجسماني:

غيرة على الحقائق والإنسانية، أتمنّىٰ لكلّ إنسان أن يميّز حدود إدراكه، ويعرف مواقع جهله، فلا يشوّه العلم ويضطهد الحقائق وشرف الإنسانية بالجهل المركّب.

فما أجمل علم الإنسان بحدود إدراكه ومواقع جهله، وهذا هو الذي يسمّيه العلماء «الجهل العلمي»، قالوا: «انّه هو الذي تصل إليه النفوس الكبيرة».

وهو بالحقيقة العلم القائم بمعرفة الإنسان نفسه، وهو نادر الوجود بين الناس يحفظ صاحبه من الوساوس والزيغ والضلال.

وإنّ الجهل المركّب يكون عند أناس هم بين بين، وهم الذين أُخرجوا قليلاً عن بساطة العوام، وتقحموا في الجولان في ميدان العلم بأقدام مرتعشة حتّىٰ في مباديه، فهم يقلقون العالم ويشوّهون العلم، تارةً بالتقليد الأعمىٰ في المسموعات الموافقة للأهواء، وتارةً بالوسوسة والتشكيك في كلّ شيء.

فمن تلك الحقائق التي يقابلها المادّيون، ومن مشىٰ وراءهم بالجحود وخيالات الامتناع، حقيقة المعاد الجسماني، واحياء الأجسام بأنفسها للجزاء في يوم المعاد،

وقد أخبر القرآن الكريم وبشّر وأنذر به، وكافح الأوهام في خيالات امتناعه، واحتجّ علىٰ امكانه بالحجّة الكافية التي تستلفت العقول إلىٰ مبديء الإنسان ومبدعه من وجوده العجيب، فيهون عليها التصديق بوقوع المعاد بالتدرّج في النظر في حكمة الخالق ورحمته وقدرته.

يقول جلّ وعلا: ﴿يا أيّها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة﴾ [الحج : ٥].

أوّل شيء له اسم وعنوان يعرفه نوع الإنسان، مبدءاً لنشأ أفراده وتصويرها، هو النطفة التي يتعاقب عليها التصوير في الرحم، حتّىٰ تكون إنساناً مولوداً وناشئاً ورشيداً.

والنطفة هو المقدار من السائل، سواء كان مراد القرآن منها هو منيّ الذكر كما هو المعهود، أم سائل بيضة الأُنثىٰ، أو سائل حويصلتها الجرثومية على الرأي الجديد.

أفلم يرَ الإنسان كيف بلغ به الخلق والتصوير من هذه النطفة إلىٰ حالته التي يشعر فيها بما في هيكله من عجائب التراكيب، التي تهتف بخالقها القادر وقصده لغاياتها الشريفة، يكفي تلك التراكيب الظاهرة لكلّ أحد وغاياتها الكبيرة المعلومة من العجائب التي تبهر العقول في بدائع القدرة، وبواهر الحكم والغايات.

كيف لا تكفي الإنسان رؤيته لذلك في إذعانه بأنّ الذي بلغ به في التصوير والخلق من النطفة إلىٰ حال شعوره ورشده هو خالق قادر حكيم عالم بالغايات؟

ترى الإنسان تضطرّه الفكرة في أمر طفيف ـ بالنسبة إلىٰ ما ذكرناه ـ وهو صنع الآلات «الدقيقة» فيذعن بلا شكّ بأنّها صنعت بصنع قادر عالم بغاياتها، صنعها لأجل غاياتها، فكيف يعرقل شعوره ويكابر وجدانه، فيتجاهل ويجحد قدرة خالقه وعلمه وحكمته، ويكون من أجل ذلك خصماً يبيّن خصومته في أمر المعاد، ويتمثّل بالعظام التي تبلىٰ وتصير رميماً، فيضرب بجهالته هذا المثل السخيف

لجحود المعاد، ويقول: إنّ العظام التي صارت رميماً كيف تحيىٰ، ومن هذا الذي يقدر علىٰ جمع أجزائها التي تشتّتت وعلىٰ إحيائها، ومن هذا الذي يحييها وينشئها علىٰ صورتها الأُولىٰ ويحبوها بالحياة؟!.

ذلك الخالق القادر العليم، الذي أنشأها أوّل مرّة، وقدّر أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وصلابتها ولينها ومفاصلها علىٰ مقتضىٰ الحكمة، وحاجة الغاية ووصلها بالأربطة، وأكمل نظامها بآلات البدن العجيبة، فأجرىٰ فيها أعمال الحياة وحفظ الكيان.

أيّها الجاحد للمعاد، هذا الخالق العظيم الذي ينشأ العظام في الأدوار المتعدّدة، والمواليد المتعاقبة بكثرة لا تقدر أن تحصيها، وقدّر نشوء متماثلاتها علىٰ ناموس واحد، وتماثل باهر، ليست هي وحدها بل جميع مواليد العالم في أدوارها.

هذا الخالق الذي تُعرِّفك أنواع مخلوقاته التي لا تُحصىٰ وأطوارها بأدوارها، وتشهد بأنّه لا يعييه خلق، ولا يغيب عن علمه خلق، وأنّه بكلّ خلق عليم، وبكلّ مخلوق عليم، فهل يغيب عن علمه جمع رميم العظام وخلقها علىٰ صورتها الأُولىٰ واحيائها، وماذا يكبر احياء العظام الرميمة علىٰ إنشاء العظام من النطفة، واحيائها في دور من أدوار النشأة الأُولىٰ؟

يقول تعالى في الآية ٤٨ من سورة «الاسراء» المكّية: ﴿أُنظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ في جحود المعاد ﴿فضلّوا﴾ في غيّهم وأصرّوا علىٰ خيالات الأهواء، وانهمكوا في أوهامهم، فلا يعتبرون بمبدئهم، ولا يفكّرون في خلقهم ونشئهم، وأبعدوا أفكارهم عن جادة الرشد، والسير في نهج الاعتبار، ودلالة الهدىٰ إذاً ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ إلىٰ معرفة الحقّ ما داموا معطين قياد أفكارهم بيد الأهواء والاصرار عليها، حتّىٰ استدبرت بهم الطريق، وورطتهم في خبط العشواء.

وفي الآية ٤٩ منها يقول تعالىٰ: ﴿وقالوا﴾ في غوايتهم في ضرب الأمثال لجحود المعاد، وحسبوا أنّهم جاؤوا بالحجّة والقول الفصل والبرهان الكبير، مع أنّ

جهد ما خيّلت لهم أوهامهم هو أن يقولوا: ﴿أَءِذا﴾ تقطّعت أوصالنا و ﴿كنّا عظاماً﴾ مجرّدة ﴿ورفاتاً﴾ عظاماً متحطّمة بالية بعد ذلك ﴿أءِنّا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ في الصورة من تلك المواد البالية.

وفي الآية ٥٠ منها يقول تعالى: ﴿قل﴾ لا تقتصروا في المثل على العظام والرفات، بل لتتقلّب بعد ذلك بأجزائكم الصور، وتلعب بها عوامل التغيير المقدّر في نظام العالم، لتُبعد أوصالكم عن صورة الإنسان كيفما أبعدتها عوامل التغيير، وجهد ما تتصوّرون من البُعد و ﴿كونوا حجارةً﴾ من أيّ أنواع الحجارة ﴿أو حديداً ❁ أو خلقاً ممّا يكبر في صدوركم﴾ في مقام الترقّي في ضرب المثل وبُعده عن صورة أجزاء الإنسان، فإنّكم تُبعثون بحسب الصورة خلقاً جديداً، تردّ به أجزاؤكم إلىٰ صورتها الإنسانية، وتتعلّق أرواحكم بها ﴿فسيقولون من يُعيدنا قل﴾ يعيدكم القادر علىٰ ذلك مهما تغافلتم في مقام الجحود.

لا أبعد لكم الاشارة إليه هو ذاك ﴿الذي فطركم أوّل مرّة﴾ وبلغ بخلقه لكم إلىٰ ما ترونه من أحوال نوعيتكم وخصائص شخصيّاتكم، فانظروا أقلاً إلىٰ فطرتكم الإنسانية من بعدما كنتم نطفةً، وإلىٰ وجودكم الإنساني بعد أن لم تكونوا كذلك.

وإن خادعتكم أوهام الأهواء ونظرتم إلىٰ ما قبل ذلك فمهما تجاهلتم وافترضت أوهامكم القدم لأوّلكم في المادة، فإنّكم لابدّ لكم من أن تذعنوا بأنّ مادّتكم التي تقلّبت بها تغيّرات الصور، وتصرّف بتغيّرها عوامل التكوين لابدّ من أن تكون مُحدَثة مفطورة.

هذه المادة الخاضعة للتغيّرات بالصور وعوامل التصرّف والمقترنة بفقر الامكان لا تكون واجبة الوجود، إذن فانظروا إلىٰ ما يصل إليه إدراككم من أوّل فطرتكم، وانظروا إلىٰ تصرّف القدرة بابداعه، وأعمالها الباهرة في تصويراته، فهذا القادر الذي فطركم أوّل مرّة، وأراكم من أعمال قدرته في نشوئكم ونشأتكم ما ترونه من العجائب، هذا هو الذي يعيدكم تارةً أُخرىٰ.

يقول تعالىٰ في الآية ٥ من سورة «الحجّ»: ﴿يا أيّها الناس إن كنتم في ريبٍ من البعث﴾ لأجل تفرّق أجزاء الإنسان بالبلاء، فتستبعدون إحصائها وجمعها واحيائها تارةً أُخرىٰ ﴿فإنّا خلقناكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة مُخلّقة﴾ ظهرت عليها بالخلق معالم أعضاء الإنسان ﴿وغير مخلّقة﴾ من قبل ذلك.

ومن حكم هذا التقدير والتدرّج في الخلق استلفاتكم إلىٰ تصرّف القدرة الإلهيّة في خلق الإنسان بما له من الجسم وتركيبه العجيب في حكمه وغايات أجزائه، وبما له من الحياة والشعور والعقل، لئلّا تكونوا علىٰ غفلة فتقولون: خلق الإنسان صدفة ولا ندري كيف صار، بل لتلتفتوا إلىٰ مبادئ نشأته البسيطة الفاقدة للحياة، وترقّيها بالخلق إلى التراكيب الباهرة بحكمتها، وإلىٰ جمال الحياة وكمال العلم و ﴿لنبيّن لكم﴾ بالاستلفات مواقع القدرة في مبادئ النشوء وأطواره.

﴿ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلىٰ أجل مسمّىٰ﴾ محدود للولادة، ونحبوه في الرحم بعظائم النعم ومواد التغذية ولوازم الحياة، علىٰ نهج مغاير لنهج عالم الولادة في طرق التغذية والافراز ودورة الدم ونحو ذلك ﴿ثمّ نخرجكم طفلاً﴾ عاجزاً عن أمره، نجدّد له صورة غذائه ومنبعه وطريق التغذّي ومخرج الافرازات والفضلات، وتغيّر دورة دمه ونحبوه بحنان الوالدين، ثمّ تتدرّج بكم الأطوار في النموّ ومراتب الشعور، والادراك والعلم والقوّة ﴿لتبلغوا أشدّكم ومنكم من يتوفّى﴾ حينما يبلغ أشدّه حسبما تقتضيه الحكمة في الشخص أو النوع ﴿ومنكم من يُردُّ الىٰ أرذل العُمُر﴾ أي تكون عاقبته بعد العلم وجودة الادراك وصفاء الشعور ﴿لكيلا يعلم بعد علم شيئاً﴾، وفي هذا استلفاتكم وتنبيه اعتباركم في خلقكم.

﴿وترى الأرض هامدة﴾ قاحلة لا نبات فيها ولا بهجة ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء﴾ بالقدرة الباهرة في توليد المطر علىٰ الأنحاء المختلفة في توليد السحاب وحمله الماء، وعجائب نشئه وضغطه في توليده وسوقه وتسييره وارساله المطر. فإذا نزل علىٰ الأرض الميتة ﴿اهتزّت﴾ بحياة الانبات ﴿وربت﴾ بالنموّ ﴿وأنبتت من كلّ

زوجٍ بهيج﴾ تكفيكم بهجته في أطواره في الدلالة علىٰ باهر القدرة، وإن غاب عنكم ما في النبات من الخصائص والفوائد الكبيرة المتنوّعة، وما لأزواجها من خاصية التلقيح ليبقىٰ نوعها وتوالدها علىٰ ناموس مستقيم ﴿ذلك﴾ الذي تُلي عليكم من مبادئ نشوء الإنسان ومبالغ نشوه وحفظ نوعه، بنواميس تواليده وما في مراتب ذلك من عجائب القدرة ودلائل الحكمة وقصد الغاية، وفي نشوء النبات، هذا كلّه يشهد بأنّ موجده إله قادر حكيم عالم بغايات خلقه. يوجد المخلوقات لحكمة غاياتها.

ويشهد وجود هذه الموجودات المذكورة ونشؤها وخلقها وحياتها واستقامة توليدها ﴿بأنّ الله﴾ الإله القادر العليم الحكيم واجب الوجود ﴿هو الحقّ﴾ لا الصدفة العمياء، ولا الطبيعة البكماء، ولا الحركة الحادثة المتصرّمة، ولا المادّة المتغيّرة المقرونة بدلائل الحدوث والحاجة إلى الموجد.

وأنّ الله ﴿يحيي الموتىٰ﴾ كلّ ميّت، الإنسان والنبات، ترى الحياة تطرأ علىٰ أصلٍ ميّت لا حياة فيه، بل يحييه الله تعالى بقدرته، ويتصرّف بخلقه بآثار القدرة الباهرة ﴿وأنّه الله علىٰ كلّ شيءٍ﴾ تتصوّرونه في ناحية الخلق وأنواعه وأطواره ونشأته متسلّط ﴿قدير﴾، ﴿وأنّ الساعة﴾ يوم القيامة وإحياء الناس بعد بلائهم للحشر ﴿آتية لا ريب فيها﴾ لامحلّ للريب فيها.

فإنّ نبوات الحقّ المؤيّدة بدلالة المعجز، قد أخبرت عن الله جلّ اسمه بها، وإنّ دلائل القدرة في خلقكم وخلق النبات وغيره من الحيوان، وأنواع الجماد وأطوارها وتوالدها وغاياتها تقيم الحجّة الواضحة عليكم بأنّ الله الخالق في النشأة الأُولىٰ بقدرته وحكمته هو قادر في النشأة الأُخرىٰ علىٰ إحياء العظام الرميم ﴿وإنّ الله يبعث من في القبور﴾.

وقال تعالى في الآية ٣٣ من سورة «الأحقاف» المكّية: ﴿أولم يروا أنّ الله الذي خلق السموات والأرض﴾ بما فيها من عجائب التقدير ومواقع الحكمة ومحاسن

النظام، بحيث يجلو النظر في ذلك لكلّ إنسان حسب استعداده، ويوضح مواقع القدرة والحكمة وقصد الغاية بأوضح المظاهر. ﴿خلق السماوات﴾ أي العالم العلوي، ﴿والأرض﴾ أي العالم السفلي بهذا النظام العجيب بوضعه وحكمته ﴿ولم يعي بخلقهنّ﴾ ويتعذّر عليه شيء منه، أليس هذا الخالق القادر العليم الحكيم ﴿بقادر علىٰ أن يُحيي الموتىٰ﴾ ويبعثهم ليوم الجزاء ﴿بلىٰ﴾ إنّ أقلّ نظر حر في خلق هذا العالم ومظاهر القدرة يشهد ﴿إنّه علىٰ كلّ شيء قدير﴾.

هذا بعض ما في القرآن ممّا يستلفت النظر المنزّه، وينبّه العقل الحر إلى الحجّة الساطعة علىٰ امكان المعاد الجسماني، واحياء الأجسام بعد بلاها.

قيام الساعة وكشوفات العلم الحديث:

قوله تعالى: ﴿يسئلونك عن الساعة أيّان مرساها قل إنّما علمها عند ربّي لا يجليها لوقتها إلّا هو﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقد ذكرنا في أبحاث بعض هذه الفصول شيئاً عن الحياة بعد الموت، والآن نستعرض عجائب من العلم الحديث، ليقف القارئ علىٰ علم العلماء وحكمة الحكماء.

١ ـ إنّ عالماً يسمّىٰ «لوفن هوك» شاهد سنة ١٧٠١م أنّ حيواناً يبلغ طوله مليمتراً، وهو يعيش على الطحلب وعلى السقوف وفي مجاري الأمطار المنزلية، ولمّا جفّفه وأصبح تراباً بقي خمسة أشهر لا أثر للحياة فيه، ثمّ لمّا غمره بالماء رجع إلى الحياة مرّة أُخرىٰ وأخذ يسعىٰ ويتغذّىٰ.

٢ ـ وفي سنة ١٧٤٣ شاهد العلامة «بندهام» وغيره شاهد نفس هذا الأمر أيضاً، ذلك أنّ الناس يشاهدون بعض حبّ القمح مصاباً بمرض، فيكون ضعيفاً متغيّر اللون، فلمّا بحث العلماء هذا الحبّ وجدوا فيه عجباً عجاباً، مثل ما شاهده العلامة «بندهام» وتفصيل ذلك:

أنّ هناك حيوانات صغيرة جدّاً، تعيش في سنابل القمح وتبيض فيها وتفقس، ويخرج من بيضها علقات تسبح حتّىٰ تدخل تلك الحبّات، ويكون في كلّ حبّة من تلك الحبّات من عشرة آلاف إلىٰ عشرين ألف حيوان، فإذا حصد القمح وجفّ الحبّ جفّ هذا الحيوان فيه، فإذا أصابه الماء حييت تلك الحيوانات ثانياً، وبعثت من مرقدها، وطلبت لها نباتاً من القمح تعيش فيه، ولا تزال هكذا حتّىٰ إذا ظهر السنبل سمنت تلك الحيوانات وفعلت ما فعله آباؤها من قبل.

ولقد اختلف العلماء لمّا رأوا هذه العجائب، وقالوا: أدائمة هذه الحياة أم هي منقطعة وأعقبها بعث، تحيّروا وشكّوا ورجعوا إلى التجارب.

٣ ـ ففي سنة ١٧٧٦م جرّب العالم الراهب الايطالي «سبلتراني» في حيوانات تعيش في الماء تجارب كثيرة، فإنّه جفّفها فانعدمت معالم الحياة فيها انعداماً تامّاً، وجعلها علىٰ هيئة تراب مدّة ثلاث سنوات، وعرضها للبرد الشديد والأشعة المحرقة، وبعد ذلك نداها بالماء فرجعت لها الحياة.

٤ ـ وأيضاً جرّب العالم المذكور حبّة القمح التي تحتوي علىٰ أكثر من عشرة آلاف حيوان كما قدّمنا، فجفّفها كما تقدّم ١٦ مرّة وبعد كلّ تجفيف نداها بالماء فرجعت لها الحياة.

٥ ـ وقام العلامة «دويير» سنة ١٨٤٠ إلىٰ سنة ١٨٤٢م فوضع بعض تلك الحيوانات المتقدّمة في وعاء فُرّغ من الهواء تفريغاً تامّاً مدّة أيّام ثمّ عرضها إلىٰ درجة ١٠٠ أو إلىٰ درجة ١١٠ سنتجراد مدّة دقيقتين، ولمّا نداها بالماء رجعت إلى الحياة.

٦ ـ ومثله العلّامة «جفري» سنة ١٨٥٩م.

٧ ـ وحذا حذوه العلّامة «دافين» جفّف دود القمح فصار علىٰ شكل تراب أبيض اللون، مكوّن من خيوط بيضاء دقيقة جدّاً خالية من كلّ مرونة، وبعد أشهر نداها بالماء فحييت وسبحت، مع أنّ الدودة وهي حيّة لا تتحمّل بعض هذا بل

تموت، وجفّف بعض الحيوانات وحفظها عشر سنوات، ولمّا نداها حييت مع أنّ حياتها العادية لا تزيد عن بعض أسابيع.

٨ ـ وعلقات القمح المتقدّمة لا تعيش إلّا عشرة أشهر، فلمّا جففت عاشت أربع سنوات، ثمّ حييت لما نزل عليها الماء، بل جففها «دافين» عشر مرّات ثمّ رجعت للحياة كلّ مرّة.

٩ ـ والعلّامة «بيكر» ندىٰ علق القمح بالماء بعدما جفّ ٢٨ سنة وهذا من المدهشات، من هنا جزم «دافين» و «دويير» بعد هذه الأبحاث التي استمرّت إليه سنة ١٨٦٠ أنّ الحياة انقطعت في هذه الحيوانات انقطاعاً تامّاً، ولكن العلّامة «بوستي» قال: الحياة مستمرّة.

هناك عيّنت الجمعية الحيوية الباريسية لجنة مكوّنة من خمسة علماء تحت رآسة «بروكا» المشرح الشهير، فوضعت هذه اللجنة بعض الدواب العجلية، مجفّفة في الفراغ الجاف ـ أعني الذي لا بخار ماء فيه ـ مدّة ٨٢ يوماً متتابعة، ثمّ بعد ذلك عرضت تلك الحيوانات إلىٰ حرارة مائة درجة مدّة نصف ساعة، وبعد ذلك كلّه رجعت تلك الدويبات إلى الحياة بعد التندية.

فالعجب من العلم الحديث كيف أظهر أنّ البعث للأحياء حاصل فعلاً، وإنّ حبّة القمح فيها آلاف من المخلوقات، وأنّ تلك المخلوقات تموت ثمّ تُحيىٰ متىٰ نزل عليها الماء.

وكأنّ حبّة القمح التي نراها ضعيفة هي أرضنا التي نعيش عليها.

وكأنّ الحيوانات التي فيها هي أنفسنا، وإنّ جفافها ورميها في الفراغ، وتعرّضها للحرارة تارةً والبرودة أُخرىٰ، وجعلها دقيقاً أشبه بما يحصل لأرضنا من التفريق والأحوال المختلفة، أو أنّ حياة تلك العلقات الكامنة فيها بعد هذه الأحوال العظيمة أشبه بحياتنا بعد موتنا، وتعرّض أجسامنا إلىٰ أحوال مضنية.

فيا ليت شعري كيف وصل العلم الحديث إلىٰ أنّ البعث يحصل في هذه الدنيا؟

وكيف تكذب هذه الجمعية الحيوية في باريس مَنْ ينكر حياة تلك الحيوانات بعد موتها الذي شاهدوه؟ وكيف يوافق هذا مئات الآيات القرآنية.

يقول الله تعالى: ﴿ونزّلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنّات وحبّ الحصيد • والنخل باسقات لها طلع نضيد • رزقاً للعباد وأحيينا به بلدةً ميتاً كذلك الخروج﴾ [ق : ١١-٩].

جعل خروجنا بعد الموت كحياة الأرض بالنبات بنزول الماء، ولا جرم أنّ حبّة القمح المذكورة إذا نزل عليها الماء بعث الحيوان منها بعد موته.

* * *

سير الدنيا يتطابق مع الحكمة الالهية:

قوله عليه السلام: «وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَىٰ مَا جَعَلَهَا ٱللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ، وَٱلْابْتِلَاءِ، وَٱلْجَزَاءِ فِي ٱلْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ».

يريد عليه السلام أنّ الدنيا وكلّ ماجرياتها مطابق للصالح الأتمّ، وإن كان الإنسان لجهله لا يعرف كلّ تلكم المصالح، فمن العبث السير الحثيث وراء إبقاء ما يرتئيه ويحسبه صالحاً، والانهماك دونه بحيث يلهيه عن الانقطاع إلىٰ بارئه، وهو جدّ عليم بأنّ الذي يعلم حقائق الأحوال وصوالح الأعمال ليس إلّا المولىٰ سبحانه.

جرىٰ قلم القضاء بما يكون ... فسيان التحرّك والسكون

جنون منك أن تسعىٰ لرزق ... ويرزق في غشاوته الجنين

ومراد القائل الانتهاء إلى الحرص دون الاجمال في الطلب، فليست هذه دعاية إلى البطالة كما يتوهّمه القاصر.

وإنّ ممّا يتوقّف عليه استقرار الدنيا هو الاعتقاد بأنّ ما يقع فيها من الأعمال فالصالح منها منته إلى المثوبة الإلهية، وأمّا الطالح فما له إلّا العقوبة الأُخروية، أو ما يصيب الإنسان في حياته من العلل والأوصاب التي يقصد بها التأديب والتهذيب،

وهذا النوع من الناس أحسن حالاً ممّن تدّخر عقوبته ليوم الحساب، فإنّ ذلك ممّا لا قبل لأيّ ابن أُنثىٰ له فإنّه الخزى والهوان.

* * *

الدعوة إلى التعلّم والاعتراف بالجهل:

قوله ﷺ: «فَإنْ أشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَىٰ جَهَالَتِكَ، فَإنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلاً ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ ٱلْأَمْرِ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ».

فأمّا قوله هذا: فلعلّ فيه ايعازاً إلى الطبيعي من أحوال الإنسان من التدرّج في العلوم، وإنّه بطبعه الأوّلي خلوٌّ منها، ثمّ إنّ الحنكة والتجاريب والسمع الصادق توقفه على الحقائق الراهنة وما عزب عنه منها، من غير نظر إلىٰ شخصية الإمام المجتبىٰ ﷺ التي هي شرع سواء في مباشرة العلوم حتّىٰ في عالم الأجنة، فهو من سادة من بعث في المهد نبيّاً، وفاز بشرف النبوّة صبيّاً.

وليس عهد عيسىٰ ويحيىٰ ﷺ عنّا ببعيد، ولا لما أوتياه من رفعة المقام مزيد علىٰ ما أُوتي الإمام السبط ﷺ، إذاً فما هو إلّا الاشارة والايعاز إلى الطبيعي من أحوال الإنسان وتدرّجه في العلوم، ليصل إلىٰ معرفة الواجب عليه، الباعث على القيام باللّازم له من شرائع دينه وتوابع دنياه، فيخرج من ظلمة الجهل إلىٰ نور الهدىٰ.

من أجل ذلك فرض الإسلام علىٰ الأُمّة التي تعتنقه أن تكون أُمّة متعلّمة ترتفع فيها نسبة المثقّفين، وتهبط أو تنعدم نسبة الجاهلين.

ذلك لأنّ حقائق هذا الدين ـ من أُصول وفروع ـ ليست طقوساً تنقل بالوراثة، أو تعاويذ تشيع بالايحاء، وتنتشر بالايهام، كلّا إنّها حقائق تُستخرج من كتاب حكيم، ومن سنّة واعية، وسبيل استخراجها لا يتوقّف على القراءة المجرّدة،

بل لابدّ من أُمّة تتوفّر فيها الأفهام الذكية، والأساليب العالية، والآداب الكريمة.

ولا شكّ أنّ مدارسة مناهج الإسلام تخلق في أيّ أُمّة تعنىٰ بها جوّاً من الفقه التشريعي القائم علىٰ الأوامر والنواهي ـ أي بالحقوق والواجبات ـ وجوّاً من الآداب الاجتماعية الدقيقة المتعلّقة بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجوّاً من البحث والاجتهاد الصحيح لمدّ رواق الإسلام علىٰ ما تفد به الأعصار من أقضية شتىٰ، وشؤون متجدّدة.

فإذا قلّت هذه العناصر في بيئةٍ مّا اضمحلّ أمر الإسلام وذبلت أغصانه، كما تبلى الشجرة الباسقة في أرض ذَهَبَ خصبها، وجفّ ماؤها.

وهناك بعد ذلك التفكير في الكون الذي أطرد الأمر به في سورة القرآن، واعتبر الأساس الأوّل لاقامة ايمان ثابت وطيد، إنّ هذا التفكير هو الذي فتق الأذهان عن روائع الحضارة الحديثة، ويسرّ للدنيا هذه الكشوف الجليلة لأسرار الوجود، وسخّر للناس ما لم يكونوا يحلمون به.

ثمّ هناك أيضاً التوصية باتّباع الحقّ وحده والبحث عنه مهما خفي، واستنكار الظنون العائمة، والنهي عن الجري وراءها، ووضع رقابة محكمة على السمع والبصر والفؤاد، إنّ هذا كفيل بايجاد مجتمع بعيد عن الخرافات، منزّه عن الأوهام والمساخر، لا مجتمع يفيض بالشعوذة وتتركّز فيه الأراجيف والترهات، وتحكمه تقاليد غامضة ما أنزل الله بها من سلطان.

إنّ العلم للإسلام كالحياة للإنسان، ولن يجد هذا الدين مستقراً له إلّا عند أصحاب المعارف الناضجة، والألباب الحصيفة.

ولأمر ما يقول الله تعالى عنه: ﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنّما هو إله واحد وليذّكّرَ أُولوا الألباب﴾ [إبراهيم : ٥٢].

ويقول مصوّراً أحاديث أهل جهنّم: ﴿لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير﴾ [الملك : ١٠].

ويقول فيمن طمست مشاعرهم، وماتت مواهبهم، واستغلقت أذهانهم: ﴿**ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلّا دعاءً ونداءً صمٌّ بكم عمي فهم لا يعقلون**﴾ [البقرة : ١٧١].

إنّ الله شرّف الحياة بالاسلام بعدما بلغت رشدها، ونمت قواها، واستعدّت لأن تتلقّىٰ منه أزكى التعاليم وأرقاها، فكان مجيئه ملائماً لتطوّر الحياة نحو الكمال، بل كان هو شوطاً واسعاً في الخطو بها نحو الرقي المادي والأدبي.

وأنت إذا نظرت إلى الصلاة ـ وهي العبادة الأُولىٰ في الإسلام ـ وجدت أداءها والأذان لها عملاً عقلياً بحتاً، فالدعوة إلى الصلاة كلمات تقرع العقل، وتوقظ القلب، تكبير لله وشهادة بتوحيده، وحثّ على الفلاح، وليست جرساً يرسل رنينه في الفضاء، ويخاطب المشاعر المبهمة، والصلاة نفسها آيات تتلىٰ من كتاب جامع لعزائم الخير ودلائل الرشد، ومدىٰ قبولها مقرون بصحو الفكر في اقامتها، وتدبّر العقل لمعانيها.

والحقّ أنّه علىٰ قدر ذكاء الشخص واستنارته واستقامة فطرته يكون رسوخ قدمه في الإسلام، وهيهات أن يسبق في هذا الدين بليد الرأي سقيم الوجدان.

إنّ أوّل ما نزل من آيات القرآن قول الله لنبيّه: ﴿**اقرأ باسم ربّك الذي خلق • خلق الإنسان من علق • اقرأ وربّك الأكرم • الذي علّم بالقلم • علّم الإنسان ما لم يعلم**﴾ [العلق : ٥ ـ ١].

وهذه أوّل صيحة تسمو بقدر القلم، وتنوّه بقيمة العلم، وتعلن الحرب علىٰ الأُمّية الغافلة، وتجعل اللبنة الأُولىٰ في بناء كلّ رجل عظيم أن يقرأ وأن يتعلّم.

وسما الله عزّ وجلّ بدرجات العلماء حتّىٰ قرنهم بنفسه وملائكته في الشهادة بوحدانيّته، والاقرار بعدالته: ﴿**شهد الله أنّه لا إله إلّا هو والملائكة وأُولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلّا هو العزيز الحكيم**﴾ [آل عمران : ١٨].

ولا غرو فأنّىٰ للعقول الكليلة، والمعارف الضعيفة أن تدرك جلال الكبير

المتعال، وأنّىٰ لمن يعيش علىٰ هامش الحياة ـ بجهله وظلمته ـ أن يعرف الحقّ عن ربّ الحياة، أو يلمح طرفاً من صفاته العظمىٰ وآياته الكبرىٰ، لذلك أعزّ الله العلماء وآثرهم بكرامته وفضله.

قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ للعلماء يوم القيامة إذا قعد علىٰ كرسيّه للفصل بين العباد: إنّي لم أجعل علمي وحلمي فيكم إلّا وأنا أُريد أن أغفر لكم علىٰ ما كانٍ فيكم ولا أُبالي»(١).

أُنظر إلىٰ قوله سبحانه وتعالى: «علمي وحلمي» وأمعن النظر فيه يتّضح لك من إضافته إليه عزّ وجلّ، أنّه ليس المراد به علم أكثر أهل زماننا المجرّد عن العمل به والاخلاص.

وفي عطف الحلم على العلم ما يشير إلىٰ أنّه علم لم يستبد به النزق ولم تسخّره الشهوات، إنّ المعرفة الجيّدة أسبق عند الله من العمل المضطرب، ومن العبادة الجافّة المشوبة بالجهل والقصور.

قال رسول الله ﷺ: «فضل العلم خير من فضل العبادة»(٢).

وقال: «قليل العلم خير من كثير العبادة»(٣).

وقال: «أفضل العبادة الفقه»(٤).

وقال: «يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خيرٌ لك من أن تصلّي مائة ركعة، ولأن تغدو فتَعلم باباً من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلّي ألف ركعة».

والسرّ في هذا الحكم أنّ عبادة الجهّال ـ كصداقتهم ـ قليلة الجدوىٰ، وهم يضرّون أنفسهم من حيث يريدون نفعها، ويؤذون أصدقاءهم من حيث يبغون

---

(١) البحار ٢: ٢٥ ح٨٦.
(٢) البحار ٧٧: ٨٧ ضمن حديث ٣.
(٣) البحار ١: ١٨٥ ح١٠٤.
(٤) البحار ١: ١٦٧ ح١١.

ويقول فيمن طمست مشاعرهم، وماتت مواهبهم، واستغلقت أذهانهم: **﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلّا دعاءً ونداءً صمٌّ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾** [البقرة: ١٧١].

إنّ الله شرّف الحياة بالاسلام بعدما بلغت رشدها، ونمت قواها، واستعدّت لأن تتلقّىٰ منه أزكى التعاليم وأرقاها، فكان مجيئه ملائماً لتطوّر الحياة نحو الكمال، بل كان هو شوطاً واسعاً في الخطو بها نحو الرقي المادي والأدبي.

وأنت إذا نظرت إلى الصلاة ـ وهي العبادة الأُولىٰ في الإسلام ـ وجدت أداءها والأذان لها عملاً عقلياً بحتاً، فالدعوة إلى الصلاة كلمات تقرع العقل، وتوقظ القلب، تكبير لله وشهادة بتوحيده، وحثّ على الفلاح، وليست جرساً يرسل رنينه في الفضاء، ويخاطب المشاعر المبهمة، والصلاة نفسها آيات تتلىٰ من كتاب جامع لعزائم الخير ودلائل الرشد، ومدىٰ قبولها مقرون بصحو الفكر في اقامتها، وتدبّر العقل لمعانيها.

والحقّ أنّه علىٰ قدر ذكاء الشخص واستنارته واستقامة فطرته يكون رسوخ قدمه في الإسلام، وهيهات أن يسبق في هذا الدين بليد الرأي سقيم الوجدان.

إنّ أوّل ما نزل من آيات القرآن قول الله لنبيّه: **﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق • خلق الإنسان من علق • اقرأ وربّك الأكرم • الذي علّم بالقلم • علّم الإنسان ما لم يعلم﴾** [العلق: ٥ ـ ١].

وهذه أوّل صيحة تسمو بقدر القلم، وتنوّه بقيمة العلم، وتعلن الحرب علىٰ الأُمّية الغافلة، وتجعل اللبنة الأُولىٰ في بناء كلّ رجل عظيم أن يقرأ وأن يتعلّم.

وسما الله عزّ وجلّ بدرجات العلماء حتّىٰ قرنهم بنفسه وملائكته في الشهادة بوحدانيّته، والاقرار بعدالته: **﴿شهد الله أنّه لا إله إلّا هو والملائكة وأُولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلّا هو العزيز الحكيم﴾** [آل عمران: ١٨].

ولا غرو فأنّىٰ للعقول الكليلة، والمعارف الضعيفة أن تدرك جلال الكبير

المتعال، وأنّىٰ لمن يعيش علىٰ هامش الحياة ـ بجهله وظلمته ـ أن يعرف الحقّ عن ربّ الحياة، أو يلمح طرفاً من صفاته العظمىٰ وآياته الكبرىٰ، لذلك أعزّ الله العلماء وآثرهم بكرامته وفضله.

قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ للعلماء يوم القيامة إذا قعد علىٰ كرسيّه للفصل بين العباد: إنّي لم أجعل علمي وحلمي فيكم إلّا وأنا أُريد أن أغفر لكم علىٰ ما كان فيكم ولا أُبالي»(١).

أُنظر إلىٰ قوله سبحانه وتعالى: «علمي وحلمي» وأمعن النظر فيه يتّضح لك من إضافته إليه عزّ وجلّ، أنّه ليس المراد به علم أكثر أهل زماننا المجرّد عن العمل به والاخلاص.

وفي عطف الحلم على العلم ما يشير إلىٰ أنّه علم لم يستبد به النزق ولم تسخّره الشهوات، إنّ المعرفة الجيّدة أسبق عند الله من العمل المضطرب، ومن العبادة الجافّة المشوبة بالجهل والقصور.

قال رسول الله ﷺ: «فضل العلم خير من فضل العبادة»(٢).

وقال: «قليل العلم خير من كثير العبادة»(٣).

وقال: «أفضل العبادة الفقه»(٤).

وقال: «يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خيرٌ لك من أن تصلّي مائة ركعة، ولأن تغدو فتَعلم باباً من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلّي ألف ركعة».

والسرّ في هذا الحكم أنّ عبادة الجهّال ـ كصداقتهم ـ قليلة الجدوىٰ، وهم يضرّون أنفسهم من حيث يريدون نفعها، ويؤذون أصدقاءهم من حيث يبغون

---

(١) البحار ٢: ٢٥ ح٨٦.
(٢) البحار ٧٧: ٨٧ ضمن حديث ٣.
(٣) البحار ١: ١٨٥ ح١٠٤.
(٤) البحار ١: ١٦٧ ح١١.

راحتهم، وجهلة العبّاد يستمسكون بـالدين اسـتمساكاً شـديداً، ويـتعصّبون له ظاهراً، ولكنّهم في ساعة رعونة وغباء يقفون منه الموقف الذي يلحق بـه الأذىٰ والمعرّة، ويجرِ عليه المتاعب الجمّة، أمّا أُولو العلم فـإنّ بـصيرتهم الذكـيّة تحكّـم مسلكهم وتلهمهم الرشد، فلو قلّ عملهم كثر ما يصحبه من سداد وبصر.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «فـقيه واحـد أشـدّ عـلى الشـيطان مـن ألف عابد»[1]، وذلك لأنّ الشيطان يبدع البدعة للناس فيبصرها العـالم فـينهىٰ عـنها، والعابد مقبل علىٰ عبادة ربّه لا يتوجّه لها ولا يعرفها.

ولمّا كان ضيق الأُفق لا يدع للإيمان امتداداً، ولا للإحسان منفذاً، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلّا العالمون﴾ [العنكبوت : ٤٣]، وبيّن أنّ الضمير الدافع إلى الخير، الوازع عـن الشر، المـراقب له، الحـريص عـلىٰ مرضاته، هو ضمير العالم المستنير الخبير بربّه.

وقال تعالى: ﴿أمّن هو قانت آناء الّيل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنّما يـتذكّر أُولوا الألبـاب﴾ [الزمر : ٩].

كل أنواع العلم مطلوبة:

والعلم الذي يُقبل المسلم عليه، ويستفتح أبوابه بقوّة، ويرحل لطلبه من أقصىٰ المشارق والمغارب، ليس علماً معيّناً محدود البداية والنهاية، فكلّ ما يوسّع مفاتيح النظر، ويزيح السدود أمام العقل النهم إلى المزيد من العرفان، وكلّ ما يوثق صـلة الإنسان بالوجود، ويفتح له آماداً أبعد من الكشف والادراك، وكـلّ مـا يـتيح له السيادة في العالم، والتحكّم في قواه، والافادة من ذخائره المكنونة. ذلك كلّه عـلم ينبغي التطلّع له والتضلّع فيه، ويجب على المسلم أن يأخذ بسهم منه، وهذا الشمول

(١) البحار ١ : ١٧٧ ح٤٨.

دلّت عليه الآيات والسنن.

فأمّا الأحاديث المشيرة إلى التزوّد من المعارف أيّاً كانت فكثيرة، منها قول رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنّة»[١].

وقال: «ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلىٰ هدىً، أو يردّه عن ردىً»[٢].

فالسياق في هذه السُنَن يوجّه إلىٰ أيّ علم يُطلب، وتعلّم الخير وكلما يقي من الضرر، وما يقرّب من النفع، إنّ الإسلام رفع منازل العلماء وقدّر جهودهم، وكرّم ثمارهم إلىٰ حدّ بعيد.

خطبة الامام علي عليه السلام في طلب العلم:

قال عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: «تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وهو عند الله لأهله قربة، لأنّه معالم الحلال والحرام، وسالك بطالبه سبيل الجنّة، وهو أنيس في الوحدة، وسلاح علىٰ الأعداء، وزين الأخلاء، يرفع الله به أقواماً يجعلهم في الخير أئمّة يقتدىٰ بهم، وترمق أعمالهم، وتقتبس آثارهم، وترغب الملائكة في خلّتهم، يمسحونهم بأجنحتهم في صلواتهم.

لأنّ العلم حياة القلوب، ونور الأبصار من العمىٰ، وقوّة الأبدان من الضعف، ينزّل الله حامله منازل الأبرار، ويمنحه مجالسة الأخيار في الدنيا والآخرة، وبالعلم يُطاع الله ويُعبد، وبالعلم يُعرف الله ويُوحّد، وبالعلم توصل الأرحام، وبه يُعرف الحلال والحرام، والعلم إمام العقل، والعقل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء»[٣].

---

(١) البحار ١: ١٦٤ ح ٢.

(٢) احياء العلوم ١: ٨٠ / في العقل.

(٣) البحار ١: ١٦٦ ح ٧.

الفصل التاسع
الاعتصام بالله وإخلاص العبادة له

«فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ. وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ نبيّنا ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فَارْضَ بِهِ رَائِداً، وَإِلَىٰ النَّجَاةِ قَائِداً، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً. وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ وَإِنِ اجْتَهَدْتَ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ».

الاعتصام بالله سبحانه بعد رسوخ الايمان بأنّه واحد لا شريك له ولا مفزع منه إلّا إليه ـ بطبع الحال ـ يجعل اتّجاه الإنسان في كلّ شؤونه واحداً، فلا يبغي عند أي أحد فوزاً وفلجاً، ولا يعتقد النجاح إلّا به ولا النجاة إلّا بالاتّصال بهيمنته وقدسه، ولا الانفلات من إصابة الفتن والأضرار إلّا بكلاءته، فهذا من أعظم المواد الداعية إلى التوحيد.

* * *

نِعمة الخلق والرزق والاستواء:

قوله عليه السلام: «خَلَقَكَ، وَرَزَقَكَ، وَسَوَّاكَ».

هذه المواد الثلاثة كاقامة البرهنة علىٰ ما قدّمه من الاعتصام بالله سبحانه، فهو يوعز إلىٰ أنّ سلوك طريقة التوحيد كما شرحناه ليس تعبّداً محضاً، فإنّه معلّل بنعم وآلاء لا تُحصىٰ، والإنسان مغمور بها في حلّه ومرتحله، وإنّ من أعظمها بل هو أعظمها خلق الإنسان وإنقاذه من حيز العدم، وإفاضة الوجود عليه مشفوعاً بالعلم والمعرفة.

ومن هاتيك النعم نعمة الرزق، شرع سواء في ذلك الرزق الذي به حياة القلب من المعارف الإلهية، والرزق الذي به حياة البدن ونحوه.

ومن تلكم النعم العالية ما أشار إليه ـ سلام الله عليه ـ: نعمة التسوية في الخلق، وهو ما نشاهده في خلق الإنسان علىٰ أحسن تقويم، وله الحواس الخمس التي لا غنية له عنها، والعناصر التي ركّب منها بدن الإنسان، وفيه المتباينات والمتقاربات حتّىٰ عاد الإنسان المثل الأعلىٰ من بداعة في الصنع، وإتقان في التنسيق، وإحكام في التلفيق، فسبحان الله أحسن الخالقين.

إنّ أصحاب الإمام السجاد عليّ بن الحسين أو الإمام الباقر محمّد بن علي ـ سلام الله عليهما ـ سألوه: أليس الله يقول: يا عبادي أُدعوني استجب لكم؟ قال: صدق الله العظيم، بلى هو قائل ذلك، قالوا: فما بالنا ندعوه ليل نهار فلا يستجيب لنا؟ قال: لأنّكم تدعون من لا تعرفون، قالوا: وكيف نعرفه؟

قال: اعرفوا نفوسكم تعرفوه ثمّ ادعوه يستجب لكم، قالوا: وكيف نعرف نفوسنا؟ قال: فكّروا في أعينكم كيف تبصر، وفي آذانكم كيف تسمع، ثمّ في قلوبكم كيف تفكّر، فإذا عرفتم ذلك شعرتم بعظمة الله في نفوسكم، فدعوتموه فاستجاب لكم.

عجائب العين:

وينقل علماء الطب: أنّ المجهر الحديث كشف للعين، أنّ تلافيف الدماغ تشتمل

علىٰ أربعة ملايين سلك من العصب، ويقولون: لا يبعد أن تتضاعف هذه الأسلاك بتعزيز المجهر، لأنّ العلم لم يقف في صناعة المكبرات من مجاهر ومراصد عند حد، ففي كلّ جيل نرىٰ هذه الآلات تتعزّز فتأتينا بجديد ممّا لم نشعر به لولا تعزيزها.

ويقول بعض آخر من علماء التشريح في الطب: إنّ العلم لم يثبت فرقاً بين أُذني السميع والأصم، ولا بين لساني الناطق والأبكم من حيث الظاهر، ذلك ممّا يدلّ علىٰ أنّ وراء ما تحسّ العين بالمجهر من عصبيهما المتّصل بجمهور الأعصاب في الدماغ المسيطر على الحواس اختلالاً في عصب لم تتبيّنه مجاهر الطب الحديث.

ولوكان عصب التلافيف محدوداً بالملايين الأربعة التي تتبيّنها بالمجهر لسهل الوقوف على الخلل الذي ينشأ منه الصمم والبكم، علىٰ أنّ البعض يحقّق أنّ في ألمانيا مصحّات لمجموعة الرأس يطمئنّ الطبّ إلى التشريح فيها، ثمّ إلىٰ تبيّن العلل القائمة في خرس الألسن وصمم الآذان.

ومعجزة العين أنّ جوهرها الواصل بين الروح وبين مرئيّات الوجود، هذا الجوهر هو عبارة عن شبكة من العروق الدقيقة تتّصل بعصب الدماغ، ثمّ يتّصل بها إنسان العين المسمّىٰ بالجؤجؤ، وهو كرة صغيرة الحجم قائمة في حدقة لا يمسكها إلّا محجر يفرز ماءً لزجاً تندىٰ به تلك الكرة ما دامت تعمل على التقاط الصور المرئية التي تتكسّر عليها أشعّة الشمس.

ثمّ نرىٰ هذه الكرة مغلّفة بغشاء شفّاف يسمّىٰ «قرنية» ترتسم عليها تلك الصور، فهي من الجؤجؤ بمنزلة اللوحة الحساسة من عدسة الفنّان، فما هي تلك الشبكة؟ وما هو هذا الجؤجؤ؟ وما هي هذه القرنية؟ ثمّ ما هو ذلك الماء الذي تفرزه عروق المحجر فتؤهّل القرنية لالتقاط هذه الصور.

إنّ الطبّ ليدهش من عظمة المواد الكيماوية التي يتركّب منها ذلك الماء المحدق بتلك الكرة، ويدهش أكثر لقوّة هذا الماء علىٰ صقل ذلك الغلاف الشفّاف المسمّىٰ بالقرنية، ثمّ يدهش الطبّ أكثر عندما يحار في قوّة ذلك الماء لدى استحالته إلىٰ

دموع، وقدرته علىٰ تضميد جراح القرنية، إذ يخدشها عرض من خارج أو يقرحها تأثّر من داخل.

ويكاد يكون هذا الماء أقوىٰ علاج لصقل تلك اللوحة الحساسة، وإعطائها مناعة لا يتوفّر عليها تواطؤ الملايين من أطبّاء العالم في ملايين من عصور الإنسان، فمن أين ينبع هذا الماء، وما هي المواد التي يتركّب منها، ثمّ من هو الطبيب المشرف علىٰ ذلك التركيب الكيماوي العجيب.

عجائب الدماغ والقلب:

أمّا معجزة المعجزات في هذا الكائن الأعجب الذي نطلق عليه لفظ الإنسان، وهو مجهول لدينا بكلّ ما يتقوّم به، ثمّ نزعم تحليله وتعليله، أمّا هذه المعجزة فهي دماغه وقلبه، هذا القلب الذي يتولّىٰ توزيع الدم بعد تنقيته، علىٰ كلّ خليّة يتقوّم بها كلّ عضو، وعلىٰ كلّ ذرة تتألّف منها كلّ خلية.

ثمّ نرىٰ إذ نحكم التشريح عجباً في الوسائل التي تنقي هذا الدم بين الكبد والقلب، وتحول دون تسرّب الفاسد منه إلى النزيه، وانكفاء النزيه إلى الفاسد.

وهذا الدماغ الجبّار الذي يقوم في تفكيره علىٰ حرارة ذلك الدم الصاعد إليه من تلك الجوارح، والذي يتقوّم بأسلاك عصبية دقيقة أكثرها لا يقع تحت مجهر العين، وقد أنهاها بعض علماء التشريح إلىٰ أربعة ملايين سلك، كلّها يعمل على التقاط الأفكار من عالم الروح كما تلتقط أسلاك المذياع (الراديو) ألفاظ المذيع من عالم الأثير.

إنّ بين دماغ الإنسان وبين جهاز المذياع لشبهاً دقيقاً يكاد يكون عبرةً لمن لم يؤت حظّاً من سعة التفكير في خلق الإنسان، فالمذياع جهاز يتقوّم بأسلاك دقيقة من الصلب، تلتقط الصوت ممّا يتّصل بتيار الجاذبية العام المسمّىٰ بالكهرباء، وهو التيّار المحيط بكلّ جرم كوني متحرّك.

والدماغ جهاز يتقوّم بأسلاك دقيقة من العصب المرهف تلتقط الأفكار ممّا يتّصل بتيار الروح المهيمن علىٰ الكون، فكلّما دقّت وانتظمت أسلاك المذياع كان أقوىٰ علىٰ أداء رسالته التي هي التقاط الصوت ولفظه، وكلّما دقّت وانتظمت أعصاب الدماغ كان أقوىٰ علىٰ أداء رسالته التي هي اقتباس الفكر ولفظه.

وكما أنّ حرارة الكهرباء شرط أوّل في أداء رسالة المذياع، كذلك نجد أنّ حرارة الدم شرط أوّل في أداء رسالة الدماغ، وهكذا نجد الشبه جلياً بين المهيمن على المذياع وهو الإنسان، وبين المهيمن على الدماغ وهو العقل.

قرأت وشيكا في الصحف أنّ مرصداً فلكياً في شمال أمريكا بدأ منذ أيام يتلقّىٰ إشارات لاسلكية متّزنة من كوكب الزهرة في عدّة مناسبات، وقد عكف الراصدون علىٰ تبيّن هذه الحركات الصوتية، واكتناه جوهرها ثمّ قياسها علىٰ أصواتنا.

وقرأت قبل أشهر أنّ بعض علماء الموسيقىٰ يعملون على التقاط الموسيقىٰ الكونية الناشئة عن تموّجات الأثير، لما قرّ في أذهان الألباء من قادة الفكر الحديث والقديم، من أنّ كلّ حركة طبيعية تتّصل بعظمة الكون القائم علىٰ نظام أزلي، يصدر عنها من فنون الموسيقىٰ ما لا عهد لأرباب الفنون بالتحسّس منه.

والموسيقىٰ الأثيرية ليست وقفاً على السمع فقط وإنّما تتجاوزها إلى العين والفكر، فهي نظام عام يستهوي السمع بصوته، والعين بشكله، والفكر بايحائه، فإذا سال كان لحناً باعثاً في السمع حنينه إلىٰ مصدره الأزلي، وإذا جمد كان شكلاً كاشفاً للعين أن تبصر من وراء طبعها النور الذي صدرت عنه، ثمّ إذا لطف شفّ للعقل عمّا يتقوّم به الكون من أسرار تلهمه أنّ كلّ ذرة في الكون تقوم على الموسيقىٰ فيما نسمع ونرىٰ ونفكّر.

يقول أحد أساتذة العلوم الكونية في جامعة برلين، وقد ترجم قوله الدكتور أحمد زكي المصري في مجلة الرسالة، يقول ما مضمونه:

«إنّ عجائب ما يتقوّم به الأثير المسمّىٰ بالفضاء أو الهواء، لا تقف عند اكتشاف الكهرباء من تجاذب الأجرام السابحة فيه، وإنّما تتجاوزه إلىٰ أعجب من ذلك وهو أنّ التيّار الكهربائي العام يتقوّم بتيار روحي يهيمن عليه في صميم الأثير وهو مصدر التفكير والالهامات.

فإذا كان التيّار الكهربائي مصدر هذه العجائب التي هي بين سمعنا وبصرنا، فمصدر أي العجائب سيكون التيار الروحي في مستقبل عقل الإنسان يوم يتحكّم به كما يتحكّم اليوم بتيّار الكهرباء، ثمّ يختم هذا وهو يملي علىٰ تلاميذه بقوله: إذن صدّقوا يا أبنائي ما يرويه لنا تاريخ الأديان من أنّ الأنبياء والرسل كانوا يمشون على الماء، ويصعدون في الهواء».

ويقول أنشتين صاحب نظرية النسبية: «لا يدخل في روع من يفكر أنّ الفضاء لا شيء، فممّا لا ريب فيه أنّ هذا الخلاء ممتلئ صلب ولعلّه أصلب من الفولاذ».

فليتعجّب الإنسان لعظمة القوّة في نفسه التي يخترق بها هذا الفضاء الصلب عن طريق العين، والفم، والقلب بنظراته ونبراته وتفكيره، وليعجب أكثر من أنّ صلابة هذا الأثير قائمة علىٰ ما يختزنه في صميمه من قوّة الفكر، والصوت والنظر الحائرة فيه من كلى الروح المنبثّ في جزئيات هذا الكائن الإنساني الذي يعمّر الكون.

* * *

الاخلاص في العبادة:

قوله ﷺ: «وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدَكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتَكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ».

وبما أنّ حاجة الحيّ إلىٰ ما ذكرناه من التسوية مسيسة، بحيث لو اختلف شيء منها بزيادة أو نقيصة اختلّ نظام حياته، فمن واجبه إذن شكر المولىٰ سبحانه علىٰ جميع ما قلناه بوضع كلّ منها في موضعه المعدّ له، فيكون له تعبّده إذ لا يستحق

العبادة بما اكتنفته من مظاهر الجلال والجمال والكمال سواه.

ويكون إليه رغبته لأنّه لا مطمع له لكشف الكروب والمحن غيره، ويكون منه خشيته لأنّه لا منجاة من مقبلة الأخطار في الدنيا والآخرة عداه، ولقد قيل: «رأس الحكمة مخافة الله».

بدأ ـ سلام الله عليه ـ في اصلاح النفس الإنسانية بملازمة التوحيد، ثمّ انعطف علىٰ ما هو أوصل الطرق إلىٰ الحقيقة الراهنة من طريق السمع، فقال:

«**وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ نبينا ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فَارْضَ بِهِ رَائِداً، وَإِلَىٰ النَّجَاةِ قَائِداً**».

* * *

إنّ المدقّق في موادّ شريعة الرسول محمّد ﷺ جد عليم، بأنّه ليس فيها إلّا كلّ ما يمدّ حياة العلم والعمل، ويكبح المعاثر عن طريق الدين والهدىٰ والمعرفة والصلاح، وهي حافلة بمناجح البشر في سائر أحواله وأطواره، كافلة بالمعارف الإلهية جمعاء.

فليس في الكتب السماوية قبل القرآن ـ إن بقي شيء منها غير محرّف ـ ما يتعرّض لجملة منها، وفي المحرّف منها أشياء هي للخرافة أقرب منها إلى الحقائق، أليس من الحري أن تكون شريعة محمّد ﷺ متبوعة للبشر كافة، ويتّخذ الصادع بها رائداً وقائداً كما ذكر ﷺ؟

* * *

قوله ﷺ: «**فَإِنِّي لَمْ[1] آلُكَ نَصِيحَةً، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ وَإِنِ اجْتَهَدْتَ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ**».

هذا تأكيد منه ﷺ لما قدّمه من النصح الكافل لسعادة الإنسان فيما عنّ له من الأمر، من الاعتصام بحبل الله سبحانه والرجوع إلىٰ قول المشرّع الأعظم ﷺ، اللّازمين لمن يتحرّى الحياة الخالدة، وجمام النفس فيها.

---

(١) آلىٰ ألواً وآلواً وأليّاً وإلىٰ وائتلىٰ قصّر وأبطأ.

علىٰ أنّ ما ذكره ﷺ من النصح الأبوي الذي لا يبارح ما بين الوالد والولد من العلائق الوديـة، ولا سيّما إذا كـان مـلقي العـظة إمـاماً مـعصوماً كـمولانا أمـير المؤمنين ﷺ، فإنّه لا يدع في النفوس منها منزعاً، ولا يترك لقائل مقالاً، وهب أنّ الإمامة شرع سواء في الوالد والولد كالعصمة لكن لأمير المؤمنين ﷺ فضله الظاهر علىٰ بقيّة الأئمة ﷺ، فهو ـ سلام الله عليه ـ أنظر إليهم منهم بأنفسهم، وإن جدّوا فيما نظروا ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ.

الفصل العاشر
دلائل التوحيد وواجبات الموحّدين

«وَٱعْلَمْ يا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتَهُ، وَلٰكِنَّهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ. أَوَّلٌ قَبْلَ ٱلْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرٌ بَعْدَ ٱلْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ. عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ. فَإِذَا عَرَفْتَ ذٰلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَٱلْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ».

* * *

تعدّد الطرق الىٰ الله:

لأهل العلم في الدلالة علىٰ توحيد الله تعالى شأنه مسالك وطرق بعضها واضح وبعضها خفي، وما خفي منها فإنّما هو لابتنائه علىٰ أُمور ومسائل قد تكون دقيقة في

نفسها، وقد تكون دقيقة باعتبار أنّ الأفهام لم تمارسها ولم تألف الدنوّ إليها، والاقتراب منها، ولا الحوم حولها.

نرى الله تعالى في كتابه يقيم الدليل علىٰ توحيده بأنّه لو كان إله غيره لفسدت السماوات والأرض.

ونرىٰ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام يستدلّ علىٰ توحيد الله بأنّه لو كان غيره لأتتنا رسله، ولرأينا آثار ملكه وسلطانه.

ونجد أرسطاطاليس من فلاسفة اليونان يستدلّ علىٰ توحيد الله ووحدته بوحدة العالم الموجود منه.

ونجد صاحب الأسفار من فلاسفة المسلمين يستدلّ علىٰ وحدته تعالى بوجوب وجوده، وإمكان وجود غيره.

وآخر يقول: بأنّ واجب الوجود واحد، ويجب في الإله أن يكون واحداً، لاستحالة أن يكون الإله غير واجب الوجود.

والشاعر يقول:

في كلّ شيء له آية تدلّ علىٰ أنّه واحد

إلىٰ غير ذلك من المسالك والمناهج التي ترىٰ أنّ بعضها أوضح وأنور من بعض.

والله تعالى لا يريد أن يفرض القول بوحدانيّته فرضاً بلا دليل وبلا برهان، بل يريد أن يكون الايمان بوحدانيّته والتصديق بألوهيّته دون غيره بالدليل الواضح، والبرهان الجلي بصورة لا تزعزعه الشبه، ولا تزلزله التشكيكات.

وانّ مسألة التوحيد مسألة شغلت بال العالم قديماً وحديثاً، ولا تزال محلّ النقض والابرام بين الموحّدين من المسلمين وبين غيرهم، بل بين المسلمين أنفسهم، فإنّ كثيراً من الفرق الإسلامية كالمجسمة، والمشبهة، والغالية، نبوا وابتعدوا عن القول بالتوحيد، بل ربّما انغمس في دنس الشرك من يرىٰ نفسه

موحّداً من حيث لا يعلم.

ففي الحديث: «ولو أنّ أحداً قال لشيء فعله الله أو فعله رسوله ﷺ ألا فعل خلاف ذلك، أو وجد ذلك في نفسه عدّ مشركاً، ثمّ تلىٰ قوله تعالى: ﴿فلا وربّك لا يؤمنون حتّىٰ يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلّموا تسليماً﴾» [النساء: ٦٥][1].

ولعلّ إلىٰ هؤلاء يشير الله سبحانه بقوله: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثمّ نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ● ثمّ لم تكن فتنتهم إلّا أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين ● أنظر كيف كذبوا علىٰ أنفسهم وضلّ عنهم ماكانوا يفترون﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

فهؤلاء لا يجوز أن يكونوا ممّن دخل في الشرك صريحاً بل ممّن دخل فيه من حيث لا يعلم، وانغمس في حمأته من حيث لا يشعر، أتي من قبل غفلته وإهماله وتفريطه في أمر دينه ولذلك لم يكن معذوراً.

ومن هنا يتبيّن لك أنّ الشرك ذو شعب متعدّدة، وأطراف مترامية، وإنّ غير المتحفّظ لا يأمن من الولوج فيه، والدخول في بعض شعبه وأطرافه.

ونحن إذ نتقدّم للكتابة فيه إنّما نتقدّم لنبرئ النفوس منه ونطهّرها من رجسه، ونحيد بها عن الانغماس في حمأته، وعن الدنوّ والاقتراب من مدارجه وموالجه، والله هو المسؤول للاعانة علىٰ توضيح ذلك وإفهامه.

قد تفنّن المفسّرون في التعبير عن الدليل المشار إليه بقوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قال البيضاوي في تفسيره: «﴿لو كان فيهما آلهة إلّا الله﴾ غير الله، وصفت ـ بإلّا ـ لما تعذر الاستثناء لعدم شمول ما قبلها لما بعدها، ودلالته علىٰ ملازمة الفساد لكون الآلهة فيهما دونه. والمراد ملازمته لكونها مطلقاً أو معه حملاً لها علىٰ غير، كما

---

(١) راجع تفسير العياشي ١: ٢٥٥ ح١٨٢، وتفسير الميزان ٤: ٤١٣.

استثني بغير حملاً عليها.

ولا يجوز الرفع على البدل لأنّه متفرّع على الاستثناء ومشروط بأن يكون في كلام غير موجب، ﴿لفسدتا﴾ لبطلتا، لما يكون بينهما من الاختلاف والتمانع، فإنّها إن توافقت في المراد تطاردت عليه القدر، وإن تخالفت فيه تعاوقت عنه»[1].

وقال الزمخشري في كشّافه عند ذكر الآية: «وصفت آلهة بإلّا كما توصف بغير لو قيل آلهة غير الله.

قال: فإن قلت: ما منعك من الرفع على البدل ـ قلت: ـ لأنّ لو بمنزلة إنْ في أنّ الكلام معه موجب، والبدل لا يسوغ إلّا في الكلام غير الموجب، كقوله تعالى: ﴿ولا يلتفت منكم أحد إلّا امرأتك﴾ [هود: ٨١]، وذلك لأنّ أعمّ العام يصحّ نفيه ولا يصحّ إيجابه، والمعنىٰ: لو كان يتولّاهما ويدبّر أمرهما آلهة شتّىٰ غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا.

وفيه دلالة علىٰ أمرين، أحدهما: وجوب أن لا يكون مدبّرهما إلّا واحد، والثاني: أن لا يكون ذلك الواحد إلّا إيّاه وحده لقوله: ﴿إلّا الله﴾.

قال: (فإن قلت:) لم وجب الأمران «قلت»: لعلمنا أنّ الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف، قال: وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمر بن سعيد الأشدق: كان والله أعزّ علي من دم ناظري، ولكن لا يجتمع فحلان في شول»[2].

وقال صاحب مجمع البيان عند ذكر الآية: ﴿لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا﴾ ومعناه لو كان في السماء والأرض آلهة سوى الله لفسدتا وما استقامتا، وفسد من فيهما ولم ينتظم أمرهم، وهذا هو دليل التمانع الذي بنى عليه المتكلّمون مسألة التوحيد، قال:

---

(١) تفسير البيضاوي ٢: ٦٧ سورة الأنبياء.
(٢) الكشّاف ٣: ١٠٩و ١١٠ تفسير سورة الأنبياء.

وتقرير ذلك أنّه لو كان مع الله سبحانه إله آخر لكانا قديمين، والقدم من أخصّ الصفات، فالاشتراك فيه يوجب التماثل، فيجب أن يكونا قادرين عالمين حيين، ومن حقّ كلّ قادرين أن يصحّ كون أحدهما مريداً لضدّ ما يريده الآخر من إماتة وإحياء، أو تحريك وتسكين، أو إفقار وإغناء ونحو ذلك.

فإذا فرضنا ذلك فلا يخلو امّا أن يحصل مرادهما وذلك محال، وامّا أن لا يحصل مرادهما فينتقض كونهما قادرين، وامّا أن يقع مراد أحدهما ولا يقع مراد الآخر فينتقض كون من لم يقع مراده من غير وجه منع معقول قادراً، فإذاً لا يجوز أن يكون الإله إلّا واحداً.

قال: ولو قيل إنّهما لا يتمانعان لأنّ ما يريده أحدهما يكون حكمة فيريده الآخر بعينه ـ والجواب ـ إنّ كلامنا في صحّة التمانع لا في وقوع التمانع، وصحّة التمانع يكفي في الدلالة، لأنّه يدلّ علىٰ أنّه لابدّ من أن يكون أحدهما متناهي المقدور فلا يجوز أن يكون إلهاً. انتهى موضع الحاجة[1].

وأقول: إنّ الآية ظاهرة بلزوم الفساد للتعدّد، والتمانع جائز وليس بلازم، فالفساد الآتي من قبل التمانع جائز فكيف يكون لازماً، والقول الصحيح ما أفاده البيضاوي، من أنّ التعدّد ملزوم أحد أمرين: أمّا الاتّفاق وأمّا الاختلاف، وبالاتّفاق تكون المطاردة، وبالاختلاف تكون المعاوقة والممانعة، وفي كلّ منهما الفساد وهو لازم علىٰ كلا الحالين فتدبّر.

وتنبّه إلىٰ أنّ المفسّرين لا يريدون الاستدلال على التوحيد بالآية، إنّما يريدون الاستدلال بالبرهان العقلي الذي أشارت إليه الآية، وإنّ كثيراً من الآيات تنبّه إلى البراهين العقلية، وتشير إليها ليؤخذ بها ويعتمد عليها.

وكأنّ الله سبحانه يريد أن يدعم الحقّ ويثبته، ويجعله محكماً قارّاً باقامة الأدلّة والبراهين عليه من ناحيتي العقل والنقل، يريد أن يستعمل الإنسان عقله

(١) مجمع البيان، تفسير سورة الأنبياء، الآية ٢٢.

ويسترشده ـ وهو رسوله الباطني ـ كما يسترشد الأنبياء والرسل، ويجتمع به كما يجتمع بهم في مهمّات مسائله ومعاضل أحكامه.

لا يريد الله أن يفرض على الإنسان فيما يرجع إلىٰ أُصول دينه وحقائق عقيدته الأمر فرضاً، ويجبره على العلم والاعتقاد إجباراً، علماً منه سبحانه أنّ الاعتقاد من الأفعال القلبية، والقلب لا يجبر علىٰ شيء من فعله، يريد الله بالانسان أن يمشي علىٰ بيّنة ويسير علىٰ ضوء، ولا يحكم إلّا بدليل وبرهان، وذلك شأن الدين الحقّ وهو الهادي إليه.

إنّ محلّ الشاهد، وموضع القصد من هذا الكلام، الجملة الأُولىٰ من كلام علي أمير المؤمنين ﷺ، وإنّما أتينا بهذه الفقرة لما فيها من الارتباط بهذا القصد من توجيه القلب وأخذه بالموعظة، ليحرص على الاستفادة منه، وهو كلام واضح في الدلالة علىٰ توحيد الله تعالى.

أجل لو كان لله سبحانه شريك لوجب في ذلك الشريك أن يكون عالماً حكيماً، إذ لا يجوز في الإله المستحقّ للعبودية أن يكون جاهلاً سفيهاً، فإنّ الجاهل السفيه يستحقّ الطرد والإبعاد والاهانة والتحقير، إذاً لابدّ أن يكون عالماً حكيماً، والعلم والحكمة تقتضي أن يبعث للناس رسولاً يدعوهم إليه ويدلّهم عليه، وإلّا لانتفىٰ عنه العلم، وبطلت الحكمة، ولو بعث رسلاً لأتتنا ودلّتنا وأرشدتنا.

وحيث أنّه لم يأتنا عن غير الله رسول فلا رسول، وإذ لا رسول لغير الله فلا مرسل غير الله ولا إله سوى الله.

وهذا معنىٰ قوله ﷺ: «لو كان لربّك شريك لأتتنا رسله»، فإنّ اتيان الرسل لازم، وانتفاء اللازم يستدعي انتفاء الملزوم.

وفي اصطلاح المنطقيين: قياس استثنائي يلزم من وضع المقدّم وضع التالي، ومن ارتفاع التالي ارتفاع المقدّم، مثل قولهم ـ لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجوداً، لكن النهار ليس بموجود فالشمس ليست بطالعة ـ وهذا مثله عيناً، لو

كان لله شريك لأتتنا رسله، وهو قياس منطقي صحيح.

ومثله قوله ﷺ: «ولرأيت آثار ملكه وسلطانه» فإنّه لو كان لله شريك لكان عالماً حكيماً قادراً، ولو كان كذلك لكان له ملك وسلطان، ولو كان له ملك وسلطان لرأينا آثار ملكه وسلطانه، ولمّا انتفت هذه اللوازم كلّها انتفىٰ ملزومها، وإلّا لوجب الملزوم بلا لازمه وهو محال.

وكذلك قوله ﷺ: «ولعرفت أفعاله وصفاته»، فإنّه لو كان لله شريك لكان له أفعال وصفات، قضاء لحقّ العلم والحكمة والقدرة، ولو كانت لعرفناها لوجوب ظهورها، ولكن لا نعرف خالقاً غير الله ولا مدبّراً لهذا الكون سوى الله، وانتفاء المعرفة عن غير أفعال الله يدلّ علىٰ انتفاء غير الله، وذلك أن تصنع من كلّ من الدليلين الأخيرين قياساً استثنائياً منطقياً كما ذكرنا.

فتقول: لو كان لله شريك لرأينا آثار ملكه، ولكن لم نرَ له أثراً فليس له من شريك، وتقول: لو كان لله شريك لعرفنا أفعاله وصفاته، ولكن لم نعرف لغيره فعلا ـ أي من الأفعال المختصّة بالله سبحانه مثل الخلق، والرزق والاماتة، والاحياء ـ ولا صفة ـ مثل القدم ووجوب الوجود وأمثالها ممّا هو مختصّ بالله سبحانه ـ، فليس له شريك.

وهذه أقيسة منطقية صحيحة، تكلّمنا بها علىٰ منهاج الفلاسفة وطريقتهم في اثبات الأشياء ونفيها، نظراً لما نرىٰ في أهل العصر وفي مدارسهم من شيوع الفلسفة والتدرّج إليها والاقبال عليها.

* * *

قوله ﷺ: «وَلٰكِنَّهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ».

لقد استفاضت الآيات القرآنية بالنصّ على التوحيد، ويكاد أن يكون القسم الأوفر من بين الآيات، ويكفيك منها أمره تعالى نبيّ الرحمة أن يقول: ﴿قل هو الله أحد﴾، ﴿وهو الله الواحد القهار﴾.

قوله ﷺ: «لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ».

إمكان المضادة في الملك فرع الكفاءة والمقدرة بين الإلٰهين المتصوّر تقارنهما، وإذ قامت عندنا البراهين القاطعة علىٰ نفي الشريك فليس هناك من يضادّه أو ينازعه في الملك.

* * *

قوله ﷺ: «وَلَا يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ».

فهو سرمدي لما تقدّم من أنّه واجب الوجود، فلا يجوز أن يمدّ إليه العدم يداً لا قبلاً ولا بعداً.

* * *

قوله ﷺ: «أَوَّلٌ قَبْلَ ٱلْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرٌ بَعْدَ ٱلْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ».

لأنّه لو كان مع الأوّلية فهو مسبوق بالعدم، ولو كان ملحوقاً بالآخرية فهو متبوع بالعدم أيضاً، وهو ينافي وجوب وجوده.

* * *

قوله ﷺ: «عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ».

لأنّ المثبت بالقلب يستدعي أن يكون محاطاً به، والادراك بالبصر يستلزم كون المرئي جسماً، ومقام الربّ سبحانه فوق كلّ هذه التصوّرات.

* * *

قوله ﷺ: «فَإِذَا عَرَفْتَ ذٰلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَٱلْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ».

أخذ ﷺ يعدّد وجوه حاجة ولده المحبوب إلى المولىٰ سبحانه، وما يجب أن يكون مثله علىٰ مثله من الحال، من الطاعة والتحلّي بالصفات الفاضلة ومكارم الأخلاق، ومن أهمّها معرفة أداء الواجب نحو خالقه ونحو المخلوق، فإنّ أداء

الواجب بالغ الخطورة، عظيم الشأن، يتطلّب من العزيمة أن تكون علىٰ أتمّها، إذ في أداء الواجب مجاهدة للنفس الأمّارة بالسوء أيّ مجاهدة، ومغالبة لها أيّ مغالبة، فمن لم يرزق جلد العزيمة ومضاؤها فلن يستطيع مع أداء الواجب صبراً.

وأداء الواجب علىٰ وجه الدقّة كلمة تحمل بين جنبيها جمعاً من الفضائل فهي على الحقيقة أم الفضيلة الولود، أليس من الواجب أن تعرف حقوقك فتطلبها من وجوهها، وتعرف حقوق غيرك عليك فتؤدّيها علىٰ وجوهها، وماذا بعد ذلك من الفضائل لا يتّصل بنسب إلىٰ حقّ لك أو حقّ عليك.

وإنّ الأُمم لترقى شؤونها الاجتماعية، ومدنيّتها الخلقية بمقدار رقي هذه الفضيلة ـ فضيلة أداء الواجب ـ في نفوس أُناسها، فإنّه إن طويت الضلوع علىٰ هذه الفضيلة فقد ضعف الخلاف بين الفرد والفرد، ومتىٰ تمّ ذلك فقد قويت الأواصر بين الطبقة وأُختها، ومتى التقت طبقات الأُمة لا عادي ولا معدوّ عليه، فهي واصلة إلىٰ غايتها التي لا غاية وراءها في مدنيّة الخلق والاجتماع، وما حاجة الأُمة حينئذٍ إلى التقاضي والتشاكي، وما يذهب في هذين السبيلين من جهود الأفراد، بل ما حاجة الأُمة حينئذٍ إلىٰ ما يأكل جمهور الجماعات والحكومات من معالجة العلل الاجتماعية والنفسية، لقد منع من كلّ ذلك أن أدّىٰ كلّ فرد واجبه، فرجع لا يظلم أحداً، ولا يشكو من أحد، وذلك هو المثل الأعلى الذي يتوخّاه علي ﷺ لحياة الأُمم.

أهم الواجبات:

من أجل ذلك وجب أن نبيّن للناس ما هو واجب لهم، وما هو واجب عليهم، رضوا أم غضبوا، كرهوا أم أحبّوا: «ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيّ عن بيّنة».

١ ـ المعرفة بالله:

إنّ أوّل ما ينبغي أن يبتدئ به المرء، هو أن يعلم أنّ لهذا العالم صانعاً، وطريقة

ذلك أن يتأمّل الموجودات كلّها ليتبيّن أنّ لكلّ واحد منها سبباً بطريق الاستقراء، ثمّ ينظر إلىٰ تلك الأسباب المباشرة، ألها أسباب أيضاً أم ليست لها أسباب، حتّىٰ إذا وجد لها أسباباً تأمّل ونظر الأسباب ذاهبة إلىٰ ما لا نهاية له، أم هي واقفة عند نهاية، أم بعض الموجودات أسباب لبعض علىٰ سبيل الدور، فإنّه يجد القول بأنّها ذاهبة إلىٰ غير نهاية محالاً؛ لأنّه يقتضي التسلسل وهو محال.

ويجد القول بأنّ بعضها سبب لبعض على التعاقب محالاً أيضاً، لأنّه يلزم من ذلك أن يكون الشيء سبباً لنفسه، فبقي أن تكون الأسباب متناهية، وأقلّ ما يتناهىٰ إليه الكثير هو الواحد، فسبب الأسباب موجدها وهو واحد، ولا يجوز أن يكون ذات السبب وذات المسبّب واحداً، فسبب أسباب العالم منفرد بذاته عمّا دونه.

ولما لم يقدر الإنسان علىٰ معرفة شيء سوىٰ ما شاهده بحواسه، وفهمه بعقله ممّا شاهده، لم يجداً بدّاً من وصف البارئ الذي هو سبب الأسباب، والتعبير عنه بما وجد السبيل إليه من الألفاظ والأوصاف، فلمّا أراد التعبير عنه والوصف له، وعلم انّه جلّ وعلا لا يحدّه شيء من جميع الأوصاف التي شاهدها وعلمها، لتفرّده بذاته ولأنّه منزّه عن كلّ ما أحسّه وعرفه، لم يجد طريقاً أحسن من أن ينظر في الموجودات التي لديه، فإذا تأمّلها وجدها صنفين فاضلاً وخسيساً، ووجد الأليق والأجدر بسبب الأسباب الواحد الحقّ أنْ يُطلق عليه أفضل الصنفين.

فمثلاً إذا رأى الموجود والمعدوم، وعلم انّ الموجود أفضل من المعدوم أطلق عليه الوجود، وإذا رأى الحيّ وغير الحي، وعلم انّ الحيّ أفضل من غير الحيّ أطلق عليه الأفضل وقال: إنّه حي، وإذا رأى العليم وغير العليم أضاف إليه العلم.

وكذلك جميع الأوصاف علىٰ أنّ الواجب علىٰ كلّ من يصف الباري بصفةٍ مّا أن يخطر بباله مع تلك الصفة أنّه بذاته منزّه عن أن يشبه تلك الصفة، وأنّه لا يتهيّأ لأحدٍ إحاطة العلم به كما هو مستحقّ له، علىٰ أنّ كلّ واحد يشعر بفطرته أنّ هناك في الوجود قوّة عظيمة، هي مصدر عجائبه وابداعه ونظامه الدقيق، وهذا الشعور

النفسي قد أخذ يعظم في النفس باتّساع نطاق التفكير والاختبار، والتوسّع في المبادئ العلمية والعملية.

وإنّ من الفِكَر البَدَهية المقرّرة، فكرة وجود ذات عليّة قدسية كاملة مبدعة لحياتنا، ملهمة للخير والشر علىٰ أحكم نظام وأدقه، ولقد يشعر الإنسان في أعماق نفسه بشوقٍ عظيم نحو ذلك المصدر الكريم والينبوع الصافي.

والعلوم البشرية تقوي هذه الفكرة، فكرة وجود الإله الأعظم والمعبود بحقّ سبحانه تقدّس في علاه، وليس هناك ما ينفي مبدأها لأنّها تكشف لنا الغطاء عن الأسباب التي تدهشنا في هذا الكون العجيب، فقانون الجاذبية العام الذي كشفه «إسحاق نيوتن» أبان لنا سرّ التوازن في النظام الشمسي، ذلك التوازن المحكم بتقدير العزيز العليم.

وإذا كان الإنسان مرتبطاً بهذا العالم كأعظم مخلوق وجد علىٰ ظهر البسيطة، وأشرف كائن فيها، فليس غريباً أن تكون علىٰ واجبات للذات العلية القدسية التي أوجدته من العدم، وشرّفته بالعقل والسلطان القوي.

٢ ـ الاعتراف بجميل صنعه:

ومن التقديس لله تعالىٰ الاعتراف بعظمته، وإحكام السنن التي يجري عليها هذا الكون العجيب، وهذا يأتي بتهذيب العقل وترويض الوجدان على البرّ والخير، وتجنّب الرذائل والشرور التي هي من عمل الشيطان، وكلّ من يدرك أنّ الله سبحانه هو مصدر كلّ القوىٰ الطبيعية ونظّمها وسنّنها، يشعر بالعجز عن الاعتراف بجميله سبحانه اعترافاً وافياً.

٣ ـ الطاعة:

والطاعة لأمر الشرائع التي أنزلها الله علىٰ أنبيائه الكرام هي من الواجبات

المقدّسة التي تنفع المرء في معاشه ومعاده.

٤ ـ التأمل في الكون:

ويدخل في باب الواجبات الدينية من حيث تقديس الذات العلية، تأمّل هذا الكون العظيم، وتدبّر آيات الله البيّنات، والتبصّر في بدائع العقول البشرية التي أحكمها الله، فأبرزت عجائب الآراء والمخترعات.

ونذكر هنا موجزاً من قول «جول ستيج» في كتابه «الرجل الشريف»: «إنّ في رقبة الإنسان واجبات لكلّ كائن، أفلا تكون عليه واجبات لله تعالى لتلك القوّة السائدة على الكون لذلك الخير المحض الذي لا حدّ لفضله ووجوده.

فهذا الاحساس الذي يلازم القلب البشري هو الاحساس الديني الذي تفيض عنه كلّ الواجبات التي تسمو بالحياة.

فمن تلك الواجبات الدينية إكبار شأن الخليقة والاعجاب بها، وتمجيد خالقها عند مشاهدة بدائع القبة الزرقاء المزيّنة بزينة الكواكب، وعجائب الأرض والسماء، والذي يمرّ بهذه الآيات البيّنات غير مكترث بها لا يمكن أن يكون إنساناً.

ثمّ إنّ من الواجبات الدينية محبّة الناس اخواننا في الإنسانية، ومحبّة كلّ ما هو خير وحق، وأن نفسح للضمير والوجدان باب الخير والحكمة، مع حبّ الفضيلة والاخلاص والترفّع عن الأثرة والكبرياء». انتهىٰ

وحرية الدين قد كفلها الإسلام، تأمّل قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقوله تعالى: ﴿وقل الحقّ من ربّكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف: ٢٩].

وممّا يجمل ذكره قول بعض الحكماء: الدين الحقّ ما أحيا نفسك وأيقظها، وأوجد في نفسك ذلك الشعور بقيمة الوجود، وفي فؤادك تلك الثقة وذلك الأمل العظيم، مغرياً لك بالظهور دائماً بمظهر الرجولة، مرشداً إيّاك إلى التسامح وحبّ

الواجب.

إنّ الاخلاص في العبادة وتفهّم كنهها هما أساس العبادة والتديّن، فليس معنى الدين مجرّد القيام ببعض العبادات والمراسم دون أن يكون هناك أثر في صميم النفس.

وخليق بالانسان ـ بعد أن يعلم أنّ الله متفرّد بذاته لا شبيه له في صفاته ـ أن يتأمّل أجزاء العالم كلّها فإنّه يجد أفضلها ما هو ذو نفس، ويجد أفضل ذوي النفس الذي له الاختيار والارادة والحركة التي عن رؤية، وأفضل ذوي الارادة والحركة عن الرؤية الذي له التميز والفكر والنظر البليغ في العواقب، وهو الإنسان الكامل.

والبارئ تعالى الذي وهب الاختيار والفكر والرؤية لم يكن يهمل أمرها، وكان من مقتضيات عدله وصنعه المتقن أن ينهج لها منهجاً تسلكه، ولهذا اقتضت حكمته ألّا يرسل إلىٰ ذلك الإنسان من ليس من طبعه، لأنّه لم يكن يقدر علىٰ الاستفادة ممّن هو من غير طبعه: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ [الأنعام : ٩].

وظاهر أنّ في الناس وفي عقولهم وقوىٰ نفوسهم تفاضلاً بيّناً، حتّىٰ إنّ الواحد منهم قد يفوق بالفنّ الواحد جميع ذوي جنسه ويعجز الباقون عنه، فممكن إذن أن يكون من الناس من يقوى علىٰ أن يوحىٰ إلىٰ قلبه بما يعجز ذوو جنسه عن مثله حتّىٰ يقوم ذلك الواحد بتبليغ ما يلقىٰ إليه، ويقدر بتلك القوّة بتبليغ الأحكام، ونهج السبل الداعية إلى صالح الخلق، ومتىٰ صحّ الدليل علىٰ أنّ ذلك الواحد مرسل من عند الله وجب علىٰ كلّ ذي تمييز اتّباعه والعمل بشريعته.

حقّ الله علىٰ عباده:

ممّا تقدّم يتّضح أنّ الله هو الكمال والخير، وأنّا مدينون له بحياتنا وكلّ ما نتمتّع به من النعم، فإذا لم نشعر قلوبنا شكره علىٰ ما أسبغ علينا من آلائه كنّا قد أتينا أشنع أنواع الجحود.

فأوّل واجباتنا إذن أن نمجّده، وأن نهمل أُولئك الضالّين الذين يعتقدون إمكان وجود الناقص من غير أن يكون الكامل موجوداً، أو أنّ الله تعالى ترك الخلق بعد أن أوجده: ﴿سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً﴾ [الأسراء: ٤٣].

كيف نمجّد الله:

إنّ أوّل طريقة لتمجيده هي الخضوع لقانون الأخلاق، وعدم معارضة الخير لأنّه من صنع الله، فمعارضته محاربة الله وعصيان لارادته، ويجب أن نطهّر قلوبنا، فكلّ عبادة صادرة من غير إخلاص لا ترضي الله، إنّ الذي يخلط أعمال العبادة بما يفعل في حياته من فساد يكون مزدري حتّىٰ من غير المؤمنين، ولن يعتقد أحد الاخلاص في شعور ديني لا يلهم صاحبه سيرة شريفة؛ إذ كيف يمكن أن نحبّ الله ثمّ لا نجلّ في أنفسنا أكمل ما صنعت يداه، كيف يمكن أن نحبّ الله ولا نحبّ العدل؟
وإليك العبادة التي يرضاها الله:

أن تكون مستقيماً عدلاً خيراً، برّاً بوعدك، باذلاً منفعتك في سبيل واجبك، غير متردّد ولا كاره، وألّا تغضّ من نفسك باقتراف المخازي والدنايا، فتضع من شرف الإنسانية، وأن تجتنب ما استطعت كلّ اعتداء علىٰ حقّ غيرك، وأن تضحّي براحتك لسعادة أمثالك، وأن يكون في قلبك عطف علىٰ مخلوقات الله، وأن تترك من بعدك مثلاً للفضيلة وذكرىٰ طيّبة.

وهناك واجب هام وهو أن نشكر الله بأعمالنا كشكره بألسنتنا، إنّنا لنتألّم ممّن لا يسدي الشكر لمن أحسن إليه، كذلك لا يمكن أن نكون أحبّاء الله من غير أن نردّد اسمه علىٰ ألسنتنا.

وشكر الله وإن كان لا ينفعه مفيد لنا، إذ كلّ شعور يتّفق مع النظام يطهّرنا، وتقوى الله تحبّب إلينا الخير وتجعل القيام به علينا يسيراً، وكلّ ما للنفس النقية من توجّه إلى الله إنّما هو توجّه إلى الفضيلة.

ما يجب على الإنسان لخالقه في نظر أرسطو:

لم ينصّ أرسطو على العبادة التي يجب أن نلتزمها لخالقنا عزّ وجلّ غير أنّه قال ما معناه: قد اختلف الناس فيما ينبغي أن يقوم به المخلوقون لخالقهم:

فبعضهم رأىٰ أنّه صلوات وصيام وخدمة هياكل وقرابين.

وبعضهم رأىٰ أن يقتصر على الاقرار بربوبيّته، والاعتراف باحسانه، وتمجيده علىٰ حسب استطاعته.

وبعضهم رأىٰ أن يتقرّب إليه بأن يحسن إلىٰ نفسه بتزكيتها وحسن سياستها، ثمّ إلى المستحقّين من أهل نوعه بالمواساة والموعظة.

وبعضهم رأى اللهج بالفكر في الإلٰهيات، والعمل علىٰ معرفة ربّه عزّ وجلّ حتّىٰ تتكامل معرفته به وبحقيقة وحدانيّته.

وبعضهم رأىٰ أنّ الواجب لله جلّ ذكره على الناس ليس سبيلاً واحداً، ولا هو شيء بعينه يلتزمه الجميع التزاماً واحداً، وعلىٰ مثال واحد، لكنّه يختلف علىٰ حسب اختلاف طبقات الناس ومراتبهم من العلم.

عبادة الله في نظر الفلاسفة:

وذهب الفلاسفة من بعده إلىٰ أنّ عبادة الله عزّ وجلّ علىٰ ثلاثة أنواع:

أحدها: فيما يجب له علىٰ الأبدان كالصلاة والصيام والسعي إلى المواطن الشريفة لمناجاة الله عزّ وجلّ.

والثاني: فيما يجب له على النفوس كالاعتقاد الصحيح، والعلم بتوحيد الله عزّ اسمه، وما يستحقّه من الثناء والتمجيد، وكالفكر فيما أفاضه على العالم من وجوده وحكمته، ثمّ الاتّساع في هذه المعارف.

والثالث: فيما يجب له عند معاملة الناس ومعاونتهم، وعند جهاد الأعداء والذبّ عن الحريم وحماية الحوزة.

ثمّ قرّر هؤلاء الفلاسفة أنّ للإنسان مقامات ومنازل عند الله عزّ وجلّ:

فالمقام الأوّل: للموقنين وهو رتبة الحكماء وأجلّة العلماء.

والمقام الثاني: مقام المحسنين، وهو رتبة الذين يعملون بما يعلمون.

والمقام الثالث: مقام الأبرار، وهو رتبة المصلحين، وهؤلاء هم خلفاء الله بالحقيقة في إصلاح العباد للبلاد.

والمقام الرابع: مقام الفائزين، وهو رتبة المخلصين في المحبّة، وليس بعدها منزلة ولا مقام لمخلوق.

ويسعد الإنسان بهذه المنازل إذا حصلت له أربع خلال:

أوّلها: الحرص والنشاط.

والثاني: العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية.

والثالث: الحياء من الجهل ونقصان القريحة اللذين يحدثان بالاهمال.

والرابع: لزوم الفضائل والترقي فيها دائماً علىٰ حسب الاستطاعة، وهذه كلّها أسباب الاتّصال بالله تعالى.

أمّا أسباب الانقطاع عن الله عزّ وجلّ وهي التي تعرف بالمساقط:

فأوّلها: السقوط الذي يستحقّ به الاعراض وتتبعه الاستهانة.

والثاني: السقوط الذي يستحقّ به الحجاب ويتبعه الاستخفاف.

والثالث: السقوط الذي يستحقّ به الطرد ويتبعه المقت.

والرابع: السقوط الذي يستحقّ به الخسأة ويتبعه البغض.

وإنّما يشقى المرء إذا حصل علىٰ أربع خلال:

أوّلها: الكسل والبطالة، ويتبعها ضياع الزمن وفناء العمر بغير فائدة إنسانية.

والثاني: الجهل المتولّد عن ترك النظر ورياضة النفس بالتعليم الصحيح.

والثالث: الوقاحة التي ينتجها إهمال النفس إذا اتّبعت الشهوات، وترك زمامها لركوب الخطايا والسيّئات.

والرابع: الانهماك الذي يحدث من الاستمرار في القبائح وترك الانابة. وهذه الأنواع الأربعة لها بلسان الشرع أربعة أسماء: فالأوّل الزيغ، والثاني الرين، والثالث الغشاوة، والرابع الختم، ولكلّ واحدة من هذه الشقاوات علاج خاصّ يذكر في موضعه.

وصفوة القول أنّ حقّ الله علىٰ عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وعبادته الخضوع له فيما أمر ونهىٰ، فنؤمن برسوله، ونصدّق بكتبه، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونهذّب نفوسنا، ونصح أجسامنا بصونها، ونحسن عشرة الناس، ونصدّق في معاملتهم، ونخالقهم بخلق حسن، ونقف عندما شرع الله، لا نتعدّىٰ حدوده، ولا نتجاوز رسومه، ونجانب كلّ ما نهى الله عنه من الخبائث ممّا هو اعتداء على النفس أو المال أو العرض وإضرار بالخلق.

وأمّا توحيده فمعناه اعتقاد أنّه وحده صاحب الخلق والأمر، وأنّ غيره لا يملك ضرّاً ولا نفعاً إلّا ما شاء الله، وجعل الأعمال خالصة لوجهه لا يشوبها خداع ولا رياء ولا تدليس ولا نفاق.

وأمّا حقّ العباد على الله إذا هم عبدوه حقّ عبادته، وأخلصوا له الدين وأسلموا، وعمّروا القلوب بتوحيده وطهّروها من دنس الاشراك، فهو ألّا يعذّبهم، وكيف يعذّب من توفي علىٰ طاعته، وكان عبده السميع، تقرع آذانه آي الوحي، فإذا به قد مثلها في عمله وأظهرها في خلقه، ويسمع هدى الرسول فإذا به قد اتّخذه إماماً وقدوة وهادياً وأُسوة.

اقتضىٰ عدل الله ورحمته أن يسبغ نعمته علىٰ عباده المخلصين، فهو البرّ الرحيم، اقرأ قوله تعالى: ﴿وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوىٰ • فإنّ الجنّة هي المأوىٰ﴾ [النازعات: ٤٠و٤١].

واجبات العباد:

نعم الواجب على العبد:

١ ـ معرفة الله تعالى معرفة يصحّ بها الاعتقاد.

فيكون علىٰ بصيرة من ربّه، ويعرف معنى كلمة التوحيد التي جاء الأنبياء من لدن آدم إلىٰ خاتمهم محمّد ﷺ بالتبشير بها، وايقاظ العقل البشري للايمان بقوّتها وآثارها في الكون، وأنّ كلّ ما عداها زيغ وبهتان مبين.

٢ ـ أوامر الدين ونواهيه.

إنّ لكلّ دين من الأديان تكاليف وواجبات تكفل حفظ مظهره، وتبسط سلطانه في الناس، وإنّ أوامر الدين الإسلامي من صلاة وصيام وحجّ وزكاة وما إلىٰ ذلك ما هي إلّا أعلام خفاقة تهوي إليها النفوس، وتنتظم القلوب فتلبسها ثوب الدين، وتعصمها من الشرور، فتكون جنود الله في الأرض تعبده وتأخذ نفسها بمرضاته.

وإذا كان كلّ من ينتسب إلىٰ عظيم أو زعيم يحمل شارته، ويفاخر الناس بنبالته، فما أجدر المسلم أن يكون سمات الإسلام أظهر شيء لديه، ثمّ هي طهارة للنفوس وتهيئة لها للكمال، فالصلاة تغسل أدران الشيطان من نفس الإنسان، وتعوّده الخير والتواضع، وتحول بينه وبين المحظورات، «إنّ الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي».

وكذلك بقية التكاليف تذكّر الإنسان بعظمة ربّه، وترسم أمام ناظريه الحلال والحرام، فيعرف ما يأخذ وما يدع، وليس هناك دين من غير عمل، فالمسلمون القائمون باسم الإسلام دون العمل بأوامره منعوا أنفسهم موارد السعادة، ومكنوا لغريزة النفس الجامحة أن تتغلّب علىٰ عقولهم، إذ لا تجد من جنود الدين الروحية حاجزاً، وحرمت قائداً حكيماً يهديها سواء السبيل.

٣ ـ مجاهدة النفس، ويا لله من مجاهدة النفوس، ولن يقدر علىٰ ذلك إلّا أُولو العزم وذوي النفوس المسلمة حقّاً، ومن أجل ذلك عدّها النبي ﷺ أكبر عند الله من خدمة الإسلام بحدّ السيف البتّار، فقال بعد أن عاد من إحدىٰ غزواته: «رجعنا من

الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[1]. ومغالبة النفس إنّما تصدر عن قوّة الارادة والاخلاص لله.

٤ ـ من الحتم على المسلم أن يحوط دينه بعنايته، ويرد هجمات العدو عنه، وهذه جيوش المبشرين من أُوربيين وأمريكان تغزو دين الإسلام باسم الإنسانية والعلم ومعالجة المرض، فيتّخذون سذاجة الطفل سبيلاً إلىٰ محو دينه، وادخال العقائد المسيحية عليه بصنوف الحيل وألوان الاغراء.

ويستضعفون المرضى المساكين الذين استسلموا بسبب قسوة المرض، فلا يعالجونهم إلّا أن يسقوهم مع الدواء التثليث، ولا يعملون المبضع في جسم المريض إلّا بعد أن يأخذوا منه صكّاً بردّته عن الإسلام، ويكونوا له من الظالمين. والمسلم الكامل يغلي مرجل دمه بالدفاع عن حوزة الإسلام، ويحلّه محلّ النفس والعرض، فإذا أصاب الإسلام مكروه استوفز كما يستوفز الليث الهصور، حتّىٰ يدفع عن نفسه ما يوصم به من أخلاق الثعالب، ولو كان في ذلك إزهاق روحه. ولله درّ القائل:

ولست أُبالي حين أُقتل مسلماً   علىٰ أيّ جنبٍ كان في الله مصرعي

٥ ـ الأُخوّة الإسلامية، وحمية الدين لمناصرة المسلمين، وإن بعدت ديارهم وتباينت أوطانهم: ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: ١٠].

والرسول الكريم ﷺ كأنّه كان ينظر بنور الله إلىٰ تاريخ المسلمين في مستقبلهم إلىٰ أن تقوم الساعة، فخاف عليهم أن يكون بأسهم بينهم شديداً، وأن تكون قلوبهم شتّىٰ، وكان يوجس خيفةً كلّما جرّ الحديث مع أصحابه إلى الرابطة الإسلامية، فيوصيهم بالاتّحاد وتآلف القلوب، ويخشىٰ أن يهدم الناس بعضهم بعضاً، فيسقطوا في الهوة جميعاً، وذلك بأن يحرص الناس أن يكونوا عبيداً لمنافعهم، وأُسراء لشهواتهم، فمتىٰ توافر لهم ذلك لا يعنيهم هلاك الناس جميعاً.

---

(١) راجع الكافي ٥: ١٢ ح٣.

فقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[1] فهذا هو دستور المسلم في العلاقة بأبناء ملّته.

ولا يضير من ينصر الإسلام تخاذل المسلمين اليوم، فليضع حجراً في سبيل تدعيم القلوب، وهنالك يقتدي المخلصون به، وتصلح النفوس فيعود للإسلام عزّه، وللمؤمنين كرامتهم، وتُصان هيبة الإسلام.

٦ ـ أنّ الإسلام دين الإنسانية كلّها فهذا من مفاخره، فبينما يعني أبناء كلّ دين بمراعاة حقوق أهل ملّتهم ويتعصّبون لهم، ويهدرون حقوق الآخرين، إذا بالاسلام يرعىٰ حقوق الناس كافة، ولا يكتفي بذلك، بل يأمر بالاحسان والمواساة لخلق الله عامة حتّى الحيوان.

قال النبي ﷺ: «في كلّ ذات كبد رطبة أجر»[2]، ليعلّم المسلمين العطف علىٰ كلّ ما خلق الله، وإذا كان الحيوان مكفول الرعاية من كلّ مسلم فما بالانسان الذي يسكن الدنيا ويعمرها.

لذلك شعر الناس في أزمان التاريخ بمروءة الإسلام، فدخلوا في دين الله أفواجاً، حتّى العدو الذي في قتله صلاح العالم، والحيوان عند ذبحه ـ الذي جعل الله لحمه متاعاً للانسان ـ ينبغي الاحسان في القضاء عليهما.

قال الرسول ﷺ: «إنّ الله كتب الاحسان علىٰ كلّ شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»[3].

أروني ماذا بقي من مفاخر الدنيا لم يتضمّنها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ونصف قرن، وماذا يبتغي العالم بعد هذه الشريعة السمحة الرحيمة التي أسعدت

---

(١) صحيح ابن حبان ٢ : ٢٩١ ح ٥٣٣.
(٢) صحيح ابن حبان ١٣ : ١٩٧ ضمن حديث ٥٨٨٢.
(٣) البحار ٦٥ : ٣١٦ ح ٧.

المهتدين.

هذه هي الأُصول التي لا يجمل بالمسلم أن يغفل عنها، فهي تراث أجداده ومعقل عزّه، والتي نصر الله بها الإسلام على الدين كلّه، وهاك نصّها مدرجة في «رسالة الحقوق» للامام زين العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام، وقد رسمها دستوراً عاماً يساير الأجيال. دستوراً يتضمّن كلّ ما تحتاجه البشرية من حقوق، فلم يترك حقاً من حقوق الله علىٰ عباده، أو حقوق العباد بعضهم علىٰ بعض إلّا ذكره ونبّه عليه.

وقد قدّم الأهم فالأهم من هذه الحقوق ببيان رائع، ومنطق لا يقبل الرد، ولا أعرف أُسلوباً أروع من هذا الأُسلوب، وفكراً صالحة للمجتمع أصلح من هذه الفكرة، وهي مواضيع عامة منبعثة عن حاجات المجتمع الإنساني رسمناها في هذا الفصل ليطلع العالم المتمدّن على العقلية القانونية الإسلامية التي لا نعرف لها نظيراً في العصر الحاضر.

وحسبها أن تكون صادرة عن الإمام الذي هو من أُولئك المصطفين الذين يوضح الله بهم طريق الإنسانية، ليظلّ أثر الدعوة قويّاً، وحبل الدين جديداً، وخلافة الله قائمة في أرضه.

فقد كشف ـ سلام الله عليه ـ بهذه الرسالة ما غيّبته السياسة في عصره من نور الكتاب، وسرّ الإسلام، وقوّة الايمان، وحقوق الراعي والرعية، وهي نبرة من نبرات كثيرة من ذلك الصوت الذي ظلّ يدوي إلى اليوم وإلىٰ يوم يبعثون.

رسالة الحقوق، للإمام زين العابدين عليه السلام:

جاء في كتاب تحف العقول[1] عن الامام زين العابدين[2]:

---

(١) تحف العقول: ١٨٣؛ عنه البحار ٧٤: ١٠ ح٢.

(٢) جدير ذكره ان المؤلف العلامة القبانچي قد تفرّد بتأليف كتاب نادر في (شرح رسالة الحقوق) في مجلّدين وقد طبع بثلاث طبعات في العراق وايران ولبنان، ونال اهتماماً بالغاً من قبل أهل العلم وعموم القراء.

اعلم إنّ لله عزّ وجلّ عليك حقوقاً محيطة بك في كلّ حركة تحرّكتها، أو سكنة سكنتها، أو منزلة نزلتها، أو جارحة قلبتها، أو آلة تصرّفت بها، بعضها أكبر من بعض.

وأكبر حقوق الله عليك ما أوجبه لنفسك تبارك وتعالىٰ من حقّه الذي هو أصل الحقوق ومنه تتفرّع، ثمّ ما أوجبه عليك لنفسك من قرنك إلىٰ قدمك علىٰ اختلاف جوارحك، فجعل لبصرك عليك حقّاً، ولسمعك عليك حقاً، وللسانك عليك حقاً، وليدك عليك حقاً، ولرجلك عليك حقاً، ولبطنك عليك حقاً، ولفرجك عليك حقاً، فهذه الجوارح السبع التي بها تكون الأفعال.

ثمّ جعل لأفعالك عليك حقوقاً: لصلاتك عليك حقاً، ولصومك عليك حقاً، ولصدقتك عليك حقاً، ولهديك عليك حقاً، ولأفعالك عليك حقاً.

ثمّ تخرج الحقوق منك إلىٰ غيرك من ذوي الحقوق الواجبة عليك وأوجبها عليك، حقّ أئمّتك، ثمّ حقوق رعيّتك، ثمّ حقوق رحمك، فهذه حقوق يتشعّب منها حقوق:

فحقوق أئمّتك ثلاثة أوجبها عليك، حقّ سائسك بالسلطان، ثمّ سائسك بالعلم، ثمّ حقّ سائسك بالملك، وكلّ سائس امام.

وحقوق رعيّتك ثلاثة أوجبها عليك، حقّ رعيتك بالسلطان، ثمّ حقّ رعيّتك بالعلم فإنّ الجاهل رعية العالم، وحقّ رعيتك بالملك من الأزواج وما ملكت الايمان.

وحقوق رحمك كثيرة متّصلة بقدر اتّصال الرحم في القرابة فأوجبها عليك، حقّ أُمك، ثمّ حقّ أبيك، ثمّ حقّ ولدك، ثمّ حقّ أخيك، ثمّ الأقرب فالأقرب، والأولىٰ فالأولىٰ. ثمّ حقّ مولاك المنعم عليك، ثمّ حقّ مولاك الجارية نعمته عليك، ثمّ حقّ ذوي المعروف لديك، ثمّ حقّ مؤذنك بالصلاة، ثمّ حقّ امامك في صلاتك، ثمّ حقّ جليسك، ثمّ حقّ جارك، ثمّ حقّ صاحبك، ثمّ حقّ شريكك، ثمّ حقّ مالك، ثمّ

حقّ غريمك الذي تطالبه[1] ثمّ حقّ خليطك.

ثمّ حقّ خصمك المدّعي عليك، ثمّ حقّ خصمك الذي تدّعي عليه، ثمّ حقّ مستشيرك، ثمّ حقّ المشير عليك، ثمّ حقّ مستنصحك، ثمّ حقّ الناصح لك، ثمّ حقّ من هو أكبر منك، ثمّ حقّ من هو أصغر منك، ثمّ حقّ سائلك، ثمّ حقّ من سألته، ثمّ حقّ من جرىٰ لك علىٰ يديه مساءة بقول أو فعل، أو مسرّة بقول أو فعل عن تعمّد منه أو غير تعمّد، ثمّ حقّ أهل ملّتك عامة، ثمّ حقّ أهل الذمة، ثمّ الحقوق الجارية بقدر علل الأحوال، وتعرّف الأسباب، فطوبىٰ لمن أعانه الله علىٰ قضاء ما أوجب عليه من حقوقه ووفّقه وسدّده.

١ ـ حقّ الله:

فأمّا حقّ الله الأكبر عليك، فأن تعبده لا تشرك به شيئاً، فإذا فعلت ذلك باخلاص جعل لك علىٰ نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة، ويحفظ لك ما تحبّ منهما.

٢ ـ حقّ النفس:

وأمّا حقّ نفسك عليك، فأن تستوفيها في طاعة الله، فتؤدّي إلىٰ لسانك حقّه، وإلىٰ سمعك حقّه، وإلىٰ بصرك حقّه، وإلىٰ يدك حقّها، وإلىٰ رجلك حقّها، وإلىٰ بطنك حقّه، وإلىٰ فرجك حقّه، وتستعين بالله علىٰ ذلك.

أ ـ أمّا حقّ اللسان: فإكرامه عن الخنا، وتعويده على الخير، وحمله علىٰ الأدب، وإجمامه إلّا لموضوع الحاجة والمنفعة للدين والدنيا، واعفاؤه من الفضول الشنيعة القليلة الفائدة التي لا يؤمن ضررها مع قلّة عائدتها، ويعد شاهد العقل والدليل عليه، وتزين العاقل بعقله حسن سيرته في لسانه، ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

---

(١) [ثمّ حقّ غريمك الذي يطالبك، خ.ل].

ب ـ وأمّا حقّ السمع: فتنزيهه عن أن تجعله طريقاً إلىٰ قلبك إلّا لفوهة كريمة تحدث في قلبك خيراً أو تكسبك خلقاً كريماً، فإنّه باب الكلام إلى القلب، يؤدّي إليه ضروب المعاني علىٰ ما فيها من خير أو شر، ولا قوّة إلّا بالله.

ج ـ وأمّا حقّ بصرك: فغضّه عمّا لا يحلّ لك، وترك ابتذاله إلّا لموضع عبرة تستقبل بها بصراً أو تستفيد بها علماً، فإنّ البصر باب الاعتبار.

د ـ وأمّا حقّ يدك: فأن لا تبسطها عمّا لا يحلّ لك، فتنال بما تبسطها إليه من الله العقوبة في الآجل، ومن الناس ألّلائِمَةِ[1] في العاجل، ولا تقبضها عمّا افترض الله عليها، ولكن توقّرها بقبضها عن كثير ممّا لا يحلّ لها، وبسطها إلىٰ كثيرٍ ممّا ليس عليها، فإذاً هي قد عقلت وشرفت في العاجل، ووجب لها حسن الثواب من الله في الآجل.

هـ ـ وأمّا حقّ رجليك: فأن لا تمشي بهما إلىٰ ما لا يحلّ لك، ولا تجعلهما مطيّتك في الطريق المستخفّ بأهلها فيها، فإنّها حاملتك وسالكة بك مسلك الدين والسبق لك، ولا قوّة إلّا بالله.

و ـ وأمّا حقّ بطنك: فأن لا تجعله وعاء لقليل من الحرام ولا لكثير، وأن تقتصد له في الحلال، ولا تخرجه من حدّ التقوية إلىٰ حدّ التهوين وذهاب المروءة، فإنّ الشبع المنتهي بصاحبه إلى السكر مسخفة ومجهلة ومذهبة للمروءة.

ز ـ وأمّا حقّ فرجك: فحفظه ممّا لا يحلّ لك، والاستعانة عليه بغضّ البصر، فإنّه من أعون الأعوان، وضبطه إذا همّ بالجوع والظمأ، وكثرة ذكر الموت، والتهدّد لنفسك بالله، والتخويف لها به، وبالله العصمة والتأييد، ولا حول ولا قوّة إلّا به.

٣ ـ حقوق الأفعال:

أ ـ فأمّا حقّ الصلاة: فأن تعلم أنّها وفادة إلى الله، وانّك قائم بين يدي الله، فإذا

---

(١) بمعنىٰ اللوم.

علمت ذلك كنت خليقاً أن تقوم فيها مقام الذليل الراغب الراهب، والخائف الراجي، والمسكين المتضرّع، والمعظّم من قام بين يديه بالسكون والاطراق، وخشوع الأطراف، ولين الجناح، وحسن المناجات له في نفسه، والرغبة إليه في فكاك رقبتك التي أحاطت بها خطيئتك واستهلكتها ذنوبك، ولا قوّة إلّا بالله.

ب ـ وأمّا حقّ الحجّ: أن تعلم أنّه وفادة إلىٰ ربّك، وفرار إليه من ذنوبك، وبه قبول توبتك، وقضاء الفرض الذي أوجبه الله عليك.

ج ـ وأمّا حقّ الصوم: فأن تعلم أنّه حجاب ضربه الله علىٰ لسانك وسمعك وبصرك وفرجك وبطنك ليسترك به من النار، وهكذا جاء في الحديث: «الصوم جنّة من النار» فإن سكنت أطرافك في حجبتها رجوت أن تكون محجوباً، وإن أنت تركتها تضطرب في حجابها وترفع جنبات الحجاب فتطلع إلىٰ ما ليس لها، بالنظرة الداعية للشهوة، والقوّة الخارجة عن حدّ التقية لله، لم تأمن أن تخرق الحجاب وتخرج منه، ولا قوّة إلّا بالله.

د ـ وأمّا حقّ الصدقة: فأن تعلم أنّها ذخرك عند ربّك، ووديعتك التي لا تحتاج إلى الاشهاد، فإذا علمت ذلك كنت بما استودعته سرّاً أوثق منك بما استودعته علانية، وكنت جديراً أن لا تكون أسررت إليه أمراً أعلنته، وكان الأمر بينك وبينه فيها سرّاً علىٰ كلّ حال، ولم تستظهر عليه فيما استودعته منها باشهاد الأسماع والأبصار عليه بها، كأنّها أوثق في نفسك، وكأنّك لا تثق به في تأدية وديعتك إليك، ثمّ لم تمتنّ بها علىٰ أحدٍ لأنّها لك، فإذا امتننت بها لم تأمن أن يكون بها مثل تهجين حالك منها إلىٰ من مننت بها عليه، لأنّ في ذلك دليلاً علىٰ أنّك لم ترد نفسك بها، ولو أردت نفسك بها لم تمتنّ بها علىٰ أحد، ولا قوّة إلّا بالله.

هـ ـ وأمّا حقّ الهدي: فأن تخلص به الارادة إلىٰ ربّك، والتعرّض لرحمته وقبوله، ولا تريد عيون الناظرين دونه، فإذا كنت كذلك لم تكن متكلّفاً ولا متصنّعاً، وكنت إنّما تقصد إلى الله، واعلم أنّ الله يراد باليسير ولا يراد بالعسير، كما أراد بخلقه

التيسير ولم يرد بهم التعسير، وكذلك التذلّل أولىٰ بك من التدهقن، لأنّ الكلفة في المتدهقنين، فأمّا التذلّل والتمسكن فلا كلفة فيهما ولا مؤنة عليهما، لأنّهما الخلقة وهما موجودان في الطبيعة، ولا قوّة إلّا بالله.

٤ ـ حقوق الأئمة:

أ ـ فأمّا حقّ سائسك بالسلطان: فأن تعلم أنّك جعلت له فتنة، وأنّه مبتلىٰ فيك بما جعله الله له عليك من السلطان، وأن تخلص له في النصيحة، وأن لا تماحكه وقد بسطت يده عليك، فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه، وتذلّل وتلطّف لاعطائه من الرضا ما يكفه عنك ولا يضرّ بدينك، وتستعين عليه في ذلك بالله، ولا تعازه ولا تعانده فإنّك إن فعلت ذلك عققته وعققت نفسك، فعرضتها لمكروهه وعرضته للهلكة فيك، وكنت خليقاً أن تكون معيناً له علىٰ نفسك وشريكاً له فيما أتىٰ إليك، ولا قوّة إلّا بالله.

ب ـ فأمّا حقّ سائسك بالتعلّم: فالتعظيم له، والتوقير لمجلسه، وحسن الاستماع إليه، والاقبال عليه، والمعونة له علىٰ نفسك فيما لا غنىً بك عنه من العلم، بأن تفرّغ له عقلك، وتحضره فهمك، وتذكي له قلبك، وتجلي له بصرك بترك اللذات ونقص الشهوات، وأن تعلم أنّك فيما ألقىٰ رسوله إلىٰ من لقيك من أهل الجهل فلزمك حسن التأدية عنه إليهم، ولا تخنه في تأدية رسالته والقيام بها عنه إذا تقلّدتها، ولا قوّة إلّا بالله.

ج ـ فأمّا حقّ المالك: فنحو من سائسك بالسلطان، إلّا أنّ هذا يملك ما لا يملكه ذاك، تلزمك طاعته فيما دقّ وجلّ منك، إلّا أن يخرجك من وجوب حقّ الله، ويحول بينك وبين حقّه وحقوق الخلق، فإذا قضيته رجعت إلىٰ حقّه فتشاغلت به، ولا قوّة إلّا بالله.

٥ ـ حقوق الرعية:

أ ـ فأمّا حقوق رعيّتك بالسلطان: فأن تعلم أنّك إنّما استرعيتهم بفضل قوّتك عليهم، فإنّه إنّما أحلّهم محلّ الرعية لك ضعفهم وذلّهم، فما أولى من كفاكه ضعفه وذلّه حتىٰ صيّره لك رعية، وصيّر حكمك عليه نافذاً، لا يمتنع منك بعزّة ولا قوّة، ولا يستنصر فيما تعاظمه منك إلّا بالرحمة والحياطة والأناة، وما أولاك إذا ما عرفت ما أعطاك الله من فضل هذه العزّة والقوّة التي قهرت بها أن تكون لله شاكراً، ومن شكر الله أعطاه فيما أنعم عليه، ولا قوّة إلّا بالله.

ب ـ وأمّا حقّ رعيّتك بالعلم: فأن تعلم أنّ الله قد جعلك لهم خازناً فيما آتاك من العلم وولّاك من خزانة الحكمة، فإن أحسنت فيما ولّاك الله من ذلك، وقمت به لهم مقام الخازن الشفيق الناصح لمولاه في عبيده الصابر المحتسب، الذي إذا رأىٰ ذا حاجة أخرج له من الأموال التي في يديه كنت راشداً، وكنت لذلك آملاً معتقداً، وإلّا كنت له خائناً، ولخلقه ظالماً، ولسلبه متعرّضاً.

ج ـ وأمّا حقّ رعيّتك بملك النكاح: فأن تعلم أنّ الله جعلها سكناً ومستراحاً وأنساً وواقية، وكذلك كلّ واحد منكما يجب أن يحمد الله علىٰ صاحبه، ويعلم أنّ ذلك نعمة منه عليه، ووجب أن يحسن صحبة نعمة الله ويكرمها ويرفق بها، وإن كان حقّك عليها أغلظ، وطاعتك بها ألزم فيما أحببت وكرهت ما لم تكن معصية، فإنّ لها حقّ الرحمة والمؤانسة، ولا قوّة إلّا بالله.

د ـ وأمّا حقّ رعيّتك بملك اليمين: فأن تعلم أنّه خلق ربّك ولحمك ودمك، وانّك تملكه لا أنت صنعته دون الله، ولا خلقت له سمعاً ولا بصراً، ولا أجريت له رزقاً، ولكنّ الله كفاك ذاك ثمّ سخّره لك، وائتمنك عليه، واستودعك إيّاه لتحفظه فيه وتسير فيه بسيرته، فتطعمه ممّا تأكل، وتلبسه ممّا تلبس، ولا تكلفه ما لا يطيق، فإن كرهته خرجت إلى الله منه، واستبدلت به ولم تعذّب خلق الله، ولا قوّة إلّا بالله.

٦ ـ حقّ الرحم:

١ ـ وأمّا حقّ الرحم: فحقّ أُمّك أن تعلم أنّها حملتك حيث لا يحمل أحد أحداً، وأطعمتك من ثمرة قلبها ما لا يطعم أحد أحداً، وانّها وَقَتْكَ بسمعها وبصرها ويدها ورجلها وشعرها وبشرها وجميع جوارحها، مستبشرة فرحة محتملة لما فيه مكروهها وألمها وثقلها وغمّها، حتّىٰ دفعتها عنك يد القدرة، وأخرجتك إلىٰ الأرض، فرضيت أن تشبع وتجوع، وتكسوك وتعرىٰ، وترويك وتظمىٰ، وتظلّك وتضحىٰ، وتنعمك ببؤسها، وتلذذك بالنوم بأرقها، وكان بطنها لك وعاء، وحجرها لك حواء، وثديها لك سقاء، ونفسها لك وقاء، تباشر حرّ الدنيا وبردها لك ودونك، فتشكرها علىٰ قدر ذلك، ولا تقدر عليه إلّا بعون الله وتوفيقه.

٢ ـ وأمّا حقّ أبيك: فأن تعلم أنّه أصلك، وأنّك فرعه، وأنّك لولاه لم تكن، فمهما رأيت في نفسك ممّا يعجبك فاعلم أنّ أباك أصل النعمة عليك فيه، واحمد الله واشكره علىٰ قدر ذلك، ولا قوّة إلّا بالله.

٣ ـ وأمّا حقّ ولدك: فأن تعلم أنّه منك، ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشرّه، وانّك مسؤول عمّا ولّيته من حسن الأدب والدلالة علىٰ ربّه، والمعونة له علىٰ طاعته فيك وفي نفسه، فمثاب علىٰ ذلك ومعاقب، فاعمل في أمره عمل المتزين بحسن أثره في عاجل الدنيا، المعذر إلىٰ ربّه فيما بينك وبينه بحسن القيام عليه، والأخذ له منه، ولا قوّة إلّا بالله.

٤ ـ وأمّا حقّ أخيك: فأن تعلم أنّه يدك التي تبسطها، وظهرك الذي تلتجئ إليه، وعزّك الذي تعتمد عليه، وقوّتك التي تصول بها، فلا تتّخذه سلاحاً علىٰ معصية الله، ولا عدّةً للظلم لخلق الله، ولا تدع نصرته علىٰ نفسه، ومعونته علىٰ عدوّه، والحول بينه وبين شياطينه، وتأدية النصيحة إليه، والاقبال عليه في الله، فإن انقاد لربّه وأحسن الاجابة له، وإلّا فليكن الله آثر عندك وأكرم عليك منه.

٧ ـ حقّ المنعم بالولاء:

وأما حق المنعم عليك بالولاء: فأن تعلم أنّه أنفق فيك ماله، وأخرجك من ذلّ الرقّ ووحشته إلىٰ عزّ الحرّية وأُنسها، وأطلقك من أسر الملكة، وفكّ عنك حلق العبودية، وأوجدك رائحة العزّ، وأخرجك من سجن القهر، ودفع عنك العسر، وبسط لك لسان الانصاف، وأباحك الدنيا كلّها، فملكك نفسك وحلّ أسرك، وفرغك لعبادة ربّك، واحتمل بذلك التقصير في ماله، فتعلم أنّه أولى الخلق بك بعد أُولي رحمك في حياتك وموتك، وأحقّ الخلق بنصرك ومعونتك ومكاتفتك في ذات الله، فلا تؤثر عليه نفسك ما احتاج إليك.

٨ ـ حقّ المولىٰ:

وأمّا حقّ مولاك الجارية عليك نعمته: فأن تعلم أنّ الله جعلك حامية عليه، وواقية وناصراً ومعقلاً، وجعله لك وسيلة وسبباً بينك وبينه، فبالحري أن يحجبك عن النار فيكون في ذلك ثواب منه في الآجل، ويحكم لك بميراثه في العاجل، إذا لم يكن له رحم مكافاة لما أنفقته من مالك عليه، وقمت به من حقّه بعد انفاق مالك، فإن لم تقم بحقّه خيف عليك أن لا يطيب لك ميراثه، ولا قوّة إلّا بالله.

٩ ـ حقّ ذوي المعروف:

وأمّا حقّ ذوي المعروف عليك: فأن تشكره وتذكر معروفه، وتنشر له المقالة الحسنة، وتخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله سبحانه، فإنّك إذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سرّاً وعلانية، ثمّ إن أمكن مكافأته بالفعل كافأته، وإلّا كنت مرصداً له، وموطناً نفسك عليها.

١٠ ـ حقّ المؤذّن:

وأما حقّ المؤذن: فأن تعلم أنّه مذكّرك بربّك، وداعيك إلىٰ حظّك، وأفضل

أعوانك علىٰ قضاء الفريضة التي افترضها الله عليك، فتشكره علىٰ ذلك شكرك للمحسن إليك، وإن كنت في بيتك نبهك، وعلمت أنّه نعمة من الله عليك لا شكّ فيها، فأحسن صحبة نعمة الله بحمد الله عليها علىٰ كلّ حال، ولا قوّة إلّا بالله.

١١ ـ حقّ إمام الجماعة:

وأمّا حقّ إمامك في صلواتك: فأن تعلم أنّه قد تقلّد السفارة فيما بينك وبين الله، والوفادة إلىٰ ربّك، وتكلّم عنك ولم تتكلّم عنه، ودعا لك ولم تدع له، وطلب فيك ولم تطلب فيه، وكفاك همّ المقال بين يدي الله والمسألة له فيك ولم تكفه ذلك، فإن كان في شيء من ذلك تقصير كان به دونك، وإن كان إثماً لم تكن شريكه فيه، ولم يكن لك عليه فضل، فوقىٰ نفسك بنفسه، ووقىٰ صلاتك بصلاته، فتشكر له علىٰ ذلك، ولا قوّة إلّا بالله.

١٢ ـ حقّ الجليس:

وأمّا حقّ الجليس: فأن تلين له كنفك، وتطيب له جانبك، وتنصفه في مجاراة اللفظ، ولا تفرّق في نزع اللحظ إذا لحظت، وتقصد في اللفظ إلىٰ إفهامه إذا لفظت، وإن كنت الجليس إليه كنت في القيام عنه بالخيار [وإن كان الجالس إليك كان بالخيار][1]، ولا تقوم إلّا بإذنه، ولا قوّة إلّا بالله.

١٣ ـ حقّ الجار:

وأمّا حقّ الجار: فحفظه غائباً، وكرامته شاهداً، ونصرته ومعونته في الحالين جميعاً، لا تتّبع له عورة، ولا تبحث له عن سوءة لتعرفها، فإن عرفتها منه عن غير إرادةٍ منك ولا تكلّف كنت لما علمت حصناً حصيناً، وستراً ستيراً لو بحثت الأسنة

(١) أثبتناه من البحار.

عنه ضميراً لم تتّصل إليه لانطوائه عليه، لا تستمع عليه من حيث لا يعلم، ولا تسلمه عند شديدة، ولا تحسده عند نعمة، تقيل عثرته، وتغفر زلّته، ولا تدّخر حلمك عنه إذا جهل عليك، ولا تخرج أن تكون سلماً له، تردّ عنه لسان الشتيمة، وتبطل فيه كيد حامل النصيحة، وتعاشره معاشرة كريمة، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

١٤ ـ حقّ الصاحب:

وأمّا حقّ الصاحب: فأن تصحبه بالفضل ما وجدت إليه سبيلاً، وإلّا فلا أقل من الانصاف، وأن تكرمه كما يكرمك، وتحفظه كما يحفظك، ولا يسبقك فيما بينك وبينه إلىٰ مكرمة، فإن سبقك كافأته، ولا تقصّر به عمّا يستحقّ من المودّة، تلزم نفسك نصيحته وحياطته ومعاضدته علىٰ طاعة ربّه، ومعونته علىٰ نفسه فيما يهمّ به من معصية ربّه، ثمّ تكون عليه رحمة ولا تكن عليه عذاباً، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

١٥ ـ حقّ الشريك:

وأمّا حقّ الشريك: فإن غاب كفيته، وإن حضر ساويته، ولا تعزم علىٰ حكمك دون حكمه، ولا تعمل برأيك دون مناظرته، وتحفظ عليه ماله، وتتّقي خيانته فيما عزّ أو هان، فإنّه بلغنا أنّ يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا، ولا قوّة إلّا بالله.

١٦ ـ حقّ المال:

وأمّا حقّ المال: فأن لا تأخذه إلّا من حلّه، ولا تنفقه إلّا في حلّه، ولا تحرّفه عن مواضعه، ولا تصرفه عن حقائقه، ولا تجعله إذا كان من الله إلّا إليه وسبباً إلى الله، ولا تؤثر به علىٰ نفسك من لعلّه لا يحمدك، وبالحريّ أن لا يحسن خلافته في تركتك، ولا يعمل فيه بطاعة ربّك فتكون معيناً له على ذلك، أو بما أحدث في مالك

أحسن نظراً لنفسه فيعمل بطاعة ربّه فيذهب بالغنيمة، وتبوء بالاثم والحسرة والندامة مع التبعة، ولا قوّة إلّا بالله.

١٧ ـ حقّ الغريم:

وأمّا حقّ الغريم المطالب لك: فإن كنت مؤسراً أوفيته وكفيته وأغنيته، لم تردّه وتمطله، فإنّ رسول الله ﷺ قال: «مطل الغني ظلم» وإن كنت معسراً أرضيته بحسن القول، وطلبت إليه طلباً جميلاً، ورددته عن نفسك ردّاً لطيفاً، ولم تجمع عليه ذهاب ماله وسوء معاملته فإنّ ذلك لؤم، ولا قوّة إلّا بالله.

١٨ ـ حقّ الخليط:

وأمّا حقّ الخليط: فأن لا تغرّه ولا تغشّه ولا تكذبه ولا تغفله ولا تخدعه ولا تعمل في انتقاصه عمل العدوّ الذي لا يبقي علىٰ صاحبه، وإنِ اطمأنّ إليك استقصيت له علىٰ نفسك وعلمت أنّ غبن المسترسل رباً، ولا قوّة إلّا بالله.

١٩ ـ حق الدعوىٰ:

١ ـ وأمّا حقّ الخصم المدّعي عليك: فإن كان ما يدّعي عليك حقّاً لم تنفسخ في صحبته، ولم تعمل في إبطال دعوته، وكنت خصم نفسك له والحاكم عليها، والشاهد له بحقّه دون شهادة الشهود، فإنّ ذلك حقّ الله عليك، وإن كان ما يدّعيه باطلاً رفقت به وردعته وناشدته بدينه، وكسرت حدّته عنك بذكر الله، وألقيت حشو الكلام ولغطه الذي لا يردّ عنك عادية عدوّك، بل تبوء بإثمه، وبه يشحذ عليك سيف عداوته، لأنّ لفظة السوء تبعث الشر، والخير مقمعة للشر، ولا قوّة إلّا بالله.

٢ ـ وأمّا حقّ الخصم المدّعىٰ عليه، فإن كان ما تدّعيه حقّاً أجملت في مقاولته بمخرج الدعوىٰ، فإنّ للدعوىٰ غلظة في سمع الداعي عليه، وقصدت قصد حجّتك

بالرفق، وأمهل المهلة، وأبين البيان، وألطف اللطف، ولم تتشاغل عن حجّتك بمنازعته بالقيل والقال فتذهب عنك حجّتك، ولا يكون لك في ذلك درك، ولا قوّة إلّا بالله.

٢٠ ـ حقّ المشاورة والنصيحة:

١ ـ وأمّا حقّ المستشير: فإن حضرك له وجه رأي جهدت له في النصيحة، وأشرت عليه بما تعلم انّك لو كنت مكانه عملت به، وليكن ذلك منك في رحمة ولين، فإنّ اللين يؤنس الوحشة، وانّ الغلظة توحش موضع الأُنس، وإن لم يحضرك له رأي وعرفت له من تثق برأيه وترضىٰ به لنفسك دللته عليه وأرشدته إليه، فكنت لم تأله خيراً ولم تدّخره نصحاً، ولا قوّة إلّا بالله.

٢ ـ وأمّا حقّ المشير عليك: فلا تتّهمه فيما لا يوافقك من رأيه إذا أشار عليك، فإنّما هي الآراء وتصرّف الناس فيها واختلافهم، وكن عليه في رأيه بالخيار إذا اتّهمت رأيه، فامّا تهمته فلا تجوز لك إذا كان عندك من يستحقّ المشاورة، ولا تدع شكره علىٰ ما بدا لك من إشخاص رأيه، وحسن وجه مشورته، فإذا وافقك حمدت الله وقبلت ذلك من أخيك بالشكر والارصاد بالمكافأة في مثلها إن فزع إليك، ولا قوّة إلّا بالله.

٣ ـ وأمّا حقّ المستنصح: فأن تؤدّي إليه النصيحة، وتكلّمه من الكلام بما يطيقه عقله، فإنّ لكلّ عقل طبقة من الكلام يعرفه ويجتنبه، وليكن مذهبك الرحمة، ولا قوّة إلّا بالله.

٤ ـ وأمّا حقّ الناصح: فأن تلين له جناحك، ثمّ تشرأب له قلبك، وتفتح له سمعك حتّىٰ يفهم عنك نصيحته، ثمّ تنظر فيها فإن كان وفّق فيها للصواب حمدت الله علىٰ ذلك وقبلت منه وعرفت له نصيحته، وإن لم يكن وفّق لها رحمته ولم تتّهمه، وعلمت أنّه لم يألك نصحاً إلّا انّه أخطأ، إلّا أن يكون عندك مستحقّاً للتهمة، فلا

تعبأ بشيء من أمره علىٰ كلّ حال، ولا قوّة إلّا بالله.

٢١ ـ حقّ السن:

١ ـ وأمّا حقّ الكبير: فإنّ حقّه توقير سنّه، وإجلال إسلامه إذا كان من أهل الفضل في الإسلام بتقديمه فيه، وترك مقابلته عند الخصام، ولا تسبقه إلىٰ طريق، ولا تؤمّه في طريق، ولا تستجهله، وإن جهل عليك تحمّلت وأكرمته بحقّ اسلامه مع سنّه، فإنّما حقّ السنّ بقدر الإسلام، ولا قوّة إلّا بالله.

٢ ـ وأمّا حقّ الصغير: فرحمته، وتثقيفه، وتعليمه، والعفو عنه، والستر عليه، والرفق به، والمعونة له، والستر علىٰ جرائر حداثته، فإنّه سبب للتوبة والمداراة له، وترك مما حكته، فإنّ ذلك أدنىٰ لرشده.

٢٢ ـ حقّ السائل والمسؤول:

١ ـ وأمّا حقّ السائل: فإعطاؤه إذا تهيّأت صدقه، وقدرت علىٰ سدّ حاجته، والدعاء له فيما نزل به، والمعاونة له علىٰ طلبته، وإن شككت في صدقه وسبقت إليه التهمة ولم تعزم علىٰ ذلك، لم تأمن أن يكون من كيد الشيطان أراد أن يصدّك عن حظّك، ويحول بينك وبين التقرّب إلىٰ ربّك، تركته بستره ورددته ردّاً جميلاً، وإن غلبت نفسك في أمره، وأعطيته علىٰ ما عرض في نفسك منه فإنّ ذلك من عزم الأُمور.

٢ ـ وأمّا حقّ المسؤول: فإن أعطى قبل منه ما أعطى بالشكر له والمعرفة لفضله، وطلب وجه العذر في منعه، وأحسن به الظنّ، واعلم أنّه إن منع فما له منع، وأن ليس التثريب في ماله وإن كان ظالماً فإنّ الإنسان لظلومٌ كفّار.

٢٣ ـ حقّ من سترك:

وأمّا حقّ من سترك الله به وعلىٰ يديه، فإن كان تعمّدها لك حمدت الله أوّلاً ثمّ

شكرته علىٰ ذلك بقدره في موضع الجزاء، وكافأته علىٰ فضل الابتداء، وأرصدت له المكافأة، وإن لم يكن تعمّدها حمدت الله أوّلاً ثمّ شكرته وعلمت انّه منه توحّدك بها، وأحببت هذا إذ كان سبباً من أسباب نعم الله عليك، وترجو له بعد ذلك خيراً، فإنّ أسباب النعم بركة حيث ما كانت، وإن كان لم يتعمّد، ولا قوّة إلّا بالله.

٢٤ ـ حقّ القضاء:

وأمّا حقّ من ساءك القضاء علىٰ يديه بقول أو فعل، فإن كان تعمّدها كان العفو أولىٰ بك لما فيه له من القمع وحسن الأدب مع كثير أمثاله من الخلق، فإنّ الله يقول: ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأُولئك ما عليهم من سبيل ـ إلىٰ قوله ـ لمن عزم الأُمور﴾ [الشورىٰ: ٤١ ـ ٤٣].

وقال عزّ وجلّ: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين﴾ [النحل: ١٢٦]. هذا في العمد فإن لم يكن عمداً لم تظلمه بتعمّد الانتصار منه فتكون قد كافأته في تعمّد علىٰ خطأ، ورفقت به ورددته بألطف ما تقدر عليه، ولا قوّة إلّا بالله.

٢٥ ـ حقّ بقيّة الناس:

١ ـ وأمّا حقّ أهل ملّتك عامة: فاضمار السلامة، ونشر جناح الرحمة، والرفق بمسيئهم، وتألّفهم واستصلاحهم، وشكر محسنهم إلىٰ نفسه وإليك، فإنّ احسانه إلىٰ نفسه إذا كفّ عنك أذاه وكفاك مؤنته، وحبس عنك نفسه، فعمّهم جميعاً بدعوتك، وانصرهم جميعاً بنصرتك، وأنزلهم جميعاً منك منازلهم كبيرهم بمنزلة الوالد، وصغيرهم بمنزلة الولد، وأوسطهم بمنزلة الأخ، فمن أتاك تعاهدته بلطف ورحمة، وصِل أخاك بما يجب للأخ علىٰ أخيه.

٢ ـ وأمّا حقّ أهل الذمة: فالحكم فيهم أن تقبل منهم ما قبل الله، وكفىٰ بما جعل

الله لهم من ذمّته وعهده، وتكلهم إليه فيما طلبوا من أنفسهم، وتحكم فيهم بما حكم الله به علىٰ نفسك فيما جرىٰ بينك وبينهم من معاملة، وليكن بينك وبين ظلمهم من رعاية ذمّة الله والوفاء بعهده وعهد رسوله حائل، فإنّه بلغنا انّه قال: «من ظلم معاهداً كنت خصمه» فاتّق الله، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

٢٦ ـ الخاتمة:

فهذه خمسون حقّاً محيطاً بك، لا تخرج منها في حال من الأحوال، يجب عليك رعايتها والعمل في تأديتها والاستعانة بالله جلّ ثناؤه علىٰ ذلك، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله والحمد لله ربّ العالمين.

الفصل الحادي عشر
قيمة الدنيا وشأنها

«يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَٱنْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ ٱلْآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا ٱلْأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا. إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيباً وَجَنَاباً مَرِيعاً، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ ٱلْمَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ أَلَماً، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَماً. وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ وَأَدْنَاهُمْ أَلىٰ مَحَلَّتِهِمْ.

وَمَثَلُ مَنِ ٱغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَىٰ مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَىٰ مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ».

* * *

نحن الآن تجاه مثل رائع عن الدنيا وحالها، وتعبير ملمّ بما للدنيا من صفات وخواص، يبيّنها لنا عليّ أمير المؤمنين عليه السلام فيجيد في البيان، ويوضحها فيبلغ في

الايضاح، ويصوّرها لنا علىٰ علاتها بأحسن تصوير، فكأنّـه ﷺ يمـثّل لنـا شـيئاً محسوساً يقطن زاوية من زوايا حياتنا، فعلينا أن نتباعد عنه ونتحاشاه كي لا يمسّنا منه أذىٰ.

ولم يكفه ذلك، بل تعدّاه إلى التعبير عن حال ساكنيها والخائضين غمارها، فهم علىٰ نوعين إثنين:

أنواع أهل الدنيا:

١ ـ النوع الأوّل منهم هم القوم الذين لم يرتاحوا إلى المنزل الجـديد الذي لا ينالون من ورائه معيشة يسدّدون بها جوعهم، ولا هم بمقرب من ا لماء ليرووا بها غلتهم، فهم كالجالس علىٰ روق الظبي لا يكاد يستقرّ حـتّىٰ يأخـذ بـالتمايل يمـنة ويسرة ليقع علىٰ الأرض، لتشج جبهته أو ليقضي آخر نفس من أنفاس حياته في عذاب شديد من الأوجاع المحيطة به.

أو كمن كان وسط بحر هائج قد ثار به الغضب، فتحوّل وجهه مـن ابـتسامة منبسطة إلىٰ تقطيب محضّ، ومن هدوء وسكينة إلىٰ هياج واحتدام، فذلك الرجل لا يدري هل سيوصله الماء إلى الساحل لينعم باللذة وطيب العيش، أم سوف يـلفه الماء بعين طياته ليجعله طعمة لأسماكه التي لعلّ بعضها من لا عهد له بالشبع منذ أمد بعيد.

لا يتحمّل الإنسان وعـثاء الطـريق، وجشـوبة المـطعم، وفـراق الأصـدقاء والرفاق، ولا يمكن أن ينوء بعبء المصاعب التي يواجهها في قطع طـريقه البـعيد المدىٰ، إلّا لأنّه قد بنىٰ من الآمال الوطيدة بيتاً مشيّداً في الجانب الآخر الذي سيحلّ فيه عمّا قريب، وقد لا يبعد عنه إلّا أن يغذو عيره في السير، وما هي بضع خطوات حتّىٰ تترائىٰ له معالم المدينة الجديدة التي يقبل عليها.

ويقيني قوي بأنّ الإنسان لا تدعوه إلى السفر إلّا دواعي الأمل الوطيد، أمّا إذا

لم يكن من ذلك شيء فأحرىٰ به إذا فعل ذلك أن يسمّىٰ مجنوناً أو قد خالطه شيء من الجنون، لأنّ فعله لغير غاية، وكلّ فعل لم ينط بغاية لم يكن ممّا تأتي به العقلية الإنسانية، فهل ترىٰ أنّ أُولئك القوم الذين قصدوا إلىٰ منزل خصيب من منزل جديب، هل ترىٰ أنّهم يحسّون بشيء من المتاعب، فيه شيء ممّا يمضّ النفس ويضجرها، كلّا أنّهم ليس يرون شيئاً أحبّ إليهم من ذلك.

تحمّل متاعب، وقطع مسافة بعيدة، واغبرار وجه، واحتمال عطش أو جوع، ثمّ بعد ذلك الراحة والاطمئنان والري والشبع، إنّ ذلك حقّاً من السعادة العظمىٰ التي طالما حلم بها كلّ ابن أُنثىٰ.

فما أجمل العيش لو نال كلّ إنسان بغيته بعد طوال الطريق ووعثه، وما أطيبه لو عبر تلك البحار المزبدة الغضوبة فوصل إلى الشاطئ ليجد حبيبته واقفة على الساحل بانتظار قدومه، وقد تركت مخدعها فيجتمعان وتلتصق روحاهما حتّىٰ لتكاد أن تجعل روحه مع روحها روحاً واحدة ونفساً واحدة تنبض بالعاطفة والحنان، فيمشيان معاً جنباً إلىٰ جنب، والحبّ والمعاطفة تمشي أمامهما تبن لهم السبيل.

ما أحلى العيش لو بحث الإنسان عن بغيته وطلبته في كلّ مكان، وتحمّل من أجلها المتاعب والمشاق فوجدها.

ما أحلى الحياة لو كانت تدوم ولم يؤل أمرها إلى الزوال ولكن ذلك لم يكن، كلّ هذه التمنّيات وهذه الآمال العذاب الضاربة في الأرض إلىٰ الأعماق والشاخصة إلىٰ الآفاق تسايرها أينما سارت.

كلّ هذه يكون مصدرها كلام سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين ﷺ.

٢ ـ وأمّا النوع الثاني من أهل الدنيا: فهم على العكس من النوع الأوّل، كما يصوّرهم لنا الإمام ﷺ أيضاً ويصفهم بالمغرورين، فهم يرحلون من منزل خصيب إلىٰ آخر جديب، فليس شيء أكره إليهم ولا أفضع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه

إلىٰ ما يهجمون عليه ويصيرون إليه.

ولو أنّهم جعلوا نفوسهم سخيّة، وأكفّهم نديّة، وفي ثروتهم متّسعاً لاسعاف المنكوبين، وردّ لهفة المعوزين لوجدوا منزلهم خصيباً، وماءهم عذباً.

البخل هو السبب في حبّ الدنيا:

ولكن الشحّ وغريزة البخل هي التي أجدبت دارهم، وهبطت بهم دون منازل الأبرار، وحرمتهم الكرامة التي فضّل الله بها الأسخياء المنفقين: **﴿الذين ينفقون أموالهم باللّيل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** [البقرة: ٢٧٤].

ومن هنا كان النبي ﷺ يستعيذ من البخل فيقول: «اللّهمّ إنّي أعوذ بك من البخل»[١]، ويقول ﷺ: «إنّ الله يبغض البخيل في حياته، السخي عند موته»[٢]، ويقول: «البخيل بعيد من الله، بعيد من النار، بعيد من الجنّة، قريب من النار»[٣]، ويقول عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: «البخيل جامع لمساوىء العيوب، وهو زمام يقاد به إلىٰ كلّ سوء»[٤].

وقد نصّ القانون الإسلامي علىٰ ذمّ أهله وتوبيخهم بما لا مزيد عليه.

البخل لغةً: هو الشحّ في الشيء من واجده، شرعاً هو منع الواجب من الحقوق، وفي عرف العرب هو منع المسؤول السائل ممّا يفضل عنده.

البخل داء مركّب من أُمور يتوقّف وجوده عليها، وكلّها قبيحة وما يتركّب من القبيح يكون قبيحاً.

يتوقّف وجود البخل في صاحبه علىٰ خساسة نفسه، وحقارتها في واقع أمرها

---

(١) احياء العلوم ٣: ٢٣٩ / في ذم البخل.

(٢) البحار ٧٧: ١٧٥ ضمن حديث ٨.

(٣) البحار ٧١: ٣٥٥ ضمن حديث ١٧.

(٤) البحار ٧٣: ٣٠٧ ح ٣٦.

وحقيقة وجودها، ولا يغرّك منه إظهار علوّ نفسه وكبرها، يتوقّف وجود البخل في صاحبه علىٰ لؤمه ورداءة ذاته، وتغلب هاتين الصفتين علىٰ نفيس جوهره ومدارك عقله.

يتوقّف وجود البخل في صاحبه علىٰ طول الأمل، وخوف الفقر، وحبّ المال لأنّه مال.

البخل في نوعين:

١ ـ البخل في الواجبات: وهو أقبح أنواع البخل وأشدّها إثماً وله مراتب:

أوّلها: بخل الشخص بما وجب عليه في ماله عن ماله، وهو الزكاة الواجبة في النقدين: الذهب والفضّة، وفي الغلّات الأربعة: الحنطة والشعير والتمر والزبيب، وفي الأنعام السائمة: الغنم، والماعز، والبقر، والجاموس، والابل، علىٰ حسب ما ذكر لها من الشروط في محلّها، وقد أوجبها الله سبحانه علىٰ الأغنياء سدّاً لحاجة الفقراء، وحفظاً لانتظام الإنسان في معاشه، والبخل بالواجب من الزكاة يكشف عن عدم الايمان وعدم الخوف من عذاب الله سبحانه.

ثانيها: بخل الشخص بما وجب عليه في المال الزائد عن مصرفه بحسب حاله، وهذا هو الخمس كما فرضه الله سبحانه لأهله بعد أن كانوا كرسول الله ﷺ في حرمة أكل الزكاة، فكما كرّم الله تعالى رسوله وأهل بيته بتحريم الصدقة عليهم ونزّههم عنها، أوجب لهم الخمس فرضاً منهم لهم وإشفاقاً عليهم.

والمانع بخلاً لما وجب عليه من الخمس معدود عند الله في زمرة الظالمين لحقّ محمّد وآله ﷺ، وقد روي عن آل بيت محمّد ﷺ قولهم: «إنّ من أكل علينا درهماً واحداً فهو ظالم غاصب لنا».

ثالثها: بخل الشخص بما وجب عليه عن نفسه وعياله، وهو الزكاة الواجبة يوم العيد بعد صوم شهر رمضان، وتسمّىٰ بالفطرة والصدقة عن النفس وهي بسيطة

جدّاً، ومقدارها وشروط وجوبها مذكور في محلّه، والبخل بها يكشف عن عدم المبالاة في الدين أكثر ممّا يكشف عن الشحّ المطاع، نظراً لعدم أهميتها.

رابعها: بخل الشخص بما أوجبه علىٰ نفسه بنذر أو عهد أو يمين، فإنّه إذا نذر أو عاهد أو حلف بأن يعطي الفقراء أو رجلاً معيّناً شيئاً من ماله وجب عليه الوفاء بما أوجبه علىٰ نفسه، فإذا بخل به ولم يدفعه كان مخالفاً لما عاهد الله عليه مستخفّاً بدينه.

ولا ريب أنّ المانع لهذه الواجبات المذكورة بخلاً وشحّاً مذموم، مطالب بها في الدنيا ومحاسب عليها في الآخرة: ﴿يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون﴾ [الشعراء : ٨٨]، ﴿اليوم تجزى كلّ نفسٍ بما كسبت﴾ [غافر : ١٧]. والمانع للزكاة والخمس والفطرة والواجب بنذر ونحوه عن عدم اعتقاده بوجوبها خارج عن دائرة الايمان بالله وكتبه ورسله، وحسابه على الله سبحانه.

٢ ـ البخل في غير الواجبات، له مراتب ولأهله صفات:

منها بخل الشخص على السائلين من الفقراء والضعفاء، الطالبين بعض الخبز أو الادام أو القطع النقدية ونحوها، والبخلاء في هذه المرتبة قلائل إذ قلّ من يبخل بمثل ذلك، ومن بخل فهو خارج عن دائرة الإنسانية.

ومنها بخل الشخص بما يندب إليه من العطايا والهبات بحسب حاله وحال الطالبين منه كثرة وقلّة، فإذا كان ممّن يفعل الخير لوجه الله سبحانه فعليه أن يبذل من ماله ما لا يضرّ بحاله ابتغاء مرضاة الله، وإن كان ممّن يفعل الاحسان رغبةً بالثناء عليه وحبّاً بنسبته إليه، فعليه أن يبني مجده علىٰ دعائم كرمه قبل بناء مسكنه على التلال والجبال.

ليس بالمغبون عقلاً من شرىٰ عزّاً بمال

والبخل من أهل هذا القسم حرصاً منهم على المال وحبّاً به يدلّ علىٰ نقص في عقولهم، لأنّ العاقل إنّما يحبّ المال ويدّخره ليكون به سعيداً، والبخل يحول بين أهله

وبين السعادة في الدارين، ويمنع نسبة الفضائل والكمال إليهم، ونصرة القريب والبعيد لهم.

ومنها بخل الشخص بماله علىٰ نفسه وعياله حتىٰ تجد ذلك الشخص كأنّه حرّم علىٰ نفسه اللذات، أو رغب في مساواة من لا يملك ما يكفيه لقضاء الحاجات، فهذا يحاسب في الدنيا والآخرة محاسبة الأغنياء، ويعيش معيشة الفقراء.

ومنها بخل الشخص بمال غيره، فيما إذا كانت له ولاية صرف مال الغير على الفقراء والضعفاء، فبخل به ولم يصرفه كما فوّضه به مالكه، أو فيما إذا أنكر فعل الخير والاحسان علىٰ فاعليه، وحملهم على البخل والشحّ، وهذا منتهى اللؤم والخساسة وخبث النفس، لأنّ أبخل البخلاء من بخل بمال غيره.

هذه الأقسام التي صوّرناها للبخل، وكيف كان البخل فإنّه يسبّب الأضرار الكثيرة على البخلاء في أموالهم وأنفسهم واعتبارهم، يسبّب العداوة بينهم وبين الناس، يسبّب غضب الله سبحانه عليهم إذا بخلوا بما أمر الله به.

نصوص في ذم البخل:

جاء النصّ في القانون الإسلامي علىٰ ذمّ البخلاء وتوبيخهم، وتهديدهم، وإعلامهم عاقبة أمرهم بما لا مزيد عليه، فقال سبحانه:

﴿ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير﴾ [آل عمران : ١٨٠].

دلّت هذه الآية الشريفة بكلّ صراحة ووضوح علىٰ أنّ البخل شرّ على البخلاء، وأنّهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة، فيجعله الله سبحانه طوقاً في أعناقهم، تشهيراً لهم وتنكيلاً بهم، لأنّهم بخلوا ببعض ما تفضّل الله به عليهم وأمرهم ببذله لمن خصّه به، فلا خير لهم في بخلهم بل هو شرّ لهم، والله عالم بما

يكونون عليه من البخل وعدم امتثال أمره، وبيده سبحانه إزالة النعمة عنهم ودوامها لهم.

وقال سبحانه: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ [النساء : ٣٧].

قد تضمّنت هذه الآية الشريفة بيان أُمور: البخل البسيط، والأمر بالبخل شحّاً حتىٰ بمال غيره وهذا منتهى البخل، وكتمان النعمة التي وصلت إليه خوفاً من الطلب، والحكم علىٰ من اتّصف بهذه الصفات بأنّه كافر، وإنّ الله أعدّ له عذاباً مهيناً.

ولا ريب في قبح البخل وإن كان بسيطاً، وتولّد الضرر الكثير منه، فكيف بالبخل المركّب، من بخل الشخص بماله وإلزامه الغير بالبخل، وما ظنّك بهذا هل يمنحه أحد الكرامة أو يمنيه السلامة هيهات هيهات.

وأمّا من كتم النعمة وأظهر الفقر والفاقة خوفاً من البذل والسخاء، فقد ارتدىٰ بخساستي البخل والكذب، واستغشىٰ رداء الكفر، لأنّه ستر النعمة، وساتر نعمة المنعم كافر بها، ولأنّ من لم يمتثل أمر مولاه فهو كافر، وقد أمر الله ببذل ما وجب بذله من نعمه، وقد أعدّ الله للكافرين عذاباً مهيناً ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ [الشعراء : ٨٨].

وقال سبحانه: ﴿ومن يبخل فإنّما يبخل عن نفسه والله الغنيّ وأنتم الفقراء وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمّد : ٣٨].

دلّت هذه الآية الشريفة علىٰ أنّ ضرر البخل وقبحه، إنّما يتوجّه إلى البخيل نفسه ولا يصيب سواه، ويكون بخله وشحّه متّصفاً بعدم النجاح والفلاح.

ودلّت بالملازمة العقلية علىٰ أنّ من دافع داء الشحّ وصرفه عن نفسه حتىّٰ طابت نفسه عن بذل ما وجب بذله، فقد اتّصف بالفلاح والصلاح عند الله سبحانه، وأمّا عند الناس فقل في السخي ما شئت، تسمع من الناس ما يزينه، ولا تسمع منهم إذا عمّ سخاؤه ما يشينه وإن كثرت مساويه، فالكرم يستركل عيب كان فيه.

وقال صاحب الدعوة الإسلامية الأمين محمّد ﷺ:

«إيّاكم والشحّ فإنّه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم، واستحلّوا محارمهم، وقطعوا أرحامهم»(١).

وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوىً متّبع، وإعجاب المرء بنفسه»(٢).

وقال ﷺ: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق»(٣).

وقال ﷺ: «لا يدخل الجنّة بخيل ولا خائن ولا منّان»(٤).

وقال ﷺ: «شرّ ما في الرجل شحّ هالع، وجبن خالع»(٥).

وقال ﷺ: «لا ينبغي لمؤمن أن يكون بخيلاً وجباناً»(٦).

وقال ﷺ: «السخي الجهول أحبّ إلى الله من العابد البخيل»(٧).

وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يجتمع شحّ وإيمان في قلب مؤمن أبداً»(٨).

وقال عليه السلام: «اللّهمّ اجعل لمنفق خلفاً، ولممسك تلفاً»(٩).

وقال عليه السلام: «عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنىٰ الذي إيّاه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء»(١٠).

وقال عليه السلام: «إنّ الله سبحانه ينزل المعونة علىٰ قدر المؤونة»(١١).

---

(١) البحار ٧٣: ٣٠٣ ح١٦؛ والمحجة البيضاء ٦: ٧١.

(٢) البحار ٧٠: ٦ ح٢؛ والمحجة البيضاء ٦: ٧١.

(٣) البحار ٧٣: ٢٩٧ ح ٥؛ والمحجة البيضاء ٦: ٧٤.

(٤) الترغيب والترهيب ٣: ٣٨٠ ح٩، نحوه؛ المحجة البيضاء ٦: ٧١.

(٥) احياء العلوم ٣: ٢٤، كنز العمال ٣: ٤٤٧ ح٧٣٨١؛ والمحجة البيضاء ٦: ٧٢.

(٦) احياء العلوم ٣: ٢٤١ / في ذم البخل؛ المحجة البيضاء ٦: ٧٤.

(٧) احياء العلوم ٣: ٢٤١ / في ذم البخل؛ المحجة البيضاء ٦: ٧٤.

(٨) مستدرك الوسائل ٧: ٢٦ ح٧٥٥٢؛ المحجة البيضاء ٦: ٧٤.

(٩) مستدرك الوسائل ٧: ٣١ ح٧٥٦٨.

(١٠) البحار ٧٢: ١٩٩ ح٢٨.

(١١) الوسائل ٦: ٢٥٧ ح ١١.

وقال ﷺ: «من وسّع وسّع الله عليه»(١).

وقال عبد الله بن عباس: «لمّا خلق الله سبحانه جنّة عدن قال لها: تزيّني فتزيّنت، ثمّ قال لها: أظهري أنهارك، فأظهرت عين السلسبيل، وعين الكافور، وعين التسنيم، فتفجّرت منها الأنهار، ثمّ قال لها: أظهري سررك وجمالك وكراسيّك وحللك وحور عينك فأظهرت، فنظر إليها وقال لها: تكلّمي، فقالت: طوبىٰ لمن دخلني، فقال الله تعالى: وعزّتي لا أسكننّك بخيلاً»(٢).

وقال أبو حنيفة: «لا أرىٰ أن أعدل بخيلاً، لأنّ البخل يحمله على الاستقصاء، فيأخذ فوق حقّه خيفة أن يغبن، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة»(٣).

وقالت أُمّ البنين أُخت عمر بن عبد العزيز: «أُفّ للبخيل لو كان البخل قميصاً ما لبسته، ولو كان طريقاً ما سلكته»(٤).

وروي أنّه ورد علىٰ كسرىٰ أنوشروان حكيم من الهند وفيلسوف من الروم، فقال كسرىٰ لحكيم الهند: تكلّم، فقام وقال: خير الناس من كان سخياً، وعند الغضب وقوراً، وفي القول متأنّياً، وفي الرفعة متواضعاً، وعلىٰ كلّ ذي رحم مشفقاً.

وقال لفيلسوف الروم: تكلّم، فقام وقال: من كان بخيلاً ورث عدوّه ماله، ومن قلّ شكره لم ينل النجح، وأهل الكذب مذمومون، وأهل النميمة يموتون فقراء، ومن لم يرحم سلّط الله عليه من لا يرحمه(٥).

ولا يخفىٰ ما في هذه الأقوال من تقبيح البخل وذمّه، وبعد أهله عمّا تألفه طباع البشر، وعمّا يكسب الذكر الجميل والثواب الجليل، وعمّا يقرب من الله والجنّة والناس، لأنّ البخيل بعيد عن رحمة الله، بعيد عن رضا الناس لتوقّف البخل على اللؤم، وخباثة الذات، ومخالفة الله سبحانه، وإليك ما روي في رجل أفرط في بخله

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٩: ٣١٨.
(٢) احياء العلوم ٣: ٢٤١ / في ذم البخل؛ المحجة البيضاء ٦: ٧٥.
(٣) احياء العلوم ٣: ٢٤٢ / في ذم البخل.
(٤) احياء العلوم ٣: ٢٤١ / في ذم البخل.
(٥) احياء العلوم ٣: ٢٤١ / في ذم البخل؛ المحجة البيضاء ٦: ٧٦.

عن لؤم وخبث سريرة.

روي أنّ رسول الله ﷺ كان يطوف في البيت، فإذا برجل متعلّق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلّا غفرت لي ذنبي، فقال ﷺ: وما ذنبك صفه لي، فقال: هو أعظم من أن أصفه لك، فقال ﷺ: ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون؟ فقال: ذنبي أعظم يا رسول الله. قال ﷺ: فذنبك أعظم أم الجبال؟ قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله.

قال ﷺ: فذنبك أعظم أم البحار؟ فقال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله، قال ﷺ: فذنبك أعظم أم السماوات؟ قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله، قال ﷺ: فذنبك أعظم أم العرش؟ قال: بل ذنبي أعظم يارسول الله، قال ﷺ: فذنبك أعظم أم الله؟ قال: بل الله أعظم وأعلى، قال ﷺ: ويحك فصف لي ذنبك.

قال: يا رسول الله إنّي رجل ذو ثروة من المال، وانّ السائل ليأتيني يسألني فكأنّما يستقبلني بشعلة من نار، فقال ﷺ: إليك عنّي لا تحرقني بنارك فوالذي بعثني بالهداية والكرامة، لو قمت بين الركن والمقام، ثمّ صلّيت ألف ألف عام، وبكيت حتّى تجري دموعك كالأنهار، ثمّ متّ وأنت لئيم هكذا لأكبك الله في النار، أما علمت أنّ البخل كفر، وأنّ الكفر في النار.

ويحك أما علمت أنّ الله تعالى يقول: ﴿ومن يبخل فإنّما يبخل عن نفسه﴾ [محمّد: ٣٨] ﴿ومن يوق شحّ نفسه فأُولئك هم المفلحون﴾ [التغابن: ١٦][1].

لا ريب في تناهي هذا الرجل في بخله الذاتي، لأنّه يصرّح بأنّ كلام السائل عنده كشعلة نار يستقبله بها، ولو كان يعتقد أنّ السائل ينال من ماله شيئاً لمات من شدّة خوفه. فكأنّه مصداق وصف بعض الشعراء لبعض البخلاء بالبيتين المعروفين.

رأى الصيفَ مكتوباً علىٰ باب داره   فصحّفه ضيفاً فقام إلى السيف
فقلنا له خيراً تريد فظنّنا   نقول له خبزاً فمات من الخوف

(١) المحجة البيضاء ٦: ٧٥.

أحوال البخلاء:

للبخلاء أحوال غريبة لولا نقلها في صفحات التاريخ لأنكرناها، منها أنّ بخيلاً منعّماً أفرط في البخل حتّىٰ علىٰ نفسه، ولم يعرف الطيّب من الطعام، فدعاه بعض جيرانه إلىٰ طعام جيّد فأكل منه فوق عادته، فاضطرّ للاكثار من شرب الماء حتّىٰ انتفخت بطنه ونزل به الكرب، فقال له بعض العارفين: لا بأس عليك إذا تقيّأت ما أكلته، فقال: كيف أتقيّأه وهو طيّب لذيذ، الموت أهون من ذلك[1].

ومنها انّه قيل لرجل أديب له قرابة مع بخيل غني: من يحضر علىٰ مائدة قرابتك؟ قال: الكرام الكاتبون، قيل له: إذاً فلا يأكل معه أحد؟ قال: بلى الذباب، قيل له: فما بال ثيابك خلقة مخرّقة وأنت قرابته، قال: لو ملك هذا بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءاً إبراً ثمّ جاء جبرائيل وميكائيل ومعهما يعقوب النبي، يطلبون منه إعارة إبرة ليخيط بها يعقوب قميص ولده يوسف الذي قدّ من دبر ما أعارهم تلك الابرة[2].

ومنها انّه كان لبعض العلماء جار يتعرّض له بالدخول إلىٰ بيته ويقول له: لو دخلت وأكلت كسرة خبز وملحاً كان لنا بذلك الشرف وحلّت علينا البركة، ولما طال الالتماس دخل ذلك العالم إلىٰ بيت جاره، فقدّم له كسرة خبز وملحاً بلا زيادة، فأخذ يأكل منها وهو يقول: الحمد لله متعجّباً بما صدر من جاره.

فطرق الباب سائل، فقال له صاحب المنزل: اذهب، فألحّ، فقال له: اذهب وإلّا ضربتك بالعصا، فعاود السائل الطلب، فأعاد عليه التهديد، فصاح به العالم: اذهب فإنّ الرجل صادق القول ومن جرّب عرف[3].

البخل بعد استمرار صاحبه عليه يوجب زيادة تفنّنه فيه حتّىٰ ينتهي إلىٰ مرتبة يشكل زوالها منه، فيكون سجية ثابتة في ذلك الشخص، وربّما أدّىٰ إلىٰ بخله بمال

(١) راجع المحجة البيضاء ٦ : ٧٧.

(٢) راجع المحجة البيضاء ٦ : ٧٨.

(٣) راجع المحجة البيضاء ٦ : ٧٨.

غيره علىٰ نفسه بعد تمرّنه على الخساسة، وسماع كلّ ما يقال فيه، حتّىٰ يكون حبّه للمال حبّاً ذاتياً أي لأنّه مال كمحبّة الولد لأنّه ولد، والعقلاء كلّهم يرون محبّة المال لتوقّف قضاء حوائجهم عليه، ولا يحبّه لذاته إلّا من تناهىٰ في خساسته وبخله.

الايثار والكرم:

البخل ضدّ الكرم، والقانون الإسلامي كما نهىٰ عن البخل وذمّ البخلاء، أمر بالكرم ومدح الكرماء وأهل الجود والسخاء.

وكما أنّ للبخل مراتب تشكيكية تختلف شدّة وضعفاً، كذلك للكرم مراتب يتفاوت فيها أهل الكرم، وهي مظاهر حسن الذات وطيب مغارسها.

لابدّ من كون المراتب المحدودة من باب الكرم، منوطة بحال الباذل والمبذول له، إذ ربّما كان الدينار من زيد منتهى الكرم، ومن عمرو ليس شيئاً مذكوراً، لأنّ زيد لا يملك سواه وعمرو يملك الأُلوف من الدنانير.

المؤثر علىٰ نفسه هو الباذل لغيره ما هو مضطرّ إليه، والمؤثر بنفسه هو الذي يبذل نفسه فداء لغيره في حبّه وإطاعته له.

الايثار بالمال هو منتهى الكرم، فمن جاد بما يملكه مع حاجته إليه علىٰ محتاج له، أو غير محتاج مع طلبه منه كان مؤثراً غيره علىٰ نفسه، وليس بعد هذه المرتبة من السخاء مرتبة توازيها.

وقد نصّ القانون الإسلامي علىٰ مدح أهلها، فقال سبحانه: **﴿ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولوكان بهم خصاصة ومن يوق شحّ نفسه فأُولئك هم المفلحون﴾** [الحشر: ٩].

أي يقدّمون غيرهم علىٰ أنفسهم في حال اضطرارهم وحاجتهم إلىٰ ما في يدهم فيعطونه لسائلهم ويقدّمونه لضيفهم.

وقال رسول الله ﷺ: «أيّما امرئ اشتهىٰ شهوة فرد شهوته وآثر علىٰ نفسه

غفر الله له»[١].

فالسخاء خلق من أخلاق الله سبحانه، والايثار أعلىٰ درجاته، وكان الايثار على النفس دأب رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، والعرفاء من صحابته.

وروي أنّ موسى بن عمران عليه السلام قال طالباً من الله سبحانه:

يا ربّي أرني بعض درجات محمّد وخاصّته، فقال سبحانه: يا موسىٰ إنّك لن تطيق ذلك، ولكن أُريك منزلة من منازله فضّلته بها عليك وعلىٰ جميع خلقي، وكشف الله له عن ملكوت السماوات، فنظر موسىٰ إلىٰ منزلة كادت نفسه تتلف من أنوارها وقربها من الله سبحانه.

فقال موسىٰ: يا ربّ بما بلغت به إلىٰ هذه الكرامة؟ قال الله: بخُلقٍ اختصصته وهو الايثار على النفس، يا موسىٰ لا يأتيني أحد قد عمل به وقتاً من عمره إلّا استحييت من محاسبته، وبوّأته من جنّتي[٢].

وذكر أهل السير: أنّ عبد الله بن جعفر خرج إلىٰ ضيعة له، فنزل بنخيل قوم وفيه عبد لهم يعمل في ذلك البستان، فنظر إليه عبد الله بن جعفر حين جلس لغذائه، وإذا بكلب أقبل من كبد البرّ حتّىٰ وقف قرب العبد، فرمىٰ له القرص الذي بيده فأكله الكلب، فرمىٰ له الثاني فأكله، فرمىٰ له الثالث فأكله، وعبد الله بن جعفر ينظر إليه، فقال: يا غلام كم قوتك كلّ يوم؟ قال: هو ما رأيت.

قال: فَلِمَ آثرت بقوتك هذا الكلب علىٰ نفسك؟ قال: لأنّه جاءني قاصداً من مكان بعيد، وكرهت أن آكل وهو جائع، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: أُلام علىٰ السخاء وهذا الغلام أكرم منّي، ثمّ إنّ عبد الله بن جعفر اشترى البستان وما فيه من الآلات والعبد، ثمّ أعتقه وملكه البستان وما فيه[٣].

---

(١) احياء العلوم ٣: ٢٤٣ / في الايثار وفضله.

(٢) احياء العلوم ٣: ٢٤٣ / في الايثار وفضله.

(٣) احياء العلوم ٣: ٢٤٣ / في الايثار وفضله، وانظر أيضاً المستطرف ١: ٣٤٨.

فكان جزاء ايثار ذلك العبد بأقراصه الثلاثة نعمة العتق، وتملّك البستان، وجزاءه من الله الثواب الجزيل، لأنّه علىٰ كلّ ذي كبدٍ حرّاء أجر.

هذا هو الايثار بالمال، وقد عرفت أنّه منتهى الكرم بالمال.

علي ﷺ والايثار بالنفس:

وأمّا الايثار بالنفس، فذلك مرتبة اختصّ بها من سمت نفسه إلىٰ أوج السعادة والكمال، اختصّ بها أشرف خلق الله وأكرمهم وأعلمهم بعد رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي ﷺ.

الإمام الغزالي وكلامه في الايثار:

خصّ الإمام الغزالي في إحياء العلوم الايثار بالنفس بأمير المؤمنين ﷺ، قال في إحياء العلوم في باب الايثار:

وبات عليّ ـ كرّم الله وجهه ـ علىٰ فراش رسول الله ﷺ فأوحى الله تعالى إلىٰ جبرائيل وميكائيل ﷺ: إنّي آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختارا كلاهما الحياة وأحبّاها.

فأوحى الله عزّ وجلّ إليهما: أفلا كنتما مثل عليّ بن أبي طالب، آخيت بينه وبين نبيّي محمّد، فبات علىٰ فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، إهبطا إلىٰ الأرض فاحفظاه من عدوّه، فكان جبرائيل عند رأسه، وميكائيل عن رجليه، وجبرائيل يقول: بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب، والله تعالى يباهي بك الملائكة، فأنزل الله تعالى: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوفٌ بالعباد﴾ [البقرة: ٢٠٧][1].

هذه عبارة الإمام الغزالي بألفاظها، وقد روى غيره من أعلام المسلمين ما

---

(١) احياء العلوم ٣: ٢٤٤ / في الايثار وفضله.

رواه الإمام الغزالي، فراجع ما ذكره العلماء في تصانيفهم.

لا نرتاب بأنّ الايثار بالنفس في سبيل الله سبحانه وطاعته هو منتهىٰ كمالها وبلوغها غاية الاخلاص في الدين، والمكاشفة عن حقائق غاية الموجودات في عالم التكوين، حتىٰ أن صاحب تلك النفس الكبيرة والمرتبة الروحانية العظيمة، لا يتزلزل بالنوازل ولا يبالي بغير الله سبحانه، وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام متّصفاً بهذه الصفة الأخلاقية، والميزة الروحانية.

إنّ مبيت أمير المؤمنين علي عليه السلام علىٰ فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليفديه بنفسه ويؤثره بحياته قد رواه أعلام علماء المسلمين، وأكثر من استعرضه العلامة الشيخ سالم سميسم في كتابه «علي في القرآن».

إجمال قصّة المبيت:

لمّا قضت المشيئة الربانية بهجرة رسول الله صلى الله عليه وآله من مكة إلىٰ يثرب، بعد إسلام الأوس والخزرج في يثرب، ووفاة أبي طالب الناصر لرسول الله والمدافع عنه في مكة، اجتمع رأي قريش على الفتك برسول الله ليلاً، وأن تشترك القبائل بقتله حتىٰ لا يطالب أحد بدمه.

فأمر الله سبحانه جبرائيل أن يبلغ رسول الله ما اجتمعت عليه قريش، وأن يأمره بالخروج من مكة متستّراً، ويجعل علياً عليه السلام مكانه في فراشه حتىٰ تشتغل به قريش، ولا تجدّ في الطلب وراء رسول الله صلى الله عليه وآله، فاستدعىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين علياً وأخبره بما أمره الله سبحانه به، فقال له علي عليه السلام: أفتسلم أنت بمبيتي علىٰ فراشك يا رسول الله؟ فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله في وجه علي.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله متستّراً في ظلام الليل، ممتثلاً أمر ربّه بالخروج منفرداً بنفسه، وسار حتىٰ انتهىٰ إلىٰ آخر شعاب مكة، فلحقه أبو بكر فاعترضه قائلاً: أين تريد يا رسول الله في هذا الليل؟ فلم يجبه، وربّما كانت فراسة أبي بكر في وجوه

قريش تدلّه علىٰ ما يكون من أمرهم مع رسول الله والمؤمنين بـه، وحـين شـاهد خروجه ليلاً علىٰ تلك الحالة وعدم جوابه له، حصل لأبي بكر الجزم من مجـموع هذه المقدّمات بعزم قريش علىٰ قتل رسول الله وقتل من آمن معه.

فرأىٰ أبو بكر لزوم خروجه مع رسول الله ﷺ لأنّ فيه دفع الضرر المذكور، ونيل الشرف بصحبة الرسول، ولذلك خرج مع رسول الله ﷺ إلى الغار إلىٰ يثرب.

وأمّا ما كان من قريش في تلك الليلة، فـإنّها هـاجمت بـيت رسـول الله ﷺ بشجعانها أهل الفتك من القبائل والبطون، حرصاً منهم عـلىٰ عـدم الطـلب بـدم رسول الله حتّىٰ يضيع بين القبائل من قريش، فكان من بني هاشم أبو لهب بن عبد المطّلب، وأبو لهب هو أوّل مكذّب لرسول الله، فهو أوّل مهاجم لبيته وقاصد لقتله.

وحين شاهد أبو لهب تزاحم زعماء القبائل وأبطالها على الدخول لبـيت ابـن أخيه، وفيه النساء والأطفال ومن لا حاجة لهم به وكلّهم أرحام أبي لهب، أدركت أبا لهب الغيرة والحميّة الرحميّة، فحال بين القوم وبين الهجوم ليلاً علىٰ ذلك البيت حتّىٰ لا تهتك أستاره، ولا تذهل أطفاله، ولا يقتل الجار بالجار.

ولم تجد قريش بدّاً من إجابة أبي لهب إلىٰ تأخير الوقيعة حتّىٰ يـطلع الفـجر وتعرف الوجوه، وهم جازمون بوجود رسول الله في الدار، لأنّهم يرون نائماً ملتفّاً بالبرد الحضرمي، ولا يشكّون أنّه رسول الله ﷺ، والملتفّ في ذلك البرد الحضرمي هو عليّ أمير المؤمنين ﷺ، وقلبه كزبر الحديد وهو ينظر إليهم نظرة الأسد في غابه لمن يهاجمها، وهم لا يرتابون بأنّه رسول الله ﷺ.

ولمّا غارت نجوم الليل وانشقّ عمود الصـباح، انـتضوا السـيوف وأشرعـوا الرماح، وحرّكوه قبل الوقيعة به بضرب الحجارة حتّىٰ يثبتوا شـخصه، فـرشقوه بالأحجار وبعض السهام، فخرج من تحت الرداء الحضرمي أمير المؤمنين علي ﷺ واستقبلهم بقلب لا يخاف سوى الله سبحانه، فدارت حوله عتاتهم وطغاتهم بعد أن طارت عقولهم من هذه المكيدة، وهم لم يطلعوا أحداً علىٰ سرّهم.

فسألوه عن رسول الله ﷺ فلم يجبهم عن جهة توجّهه، وهمّوا بقتله بعد الضرب ولمع بريق السيوف في وجهه ووخزات رماحهم في جسده، وهو يقول: لا أعلم أين ذهب، ثمّ شغلوا عنه بطلب رسول الله في كلّ جهة يمكنهم التوجّه فيها، فكانت سلامة أمير المؤمنين من الألطاف الربّانية والحكم الإلهية، إتماماً لانتظام الدولة الإسلامية وإعلاءً لشأنها، لأنّ عليّاً سيف الرسالة ووزير النبوّة، ومن ثبتت له من الله المؤاخات مع الرسول الأمين محمّد ﷺ، وفيه نزل قوله سبحانه: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد**﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ومن رأفته سبحانه بعبده أمير المؤمنين علي ﷺ، أمره لجبرائيل وميكائيل بحفظه في تلك الليلة من عدوّه كما نقلناه عن الامام الغزالي، ورواه الزمخشري والثعالبي والرازي في تفاسيرهم، وجلّ المفسّرين لقوله سبحانه: ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾ [الأنفال: ٣٠].

قالوا: إنّ هذه الآية نزلت ليلة هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلىٰ يثرب، وإنّ مكر قريش برسول الله ﷺ هو اختيارهم من كلّ بطن من قريش شجاعاً فاتكاً ليقتلوه ويذهب دمه، وإنّ مكر الله بهم هو مبيت عليّ أمير المؤمنين علىٰ فراش النبي ليمكنه الخروج ولا يلحقه الطلب، كما عرفت من كيفية خروجه ﷺ ومبيت أمير المؤمنين علىٰ فراشه(١).

---

(١) علّق محمّد كرد علي في كتاب «المستجاد من فعلات الأجواد» للتنوخي، على حديث المبيت الذي رواه الاثبات والحفّاظ كحجّة الإسلام الغزالي في احيائه ونظرانه، ودوّنوه في مؤلّفاتهم، بل قال أبو جعفر الاسكافي في «شرح النهج لابن أبي الحديد» في ٣: ٢٧٠: حديث الفراش قد ثبت بالتواتر ولا يجحده إلّا مجنون أو غير مخالط لأهل الملّة. ومع هذا قال محمّد كرد علي في تعليقه: من الغريب أن يروي القاضي التنوخي وهو المعتزلي الجلد هذه القصة الخرافية، والوضع ظاهر عليها.

أقول: هل يبقىٰ بعد ما رواه الاثبات بتواتر حديث الفراش وقع لكلام المعلّق، مع أنّ دعواه الوضع دعوىٰ بلا بيّنة ولا برهان، إذ لم يأتي في كلامه إلّا أنّ هذه القصة خرافية والوضع ظاهر عليها، كنّا نتخيّل أنّ الرجل علىٰ نصيب من علوم عصره، وساهم في القديم والحديث منها بقسط وافر، فتعليقه هذا كشف لنا عن قصر باعه، لو لم يكن ←

وبعد اتّفاق علماء المسلمين علىٰ تفسير الآيتين ونزولها، آية: ﴿وإذا يمكر بك﴾ و آية: ﴿ومن الناس من يشري نفسه﴾، ثمّ اتّفاق جلّهم علىٰ قضيّة مباهاته سبحانه وتعالى الملائكة بعليّ ﷺ، حيث بذل نفسه فداءً لرسول الله ﷺ وآثره بالحياة، ولم يقدّم علىٰ ذلك جبرئيل وميكائيل كما مرّ مفصّلاً، هل ترىٰ يحسن من أحد عدم الجزم بأنّ أمير المؤمنين عليّاً ﷺ أولى الناس بالناس بعد رسول الله ﷺ.

وكيف لا يكون كذلك، وهو السابق إلىٰ معرفة الله ورسوله، الثابت القدم في المواقف كلّها، الباذل نفسه ابتغاء مرضاة الله، وبهذا أقدم على الايثار بنفسه وحياته.

وبذل النفس والايثار بها في مرضاة الله سبحانه هو منتهىٰ مراتب الطاعة والايمان، والفضل والكمال، وبهذا تتفاضل الأنبياء والأولياء والصلحاء.

نعم يكون تفاضل أبناء النوع البشري في الاتّصاف بمراتب مكارم الأخلاق، فعلىٰ مقدار جواهرها الاستعدادية والتربية الحقيقية يكون اكتساب الفضائل، وبمقدارها يكون الامتياز، فلأمير المؤمنين علي ﷺ تفوّق في جوهره الاستعدادي، قد استلفت ظهوره فيه منذ ولد في الكعبة ـ بيت الله الحرام ـ أنظار ذوي المعارف والفراسة، وفاق سواه في التربية، حيث ربّاه رسول الله ﷺ وغذّاه روح المعارف والفضائل.

فلذلك ثبت عند أهل البصائر امتياز أمير المؤمنين عليّ ﷺ في جميع الكمالات النفسية، في فصاحته، وبلاغته، وحزمه، وشجاعته، وزهده، وعبادته، وعلمه بعامة العلوم سماوية وأرضية، وعدله في سلطانه، وقضائه بين البرية، وسخائه بنفيس ماله ونفسه في مرضاة الله سبحانه.

فعلىٰ أهل المعارف والعلوم، والدين والانصاف، والفهم والادراك، أن يعرفوا فضله، ويقتفوا أثره، وبذلك تجري جيادهم في مضمار مكارم الأخلاق.

← هذا تعامياً منه في هذا المقام.

ليت شعري هل في الحديث ما يأباه العقل أو يصادمه النقل، فلو كانت صحّة الأحاديث وضعفها ووضعها منوطة بالدعاوي الخالية فليقبل قول من يقول: انّ الصحاح موضوعة، وآثار الوضع عليها واضحة، نعوذ بالله من العمىٰ. ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾. وصدق الاسكافي بقوله: حديث الفراش قد ثبت بالتواتر ولا يجحده إلّا مجنون أو غير مخالط لأهل الملّة (المؤلف).

الفصل الثاني عشر
اجعل نفسَكَ ميزاناً

«يَا بُنَيَّ ٱجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَٱكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَٱسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَٱرْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ.

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْاعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ ٱلْأَلْبَابِ، فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ، وَلَا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ، وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ».

* * *

في رسائل الإمام علي عليه السلام، وفي عهوده ووصاياه، وفي خطبه وسائر أقواله روائع خالدة، تناولها من الإنسان جواهراً وغاية، ومن الكون معنىً وشكلاً، ومن أحوال زمانه وأحداث عصره، ودفعها عقله الحكيم إلىٰ خياله وقلبه حقائق علميّة خالصة، فإذا بها لا تمرّ علىٰ خياله الخصب وعاطفته الحارّة، إلّا لتتحرّك وتنمو وتنبعث وفيها امتدادات ونبض وخفوق، فما هي إلّا حياة من الحياة.

وإنّها لتراث عظيم للإنسانية، بوصفها دستوراً جليلاً في الأخلاق الخاصة والعامة، لا تسمو عليه دساتير الأنبياء والمفكّرين والحكماء في مختلف العصور والأمكنة.

ونلفت نظر القرّاء بصورة خاصة إلىٰ فصول هذه الوصية، إلىٰ ما يبدو فيها من الآثار العلوية، من دعوة إلى السلم والمؤاخاة، والتصافي في سبيل الانطلاق إلى الميادين الإنسانية الرحبة، وفي سبيل إكرام الحياة واحترام الأحياء، وأنّه ليجدر بمثيري الحروب اليوم، ومسبّبي ويلات الشعوب والأفراد، أن يسمعوا كلمات جبّار الفكر العربي، عليّ بن أبي طالب عليه السلام ويعوها، ويطأطؤا رؤوسهم لصاحبها العظيم، واليك بعض روائعه في هذا الفصل:

* * *

المساواة في الحب:

قوله عليه السلام: «يَا بُنَيَّ ٱجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَٱكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا».

يريد صلوات الله عليه أن يكون ولده المحبوب، علىٰ أقسط حال مع من يألف معه ويكتنف به، فإنّ أوسط ما يلمّ به الإنسان في حلّه ومرتحله هو نفسه، فإذا جعل نفسه ميزاناً بينه وبين غيره، فبطبع الحال أنّه لا يروقه إلّا الخير والصالح العام لمن أشير إليهم.

وهنالك مغاز شريفة أخلاقية ألمع إليها عليه السلام من انتهاء ذلك إلى الغاية القصوىٰ من مكارم الأخلاق، لأنّ الإنسان إذا علم منه الملأ أنّه يحبّ لأُمّته ما يحبّه لنفسه، فإنّ هناك مجلبة الحبّ الصميم، ومدعاة الاخاء المتواصل.

هل يستطيع إنسان أن يعمل بهذا الحديث الشريف: «لا يؤمن أحدكم حتّىٰ

يحبّ لغيره ما يحبّ لنفسه»[1]؟ ومن الذي ينظر إلىٰ نفسه بالعين التي ينظر بها إلىٰ غيره، ويساوي بين أعزّ الناس عليه، وبين من لا يمتّ إليه بصلة؟

إنّ الحبّ لا يصنع باليد، ولا يهبط على القلب من السماء، بل له بواعث وأسباب خاصة لا تتّصل بالارادة والاختيار، إنّ كثيراً من الأغنياء ينفقون من أموالهم على الخير ولا يحبون أن يموت أحد من الجوع، ولكن لم تبلغ بهم الرحمة والإنسانية أن يحبوا لغيرهم ما يحبّونه لأنفسهم، بل هم يبذلون الألوف لا لشيء إلّا ليقال عنهم أغنياء، يقدرون علىٰ ما يعجز عنه الناس.

إذن مهما كان قصد الغني شريفاً، ومهما رغب في الخير، فإنّه لا يحبّ لأحد ما يحبّ لنفسه، والذي يعمل بهذه النصيحة من حيث يشعر أو لا يشعر، هو الفقير الذي لا تصلح حاله إلّا بصلاح المجتمع، ولا يستطيع أن يتعلّم ويتطبّب ويعمل إلّا إذا كان كلّ من العلم والطب والعمل مضموناً لكلّ فرد على السواء ودون استثناء، وعلىٰ هذا فمعنى الحديث هو النهي عن الاستغلال والطمع، والأمر بالتعاون والتعاضد علىٰ تحقيق العدالة الاجتماعية.

إنّ الله لا يأمر بالحبّ ولا ينهىٰ عن البغض، وإنّما يأمر الإنسان أن يكون في عون أخيه الإنسان، وبرّه ومناصرته التي تبعث على الحبّ، وينهىٰ عن خذلانه واستعباده والاعتداء علىٰ حرّيته الذي يوجب البغض.

* * *

الاحسان للآخرين:

قوله ﷺ: «وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ».

هذه جمل شريفة لذات ما تقدّم به ـ سلام الله عليه ـ من مكارم الأخلاق،

(١) البحار ٧٢: ٢٥٧ ح ٢٠.

وموجبات الفضائل، ومقوّمات عالم الاجتماع، فهي كما أسلفناه ممّا تقمع جذور الظلم، وتكسح جذومه، وتقيم قوائم الاحسان، وترسّخ قواعده، وتسدّد الأمت والأود ممّا يستقبحه الإنسان من نفسه ومن كل أحد.

وأمر عليه السلام أن يتّخذ ولده البار نفسه مقياساً لما يرتضيه لأي إنسان من المحتم أن يعاشره، ويرعى الصلة بين نفسه وبينه.

* * *

لا تقل ما لا تعلم:

قوله عليه السلام: «وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ».

هذا أيضاً تعليم راق للإنسان الكامل، فإنّه ـ سلام الله عليه ـ كان يربأ بمن سمع قيله ووعىٰ عظته، أن يكون مهذاراً يلهج بما لا يعنيه فتفضحه فيما يقول أكذوبته، ويقعد به عن مرتقى الكمال مينه(١).

وقد أدمج عليه السلام في هذا النصح الأبوي عظة أُخرىٰ، فأشار إليه بما هو مزيج نفسيّته الكريمة من التنازل عن الخيلاء، ومساقط الكبر بالاعتراف بقلّة ما عنده من العلم، ولا سيّما إذا اتّخذ من العلم الربوبي مقياساً لما عنده من المعارف، وتتمّة هذه النصيحة هي قوله عليه السلام: «وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ» التي هي لدة صويحباتها من نواميس عالم الاجتماع ومن متمّمات الأُلفة وموجبات الأخاء، لا سيّما إذا عرف المجتمع غير خادش للعواطف الإنسانية، أو مضيع للحقوق البشرية، فهم يصافونه في السرّ والعلانية، ويلقون إليه من أفلاذ أكبادهم ما يغالون به ولا يرخصون، فهو حبيب كلّ من يعرفه بهذه الصفة، وكذلك في كلّ من يتحلّىٰ بما هنالك من ضرائب حميدة، وطقوس تروق الجامعة في الحلّ والمرتحل.

* * *

---

(١) المين: الكذب / لسان العرب.

الاعجاب ضد الصواب:

قوله عليه السلام: «وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْاعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ ٱلْأَلْبَابِ».

أشار ـ سلام الله عليه ـ إلىٰ وخامة العجب المضادّة لكمال النفس.

فأمّا المعجب بما لديه يجعجع به الحال عن تحرّي مراقي السعادة والتقدّم، بحسبان أنّ ما عنده واف لما ينبغي أن يتحرّاه من مناهج الأُمور، فيبقىٰ عاطلاً لا يجد وسيلة إلى التقدّم، ويكون منتهىٰ أمره الخسران، ومقتبل مصيره الفشل.

وهاهنا يستيقن المعجب بعقليّته المُقْعِدَةُ إيّاه عن النهضة إلى السعادة: «إنّ الاعجاب ضدّ الصواب، وآفة الألباب» لملازمته الخمود في العقل، والخمول للنظر في صالح النفس، وأي سقوط في الضرائب أحطّ من هذا، وأي تدهور هو أوضع منه، ولو أنصف المرء لتجلّىٰ لديه أنّ من أوّل السفه تسريب العجب إلىٰ نفسه المحتفّة بالنقائص.

ثمّ هي لا تفتأ من نطفة إلىٰ جيفة، والمبدأ والمنتهىٰ، وهو في الطريق ما بين هذا وذاك يحمل القذارات والجيف، وأمّا إذا اخترمته المنية ـ فأمّا إلىٰ جنّة وأمّا إلىٰ نار ـ ويا حبّذا لو كان منصرم أمره إلى السعادة الرابحة إن تركته تعاسة الحال، وبذاءة المنطق أن يكون مصيره إلىٰ ما يرام، فمن واجبه أن يكون نصب عينه في كلّ حين نصح لقمان لابنه ﴿لا تمشِ في الأرض مرحاً﴾ [الاسراء: ٣٧].

أقسام العُجب:

وهو باعتبار ما يتعلّق به علىٰ أقسام:

منها عجب الشخص بقوته وصحّته، ومنها عجبه بجماله وهيبته، ومنها عجبه بذكائه وفهمه، ومنها عجبه برأيه وفكره، ومنها عجبه بعقله.

فالعجب بهذه الخمسة يرجع إلى العجب بالنفس بلا واسطة بعيدة.

ومنها عجب الشخص بعلمه، ومنها عجبه بتعبّده لله وشكره، ومنها عجبه

بولده وأُسرته، ومنها عجبه بماله ونعمته، ومنها عجبه بنفوذه وسلطته، ومنها عجبه بحسبه ونسبه.

والعجب بهذه الستة يرجع إلى العجب بالنفس إلّا أنّه بواسطة بعيدة، ومفاسد العجب بجميع أقسامه كثيرة، وضرره عظيم.

١ ـ عجب الشخص بقوّته وصحّته:

العجب بالقوّة يسبّب ضرراً علىٰ المعجب بها، لا يختصّ بالصحّة والقوّة بل يعمّ غيرهما، لأنّ الشخص بعد إعجابه بهما تراوده نفسه علىٰ مقابلة ذوي القوّة والنشاط على الفتك بمن ناوأه، تراوده نفسه على السير منفرداً في المهامه والفلوات، تراوده نفسه علىٰ حمل ما يثقل كاهله.

فإن حمل ما يعجزه يؤثر ضرراً في قوّته وصحّته، وإن انفرد بسيره في معارض الخطر قادته جرأته إلى الهلكة بعد ذلك إن قدرت سلامته، وإلّا أهلك نفسه من أوّل مرّة، وإن قابل أهل القوّة والنشاط وفتك بهم عرض نفسه لأُمور أقلّها عداوة من قابله إذا صادفته السلامة، وإلّا فأمّا ضرر في المال أو الجسم أو إتلاف نفسه.

٢ ـ عجب الشخص بجماله وهيبته:

العجب بالجمال يسبّب ضرراً لا يلحق بالجمال إلّا بتوسّط الاضرار بالجسم، لأنّ الجمال من كيفيات خلقة الإنسان لا من حقيقة جسمه، فهو أشبه بالأعراض اللّاحقة للأجسام، فالضرر المسبّب عن إعجاب الشخص بجماله، يرجع إلىٰ جسمه أو ماله أو اتلاف نفسه، لأنّه يجرّه إلى التكبّر والتيه والخيلاء، وضرر هذا معلوم لديك، أو يجرّه إلىٰ التطاول علىٰ فتاة لا يخطر بباله النظر إليها فضلاً عن الاقتران بها لولا إعجابه بجماله، وبهذا يتضرّر في ماله أو جسمه أو اعتباره، وربّما أدّىٰ إلىٰ هلاك نفسه.

٣ ـ عجب الشخص بفهمه وذكائه:

العجب بالفهم يختصّ ضرره بالمعارف غالباً، لأنّ المعجب بفهمه يتّكل عليه، ويعرض عن اشغال نفسه باكتساب المعارف من أهلها، ورشف العذب من مناهلها. فالاعجاب بالفهم سدّ حائل بين ذلك المعجب بفهمه وبين ما يمكنه التوصّل إليه من العلوم والمعارف بحسب استعداده، فلا تثبت له قدم في دائرة المعارف والكمال، وهذا ضرر عظيم.

وربّما أنتج إعجابه بفهمه ضرراً مالياً، إذا كانت مهنته التجارة ولم يقف علىٰ مراد مراسله، أو مالياً واعتبارياً إذا كان من أهل الوظائف والنفوذ ولم يتدبّر الحقيقة فيما يلزمه فهمه، ولولا إعجابه بفهمه انكشفت له الحقيقة بنفسه أو غيره.

٤ ـ عجب الشخص برأيه وفكره:

العجب بالرأي مفسد له، وليس لمعجب برأيه رأي، يتولّد من العجب بالرأي والفكر ضرر كثير يعمّ موارد الضرر، فإذا تصوّر مخاصمة من هو فوقه لا يستشير قريباً أو بعيداً مع إعجابه برأيه، فيتضرّر في ماله وجسمه واعتباره وأُسرته، وكذلك حاله لو حلّت بساحته أزمة مالية أو نكبة سماوية، فالمتدبّر وإن كان سديد الرأي يستشير من يعتقد نصحهم وحسن رأيهم فيما تحسن فيه الاستشارة، ولا يعول علىٰ رأيه وإن جرّبه في الشدائد، والمعجب برأيه يرتّب الآثار علىٰ ما يراه ولا يتصوّر عيوب ما ارتضاه، ويحول العجب بينه وبين الحقيقة ويقع في الضرر العظيم، وربّما أهلك نفسه باعجابه برأيه.

٥ ـ عجب الشخص بعقله:

العجب بالعقل مرض منتشر في غالب النوع الإنساني، وقلّ من يرىٰ امتياز غيره عليه بالعقل، وبذلك اختلفت المسالك والمذاهب مع اتّحاد الحقيقة المطلوبة

عندالعقلاء بحكم العقل عليهم، فالضرر الحاصل من قبل الاعجاب بالعقل في الدين والدنيا تكثرت شعابه، وارتضاه أربابه بعد الغفلة عن السبب وقناعة كلّ فرد بعقله، سبحان الواهب فلو انعكست هذه الآية ورضي كلّ فرد بنعمته، وزاحم غيره في توسعة العقل المكسوب، لكان الإنسان في راحة تامّة ونعمة عامّة في دنياه وآخرته.

٦ ـ عجب الشخص بعلمه:

العجب بالعلم داء العلم وقاتله، وطالما ابتلي أهل العلم بالعجب بعلمهم في كلّ قرنٍ وزمن، والمعجب بعلمه جاهل في حقيقة الأمر وواقعه، محروم من الافادة والاستفادة العلمية، وربّما جرّه إعجابه بعلمه إلىٰ تكبّره علىٰ من هم بمنزلة أساتذته فضلاً عمّن يماثله، وذلك هو الخسران المبين.

ولا يخفىٰ حال المعجب بعلمه علىٰ الألمعي الفطن لدى الاحتكاك، وإن تعدّدت العلوم واختلفت موضوعاتها، وكم معجب بعلمه قاده إعجابه إلى الجهالة وحيرة الضلالة، وهذا هو الضرر الذي لا يتنازع فيه اثنان.

٧ ـ عجب الشخص بتعبّده لله وشكره:

العجب بالعبادة محبط لها، وضرره خاصّ بها، فالعجب بالعبادة يدعها كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف؛ لأنّ العبد مهما اجتهد في خدمة مولاه كان عليه عند العقلاء أن يظهر تقصيره في خدمته وعدم قيامه بوظيفته، وبذلك يكون محموداً عند العقلاء، مقرّباً عند مولاه، وإذا تظاهر بعكس ذلك ذمّه العقلاء، وكان ممقوتاً عند مولاه، علىٰ أنّ غاية نعمة ذلك المولىٰ علىٰ عبده قيامه بنفقته واسترقاقه بثمن رقبته.

وأين هذه النعمة من نعمة ايجاده واخراجه من كتم العدم من ظلمات ثلاث، بشكله الجميل وتركيبه الجليل، من شرايين وأعصاب تداخلت أسلاكها، وتنوّع

جنس افرازها في ذلك الهيكل، لانتاج مظاهر المحسوسات من السمع والبصر، والشم، والذوق، والمد، والقبض في لمس الملموسات، فضلاً عن خصائص مدارك النطق والقوّة الروحية والعقلية من المجرّدات، فتبارك الله أحسن الخالقين.

أنعم سبحانه بما لا تدركه العقول من نعمه، وبما أدركته وأتمّ إنعامه بامتداد الفيوضات، أرضية وسماوية، إتماماً لانتظام الإنسان في كونه الأوّل.

فالطاعة والشكر والعبادة لله سبحانه إنّما هي من نعمه وتوفيقه لعبده، والعقل حاكم بلزوم شكر العبد لمولاه علىٰ شكره له، لأنّ توفيقه للشكر نعمة تستوجب الشكر عليها.

فيا صاحب العبادة والشكر، كيف تعجب بعبادتك وشكرك وترىٰ نفسك أنّك أحسنت مع الله سبحانه صنعاً كأنّك تمنّ على الله بطاعتك له، أغفلت عن قوله سبحانه مخاطباً لرسوله ﷺ:

﴿يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ [الحجرات : ١٧].

وهل غاب عن سمعك قول عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام في حال طاعته وعبادته لله، وهو ساجد في صلاة الليل يتململ تململ السليم، خوفاً ورجاءً في سجوده بين ركعات صلاة الليل وهذا قوله:

«الهي وعزّتك وجلالك لو أنّي منذ بدعت فطرتي من أوّل الدهر، عبدتك دوام خلود ربوبيّتك بكلّ شعرة في كلّ طرفة عين سرمد الأبد بحمد الخلائق أجمعين، لكنت مقصّراً في أداء حقّ شكر خفيّ نعمة من نعمك عليّ، ولو أنّي كربت معادن حديد الدنيا بأنيابي، وحرثت أراضيها بأشفار عيني، وبكيت من خشيتك مثل بحور السماوات دماً وصديداً، لكان ذلك قليلاً في كثير ما يجب من حقّك عليّ، ولو أنّك الهي بعد ذلك عذّبتني بعذاب الخلائق أجمعين، وعظمت للنار خلقي وجسمي، وملأت طبقات جهنّم منّي حتىٰ لا يكون في النار معذّب غيري، ولا لجهنّم حطب

سواي، لكان ذلك بعدلك عليّ قليلاً في كثير ما أستحقّه من عقوبتك، فعفوك يا كريم»[1].

هذا كلام عليّ بن الحسين المعروف بزين العابدين، أبوه الحسين الشهيد بكربلاء، وجدّه رسول الله شفيع الأُمّة وخاتم النبيين، وجدّه الثاني عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين، وقد عبد الله سبحانه حتّىٰ نهكته العبادة، وهو يصرخ بأنّه ما أدّىٰ حقّ المنعم سبحانه، مع تباعده عن حطام الدنيا ونزاهته عن التلوّث بأقذارها بشهادة من والاه وعاداه، وهو المتولّد من ملوك العرب والعجم حتّىٰ قيل فيه:

وإنّ وليداً بين كسرىٰ وهاشم لأكرم من نيطت عليه التمائم

فأبوه وأجداده من قبل الأب مَن عرفت، ومن قبل الأُم الملوك الأكاسرة، ويكفيهم فخراً قول رسول الله ﷺ: «ولدت في زمن الملك العادل»[2]، يعني كسرىٰ أنوشروان.

فهل يا صاحب العبادة والشكر تعظم نفسك وتعجب بعبادتك، بعد وقوفك علىٰ قول هذا الإمام العابد في طاعته لله سبحانه وهو ساجد، أعاذنا الله وإيّاك من داء العجب بأقسامه، ووفّقنا للقيام بشكره وإنعامه.

٨ ـ عجب الشخص بماله ونعمته:

العجب بالمال لا يختصّ ضرره به، بل يعمّ غير المال، لأنّ من دخله الاعجاب بماله أسرع إلى التكبّر، وفيه ما عرفت من أنواع الضرر مالاً واعتباراً وديناً ودنياً، وآخر أمر المعجب بماله خسرانه العظيم.

٩ ـ عجب الشخص بولده وأُسرته:

العجب بالولد والأُسرة يسبّب الضرر غالباً على المعجب بهما إذا انقادوا إليه،

---

(١) البحار ٩٤: ٩٠ ح ٢.

(٢) البحار ١٥: ٢٥٠ ح ١.

وحمله اعجابه بهم على التفوّق والاستطالة والتكبّر والتنمّر حتّىٰ خاض بهم موارد العطب، ومصادر الهلكة، ولا تسأل عمّا يلاقيه من المفاسد والضرر والندامة حيث لا ينفع الندم.

١٠ ـ عجب الشخص بنفوذه وسلطته:

العجب بالنفوذ والسلطة تتولّد منه العجائب، فالبطر والخيلاء والتكبّر والبغي والفساد والتجبّر، كلّ ذلك علىٰ من وسعهم تسلّطه ونفوذه، فباستعباد الموالي لعبيدهم يستخدمهم، وبيد الغزاة الأباعد يبتزهم ما لديهم من نعم الله سبحانه عليهم، حتّىٰ يجعلهم كالأنعام ينتفع بنتائجها، فإن أعوز الأمر فبيع أو جزر وهو في خلال ذلك ينصب الاشراك لتوسيع النفوذ والسلطة في جواره، فارهاب وترغيب بعارض كلمع السراب.

فإن علقت مخالبه بضعيف انتهت أيّامه مزّقه كلّ ممزّق بغياً وظلماً، ولم يدرك بأنّ الله قد أهلك من قبله من هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعاً، فكان بغيه سبباً لهلاكه في مستقبل أمره لأنّ مراتع البغي وخيمة، وإن تعرّض لمن كان علىٰ يده هلاكه كان كالباحث عن حتفه بظلفه، وطالما كان حال أهل العجب والبغي كما قيل فيهم:

صاحب البغي ليس يسلم منه   وعلىٰ نفسه بغى كل باغ

١١ ـ عجب الشخص بحسبه ونسبه:

العجب بالحسب والنسب ينتج التكبّر، وفيه ما قد عرفت من الضرر المهلك، ينتج التجرّد عمّا فيه السعادة، لأنّ المعجبين بأحسابهم يتّكلون عليها، فلا يعرفون من الفضائل والكمالات سوىٰ أسمائها، وأجهل الناس بالحقيقة من افتخر بالعظام البالية، وتبجّح[1] بالقرون الماضية، واتّكل علىٰ الأيام الخالية، ومنتهى الضرر على

(١) تبجّح به: فَخَرَ.

الحيّ اتّكاله علىٰ ميّت، وليس من الكرام من افتخر بالعظام، فعلىٰ أهل الحسب والنسب أن تأبىٰ نفوسهم عن الاتّكال عليها، وأن يقولوا كما قال عبد الله بن جعفر ﵁:

لسنا وإن أحسابنا كرمت يوماً على الاحساب نتّكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

نعم هذا قول ذوي الهمم العالية، والنفوس الكبيرة، وأمّا من تصاغرت نفوسهم، وتدانت شممهم، وتسافلت هممهم، وكانوا في معزل عن كسب الفضائل والكمال، وبُعْدٍ عن الوصول إلىٰ مستوى العلم والعمل، فإنّهم يسلون أنفسهم بما كان لسلفهم من الآثار الخالدة والمزايا الحميدة، ويزاحمون أهل الفضل والكمال بكمال سلفهم، يرون لهم الحياة بمن مات فهو حي وهم الأموات، كما قيل فيهم:

إذا ما الحيّ عاش بعظم ميّت فذاك العظم حي وهو ميت

هذه أقسام العجب، وهذا حال أهله، وكيف كان فهو سمّ ساري أينما حلّ قتل.

عجب المسلمين في غزوة حُنين:

جاء النصّ في القانون الإسلامي علىٰ ذمّ أهل العجب وتوبيخهم بما لا مزيد عليه، فقال سبحانه: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثمّ ولّيتم مدبرين ● ثمّ أنزل الله سكينته علىٰ رسوله وعلى المؤمنين﴾ [التوبة : ٢٥-٢٦].

في هذه الآية الشريفة ألطف بيان، وأعظم برهان علىٰ ذمّ أهل العجب وتوبيخهم، وبيان عاقبة عجبهم بأنفسهم، في ذلك اليوم الذي أعجبتهم فيه كثرتهم، فسرىٰ داء العجب فيمن كان مع رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين إلّا من امتحن الله قلبه للإيمان وخلصت لله أعماله، فانهزم المعجبون بعدتهم وعديدهم كما قال سبحانه: ﴿ثمّ ولّيتم مدبرين﴾.

وأنزل الله سكينته علىٰ رسوله وعلى المؤمنين الثابتين مع رسول الله، بعد أن فرّ أهل العجب ولحقوا بالتلال ورؤوس الجبال، وهم القائلون في ذلك اليوم «لا نُغْلَبُ من قِلّة»، حيث رأوا عظمة ذلك الجيش ولواؤه بيد علي أمير المؤمنين عليه السلام بطل المسلمين وقائد يوم الفتح، بطل العرب والحرب، رأوه وأعلام النصر خافقة عليه بفتحه مكة علىٰ حصانتها ومنعتها بشجاعة قريش وزعامتها.

رأوه بعد ذلك الفتح المبين بأيّام قليلة، وقد انضمّ إليه ألفان من أهل مكة، وكان عشرة آلاف قبل فتحها وليس في قبالته إلّا هوازن وثقيف، ومن هي حتّىٰ تقف في وجه ذلك الجيش، وفي ذلك كلّه تمّت لهم مقدّمات الاعجاب بأنفسهم.

ولما دارت رحى الحرب في ذلك الوادي وخرج الكمين من شعابه، حين دخله المسلمون في غلس الصبح، وما شعروا إلّا والعدوّ خلفهم وأمامهم، فرّ من جاء من أهل مكة لحداثة عهدهم بالاسلام، وضعف ايمانهم، فتبعهم بقية المسلمون لا يلوون علىٰ شيء.

الحيلة في ايجاد الكمين:

وحيلة ايجاد الكمين في شعاب الوادي لقائد هوازن وثقيف في ذلك اليوم ـ وهو مالك بن عوف النصري ـ لأنّ «دريد بن الصمة» سيد بني جشم ومديرها كان مخالفاً لمالك في اخراجه النساء والأطفال إلىٰ ساحة الحرب، فلم يكن له تدبير بعد تركهم لرأيه، فالقائد والمدير لهوازن وثقيف في ذلك اليوم هو مالك، فكان احتياله سبباً لفرار المسلمين بعد أن أعجبتهم كثرتهم.

نعم فرّوا وما ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا عشرة: عليّ بن أبي طالب عليه السلام يضرب بالسيف بين يديه، ويدافع عنه هجوم أبطال هوازن وثقيف، والعباس آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله، والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب بن عبد المطلب،

ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب، وأيمن ابن أُمّ أيمن، كانوا وراء رسول الله وحوله، يدافعون ويناضلون. فالعباس عمّ رسول الله، والبقية أبناء أعمامه، سوىٰ أيمن بن أُمّ أيمن، وقد استشهد في ذلك الموقف، قال عبادة الغافقي:

لم يواس النبي غير بني هـا ... شم عند السيوف يوم حنين
هرب الناس غير تسعة رهط ... فهم يهتفون بالناس أين
ثمّ قاموا مع النبي على الموت ... فآبوا زيناً لنا غير شين
وثوى أيمن الأمين مع القوم ... شهيداً فاعتاض قرّة عين

ولمّا اشتدّت الحرب وزحف أبو جرول برايته السوداء أمام هوازن وثقيف يريد بذلك قتل رسول الله ﷺ، والكتائب خلف رايته تتلوا الكتائب، عاجله بطل المسلمين عليّ بن أبي طالب ﷺ بضربة كان بها هلاكه، وحمل علىٰ تلك الكتائب بما منحه الله سبحانه من القوّة الباهرة والشجاعة المعجزة، فبدّد جمعها، وأخمد نارها، فأنزل الله تعالى سكينته علىٰ رسوله وعلى المؤمنين، وصاح العباس بعظيم صوته: يا معشر الأنصار، فتراجعوا بعد النصرة لرسول الله بمن ثبت معه.

تراجعوا بعد قتل «أبو جرول» بسيف عليّ، وانهزام تلك الكتائب التابعة لحامل رايتها وشجاعتها «أبو جرول»، ولولا قتله لثبتت تلك الكتائب، فأعجب لشجاعة علي ﷺ وبصيرته، كيف علم أنّ انهزام هوازن وثقيف بقتل عميدها وحامل رايتها، فلله أبوه ما كان أولاه برسول الله ﷺ وأشدّه حمية وغيرة على الدين وأهله.

وعلم من دخله الاعجاب في ذلك اليوم اتّكالاً على الكثرة والقوّة، انّ ذلك سبب الوهن والفضل والفرار من الزحف بعد بيعة الرضوان، وفيه من أليم العذاب ما فيه، فهذا ضرر الاعجاب بالنفس، ضرر الاتّكال على الكثرة والقوّة، ضرر عدم التوكّل على الله سبحانه ﴿ومن يتوكّل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق : ٣].

وقال سبحانه: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أُولي الأبصار • ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذّبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار﴾ [الحشر: ٢-٣].

أوّل الحشر هو أوّل اجتماع جيش المسلمين في تلك الوقعة، ولم يكن للمسلمين ظنّ بخروج أعدائهم من ديارهم فضلاً عن تملّكهم إيّاها، فقوله سبحانه: ﴿وظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم﴾ صريح بعجب بني النضير بأنفسهم لمناعة حصونهم، وقوّة شوكتهم بعديدهم وعدّتهم، فعلىٰ ذلك كان اتّكالهم لا علىٰ الله سبحانه، وكيف يتّكلون على الله وهم يحاربون رسول الله، ويتظاهرون علىٰ عداوته ومناوأته، والفتك به بعد ظهور علامات الرسالة لهم، وينقضون ميثاق الله وعهده بعد اليقين.

حال بني النضير مع رسول الله ﷺ:

وإليك بيان حالهم مع رسول الله ﷺ:

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد اسلام الأوس والخزرج، دخل المدينة فجاءه بنو النضير ـ وهم عشيرة من اليهود ـ، فصالحوه علىٰ أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، فقبل ذلك منهم، ولما كانت غزوة بدر وفتح الله علىٰ رسوله وأظهره على المشركين، قال بنو النضير: والله انّه النبيّ الذي وجدنا نعته في التوراة، لا تردّ له راية، فداموا علىٰ عهدهم معه.

وبعد غزوة «أُحد» حيث لم يكن النصر فيها لرسول الله تاماً نقضوا العهد وبدّلوا الميثاق، وخرج عميدهم كعب بن الأشرف إلىٰ مكة في أربعين راكباً منهم، وعقد لهم عهداً مع أبي سفيان بن حرب وأربعين من قريش تحت أستار الكعبة، علىٰ أن تكون كلمتهم واحدة علىٰ حرب رسول الله ﷺ.

ثمّ رجعوا إلى المدينة، وعلم رسول الله بأمرهم ونقضهم لعهده، فخرج إليهم بنفسه وندبهم لاعانته علىٰ أمر يهمّه، فأجابوه إلىٰ طلبه وهو جالس عندهم إلىٰ جانب جدار لهم، وأرسلوا رجلاً منهم ليلقي عليه صخرة من فوق الجدار ليقتله بها بغياً منهم وعدواناً وغدراً ولؤماً، فاطلعه الله علىٰ أمرهم، فتركهم وخرج إلىٰ أصحابه وأمرهم بقتالهم، لأنّهم نقضوا عهد الله مع رسوله وخفروا ذمّته، وهمّوا بما لم ينالوا من قتل رسول الله ﷺ وهو بينهم في منازلهم.

وحينما عزم رسول الله علىٰ حربهم أو قيامهم بما عاهدوا الله عليه، طغوا في غيّهم وأعجبتهم أنفسهم بمناعة حصونهم وقوّة شوكتهم بعديدهم وعدّتهم، فظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله ورسوله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب، فطارت أفئدتهم خوفاً وشاهدوا أليم العذاب من نار سيوف المؤمنين بالله ورسوله، وقتل عميدهم كعب بن الأشرف بيد أخيه من الرضاعة «محمّد بن مسلمة» وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فصالحوا رسول الله علىٰ حقن دمائهم بخروجهم من أرضهم وديارهم فخرجوا إلى الشامات وخيبر.

ولولا أن كتب الله سبحانه عليهم في سابق علمه وقدره الجلاء من بلادهم إذا كفروا بالله وأبوا شكر نعمه عليهم، لعذّبهم بسيوف المؤمنين في الدنيا، ولكنّه أعدّ لهم في الآخرة عذاب النار.

فهذه آثار العجب بالنفس والاغترار بالقوّة والعدد والعدّة، ولولا ذلك لكانت ديارهم عامرة بهم، وهم آمنون في جوار رسول الله ﷺ.

خطاب الله لداود ﵇:

وقال سبحانه فيما نزل في الأسفار الربانية علىٰ الأنبياء السابقين ـ عليهم سلام الله ـ مخاطباً لنبيّه داود ﵇: «يا داود بشّر المذنبين وأنذر الصدّيقين، قال: كيف أبشر

المذنبين وأنذر الصدّيقين؟ قال سبحانه: يا داود بشّر المذنبين انّي أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصدّيقين أن لا يعجبوا بأعمالهم»[١].

ولا يخفىٰ ما في هذا الحديث القدسي من البيان، فإنّ المذنب إذا تاب وأطاع عفا الله عنه، وكان في رحمة الله وبركاته، وإنّ المصدّق بما جاء عن الله، العامل بما أمره الله به إذا دخله العجب بعمله كان عاصياً بعد الطاعة، كافراً بالنعمة بعد شكره لها، وهذا هو الخسران العظيم.

ثلاث مهلكات:

وقال صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأمين محمّد ﷺ: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوىٰ متّبع، واعجاب المرء بنفسه»[٢].

وفي الكافي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما موسى بن عمران جالس، إذ أقبل إبليس وعليه برنس ذو ألوان، فلمّا دنا من موسىٰ خلع البرنس وتقدّم إلىٰ موسىٰ فسلّم عليه، فقال له موسىٰ: من أنت؟ قال: إبليس، قال: أنت هو؟ فلا قرّب الله دارك، قال: إنّي إنّما جئتك لأسلّم عليك لمكانك من الله، فقال له موسىٰ: فما هذا البرنس؟ قال: به أختطف قلوب بني آدم، فقال له موسىٰ: فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه، قال: إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، وصغر في عينه ذنبه»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «لولم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك، العجب العجب»[٤].

وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «سيّئة تسوؤك خير من حسنة تعجبك»[٥].

---

(١) البحار ١٤: ٤٠ ح٢٢.
(٢) البحار ٧٢: ٣٢١ ح٣٧.
(٣) البحار ٦٣: ٢٥٩ ح١٣٤.
(٤) البحار ٧٢: ٣٢٩ ح١٢.
(٥) البحار ٧٢: ٣١٦ ح٢٥.

لأنّ العبد إذا صدرت منه السيئة وساءته فقد ندم عليها وتاب وأناب، وإذا صدرت منه الحسنة وأعجبته فقد منّ على الله سبحانه بإطاعته له، وهذا هو العجب، ولا ريب في كون الحالة الأُولىٰ خير من الثانية، لأنّ الأُولىٰ طاعة والثانية معصية.

وقال ابن مسعود ﷺ: «الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب»[1].

ولا يخفىٰ ما في القنوط والعجب من الهلاك لمن اتّصف بهما أو بأحدهما، لأنّ القنوط من رحمة الله وعفوه ومغفرته، يحمل صاحبه علىٰ ارتكاب كلّ معصية والتظاهر بها، والعجب في حدّ ذاته معصية ويجرّ صاحبه إلى المعاصي.

العجب من أفعال القلب ولا ربط له بالجوارح، والقلب في الإنسان هو أعظم ما وجد فيه، وعليه وبه مدار حركة الإنسان.

فالذنوب الصادرة من الجوارح في الإنسان يمكنه التخلّص منها بواسطة القلب، فإنّ التوبة المزيلة لتبعات الذنوب من الأفعال القلبية، وباب التخلّص من تبعات الذنوب مفتوح بواسطة القلب، فإذا صدر الذنب من القلب ـ وهو العضو الرئيسي في جامعة حركة الهيكل الإنساني ـ أشكل زواله، وصعب التخلّص منه.

وهذا في الأُمور الخارجية المشاهدة محسوس لكلّ عاقل، فإنّ رئيس البيت أو المدينة إذا استقام في سيره، واتّصف بالصفات الكاملة كان حال من وسعتهم رئاسته الاقتداء به في صفاته، فإن خالفه منهم أحد أمكنه ردعه ونهيه وكان قوله مؤثراً، وأمّا إذا اتّصف الرئيس بالصفات الخسيسة والأفعال القبيحة، فما ظنّك بمن تبعه وانقاد إليه، ورأى الكمال بحسن الانقياد إليه والتأسّي به، فهو لا ريب في جريه علىٰ منواله وتبعية حاله لحاله.

ولا يمكن ذلك الرئيس أن ينهاه عن قبيح يرتكبه، وكيف ينهاه عن قبيح هو يرتكبه، وهل يؤثر نهيه عن شيء هو يفعله، فحال القلب في رئاسته علىٰ بقية

(١) احياء العلوم ٣: ٣٤٦ / في ذم العجب وآفاته.

الجوارح كذلك، والعجب من أفعاله.

فعلى البصير العاقل أن يعلم أنّ ما يعجبه من قوّته، وجماله، وفهمه، وفكره، وعقله، وعلمه، وتعبّده، وماله، وأسرته، وسلطته، وحسبه، وغير ذلك ممّا يعجبه، نعم عليه أن يعلم انّ كلّ ما يعجبه عرضة للزوال والفناء، فكم أباد الدهر أهل الحسب، وجعل الملوك عبيداً، وصاحب الولد والأُسرة فرداً، والغني فقيراً، وصاحب العبادة والزهد فاسقاً مارقاً، وصاحب العلم بعد العمل جاهلاً ضالّاً، والعاقل مجنوناً، والمفكّر حائراً، وصاحب الجمال ذميماً، والقوي ضعيفاً نحيفاً. أليس كلّ ذلك محسوساً ملموساً، فهل بعد هذا يا صاحب العقل تكون معجباً بشيء بقاءه وزواله ليس بيدك بل بيد الله سبحانه.

اللّهمّ خلّصنا من هذا الداء العظيم، ونجّنا من كلّ ما يحبط أعمالنا، وألهمنا السعي وراء الحقيقة، والعمل بما يرضيك، إنّك رؤوف بالعباد وإنّك أرحم الراحمين.

* * *

الجدّ في العمل:

قوله عليه السلام: «فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ».

هذا أمر منه عليه السلام بما يضاد ما ذكرناه من ملازمة الاعجاب للفتور في العمل، والسير مع موجبات التقدّم، فإنّ الكدح في اللغة: السعي الشديد، وهو أمّا في القول أو في العمل.

أمّا القول فبأن يكون الإنسان لهجاً بمناجح الأُمور، آمراً لها ناهياً عمّا يضادها ويصدّ عنها، وأمّا في العمل فبأن يكون مجدّاً في السعي وراء صالح الأعمال، ويسدّد بها شأنه، ويحفظ بها كرامته عند الله وعند الناس، فإنّه أحفظ للعزّة، وأبقى للوقار وأدوم للمكانة.

فقد كان أئمّة الدين عليهم السلام يمتهنون بالتجارة والعمل، حتّىٰ أنّ الإمام علي عليه السلام

مجلت يداه من العمل بالمسحاة، وكذلك الإمام الصادق ﷺ انّه كان بيده مسحاة يعمل في حائط له والعرق يتصبّب، فقال له أبو عمر الشيباني: جعلت فداك اعطني أكفك، فقال له ﷺ: إنّي أحبّ أن يتأذّى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة(١)، وأمثال هذا مأثور عنهم بطرق متكثّرة.

وهل لهذا التعليم الراقي ـ أي قوله ﷺ: «فاسع في كدحك» ـ مستقىً إلّا من معين النبوّة، الذي هو مبدأ تعاليم الإمام ﷺ إذ يقول ﷺ: «إعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً»(٢).

وهذا الذي ذكرناه من معنىً نبوي، هو الذي يجب أن يفهم من معنى الكلام، كما جنح إليه غير واحد من الأعلام، لا كما حسبه القاصرون من أنّه أمر بالمسامحة في أُمور الدنيا والزهد في زخارفها، نعم الزهد ممّا حثّ عليه الإسلام، ورغّب فيه، لكن ليس معناه أن لا يملك الإنسان شيئاً، وإنّما هو أن لا يملكه شيء، فيجب أن يكون الزاهد عالماً يضع كلّ شيء في موضعه، لا جاهلاً كحاطب ليل يضمّ الدرّة إلى البعرة، فالزهد والحالة هذه ينتهي بصاحبه إلى العطل والبطالة، ويصدّه عن التقدّم والبطولة.

* * *

قوله ﷺ: «وَلَا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ».

يريد ﷺ نهيه عن أن يكون حظّه من المال محض السدانة، من غير أن يصرفه في مراضي المولىٰ سبحانه فيتنعّم به الورثة، وقد يؤجرون بصرفه فيما يحب الله ويرضىٰ، وهو مأزور بشحّه عن الانفاق في سبيل الله، فهو يوم القيامة من أشدّ الناس حسرةً.

* * *

(١) البحار ٤٧ : ٥٧ ح ١٠١.
(٢) البحار ٤٤ : ١٣٩ ضمن حديث ٦.

الخشوع لله:

قوله ﷺ: «وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ».

يريد ﷺ أن يكون سعيه مشغوفاً بالمراقبة، وأن يكون مزيج عمله مرضاة ربّه، وذلك ملازم للخشوع الذي لا يعدو الإنسان معه أن يكون خاضعاً لعظمة الربّ، خائفاً من بطشه، طامعاً في عطفه، وهذه هي الخصال التي لا تبارح الإنسان العامل في حلّه ومرتحله.

الفصل الثالث عشر
الاستعداد لما بَعد الموت

«وَٱعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لَا غِنَىٰ بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ ٱلْارْتِيَادِ، وَقَدْرِ بَلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَىٰ ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذٰلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ ٱلْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ. وَٱغْتَنِمْ مَنِ ٱسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ.

وَٱعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَؤُوداً، ٱلْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ ٱلْمُثْقِلِ، وَٱلْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ ٱلْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ إِمَّا عَلَىٰ جَنَّةٍ أَوْ عَلَىٰ نَارٍ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّئِ ٱلْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ، وَلَا إِلَىٰ الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ».

* * *

إنّه عليه السلام ينصحه محبّاً له مؤثراً إيّاه بأن يذكّره بالطريق الذي هو مقبل عليه،

ويذكّره ببعد هذا الطريق واعوجاجه والتوائه علىٰ سالكه مع قلّة الماء، وقلّة الزاد، وعدم النور.

فعليك يا بني أن تروض نفسك، وتحمل عبئك علىٰ غاربك، وأن تلحب[1] لنفسك السبيل لتقطعها سهلة منبسطة، لا تقف دونك رابية، ولا تطمس رجلك في وحل.

فبادر إلىٰ حسن الارتياد وإجادة الطلب، وتعيين الزاد الذي يكفيك مؤونة الطريق، شريطة أن يكون خفيفاً لا ترزح[2] تحت أثقاله، فيكون ذلك الزاد الذي ظننته زاداً وبالاً عليك، إذ يقعد بك عن التقدّم في السير شيئاً، أوالجدّ في الحركة قليلاً.

وإن أبيت إلّا أن تكثر من الزاد فاستعن بمن تجده من ذوي الفاقة والعوز، ممّن له إليك أمسّ الحاجة، فاعطه سؤله، وانجح طلبته، فسيقدّم لك ما قدّمته إليه أضعافاً مضاعفة، في يوم قد أضلّك فيه الفقر والحاجة، وبسط عليك رواقه.

أي بني الصبر الصبر، ثمّ العمل العمل، والقناعة القناعة، فإنّ الصبر من الايمان ولا فائدة في ايمان بلا صبر، وإنّما العمل مجلبة للرزق، وانّه لمؤدٍّ إلى الثواب الجزيل المتّصل، وإنّما القناعة كنز ليس له فناء، وذخر ليس مثله ذخر.

ودونك الاغاثة والاعانة، فبادر إلىٰ اعانة من هو في حاجة إليها، وأكثر من ذلك إن كنت في حال ترتع فيه بسوابغ العيش راغداً، ليكون ذلك ذخراً تدّخره ليوم لا ينفع فيها إلّا ما أسديته من يد، وما عملته من صنع، وإنّك في حال قد أطبق عليها الفقر وأظلّها بأجنحة سود، أمسّ ما تكون حاجة إلىٰ من يمد إليك يد المعونة، وإذا بذلك الذي استقرضك في حال غناك واستدانك إذ كنت علىٰ جانب من اليسار، يتقدّم إليك باليد المسبغة عليه.

---

(١) اللّحب: الطريق الواضح.

(٢) رزح يرزح: سقط من الاعياء هُزالاً.

أي بني وإيّاك والقبيح، وإيّاك والاساءة إلى الناس، فإنّ في عمل القبيح لشرّاً عظيماً، وإنّ في الاساءة إلى الناس لظلماً لا يطاق، ودونك سبيل المعروف فاسلكه، فاعمل إلى الناس خيراً ترىٰ منهم خيراً، ولا تسيء إليهم فيتحيّنون لك الفرص، ويتربّصون بك طاقتهم وقدرتهم، ليردّوا عن أنفسهم الشرّ إلىٰ حيث صدر منه.

ولتعلم أنّ أمامك عقبة كؤود، ليس من اجتيازها بد، وليس عنها من محيص، فقد تكون عندها مخفاً، وقد تكون مثقلاً، وأرىٰ أن لو كنت مخفّاً لكان ذلك خيراً لك من أن تكون مثقلاً، فإن كنت عندها مثقلاً فالويل كلّ الويل، والثبور كلّ الثبور، فيكون الندم علىٰ الأيّام السالفة التي مضت من غير نفع ولا تقديم زاد.

فيكون الندم الشديد ولات ساعة مندم، أو يجدي الندم شيئاً بعد أن يلقي الإنسان بنفسه إلى التهلكة، ويوقع نفسه في مهاوي الهلكة، فهناك يود لو عاد إلى الدنيا فاستدرك من أمره ما فات، وتلافىٰ من أمره ما انقضىٰ، وأبدل شرّه بالخير، وإساءته بالاحسان، ولكنّها كلمة لا تكون، فليس الله بمرجع إيّاه إلىٰ دنياه لعلّه يعمل صالحاً فهي كلمة هو قائلها، وليس إليها من سبيل، وكيف السبيل إلىٰ ذلك وقد حان الحين، وآن الأوان، وقدّم إلىٰ ربّه ليحاسبه حساباً شديداً علىٰ كلّ ما أتىٰ من الأمر مهما كان ضئيلاً.

وهل يستطيع الهرب وليس هناك من مهرب، ولا إلىٰ غيره من ملجأ، وكيف ذلك وإنّ هناك لحرساً شديداً، وجنوداً لا عداد لها، فها هو ذا واقف مستخذٍ ذليل خاضع، مهطع رأسه، شاخص بعينيه، تضيق به نفسه ويضيق بنفسه، ولكنّه معها لا يفارقها حتّىٰ ولو أنهىٰ حسابه، فإمّا عذاب شديد وإمّا نعيم مقيم.

وإنّ هناك لصراطاً دقيقاً غاية في الدقة، ولابدّ من اجتيازه فهو مؤدٍ إمّا إلىٰ جنّة وإمّا إلىٰ نار، فلكلّ ما أعطي، وعلىٰ كلّ ما اقترف.

والويل لمن كان نصيبه النار يهوي إليها ليلبث هناك في قعرها ملوماً مدحوراً، يدعو ربّه فلا يجد من مجيب، وينشده الرحمة فلا يجد إلىٰ سؤله من معط، وليست

الساعة ساعة رحمة وإشفاق، فما يعمل معه إلّا ما أراد لنفسه ولم يعط إلّا ما رضي به لنفسه.

فإليك أتقدّم يا بني ناصحاً، وإليك أُقدّم عظاتي المعبّرة عن مدىٰ اشتباك وشيجة الحبّ ما بينك وبيني، فإذاكنت مصغياً، ولكلامي واعياً، فارتدّ لنفسك قبل أن تصل مثل حراجة ذلك الموقف، ووطّئ منزلك واجعله سهلاً بسيطاً قبل أن تحلّ فيه، فأنت إذا متّ وفارقتك الحياة، وزايلتك روحك، فلست إلّا جسماً لا حركة فيه ولا نأمة، لا يجلب لنفسه منفعة ولا يدفع عن نفسه ضرّاً.

وإنّ روحك لترقىٰ في السماء وسترىٰ ما قدّمت لذاتها إن إحسان فإحسان، وإن إساءة فإساءة، فانصرف نحو تربيتها، وجدّ في تطهيرها، فإنّ الخطاب الإلهي موجّه إليها ومختصّ بها، ليس إلىٰ شيء غيرها، يقول تعالى: ﴿يا أيّتها النفس المطمئنّة ● ارجعي إلىٰ ربّك راضيةً مرضيةً﴾ [الفجر : ٢٧و٢٨]، ويقول تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها ● وقد خاب من دسّاها﴾ [الشمس : ٩و١٠].

فلا تهملها ولا تغفل عنها وانشلها من كلّ ما يشين ويحطّ بكرامتها فإنّها علوية سماوية، فاكسها حلّة الكمال، واخلع عنها ثوب الخسّة، وصنها عن البذاءة والفحش، فإنّ الله حرّم الجنّة علىٰ كلّ فحّاش بذيء لا يبالي ما قال ولا ما قيل له. قال رسول الله ﷺ: «إيّاكم والفحش فإنّ الله لا يحبّ الفحش والتفحّش»[1].

وقد نصّ القانون الإسلامي علىٰ قبح الفحش قولاً وفعلاً، وذمّ أهله ووبّخهم بما لا مزيد عليه.

معنى الفحش:

الفحش قولاً هو العدوان بالجواب، ورجل فاحش وفحّاش، قال الفحش ـ أي استعمل العدوان في قوله ـ وتطلق الفاحشة على الزنا وعلى الزانية، وعلىٰ ما

---

(١) البحار ٧٣: ٣٠٣ ح ١٦.

يشتدّ قبحه من الذنوب، وكلّ شيء نهى الله عنه ففعله فاحشة، والفحشاء البخل في خصوص أداء الزكاة، والفاحش كثير البخل. ويطلق علىٰ كلّ سوء جاوز الحد، وفحش فحشاً مثل قبح قبحاً وَزْناً ومعنىً.

قال في نهاية اللغة: قد تكرّر ذكر الفحش والفاحشة والفواحش في الحديث، وهي كلّما يشتدّ قبحه من الذنوب والمعاصي، وقد يكون الفحش بمعنى الزيادة والكثرة المطلقة من كلّ شيء[1].

الفحش بالقول وأسبابه:

الفحش بالقول قبيح عند العقلاء، وصاحبه مذموم عندهم، وسببه ضعف المدارك، وخساسة النفس، واستحكام الجهل، فإذا صدر من الشخص فحش بقوله ولم يجد رادعاً عنه، كانت له جرأة علىٰ ذلك، وإذا وجد من يزيّن له تحسين القبيح، كانت له جرأة ورغبة على العدوان بقوله، وإذا رأىٰ غيره متّصفاً بذلك الفحش، لا سيّما من كان فوقه ثبت عنده حسن فحشه، حتّىٰ أنّه بعد التمرّن عليه يكون صفة ثابتة في طبعه، ومزيّة يرتضيها بعقله، ولولا تلك الأسباب البسيطة التي مرّت، كان بين طبع الإنسان وبين صدور القبيح منه فضلاً عن ثبوته فيه كما بين السماء والأرض.

ضرر الفحش بالقول وما يتولّد منه:

يتولّد من الفحش بالقول أُمور كثيرة زائدة عن المجازات الربانية، والعقوبات الأُخروية:

منها: مقابلته بالمثل، وفيها من الأذيّة والضرر ما فيها، لا سيّما إذا قابله من هو دونه في المنزلة.

(١) النهاية ٣: ٤١٥ / فحش.

ومنها: ضربه أو حبسه أو إبعاده تأديباً له علىٰ فحشه، إذا صدر منه الفحش مع من هو فوقه وهذا ضرر ظاهر.

ومنها: اتلاف ماله تأديباً له في مجازاته علىٰ فحشه.

ومنها: اتلاف نفسه جزاءً له علىٰ فحشه فيما إذا كان فحشه مع الأُمراء والملوك، لأنّ تجاوز الحدود عندهم بالأقوال أعظم من قتل النفوس وسلب الأموال، وجراحات اللسان أعظم عند العقلاء من جراحات السنان، كما قيل:

جراحات السنان لها التيام ولا يلتام ما جَرَحَ اللسان

هذا إذا كان تعدّيه وفحشه بقوله علىٰ من هو فوقه، وأمّا إذا كان تعدّيه وفحشه علىٰ من هو دونه كان فحشه موجباً لحقدهم عليه، وغرساً في نفوسهم يستثمرونه عند الفرصة، فكم جرت الويلات بعض الكلمات حيث قالها من لو تدبّرها لودّ قطع لسانه قبل النطق بها، لأنّ قلب الجاهل وراء لسانه، ولذلك لا يمرّ علىٰ قلبه ما يلقيه من لسانه، فهو يقول ولا يعلم ما يقول.

والعاقل لسانه وراء قلبه، فهو يزن كلامه بميزان المعرفة، وينظر إليه بنور العقل، وإنّك لتنظر إلىٰ من لا تعرفه، بنظر الوقار والاحترام والاحتشام، حتّىٰ إذا تكلّم، فامّا أن يرتفع بكلامه إلىٰ أوج الكرامة أو ينزل إلىٰ حضيض المهانة، «فالمرء مخبوء تحت طيّ لسانه لا تحت طيلسانه».

لسان الفتىٰ نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلّا صورة اللحم والدم

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «تكلّموا تعرفوا، فإنّ المرء مخبوء تحت لسانه»[1].

وقال عليه السلام: «الكلام في وثاقك ما لم تتكلّم به، فإذا تكلّمت به صرت في وثاقه، فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك، فربّ كلمة سلبت نعمة»[2].

---

(١) البحار ٧١: ٢٩١ ضمن حديث ٦٢.

(٢) البحار ٧١: ٢٨٦ ضمن حديث ٤١.

قصة عمرو بن هند:

إنّ من تصفّح سير الماضين، علم مصداق قول أمير المؤمنين ﷺ: «فربّ كلمة سلبت نعمة»[1]. نعم فكم سلب الكلام النعم، وجرّ النقم، وذهب بالنفوس العزيزة، وإليك بعض مصاديقه، ولا تخفىٰ عليك النظائر والأشباه.

كان عمرو بن هند ملكاً في العراق، انتظمت له البلاد، وانقادت له الناس، وكان كغيره من ذوي النعمة والسلطة، يظهر العظمة والافتخار، والتفرّد والأنانية، فجرّه ذلك إلىٰ كلمة سلبت نعمته وذهبت بنفسه.

إنّ عمرو بن هند قال يوم لندمائه: هل تعلمون أنّ أحداً أُمّه تأنف من خدمة أُمّي، فقالوا: نعم، أُم عمرو بن كلثوم، قال: ولم؟ قالوا: لأنّ أباها مهلهل بن ربيعة، وعمّها كليب بن وائل أعزّ العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو وهو سيّد قومه.

فأرسل عمرو بن هند إلىٰ عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أُمّه أُمّه، فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب، وأقبلت معه أُمّه ليلىٰ بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب، وكان قد أمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلىٰ وجوه أهل مملكته فحضروا.

فدخل عمرو بن كلثوم علىٰ عمرو بن هند في رواقه، ودخلت ليلى عند هند في قبّة من جانب الرواق، وكانت هند عمّة امرؤ القيس بن حجر الشاعر، وكانت أُمّ ليلىٰ بنت مهلهل بنت أخي فاطمة بنت ربيعة، التي هي أُمّ امرئ القيس، فبينهما هذا النسب، وقد كان عمرو بن هند أمر أُمّه أن تنحّي الخدم إذا دعا بالطرف وتستخدم ليلى.

فدعا عمرو بمائدته ثمّ دعا بالطرف، فقالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطبق، فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلىٰ حاجتها، فأعادت عليها وألحّت، فصاحت

(١) البحار ٧١: ٢٨٧ ضمن حديث ٤٣.

ليلى: يا ذلّاه يا لتغلب، فسمعها ابنها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه، ونظر إلىٰ عمرو بن هند فعرف الشرّ في وجهه، فوثب عمرو بن كلثوم إلىٰ سيف لعمرو بن هند معلّق بالرواق ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند فبراها ونادىٰ في بني تغلب فانتهبوا ما في الرواق، وساقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة.

فانظر إلىٰ قوله: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أُمّه من خدمة أُمّي، كيف جرّت تلك الكلمة حماسه الشديد إلىٰ دعوة عمرو بن كلثوم، ليستخدم أُمّه وهي في ضيافته، واستخدام الضيف معيب عند العقلاء، كيف جرت تلك الكلمة ذهاب نفسه، وزوال نعمته، وإدخال الرزية والبلية علىٰ أُسرته.

ولو راجعت سيرة أبناء نوعك الإنساني في كلّ زمان ومكان لعلمت الكثير من أمثال هذه القضية، ولعرفت ما للكلام الفاحش من الرداءة والخساسة، وتسبيب العداوة والعثرات التي لا تقال.

لسانك احفظه وصن نطقه	واحذر علىٰ نفسك من عثرته
من أطلق القول بلا مهلة	لا شكّ أن يعثر في عجلته

وغير خفي عليك ما لحسن الكلام وعذوبته ورقّته ولطفه من التودّد والمحبّة واستمالة القلوب واستخدامها.

لا نرتاب في استخدام القلوب بحسن الحديث وطيب الكلام، إذا ترجمه اللسان عن قلب طاهر غير مقلوب، لأنّ اللسان ترجمان القلب وما يخرج عن القلب يدخل في القلب، ولا تستخدم القلوب بزخرفة الألفاظ وتحسينها، وعذوبة البيان إذا كان ما في القلب سمّاً ذعافاً، وكانت تلك العذوبة من دائرة اللسان فقط وقد خالفت ما في القلب، لأنّ ما كان عن خصوص اللسان لا يتجاوز الآذان.

الفحش بالفعل وأسبابه:

الفحش بالفعل يتّصف به صاحبه إذا فعل ما يشتدّ قبحه من المعاصي التي نهى

الله سبحانه عنها، وقد حرّم الله الفواحش كلّها ما ظهر منها وما بطن ـ أي ما تظاهر بها فاعلها وما تستّر بها ـ فكلّ فعل يحكم الشرع والعقل بقبحه ففعله فاحشة من فاعله.

أسباب ارتكاب العقلاء للفواحش أمور:

منها: الجهل بقبح ذلك الفعل القبيح، فلا يعلم فاعله تقبيح العقلاء لذلك الفعل ولومهم وذمّهم لفاعله، ولا يعلم قبحه عند الله سبحانه الذي شرّع الشرائع وأمر بكلّ فعل حسن، ونهىٰ عن كلّ فعل قبيح، ولا يعلم غضب الله وعذابه علىٰ من يفعل ذلك، وكان ذلك الفعل علىٰ وفق شهوته فصدر منه فعله. فهذا لا مجال للومه ولا لعقابه إذا ترك ذلك الفعل حين علمه بقبحه عند العقلاء وعند الله سبحانه، والترك قبل الاعتياد سهل، وأمّا الاعتياد فإنّه وإن علم قبحه عند الله وعند العقلاء، وعلم أنّه سيعذّب عليه العذاب الأليم، هيهات أن يتركه بعد الاعتياد إلّا أن يكون موفقاً بعزم وحزم وارادة قوية، فإنّه يتركه بلا توقّف في تركه حين عِلْمِهِ بقبحه.

ومنها: انقياد الشخص لمن هو فوقه، وتبعيّته لأقواله وأفعاله التي منها فعل المتبوع للفواحش واستحسانه لفعلها وتأنيبه علىٰ تركها، فما ظنّك بمن يقتدي بشخص يراه لجهله تمثال الكمال وهيكل الفضائل، هل يستحسن إلّا اقتفاء أثره وتطبيق فعله علىٰ فعله، وإن كان فعل المتبوع منتهى الفحش، وغاية الرداءة، والموبق العظيم، وسبب العذاب الأليم، وربّما غالط التابع نفسه إذا كان عالماً بقبح فعل من الأفعال ثمّ صدر ذلك الفعل ممّن هو عنده القدوة والمرجع.

وهذا هيهات أن يمتنع عن ارتكاب ذلك الفعل القبيح بعد ارتكاب المتبوع له، بل يلتزم بتصوير الاحتمالات المنافية لما علمه من قبح ذلك الفعل، حتّىٰ لا يظنّ بمتبوعه ارتكاب الفواحش، ولا الانغماس فيما حرّمه الله تعالى إلّا أن يكون ذلك

التابع مستضيئاً بنور العقل، متغذياً بحلاوة الفهم والعلم، فإنّه يقف حينئذٍ موقف المبهوت، ثمّ ينسلخ عن ذلك المتبوع، ويعلم أنّه لا خير في متبوع يقود تابعه إلىٰ سوء وهلكة، ويعلم أنّه لا عذر له عند الله وعند العقلاء بانقياده لمن يرتكب ما بان قبحه وظهر فحشه، لكن المنتبه إلىٰ زلّة قائده قليل، والناس في غفلة إلّا أهل البصائر.

ومنها: غلبة الرهبة بالسلطة والأكثرية علىٰ بعض الأفراد، فيما إذا انفرد بهم الأشرار المتظاهرون بفعل الفواحش المدمنون عليها، الراغبون بدخول غيرهم في سلكهم تكثيراً لحزبهم وإرضاءً لأنفسهم، ولا مناص لمن خالطهم عن التقحّم في أودية الرذائل والتلوّث بأقذار الفواحش، وإن كان يعلم قبحها، وهذا طريق نجاته الفرار منهم لأوّل مرّة خوفاً من تسميم أفكاره، وتوطين نفسه بعد الاعتياد علىٰ ارتكاب تلك القبائح والفواحش.

يتولّد من فعل الفاحشة أُمور ضرورية:

منها: اتّصاف الفاعل بصفة الفحش حتّىٰ إذا عرف بها كانت له شعاراً وسبة وعاراً، وفي ذلك ضرر عظيم عليه، وبلاء مبرم علىٰ عقبه وأُسرته.

ومنها: إهانته من ولاة أمره أو ولاة الأُمور العامة، وضربه وحبسه وإبعاده وتشهيره، وهذا ضرر لا يخفىٰ علىٰ أحد.

ومنها: خسارة ماله أو ذهاب نفسه فيما إذا ارتكب من الفواحش ما يوجب ذلك، فعلىٰ مقدار الجناية يكون القصاص، ألم تر كيف حال أهل الفواحش من تقلّبهم في السجون وذهاب أموالهم، وتبدّل غضارة شبابهم بحواني الهموم في ظلمات الحبوس، وفي ذلك ضرر عظيم.

وليس له ثمن ولا عوض سوىٰ أعمال الشهوة الحيوانية، ونيل لذّة بسيطة ليست شيئاً مذكوراً في جانب الضرر الدنيوي، وهو ليس شيئاً مذكوراً في جانب الضرر الأُخروي، فاعمال الشهوات بطرق العدوان سبب الندامة والحسرة، سبب

الهلاك وزوال النعمة، فكم سبب أعمال الشهوات، والتمتّع في خسيس اللذات، إعدام الاعتبار والثروة والقوّة والسلطة، والنفس والنفيس.

أليس ارتكاب الفواحش والمحرّمات كانت السبب في هلاك الأُمم السالفة بالطوفان، والمسخ، والصيحة، والخسف، وجميع أنواع العقوبات السماوية، وما زالت غضارة عيش عن قوم، إلّا بارتكابهم الفواحش وانتهاكهم المحرّمات.

قال الله سبحانه مبيّناً لعباده: **﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتىٰ يغيّروا ما بأنفسهم﴾** [الرعد : ١١]، والمعنىٰ أنّه سبحانه لا يغيّر النعمة عن قوم حتىٰ يغيّروا ما بأنفسهم، فيبدّلون شكران النعمة بكفرانها، والطاعة بالمعصية.

وقال سبحانه: **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميراً﴾** [الاسراء : ١٦].

والمعنىٰ أنّه لا يقع الهلاك والدمار بقرية إلّا بعد انذارها، وأمره سبحانه لأهلها بالطاعة فيما فيه صلاحهم، فيتوجّه أمره ونهيه سبحانه لعموم أهل القرية، فتصيب الأوامر والنواهي الأغنياء أكثر من الفقراء، لأنّ الأمر بالزكاة والخمس والحج وإعانة الضعفاء وصلة الرحم بالمال، والوفاء بالعقود، إنّما ستوجّه إلىٰ الأغنياء دون الفقراء، وبما أنّ أكثر الأوامر والنواهي تتوجّه إلىٰ الأغنياء، خصّهم سبحانه في هذه الآية بالذكر فقال: **﴿أمرنا مترفيها﴾** أي أغنياءها، ولأنّ الأغنياء توفّرت لديهم أسباب الفسق من شرب الخمور والزنا والبغي والعجب واللهو عن أداء العبادات، فيصحّ لهذه المناسبة تخصيصهم بالذكر في الآية الشريفة.

وإذا فعل الأغنياء الفواحش فقد فسقوا في تلك القرية، وإنّما يحقّ القول على القرية كلّها بالدمار والهلاك إذا رضي الفقراء بعمل الأغنياء، لأنّهم لابدّ من علمهم بفسق الأغنياء، فإذا رضوا بعملهم فقد شاركوهم فيه، لأنّ من رضي بعمل قوم كان منهم، وبهذا البيان يرتفع الاشكال.

وإليك ذكر قضية واحدة كان سببها فعل الفواحش وأهمّها شرب الخمر،

أولدت حرباً ضروساً وغارة شعواء، وما وضعت تلك الحرب أوزارها إلّا بعد الدمار وسلب الأموال، وإراقة الدماء.

هي القضية العربية، هي حروب الفجار بين سمطة وعكّاظ.

إنّ حروب الفجار بين سمطة وعكاظ حروب معروفة عند العرب، وهي أعظم حروبهم وهي المثل المشهور، ولذلك ذكرناها لتقف عليها وتحيط بها خبراً.

الفحش وحروب الفجار:

تسببت حروب الفجار عن الفحش بالقول والفعل، وشدّة الظلم والعدوان والبغي، حتىٰ في حرم الله سبحانه، وهو عند العرب قبل الإسلام محطّ رحالها، وحظيرة أصنامها، وغاية قصدها في كسبها وفخرها.

فالعرب كلّها تقدّس ذلك الحرم الشريف، حرم البيت الحرام قبل الإسلام، وتجلّه عن ارتكاب الفواحش فيه، وهي لا تعقل في ذلك الوقت أنباءً سماوية، وأخباراً إلهيّة، إنّما تحكم بعقلها إنّ هٰذا البيت حرمة وقداسة ومنعة وحصانة، وزاد اعتقادها حين شاهدت عظيم العذاب السماوي بسجيل أبابيل علىٰ أصحاب الفيل.

كانت تجتمع العرب في كلّ سنة أربعين يوماً في عكاظ ـ وهو سوق مفخرها ومتجرها ـ، ثمّ تحجّ بعد قضاء حاجاتها، تجتمع العرب كذلك من الحجاز ونجد والعراق والشامات ومصر وأطرافها واليمن ونواحيها، وكلّها تقدّس الحرم وتخضع لمن بيده مفاتيح ذلك البيت، وربّ البيت يمدّها بفيوضاته الربانية.

ولم تزل كذلك حتىٰ ارتكبت الفواحش في ذلك الحرم، فخرجت من حصانته ومنعته حيث خفرت ذمام ذلك البيت وجواره، وباءت بغضب الله وسخطه، فسفكت دماءها بحروب الفجار وعكاظ، ولم يكن لقريش في أوّلها دخالة.

كانت حروب الفجار وعكاظ بين قريش وقيس عيلان في أربعة أعوام متواليات، الفجار الأوّل ولم تسم أيامه باسم مشهور، والفجار الثاني وهو أعظم،

لأنّهم استحلّوا فيه الحرم وكانت أيامه مشهورة، يوم سمطة، ويوم نخلة، ويوم العلباء، ويوم عكاظ.

الفجار الأوّل وأسبابه وأيامه:

السبب في حروب الفجار الأوّل هو: أنّ بدر بن معشر الغفاري ـ أحد بني غفار بن مالك ـ كان رجلاً منيعاً مستطيلاً بمنعته علىٰ من ورد عكاظ، فاتّخذ مجلساً بسوق عكاظ وقعد فيه، وقد عرفت أنّ رجال العرب وأشرافها وأبطالها تقصد عكاظ أيام سوقها، فجعل بدر بن معشر الغفاري يفتخر على العرب وغيرها، ويتغنّىٰ بافتخاره ويقول:

نحن بنو مدركة بن خندف   من يطعنوا في عينه لا يطرف
ومن يكونوا قومه يغطرف   كأنّهم لجّة بحر مسدف

كان ينشد ذلك وهو باسط رجليه، ويقول: أنا أعزّ العرب فمن زعم أنّه أعزّ منّي فليضرب هامتي بالسيف فهو أعزّ منّي، ولما طال نشيده وقوله وثب رجل من بني نصر بن معاوية يقال له الأحمر بن مازن بن أوس، فضربه بالسيف علىٰ عنقه فقطعها، ثمّ قال: خذها إليك أيّها المخندف وهو ماسك سيفه بيده، وقام رجل من هوازن فقال:

أنا ابن همدان ذو التطرّف   بحر بحور زاخر لم ينزف
نحن ضربنا هامة المخندف   إذ مدّها في أشهر المعرف

وأُنشدت في ذلك اليوم أشعار كثيرة في تلك الضربة، وقد أُريقت في ذلك اليوم الدماء وانتهكت الحرمات، وليس ثمت من سبب سوىٰ تبجح بدر بن معشر الغفاري، وعدوان الأحمر بن مازن وبغيه وعجبه، حتّىٰ انجرّ إلى الفحش بتلك الضربة[1].

---

(١) العقد الفريد ٦: ١٠١.

الحرب الثانية من الفجار الأوّل:

اليوم الثاني من الفجار الأوّل، وسبب الحرب فيه، أنّ جهلاء قريش وبني كنانة، هزؤوا بامرأة من بني عامر بسوق عكاظ، ونالوا منها بفحشهم قولاً وفعلاً، فنادت: يا آل عامر، فثاروا وحملوا السلاح وحملته كنانة، واقتتلوا قتالاً شديداً ذهبت فيه النفوس العزيزة والحرمات المنيعة، وسببه فحش أُولئك الشبّان وجهلهم وغرورهم، وعدم استضاءتهم بنور العقل، وتماديهم في سبات الجهل(١).

الحرب الثالثة من الفجار الأوّل:

اليوم الثالث من الفجار الأوّل، وسبب الحرب فيه: أنّ رجلاً من بني جشم بن بكر بن هوازن له دين علىٰ رجل من بني كنانة، فماطله الكناني مع يساره ولم يعطه شيئاً من ماله، ولمّا طال الأمر على الجشمي وأعيته الحيل، جاء الجشمي إلىٰ سوق عكاظ بقرد، ثمّ جعل ينادي: من يبيعني مثل هذا بمالي علىٰ فلان بن فلان الكناني، من يعطيني مثل هذا بمالي علىٰ فلان بن فلان الكناني، رافعاً صوته بذلك.

فلمّا طال نداءه وتعييره الكناني، مرّ رجل من كنانة فضرب القرد بسيفه فقتله، فهتف الجشمي بآل هوازن وهتف الكناني بآل كنانة، فتحاشدوا وتحاملوا وكان بينهم ما لا يحسن صدوره من العقلاء، وغرست الضغائن في صدورهم، وتوارثوا الأحقاد في نفوسهم، وكان لعبد الله بن جدعان الفضل في ذلك اليوم، حيث دفع من ماله ما كفّ به بأس بعضهم عن بعض، فهل تجد سبباً سوىٰ أكل المال بالباطل، واكتساب العدوان، وهذا هو الفحش(٢).

الفجار الثاني والحروب الطاحنة:

ارتكاب الفواحش سبب الحروب العظيمة في الفجار الثاني، كان السبب في

---

(١) العقد الفريد ٦: ١٠٢.

(٢) العقد الفريد ٦: ١٠٢.

الفجار الثاني وحروبه الطاحنة، أنّ البراض بن قيس بن رافع أحد بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، كان سكيراً فاسقاً مولعاً بالفجور وشرب الخمور، ولذلك تبرّأ منه قومه.

فخرج من بينهم وجاء إلىٰ مكة ونزل علىٰ حرب بن أُمية، فحالفه حرب بن أُمية وكان له رفيقاً وحليفاً، ولما تظاهر بالفجور وشرب الخمور في مكة تحدّاه أشراف قريش، فظاقت به رحابها، فخرج منها وهو في محالفة حرب بن أُمية حتّىٰ نزل الحيرة.

جاء البراض إلى الحيرة ـ وهي عاصمة العراق في ذلك اليوم ـ والملوك فيها هم المناذرة، فنزل على النعمان بن المنذر ملك العراق، فكان عنده، وكان من عادة النعمان أن يبعث إلىٰ عكاظ كلّ سنة بلطيمة يجيزها له سيد مضر، فتباع ويشترىٰ له بثمنها الأدم والحرير والوكاء، وغير ذلك ممّا يجلب من اليمن ومصر وغيرها، كانت أيّام سوق عكاظ من أوّل ذي القعدة إلىٰ انقضاء موسم الحج، وكانت بين نخلة والطائف علىٰ عشرة أميال، وهذه فيها نخل وأموال لثقيف.

جهّز النعمان علىٰ عادته لطيمة عظيمة ونادىٰ مناديه من يجيزها، فجاء البراض وقال: أنا أيّها الأمير أجيزها علىٰ بني كنانة ـ يعني أهل الحجاز ـ فقال النعمان: إنّما أُريد من يجيزها علىٰ أهل نجد، وكان عند النعمان رجل من هوازن يقال له عروة الرّحال ـ وكان من هوازن وأشرافها ـ، فجاء وقال: أنا أجيزها أبيت اللعن أيّها الأمير.

فقال له البراض: من بني كنانة تجيزها يا عروة؟ فقال عروة: نعم وعلى الناس جميعاً، فأخذها عروة وشخص بها نحو الحجاز غير مبال بالبراض ولا يخشاه حَلَّ أو ارتَحَلَ.

خرج البراض في أثر عروة ولم يزل ينتهز الفرصة، حتّىٰ نزل عروة بفدك في أرض يقال لها أوارة قرب وادي تيمن، فنام هناك آمناً بركابه وتجارته، وسكر

البراض كعادته، فهاجم عروة وهو نائم فقتله، وساق الركائب وهو لا يدري أيّ بلاء جلبت يداه، وسار منشداً قوله:

وداهية يهاب الناس منها ... شددت لها بني بكر ضلوعي
هتكت بها بيوت بني كلاب ... وأرضعت الموالي بالرضوعي
جمعت لها يدي بنصل سيف ... أفل فخر كالجذع الصريع

وكان قتل البراض لعروة أيام تجمّع العرب في عكاظ، وإنّما جاء عروة إلىٰ عكاظ في موسمها بلطيمة النعمان، وكانت العرب إذا قدمت عكاظ دفعت أسلحتها إلىٰ عبد الله بن جدعان حتىٰ يفرغوا مِنْ موسم عكاظ ومِنْ حجّهم يردّها عليهم، وللعرب به ثقة لأنّه ذو ثروة وسيادة.

وبلغ خبر قتل البراض لعروة مسامع حرب بن أُمية وغيره من وجوه كنانة وقريش، فجاؤوا إلىٰ ابن جدعان وقالوا له: احتبس سلاح هوازن فقد قتل البراض عروة، ولا طاقة لنا بهوازن في هذا الموقف، فقال: لا أفعل ولكن أعطيكم مائة درع، ومائة رمح، ومائة سيف من مالي الخاص، تستعينون بها علىٰ حرب هوازن.

وأرجع ابن جدعان إلى العرب سلاحها، وأرسل هو وحرب بن أُمية إلىٰ عظيم هوازن، انّه قد كان بعد خروجنا من مكة ما يوجب رجوعنا، فلا تنكروا خروجنا من عكاظ، ورجعوا إلىٰ مكة.

وفي آخر النهار علم عظماء هوازن ورجالها ما كان من قتل البراض لعروة، وانّه هو السبب في رجوع قريش وكنانة، فقالوا: خدعنا حرب وابن جدعان، وركب عظيمهم وزعيمهم أبو البراء فيمن حضره من هوازن في أثر القوم فأدركوهم بنخلة ـ وهو مكان بحدود الحرم ـ، فاصطدموا فيه وجالت خيلهم ورجالهم واشتدّ القتال، فدخلت قريش الحرم وجنّ الليل، فكان ظلامه حاجزاً بينهم بعد إراقة الدماء وهتك الحرمات حتىٰ في الحرم.

وليس في البين شيء سوى فحش البراض بسكره وقتله لعروة، فكان من مقدّمات نتائجه تعطيل أيّام عكاظ علىٰ قريش وهوازن خاصة، وعلىٰ الأُمّة العربية عامة، وحرب نخلة التي هي أوّل موقف هتك فيه حرم الله سبحانه بغارة شعواء فيه، وانفصلوا في نخلة علىٰ أن يعودوا إلى الحرب في سمطة[1].

الحرب الثانية من الفجار الثاني:

كانت الحرب الثانية من الفجار الثاني مسبّبة عن فحش البراض، وقد تفرّقوا من يوم نخلة علىٰ أن يوقدوا نار الحرب في سمطة ـ وهي مكان من عكاظ ـ، وفيه تجمّعت قريش وكنانة بأسرها، وبنو عبد مناة والأحابيش التابعة لقريش.

وأعطت قريش الأسلحة التامة للقبائل، وخرجت هوازن بقبائلها، وسبقت قريشاً فنزلت من سمطة في المكان الذي تريده، وأقبلت قريش فنزلت ودارت رحى الحرب بينهم، فكانت الغلبة في أوّل الأمر علىٰ هوازن، ولواء قريش مع حرب بن أُمية.

فلما شاهدت أبطال هوازن ما نالها تداعت وصبرت، فاستمرّ القتل في قريش وكانت كنانة في مسيل الوادي ثابتة مع قريش، وبثباتها ثبات قريش، فرأت كنانة من هوازن ما ضاقت به ذرعاً، فلم تجد بدّاً من صعودها رخم ـ وهو جبل هناك ـ فصعدت إلىٰ رخم، بعد ارتفاع كنانة إلىٰ رخم ـ وارتفاعها انهزام في واقع الأمر ـ فرّ حرب بن أُمية وتبعه قسم من قريش، فكادت سيوف هوازن أن تصبغ الأرض بالدماء بعدما رفت عليها أعلام النصر، ورماحها تنظم الأشلاء في نجوم السماء، بعدما انهزمت أمامها قريش بأحلافها، وكنانة بأتباعها ولا شيء كالنصر.

وفي ذلك يقول خداش بن زهير:

فإنّا يوم سمطة قد أقمنا ... عمود المجد أن له عمودا

---

(١) العقد الفريد ٦: ٣: ١٠٣.

جـلبنا الخيل سـاهمة إليهـم ... عوابس يـدرعن النـقع قـودا
فجاؤوا عـارضاً بـرداً وجـئنا ... كما أضرمت في الغاب الوقودا
فـعاركنا الكمـاة وعـاركونا ... عراك النمر عـاركت الأسـودا
فولّوا نـضرب الهـامات مـنهم ... بما انـتهكوا المحـارم والحـدودا

فانظر إلى البيت الأخير تجد منه شعور هذا الشاعر يتجلىٰ لك بكلّ صراحة، فهو يرىٰ كأهل البصائر انّ انتصارهم علىٰ قريش بما ارتكبته من المحارم وانتهكته من الحدود، وهذا هو ارتكاب الفواحش وفعل المنكرات، فهوازن وشاعرها وقريش وشعورها، الكلّ يرىٰ أنّ فعل الفواحش والعدوان يسبّب الذلّة والخزي، يسبّب الفرار والانكسار.

الحرب الثالثة من الفجار الثاني:

كانت الحرب الثالثة من الفجار الثاني مسببة عن فحش البراض، لأنّ قرارهم يوم سمطة على الهدنة إلىٰ موسم عكاظ، وكان موعدهم فيه العلباء ـ وهي موضع قريب من عكاظ ـ تجمّعت فيه قريش وكنانة وأحلافها بتمام العدّة والعدد، وجاءت هوازن بقبائلها وأتباعها.

وكانت قيادة الحرب في العلباء عند قريش، وهوازن مرتّبة علىٰ نهج يوم سمطة، وأضرمت هوازن نار الحرب وواصلت الاغارة بالاغارة، وقريش تردّها علىٰ أعقابها وتثبت فيها نبلها وحرابها، حتّىٰ انهزمت كنانة فنالت هوازن بغيتها بعزة النصر وغنائم الغلبة.

وقال خداش بن زهير شاعرها:

ألم يـبلغك بـالعلباء إنّـا ... ضربنا خندفاً حتّىٰ استقادوا
نـبني بـالمنازل عـزّ قـيس ... وودّوا لو تسـيخ بـنا البـلاد

وقال خداش يصف ما لاقته قريش وكنانة يوم العلباء من هوازن:

ألم يـبلغك مـا لاقت قـريش وحي بـني كـنانة إذ أثـيروا
دهمــناهم بأرعــن مكـفهر فــظلّ لنــا بـعقوتهم زئـير
نــقوّم مـازن الخـطي فـيهم يجيىء علىٰ أسنّتنا الخـرير[1]

الحرب الرابعة من الفجار الثاني:

كانت الحرب الرابعة من الفجار الثاني مسبّبة عن فحش البراض وعدوانه، مرتّبة في نفس عكاظ وفقاً لموعدهم يوم العلباء، فلمّا كان وقت الموسم في عكاظ جاءت هوازن بقوّتها وأعلام النصر في الحروب السابقة تخفق فوق رؤوسها، وجاءت قريش وكنانة بما عندها من القوّة والاستعداد، وقد حمل عبدالله بن جدعان ألف رجل من كنانة علىٰ ألف بعير من ماله.

وخشيت قريش أن يصيبها في حرب عكاظ ما أصابها في الحروب السابقة، فتعاهد أشرافها على الصبر والثبات وقيّدوا أنفسهم، وقالوا: لانبرح أو نموت مكاننا.

وكان لتلك الكلمة من أشراف قريش أثر عظيم في حماسها وثبات كنانة وصبر بني مخزوم، ومحافظتهم علىٰ مراكزهم من وراء كنانة، وبذلك كلّه تمكّنت قريش من حفظ مجدها وإعلاء كلمتها.

اشتدّت الحرب في عكاظ وطال أمدها فقريش ترىٰ أنّها إن خرجت من عكاظ منهزمة كانت السيادة لهوازن عليها، لأنّ موسم عكاظ جمع فأوعىٰ فلا يستر فيه العوار ولا يقال فيه العثار، وهوازن ترىٰ أنّها حازت النصر والافتخار يوم سمطة والعلباء وما تقدّمها من حروب الفجار.

ولذلك تفاقم الأمر في حرب عكاظ، وكانت من الحروب الطاحنة عند العرب، حتّىٰ اشتدّ حماس قريش وثبات كنانة وصبر بني مخزوم، فكان به انهزام هوازن وفشلها بعدما رفت عليها أعلام النصر في الحروب السالفة.

(١) العقد الفريد ٦: ١٠٦.

قال ضرار بن الخطاب الفهري يصف شجاعة قريش في حرب عكاظ، وعظيم انتصارها علىٰ هوازن:

ألم تسأل الناس عن شأننا ... ولم يثبت الأمر كالخابر
غداة عكاظ إذا استكملت ... هوازن في كفها الحاضر
وجاءت سليم تهزّ القنا ... علىٰ كلّ سلهبة ضامر
وجئنا إليهم على المضمرات ... بأرعن ذي نجب زاخر
فلمّا التقينا أذقناهم ... طعاناً بسمر القنا العاثر
ففرّت سليم ولم يصبروا ... وطارت شعاعاً بنو عامر
وفرّت ثقيف إلىٰ لاتها ... بمنقلب الخائب الخاسر

لا ريب في فرار هوازن، وانّه كان مسبّباً عن إعجابها بنفسها لسابقة الانتصار وعن تخاذلها، وقد اعترف بذلك شاعرها خداش بن زهير فقال:

أتتنا قريش حافلين بجمعهم ... عليهم من الرحمن واق وناصر
فلمّا دنونا للقباب وأهلها ... أتيح لنا ريب مع الليل زاخر
أُتيحت لنا بكر وحول لوائها ... كتائب يخشاها العزيز المكاثر
وما برحت خيل تثور وتدّعي ... ويلحق منهم أولون وآخر
وما زال هذا الدأب حتّىٰ تخاذلت ... هوازن وانفضت سليم وعامر
فعادت قريش يفلق الصخر جدّها ... إذا أوهن الناس الجدود العواثر

الحرب الخامسة من الفجار الثاني:

كانت هذه في عكاظ معلومة الزمان والمكان عندهم، وهي آخر حروب الفجار العامة، وقد حشدت هوازن كلّ من يمتّ بها وجاءت بما قدرت عليه من الذخائر الحربية، وتداعت قريش وكنانة وأحلافها وأعدّوا للحرب عدّتها وقدحوا زناد نار الحرب، فاتّصل ليلها بنارها، حتّىٰ انهزمت كنانة وتضعضعت

مراكز قريش، وتحاجزوا لا إلىٰ أمدٍ محدود، ودامت الضغائن بينهم فتارةً يشنّون الغارات وتارةً يتواعدون الحرب، فيتساجلون حرّ نارها وخوض بحارها، حتّىٰ تراضوا علىٰ صلح عقدوه كان فيه حقن الدماء، وحفظ الحرمات، والبقاء علىٰ حياة قريش وكنانة وهوازن وأحلافهم.

هذا مجمل حروب الفجار أوجزناه لك خوف الملل من الاطناب، وكانت أحسن شاهد علىٰ قبح ما سبّبه فعل الفواحش، حتّىٰ قتل البراض عروة فانفجرت براكين حروب الفجار في صحراء الحجاز، وامتدّت ذلك الزمن الطويل.

ولو ارتفع حجاب الغفلة عن النوع الإنساني لعلم كلّهم أو جلّهم أنّ لارتكاب الفواحش الأثر العظيم في وقوع أنواع المفاسد في الدنيا، والضرر العظيم من العذاب الأليم في الآخرة، أعاذنا الله بلطفه من فعل القبائح وارتكاب الفواحش.

* * *

جاء النصّ في القانون الإسلامي علىٰ حرمة ارتكاب الفواحش وذمّ أهلها، فقال سبحانه: **﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنىٰ ● الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلّا اللمم﴾** [النجم: ٣١و٣٢].

دلّت هذه الآية بالملازمة علىٰ أنّ أهل الاحسان الذين يجزون يوم القيامة بالحسنىٰ من الله، هم الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلّا اللمم من الفواحش ـ أي إلّا صغار الذنوب كالنظر والقبلة فإنّه ذنب صغير بالنسبة إلى الزنا ـ وهكذا كلّ ذنب صغير بالنسبة إلى الذنب الكبير، وهذا وجه من الوجوه لمعنى اللمم، وهناك معانٍ أُخرىٰ.

وكيف كان معنى اللمم فإنّ الآية تدلّ علىٰ اجتناب الفواحش ممّن يجتنبها سبب مجازاته من الله سبحانه بالاحسان، وتدلّ بالملازمة علىٰ أنّ ارتكاب الفواحش سبب مجازاة المرتكب بدرك النيران.

وقال سبحانه: ﴿إنّ الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربىٰ وينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكرون﴾ [النحل : ٩٠].

لا ريب في صراحة الآية بالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، بعد أمره سبحانه بالعدل والاحسان، وصلة الرحم، وقد جمعت هذه الآية الشريفة ما جمعت ممّا هو قوام مكارم الأخلاق.

وقال سبحانه: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين • إنّكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون﴾ [الأعراف : ٨٠و٨١].

دلّت هذه الآية الشريفة بكلّ صراحة علىٰ تخصيص الفاحشة باللواط بالنسبة إلىٰ قوم لوط، كما دلّت علىٰ أنّ قوم لوط لم يسبقهم أحد قبلهم إلىٰ ارتكاب فحش اللواط، فهم فتحوا باب هذه الفاحشة فعليهم وزرها إلىٰ يوم القيامة.

قال رسول الله ﷺ: «من سنّ سنّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة، ومن سنّ سنّة سيّئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة»[1]. ودلّت الآية علىٰ حرمة اللواط في الشرائع السابقة، ولا ريب في حرمته في الشريعة الإسلامية، وهو أشدّ حرمة من الزنا.

وقال سبحانه: ﴿ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأىٰ برهان ربّه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين﴾ [يوسف : ٢٤].

هذه الآية صريحة بإطلاق الفحشاء علىٰ خصوص الزنا، لأنّه هو الذي امتنع منه يوسف عليه السلام، وقد صرف الله عنه السوء والفحشاء لأنّه من عباده الصالحين.

لمحة عن قصة يوسف:

يوسف عليه السلام نبيّ مرسل من الله لعباده لطفاً بهم، كما أرسل أباه يعقوب، وجدّه

---

(١) البحار ٧٤: ٢٠٤ ضمن حديث ٤١.

إبراهيم الخليل، وموسى، وعيسى، ومحمّداً، وجميع الأنبياء عليهم السلام.

كان يعقوب مفرطاً في محبّة يوسف لعلمه أنّه هو الناهض بأعباء النبوّة، المتجلّي بأنوار الرسالة بعده، ولمّا اشتدّ ولع يعقوب بيوسف وقربه منه اشتدّ حسد اخوته له، فكادوه باخراجهم له إلىٰ حيث يرتعون ويلعبون، وأجمعوا علىٰ وضعه في أعماق بئر هناك ليخلو لهم وجه أبيهم، وزعموا أنّه أكله الذئب وهم غافلون، وجاؤوا علىٰ قميصه بدم كذب، فكان جواب أبيهم لهم: ﴿**بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ والله المستعان علىٰ ما تصفون**﴾ [يوسف : ١٨].

لبث يوسف في تلك البئر صابراً محتسباً حتّىٰ قيّض الله له راكباً سائراً طالباً موارد المياه، فاستقىٰ من تلك البئر فتعلّق يوسف بدلوهم فضمّوه إلىٰ بضاعتهم وباعوه من عزيز مصر، حلّ يوسف في دار عزيز مصر، فكان شمس نهارها وبدر ليلها، تجلّت فيه أنوار النبوّة، فجلّ عن مشاكلة نوعه في جماله وكماله وقوله وأفعاله.

وكانت زوجة العزيز أجمل نساء زمانها، ويوسف عندها أعزّ عليها من نفسها، تحسن إليه وتكرم مثواه، وحبّه يتغلغل في قلبها حتّىٰ شغفها حبّاً، وهي ترىٰ أنّه فتاها وطوع إرادتها، فلا يمتنع عمّا ترومه منه.

وكان من أمرها معه ما قصّه الله سبحانه علىٰ نبيّه فقال تعالى: ﴿**وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي إنّه لا يفلح الظالمون**﴾ [يوسف : ٢٣].

وحين راودته عن نفسه رأته ممتنعاً عليها، منكراً طلبها، موبخاً لها بقوله: معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي، مشيراً بهذا إلىٰ زوجها، لأنّها تعتقد انّه المالك والرازق ليوسف، فعرّفها أنّ زوجها أحسن تربيته وعزّز مكانه، فخيانته بزوجته عدوان وظلم، ولذلك قال لها: انّه لا يفلح الظالمون.

ولمّا رأته كذلك لا يجيبها إلىٰ طلبها باختياره، جرّدت صارم عزمها وقوّتها، وأعملت أسباب جبره وإكراهه علىٰ بغيتها منه، وهذا معنىٰ قوله سبحانه: ﴿**ولقد**

همّت به﴾، وحين باشرت أسباب إكراهه وجبره علىٰ فعل الفاحشة، عزم يوسف علىٰ صرفها عنه بكلّ ما يقدر عليه من المدافعة ولو بضربها، وهذا الذي همّ به يوسف.

ثمّ ظهر له برهان ربّه بما تصوّرته مدارك فكره، وهو الفرار منها ورجّحه على الضرب ونحوه، لأنّه يسلم بالفرار من سوء عاقبة الضرب عند الملك، ومن ارتكاب الفاحشة، فأسرع إلى الباب وأسرعت إليه، فسبقها وتعلّقت بقميصه وشقّته برهاناً علىٰ نزاهته وعفّته وعصمته عند أهلها وأهله.

نعم انشقّ قميصه لما تعلّقت به حال خروجه من الباب، وبالضرورة العادية كان شقّه من جهة ظهره لأنّه حال فراره منها، ولذلك قال من أوكل إليهم الحكم في تلك القضية:

﴿إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين • وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾ [يوسف: ٢٦و٢٧].

وبهذا يمكنك الجزم بأنّ يوسف ﷺ ما همّ بفعل الفاحشة، وإنّما همّ بمدافعتها، وهذا المعنىٰ يستفاد من ظاهر الآيات الشريفة المعربة عمّا كان منها.

وبيانه: أنّ حرف الجر ـ أي الباء في به وبها ـ غير داخل علىٰ نفس الضمير، لأنّ الضمير يرجع إلى الذات، ولا يمكن أن تهمّ بذاته أو يهمّ بذاتها، لأنّ نفس الذات لا يقع عليها العزم وهو معنى الهمّ، وإنّما دخل حرف الجر علىٰ شيء محذوف، وأستغني عن ذكره لتقدّم ما دلّ عليه في حقّها وحقّه، فالآية السابقة علىٰ هذه الآية، صرّحت بأنّها راودته عن نفسه، وأنّها غلقت الأبواب وجاءت بكلّ ما تقدر عليه، لتحقّق آمالها فيه، فهذه الامارات تدلّنا علىٰ أنّها همّت بفعل الفاحشة معه، وإلزامه علىٰ فعلها، وهذا هو المحذوف الذي يلزمنا تقديره.

كما أنّ الآية السابقة صرّحت بأنّه تعوّذ بالله من طلبها، وأفهمها انّ هذا خيانة بمن أحسن إليه، وعدوان وظلم، ولا يفلح الظالمون.

فهذا يدلّنا على انّه إنّما همّ بمدافعتها وضربها ليمنعها عنه، وهذا هو المحذوف الذي يلزمنا تقديره، وبما أنّ ضربها يسيء العزيز ويثبت دعواها عليه، عدل عنه إلى الفرار منه بإلهام الله سبحانه له، وهذا هو البرهان الذي رآه من الله، وبذلك تخلّص من سوء غضب العزيز، وظنّه بالخيانة، ومن ارتكاب الفحشاء، فصرف الله عنه السوء والفحشاء.

هذا هو المراد من الآيات الشريفة بحسب ظاهرها الحاكية لقصّة يوسف ﷺ مع امرأة العزيز، وهو الذي يساعد عليه العقل السليم الحاكم بنزاهة أنبياء الله تعالى ورسله، وعصمتهم عن ارتكاب الفواحش وفعل القبائح.

الشيطان يأمر بالفحشاء:

وقال سبحانه: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً والله واسع عليم﴾ [البقرة : ٢٦٨].

صرّحت هذه الآية الشريفة، بأنّ السبب في بخل البخلاء بما وجب عليهم أو ندبو إليه، إنّما هو وسوسة الشيطان لهم بالتخويف من الفقر والفاقة، فهو ينهاهم عمّا أمرهم الله به ويأمرهم بالفحشاء، لأنّ الله نهاهم عنها، فالشيطان يقبّح للإنسان الحسن، ويحسّن له القبيح ليوقعه في المعصية، فالآية صريحة على طريقة الملازمة العقلية بتحريم الفحشاء.

الفحش في القول:

وقال صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأمين ﷺ: «إيّاكم والفحش فإنّ الله لا يحبّ الفحش ولا التفحّش»[1]. كلامه ﷺ هذا عام للفحش بالقول والفعل، وصريح بالتحذير منه.

(١) احياء العلوم ٣: ١١٧ / في الفحش والسب.

وقال ﷺ: «ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذي»(١).

يمكن في هذا الحديث دعوىٰ تخصيص الفاحش بمن يقول الأقوال الفاحشة، لأنّه ذكر الطعّان واللعّان والبذي، وهذا هو الفحش بالقول، فيكون الفاحش في الحديث الشريف هو الذي يقول الأقوال الفاحشة ـ أي القبيحة ـ.

وقال ﷺ: «الجنّة حرام علىٰ كلّ فاحش أن يدخلها»(٢). وهذا بظاهره عام للفحش قولاً وفعلاً.

وقال ﷺ: «لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء»(٣).

وقال ﷺ: «إنّ الله لا يحبّ الفاحش المتفحّش»(٤).

وقال ﷺ: «إنّ الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء، وإنّ أحسن الناس إسلاماً أحسنهم أخلاقاً»(٥).

هذا الحديث ظاهر في ذمّ الفحش القولي بمناسبة آخره كما لا يخفىٰ، وربّما كان داء الفحش بالقول أعظم بلاءً من الفحش بالفعل، أعاذنا الله والقارئ من ارتكاب الفواحش بالقول والفعل.

---

(١) احياء العلوم ٣: ١١٧ / في الفحش والسب.
(٢) المصدر نفسه، وكنز العمال ٣: ٥٩٨ ح ٨٠٨٥.
(٣) المصدر نفسه، وكنز العمال ٣: ٦٠٣ ح ٨١٢٥.
(٤) احياء العلوم ٣: ١١٨ / في الفحش والسب، وكنز العمال ٣: ٥٩٨ ح ٨٠٨٧.
(٥) المصدر نفسه، وكنز العمال ٣: ٥٩٨ ح ٨٠٨٩.

الفصل الرابع عشر
الدعاء والاجابة

«وَٱعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتكَفَّلَ لَكَ بِالْاجابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بيْنَكَ وَبيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَىٰ مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ تَعَرَّضْتَ ٱلْفَضِيحَةُ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ ٱلْانَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً ، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ ٱلْمَتَابِ، وَبَابَ ٱلْاسْتِعْتَابِ؛ فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاءَكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَٱسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَٱسْتَعَنْتَهُ عَلَىٰ أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ ٱلْأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ ٱلْأَبْدَانِ، وَسَعَةِ ٱلْأَرْزَاقِ. ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَىٰ شِئْتَ ٱسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَٱسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ

إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَىٰ قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ. وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَىٰ لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَىٰ عَنْكَ وَبَالُهُ؛ فَالْمَالُ لَا يَبْقَىٰ لَكَ وَلَا تَبْقَىٰ لَهُ».

* * *

أمّا الآن فإنّ الإمام ﷺ ينحو مع ولده ﷺ نحواً خاصّاً، يريده علىٰ أن يسأل الله، ويلحف في السؤال، وأن يستعين الله علىٰ كلّ شيء، مهما كان أمره.

وإنّه ليوحي بكلماته هذه القليلة إلىٰ ابنه بأنّ خالقه وبارءه، والذي بيده خزائن السماوات والأرض، والذي بيده زمام كلّ شيء، وإليه يعود كلّ شيء، قد أفاض عليه نعماً جساماً، لا يستطيع لها عدّاً ولا حساباً، ولا يستطيع هو ومن سواه أن يؤدّوا حقّها من الشكر.

فالله سبحانه قد سهّل على الإنسان، فأذن له في الدعاء بعد أن وعده الاجابة إلىٰ كلّ ما تصبوا إليه نفسه، ما لم يخالف ذلك ما ترتئيه الارادة الإلهيّة، وقد أمر الله الإنسان أن يسأله ليعطيه، فهو يقول:

﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون﴾ [البقرة : ١٨٦]. وأمره أن يسترحمه فيرحمه، فقد يكون سؤال الإنسان واسترحامه موجداً لكثير من المصالح التي لم تكن المشيئة الإلهيّة تسوغها له من دون سؤال واسترحام واستعطاف.

وإنّ الإمام ليوحي إلىٰ ولده بأن اسأل ربّك، وألحف في السؤال، وتوسّل إليه وبالغ في التوسّل، فإنّ الابن إذا طلب إلىٰ أبيه حاجة قد لا ينالها لولا أن يشدد في الطلب، ويكثر من السؤال، وإنّ الباب لا يفتح إلّا بالقرع ثمّ التشديد في ذلك. فتقرّب إليه زلفىٰ، وأحسن في خطواتك إليه، عسىٰ أن تحظىٰ منه بالمكانة السامية

والمنزل الرفيع.

ولا يعظمنّ عليك أن تطرق باب ملكوته، ولا يصعب عليك أن تناله، لأنّه سبحانه لم يجعل بينك وبينه حاجزاً إلّا نفسه، ولم يحوجك إلىٰ من يأذن لك في البلوغ إليه، لأنّه ليس شحيحاً ولا بخيلاً.

أما آن لك أن تعرف أنّه تعالى كريم أيّ كريم، وسخي أيّ سخي، يرزق من يشاء بغير حساب، ويرزق من سأله، وقد يرزق من لم يسأله، فتقرّب إليه دون أن تفتقر إلىٰ أحدٍ سواه.

وإنّ الإمام ﷺ ليشعر ابنه، بأن لو كان له من الإثم شيء فلا ييأس ولا يبتئس، لأنّ الله قد جعل للإنسان سبيلاً إلىٰ التوبة عن طريق الانابة والندم الشديد.

وما أكثر ما أراد الإمام ﷺ أن يقرب ولده من الله ويبعده عن غيره، فهو دائب علىٰ وصفه بأحسن الوصف. فها هو يقول لابنه بأنّ الله رحيم بلغ من الرحمة شأوها، فكان في غنىً عن أن يسرع في انتقامه منك، وعقوبته لك علىٰ ذنبك، وإنّما استمهلك ريثما عدت إلىٰ نفسك، وثبت إلىٰ رشدك، فعلمت من أمرك ما لم تكن تعلم، فظهر لك أنّك مسيء، قد أتيت من الأمر شيئاً عظيماً، هنالك تندم وتود لو أنّ أُمّك لم تلدك، وكنت بين أصابع العدم المجهول.

عند ذاك يكون الله قد صفح عنك، وعفىٰ عمّا اقترفته من إثم، وأتيته من جرم، وارتكبته من إساءة.

ألا يا ولدي، ولتعلم أنّه لم يفضحك في وقت أنت فيه أقرب إلى الفضيحة، ولم يشدد عليك في الانابة، فقال تعالى: ﴿وأنيبوا إلىٰ ربّكم﴾ [الزمر : ٥٤]، ولم يناقشك بالجريمة التي اكتسبتها بعد أن أتىٰ عليها الاستغفار، فمحاها من صفحة كتابك.

ولم يترك اليأس والقنوط يتسربان إلىٰ قلبك، حيث قال: ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ [الزمر : ٥٣] وإنّما أبدل سيّئتك بعد التوبة حسنة، وحسب سيّئتك واحدة، وضاعف حسنتك في الأجر إلىٰ عشرة أضعاف، فقال: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر

أمثالها ومن جاء بالسيّئة فلا يجزى إلّا مثلها﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وفتح لك أبواب المتاب واسعة فسيحة، وأرهف سمعه إلىٰ ندائك وهو قريب منك، فإذا أخطرت في نفسك أمراً علمه، وإذا ناديته استجاب لك، وإذا نفذت إليه بالمناجاة سمع إلىٰ نجواك، وفسح لك المجال في أن تسأله حاجتك وتفضي إليه بسؤلك، وأن تبثّه ما يكنّه فؤادك، وتشكو إليه ما ترزح تحته من حزن وكمد، ومن هموم وأكدار، فأنت إذا فعلت ذلك أو شيئاً من ذلك كان لك قائداً، وهادياً ودليلاً ومعيناً.

سبحانك اللّهمّ فما أنت بعاجز عن إعطاء الكثير، فهلّا سأل الإنسان ربّه ذات يوم فلم يلبه الله لعجز أو قصور، كلّا إن أردت أيّها الانسان أن تبلو ربّك فافعل، سله أن يزيد في عمرك، ويوسع عليك في رزقك، ويعصمك من الشرور والآثام.

تلفه يوكلك أمر خزائنه بأن يوكّل إليك مفاتحها تأخذ من تلك الخزائن ما يكفيك وزيادة، وليس ينظر إليك بالمرصاد، ووالله ما خزائن الله إلّا ما يسيطر عليه ممّا نعلم وممّا لا نعلم، وما مفاتحها إلّا تلك المناجاة، وتلك التوسّلات في خشوع وخضوع، فادعه تنفتح لك نعمته، وينهمل عليك وابل رحمته، حتّىٰ ترتوي ويذهب عنك الظمأ، كما تروى الأرض ويفارقها الظمأ.

شروط الدعاء:

بيد أنّ الدعاء مشروط بأن يكون علىٰ وجه الاستكانة والخضوع، مع الاعتراف بالذلة والنقص، والاضطرار والعجز قلباً ولساناً وهيئة، وإنّه لا فرج له إلّا من لدن سيّده، ولا خير له إلّا من عنده قولاً وضميراً، فيردد لسانه بأنواع التضرّع والجوار، وتتصرّف يداه نحو السماء في ضروب من الشكل والحركات، ولا يبتهل حتّىٰ يذري دموعه ويشخص بصره، وهل إخلاص العبادة إلّا هذه الأحوال، فكان الدعاء بهذه الكيفية من أشرف العبادة، وبحسب العبادة يتمّ

الشرف الإنساني، ويخلص الغرض الإلهي.

ضرورة الدعاء:

الدعاء من مستلزمات العبادة، إذ هو الصلة التي تربط بين الإنسان وخالقه، والدعاء فطري في الإنسان، فهو يشعر بحنين إلى الله يفزع إليه عند الشدائد، ويتضرّع إليه في كشف السوء عنه، فهو ضعيف أمام أحداث الحياة، لا يجد مسنداً لضعفه غير الدعاء.

ولذلك اعتنى القرآن بالدعاء وحثّ عليه، جاء في القرآن: ﴿**وقال ربّكم ادعوني استجب لكم إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين**﴾ [غافر : ٦٠] ففي هذه الآية وصف الله الدعاء بأنّه من العبادة التي يستحقّ من يستكبر عنها غضب الله.

الدعاء علاج نفسي:

والدعاء علاج نفسي لكثير من أمراض النفس، فالانسان بطبيعته محتاج في مشكلاته لأن يفضي بدخيلة نفسه إلىٰ صديق حميم، يخفّف عنه بعض ما يشعر به من الهمّ والحزن، وقد أجمع الأطباء النفسيّون علىٰ أن علاج التوتّر العصبي والآلام النفسية، إنّما يتوقّف إلىٰ حدّ كبير على الافضاء ـ بسبب التوتّر ومنشأ القلق ـ إلىٰ صديق مخلص، فإنّ كتمانه ممّا يزيد المرض.

فإذا أفضى الإنسان المحزون إلىٰ ربّه ما يعانيه، وطلب منه ما يبتغيه فإنّه يشعر بطمأنينة، ونفحة روحية تنشله ممّا هو فيه من الهمّ والضيق، وذلك مع الايمان والاعتقاد التام، بأنّ الله قريب منه مجيب دعوته، كما أخبر بذلك القرآن: ﴿**وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون**﴾ [البقرة : ١٨٦].

قيل في سبب نزول هذه الآية: إنّ أعرابياً جاء إلى الرسول ﷺ فقال: أقريب ربّنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه، فسكت عنه الرسول، فأنزل الله هذه الآية[١].

الدعاء في السرّاء والضرّاء:

والدعاء الذي يطلبه الإسلام، هو أن يكون في السراء كما يكــون في الضراء، لأنّه بذلك أدعىٰ لئن يكون علىٰ الدوام متذكّراً ربّه، مستجيباً لأوامره، محقّقاً معنى العبودية له، فإنّ الإنسان بطبيعته يلجأ إلىٰ ربّه عند الشدّة، ولكن ما أنْ يكشف الله عنه ما به من ضرّ حتّىٰ ينسى الله ويغتر بقوّته، فيؤدي به إلىٰ الإعراض عن أوامر الله والافساد في الأرض.

وقد وصف الله هذه الحالات التي تنتاب كثيراً من الناس، ليحذر المؤمنين من الوقوع في الجحود والنكران له، قال سبحانه: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسـان أعـرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشرّ فذو دعاء عريض﴾ [فصلت : ٥١].

وقال أيضاً: ﴿وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلمّا كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلىٰ ضرّ مسّه كذلك زيّن للمسرفين ما كانوا يـعملون﴾ [يونس : ١٢].

وقال سبحانه ممتنّاً علىٰ بعض خلقه الذين يتعرّضون لخطر الغرق ثمّ ينجيهم من فضله: ﴿هو الذي يسيّركم في البرّ والبحر حتّىٰ إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيّبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كلّ مكان وظنّوا أنّهم أُحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكـرين • فـلمّا أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحقّ يا أيّها الناس إنّما بغيكم علىٰ أنـفسكم﴾ [يونس : ٢٢و٢٣].

فلا يجمل بالإنسان أن يعصي الله بعد أن أنقذه من الهلاك، بل ينبغي أن يجعل

(١) الدرّ المنثور ١ : ٤٦٩ سورة البقرة.

ذلك الخطر الذي وقع فيه حافزاً له لطاعة الله، والسير على الطريق الذي رسمه.

الدعاء للسموّ الروحي:

وقد شرّع الإسلام الدعاء أيضاً، للسموّ الروحي والترفّع عن شهوات الجسد الضارّة، والعروج به في معارج الكمالات، بجانب ما يطلبه الداعي من فضل الله، وتسيير أُموره وكشف الضرّ عنه، ولهذا يعلّم الله المؤمنين كيف يدعونه، بما ذكره علىٰ لسان أنبيائه والصالحين، ممّا سنذكر بعضاً منها:

أدعية الأنبياء:

﴿ربّ اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريّتي ربّنا وتقبّل دعاء﴾ [إبراهيم : ٤٠].

﴿ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلىٰ والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريّتي﴾ [الأحقاف : ١٥].

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب﴾ [آل عمران : ٨].

﴿ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربّنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ [البقرة : ٢٨٦].

﴿ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾ [الأعراف : ٢٣].

﴿ربّ فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ [المؤمنون : ٩٤].

﴿ربّنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين﴾ [يونس : ٨٥].

﴿ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيّئ لنا من أمرنا رشداً﴾ [الكهف : ١٠].

﴿ربّ اشرح لي صدري ● ويسّر لي أمري﴾ [طه : ٢٥ و٢٦].

﴿ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾ [البقرة: ٢٠١].

من هذه الأدعية يتبيّن لك مصدرها السماوي، قصّها الله علينا لندعو بها في فترات الزمن القاسية، وللترقّي الروحي.

ونضع هنا جملة من الأدعية المأثورة طلباً لبركتها، ولينتفع قارئ الكتاب بها.

دعاء الرسول ﷺ:

كان من دعاء رسول الله ﷺ إذا أصبح أن يقول:

«أصبحنا وأصبح الملك، والكبرياء، والعظمة، والجلال، والخلق، والأمر، والليل، والنهار، وما يسكن فيهما لله عزّ وجلّ وحده لا شريك له، اللّهمّ اجعل أوّل يومي هذا صلاحاً، وأوسطه فلاحاً، وآخره نجاحاً، اللّهمّ إنّي أسألك خير الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين، اللّهمّ أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به رحمتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، اللّهمّ متّعنا بأسماعنا وأبصارنا، واجعله الوارث منّا، وانصرنا على من ظلمنا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلّط علينا من لا يرحمنا»[١].

دعاء أمير المؤمنين عليه السلام:

ومن دعاء أمير المؤمنين علي عليه السلام، وكان يدعو به زين العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام، وهو من أدعية الصحيفة:

«يا من يرحم من لا يرحمه العباد، يا من يقبل من لا تقبله البلاد، ويا من لا يحتقر أهل الحاجة إليه، يا من لا يجبه بالردّ أهل الإلحاح عليه،

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ١٧٨ باب ٧٧.

يا من لا يخفىٰ عليه صغير ما يتحف به، ولا يضيع يسير ما يعمل له، يا من يشكر على القليل ويجازي بالجليل، يا من يدنو إلىٰ من دنا منه، يا من يدعو إلىٰ نفسه من أدبر عنه، يا من لا يغيّر النعمة ولا يبادر بالنقمة، يا من يثمر الحسنة حتّىٰ ينميها، ويتجاوز عن السيّئة حتّىٰ يعفيها، انصرفت دون مدىٰ كرمك الحاجات، وامتلأت بفيض جودك أوعية الطلبات، وتفسّخت دون بلوغ نعمتك الصفات، فلك العلوّ الأعلىٰ فوق كلّ عال، والجلال الأمجد فوق كلّ جلال، كلّ جليل عندك حقير، وكلّ شريف في جنب شرفك صغير، خاب الوافدون علىٰ غيرك، وخسر المتعرّضون إلّا لك، وضاع الملمّون إلّا بك، وأجدب المنتجعون إلّا من انتجع فضلك، لأنّك ذو غاية قريبة من الراغبين، وذو مجد مباح للسائلين، لا يخيب عليك الآملون من عطائك المتعرّضون، ولا يشقىٰ بنقمتك المستغفرون، رزقك مبسوط لمن عصاك، وحلمك معرض لمن ناواك، وعادتك الاحسان إلى المسيئين، وسنّتك الابقاء على المعتدين، حتّىٰ لقد غرّتهم أناتك عن النزوع، وصدّهم إمهالك عن الرجوع، وإنّما تأنّيت بهم ليفيئوا إلىٰ أمرك، وأمهلتهم ثقة بدوام ملكك، فمن كان من أهل السعادة اجتمعت له بها، ومن كان من أهل الشقاوة خذلته عنها، كلّهم صائر إلىٰ رحمتك، وأُمورهم آيلة إلىٰ أمرك، لم يهن علىٰ طول مدّتهم سلطانك، ولم تدحض لترك معالجتهم حججك، حجّتك قائمة، وسلطانك ثابت، فالويل الدائم لمن جنح عنك، والخيبة الخاذلة لمن خاب منك، والشقاء الأشقىٰ لمن اغترّ بك، ما أكثر تقلّبه في عذابك، وما أعظم تردّده في عقابك، وما أبعد غايته من الفرج، وما أثبطه من سهولة المخرج، عدلاً من قضائك لا تجور فيه، وإنصافاً من حكمك لا

تحيف عليه، قد ظاهرت الحجج، وأزلت الأعذار، وتقدّمت بالوعيد، وتلطّفت في الترغيب، وضربت الأمثال، وأطلت الامهال، وأخّرت وأنت تستطيع للمعاجلة، وتأنّيت وأنت مليء بالمبادرة، لم تك أناتك عجزاً، ولا حلمك وهناً، ولا إمساكك لعلّة، ولا انتظارك لمدارات، بل لتكون حجّتك الأبلغ، وكرمك الأكمل، وإحسانك الأوفىٰ، ونعمتك الأتمّ، كلّ ذلك كان ولم يزل وهو كائن لا يزول، نعمتك أجلّ من أن توصف بكلّها، ومجدك أرفع من أن يحدّ بكنهه، وإحسانك أكبر من أن يشكر علىٰ أقلّه، فقد أقصرت ساكتاً عن تحميدك، وتهيّبت ممسكاً عن تمجيدك، لا رغبةً يا إلهي عنك بل عجزاً، ولا زهداً فيما عندك بل تقصيراً، وها أنا ذا يا إلهي أؤمل بالوفادة، وأسألك حسن الرفادة، فاسمع ندائي، واستجب دعائي، ولا تختم عملي بخيبتي، ولا تجبهني بالردّ في مسألتي، وأكرم من عندك منصرفي، إنّك غير ضائق عمّا تريد، ولا عاجز عمّا تشاء، وأنت علىٰ كلّ شيء قدير»[1].

دعاء الامام زين العابدين:

ومن أدعيته عليه السلام وهو من أدعية الصحيفة أيضاً:

«اللّهمّ يا من برحمته يستغيث المذنبون، ويا من إلىٰ إحسانه يفزع المضطرّون، ويا من لخيفته ينتحب الخاطئون، يا أنس كلّ مستوحش غريب، يا فرج كلّ مكروب حريب، يا عون كلّ مخذول فريد، يا عاضد كلّ محتاج طريد، أنت الذي وسعت كلّ شيء رحمةً وعلماً، وأنت الذي جعلت لكلّ مخلوق في نعمتك سهماً، وأنت الذي عفوه

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء السادس والأربعون، من أدعية يوم الفطر والجمعة؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ : ١٧٨ باب ٧٧.

أعلىٰ من عقابه، وأنت الذي رحمته أمام غضبه، وأنت الذي إعطاؤه أكبر من منعه، وأنت الذي وسع الخلائق كلّهم بعفوه، وأنت الذي لا يرغب في غنىً من إعطائه، وأنت الذي لا يفرط في عقاب من عصاه، وأنا يا سيّدي عبدك الذي أمرته بالدعاء فقال لبيك وسعديك، ها أنا ذا يا ربّ مطروح بين يديك، أنا الذي أوقرت الخطايا ظهره، وأنا الذي أفنت الذنوب عمره، وأنا الذي بجهله عصاك ولم يكن أهلاً منه لذلك، فهل أنت يا مولاي راحم من دعاك فاجتهد في الدعاء، أم أنت غافر لمن بكىٰ لك فأسرع في البكاء، أم أنت متجاوز عمّن عفّر لك وجهه متذلّلاً، أم أنت مغنٍ من شكىٰ إليك فقره متوكّلاً، اللّهمّ فلا تخيّب من لا يجد معطياً غيرك، ولا تخذل من لا يستغني عنك بأحد دونك، اللّهمّ لا تعرض عنّي وقد أقبلت عليك، ولا تحرمني وقد رغبت إليك، ولا تجبهني بالردّ وقد انتصبت بين يديك، أنت الذي وصفت نفسك بالرحمة، وأنت الذي سمّيت نفسك بالعفو، فارحمني واعفُ عنّي، فقد ترىٰ يا سيّدي فيض دموعي من خيفتك، ووجيب قلبي من خشيتك، وانتفاض جوارحي من هيبتك، كلّ ذلك حياء منك بسوء عملي، وخجلاً منك لكثرة ذنوبي، قد كَلَّ لساني عن مناجاتك، وخمد صوتي عن الدعاء إليك، يا إلهي فكم من عيب سترته عليّ فلم تفضحني، وكم من ذنب غطّيت عليه فلم تشهر بي، وكم من عائبة ألممت بها فلم تهتك عنّي سترها، ولم تقلّدني مكروه شنارها، ولم تبد سوأتها لمن يلتمس معايبي من جيرتي، وحسدة نعمتك عندي، ثمّ لم ينهني ذلك حتّىٰ صرت إلىٰ أسوء ما عهدت منّي، فمن أجهل منّي يا سيّدي برشدك، ومن أغفل منّي عن حظّه منك، ومن أبعد منّي من استصلاح نفسه حين أنفقت ما أجريت عليّ من

رزقك فيما نهيتني عنه من معصيتك، ومن أبعد غوراً في الباطل، وأشدّ إقداماً على السوء منّي حين أقف بين دعوتك ودعوة الشيطان، فأتّبع دعوته علىٰ غير عمى عن المعرفة به، ولا نسيان من حفظي له، وأنا حينئذٍ موقن أنّ منتهىٰ دعوتك الجنّة، ومنتهىٰ دعوته النار، سبحانك فما أعجب ما أشهد به علىٰ نفسي، وأعدده من مكنون أمري، وأعجب من ذلك أناتك عنّي، وإبطاؤك عن معاجلتي، وليس ذلك من كرمي عليك بل تأنّياً منك بي، وتفضّلاً منك عليّ لأن أرتدع عن خطئي، ولأنّ عفوك أحبّ إليك من عقوبتي، بل أنا يا الهي أكثر ذنوباً، وأقبح آثاراً، وأشنع أفعالاً، وأشدّ في الباطل تهوّراً، وأضعف عند طاعتك تيقّظاً، وأغفل لوعيدك انتباهاً من أن أحصي لك عيوبي، وأقدر علىٰ تعديد ذنوبي، وإنّما أوبّخ بهذا نفسي طمعاً في رأفتك التي بها اصلاح أمر المذنبين، ورجاء لعصمتك التي بها فكاك رقاب الخاطئين، اللّهمّ وهذه رقبتي قد أَرَقّتها الذنوب فاعتقها بعفوك، وقد أثقلتها الخطايا فخفّف عنها بمنّك، اللّهمّ إنّي لو بكيت حتّىٰ تسقط أشفار عيني، وانتحبت حتّىٰ ينقطع صوتي، وقمت لك حتّىٰ تنتثر قدماي، وركعت لك حتّىٰ ينجذع صلبي، وسجدت لك حتّىٰ تتفقأ حدقتاي، وأكلت التراب طول عمري، وشربت ماء الرماد آخر دهري، وذكرتك في خلال ذلك حتّىٰ يكلّ لساني، ثمّ لم أرفع طرفي إلىٰ آفاق السماء استحياءً منك، لما استوجبت بذلك محو سيّئة واحدة من سيّئاتي، فإن كنت تغفر لي حين أستوجب مغفرتك، وتعفو عنّي حين أستحقّ عفوك، فإنّ ذلك غير واجب لي بالاستحقاق، ولا أنا أهل على الاستيجاب، إذ كان جزائي منك في أوّل ما عصيتك النار، فإن تعذّبني فإنّك غير ظالم.

إلهي فإن تغمّدتني بسترك فلم تفضحني، وأمهلتني بكرمك فلم تعاجلني، وحلمت عنّي بتفضّلك فلم تغيّر نعمك عليّ، ولم تكدر معروفك عندي، فارحم طول تضرّعي، وشدّة مسكنتي، وسوء موقفي، اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، وأنقذني من المعاصي، واستعملني بالطاعة، وارزقني حسن الانابة، وطهّرني بالتوبة، وأيّدني بالعصمة، واستصلحني بالعافية، وارزقني حلاوة المغفرة، واجعلني طليق عفوك، واكتب لي أماناً من سخطك، وبشّرني بذلك في العاجل والآجل بشرى أعرفها، وعرّفني له علامة أتبيّنها، إنّ ذلك لا يضيق عليك في وجدك، ولا يتكاءدك[1] في قدرتك، وأنت على كلّ شيء قدير»[2].

الدعاء بعد صلاة الليل:

ومن أدعيته ﷺ وهو من أدعية الصحيفة:

«اللّهمّ يا ذا الملك المتأبّد بالخلود، والسلطان الممتنع بغير جنود، والعزّ الباقي على مرّ الدهور، عزّ سلطانك عزّاً لا حدّ له ولا منتهى لآخره، واستعلى ملكك علوّاً سقطت الأشياء دون بلوغ أمده، ولا يبلغ أدنى ما استأثرت به من ذلك نعوت أقصى نعت الناعتين، ضلّت فيك الصفات، وتفسّخت دونك النعوت، وحارت في كبريائك لطائف الأوهام، كذلك أنت الله في أوّليّتك، وعلى ذلك أنت دائم لا تزول، وكذلك أنت الله في آخريّتك، وكذلك أنت ثابت لا تحول، وأنا العبد الضعيف عملاً، الجسيم أملاً، خرجت من يدي الأسباب الموصلة إلى

(١) تكأّد الشيء: تكلّفه، وتكاءدني الأمر: شقّ عليّ.
(٢) الصحيفة السجادية، الدعاء ١٦، في الاستقالة من ذنوبه ﷺ؛ وشرح النهج لابن أبي الحديد ٦ : ١٨٠ باب ٧٧.

رحمتك، وتقطّعت عنّي عصم الآمال إلّا ما أنا معتصم به من عفوك، قلّ عندي ما أعتد به من طاعتك، وكثر عندي ما أبوء به من معصيتك، ولن يضيق بك عفو عن عبدك وإن أساء فاعف عنّي.

اللّهمّ قد أشرف علىٰ كلّ خطايا الأعمال علمك، وانكشف كلّ مستور عند خبرك، فلا ينطوي عنك دقائق الأُمور، ولا يعزب عنك خفايا السرائر، وقد هربت إليك من صغائر ذنوب موبقة، وكبائر أعمال مردية، فلا شفيع يشفع لي إليك، ولا خفير يؤمنني منك، ولا حصن يحجبني عنك، ولا ملاذ ألجأ إليه غيرك. هذا مقام العائذ بك، ومحلّ المعترف لك، فلا يضيقنّ عنّي فضلك، ولا يقصرنّ دوني عفوك، ولا أكون أَخْيَبُ عبادك التائبين، ولا أقنط وفودك الآملين، واغفر لي إنّك خير الغافرين.

اللّهمّ إنّك أمرتني فغفلت، ونهيتني فركبت، وهذا مقام من استحيا لنفسه منك، وسخط عليها ورضي عنك، وتلقّاك بنفس خاشعة، وعين خاضعة، وظهره مثقل من الخطايا، واقفاً بين الرغبة إليك والرهبة منك، وأنت أولىٰ من رجاه، وأحقّ من خشيه واتقاه، فأعطني يا ربّ ما رجوت، وأمّنّي ما حذرت، وعد عليّ بفضلك ورحمتك إنّك أكرم المسؤولين، اللّهمّ وإذ سترتني بعفوك وتغمّدتني بفضلك في دار الفناء، فأجرني من فضيحات دار البقاء عند مواقف الاشهاد من الملائكة المقرّبين، والرسل المكرّمين، والشهداء الصالحين، من جار كنت أُكاتمه سيّئاتي، ومن ذي رحم كنت أحتشم منه لسريراتي، لم أثق بهم في السرّ عليّ ووثقت بك في المغفرة لي، وأنت أولىٰ من وثق به، وأعطىٰ من رغب إليه، وأرأف من استرحم فارحمني.

اللّهمّ إنّي أعوذ بك من نار تَغَلّظْتَ بها علىٰ من عصاك، وأوعدت بها من ضادّك وناواك، وصدف عن رضاك، ومن نار نورها ظلمة، وهيّنها صعب، وقريبها بعيد، ومن نار تأكل بعضها بعضاً، وتصول بعضها علىٰ بعض، ومن نار تذر العظام رميماً، وتسقي أهلها حميماً، ومن نار لا تبقي علىٰ من تضرّع، ولا ترحم من استعطفها، ولا تقدر على التخفيف عمّن خشع لها واستبتل إليها، تلق سكّانها بآخر ما لديها من أليم النكال، وشديد الوبال.

اللّهمّ بك أعوذ من عقاربها الفاغرة أفواهها، وحيّاتها الناهشة بأنيابها، وشرابها الذي يقطّع الأمعاء، ويذيب الأحشاء، وأستهديك لما باعد عنها وأنقذ منها، فأجرني بفضل رحمتك، وأقلني عثرتي بحسن إقالتك، ولا تخذلني يا خير المجيرين، اللّهمّ صلّ علىٰ محمّد وآل محمّد إذا ذكر الأبرار، وصلّ علىٰ محمّد وآل محمّد ما اختلف الليل والنهار، صلاةً لا ينقطع مددها، ولا يحصىٰ عددها، صلاةً تشحن الهواء، وتملأ الأرض والسماء، اللّهمّ صلّ عليه وعليهم حتّىٰ ترضىٰ، وصلّ عليه وعليهم بعد الرضاء صلاة لا حدّ لها ولا منتهىٰ يا أمير الراحمين»(١).

الدعاء في الاستعاذة من المكاره:

ومن دعائه ﷺ وهو من أدعية الصحيفة:

«اللّهمّ إنّي أعوذ بك من هيجان الحرص، وسورة الغضب، وغلبة الحسد، وضعف الصبر، وقلّة القناعة، وشكاسة الخلق، وإلحاح الشهوة، وملكة الحميّة، ومتابعة الهوىٰ، ومخالفة الهدىٰ، وسنّة الغفلة،

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء الثاني والثلاثون، بعد الفراغ من صلاة الليل؛ وشرح النهج لابن أبي الحديد ٦: ١٨٣ باب ٧٧.

وتعاطي الكلفة، وايثار الباطل على الحق، والاصرار على المأثم، والاستكثار من المعصية، والاقلال من الطاعة، ومباهاة المكثرين، والازراء على المقلّين، وسوء الولاية علىٰ من تحت أيدينا، وترك الشكر لمن اصطنع العارفة عندنا، وأن نعضد ظالماً، أو نخذل ملهوفاً، أو نروم ما ليس لنا بحق، أونقول بغير علم، ونعوذ بك أن ننطوي علىٰ غشّ لأحد، وأن نعجب بأموالنا وأعمالنا، وأن نمدّ في آمالنا، ونعوذ بك من سوء السريرة، واحتقار الصغيرة، وأن يستحوذ علينا الشيطان، أو يستند لنا الزمان، أو يتهضّمنا السلطان، ونعوذ بك من حبّ الاسراف، وفقدان الكفاف، ومن شماتة الأعداء، والفقر إلىٰ الأصدقاء، ومن عيشة في شدّة، أو موت علىٰ غير عدّة، ونعوذ اللّهمّ بك من الحسرة العظمىٰ، والمصيبة الكبرىٰ، ومن سوء المآب، وحرمان الثواب، وحلول العقاب، اللّهمّ أعذنا من كلّ ذلك برحمتك ومنّك وجودك، إنّك علىٰ كلّ شيء قدير»[١].

الدعاء في الحمد وذكر النبي ﷺ:

ومن دعائه عليه السلام وتحميده وذكر النبي ﷺ، وهو من أدعية الصحيفة أيضاً:

«الحمد لله بكلّ ما حمده أدنىٰ ملائكته إليه، وأكرم خلقه عليه، وأرضىٰ حامديه لديه، حمداً يفضل سائر الحمد كفضل ربّنا جلّ جلاله علىٰ جميع خلقه، ثمّ له الحمد مكان كلّ نعمة له علينا، وعلىٰ جميع عباده الماضين والباقين عدد ما أحاط به علمه، ومن جميع الأشياء أضعافاً مضاعفة أبداً سرمداً إلىٰ يوم القيامة، وإلىٰ ما لا نهاية له من بعد القيامة، حمداً لا غاية لحدّه، ولا نهاية حساب لعدّه،

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء الثامن في الاستعاذة من المكاره؛ وشرح النهج لابن أبي الحديد ٦: ١٨٥ باب ٧٧.

ولا مبلغ لاعداده، ولا انقطاع لآماده، حمداً يكون وصلة إلىٰ طاعته، وسبباً إلىٰ رضوانه، وذريعة إلىٰ مغفرته، وطريقاً إلىٰ جنّته، وخفيراً من نقمته، وأمناً من غضبه، وظهيراً علىٰ طاعته، وحاجزاً عن معصيته، وعوناً علىٰ تأدية حقّه ووظائفه، حمداً نسعد به في السعداء من أوليائه، وننتظم به في نظام الشهداء بسيوف أعدائه.

والحمد لله الذي منّ علينا بنبيّه محمّد ﷺ دون الأُمم الماضية والقرون السالفة، لقدرته التي لا تعجز عن شيء وإن عظم، ولا يفوتها شيء وإن لطف، اللّهمّ فصلّ علىٰ محمّد أمينك علىٰ وحيك، ونجيّك من خلقك، وصفيّك من عبادك، إمام الرحمة، وقائد الخير، ومفتاح البركة، كما نصب لأمرك نفسه، وعرّض فيك للمكروه بدنه، وكاشف في الدعاء إليك حامّته، وحارب في رضاك أُسرته، وقطع في نصرة دينك رحمه، وأقصى الأدنين علىٰ عنودهم عنك، وقرّب الأقصين علىٰ استجابتهم لك، ووالىٰ فيك الأبعدين، وعاند فيك الأقربين، وأدأب نفسه في تبليغ رسالتك، وأتعبها في الدعاء إلىٰ ملّتك، وشغلها بالنصح لأهل دعوتك، وهاجر إلىٰ بلاد الغربة، ومحلّ النأي عن موطن رحله، وموضع رجله، ومسقط رأسه، ومأنس نفسه، إرادةً منه لاعزاز دينك، واستنصاراً علىٰ أهل الكفر بك، حتّىٰ استتب له ما حاول في أعدائك، واستتمّ له ما دبّر في أوليائك، فنهد إلى المشركين بك مستفتحاً بعونك، ومتقوياً علىٰ ضعفه بنصرك، فغزاهم في عقر ديارهم، وهجم عليهم في بحبوحة قرارهم، حتّىٰ ظهر أمرك، وعلت كلمتك، وقد كره المشركون.

اللّهمّ فارفعه بما كدح فيك إلى الدرجة العليا من جنّتك حتّىٰ لا يساوى في منزلة، ولا يكاد في مرتبة، ولا يوازيه لديك ملك مقرّب،

ولا نبي مرسل، وعرّفه في أُمّته من حسن الشفاعة أجلّ ما وعدته، يا نافذ العدّة، يا وافي القول، يا مبدّل السيّئات بأضعافها من الحسنات، إنّك ذو الفضل العظيم»[١].

دعاء عيسى بن مريم:

ومن الأدعية المرويّة عن عيسى بن مريم عليه السلام:

«اللّهمّ أنت إله من في السماء، وإله من في الأرض لا إله فيهما غيرك، وأنت حكيم من في السماء، وحكيم من في الأرض لا حكيم فيهما غيرك، وأنت ملك من في السماء، وملك من في الأرض لا ملك فيهما غيرك، قدرتك في السماء كقدرتك في الأرض، وسلطانك في السماء كسلطانك في الأرض، أسألك باسمك الكريم، ووجهك المنير، وملكك القديم، أن تفعل بي كذا وكذا»[٢].

دعاء بعض الصالحين:

ومن أدعية بعض الصالحين:

«اللّهمّ إنّي لم آتك بعمل صالح قدّمته، ولا شفاعة مخلوق رجوته، أتيتك مقرّاً بالظلم والإساءة علىٰ نفسي، أتيتك أرجو عظيم عفوك الذي عدت به على الخاطئين، ثمّ لم يمنعك عكوفهم علىٰ عظيم الجرم أن جدت لهم بالمغفرة، فيا صاحب العفو العظيم اغفر الذنب العظيم، برحمتك يا أرحم الراحمين»[٣].

---

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء الأوّل والثاني؛ وشرح النهج لابن أبي الحديد ٦ : ١٨٥ باب ٧٧.
(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ٦ : ١٨٧ باب ٧٧.
(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ٦ : ١٨٨ باب ٧٧.

وروي أنّ علياً عليه السلام اعتمر فرأىٰ رجلاً متعلّقاً بأستار الكعبة وهو يقول: «يا من لا يشغله سمع عن سمع، يا من لا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحّين، أذقني برد عفوك، وحلاوة مغفرتك، وعذوبة عافيتك، والفوز بالجنّة، والنجاة من النار»، فقال علي عليه السلام: والذي نفسي بيده إن قالها وعليه مثل السماوات والأرض من الذنوب قولاً مخلصاً ليغفرنّ له[1].

ودعا بعضهم فقال: «اللّهمّ إنّك سترت علينا في الدنيا ذنوباً كثيرة، ونحن إلىٰ سترها في الآخرة أحوج، فاغفر لنا»[2].

ومن دعاء بعضهم: «اللّهمّ اجعل الموت خير غائب ننتظره، واجعل القبر خير بيت نعمره، واجعل ما بعده خيراً لنا منه، اللّهمّ إليك عجّت الأصوات بصنوف اللغات تسألك الحاجات، وحاجتي إليك أن تذكرني عند طول البلىٰ إذا نسيني أهل الدنيا»[3].

ويروىٰ أنّ رجلاً أعمىٰ جاء إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله فشكىٰ إليه ذهاب بصره، فقال صلى الله عليه وآله: قل «يا سبّوح يا قدّوس، يا نور الأنوار، يا نور السماوات والأرض، يا أوّل الأوّلين، ويا آخر الآخرين، ويا أرحم الراحمين، أسألك أن تغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم، والذنوب التي تنزل النقم، والذنوب التي تهتك العصم، والذنوب التي توجب البلاء، والذنوب التي تقطع الرجاء، والذنوب التي تحبس الدعاء، والذنوب التي تكشف الغطاء، والذنوب التي تعجّل الفناء، والذنوب التي تظلّم الهواء، وأسألك باسمك العظيم، ووجهك الكريم، أن تردّ عليّ بصري» فدعا بذلك فردّ عليه بصره[4].

---

(١) البحار ٣٩: ١٣٢ ح ٤؛ وشرح النهج لابن أبي الحديد.
(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ٦: ١٨٩ باب ٧٧.
(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ٦: ١٨٩ باب ٧٧.
(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ٦: ١٨٩ باب ٧٧.

دعاء الثلاثة الصالحين:

ومن الآثار المنقولة أنّ الله تعالى غضب علىٰ أُمّة، فأنزل عليهم العذاب، وكان فيهم ثلاثة صالحون، فخرجوا وابتهلوا إلى الله سبحانه، فقام أحدهم فقال: اللّهمّ إنّك أمرتنا أن نعتق أرقّاءنا، ونحن أرقاؤك فأعتقنا ثمّ جلس، وقام الثاني فقال: اللّهمّ إنّك أمرتنا أن نعفو عمّن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا فاعف عنّا، ثمّ جلس. وقام الثالث فقال: اللّهمّ إنّا علىٰ ثقة إنّك لم تخلق خلقاً أوسع من مغفرتك، فاجعل لنا في سعتها نصيباً، فرفع عنهم العذاب(١).

قيل لسفيان بن عيينة: ما حديث رويته عن رسول الله ﷺ؟ قال: قال رسول الله ﷺ: أفضل دعاء أعطيته أنا والنبيّون قبلي «أشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حيّ لا يموت، بيده الخير وهو علىٰ كلّ شيء قدير».

كأنّهم لم يروا ذلك دعاء فقال: ما تنكرون من هذا، ثمّ روى لهم قول رسول الله ﷺ: من تشاغل بالثناء على الله أعطاه الله فوق رغبة السائلين، ثمّ قال: هذا أُمية بن أبي الصلت يقول لابن جدعان:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك أنّ شيمتك الحياء
إذا أثنىٰ عليك المرء يوماً ... كفاه من تعرّضه الثناء

وقال: هذا مخلوق يقول لمخلوق، فما ظنّكم بربّ العالمين(٢).

* * *

شروط الدعاء:

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «للدعاء شروط أربعة: الأوّل إحضار النيّة، الثاني

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٦: ١٩٠ باب ٧٧.
(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ٦: ١٩٠ باب ٧٧.

إخلاص السريرة، الثالث معرفة المسؤول، الرابع الانصاف في المسألة»[1].

روي أنّ أحد الملوك كان عقيماً لم يولد له، فكان يخرج آخر الليل إلى الصحراء ويدعو الله تعالى ويتضرّع إليه بأن يرزقه ولداً، فبقي علىٰ هذه الحال مدّة إلىٰ أن ضجر ذات ليلة، وقال: إلهي أنا لا أدري أقريب أنت فتسمع ثمّ لا تجيب، أم بعيد أنت فلا تسمع، فلمّا رجع إذا بهاتف يهتف به: يا فلان أنا أقرب إليك من حبل الوريد، أسمع صوتك ولكن أريد أن تدعوني بقلب خالص، وسريرة طاهرة.

فالله جلّ وعلا يريد من العبد أن يدعوه بقلب خاشع، وضمير نقي، وبدن خاضع، وجوارح متذلّلة، ويقين واثق بالاجابة، وأن لا يكون قلبه متشاغلاً بغير الله. فقد روي أنّ موسى النبي ﷺ مرّ عند مناجاته برجل ساجد يبكي ويدعو ويتضرّع، فقال موسى: يا ربّ لو كانت حاجة هذا العبد بيدي لقضيتها، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسىٰ إنّه يدعوني وقلبه مشغول بغنم له، فلو سجد حتّىٰ ينقطع صلبه، وتتفقّأ عيناه لم أستجب له حتّىٰ يتحوّل عمّا أبغض إلىٰ ما أحبّ[2].

مرّ إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة، فاجتمع الناس إليه، وقالوا: يا أبا إسحاق ما لنا ندعوا فلا يستجاب لنا؟ قال: لأنّ قلوبكم ماتت بعشرة أشياء:

الأوّل: إنّكم عرفتم الله فلم تؤدّوا حقّه.

الثاني: زعمتم أنّكم تحبّون رسول الله ثمّ تركتم سنّته.

الثالث: قرأتم القرآن ولم تعملوا به.

الرابع: أكلتم نعمة الله ولم تؤدّوا شكرها.

الخامس: قلتم انّ الشيطان عدوّكم ووافقتموه.

السادس: قلتم انّ الجنّة حقّ فلم تعملوا لها.

السابع: قلتم إنّ النار حقّ ولم تهربوا منها.

---

(١) ارشاد القلوب: ١٤٩، الباب السابع والأربعون.

(٢) ارشاد القلوب: ١٤٩ باب ٤٧.

الثامن: قلتم انّ الموت حقّ فلم تستعدّوا له.

التاسع: انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم.

العاشر: دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم.

فكيف يستجاب لكم وأنتم علىٰ مثل هذه الأحوال، إنّما يستجاب لمن كان ذو نيّة صادقة، وضمير طاهر، وقلب نقي وإلّا ما كان لله ليفتح للعبد باب الدعاء ويغلق عنه باب الاجابة، وهو يقول: ﴿أُدعوني أستجب لكم﴾ [غافر : ٦٠] وما كان الله ليفتح باب التوبة ويغلق باب المغفرة، لأنّه تعالى يقول: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيّئات﴾ [الشورى : ٢٥].

وما كان الله ليفتح باب الشكر ويغلق باب الزيادة، لأنّه يقول: ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم﴾ [إبراهيم : ٧]، وما كان الله ليفتح باب التوكّل ولم يجعل للمتوكّل مخرجاً، فإنّه سبحانه يقول: ﴿ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً ● ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكّل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق : ٢-٣][١].

وجاء عن علي أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الدعاء يردّ القضاء المبرم»[٢].

وقال: «من سرّه أن يكشف عنه البلاء فليكثر من الدعاء»[٣].

روي أنّ تاجراً كان في زمن النبي صلى الله عليه وآله يسافر من المدينة إلى الشام، ولا يصحب القوافل توكّلاً على الله، فعرض له لصّ في طريقه وصاح به وتعرّض له، فقال له التاجر: خذ المال ودعني، فقال: لا غنى لي عن نفسك.

فقال: إذن دعني أتوضّأ وأصلّي أربع ركعات، فقال: افعل ما شئت فتوضّأ وصلّىٰ، ثمّ رفع يده إلى السماء وقال: «يا ودود يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا مبدئ يا معيد، يا ذا البطش الشديد، يا فعّالاً لما يريد، أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك، وأسألك بقدرتك التي قدرت بها علىٰ خلقك، وبرحمتك التي وسعت كلّ

(١) راجع روضات الجنات ١: ١٤٩ رقم ٣٤.

(٢) ارشاد القلوب : ١٤٩.

(٣) المصدر نفسه.

شيء، لا إله إلّا أنت، يا مغيث أغثني، يا مغيث صلّ علىٰ محمّد وآل محمّد أغثني».

فإذا هو بفارس علىٰ فرس أشهب عليه ثياب خضر وبيده رمح، فشدّ على اللص فطعنه طعنة فقتله، ثمّ قال للتاجر: اعلم انّي ملك من السماء الثالثة حين دعوت سمعنا أبواب السماء قد تفتّحت، فنزل جبرئيل وأمرني بقتله.

واعلم يا عبد الله انّه ما دعا بدعائك هذا مكروب ولا محزون إلّا وفرّج الله عنه وأغاثه، فرجع التاجر إلى المدينة سالماً فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال له النبي ﷺ: لقد لقّنك الله أسماءه الحسنىٰ التي إذا دعي بها أجاب، وإذا سئل بها أعطىٰ[1].

دعاء الامام موسىٰ بن جعفر ﷺ:

قال عبد الله بن مالك الخزاعي: دعاني هارون الرشيد يوماً فقال: يا أبا عبد الله كيف أنت وموضع السرّ منك، فقلت: يا أمير المؤمنين ما أنا إلّا عبد من عبيدك، فقال: امض إلىٰ تلك الحجرة وخذ مَنْ فيها واحتفظ به إلىٰ أن أسألك عنه.

قال: فدخلت فوجدت موسى بن جعفر ﷺ، فسلّمت عليه وحملته علىٰ دابّتي إلىٰ منزلي فأدخلته داري، وجعلته معي علىٰ حرمي، وقفلت عليه الدار والمفتاح معي، وكنت أتولّىٰ خدمته، ومضت الأيّام فلم أشعر إلّا برسول الرشيد يقول: أجب أمير المؤمنين، فنهضت ودخلت عليه، فرأيته جالساً وعن يمينه فراش وعن يساره كذلك، فسلّمت عليه فلم يرد غير أنه قال: ما فعلت بالوديعة، فكأنّي لم أفهم ما قال، فقال: ما فعل صاحبك؟ فقلت: صالح، فقال: امض إليه وادفع إليه ثلاثة آلاف درهم واصرفه إلىٰ منزله وأهله.

فقمت وهممت بالانصراف، فقال لي: أتدري ما السبب في ذلك وما هو؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، قال: نمت على الفراش الذي عن يميني فرأيت في منامي قائلاً يقول: يا هارون أطلق موسى بن جعفر، فانتبهت فقلت: لعلّها لما في نفسي منه،

(١) ارشاد القلوب: ١٥١.

فقمت إلىٰ هذا الفراش الآخر فرأيت ذلك الشخص بعينه وهو يقول: يا هارون أمرتك أن تطلق موسى بن جعفر فلم تفعل.

فانتبهت وتعوّذت من الشيطان، ثمّ قمت إلىٰ هذا الفراش الذي أنا عليه، وإذا بذلك الشخص بعينه بيده حربة كأنّ أوّلها بالمشرق وآخرها بالمغرب، وقد أومأ إليّ وهو يقول: والله يا هارون لئن لم تطلق موسى بن جعفر لأضعنّ هذه الحربة في صدرك وأطلعها من ظهرك، فأرسلت إليك فامض فيما أمرتك به، ولا تظهره إلىٰ أحد فأقتلك، فانظر لنفسك.

قال: فرجعت إلىٰ منزلي وفتحت الحجرة ودخلت علىٰ موسى بن جعفر عليه السلام، فوجدته قد نام في سجوده، فجلست حتىٰ استيقظ ورفع رأسه وقال: يا أبا عبد الله افعل ما أُمرت به، فقلت له: يا مولاي سألتك بالله وبحقّ جدّك رسول الله هل دعوت الله عزّ وجلّ في يومك هذا بالفرج؟ فقال: أجل، إنّي صلّيت المفروضة وسجدت وغفوت في سجودي، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا موسىٰ أتحبّ أن تطلق؟ فقلت: نعم يا رسول الله، فقال: أدعو بهذا الدعاء:

«يا سابغ النعم، يا دافع النقم، يا بارئ النسم، يا مجلي الهمم، يا مغشي الظلم، يا كاشف الضرّ والألم، يا ذا الجود والكرم، يا سامع كلّ صوت، ويا مدرك كلّ فوت، يا محيي العظام وهي رميم، ومنشئها بعد الموت، صلّ علىٰ محمّد وآل محمّد، واجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً يا ذا الجلال والاكرام»، فلقد دعوت به ورسول الله صلى الله عليه وآله يلقّنيه حتّىٰ سمعتك، فقلت: قد استجاب الله منك، ثمّ قلت له ما أمرني به الرشيد وأعطيته ذلك[1].

الامام موسى بن جعفر وهارون الرشيد:

وفي عيون أخبار الرضا عليه السلام، عن أبي محمّد عبد الله بن الفضل، عن أبيه قال:

(١) مهج الدعوات: ٢٤٥، عنه البحار ٤٨: ٢٤٥ ح٥٢.

كنت أحجب الرشيد فأقبل عليّ يوماً غضباناً وبيده سيف يقلّبه فقال لي: يا فضل بقرابتي من رسول الله ﷺ لئن لم تأتني بابن عمّي الآن لآخذنّ الذي فيه عيناك، فقلت: بمن أجيئك؟ فقال: بهذا الحجازي، قلت: وأيّ الحجازي؟ قال: موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب.

قال الفضل: فخفت من الله أن أجيء به إليه، ثمّ فكّرت في النقمة، فقلت له: أفعل، فقال: آتني بسواطين وهبارين وجلادين ـ هذه الثلاثة هي آلة العقوبة وأسبابها ـ قال: فأتيته بذلك، ومضيت إلىٰ منزل أبي إبراهيم موسى بن جعفر ﷺ، فأتيت إلىٰ خربة فيها كوخ من جرائد النخل، فإذا أنا بغلام أسود، فقلت له: استأذن لي علىٰ مولاك يرحمك الله تعالى، فقال لي: لج ليس له حاجب ولا بوّاب.

فولجت إليه فإذا أنا بغلام أسود بيده مقص يأخذ اللحم من جبينه وعرنين أنفه من كثرة سجوده، فقلت له: السلام عليك يا ابن رسول الله أجب الرشيد، فقال: ما للرشيد وما لي أما تشغله نعمته عنّي، ثمّ وثب مسرعاً وهو يقول: لولا أنّي سمعت خبراً عن جدّي رسول الله ﷺ إنّ طاعة السلطان للتقيّة واجبة إذاً ما جئت، فقلت له: استعد للعقوبة يا أبا إبراهيم رحمك الله، فقال ﷺ: أليس معي من يملك الدنيا والآخرة، ولن يقدر اليوم علىٰ سوء بي إن شاء الله.

قال الفضل بن الربيع: فرأيته وقد أدار يده يلوح بها علىٰ رأسه ثلاث مرّات، فدخلت على الرشيد فإذا هو كأنّه امرأة ثكلىٰ قائم حيران، فلمّا رآني قال لي: يا فضل، فقلت: لبّيك، فقال لي: جئتني بابن عمّي؟ فقلت: نعم، قال: لا تكون أزعجته؟ فقلت: لا، قال: لا تكون أعلمته أنّي عليه غضبان، وأنّي قد هيّجت علىٰ نفسي ما لم أرده، إئذن له بالدخول، فأذنت له.

فلمّا رآه وثب إليه قائماً وعانقه وقال: مرحباً بابن عمّي وأخي ووارث نعمتي، ثمّ أجلسه علىٰ فخذيه فقال له: ما الذي قطعك عن زيارتنا؟ فقال: سعة ملكك وحبّك للدنيا، فقال: ائتوني بحقّة الغالية ـ وهي نوع من الطيب ـ فأتي بها فغلفها

بيده، ثمّ أمر أن يحمل بين يديه خلع وبدرتان دنانير.

فقال موسى بن جعفر عليه السلام: لولا أنّي أرى من أزوّجه بها من عزّاب بني أبي طالب لئلّا ينقطع نسله أبداً ما قبلتها، ثمّ تولّىٰ عليه السلام وهو يقول: الحمد لله ربّ العالمين، فقال الفضل: يا أمير المؤمنين أردت أن تعاقبه فخلعت عليه وأكرمته. فقال لي: يا فضل إنّك لمّا مضيت لتجيئني به رأيت أقواماً قد أحدقوا بداري، بأيديهم حراب قد غرسوها في أصل الدار وهم يقولون: إن آذىٰ ابن رسول الله خسفنا به وبداره الأرض، وإن أحسن إليه تركناه وانصرفنا عنه.

فتبعته عليه السلام فقلت له: ما الذي قلت حتّىٰ كفيت أمر الرشيد؟ فقال عليه السلام: دعاء جدّي عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان إذا دعا به ما برز إلىٰ عسكر إلّا هزمه، ولا إلىٰ فارس إلّا قهره، وهو دعاء كفاية البلاء، قلت: وما هو؟ قال:

«اللّهمّ بك أساور، وبك أحاول، وبك أُحاور، وبك أصول، وبك أنتصر، وبك أموت، وبك أحيا، أسلمت نفسي إليك، وفوّضت أمري إليك، لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، اللّهمّ إنّك خلقتني وسترتني عن العباد، بلطفك خوّلتني وأغنيتني، وإذا هويت رددتني، وإذا عثرت قوّمتني، وإذا مرضت شفيتني، وإذا دعوت أجبتني يا سيّدي ارض عنّي فقد أرضيتني»[1].

* * *

فلسفة تأخّر الاجابة:

قوله عليه السلام: «فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ ٱلْعَطِيَّةَ عَلَىٰ قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ ٱلْإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ ٱلْآمِلِ، وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَىٰ لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَىٰ عَنْكَ وَبَالُهُ؛

(١) راجع البحار ٩٥: ٢١٢ ح ٥.

كنت أحجب الرشيد فأقبل عليّ يوماً غضباناً وبيده سيف يقلّبه فقال لي: يا فضل بقرابتي من رسول الله ﷺ لئن لم تأتني بابن عمّي الآن لآخذنّ الذي فيه عيناك، فقلت: بمن أجيئك؟ فقال: بهذا الحجازي، قلت: وأيّ الحجازي؟ قال: موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب.

قال الفضل: فخفت من الله أن أجيء به إليه، ثمّ فكّرت في النقمة، فقلت له: أفعل، فقال: آتني بسواطين وهبارين وجلادين ـ هذه الثلاثة هي آلة العقوبة وأسبابها ـ قال: فأتيته بذلك، ومضيت إلىٰ منزل أبي إبراهيم موسى بن جعفر ﷺ، فأتيت إلىٰ خربة فيها كوخ من جرائد النخل، فإذا أنا بغلام أسود، فقلت له: استأذن لي علىٰ مولاك يرحمك الله تعالى، فقال لي: لج ليس له حاجب ولا بوّاب.

فولجت إليه فإذا أنا بغلام أسود بيده مقص يأخذ اللحم من جبينه وعرنين أنفه من كثرة سجوده، فقلت له: السلام عليك يا ابن رسول الله أجب الرشيد، فقال: ما للرشيد وما لي أما تشغله نعمته عنّي، ثمّ وثب مسرعاً وهو يقول: لولا أنّي سمعت خبراً عن جدّي رسول الله ﷺ إنّ طاعة السلطان للتقيّة واجبة إذاً ما جئت، فقلت له: استعد للعقوبة يا أبا إبراهيم رحمك الله، فقال ﷺ: أليس معي من يملك الدنيا والآخرة، ولن يقدر اليوم علىٰ سوء بي إن شاء الله.

قال الفضل بن الربيع: فرأيته وقد أدار يده يلوح بها علىٰ رأسه ثلاث مرّات، فدخلت على الرشيد فإذا هو كأنّه امرأة ثكلىٰ قائم حيران، فلمّا رآني قال لي: يا فضل، فقلت: لبّيك، فقال لي: جئتني بابن عمّي؟ فقلت: نعم، قال: لا تكون أزعجته؟ فقلت: لا، قال: لا تكون أعلمته أنّي عليه غضبان، وأنّي قد هيّجت علىٰ نفسي ما لم أرده، إئذن له بالدخول، فأذنت له.

فلمّا رآه وثب إليه قائماً وعانقه وقال: مرحباً بابن عمّي وأخي ووارث نعمتي، ثمّ أجلسه علىٰ فخذيه فقال له: ما الذي قطعك عن زيارتنا؟ فقال: سعة ملكك وحبّك للدنيا، فقال: ائتوني بحقّة الغالية ـ وهي نوع من الطيب ـ فأتي بها فـفلقها

بيده، ثمّ أمر أن يحمل بين يديه خلع وبدرتان دنانير.

فقال موسى بن جعفر ﷺ: لولا أنّي أرىٰ من أزوّجه بها من عزّاب بني أبي طالب لئلّا ينقطع نسله أبداً ما قبلتها، ثمّ تولّىٰ ﷺ وهو يقول: الحمد لله ربّ العالمين، فقال الفضل: يا أمير المؤمنين أردت أن تعاقبه فخلعت عليه وأكرمته، فقال لي: يا فضل إنّك لمّا مضيت لتجيئني به رأيت أقواماً قد أحدقوا بداري، بأيديهم حراب قد غرسوها في أصل الدار وهم يقولون: إن آذىٰ ابن رسول الله خسفنا به وبداره الأرض، وإن أحسن إليه تركناه وانصرفنا عنه.

فتبعته ﷺ فقلت له: ما الذي قلت حتّىٰ كفيت أمر الرشيد؟ فقال ﷺ: دعاء جدّي عليّ بن أبي طالب ﷺ كان إذا دعا به ما برز إلىٰ عسكر إلّا هزمه، ولا إلىٰ فارس إلّا قهره، وهو دعاء كفاية البلاء، قلت: وما هو؟ قال:

«اللّهمّ بك أساور، وبك أحاول، وبك أُحاور، وبك أصول، وبك أنتصر، وبك أموت، وبك أحيا، أسلمت نفسي إليك، وفوّضت أمري إليك، لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، اللّهمّ إنّك خلقتني وسترتني عن العباد، بلطفك خوّلتني وأغنيتني، وإذا هويت رددتني، وإذا عثرت قوّمتني، وإذا مرضت شفيتني، وإذا دعوت أجبتني يا سيّدي ارض عنّي فقد أرضيتني»[1].

* * *

فلسفة تأخّر الاجابة:

قوله ﷺ: «فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ ٱلْعَطِيَّةَ عَلَىٰ قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ ٱلْاجَابَةُ، لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ ٱلْآمِلِ، وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَىٰ لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَىٰ عَنْكَ وَبَالُهُ؛

(١) راجع البحار ٩٥: ٢١٢ ح ٥.

فَالْمَالُ لَا يَبْقَىٰ لَكَ وَلَا تَبْقَىٰ لَهُ».

فالإمام ﷺ يعلّم ولده بأنّه قد يسأل الله سبحانه فلا يجيبه إلىٰ سؤله، أو قد يبطئ عليه في الاجابة لا لأنّه عاجز قاصر عن أن يجيب كلّا، وإنّما ذلك لأمرٍ ما، فإنّ لله في شؤونه مصالح وحكماً، وإنّ لها لسرّاً غامضاً، وخبراً مكتوماً، لا يطمع في ذلك بفهم أو تأويل، لأنّ الله في شؤونه وإرادته لا يصلح لشيء من الفهم والتأويل.

وإنّه ﷺ ليعلمه بأنّ من الذنب ما يكون حاجباً يحجب الدعاء عن القبول، فإذا هو يوصيه بأنّه إن أبطأ الله عليك في الاجابة، فلعلّ بين أعمالك عملاً نابياً، فارجع إلىٰ صحائف أيّامك وتصفّحها صفحة صفحة، فلعلّك تعثر فيها علىٰ ذنب اقترفته وجرم ارتكبته، فطهّر نفسك منه، واعصم نفسك عمّا يجلبه عليك، فعسىٰ أن تصفو نيّتك، ويطهر قلبك، فيستجيب لك إليه فيما تريد.

وهكذا جاء في دعاء علي ﷺ المعروف بدعاء كميل: «اللّهمّ اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء»، ومن هنا كان النبي ﷺ يستعيذ بالله، ويقول: «أعوذ بك من الذنوب التي تردّ الدعاء».

وروي أنّ عيسىٰ ﷺ خرج يستسقي، فلمّا ضجروا قال لهم عيسىٰ: من أصاب منكم ذنباً فليرجع، فرجعوا كلّهمّ ولم يبق معه في المفازة إلّا واحد، فقال له عيسىٰ ﷺ: أما لك من ذنب؟ فقال: والله ما علمت من شيء غير أنّي كنت ذات يوم أُصلّي فمرّت بي امرأة، فنظرت إليها بعيني هذه، فلمّا جاوزتني أدخلت إصبعي في عيني فانتزعتها وأتبعت المرأة بها، فقال له عيسىٰ: فادع الله حتّىٰ أؤمّن علىٰ دعائك، فدعا فتجلّلت السماء سحاباً، ثمّ صبّت فسقوا.

وخرج سليمان بن داود ﷺ يستسقي فمرّ بنملة ملقاة علىٰ ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: «اللّهمّ إنّا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن رزقك، فلا تهلكنا بذنوب غيرنا» فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم[1].

---

(١) البحار ٦٤: ٢٦٠ ح ٩.

وأصاب بني اسرائيل قحط فاستسقىٰ موسىٰ ﷺ مرّات فما أُجيب، فأوحى الله تعالى إليه: إنّي لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمّام قد أصرّ على النميمة، فقال موسى: يا ربّ من هو حتّىٰ نخرجه من بيننا، فقال: يا موسىٰ أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً، فتابوا بأجمعهم فسقوا[1].

ولا ريب فإنّ من عرف حقيقة النميمة، يعلم أنّ النمام شرّ الناس وأخبثهم، كيف وهو لا ينفك من الكذب، والغيبة، والغدر، والخيانة، والغلّ، والحسد، والنفاق، والافساد بين الناس، والخديعة، وقد قال الله سبحانه: ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض﴾ [البقرة : ٢٧].

والنمام يسعىٰ في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسد في الأرض، وقال الله تعالى: ﴿إنّما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق﴾ [الشورى : ٤٢] والنمام منهم.

وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنّة قاطع»[2] ـ أي قاطع بين الناس ـ، والنمام قاطع بينهم، وقال ﷺ: «شرّ الناس من اتّقاه الناس لشرّه»[3] والنمام منهم.

النميمة:

نصّ القانون الإسلامي علىٰ حرمة النميمة وذمّ أهلها.

النميمة هي السعاية، ونمّ الحديث ينمّه سعىٰ به ليوقع فتنة أو وحشة، والرجل نمّ ـ تسمية له بالمصدر ـ، ونمام مبالغة، والاسم النميمة والنمم، قال في القاموس: النمّ الاغراء، ورفع الحديث إشاعة له وإفساداً، وتزيين الكلام بالكذب[4].

النميمة صفة خبيثة، ومزية رديئة، تجارة اللئام لقدح نار الخصام، وبضاعة

---

(١) البحار ٧٥: ٢٦٨ ح ١٩؛ المحجة البيضاء ٥: ٢٧٦.
(٢) مستدرك الوسائل ١٥: ١٨٤ ح ١٧٩٤٧؛ المحجة البيضاء ٥: ٢٧٩.
(٣) البحار ٧: ٢١٧ ح ١١٩؛ المحجة البيضاء ٥: ٢٧٩.
(٤) القاموس المحيط: ١٥٠٣ / النمّ.

الأوغاد لإيقاد نار الفساد، وهي سعاية كاسدة لغاية فاسدة.

النميمة مسبّبة عن اللؤم والحسد والخساسة، وربّما يعسر تحقّقها على النمام بدون زيادة أو نقصان، وبهذا تلازم الكذب والبغي والعدوان.

النميمة خيانة للأمانة، ونبذ للأمان، ومخالفة للأيمان، فالنمام خبيث خائن، وفاجر غادر، وشيطان بصورة إنسان.

النميمة إفشاء السرّ، وهتك الستر عمّا يكره كشفه، ويراد ستره، فإن كان ما ينمّ به عيباً ونقصاً في المحكي عنه كان النمام جامعاً بين الغيبة والنميمة، وكما تكون النميمة بصريح الكلام تكون بالاشارة والكتابة وأنواع الكتابة.

تتولّد من النميمة مفاسد كثيرة، أقلّها ايجاد التباعد غالباً بين المنقول عنه والمنقول إليه، ويترتّب عليها تحقّق العداوة، وربّما أدّت إلىٰ حرب شعواء، وفتنة عمياء، ومن سبر السير والتاريخ، ونظر إلىٰ أعمال ذوي النميمة في كلّ زمان عرف آثارها.

باع رجل عبداً له فقال لمن اشتراه منه: ما فيه عيب إلّا النميمة، قال المشتري: رضيت به، فمكث العبد عنده أيّاماً ثمّ قال يوماً لزوجة مولاه إنّ سيّدي لا يحبّك وهو يريد أن يتزوّج عليك، فخذي الموسي واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتّىٰ أسحره عليها فيحبّك، ثمّ قال لمولاه: إنّ امرأتك اتّخذت خليلاً، وتريد أن تذبحك وأنت نائم، فتناومْ لها حتّىٰ تعرف الحقيقة.

فتناومَ لها، فجاءت المرأة بالموسي ودنت منه، فجزم بصدق مقالة العبد، فقام إليها وقتلها وجاء أهل المرأة فقتلوه، ثمّ وقع القتال بين عشيرة الرجل وعشيرة المرأة، ودخل في تلك الحرب أحلافها حتّىٰ أشرفوا علىٰ الفناء[1]، وليس في البين سبب إلّا النميمة، والتصوّرات الكاذبة التي اخترعها ذلك العبد الذي كان من آثار نميمته ما كان. ومن غرائب النميمة نميمة «عدي بن مرينا» وهي بشكلها سعاية عظيمة.

---

(١) المحجة البيضاء ٥: ٢٧٩، نحوه.

كان عدي بن مرينا من رجال العرب قبل الإسلام، وكان عارفاً باللسان الفارسي، وله عند ملوك الفرس منزلة حسنة، وبها نال مقاماً سامياً عند النعمان ملك الحيرة والعراق، فسعىٰ عدي بن مرينا بكلّ ما قدر عليه من أساليب النميمة والسعاية عند النعمان ملك الحيرة بعدي بن زيد، حتّىٰ كان ما ستقرأه من عجائب السعاية وغرائب النميمة.

حكاية عدي بن زيد، وعاقبة النميمة:

هو عدي بن زيد بن حماد بن أيّوب بن مجروف بن عامر بن عصية بن امرء القيس بن زيد مناة.

كان عدي هذا من الشعراء والأُمراء، وكانوا يقولون فيه: إنّ عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري معها مجراها. كان أحد أجداده ـ وهو أيّوب بن مجروف ـ نازلاً بالحيرة متّصلاً مع ملوكها، فكانوا يعرفون حقّه وحقّ ولده زيد، فلا يملك منهم ملك إلّا ولولد أيّوب منه جوائز ومواهب.

وتزوّج زيد بن أيّوب إمرأة من آل قدام فولدت له حماراً، واتّفق أن خرج زيد يوماً يريد الصيد فعرض له رجل من بني امرؤ القيس فقتله، وكان حماراً حين قتل أبوه زيد صغيراً، وكان مع أُمّه بين أخواله، حتّىٰ إذا أيفع حوّلته أُمّه إلىٰ دار أبيه زيد، وتعلّم الكتابة حتّىٰ صار من أكتب العرب، وتولّى الكتابة للنعمان ملك الحيرة، ورزق ولداً سمّاه زيداً باسم أبيه، وكان لحمار صديق من الدهاقين العظماء يقال له فروخ ماهان، فدفع إليه ولده زيداً ليعلّمه ما ينفعه، وأوصىٰ به إليه عند موته، وكان الدهقان من المرازبة، فأخذ إليه وكان عنده مع ولده.

كان زيد قبل وفاة أبيه قد تعلّم الكتابة، وتصرّف في اللغة العربية، وعلّمه الدهقان اللغة الفارسية فأحسن التصرّف فيها، فبرز لبيباً حاذقاً محبوباً، وكان للدهقان مع كسرىٰ أنوشروان محادثة ومواصلة، وكسرىٰ يأخذ برأيه، فذكر له

يوماً زيد بن حمّار وأشار عليه أن يجعله على البريد في حوائجه فـفعل، ولم يكـن كسرىٰ يفعل ذلك إلّا بأولاد المرازبة.

ولمّا هلك النعمان ملك الحيرة اتّفق أهلها علىٰ زيد، فملّكوه عليهم إلىٰ أن جعل كسرىٰ عليها المنذر بن ماء السماء، وتزوّج زيد نعمة بنت ثعلبة العدوية، فولدت له عدياً، ولمّا أيفع جعله أبوه مع شاهان بن المرزبان، فكان يـتعلّم اللـغة الفـارسية والعربية وفنون الأدب حتّىٰ خرج من أفهم أهل زمانه، وأعلمهم بـاللغة العـربية والفارسية، وفنون الأدب والشعر، ورمي النبل، ولعب الصولجان، وركوب الخيل ببسالة العرب، وحرفة الفرس، وغرائب الشجاعة.

ولمّا وفد المرزبان علىٰ كسرىٰ ودخل عليه، قـال له: أيّهـا المـلك السـعيد إنّ عندي غلاماً من العرب ربّيته أحسن تربية، فجاء من أفـصح النـاس وأعـلمهم بالعربية والفارسية، والملك محتاج الىٰ مثله فإن رأىٰ أن يثبته مع ولدي في صحبته فعل، فقال له كسرىٰ: أدعه، فأرسل المرزبان بطلب عدي بن زيد فـحضر، ولمـا دخل علىٰ كسرىٰ ابتهر بجماله وحسن وجهه، وكانت الفرس تتبرّك بجميل الوجه، فكلّمه كسرىٰ فوجده من أظرف الناس حديثاً، وأحضرهم جواباً، فرغب فـيه وأثبته مع ولد المرزبان، فكان عدي أوّل مـن كـتب بـالعربية في ديـوان كـسرىٰ أنوشروان، وشاع ذكره في الآفاق، وارتفع علىٰ ذكر أبيه.

ولمّا حضرت المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة الوفاة، أوصىٰ بولده إلىٰ قبيصة الطائي وملكه على الحيرة إلىٰ أن يرىٰ كسرىٰ رأيه فيمن يملكه على الحيرة.

مكث قبيصة أشهراً وبيده زمام المملكة، وكسرىٰ يفكّر فيمن يمـلكه عـليها حتّىٰ أشكل الأمر عليه، وملّ من تصادم الآراء عنده، فقال: لأبعثنّ إلى الحيرة اثني عشر ألفاً من الأساورة، ولأملكنّ عليها رجلاً من الفرس، ولآمـرنّهم أن يـنزلوا على العرب في دورهم، ويملكون عليهم أموالهم ونساءهم.

وكان عدي بن زيد واقفاً بين يديه حين قال ذلك، فتغيّر وجه عدي فنظر إليه

كسرىٰ وقال له: ويحك يا عدي من بقي من آل المنذر، وهل فيهم أحد فيه خير، فقال عدي: نعم أيّها الملك السعيد إنّ في ولد المنذر لبقية فيهم كلّهم خير، فقال كسرىٰ: ابعث إليهم فأحضرهم، فبعث إليهم عدي فأحضرهم وأنزلهم عنده.

وتفاهم مع النعمان أحدهم أن لا يستوحش من تفضيل اخوته عليه عنده وزيادة إكرامهم، فإنّ ذلك لاثبات قوله عندهم، وأنّه لا يسعىٰ بالملك إلّا له لنسابته وتربيته ورضاعه في بني عدي، ثمّ أخذ يعمل في تفضيل اخوة النعمان عليه في المنزلة والاكرام والملازمة، ويريهم أنّ النعمان غير قابل لهذا الأمر، وكان يخلو بهم رجلاً رجلاً ويقول: إذا أدخلتكم على الملك فالبسوا أفخر ثيابكم وأجملها، وإذا دعا لكم بالطعام لتأكلوا فتباطؤوا في الأكل وصغّروا اللقم ونزروا ما تأكلون.

فإذا قال لكم: أتكفوني العرب؟ قولوا: نعم، فإذا قال لكم: فإن شذّ أحدكم عن الطاعة وأفسد أتكفونيه، فقولوا: لا، لأنّ بعضنا لا يقدر علىٰ بعض، فيهابكم ولا يطمع في تفرّقكم، ويعلم أنّ للعرب منعة وبأساً، فقبلوا ذلك من عدي وجزم كلّ واحد بنصحه، وانفرد بالنعمان فقال له: البس ثياب السفر وادخل متقلّداً بسيفك، وإذا جلست للأكل فعظّم اللقم وأسرع المضغ والبلع، وزد في الأكل وتجوع قبل ذلك، فإنّ كسرىٰ يعجبه كثرة الأكل من العرب خاصة، ويرىٰ أنّه لا خير في العربي إذا لم يكن أكولاً، ولا سيّما إذا رأىٰ غير طعامه، وما لا عهد له بمثله، وإذا سألك: هل تكفيني العرب، فقل: نعم، فإذا قال لك: فمن لي باخوتك؟ فقل له: إن عجزت عنهم فإنّي عن غيرهم لأعجز.

انتشار مرض النميمة وعواقبه الوخيمة:

واجتمع عدي بن مرينا بالأسود بن المنذر، فسأله عمّا أوصاه به عدي بن زيد فأخبره، فقال له: غشّك وما نصحك، ولئن أطعتني خالفت كلّ ما أوصاك به، فيكون الأمر لك، وإن عصيتني يكون لأخيك النعمان، ولا يغرّنّك إكرامه وتفضيله

لك على النعمان، فإنّ ذلك كلّه دهاء واحتيال عليك، فقال له الأسود: إنّ عدياً ناصح لي وهو أعلم منك بكسرىٰ، وإذا خالفته أفسد عليّ أمري، وهو جاء بنا ووصفنا عند كسرىٰ، وإلىٰ قوله يرجع كسرىٰ، فلمّا أيس ابن مرينا من قبوله لقوله قال له: ستعلم أيّنا الناصح لك.

دخول أولاد المنذر علىٰ كسرىٰ:

أمر كسرىٰ بدخول أولاد المنذر عليه فأدخلهم عدي بن زيد علىٰ كسرىٰ فأعجبه جمالهم وكمالهم، ورأىٰ رجالاً قلّما رأىٰ مثلهم، فدعا لهم بالطعام ففعلوا ما أمرهم به عدي بن زيد، فجعل كسرىٰ ينظر إلى النعمان من بينهم، وقال لعدي بالفارسية: إن يكن في أحد منهم خير ففي هذا، فلمّا غسلوا أيديهم طلبهم كسرىٰ رجلاً رجلاً، فيقول لكلّ واحد: أتكفيني العرب؟ فيقول: نعم، أكفيكها كلّها إلّا اخوتي حتّىٰ انتهىٰ إلى النعمان، فقال له: أتكفيني العرب، قال: نعم.

قال: كلّها؟ قال: نعم، قال: فكيف لي باخوتك؟ قال: إن عجزت عنهم فأنا عن غيرهم من العرب أعجز، فملكه وخلع عليه وألبسه تاجاً قيمته ستّون ألف درهماً فيه اللؤلؤ والذهب، وآب النعمان رافلاً بأبراد الملك والرياسة، تخفق عليه أعلام السلطنة، وقد نال تلك السلطنة بتدبير عدي بن زيد وسياسته وإحسانه له.

حبائل النميمة والاغتيال التي نصبها عدي بن مرينا لعدي بن زيد:

اجتمع عدي بن مرينا بالأسود بن المنذر فلامه علىٰ مخالفته له وإطاعة عدي بن زيد، وقال له: أما إذا فاتك الأمر فلا تعجزنّ أن تطلب بثارك من هذا العدوي الذي فعل بك ما فعل، وكنت أخبرتك انّه لا يؤمن كيده ومكره وأمرتك فعصيتني، فقال له الأسود: ماذا أصنع الآن؟

قال: أريد أن لا تأتيك فائدة من مالك إلّا عرضتها عليّ كي أستعين بها مع ما

عندي من المال علىٰ هذا الرجل، فقال له الأسود: أفعل ذلك ما بقيت، فجعل يرسل له ما زاد عنه من ماله، وكان عدي بن مرينا كثير المال من ضياعه ويأتيه من غيرها، فأخذ يرسل الهدايا والتحف إلى النعمان ملك الحيرة فلا يمرّ يوم إلّا وعلىٰ باب النعمان هدية من ابن مرينا، حتّىٰ أصبح من أكرم الناس عليه، ولا يقضي أمراً في ملكه إلّا برأيه واشارته، ولا يروم مفارقته أبداً.

وكان ابن مرينا يثني علىٰ عدي بن زيد إذا ذكر عند النعمان، ثمّ يقول: إنّ في عدي بن زيد مكراً وخديعة والعدوي لا يصلح إلّا هكذا، ولمّا رأى الناس منزلة ابن مرينا عند النعمان، وعمل النعمان برأيه أحبّوه وكانت لهم منهم الرغبة والرهبة.

فلمّا تمّت لابن مرينا هذه الأسباب، أخذ يوصي من يثق به أن يقولوا بحضرة النعمان إذا ذكر عدي بن زيد بخير، إنّه كذلك ولكنّه لا يسلم منه أحد فإنّه يقول: إن ملكنا النعمان عامله، وإنّه هو الذي ولّاه.

وكان النعمان يسمع ذلك منهم فيتغيّر وجهه، وما زال ابن مرينا يعمل أنواع الدسائس والحيل، حتّىٰ اسودّ قلب النعمان علىٰ عدي بن زيد، ثمّ كتب ابن مرينا كتاباً علىٰ لسان عدي بن زيد إلىٰ قهرمان له، ثمّ أحضر الكتاب إلى النعمان بعد ظهورامارات وصوله إلى القهرمان، وفيه ما يوجب انتقام النعمان من عدي بن زيد.

فلمّا قرأه النعمان اشتدّ غضبه، وأرسل إلىٰ عدي بن زيد يقول له: عزمت عليك إلّا زرتني فإنّي قد اشتقت إليك ولا صبر لي عن لقائك، وكان عدي يومئذٍ عند كسرىٰ، فاستأذن من كسرىٰ فأذن له وقدم إلى الحيرة، فلمّا وصل إلى النعمان لم ينظر إليه بل حبسه في محبس لا يدخل عليه فيه أحد، وهو من أشنع السجون وأشدّها ظلمة وأعظمها بلية.

حبس الصنّين وموقف عدي بن زيد فيه:

أودع عدي بن زيد في سجن الصنّين ــ وهو سجن المجرمين ــ فجعل عدي

يقول الشعر وهو في الحبس ويرسله إلى النعمان ليخرجه من ظلمات حبس الصنّين، ويذكره بتفانيه في سبيله، والنعمان لا يرقّ له ولا يعطيه أذناً واعية ولا يجازي الاحسان بالاحسان، حتىٰ كان مصداق قول علي أمير المؤمنين عليه السلام: «اتّق شرّ من أحسنت إليه»، ولمّا أيقن عدي بن زيد بعدم رقّة النعمان له، كتب إلىٰ أخيه أبيّ وهو عند كسرىٰ في المدائن هذه الأبيات:

ألا أبلغ أبيّاً علىٰ نأيه ... وهل ينفع المرء ما قد علم
بأنّ أخاك شقيق الفؤاد ... وكنت به واثقاً ما سلم
لدى ملك موثق في الحديد ... فأمّا بحقٍ وأما ظلم
فلا أعرفنّك كدأب الغلام ... إذا لم يجد عار ما يعترم
فأرضك أرضك أن تأتنا ... تنم ليلة ليس فيها حلم

ولمّا قرأ أبيّ كتاب أخيه عدي، قام إلىٰ كسرىٰ وكلّمه في أمره وعرّفه خبره، فكتب كسرىٰ إلى النعمان يأمره باطلاقه، وبعث رجلاً من قبله مع الكتاب، وكتب سفير النعمان عند كسرىٰ إلى النعمان يعلمه بأنّه قد كتب إليك في أمر عدي بن زيد فإيّاك والمخالفة، واستوثق أبيّ من رسول كسرىٰ بما يقدر عليه في أمر أخيه عدي، وقال للرسول: تدخل عليه في الحبس قبل دخولك على النعمان وتعمل بما يأمرك به.

فجاء الرسول إلى الحيرة ودخل علىٰ عدي قبل النعمان، فوجده موثقاً بالحديد في حبس الصنّين وأنفاسه أحرّ من جمر الغضا، فقال له: إنّي قد جئت بارسالك إلىٰ كسرىٰ فما عندك، قال: لك عندي الذي تحبّ، ووعده بعدة سنية وقال له: لا تخرج من عندي وأعطني الكتاب حتىٰ أرسله إليه، فإنّك والله إن خرجت من عندي لأقتلنّ، فقال له الرسول: لا أقدر إلّا أن آتي الملك بالكتاب وأوصله إليه، فجعل عدي يكلّمه وهو مقيّد والرسول يجيبه وهو مطلق، وخرج من عنده ليقابل النعمان بالكتاب وينال منه جميل المواهب.

وكان أعداء عدي قد علموا بما جاء به الرسول من عند كسرىٰ، فأقبلوا إلى النعمان وقالوا له: إنّ رسول كسرىٰ قد دخل علىٰ عدي في الحبس، ولئن ذهب عدي إلىٰ كسرىٰ لم يستبق منّا أحداً أنت ولا غيرك. فأمرهم النعمان حينئذٍ بقتل عدي في الحبس، وإخفاء أمره، وأن يأمروا حرس الحبس بالاخبار عنه بأنّه مات قبل هذا بأيّام، فذهب أعداءه باشارة النعمان إلى الحبس وقتلوه وأخفوه وأفهموا الحرس ما أمرهم به النعمان.

دخل رسول كسرىٰ على النعمان وأعطاه الكتاب، فقال له: نعم أفعل ذلك وكرامة، ثمّ أمر للرسول بأربعة آلاف مثقال ذهباً وجارية حسناء، وقال له: إذا أصبحت فادخل أنت بنفسك الحبس وأخرج عدياً منه.

فلمّا أصبح الرسول دخل الحبس، فأعلمه الحرس انّ عدياً قد مات من أيام ولم نجترء علىٰ اخبار الملك خوفاً منه لعلمنا بكراهته لموته، فرجع الرسول إلى النعمان وقال له: إنّي دخلت علىٰ عدي بن زيد نهار أمس وهو حي لا مرض فيه، واليوم منعني الحرس وبهتوني بقولهم انّه قد مات منذ أيّام، فقال له النعمان: أيبعث بك الملك إليّ فتدخل عليه قبلي، كذبت وأردت الرشوة، ثمّ تهدّده وزاده بعد التهديد جائزة سنية، وتوثق منه أن لا يخبر كسرىٰ إلّا أنّه قد مات عدي قبل وصوله بأيّام، فرجع الرسول إلىٰ كسرىٰ وقال له ما أمره به النعمان.

فانظر إلىٰ آثار النميمة والسعاية كيف بدّلت الحقائق وجرت على المحسن الاساءة، كيف أوغرت صدر النعمان علىٰ عدي بن زيد حين أودعه ظلمات حبس الصنين، وأرضىٰ بقتله أعداءه وأعداء من أنعم عليه بكلّ ما لديه. كيف أُعدّت للنعمان أسباب الهلاك والدمار جزاءً لبغيه علىٰ من أحسن إليه.

ندامة النعمان علىٰ قتله لعدي وإحسانه لولده زيد:

ظهر للنعمان بعد قتله لعدي أنّه خُدع في أمره، وأنّ أعداءه وأعداء عدي هم

الذين أغروه بقتله، وتحقّق له ذلك حين بدت جرأتهم عليه وعدم مبالاتهم به، وانقطعت عنه مواصلاتهم فهابهم هيبة شديدة، وأدرك أنّه لا يثق به عاقل بعد بغيه وغدره بمن كان السبب في نعمته وسلطانه مع ماله من التربية والخدمة، فضاق صدره لذلك وانتبه من غفلته وندم حيث لا ينفع الندم.

أخذ النعمان يبحث عن ولد عدي، فاتّفق أنّه خرج ذات يوم للصيد فلقي زيد بن عدي ولم يكن رآه قبل ذلك، فعرفه بشبه أبيه عدي، فقال له: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا زيد بن عدي بن زيد، فكلّمه فرآه كاملاً ظريفاً، ففرح به فرحاً شديداً وقرّبه منه وأعطاه، ثمّ اعتذر إليه من أمر أبيه، وجهّزه وكتب إلىٰ كسرىٰ أنّ عدياً كان ممّن أعين به الملك في نصحه وليه، فأصابه ما لابدّ منه وانتهت مدّته وانقضىٰ أجله، ولم يصب به أحد أشدّ من مصيبتي به، وأمّا الملك فلم يكن ليفقد رجلاً إلّا جعل الله له منه خلفاً لما عظّم الله من ملكه وشأنه، وقد بلغ ابن له ليس بدونه، رأيته يصلح لخدمة الملك، فسرّحته إليه فإن رأى الملك أن يجعله مكان أبيه فليفعل، وليصرف عمّه عن ذلك إلىٰ عمل آخر.

ولما قدم زيد بن عدي علىٰ كسرىٰ أعجبه ما به من أنواع الأدب والكمال، فجعله مكان أبيه وصرف عمّه إلىٰ غيره من الأعمال، فكان زيد يلي المكاتبة عن كسرىٰ إلىٰ ملوك العرب في أمورها، وفي خواص أُمور كسرىٰ، وله من ملوك العرب الهبات والجوائز، وكسرىٰ يقرّبه ويدنيه ويسأله عمّا يريده، فإذا سأله عن النعمان يحسن ذكره والثناء عليه.

إطاعة النمام بغي، وعلى الباغي تدور الدوائر:

كانت لملوك الفرس عادة فيما يرجع لأمر النساء، يجرونها في البلاد التي ساد فيها سلطانهم، كانت عادتهم إرسال السعاة في البلاد ومعها صفات النساء التي تروم الدخول بها ملوكهم وأبناؤها، فإذا وجد الساعي فتاة تنطبق عليها الصفات

المكتوبة حملها إلى الملك ونال ما يبتغيه من الطرفين، ولم تكن سعاتهم تجوب البلاد العربية لظنّهم أنّه لا توجد فيها فتاة تتّصف بالصفات المطلوبة، كانوا لا يعلنون بهذا الطلب، ولا يطلعون عليه إلّا السعاة المتخصّصين لذلك.

فاتّفق لزيد بن عدي الاطلاع علىٰ تلك الصفات التي كتبها كسرىٰ لبعض السعاة، فجاء إلىٰ خدمة كسرىٰ وقال له: إنّي رأيت الملك كتب في نسوة يطلبن له وقرأت الصفة، وقد كنت بآل النعمان عارفاً، وعند عبدك النعمان من بناته وأخواته وبنات عمّه وأهله أكثر من عشرين امرأة علىٰ هذه الصفة.

فقال كسرىٰ: أُكتب له فيهنّ، فقال زيد: أيّها الملك إنّ شرّ شيء في العرب وفي النعمان خاصّة، أنّهم يتكرّمون في أنفسهم ويأنفون عن العجم، وإنّي أخاف أن يغيبهنّ عمّن تبعثه إليه، أو يعرض عليه غيرهنّ، وإن قدمت أنا عليه لم يقدر علىٰ ذلك، فابعثني وابعث معي رجلاً من ثقاتك يفهم بالعربية، حتّىٰ أبلغ ما تحبّه، فأرسله وبعث معه رجلاً يفهم بالعربية من أهل البصيرة والجلد.

فخرج به زيد وجعل يكرمه ويلاطفه حتّىٰ بلغ الحيرة، ولما دخل على النعمان تواضع له وذكر أمر كسرىٰ وأعظمه، وقال: إنّه قد احتاج إلىٰ نساء لنفسه وولده وأهل بيته، وأراد كرامتك بصهره، فبعث إليك، وذكر صفة النساء التي يريدها كسرىٰ، فشقّ ذلك على النعمان، وقال لزيد والرسول يسمع: أما في مها السواد، وعين فارس ما يبلغ به كسرىٰ حاجته؟

فقال الرسول لزيد بالفارسية: ما المها والعين؟ فقال له زيد بالفارسية: كاوان ـ أي البقر ـ فأمسك الرسول، وقال زيد للنعمان: إنّما أراد الملك كرامتك، ولو علم أنّ هذا يشقّ عليك، لم يكتب إليك به، فأنزلهما النعمان عنده وأكرمهما وكتب إلىٰ كسرىٰ: إنّ الذي يطلبه الملك ليس عندي، وقال لزيد: اعذرني عند الملك.

ولمّا رجع زيد إلىٰ كسرىٰ، قال للرسول: أصدق الملك بما سمعت، فإنّي سأُحدّثه بمثل حديثك، ولا أُخالفك فيه، فلمّا دخلا علىٰ كسرىٰ دفعا إليه كتاب النعمان فقرأه

وفهم ما فيه، فقال لزيد: وأين الذي كنت خبرتني به؟ قال زيد: قد كنت خبرتك بضنّهم بنسائهم علىٰ غيرهم، وإنّ ذلك من شقائهم ومن اختيارهم الجوع والعرىٰ على الشبع، وايثارهم السموم والرياح علىٰ طيب أرضك هذه، حتّىٰ أنّهم يسمّونها السجن، فاسأل هذا الرسول الذي كان معي عمّا قاله النعمان، فإنّي أكرم الملك عن مشافهته بما قاله وأجاب به.

فقال كسرىٰ للرسول: وما قال؟ فقال له الرسول: أيّها الملك إنّه قال: أما كان في بقر السواد وفارس ما يكفيه حتّىٰ يطلب ما عندنا، فعرف الغضب في وجه كسرىٰ، ووقع في قلبه ما وقع، لكنّه لم يزد علىٰ أن قال: ربّ عبدٍ قد أراد ما هو أشدّ من هذا، ثمّ صار أمره إلى التباب.

وشاع هذا الكلام عن كسرىٰ حتّىٰ بلغ النعمان، سكت كسرىٰ عن النعمان أشهراً، وفي قلبه ما فيه على النعمان، والنعمان يتوقّع انتقام كسرىٰ منه، فبينما هو علىٰ تلك الحالة إذ وافاه كتاب كسرىٰ يقول فيه: أن أقبل فإنّ للملك حاجة إليك.

خروج النعمان عن مملكته وتجوّله في العرب:

قرأ النعمان كتاب كسرىٰ فانكسر منه ظهره، وخرج من الحيرة قبل بزوغ فجر ليلته هارباً بأهله، وما خفّ حمله حتّىٰ لحق بطي، وأراد منهم الامتناع في جبالهم فأبوا عليه، وقالوا له: لولا صهرك معنا لقتلناك، فإنّه لا حاجة لنا إلىٰ معاداة كسرىٰ، ولا طاقة لنا به، فذهب يطوف في قبائل العرب ولا يقبله منهم أحد، حتّىٰ نزل علىٰ بني رواحة ـ وهم حي من عبس ـ، فقالوا له: إن شئت قاتلنا معك، وكانت له عليهم منّة، فقال لهم: لا أحبّ هلاككم فإنّكم غير قادرين علىٰ منعي.

واجتاز تلك القبائل والبلاد حتّىٰ نزل بذي قار في بني شيبان، فلقي هاني بن قبيصة واستجار به، فقال له هاني: أنا أمنعك ممّا أمنع نفسي وأهلي وولدي منه، وإنّ ذلك غير نافعك لأنّه مهلكي ومهلكك، وعندي رأي لك لست أشير به عليك

لأدفعك عمّا تريده من جواري ولكنّه الصواب، فقال له النعمان: هاته، فقال هاني: كلّ أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه إلّا أن يكون بعد الملك سوقة، والموت نازل بكلّ أحد، ولأن تموت كريماً خير أن تتجرّع الذلّ أو تبقىٰ سوقة بعد الملك، فامض إلىٰ كسرىٰ واحمل له الهدايا والأموال وألق نفسك بين يديه، فأمّا أن يصفح عنك فتكون ملكاً عزيزاً، وأمّا الثانية فالموت خير من أن تتلاعب بك صعاليك العرب، وتعيش فقيراً وتقتل مقهوراً، وهو لا يليق بك، فقال النعمان: وكيف لي بحرمي، قال: هنّ في ذمّتي كبناتي.

فقال النعمان: هذا هو الرأي الصحيح ولن أُجاوزه أبداً، ووجّه النعمان من وقته بالخيل والحلل والجواهر إلىٰ كسرىٰ مع رسوله، وكتب إليه يعتذر ويعلمه أنّه متوجّه إليه، فقبلها كسرىٰ وأمره بالقدوم إليه، فعاد إليه الرسول وأخبره بذلك وأعلمه انّه لم ير من كسرىٰ عليه سوء، ولم يجد له عنده إلّا كرامة.

وتوجّه النعمان من حينه بعد اطّلاعه علىٰ جواب كسرىٰ وما قاله رسوله، ولم يزل يجد السير حتّىٰ وصل إلىٰ المدائن، ولمّا مرّ علىٰ قنطرة ساباط لقيه زيد بن عدي، فقال له زيد: انج نعيم إن استطعت النجاة، فقال له النعمان: أفعلتها يا زيد أما والله لئن عشت لأقتلنّك قتلةً لم يقتلها عربيّ قط، ولألحقنّك بأبيك.

فقال له زيد: إمض لشأنك نعيم فقد والله آخيت لك آخية لا يقطعها المهر الأرن، ولمّا بلغ كسرىٰ أنّ النعمان بالباب بعث إليه فقيّده وبعث به إلى السجن بخانقين، ولم يزل فيه حتّىٰ مات بمرض الطاعون، وقيل مات بحبس ساباط.

فانظر إلىٰ نتائج النميمة والسعاية، كيف بدّلت محاسن عدي بن زيد وأياديه الجميلة عند النعمان، حتّىٰ قضت علىٰ عدي وسبّبت زوال ملك النعمان عن الحيرة والعراق، وذهبت بحياته ومزّقته وأهله ففرّقتهم أيدي سبا.

فهما شدّد القانون الإسلامي علىٰ تحريم النميمة والسعاية، ووبّخ أهلها، فذلك كلّه من الحكمة التامّة، والنظام الربّاني، لحفظ انتظام الإنسان في كونه الأوّل والثاني.

النصوص الشرعية في حرمة النميمة:

جاء النصّ في القانون الإسلامي علىٰ تحريم النميمة وذمّ أهلها، وبيان سوء عاقبتهم.

١ ـ سورة القلم:

فقال سبحانه: ﴿**ولا تطع كلّ حلّاف مهين ● هماز مشّاءٍ بنميم ● منّاع للخيرُ معتد أثيم ● عتلّ بعد ذلك زنيم**﴾ [القلم: ١٠–١٣].

جمعت هذه الآية الشريفة، نفائس المواعظ والحكم، وهي بصورة الخطاب لرسول الله ﷺ، فإنّه سبحانه نهاه عن إطاعة الحلّاف المهين ـ أي كثير الحلف الكاذب في حلفه ـ والمهين من الاهانة لكونه كذوباً، لأنّ المعروف بالكذب مهان عند العقلاء، والهمّاز هو الوقّاع في أعراض الناس المغتاب لهم.

والمشّاء بنميم هو الساعي بالنميمة بين الناس، ليضرب بعضهم ببعض، ومن كان متّصفاً بهذه الصفة، فهو منّاع للخير الذي يراد بالعباد، من اتّحادهم وائتلافهم، ورفع التصادم والتضارب من بينهم فهو معتد أثيم، لأنّه تجاوز حدّه وتعدّاه، وتحمّل الاثم العظيم بسعايته بين العباد بفرقتهم. والعتلّ هو الفاحش السيّئ الخلق. والزنيم هو الدعي الملصق بقومه المتولّد من زنا، وربّما فهم بعضهم من تمام الآية أهل النميمة غالباً لا ينتمون إلىٰ من إليه ينسبون.

٢ ـ سورة الهمزة:

وقال سبحانه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ● ويل لكلّ همزة لمزة ● الذي جمع مالاً وعدّده ● يحسب أنّ ماله أخلده ● كلّا لينبذنّ في الحطمة ● وما أدراك ما الحطمة ● نار الله الموقدة ● التي تطلع علىٰ الأفئدة ● إنّها عليهم مؤصدة ● في عمد ممدّدة﴾ [سورة الهمزة].

لا يخفىٰ عليك أنّ الويل كلمة تستعمل في مقام سوء الحال والاهانة والعذاب لمن يوجّه إليه الويل، وقيل: أنّه في هذه الآية وأمثالها يراد بها وادي عظيم في جهنّم لبيان التهديد والوعيد من الله سبحانه لمن خالف أمره ونهيه، والهُمزة واللمزة بمعنىٰ واحد، وهو المغتاب العيّاب المشّاء بالنميمة، الساعي بين العباد بما يوجب فرقتهم، والتنابذ بينهم، فهو لمخالفته لأمر الله ونهيه، أعدّ له ذلك الويل، وهو ذلك العذاب العظيم.

ولا ينفعه ما جمعه من المال وعدّده وأحصاه، وأعدّه لمهمّاته وكشف البلاء والكرب عنه، حتىٰ أنّه يحسب أنّ ماله أخلده، فلا يظنّ أنّ ماله أخلده في الدنيا أو يدفع عنه العذاب في الآخرة، كلّا ليس الأمر كما ظنّ، بل الحقّ أنّه لينبذنّ في الحطمة، وما أدراك ما الحطمة، هي نار الله الموقدة، التي تطلع علىٰ الأفئدة، لأنّها نار أعدّها سبحانه لمن غضب عليهم، فحرّها يصل إلىٰ أفئدتهم وهي عليهم مؤصدة ـ أي مطبقة عليهم ـ، في عمدٍ ممدّدة، يأمر الله سبحانه العمد ـ وهي الأعمدة ـ بالمدّ فتمتدّ، فلا يقدرون علىٰ الخروج منها بعد انطباقها عليهم.

هذا جزاء المخالفين لأمر الله ونهيه، أهل الهمز واللمز، الساعين بالنميمة بين العباد، أجارنا الله من هذه الصفات الرديئة.

٣ ـ سورة تبّت:

وقال سبحانه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم • تبّت يدىٰ أبي لهب وتب • ما أغنىٰ عنه ماله وما كسب • سيصلىٰ ناراً ذات لهب • وامرأته حمّالة الحطب • في جيدها حبل من مسد﴾ [سورة تبّت].

في مجمع البيان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا، فقال رافعاً صوته: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش فقالوا له: ما لك؟ فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أنّ العدو مصبحكم أو ممسيكم، أما كنتم تصدّقون؟

قالوا: بلى، قال: فإنّي نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد. فقال له أبو لهب: تبّاً لك لهذا دعوتنا جميعاً، فأنزل الله سبحانه علىٰ رسوله هذه السورة[1].

ومعنىٰ تبّت يدىٰ أبي لهب وتب، خسرت يداه وخسر هو، وإنّما نسب الخسران إلى اليد لأنّ الأعمال تكون باليد، فقد خسر عمله وخسر نفسه لأنّه من أهل النار.

وكان اسمه عبد العزىٰ ـ والعزىٰ هو أعظم صنم كانوا يعبدونه ـ، ولم يذكره سبحانه باسمه كراهية أن ينسبه إلىٰ عبادة غيره، وكان أبو لهب أشدّ الناس تكذيباً لرسول الله ﷺ.

قال طارق المحاربي: بينا أنا بسوق ذي المجاز، إذ أنا بشاب يقول: أيّها الناس قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا، وإذا برجل خلفه يرميه قد آذىٰ ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيّها الناس انه كذّاب فلا تصدّقون، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمّد ﷺ يزعم أنّه نبيّ، وهذا عمّه أبو لهب يزعم أنّه كذّاب[2].

ولم ينتفع أبو لهب برياسته واعتباره، ونسبه وحسبه، وما أغنىٰ عنه ماله وما كسب من حطام الدنيا، ولا يدفع عنه العذاب الذي أعدّه الله تعالى له، فإنّه سيصلىٰ ناراً ذات لهب ـ أي ذات قوّة واشتعال تلهب لهباً عظيماً ـ وهي نار جهنّم.

ولمّا نزلت هذه السورة كان بعض التابعين لرسول الله مرتاباً بما صرّحت به من أمر أبي لهب، بأنّه من أهل النار، لأنّه كان يحتمل ايمانه بالله بعد نزول السورة، فلمّا مات أبو لهب علىٰ كفره وضلالته وعبادته للأصنام، زال منه ذلك الريب والحمد لله.

وكانت امرأة أبي لهب ـ وهي أُمّ جميل بنت حرب أُخت أبي سفيان ـ علىٰ وتيرة زوجها (أبي لهب) من تكذيب رسول الله وعداوته، بل ازدادت عداوتها فأوقدت نار الفتن بين عباد الله بالنميمة والسعاية تريد بذلك اطفاء نور الله.

---

(١) مجمع البيان، سورة تبّت.

(٢) مجمع البيان، سورة تبت.

فهي تارةً تحمل شوك الحطب فتضعه في طريق من آمن بالله ورسوله عداوةً لله ورسوله، وتارةً تحمل من عجائب النميمة والسعاية لاشعال نار الفساد، ما هو أعظم من حمل الحطب لاشعال النار ذات الرماد، وكانت بالحقيقة بارعة في أساليب النميمة والسعاية ونفثات الكذب.

فالكناية اللطيفة عنها، والتشبيه الحسن لها، بأنّها حمّالة الحطب حيث أنّها سعت حاملة أوزار النميمة، وهي أشدّ تأثيراً من حمل الحطب لايقاد النار.

هذا هو الذي يحسن من التفسير، لأنّ أُمّ جميل لها مكانة في قريش لا تنكر ـ وهي زوجة أبي لهب ـ وماله وثروته ومكانته لا يجهل أحد شيئاً منها، ولا تناسب بين هذا وبين حملها الحطب، إلّا كما عرفت من الكناية اللطيفة والتشبيه الحسن.

وبمناسبة تشبيهها بحمّالة الحطب، مع ترفعّها عن حمله، ناسب بيان جزائها بصفة تلائم حمل الحطب، فبيّن سبحانه جزاءها علىٰ لؤمها وخبثها وسوء صنيعها أنّه سيكون في جيدها حبل من مسد، فهي مع كونها ستصلىٰ كزوجها ناراً ذات لهب، يكون في عنقها حبل يراه الناظر إليه أنّه من ليف، تحقيراً وتشهيراً لها، ويكون لذلك الحبل خشونة الليف، وحرارة النار، وثقل الحديد يجعل في عنقها زيادةً في عذابها، لأنّها نمّامة فاجرة مكذّبة غادرة، شديدة العداوة لله ولرسوله.

وكانت لها قلادة من الجوهر الفاخر، أنفقتها في عداوة رسول الله ﷺ ومحاربته، ولمّا نزلت السورة في حقّ زوجها اشتدّ غيظها وتفاقم أمرها، حتّىٰ كادت تقتل نفسها تغيّظاً وزفيراً.

قالت أسماء بنت أبي بكر: لمّا نزلت هذه السورة أقبلت العوراء أُمّ جميل بنت حرب ولها ولولة، وفي يدها فهر وهي تقول: مذمماً أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصيناه، وكان النبي ﷺ جالساً في المسجد، فلمّا رآها أبو بكر مقبلة نحو النبي جاء إليه، وقال: يا رسول الله انّها قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك، فقال له: انّها لن تراني

وجعل يقرأ قوله سبحانه: ﴿جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾ [الاسراء: ٤٥].

فجاءت وقالت لأبي بكر: أخبرت أنّ محمّداً هجاني؟ فقال لها: وربّ البيت ما هجاك، فولّت وهي تقول: قريش تعلم أنّي بنت سيّدها[1].

ولم تزل بنت حرب تحمل أوزار النميمة، وتوقد نار الحرب عناداً لله ولرسوله، حتىٰ أراح سبحانه منها العباد، وأعدّ لها نار جهنّم يوم المعاد، ﴿ولا يظلم ربّك أحداً﴾ [الكهف: ٤٩].

٤ ـ سورة التحريم:

وقال سبحانه: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ [التحريم: ١٠].

إنّما ضرب الله سبحانه هذا المثل للذين كفروا، ليعلمهم أنّه لا نجاة من عذابه إلّا بطاعته، فلا ينتفع العاصي بقرابته من نبي أو وصي نبي.

خيانة امرأة نوح:

كانت امرأة نوح مع جحودها وكفرها باطناً وتظاهرها بالايمان نمّامة تسعىٰ بالفساد بين العباد، فإذا دبّر نوح ﷺ أمراً أو آمن به أحد سرّاً، أخبرت امرأته جبابرة قومه بذلك، ولم تزل تبذل العناية في تبليغ ما تراه وتسمعه من نوح ﷺ لقومه، غير مبالية بإفشاء سرّ زوجها، ولا مفكّرة بأنّه خيانة منها، لأنّ افشاء السرّ من أكبر الخيانات، لا سيّما إذا كان بنحو السعاية وقصد الفساد، ولذلك وصفها سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بالخيانة.

(١) مجمع البيان، سورة تبت؛ والبحار ١٨: ٧٢ ح٢٦.

فهذه من جهة إسرارها الكفر واظهارها الايمان، ومن جهة أنّها تفشي سرّ زوجها وصفت بالخيانة، وربّما توهم من لا علم له بالحقائق أنّها كانت تخون زوجها في نفسها، وهذا توهّم فاسد، لأنّ نساء الأنبياء منزّهات عن فعل الفاحشة.

خيانة امرأة لوط:

كانت امرأة لوط جاحدة به، شاكّة في أمره، كافرة بالله سبحانه، تخبر قوم لوط بما يوحىٰ إليه، وتعلمهم حديثه مع من آمن به، وتدلّهم علىٰ أضيافه إذا نزلوا عليه، ليرتكبوا منهم فاحشة اللواط، وهي تعلم كراهية لوط لذلك كلّه، فهي نمّامة فاجرة،وغادرةخائنة، ولذلك قرنهاسبحانه بامرأة نوح في صفة الخيانة، لاسرارها الكفر وتظاهرها بالايمان، وافشائها سرّ لوط، فهذه خيانتها لا سوىٰ ذلك.

فانظر نظر الملتفت إلىٰ ما يحكم به العقل، وما تراه من الآيات، لتعلم علم اليقين أنّه لا نجاة لأهل النميمة والخيانة والكفر والجحود، مهما كانت لهم من الأنبياء والأوصياء والمتّقين والأولياء قرابة قريبة، ورحم ماسة.

لا أراك إلّا تحكم باستحالة المحاباة في محكمة العدل الإلهية مهما كان للأنبياء والأوصياء فيها سفارة ونقابة، أمّا الشفاعة لمن أذن الله سبحانه له بالشفاعة، فإنّما هي في المخالفات البسيطة والاساءة عن جهالة، هذا بالنسبة للحقّ العام ـ أي بالنسبة لحقّ الله تعالى ـ، وأمّا الحقّ الخاص ـ أي حقوق الناس ـ، فإنّ الشفاعة لا دخالة لها به، ولا يسقط حقّ ذي حقّ إلّا برضاه، والتصديق بسوىٰ ذلك يوجب طرح الأوامر الربانية والقوانين السماوية، وهي ناموس انتظام الإنسان في الدنيا، وطريقه إلى الحياة الدائمة.

كلام صاحب الدعوة الإسلامية:

وقال صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأمين محمّد ﷺ في النهي عن النميمة

وذمّ أهلها وبيان ما أعدّه الله سبحانه لهم من العقاب: «لا يدخل الجنّة نمّام، لا يدخل الجنّة قتات»[١] ـ القتات هو النمّام ـ.

وقال ﷺ: «أحبّكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً، المواطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون، وإنّ أبغضكم إلى الله المشّاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الاخوان، الملتمسون للبراء العثرات»[٢].

وقال ﷺ: «ألا أُخبركم بشراركم؟» قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «المشّاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبّة، الباغون للبراء العيب»[٣].

وقال ﷺ: «من أشاع علىٰ مؤمن بكلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها يوم القيامة»[٤].

وقال علي أمير المؤمنين ﷺ لرجل جاءه يسعىٰ برجل ينمّ عليه: «يا هذا نحن نسأل عمّا قلت فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك» قال الرجل حين سمع هذا: أقلني يا أمير المؤمنين، فأقاله ونهاه عن ارتكاب النميمة والسعاية[٥].

قال عمر بن عبد العزيز لمن حدّثه عن بعض رجاله بما يكره: يا هذا ننظر في قولك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا﴾ [الحجرات: ٦] وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية ﴿همّاز مشّاء بنميم﴾ [القلم: ١١].

رفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعة يذكر له فيها مالاً كثيراً لولد يتيم ثمّ يحرّضه علىٰ أخذه، فكتب له الصاحب بن عباد علىٰ ظهر تلك الرقعة:

---

(١) البحار ٧٥: ٢٦٨ ح١٩.
(٢) البحار ٧١: ٣٨٢ ح١٧؛ والمحجة البيضاء ٥: ٢٧٥.
(٣) البحار ٧٥: ٢١٢ ح١؛ والمحجة البيضاء ٥: ٢٧٥.
(٤) المحجة البيضاء ٥: ٢٧٦.
(٥) البحار ٧٥: ٢٦٦ ح١٣؛ والمحجة البيضاء ٥: ٢٧٨.

«السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أكثر من الربح، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكاً في مستور، ولولا أنّك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك، فتوقّ يا ملعون العيب فإنّ الله أعلم بالغيب، الميّت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والمال ثمرة الله، والساعي لعنه الله».

نعم بمثل هذا الجواب يسدّ باب النميمة، وتبطل عمال السعاية عند الزعماء وأهل الأمرة والرياسة.

الاصغاء إلى النميمة أقبح من النميمة:

لا ريب في قبح الاصغاء إلى النميمة وترتيب الأثر عليها، فإنّ كامل العقل، سليم القلب، قويّ الادراك، قرين الحكمة، تأبىٰ له صفاته قبول السعاية والنميمة من أهلها، قال بعضهم: لو صحّ ما قاله النّمام إليك لكان هو المجتري بالشتم عليك، والمقول عنه أولىٰ بحلمك، لأنّه لا يقابلك بشتمك[1].

قال بعض الملوك لأحد جلسائه: بلغني أنّك قلت فيّ قولاً لا ينبغي صدوره منك، فقال له الرجل: ما قلت ذلك، فقال له الملك: إنّ الذي أخبرني لصادق، فقال له الرجل: لا يكون النّمام صادقاً، فأطرق الملك مليّاً ثمّ قال له: صدقت[2].

زار حكيماً بعض أصدقائه، فأخبره بخبر عن صديق له يوجب مقته عند ذلك الحكيم، فقال الحكيم لمن أخبره: قد أبطأت في زيارتنا، وأتيت بثلاث جنايات: بغضب أخي عليّ، وبشغل قلبي الفارغ، وباتّهام نفسك الأمينة[3].

وقال لقمان لابنه: يا بني أوصيك بخلال إن تمسّكت بهنّ لم تزل سيّداً، أبسط خلقك للقريب والبعيد، وامسك جهلك عن الكريم واللئيم، واحفظ اخوانك، وصل أقاربك، وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك،

(١) المحجة البيضاء ٥: ٢٧٩.
(٢) المحجة البيضاء ٥: ٢٧٨.
(٣) المحجة البيضاء ٥: ٢٧٨.

وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك[١].

وقال رجل لبعض الأُمراء العرفاء: إنّ فلاناً لم يزل يذكرك بشرّ، فقال له ذلك الأمير: يا هذا ما رعيت حقّ مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أدّيت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره، واعلم إنّ الموت يعمّنا، والقبر يضمّنا، والقيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين[٢].

(١) المحجة البيضاء ٥: ٢٧٩.

(٢) نحوه في البحار ٧٥: ٢٤٦ ح٨، عن عليّ بن الحسين ﷺ.

الفصل الخامس عشر
الاكثار من ذكر الموت

«وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ؛ وَأَنَّكَ فِي منزل قُلْعَةٍ، وَدارِ بُلْغَةٍ، وَطَرِيقٍ إِلَىٰ ٱلْآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ ٱلْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلَابُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَىٰ حَذَرِ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَىٰ حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذٰلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ.

يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بَعْدَ ٱلْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَىٰ مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ ٱللهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا. نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَىٰ مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا. سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا. سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ ٱلْعَمَىٰ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ ٱلْهُدَىٰ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، وَٱتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ

وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا.
رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلَامُ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ ٱلْأَظْعَانُ؛ يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ!».

* * *

خُلقنا للآخرة:

قوله عليه السلام: «إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا».

لأنّه لو كان مخلوقاً للدنيا، فإنّ نفعه والانتفاع به منصرم لا محالة، والإنسان إنّما كون لأن يفيد ويستفيد مع الخلود، إمّا بوجود الماثل بين الموجودات، أو بأثره الخالد بين طيّات القلوب من علم ناجع، وأخلاق حميدة، وضرائب جميلة.

وأمّا أنّه خلق للفناء لا للبقاء، فتلك سنّة الله التي جرت في عامة مخلوقاته، ﴿فلن تجد لسنّة الله تبديلاً ولن تجد لسنّة الله تحويلاً﴾ [فاطر: ٤٣] ولا يناقض هذا ما ذكر من أنّ مصير الإنسان غير منتهٍ إلى النفاد، وإنّما هو انتقال من دار إلىٰ أُخرىٰ، وليس النافد هاهنا منه إلّا صورته البائدة، وجسمه البالي، علىٰ حد قول أبي العلاء المعرّي:

خلق الناس للبقاء فضلّت أُمّة يحسبونها للنفاد
إنّما ينقلون من دار أعمال إلىٰ دار شقوة أو رشاد

وأمّا هو ذاته فلا يعروه النفاد في أثره، بل هو باق ما تسنّم المولىٰ عرش ملكه.

وأمّا أنّه خلق للموت لا للحياة، فإنّ الموت وإن كان مكدراً لهناء الإنسان، ومنغّصاً لشهواته ما خطرت له خاطرة منه، فإنّه جمال الإنسان وجمام نفسه، وساتر عواره، بل فيه سعادته وكماله ما اتّخذ الطريق اللّاحب منهجاً له، ولا تبعد عنك الأحاديث الشريفة التي تصوّر من الموت شيئاً محبباً إلى القلوب، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «تحفة المؤمن الموت»[1]، وقال: «الموت كفّارة لكلّ

(١) دعوات الراوندي: ٢٣٥ ح٦٤٨.

مسلم»[١].

وقال: «الموت الموت ألا ولابدّ من الموت، جاء الموت بما فيه، جاء بالروح والراحة، والكرة المباركة إلىٰ جنّة عالية لأهل دار الخلود، الذين كان لها سعيهم، وفيها رغبتهم»[٢]، إلىٰ أمثالها من الكثير الطيب، غير أنّه غير عازب عن فكرة الإنسان النابه، أنّ المراد من مفاد هذه المأثورات من سلك الطريق الجدد في دينه، أو تنكب العيث[٣] والعبث في سلوكه، وإلّا فليس من المعقول أن يرتكب الإنسان مظاهر الخلاعة والمجون، ثمّ ينتهي أمره إلىٰ نعومة الخاطر ورغد العيش، فليس ذلك بمقربة من العدل الإلهي.

أسباب الخوف من الموت وعلاجه:

نذكر هنا أسباب الخوف من الموت مع العلاج الناجع لكلّ سبب، وأشهر هذه الأسباب خمسة:

١ ـ عدم معرفة حقيقة الموت:

ليس الموت بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها ـ وهي الأعضاء التي يسمّىٰ مجموعها بدناً ـ، كما يترك الصانع استعمال آلاته، والنفس جوهر ليس بجسم ولا عرض ولا قابل للفساد، وهذا الجوهر مفارق لجوهر البدن مباين له كلّ المباينة بذاته وخواصه وأفعاله وآثاره، فإذا فارق البدن بقي البقاء الذي يخصّه، وتخلص من علائق الطبيعة، ولا سبيل إلىٰ فنائه وعدمه، فإنّ الجوهر لا يفنىٰ من حيث هو جوهر، ولا تبطل ذاته، وإنّما تبطل الاعراض والنسب والاضافات التي بينه وبين الأجسام بأضدادها، فأمّا الجوهر فلا ضدّ له، وكلّ شيء فإنّما فساده من ضدّه.

---

(١) دعوات الراوندي: ٢٣٥ ح ٦٤٩.

(٢) البحار ٦: ١٢٦ ح ٤.

(٣) العيث: الفساد.

وإن تأمّلنا الجوهر الجسماني الذي هو أخسّ من ذلك الجوهر الكريم واستقرينا حاله، وجدناه غير فان ولا متلاش من حيث هو جوهر، وإنّما يستحيل من حالة إلىٰ أُخرىٰ، وتستحيل خواصّه وأعراضه التي كانت له في الحالة الأُولىٰ إلىٰ خواص وأعراض تناسب الحالة الأُخرىٰ.

فأمّا الجوهر نفسه فهو باق لا سبيل إلىٰ عدمه وبطلانه، مثال ذلك الماء، فإنّه يستحيل بخاراً وهواءً، وكذلك الهواء يستحيل ماءً وناراً، فتبطل عن الجوهر أعراضه وخواصّه، وأمّا هو فلا سبيل إلىٰ عدمه.

هذا في الجوهر الجسماني القابل للاستحالة والتغيّر، وأمّا الجوهر الروحاني الذي لا يقبل الاستحالة ولا التغيّر في ذاته، وإنّما يقبل كماله وتمام صوره، فكيف يتوهّم فيه العدم والتلاشي.

٢ ـ جهل المصير أو جهل بقاء النفس:

من يخاف الموت لأنّه لا يعلم إلىٰ أين يصير بعده، وجهل بقاء النفس، وكيفية المعاد، فليس في الحقيقة يخاف الموت، وإنّما يجهل ما ينبغي أن يعلمه، فالجهل إذن هو المخوف.

وهذا الجهل هو الذي حمل الحكماء علىٰ طلب العلم والتعب به، وتركوا لأجله اللذات الجسمانية وراحات البدن، وفضّلوا عليه النصب والسهر، ورأوا أنّ الراحة من طرح الجهل هي الراحة الحقيقية، وأنّ التعب الحقيقي هو تعب الجهل، لأنّه مرض مزمن للنفس، والبرء منه خلاص لها، وراحة سرمدية ولذّة أبدية.

لذلك وجب على العاقل أن يطلب العلم الحقيقي الذي يكشف له حال الإنسان بعد موته، كما قال حارثة للنبي ﷺ: كأنّي أنظر إلىٰ عرش ربّي بارزاً، وكأنّي أنظر إلىٰ أهل الجنّة يتزاورون فيها، وإلىٰ أهل النار يتلاعنون فيها[1].

(١) البحار ٢٢: ١٢٦ ضمن حديث ٩٨.

وهذا العلم إنّما يحصل بالبحث عن حقيقة النفس، ووجه علاقتها بالبدن، ووجه خاصيّتها التي خلقت لها، ووجه التذاذه بخاصيّته وكماله، مع معرفة الرذائل المانعة له من كماله، وقد نبّه الشرع الشريف علىٰ ذلك العلم في مواضع كثيرة وأمر بالتفكّر في النفس، كما أمر بالتفكّر في ملكوت السماوات والأرض.

ولمّا تيقّن الحكماء أنّ كمال النفس وسعادتها في العلم، ونقصها وشقاءها من الجهل، ولا برء من هذا إلّا بذاك، لما تيقّنوا ذلك واستبصروا فيه، وهجموا علىٰ حقيقته، ووصلوا إلى الروح والراحة منه، هانت عليهم أُمور الدنيا كلّها، واحتقروا ما يعظمه الجمهور من المال والثروة واللذات الحسية والمطالب التي تؤدّي إليها، إذ كانت قليلة الثبات والبقاء، سريعة الزوال والفناء، كثيرة الهموم إذا وجدت، عظيمة الغموم إذا فقدت.

وقد اقتصروا منها على المقدار الضروري في الحياة، وتسلوا عن فضول العيش الذي حوىٰ ما ذكر من العيوب وما لم يذكر، ولأنّها مع ذلك بلا نهاية، لأنّ الإنسان إذا بلغ منها غاية تاقت نفسه إلىٰ غاية أُخرىٰ، من غير وقوف علىٰ حدّ، ولا انتهاء إلىٰ أمد.

وهذا هو الموت لا ما يخاف منه، والحرص عليه هو الحرص على الزائل، والشغل به هو الشغل بالباطل، ولذلك جزم الحكماء بأنّ الموت موتان: موت إرادي وموت طبعي، وكذلك الحياة حياتان: حياة إرادية، وحياة طبعية.

وعنوا بالموت الارادي إماتة الشهوات وترك التعرّض لها، وبالموت الطبعي مفارقة النفس البدن، وعنوا بالحياة الاراديّة ما يسعىٰ له الإنسان لحياته الدنيا من المآكل والمشارب والشهوات، وبالحياة الطبعية بقاء النفس السرمدي بما تستفيده من العلوم الحقيقية، وتبرء به من الجهل.

ولذلك وصّىٰ افلاطون طالب الحياة بقوله له: «مت بالارادة تحيي بالطبيعة» ومثل ذلك قول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «من أمات نفسه في الدنيا فقد

أحياها في الآخرة» علىٰ أنّ من خاف الموت الطبعي للانسان فقد خاف ما ينبغي أن يرجوه، ذلك أنّ هذا الموت هو تمام حدّ الإنسان لأنّه حيّ ناطق ميّت.

قال الراغب الاصفهاني: «وليس معناه ما توهّمه كثير من الناس، من أنّه من الحياة الحيوانية والموت الحيواني، والنطق الذي هو في الإنسان بالقوّة، وإنّما أريد بالحيّ من كانت له الحياة المذكورة في قوله تعالى: ﴿لينذر من كان حياً﴾ [يس: ٧٠]، وبالنطق البيان المذكور بقوله: ﴿علّمه البيان﴾ [الرحمن: ٤]، وبالميت من جعل قوّته الشهوانية والغضبية مقهورتين علىٰ مقتضى الشريعة».

فالموت تمام الإنسان وكماله، وبه يصير إلىٰ أُفقه الأعلىٰ، ومن علم أنّ كلّ شيء مركّب من حدّ، وحدّه مركّب من جنسه وفصوله، وأنّ جنس الإنسان هو الحيّ، وفصيله الناطق والميّت، علم أنّه سينحل إلىٰ جنسه وفصوله، لأنّ كلّ مركّب لا محالة منحلّ إلىٰ ما تركّب منه، فمن أجهل ممّن يخاف تمام ذاته، ومن أسوء حالاً ممّن يظنّ أنّ فناءه بحياته، ونقصانه بتمامه، ذلك بأنّ الناقص إذا خاف أن يتمّ، فقد دلّ من نفسه علىٰ غاية الجهل.

فإذن الواجب على العاقل أن يستوحش من النقصان، ويأنس بالتمام، ويطلب كلّ ما يتممه، ويكمله، ويشرفه، ويعلي منزلته، ويخلي رباطه من الوجه الذي يأمن به الوقوع في الأسر لا من الوجه الذي يشدّ وثاقه، ويزيده تركيباً وتعقيداً، ويثق بأنّ الجوهر الشريف الإلهي إذا تخلص من الجوهر الكثيف الجسماني، خلاص بقاء وصفو لاخلاص مزاج وكدر، فقد سعد وعاد إلىٰ ملكوته، وقرب من بارئه، وفاز بجوار ربّ العالمين، وخالط الأرواح الطيّبة من أشكاله وأشباهه، ونجا من أضداده وأغياره.

ومن هنا يعلم أنّ من فارقت نفسه بدنه وهي مشتاقة إليه خائفة من فراقه، فهي في غاية الشقاء والبُعد من ذاتها وجوهرها، سالكة إلىٰ أبعد جهاتها من مستقرّها، طالبة قرار ما لا قرار له.

٣ ـ خوف العقاب الذي يعقب الموت:

إنّ من خاف الموت لأجل العقاب الذي يوعد به بعده، ينبغي أن نبيّن له أنّه ليس يخاف الموت بل يخاف العقاب، وهو لا محالة معترف بذنوب له، وأفعال سيّئة يستحقّ عليها العقاب، ومع ذلك هو معترف بحاكم عدل يعاقب علىٰ السيّئات لا على الحسنات، فهو إذن خائف من ذنوبه لا من الموت.

ومن خاف عقوبة علىٰ ذنب فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ويجتنبه، ويتدارك ما فرّط منه بالتوبة النصوح، والأفعال الرديئة التي تسمّىٰ ذنوباً إنّما تصدر عن أخلاق رديئة هي منشأ الرذائل التي أحصيناها وعرفنا أضدادها من الفضائل، فالخائف من الموت من هذه الجهة جاهل بما ينبغي أن يخاف منه، وعلاج الجهل هو العلم، فالحكمة هي التي تخلّصنا من هذه الآلام والظنون الكاذبة الناشئة عن الجهل، والله الموفّق لما فيه الخير.

٤ ـ جهل ما يقدم عليه بعد الموت:

ومثل ما تقدّم من خاف الموت لأنّه لا يدري علىٰ ما يقدم بعد الموت، لأنّ هذه حال الجاهل الذي يخاف بجهله، فعلاجه أن يتعلّم ليعلم ويشتاق، وذلك أنّ من أثبت لنفسه حالاً بعد الموت، ثمّ لم يعلم ما هي تلك الحال فقد أقرّ بالجهل، وعلاج الجهل العلم، ومن علم فقد وثق، ومن وثق فقد عرف سبيل السعادة فهو يسلكها لا محالة، ومن سلك طريقاً مستقيماً إلىٰ غرض صحيح فقد أفضىٰ إليه بلا شك ولا مرية، وهذه الثقة التي تكون بالعلم هي اليقين، وهي حال المستبصر في دينه المستمسك بحكمته.

٥ ـ الحزن علىٰ ما يخلف من الأهل والولد والمال:

من يزعم أنّه ليس يخاف الموت، وإنّما يحزن علىٰ ما يخلف من أهله وولده وماله

ونشيه[1]، ويأسف علىٰ ما يفوته من ملاذّ الدنيا وشهواتها، ينبغي له أن يعلم أنّ الحزن تعجل ألم ومكروه علىٰ ما لا يجدي الحزن عليه.

* * *

جملة القول في الخوف من الموت:

الخوف من الموت لا يعرض إلّا لمن لا يدري حقيقة الموت، أو لا يعرف إلىٰ أين تصير نفسه، أو لأنّه يظنّ أنّ بدنه إذا انحلّ وبطل تركيبه فقد انحلّت ذاته، وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور، وأنّ العالم سيبقىٰ موجوداً، وليس هو فيه، كما يظنّ ذلك من يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد، أو لأنّه يظنّ أنّ للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التي ربّما تقدّمته وأدّت إليه، وكانت سبب حلوله، أو لأنّه يعتقد عقوبة تحلّ به بعد الموت، أو لأنّه متحيّر لا يدري علىٰ أيّ شيء يقدم بعد الموت، أو لأنّه يأسف علىٰ ما يخلفه من المال والمقتنيات، وهذه كلّها ظنون باطلة لا حقيقة لها كما سبق بيانه.

والإنسان من جملة الكائنات، وكلّ كائن فاسد لا محالة، فمن أحبّ ألّا يفسد فقد أحبّ ألّا يكون، ومن أحبّ ألّا يكون فقد أحبّ فساد ذاته، فكأنّه يحبّ أن يفسد ويحبّ أن لا يفسد، ويحبّ أن يكون ويحبّ ألّا يكون، وهذا محال لا يخطر ببال عاقل.

وأيضاً لو لم يمت أسلافنا وآباؤنا لم ينته الوجود إلينا، ولو جاز أن يبقى الإنسان لبقي من تقدّمنا، ولو بقي من تقدّمنا من الناس علىٰ ما هم عليه من التناسل ولم يموتوا ما وسعتهم الأرض.

وقد وضع الله في طبيعة أكثر النبات وأكثر الحيوان كثرة الذرية، كثرة مفرطة جدّاً، وتلك الكثرة الطبيعية لحكمة، وهي أنّها تكون ضماناً لبقاء الأنواع علىٰ

---

(١) النَّشَبُ: المللُ والعقارُ.

الأرض، فلولا هذه الكثرة المفرطة لانقرض كثير منها، ولم يعوض بمثله في الأرض.

فلو تركت تلك الذرية المتعاقبة حيناً من الدهر، لامتلأ وجه الأرض بالحيوان، فلم تعد الأرض تصلح لحيوان جديد، فموت هذه المخلوقات وسرعة فنائها هي النعمة العظمىٰ، لأنّها تخلي وجه الأرض لما بعدها، فالموت أشبه بالتخلية والحياة أشبه بالتحلية، ولأضرب لك مثالاً لذلك فأقول:

١ ـ إذا نظرت إلىٰ مقدار ما في النخل من لقاح، وما في الذرة ممّا ينتشر في الهواء أو يقع علىٰ الأرض، تجده لو صادف صلاحاً وأثمر كلّه لم تسعه الأرض.

٢ ـ كلّنا نرىٰ السمك وما في باطنه من المقادير الكبيرة من البيض الصغير الدقيق جدّاً، وهو عدد غزير كثير يأكله الناس ويباع في الأسواق، فلو أنّ هذا البيض كلّه صار سمكاً لأصبح البحر الملح قطعة جامدة.

٣ ـ نرىٰ أنّ في البيوت من أنواع الحشرات كالبقّ والبراغيث وأمثالها ما لو تركت ولم يهلكها الناس، ولم يسلّط عليها البرد فيهلكها، وغيرها من الحشرات كالجراد وغيره، لأصبحت الأرض كلّها مغلّفة بطبقة منها، فامتنعت الحياة عليها.

٤ ـ ذكر العلّامة «وولاس»: عشباً ينتج من البذر كلّ سنة ثلاثة أرباع مليون بذرة، وقدّر أنّه لو عاش هذا النسل ثلاث سنين فقط وأعقبت كلّ بذرة في هذه المدّة، ما بقي مكان في الأرض غير مغطّىٰ بها، وقال: لو أنّ كلّ نبات أنتج حبّتين اثنتين في السنة، واستمرّ الانتاج لبلغ عدد الانتاج في السنة الحادية والعشرين ١٤٨٥٧٦.

٥ ـ إنّ بعض الحيوانات الدقيقة المسمّاة «ميكروبات» إذا استمرّت على التوالد مدّة خمسة أيّام بدون انقطاع لملأ المحيط كلّه بنسله إلىٰ عمق ميل.

٦ ـ وميكروب الوباء الكوليرا الذي يتضاعف كلّ عشرين دقيقة، لو مضىٰ عليه يوم واحد وهو يسير بهذا المعدّل بلا عائق، لبلغ وزنه ٧٣٦٦ طنّاً، وبلغ عدده

رقم ٥ وإلىٰ يمينه ٢١ صفراً.

٧ ـ والفيل معلوم أنّه أبطأ الحيوان ولادةً، فإنّ الفيلة لا تلد إلّا مرّة واحدة في كلّ عشرين سنة، وقد حسب أحد العلماء انّه إذا استمرّ التناسل بدون عائق، لبلغ نسل الزوجين بعد ٧٥٠ سنة ١٩ مليون فيل.

٨ ـ الجراد كثيراً ما يهجم على القرىٰ والمزارع وهو كالسحاب فيأكل ما أمامه، ومتىٰ لم يجد ما يأكله أكل بعضه بعضاً.

٩ ـ السمك الذي يشرب الناس زيته لتقوية الجسم، تبيض في العام الواحد الواحدة من أُناثيه مليوني بيضة، فلو أصبحت كلّ هذه البيضات المستخرجة من سمكة واحدة في سنة واحدة سمكاً لصار البحر كتلة جامدة.

١٠ ـ بعض المحار في البحار تبيض الواحدة ستّين مليوناً من البيض، وهذا النسل لو بقي كلّه ما بين عام وعامين لزاد على الكرة الأرضية.

١١ ـ الذباب الذي ينغص عيش الإنسان إذا تكاثر أمامه، تبيض الأُنثىٰ منه خمس أو ست مرّات، وفي كلّ مرّة تبيض من ١٢٠ بيضة إلىٰ ١٥٠ بيضة، فلو عاشت كلّها لم يعش شيء علىٰ الأرض معها.

وهب أنّ رجلاً واحداً من السلف المشهورين لعليّ أمير المؤمنين ﷺ مثلاً، بقي موجوداً إلىٰ الآن ثمّ ولد له أولاد ولأولاده أولاد، وبقوا كذلك يتناسلون ولا يموت منهم أحد، كم يكون مقدار من يجتمع منهم إلىٰ وقتنا هذا، فإنّك تجدهم آلاف آلاف ألف رجل، وذلك أنّ بقيّتهم الآن ما قدّر فيهم من الموت والقتل الذريع لا يحصىٰ عددهم في جميع الأرض، واحسب لمن كان في ذلك العصر من الناس علىٰ بسيط الأرض مثل هذا الحساب، فإنّهم إذا تضاعفوا هذا التضاعف لم تضبطهم كثرة ولم تحصهم عدداً.

ثمّ امسح بسيط الأرض فإنّه محدود معروف لتعلم أنّ الأرض حينئذٍ لا تسعهم قياماً، فكيف قعوداً أو منصرفين، ولا يبقىٰ موضع عمارة يفضل عنهم، ولا مكان

زراعة، ولا مسير لأحد ولا حركة، فضلاً عن غيرها.

روي أنّ نبيّاً من الأنبياء طلب منه قومه أن يدعو الله تعالى ليرفع الموت عنهم، فدعاه فرفع الموت عنهم، حتىٰ كان الرجل منهم ينظر إلىٰ أبيه وجدّه وجدّ أبيه وجدّ جدّه وهكذا، وكذلك من طرف الأُمّ فكان يقوم بخدمتهم ويتعاهد أحوالهم كالأطفال فيشتغل بخدمتهم عن الكسب لهم، وضاقت بهم الدور والمنازل، فانقلبوا إليه بأن يدعو الله سبحانه ويجري عليهم الموت.

وهذه مدّة يسيرة من الزمان، فكيف إذا امتدّ الزمان وتضاعف الناس علىٰ هذه النسبة.

فهذه حال من يتمنّى الحياة الأبدية للبدن، ويكره الموت، ويظنّ ذلك ممكناً أو مطموعاً فيه، وهي حال جهل وغباوة، فاذن الحكمة البالغة، والعدل المبسوط بالتدبير الإلهي هو الصواب الذي لا معدل عنه، ولا محيص منه، وهو غاية الجود الذي ليس وراءه غاية أُخرىٰ لطالب مستزيد، أو راغب مستفيد.

ولذلك ذكره الله في النعم، وعرضه في معرض الأمتنان بقوله: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو علىٰ كلّ شيء قدير ● الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾ [الملك: ١-٢] وقدّم الموت على الحياة لأنّه السبيل الوحيد إليها. فالخائف من الموت هو الخائف من عدل الباري وحكمته، بل هو الخائف من جوده وعطائه.

فقد ظهر ظهوراً حسّياً، أنّ الموت ليس برديء كما يظنّه جمهور الناس، وإنّما الرديء الخوف منه، وأنّ الذي يخاف منه هو الجاهل به وبذاته، وقد ظهر أيضاً فيما تقدّم أنّ حقيقة الموت هي مفارقة النفس البدن، وهذه المفارقة ليست فساداً للنفس، وإنّما هي فساد المركّب.

وأمّا جوهر النفس الذي هو ذات الإنسان ولبّه وخلاصته فهو باق، وليس بجسم يلزم فيه ما لزم في الأجسام، فلا يتزاحم في المكان لاستغنائه عن المكان، ولا يحرص على البقاء الزماني لاستغنائه عن الزمان، وإنّما استفادوا الأجسام كمالاً،

فإذا كمل بها ثمّ خلص منها صار إلىٰ عالمه الشريف القريب إلىٰ بارئه ومنشئه تعالى وتقدّس، وهذا الكمال الذي يستفيده في هذا العالم الحسّي هو السعادة القصوىٰ للإنسان.

نسأل الله حسن المعونة علىٰ ما يقرّبنا منه، ويبعدنا من سخطه، إنّه جواد كريم رؤوف رحيم.

ذكر الموت:

الإنسان في تذكّر الموت حالان: حال قبله، وأُخرىٰ عنده.

الحالة الأُولىٰ:

ينبغي للإنسان قبل الموت أن يكون دائم الذكر له، ولذلك كان من أوّل هداية الأنبياء للناس تذكيرهم الموت وحثّهم علىٰ دوام تذكّره، ومن أكبر هَمِّ الفلاسفة تفكيرهم به، وبسط القول في أنّ الحياة باطلة والموت حقّ، قال رسول الله ﷺ: «أكثروا من ذكر هادم اللذات، فإنّه ما ذكره أحد في ضيق إلّا وسّعه عليه، ولا في سعة إلّا ضيّقها عليه»(١).

وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم سنّة أجروها بينهم مجرى العادة في وجوب تذكّر الموت كلّ حين، فإذا ولد الطفل عندهم صنعوا له نعشاً بقدره، ووضعوه بجانب المهد، يجدّدونه علىٰ مقدار النموّ في الطفل، ولا يزالون يفعلون ذلك، حتّىٰ إذا بلغ أشدّه وضعوا النعش بجانب السرير إلىٰ أن يحلّ يوم أجله، فيحملونه عليه، يشيرون بذلك إلىٰ أنّ يومَ الولادة ويوم الوفاة أمران متلاصقان وحبلان متّصلان، وأنّ الإنسان يمشي في هذه الدنيا وكأنّه عابر جسر، عن يمينه الموت، وعن شماله الحياة.

---

(١) صحيح ابن حبان ٧: ٢٦٠ ح٢٩٩٣، والترغيب ٤: ٢٣٥ ح١.

وأنّه كما يدبّ بنموّه في الحياة يدبّ بأنفاسه نحو المات، وأنّه يجب على العاقل أن يحضره على الدوام ذكر الموت، كما يحضره ذكر الحياة، وأنّ اليقين كلّ اليقين في أعواد النعش، والشكّ كلّ الشكّ في أساطين القصر، وهم يلبسون السواد حداداً في يوم الولادة، والبياض فرحاً عند حلول الأجل، ولم يعتبروه شرّاً، بل هو الخير كلّه عندهم.

فمن منتهىٰ غباوة الإنسان وجهله أن يتّخذ في كلّ منبت شعرة من جسمه حبلاً من الأمل يعلّقه بالبقاء في الحياة الدنيا، ويمحو من ذاكرته كلّ سبب يربطه بصفائح القبر فما الدنيا في الآخرة، كما روي عن النبي ﷺ: «إلّا مثل ما يجعل الواحد اصبعه في اليمّ فلينظر بم يرجع»(١).

ما عليه الناس في هذه الحالة:

الناس في الحالة السابقة ينقسمون ثلاثة أقسام: قسم لا يذكره البتة، وقسم يذكره رعباً وخشيةً، وآخر يذكره عقلاً وحكمةً.

القسم الأوّل: هو ذلك الأحمق الذي لا يتذكّر الموت، ولا يجري له علىٰ خاطر، كأنّه قد رسخ في ذهنه أن لا فناء، فلا يحسّ هذه الحقيقة إلّا عند المشاهدة، ولا يذكر الموت إلّا ريثما تنقضي تلك المشاهدة، كأنّه يشتدّ به المرض أو يختطف الموت أحد أهله أو جيرانه.

فهو لا يتفكّر في الموت وما بعده إلّا نظراً في حال أولاده وتركاته عند موته، ولا ينظر ويتدبّر في أحوال نفسه، وعندما يرىٰ جنازة إلّا بقوله بلسانه ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾ ولا يرجع إلى الله بأفعاله بل بأقواله فقط، فيكون كاذباً فيها تحقيقاً.

القسم الثاني: وهو ذلك الذي يذكر الموت دائماً لخشيته من وقوعه وخوفه من نزوله، فيتولّاهم الرعب، ويستولي عليهم الفزع، وأكثر ما يذكرونه إذا خلوا من

(١) البحار ٧٣: ١١٩ ح ١١٠.

أشغالهم، وانتقلوا إلىٰ أوقات فراغهم، فيكدرون صفاء هنائهم، ويسوّدون بياض معيشتهم.

وأشدّ ما يكون عذابهم من ذكرى الموت إذا أردف الله عليهم النعمة إثر النعمة، وزادهم من متاع الدنيا وزينة الحياة، فتراهم في همّ دائم وعناء مقيم، للتوقّي من الأخطار، والتحرّز من أسباب الهلاك، ويتغالون في ذلك التوقّي إلىٰ حال الجنون، فيحاذرون هبوب النسيم وحرارة الضياء، ويتوهّمون في كلّ لقمة تخمة، وفي كلّ جرعة غصّة، حتّىٰ تمرض الأجسام من تلك الوساوس والأوهام التي قد تؤدّي إلى الموت الزؤام.

القسم الثالث: وهو العاقل الكيّس الذي لا يفارقه ذكر الموت كالمسافر إلىٰ مقصد الحجّ مثلاً، فإنّه لا يفارقه ذكر المقصد، وأشغال المنازل في الحطّ والترحال لا تنسيه مقصوده، وذلك لأنّه يعلم أنّ ذكر الموت يطرد فضول الأمل، ويكفّ غرب المنىٰ، ويهون المصائب، ويحول بين الإنسان والطغيان.

ومن ذكر الموت تتولّد القناعة بما رزق، والمبادرة إلى التوبة، وترك المحاسدة والحرص على الدنيا، والنشاط في العبادة، ولا ينبغي أن يهمل الإنسان نفسه من تذكّر الموت أكثر من يوم، بل يصبح كلّ يوم علىٰ تقدير الاستعداد للرحلة، فكلّ من ينتظر أن يدعوه ملك من الملوك كلّ ساعة ينبغي أن يكون مستعدّاً للإجابة، فإن لم يكن فربّما يأتيه الرسول وهو غافل، فيحرم السعادة، فما من وقتٍ إلّا والموت فيه ممكن.

الحالة الثانية:

هي حال الإنسان عند الموت، والناس عنده ثلاثة أقسام أيضاً:

الأوّل: ذو بصيرة وعلم أنّ الموت يعتقه، والحياة تسترقه، وأنّ الإنسان وإن طال في الدنيا مكثه فهو كخطفة برق لمعت في أكناف السماء، ثمّ عادت للاختفاء، فلا

يثقل عليه الخروج من الدنيا إلّا بقدر ما يفوت من خدمة ربّه عزّ وجلّ، والازدياد من تقرّبه، والاشفاق ممّا يقول أو يقال له، كما قال بعضهم لمّا قيل له: لم تجزع؟ قال: لأنّي أسلك طريقاً لم أعهده، وأقدم علىٰ ربّ لم أره، ولا أدري ما أقول وما يقال لي.

ومثل هذا الشخص لا ينفر من الموت، بل إذا عجز عن زيادة العبادة ربّما اشتاق إليه، وقال بعضهم في مناجاته: إلهي إن سألتك الحياة في دار المهات فقد رغبت في البعد عنك، وزهدت في القرب منك، فقد قال نبيّك وصفيّك ﷺ: «من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله فقد كره الله لقاءه».

والثاني: رجل رديء البصيرة، متلطّخ السريرة، منهمك في الدنيا، منغمس في علائقها، رضي بالحياة الدنيا، واطمأنّ بها، ويئس من الدار الآخرة كما يئس الكفّار من أصحاب القبور، فإذا خرج إلىٰ دار الخلود أضرّ ذلك به، كما تضرّ رياح الورد بالجعل، وإذا خرج من قاذورات الدنيا لم يوافقه عالم العلاء، ومصباح الملأ الأعلىٰ، فكان كما قال الله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ وأضلّ سبيلاً﴾ [الاسراء: ٧٢].

فالدنيا سجن الأوّل وجنّة الثاني، (والأوّل) كعبد دعاه مولاه، فأجابه طوعاً، وقدم عليه مسروراً يتوافر علىٰ خدمته، (والثاني) كعبد آبق، ردّ إلىٰ مولاه مأسوراً، وقيّد إلىٰ حضرته مقهوراً، فبقي ناكس الرأس بين يدي مولاه، مختزياً من جنايته، وشتّان ما بين الحالين.

والثالث: رتبة بين الرتبتين: رجل عرف غوائل هذا العالم، وكره صحبته ولكن أنس به وألفه، فسبيله سبيل من ألف بيتاً مظلماً قذراً ولم ير غيره، فهو يكره الخروج منه، وإن كان قد كره دخوله، فإذا خرج ورأىٰ ما أعدّ الله للصالحين لم يتأسّف علىٰ ما كره فواته، بل قال:

﴿الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن إنّ ربّنا لغفور شكور • الذي أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسّنا فيها نصب ولا يمسّنا فيها لغوب﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥].

ولا يبعد أن يكره الإنسان مفارقة شيء، ثمّ إذا فارقه لا يتأسّف عليه، فالصبيّ وقت الولادة يبكي لما يناله من ألم الانتقال، ثمّ إذا عقل لا يتمنّى العود إليه، والموت ولادة ثانية يستفاد بها كمال لم يكن قبل، بشرط ألّا يكون قد تقدّم قبل ذلك الكمال من الآفات والعوارض ما أبطل قبول المحلّ للكمال، كما أنّ الولادة سبب لكمال مغبوط لم يكن عند الاجتنان بشرط ألّا يصيبه وقتئذٍ من الأسباب والعلل ما منع قبول الكمال.

والموت من العقائد الراسخة، والاعتقاد به يكاد يكون عامّاً بين الأُمم والأجيال، فلا تكاد تخلو كلّ أُمّة أيّاً كانت من اعتقاد بموت، ولكن هذه الفكرة وأوصاف الموت تختلف بين هذه الأُمم اختلافاً كبيراً، والقرآن يصف الموت بأوصاف نلخّصها ممّا ورد فيه.

فهو ليس موتاً لا حياة بعده، ولا هو من البساطة بصفة يشبه النوم، وإنّما هو انتقال من دار إلىٰ أُخرىٰ، فهو موت بعده حياة أُخرىٰ وراء هذه الحياة، ويومها يوم القيامة يوم الدين ﴿ثمّ إنّكم بعد ذلك لميّتون • ثمّ إنّكم يوم القيامة تبعثون﴾ [المؤمنون : ١٥-١٦] ﴿كلّ نفس ذائقة الموت ثمّ إلينا ترجعون﴾ [العنكبوت : ٥٧] وليس من الموت من مهرب أو ملجأ مهما عظم شأنه ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروجٍ مشيّدة﴾ [النساء : ٧٨].

وليس الموت ينظر إلى الناس بعين التميز بين الأفراد الواطئة، والطبقات الراقية، بل هو ينظر إليهم كموجودات طبيعية تعرض عليها عوارض الطبيعة ﴿إنّك ميّت وإنّهم ميّتون﴾ [الزمر : ٣٠].

الموت في كلام الشعراء:

وإذا شئت الاطلاع علىٰ عقيدة بعض الناس من المسلمين في ما يرجع إلى الموت، فعليك ببعض مأثوراتهم من شعر وخطب ومواعظ، يظهر لك واضحاً جليّاً

أنّ الموت ليس بشيء خفي، بل انّه كما قدّمنا سنّة طبيعية لازمة لكلّ الأشياء حتىٰ صار من بعض طبائعها، وهاك أُنموذجاً من ذلك:

١ ـ قس بن ساعدة الأيادي، خطيب العرب وحكيمها المشهور الذي مات سنة ٦٠٠م، قال في خطبته في عكاظ: أيّها الناس اسمعوا وعوا، انّه من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ما هو آت آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إنّ في السماء لخبراً، وإنّ في الأرض لعبراً[1].

ثمّ يبلغ من القوّة في الوعظ أن يعدل عن الأُسلوب الاخباري إلىٰ اتّخاذ طريقة الاستفهام الذي يفيد منه الاعتراف فيقول: ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا، يا معشر أياد أين الآباء والأجداد، أين الفراعنة الشداد، ألم يكونوا أكثر منكم مالاً، وأطول آجالاً، طحنهم الدهر بكلكله، وقهرهم بتطاوله:

في الذاهبين الأوّلين ... من القرون لنا بصائر
لمّا رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... يجري الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إليّ ... ولا من الباقين غابر
أيقنت أنّي لا محالة ... حيث صار القوم صائر

٢ ـ وهذه ليلى الأخيلية ترثي توبةً:

لعمرك ما بالموت عار علىٰ الفتىٰ ... إذا لم تصبه في الحياة المعاير
وما أحد حي وإن عاش سالماً ... بأخلد ممّن غيّبته المقابر
وكلّ جديد أو شباب إلىٰ بلى ... وكلّ امرئ يوماً إلى الموت سائر
وكلّ قريني إلفة لتفرق ... شتاتاً وإن ضنا وطال التعاشر

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧: ١٠٧ باب ١٠٢.

فهي تبيّن لنا أنّ الموت ليس عاراً يخفض الرؤوس، بل هو ممّا يزيّنها، بشرط أن يكون الفتى حسن الذكر، متّصفاً بالشيم الفاضلة، متنزّهاً عن المعاير، ثمّ تقول: إنّ كلّ جديد وكلّ امرئ سوف يتحوّل ولو بعد أمد إلى الموت والبلا، ليجد في رحابه متّسعاً يأخذ قراره منها، وإنّ الأُلفة لا تدوم مهما ظنّ الأليفان علىٰ عدم الافتراق، لأنّ الموت أطول باعاً منهما.

٣ ـ وهذا أبو ذؤيب الهذلي يرثي بنيه الخمسة الذين هاجروا إلىٰ مصر، فهلكوا جميعاً في عام واحد، نختار لك بعض الأبيات من مرثيته لهم:

أمن المنون وريبها تتوجّع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

ثمّ يقول:

سبقوا هوىً وأعتقوا لهواهم ... فتخرّموا ولكلّ جنب مصرع
ولقد حرصت بأن أُدافع عنهم ... وإذا المنيّة أقبلت لا تدفع
وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ... ألفيت كلّ تميمة لا تنفع
وتجلّدي للشامتين أريهم ... أنّي لريب الدهر لا أتضعضع
حتّىٰ كأنّي للحوادث مروة ... بصفا المشرق كلّ يوم تقرع

فتراه يصبّر نفسه بهذا الخطاب، أو يوبّخها علىٰ جزعها ما دام الموت لا يلين له جانب، ولا ينكسر له قلب، وليس هو يعوض الإنسان ويعتبه، ثمّ يشير إلىٰ نكتة هامّة، وهي أنّ الموت ينظر بعين واحدة إلى الشيخ الكبير والصبيّ الفتىٰ، فليس عنده تميّز بينهما إذا حان وقت قطاف كلّ منهما لأنّ كلّاً قد بلغ غايته.

وإنّ هذا الشاعر طالما خيّل إليه أنّه يستطيع الدفاع والذبّ عن أولاده ونفسه، ويردّ عادية الموت، فهو بهذا يحرص عليهم الحرص كلّه.

ولكن سرعان ما انكشف له أنّ المنيّة لا تدفع، وأن لابدّ من التسليم للموت، ثمّ هو يتحوّل إلى التمائم ليستجير بها من نزول حوادث الدهر الموجعة، ولكنّه لم يلبث أن يتحوّل ظنّه من الأصل الصادق إلىٰ خيبة وحرمان، ويصل أمله ـ البعيد

الضارب في الآفاق ـ إلى الكدية من الأرض، فقد أصبح شاعرنا يعلم من أمر التميمة ما لم يعلمه من قبل، ويعلم أنّها محدودة التأثير، ضيّقة النطاق، فهي يبطل عملها تجاه شيء لا قبل لها به، فهي لو بقيت على الجيد أو فارقته على حدّ سواء.

وهل هناك بدّ بعد فقد الأحبّة والأعزّاء، إلّا من التصبر أو التعمّل على التصبّر، فهو يحمل نفسه على الجلد ـ مع أنّها لا تطاوعه ـ خوفاً من الشماتة ليري الناس أنّه ليست نفسه من السهولة والمرونة وسرعة التأثّر بصفة تزعزعه الدوائر، وتضعضعه حوادث الدهر، أو يبعده عن الصبر نزول جائحة أو مصيبة فيه، أو في الأولاد والأموال.

فشاعرنا يعتبر نفسه أرفع من أن يجزع من ريب المنون، أو أن يرفع شكاته إلى الناس، فهو يمثّل نفسه بحجارة الصوان، وهي في كلّ يوم تقرع.

إلى الكثير الحسن ممّا ورد في أشعار الجاهليين واختلج في شعورهم، وتجد مثل ذلك أو أكثر من غير الجاهليين من المخضرمين الذين شطروا أعمارهم لما قبل البعثة وبعدها، ويكثر مثل هذا أيضاً من الذين استضاؤوا بنور الإسلام، واتّخذوا الطريقة الإسلامية مسلكاً لهم.

إذن ليس الاعتقاد بالموت قاصراً على المسلمين فحسب، أو إن اتّسع أثره فعلى المسلمين والنصارىٰ، والنصارىٰ أو اليهود وغيرهم، وإنّما هو عام في جميع الأُمم، ومعتقد به لدىٰ جميع الناس شرع سواء في ذلك خاصّتهم وسوقتهم.

صفة أُخرىٰ للموت:

وإذا أردت أن تعرف من صفات الموت صفة أُخرىٰ، فاعرف انّه يفاجئ الإنسان ويأتيه بغتةً، فيبهره من دون إعلام سابق.

﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون﴾ [الأعراف : ٣٤].

وكذلك لا يعلم الإنسان اسم التربة التي يموت فيها: **﴿وما تدري نفس ماذا**

تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ [لقمان : ٣٤].

وكلّ هذه الخصائص للموت استأثر بعلم حكمتها الله، وعرف المصلحة في جعلها بهذه الصورة، ويظهر لك سبب إخفاء ذلك واضحاً جليّاً إذا قرأت قوله تعالى: ﴿فلا يظهر علىٰ غيبه أحداً﴾ [الجن : ٢٦].

ولا يفوتنا أن نعلم أنّ معنىٰ «قلعة» هو المحلّ الذي لا يصلح للاستيطان، أشبه شيء بمنزل الاستراحة لعابري سبيل لا يهنأ لهم عيش كما يهنأ لهم وهم في زوايا بيوتهم آمنين، ولا يلذّ لهم نوم وخاصّة إذا كانوا في طريق قفر ذات رمال وأعثاء، تغطس فيها الرجل ثمّ لا تخرج إلّا لتغطس مرّة أُخرىٰ علىٰ بعد قدم، وإذا الأخطار تحفّ بهم من كلّ جانب.

الدنيا دار بُلغة:

ويقصد الإمام ﷺ من قوله: «دَارِ بُلْغَةٍ» إلىٰ أنّ هذه الدار ليست دار رفاهية وترف كي يأخذ الإنسان فيها جمام نفسه، بل انّها دار بلغة ـ أي للإنسان أن يتبلّغ منها بما يقيم أوده، ويصلب عوده ـ.

ويرمي الإمام ﷺ من قوله: «طَرِيقٍ إِلَىٰ ٱلْآخِرَةِ» إلىٰ أنّ الدنيا دار أعمال يعمل فيها الإنسان ما وسعه العمل، ليأخذ أجره وافراً غير منقوص في تلك الدار الأُخرىٰ، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ ﴿**فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ● ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره**﴾ [الزلزلة : ٧-٨].

وهذه الطريق ذات مفرقين، يؤدّي أحدهما إلى الجنّة، ويؤدّي الآخر بصاحبه إلى النار.

فالدنيا إذن مزرعة الآخرة، فإذا ما عوهدت بالحرث والسقي أثمر ذلك الغرس في الآخرة كما يراد أن يثمر الغرس، وليس هذا الطريق كما يتصوّره الإنسان بطروق هذا الاسم علىٰ ذهنه، وليس من السهولة بحيث لا يتجاوز بضع كيلومترات، وإنّما

هو أطول من ذلك وأطول بكثير.

وليس يجد الإنسان في طريقه هذه أنيساً أو صديقاً مصاحباً سوىٰ عمله، فإن كان حسناً كان دليلاً إلى الجنّة، وإن كان سيّئاً فهو ينذره بنذير الشؤم بالنار مدّة ما يصاحبه حتّىٰ يؤدّي به إلى النار.

ولا يجد الإنسان في طريقه هذه زاداً يساعده علىٰ قطع المسافة الشاسعة إلّا زاد التقوىٰ، فهي نعم الزاد، أمّا إذا كان من ذوي الحرمان، فهو يتصوّر جوعاً وظمأً ما مشت به رجله متنقّلة في عرصات الآخرة حتّىٰ يصله دور حسابه، فينهيه إلى المصير المحتوم، وبئس المصير.

وهنا يجمل بنا أن نذكر كلمة سيّد البلغاء عليّ أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «آه من قلّة الزاد، وطول السفر، ووحشة الطريق»[1].

فالإنسان إذا كان مطارداً من شيء لابدّ أن يدركه ذلك الشيء، ولابدّ أن يحصل علىٰ طلبته، فهذا الإنسان يجب أن يكون علىٰ جانب عظيم من الحذر، بأن يحسن حالته، وأن يحسن مرامه، وأن يكون قد أخذ لمقابلة ذلك الشيء أهبته كما يأخذ أهبته للسفر بشدّ الرحال، كذلك يجب أن يكون الإنسان قد تاب وتفرّغ للخالق، وكأنّه عن قريب ملاقيه، ولا يتمكّن الإنسان الطائع أن يأخذ أهبته للموت ما لم يردّده علىٰ لسانه، ويخطره علىٰ قلبه آناء الليل وأطراف النهار، ليكون بذلك علىٰ استعداد تام لمواجهته من دون أن ينبهر به بغتةً، فيعتقل لسانه دون أن ينطق بالحقّ كما يريد الحقّ، وأن يعترف به كما يجب.

* * *

النهي عن الاغترار بالدنيا:

قوله عليه السلام: «وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَىٰ مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ

---

(١) البحار ٤٠: ٣٢٩ ضمن حديث ١١.

نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلاَبٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا. نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَىٰ مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا. سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلاَ مُسِيمٌ يُسِيمُهَا. سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَىٰ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَىٰ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا. رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلاَمُ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ؛ يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ!».

الإمام ﷺ يسمو بولده المجتبىٰ عن أن يكون مثالاً للرذائل والأطماع الخسيسة، والهوي في هاوية الفساد السحيقة، فإنّ ذلك ممّا لا يرضاه كلّ أب لابنه فكيف بمثل عليّ أمير المؤمنين ﷺ، فأمره فيما أمره أن يستعدّ للموت ما وسعه، وأن يكون قد فرغ من جميع ذنوبه بالاستغفار والتوبة، وأن يكثر من ذكر الموت الذي يهجم عليه.

والآن ينهاه ﷺ فيما ينهاه أن يغترّ بما يرىٰ من إخلاد أهل الدنيا إليها وتكالبهم عليها، فيخلد مثلهم إلىٰ الأرض «ويتّبع هواه»، ونبّهه علىٰ أنّه لا ينبغي له ذلك الاغترار بقوله: «فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا» بقوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلّا لعب ولهو﴾ [الأنعام : ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿إنّما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ممّا يأكل الناس والأنعام حتّىٰ إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكّرون﴾ [يونس : ٢٤] في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، وبيان أنّها محلّ الهموم والغموم والأعراض والأمراض، ودار كلّ بلاء، ومنزل كلّ فتنة، وكلّ ما أخبر الله تعالى عنه بذلك، فلا ينبغي أن يغترّ به المرء، خصوصاً بعد معرفته أنّ الغرور مركّب من الجهل، وحبّ مقتضيات الشهوة

والغضب.

فمن كان فطناً كيّساً عارفاً بربّه ونفسه وبالآخرة والدنيا، وعالماً بكيفية سلوك الطريق إلى الله، وبما يقرّبه إليه، وبما يبعده عنه، وعالماً بآفات الطريق وعقباته وغوائله، اجتنب عن الغرور ولم يغره الشيطان في شيء من الأُمور، إذ من عرف نفسه بالذلّ والعبودية، وبكونه غريباً في هذا العالم، أجنبياً من هذه الشهوات البهيميّة، عرف كون هذه الشهوات مضرّة له، وانّ الموافق له طبعاً هو معرفة الله، فإنّ من عرف ربّه، وعرف الدنيا والآخرة ولذّاتهما تمكّن في قلبه حبّ الله والرغبة إلىٰ دار الآخرة.

وإذا غلبت هذه الارادة علىٰ قلبه صحّت نيّته في الأُمور كلّها، فإن أكل مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجة، كان قصده منه الاستعانة علىٰ سلوك طريق الآخرة، واندفع عنه كلّ غرور، منشأه تجاذب الأعراض والنزوع إلى الدنيا، وإلى الجاه والمال، وما دامت الدنيا أحبّ إليه من الآخرة، وهوىٰ نفسه أحبّ إليه من رضا الله، لم يمكنه الخلاص من الغرور، فالأصل في علاج الغرور أن يفرغ القلب من حبّ الدنيا، ويغلب عليه حبّ الله حتىٰ تتقوّىٰ به الارادة، وتصحّ به النيّة، ويندفع عنه الغرور، ومن يستطع ذلك وقلوبنا استولت عليها ظلمة الشهوات؟!

ثمّ يبالغ الإمام عليه السلام في التأثير علىٰ ولده البارّ بوصف أهل الدنيا وصفاً شنيعاً، فيصفهم بأنّهم كلاب عاوية، ليس من شأنها أن تهدأ وتفتر ليلاً ونهاراً، وسباع ضارية يفترس بعضها بعضاً، ويعتدي بعضها علىٰ بعض، ويأكل قويّها ذليلها، ويقهر كبيرها صغيرها «نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَىٰ مُهْمَلَةٌ».

فهي كلّها تتّصف بصفات حيوانيّة، إلّا أنّك تعرف الفرق بين المعقلة والمهملة؛ فالأُولىٰ أضيق حريّةً من الثانية، ومن شأن النعم إذا تركت أن تهيم علىٰ وجهها لا تلوي علىٰ شيء، فهؤلاء أهل الدنيا أيضاً كذلك، فقد أضلّوا عقولهم دون أن يردّوها منهل الايمان العذب، وركبوا مجهولهم، وتسرب اليأس من نيل الآخرة إلىٰ

قلوبهم، فطفقوا يركبون المجاهل دون أن يلتمسوا جادة مستقيمة يسيروا بهديها فتوصلهم إلى الغاية القصوىٰ، فهم لا راعي لهم يرعاهم حسب ما يقتضي، ولا سلكت الدنيا بهم الطريق الجدد فيأمنوا العثار، وإنّما سارت بهم طريق العمى، فأضلّتهم وتركتهم يخبطون خبط عشواء إن جنّ عليهم الليل.

فهم كبعض الأحجار لا يجدون سبيلاً يطرقونه، وإذا بزغت عليهم الشمس ألفيتهم يتخبّطون في تيه النور بعدما كانوا يتخبّطون في تيه الظلام، والثاني أشدّ من الأوّل.

وقد توثّقت الصلات بينهم وبين الدنيا، حتّىٰ اتّخذوها ربّاً يتقرّبون إليه زلفىٰ، فلعبوا بها كما لعبت بهم، وفات عن أذهانهم ما وراءها من موت ونشور وحياة أُخرىٰ ممّا لم يخلقوا إلّا لأجله.

رويداً رويداً يسفر الظلام فيكشف النور عن السوءآت وسوء السرائر، وخبث الضمائر، وسوف يظهر كلٌّ بشكل العمل الذي جناه لنفسه في هذا اليوم من ذلك الغرس الذي وضعه في دار الدنيا، فقد وردت الأظعان، وحلّ وقت السفر الذي لا رجعة بعده، فقد أوشك من أسرع أن يلحق، إمّا بنعيم دائم، أو عذاب واصب.

ولا يخفىٰ أنّ التهالك على الدنيا والتكالب علىٰ نعيمها، ليس يشمل طلب العيش لاقامة الأود، وإنعاش العيال والتوسعة عليهم بما وسّع الله، ولا يشمل طلب الرزق لاقامة شعائر الله، وأداء حقوقه وفروضه كاملة غير منقوصة، فإنّ ذلك محض الآخرة، وهو الزاد المفروض به أن يكفي الإنسان في النجاة من النار.

فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من طلب الدنيا تعفّفاً عن المسألة وتوسّعاً علىٰ عياله، وتعطّفاً علىٰ جاره، لقي الله يوم القيامة وجهه كالقمر ليلة البدر، ومن طلب الدنيا مكاثراً مفاخراً مرائياً جعل الله فقره بين عينيه، ولم يبال الله به بأيّ واد هلك»[1].

(١) حلية الأولياء ٣: ١١٠، تحت رقم ٢٢٧.

وورد رجل علىٰ عليّ أمير المؤمنين ﷺ سائلاً: إنّي أطلب العيش بكدّ وجدّ، هل أنا من أهل الدنيا الذين ينطبق عليهم أوصاف أهلها أم لا؟ فقال علي ﷺ: ولم تطلبها، ألكي تنعم بنعيمها، ولا يدخل قلبك الرحمة بعد ذلك إذا سمعت جارك يئنّ من شدّة الجوع، ورأيت أطفاله يتضاغون جوعاً، ولكي تكون من ذوي الجاه والشرف، فتحلّ محلّ الصدارة منهم أم لشيء آخر؟

قال الرجل: لا يا سيّدي إنّ شيئاً من ذلك لم يكن، إنّي إنّما أطلب الرزق الكثير لأُوسّع علىٰ نفسي وعيالي، وأسبغ عليهم ما يسبغه الله علينا من النعم، ويغدقه علينا من الفواضل، ولكي أقوم بأداء الفرائض كما وجبت، وأداء حقوق الله الماليّة، وهي الضريبة التي تؤخذ للفقراء وللصالح العام، ولكي أحجّ بيت الله ما استطعت إلىٰ ذلك سبيلاً.

فأجابه عليّ أمير المؤمنين ﷺ قائلاً: هنيئاً لك فإنّك لست منهم إنّما أنت من أهل الآخرة، أرسلت إلىٰ الدنيا لكي ترى الناس طريقاً لاحباً يهديهم إليها، ولكنّهم يصدفون عنك كلّما رأوك، هنيئاً لك إنّك طالب للآخرة لا للدنيا، وإنّ الذي تطلب من الدنيا إنّما هو زاد وافر يكفيك مؤونة الطريق علىٰ طوله وشسوعة مسافته، اذهب بارك الله فيك.

الفصل السادس عشر
الاقتصاد في الطلب، وذلّ المسألة، ووجوب شكر النعمة

«وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً، وَيَقْطَعُ ٱلْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً.

وَٱعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ. فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ فِي ٱلْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَىٰ حَرَبٍ؛ فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ.

وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَىٰ الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً.

وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ ٱللهُ حُرّاً. وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ.

وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ ٱلْهَلَكَةِ. وَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ ٱلْيَسِيرَ مِنَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ ٱلْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ».

دعوة للاقتصاد في الطلب:

ليس من شك في أنّ الإنسان لو اتّخذ له الليل والنهار مطيّة، فهو يسار به وإن لم يكن في السير راغباً، وإن لم يكن محباً، ويقطع المسافة البعيدة وإن كان يكره لنفسه أن يقطعها، فهل استطاع الإنسان يوماً أن يخالف هذه الأرض في حركتها حول نفسها كل يوم مرة، قاطعة به عشرات الأميال في الدقيقة الواحدة، أم أنّ الإنسان تمكن أن يرسخ في مكانه دون أن تحمله الأرض قاطعة له مسافة شاسعة حول الفلك المحيط بالشمس، كلّا ما كان له ولن يكون لأنّه مخلوق ضعيف لا قوّة له ولا أيد، وكل ما يأتي لديه من الأمر أن يُدبِّر شؤونه بنفسه في هذا العالم السيّئ والمنزل الموبوء، وأن يعمل جاهداً في اكتساب العيش له ولعياله، وهو عن العمل فوق هذا عاجز، وعن التدخل في شؤون السماوات والأرض وحقائقهما أعجز.

فانت إذ أردت أن تعلم فأعلم يقيناً بأنّك سائرٌ مُغذٌّ في السير، ولكنك ثابت مع ذلك في مكانك لا تريم، وأنّك قاطع مسافة بعيدة، وفي كل يوم تكون فيه أقرب إلىٰ أجلك المقدور من أمسك الماضي، مع أنك مقيم وادع لا ترىٰ لنفسك سيراً ولا حركة، وما ذلك إلّا لأنّك تدور علىٰ عجلة الزمان، ومن شأنها أن لا تحرّك ساكناً ولا توقظ نائماً، فإذا انهيت إلىٰ غايتها أهابت بركبها أن قد بلغتم اللوى فلا سير ولا حركة، وإنّما هي الغاية التي كانت طيلة هذه المدة أتبعها، حتّىٰ إذا وقفت الغاية منتصبة تريدكم، وقفت أنا لأرميكم إليها، فانزلوا فلقد آن لكم أن تتفارقوا، ولقد حان الحين، وليس من الحين مناص.

والإنسان كثيراً ما كان منغمساً في بحار لا شواطئ لها من الأماني العِذاب، ولكنّها لن يبلغها وإن استطاع أن ينال منها شيئاً، لأن للانسان قدراً قدر به، وأجلاً أخر إليه فلا هو بسابق أجله، ولا الأجل بمهمل إياه ولو لحظات قصار ﴿فإذا جاء أجلهم يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [الاعراف: ٣٤].

فكل إنسان بل كل حي صائر لا محالة إلى الفناء، وجار مع الزمن الى المصير

المحتوم الذي ليس عنه محيد، فإذا علم الإنسان ذلك فأيّ فائدة ترجع عليه بالخير الجزيل في أنّ لنفسه سلسلة متصلة من الأماني والآمال الكاذبة، والآمال التي ليس فيها سوى البروق والرعود، فهي لا تتم ولا تنتهي الا إذا جاز لأحد أن يعدو أجله، وليس ذلك من الامكان بمكان، لأن الإنسان جار في طريقه، وماض في سبيله علىٰ النحو الذي مضى عليه سلفه، ولابدّ أنه سالك سبيلهم، وكما أنّ السبيل قد كبا عن الوصول إلىٰ ما يرغبون.

واذن فما هذا الداعي الذي يدعوه ويلح عليه في الدعاء، يدعوه إلىٰ أن يكثر من الطلب ويطلق لنفسه السبيل، أو ليس من الحق والإنصاف أن يجمل الإنسان في الطلب ويخفض فيه، وأن يجمل في الاكتساب، لأنّ الزائد عما يحتاج إليه الفرد ليس له وإنّما يجمعه لغيره يهنأ به ويتنعم، وهل أحب الإنسان يوماً أن يخدم غيره بدون مقابل، وهل رضي الإنسان لنفسه أن يجمع جاهداً هذه الأموال الطائلة التي يجمعها، ثم لا يكون له منها نصيب، وإنّما هي نصيب ولده من بعده يتقاسمونها ويتوارثونها، وإنّ في ولده لمن هو أبغض إليه من عدوّه، وإنّ في ولده لمن يحمل علىٰ أبيه عداوة وضغناً، وليت الأمر يقف عند هذا، وإنّما يحاسب هذا الذي جمع المال وخلّفه لغيره برضاً منه أو بغير رضا، فاما فوز واما إخفاق.

فإليك عن الإغراق في الطلب، والتتبع لآثار أقدام الرزق لا تعلم حلاله من حرامه، فلرب طلب قد جرّ إلىٰ حرب(١)، ولرب كسب كثير جرّ إلىٰ جوع وسغب، ولرب إلحاح جرّ إلى اليأس والحرمان، وهل ضمنت هذه الدنيا لكل من يعمل جاداً كاداً يتصبب جبينه عرقاً أن تغدق عليه في الرزق، وتدرّ له في الخير، وتلمي له في الراحة والأمان، وهل أنذرت هذه الحياة كل من يعمل ولكن بإجمال، ويكتسب ولكن باقلال أن تحرمه الرزق وتعدمه العيش، كلّا لأنّ الرزق ليس موكولاً لهذا العالم المحيط بنا، وليس موكولاً إلىٰ أفراد يتميّزون عن غيرهم، وإنّما

(١) الحَرَب ـ بالتحريك ـ: أن يسلب الرجل ماله.

الأمر كله يرجع إلى الله سبحانه، فهو الذي بيده كل شيء، وهو الذي بيده قوام كل شيء، وإنّما هؤلاء الأحياء فيما بينهم وسائط ينال البعض منهم رزقه من البعض الآخر، ويبلغ البعض الآخر رزق هؤلاء من الناس.

إذن فالرزق بيد الله يسوقه إلىٰ من كان له أهلاً، وقد يسوقه إلىٰ من لم يكن له أهلاً، يسوقه إلىٰ من جدّ وأكتسب بكل ما فيه من قوّة وحول، وقد يسوقه إلىٰ من لم يأخذ من الكسب والضرب في الأرض إلّا بأطراف يسيرة، كل ذلك علم غيبي له حكمه وغاياته، ونحن عن فهم هذه الحِكم والغايات قاصرون، وعن البلوغ إلىٰ كنهها عاجزون.

لا تكن عبدَ غيرك:

وينتهي الإمام عليه السلام بابنه إلىٰ موضع خطر أشد الخطورة قد تقصر عنده العقول والأفهام، وقد يعسر علىٰ بعضها أيضاً فلا تستطيع بها نهوضاً.

ذلك أنّ الإمام عليه السلام سبق من تخلف عنه في هذا الموضوع المهم كل الأهمية، وهو موضوع ـ الحرية ـ وما يتعلق بهذه الكلمة من معان ومفاهيم وما يلازمه من ملابسات، فالإمام في هذا الموضع يدعو ابنه إلى الحرية ويلح في الدعاء، حتىٰ أنّه ليكاد يطلب إليه أن يحضر هذا اللفظ بما فيه من معنى عميق في قلبه كلّما أصبح وكلّما أمسىٰ، وحتىٰ لكأنّه يعرفه بشيء تنفر منه الطباع السليمة وهو ـ العبودية ـ التي من معانيها الذل والاستكانة والطاعة بغير حق، فالحرية والعبودية كلمتان متعاكستان، تخالف كل منهما الأُخرىٰ، وإنّ بين أحدهما وبين الأُخرىٰ لأشدّ الخلاف، فليس يرجى لها أجتماع، وليس إلىٰ هذا التصور من سبيل.

يقول عليه السلام وما أعظم ما يقول: يا بني إيّاك أن تمد إلى الناس يداً تستجديهم وتطلب منهم، فإنّ في ذلك لذلة وهواناً، وأيّ ذلٍّ أكبر من أن يكون الإنسان عبد غيره وقد خلقه الله حرّاً، أو ما كان أخلق به أن يعيش حرّاً كما كان حرّاً، وأن

يمارس حياته لا يخضع إلّا لمن يستأهل الخضوع إليه، فما بـال الإنسـان ـ بـعض الإنسان ـ يأبى إلّا أن يطلب إلىٰ هذا حاجة، ويبتغي عـند ذاك مأرباً، أو كـان الله يوماً ضاناً علىٰ عباده ضنى عبيده بعضهم علىٰ بعض، أو ليس قادراً علىٰ أن يمنحهم الحرية في جميع جوانب الدين والدنيا دون تجاوز القصد، وأن يمتعهم بهذه الحـرية أيّما متاع، ولكنّ الإنسان هو الذي يُذِلُّ نفسه بنفسه، ويحوّل من نفسه الحرة المطلقة نفساً ذليلة خاضعة، ولو احتفظ بما وهبه الله من منحه، وبما أكرمه به من عطاء لأفاد من ذلك نفعاً عظيماً، ولتمتع بما لم يتمتع به غيره من العبيد الأذلّاء.

فيا بني: إني أربأ بك كما أربأ بغيرك من بني الإنسان، أن يخرجوا علىٰ فطرتهم هذه التي فطرهم الله عليها، فإذا نصحتك بـشيء فـليسمعوا وليـعوا مـا أقـول ثم ليحفظوا ما أقول، ثم ليعملوا بما أقول، فلا تظننّ يا بني أنّك لو بذلت من نفس شيئاً سوف تستطيع لهذا المبذول المفتقد رداً ولا إستينافاً، فلن تستطيع أن تعتاض بما بذلته من نفسك عوضاً. فلن يرجع السيف المثلوم بعد أن يصلح إلىٰ ما كان عـليه أولاً من قوّة في العمل، ومضاء في القطع، فكذلك أنت لا تستطيع أن ترجع نفسك إلىٰ ما كنت تتمتع به من عزّة وحرية، بعد أن أوقعت فيها خـللاً عـظيماً، فأيّـاك وذاك، ودونك وإعزاز نفسك ورفع شأنها فقد جاء في الحديث: «إن الله تعالى أحلّ للمؤمن كل شيء عدا إذلال نفسه»(١).

ذم السؤال من الناس:

قال بعض السلف: من سأل حاجة فقد عرض نفسه على الرق، فإن قـضاها المسؤول أستعبده بها، وان ردّه عنها رجع حرّاً وهما ذليلان، هذا بذلّ اللوم وذلك بذلّ الردّ.

ومن الشعر المنسوب لعلي أمير المؤمنين عليه السلام:

---

(١) مشكاة الأنوار: ٢٤٥، الفصل الاول في عيوب النفس.

كِدَّ كدَّ العبد إن أحببت ... أن تصبح حرا
واقطع الآمالَ عن مال ... بني آدم طرا
لا تقل ذا مكسب يزري ... فقصد الناس أزرى
أنت ما أستغنيت عن غيرك ... أعلى الناس قدرا

ومن الشعر المنسوب إلى الحسين عليه السلام:

إغن عن المخلوق بالخالقِ ... تغن عن الكاذب بالصادقِ
واسترزق الرحمة من فضله ... فليس غير الله من رازقِ

وأنشد أبن الأعرابي:

أبا هاني لا تسأل الناس والتمس ... بكفّيك فضل الله والله أوسع
فلو سأل الناس التراب لأوشكوا ... إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

محمود الوراق:

شاد الملوك قصورهم وتحصّنوا ... من كلّ طالب حاجة أو راغب
فارغب إلىٰ ملك الملوك ولا تكن ... بادي الضراعة طالباً من طالب

سلم الخاسر:

إذا أذن الله في حاجة ... أتاك النجاح علىٰ رسلهِ
فلا تسأل الناس من فضلهم ... ولكن سل الله من فضلهِ

أحمد بن يوسف الأنباري:

لموت الفتى خير من البخل للفتى ... وللبخل خير من سؤال بخيل
لعمرك ما شيء لوجهك قيمة ... فلا تلق إنساناً بوجه ذليل

ولبعضهم:

إذا أظمأتك أكف اللئام ... كفتك القناعة شبعاً وريّا
فكن رجلا رجله في الثرى ... وهامة همّته في الثريّا
ولا تخضعنّ إذا ما افتقرت ... ولاتسأل الرزق ما عشت حيّا

فـانّ إراقـة مـاء الحـياة دون إراقـة مـاء المحـيّا

وحكي أن أبا تمام ـ حبيب بن الطائي ـ قصد البصرة منتجعاً، فلما وردها سأل عن شاعرها فذكر له عبد الصمد بن المعدل، فقال: أنشدوني شيئاً من شعره، فأنشد قوله:

لست تنفك طـالباً لوصـال من حبيب أو طـالباً لنـوال

أيّ ماء لحـرّ وجـهك يـبق بين ذلّ الهوى وذلّ السؤالِ

فحوّل راحلته عنها ولم يدخلها، وقريب من هذا المعنىٰ قـول بـعضهم في أبي الطيب المتنبي:

أي فضل لشاعر يطلب الفضل مـن النـاس بكـرة وعشـيّا

عاش حيناً يبيع بالكوفة المـاء وحـيناً يـبيع مـاء المحـيّا

القاضي عبد العزيز الجرجاني:

يـقولون لي فـيك إنـقباض وإنّمـا رأوا رجلاً عن مورد الذلّ أحـجما

إذا قيل هذا مورد قـلت قـد أرى ولكـنّ نـفس الحـرّ تحـتمل الظـما

وأما السؤال ممّـن ليس أهلاً للمعروف، ومن هو باللؤم موصوف، فهو أدهىٰ وأمرّ وأسوأ وأضرّ، وقد روى أن في زبور داود ﷺ: «إن كنت تسأل عبادي فاسأل من معادن الخير ترجع مغبوطاً مسروراً، ولا تسأل مـعادن الشر تـرجـع مـلوماً محسوراً».

وفي الأثر أن الله تعالى أوحى إلىٰ موسى ﷺ: «لئن تدخل يدك في فم التنين إلى المرفق خير من أن تبسطها إلىٰ غني قد نشأ في الفقر»(١).

ومن كلامهم: لا شيء أوجع للاحرار من الرجوع إلىٰ الأشرار(٢).

وقيل لأعرابي: «ما السقم الذي لا يبرء، والجرح الذي لا يندمل، قال: حاجة

(١) المستطرف ٢: ١١٥.

(٢) محاضرات الادباء ١: ٥٤.

الكريم إلى اللئيم»(١).

ومن كلام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «فوت الحاجة أهون من طلبها إلىٰ غير أهلها»(٢).

وقوله: «ماء وجهك جامد يقطره السؤال، فانظر عند من تقطره»(٣).

وأوصى بعضهم أبنه فقال: «لا تدنس عرضك، ولا تبذلنّ وجهك بالطلب إلىٰ من إن ردّك كان ردّه عليك عيباً، وإن قضى حاجتك جعلها عليك منّاً. واحتمل الفقر بالتنزّه عمّا في أيدي الناس، والزم القناعة بما قد قسم لك».

وقال رجل لابنه: إيّاك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه(٤).

رأي الأصمعي كناساً يكنس كنيفاً وهو ينشد:

وأكرم نفسي إنّني إن أهنتها ... وحقّك لم تكرم علىٰ أحد بعدي

فقلت له: يا هذا إنّك والله لم تترك من الهوان شيئاً إلّا وقد فعلته بنفسك مع هذه الحرفة، فقال: بلى والله إنّني صنتها عمّا هو أعظم من هذا الهوان، قلت: وأيّ شيء هو؟ قال: سؤال مثلك، يقول: فانصرفت عنه وأنا أخزى الناس.

موعظة الامام السجاد عليه السلام:

وفي الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ محمّد بن المكندر كان يقول: ما كنت أرى أنّ علي بن الحسين عليه السلام يدع خَلَفاً أفضل منه، حتّىٰ رأيت ابنه محمّد بن علي عليه السلام، فأردت أن أعظه فوعظني، فقال له أصحابه: بأيّ شيء وعظك.

فقال: خرجت إلىٰ بعض نواحي المدينة في ساعة حارة، فلقيني أبو جعفر بن علي عليه السلام وكان رجلاً بادناً ثقيلاً، وهو متّكئ علىٰ غلامين أسودين أو موليين، فقلت

---

(١) المستطرف ٢: ١١٥.
(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٦٦.
(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٣٤٦.
(٤) المستطرف ٢: ١١٥.

في نفسي: سبحان الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة علىٰ هذه الحالة في طلب الدنيا أما لأعظنّه، فدنوت منه فسلّمت عليه فرد عليّ ببهر وهو يتصبّب عرقاً، فقلت: أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة علىٰ هذه الحالة في طلب الدنيا، أرأيت لو جاء أجلك وأنت علىٰ هذه الحال ما كنت تصنع؟

فقال: لو جاءني الموت وأنا علىٰ هذه الحال، جاءني وأنا في طاعة من طاعة الله عزّ وجلّ، أكفّ بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس، وإنّما كنت أخاف أن لو جاءني الموت وأنا علىٰ معصية من معاصي الله. فقلت: صدقت يرحمك الله أردت أن أعظك فوعظتني»[1].

ومما جاء نظماً في هذا المعنىٰ قول عمر بن أحمد الباهلي:

ومن يطلب المعروف من غير أهله ... يجد مطلب المعروف غير يسير
إذا أنت لم تجعل لعرضك جنة ... من الذمّ سار الذمّ كلّ مسير

وقال آخر:

وإذا بليت ببذل وجهك سائلاً ... فابذله للمتكرم المفضال
إنّ الجواد إذا حباك بموعد ... أعطاكه سلساً بغير مطال
ما اعتاض باذل وجهه بسؤآله ... عوضاً ولو نال المنىٰ بسؤال
وإذا السؤال مع النوال قرنته ... رجح السؤال وخفّ كل نوال

وقال آخر:

قطعي يدي بيدي أخفّ عليّ من ... مدّي إلىٰ نذل لأخذ يد يدا
غضب الإله عليّ إن أك راضياً ... ليدي بأن تمتاح من يده يدا

وقال آخر:

اسأل العرف إن سألت جواداً ... لم يزل يعرف الغنى واليسارا
فإذا لم تجد من الذل بداً ... فالق بالذل إن لقيت الكبارا

---

(١) ارشاد المفيد: ٢٦٣ عنه البحار ٤٦: ٢٨٧ ح ٥.

ليس إجـــلالك الكــبير ذلّ إنّمـــا الذل أن تجــلّ الصــغارا

أبو شراعة القيسي:

إنّ الغنىٰ عن لئام الناس مكـرمة وعــن كـرامـهم أدنى إلى الكـرم

منصور الفقيه:

الموت أسهـل عـندي بـين القـنا والأسـنّه
والخيل تجـري سراعاً مـــقطعات الأعـــنّه
مـن أن يكـون لنـذلٍ عـلىَّ فـضلٌ ومِـنَّه

* * *

الغاية لا تبرّر الوسيلة:

قوله عليه السلام: «وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ. وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ».

يقول عليه السلام: إن أردت أن تجلب لنفسك خيراً فعليك بالطريق قبل الولوج فيه، فليكن طريقك خيراً تلق خيراً، وأعلم بأنّ طريق الخير لا يكـون إلّا خـيراً، ولا يكون طريق الشر إلّا شراً، فليس الخير خيراً إذا نيل عن طريق الشر لأنّه وليـد لذلك الشر، وما خيراً خيرٌ لا ينال إلّا بمشقةٍ وعسر، وما خيراً خيرٌ لا يبلغ إلّا بعد احتمال صعوبات واجتياز عقبات.

وإيّاك أن توجف بك مطايا الطمع والجشع مسرعة بك إلىٰ غايتها المشؤومة، ونهايتها المـؤدية بـالانسان إلى القـرار البـئيس حـيث مـناهل الهـلكة والمـوت المرير.

واطلب الرزق من الله، ومن الله وحده، واكتسب الرزق في تجارة تعقدها بينك

وبين الله، وإن أمكنك أن لا يكون بينك وبين الله واسطة تبلغ به الىٰ الله، وتنال بـه رزقه فافعل، ففي ذلك العزّ، وفي ذلك الرفعة، وفي ذلك تتجلىٰ معاني الحرية بأبهىٰ مناظرها.

وكلّ إنسان لا محالة مدرك ما قسمه الله له من الرزق، وآخذ سهمه من القوت، وكل ما كان قد انتقل من الله إليك فهو نعمة عظيمة وعطاء موفور، وإن كان قليلاً بل أقلّ من القليل، لأنّ اليسير من الله كثير، ولأنّ القليل من الله أعظم وأكرم من الكثير من خلقه، وإن كان كل منه.

فاشكره علىٰ نعمه فإنّ الشكر أفضل منازل الأبرار، وعمدة زاد المسافرين إلىٰ عالم الأنوار، وهو غاية الفضائل والمقامات، ليس لكل سالك أن يصل إليه إلّا الأوحدي من كل السالكين، ولذا قال تعالى: ﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾ [سباء: ١٣].

وكما أنّ الشكر من المنجيات الموصلة إلىٰ سعادة الأبد، وزيادة النعمة في الدنيا، فضده ـ أعني الكفران للنعمة ـ من المهلكات المؤدية إلىٰ شقاوة السرمد، وعقوبة الدنيا وسلب النعم. يقول الله تعالى: ﴿**فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف**﴾ [النحل: ١١٢].

وقال الإمام الصادق ﷺ: «أُشكر من أنعم عليك، وأنعم علىٰ من شكرك، فانّه لا زوال للنعماء إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت»(١).

كفران النعمة:

وقد نصّ القانون الإسلامي علىٰ حرمة كفران النعمة.

الكفران بالنعمة والكفر بهما معناها واحد: وهو ستر النعمة وجحودها، والكافر هو الجاحد لأنعم الله تعالى.

(١) البحار ٧١: ٢٧ ح ٤.

يتحقق الكفران بنعم الله سبحانه بسترها وإخفائها عن العباد، وهذا حال من يظهر الحاجة والفقر والفاقة، وهو في نعمة من الله سبحانه تكفيه، ورزق واسع عمّا في أيدي الناس يغنيه، لكن الدناءة والخساسة أبت أن تفارق أهلها.

وعبثاً نحاول جمع أهل الدناءة والنهم والخساسة والجشع في صعيد واحد، مع أهل النزاهة والعفة والإباء والسخاء، فهذا تظهر نعم الله عليه، وذاك يسترها شحّاً ويخفيها جشعاً.

فستر النعمة وإخفاؤها كفران بها، والله سبحانه قد أمر باظهار النعمة، قال تعالى: ﴿وأمّا بنعمة ربك فحدّث﴾ [الضحى : ١١].

وإذا أمر الله سبحانه باظهار النعمة، فقد نهىٰ عن سترها وإخفائها، لأنّ الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضدّه، أما مطلقاً أو مثل هذا المورد.

الكفران بنعم الناس:

يتحقق الكفران بنعم الناس، بعدم الاقرار والأعتراف لهم بنعمهم، فكل من نال من أحد إخوانه وأبناء نوعه نعمة وأنكرها ولم يظهرها، كان كافراً بالنعمة غير شاكر نعمة المنعم، ومن لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الخالق سبحانه وتعالى علىٰ نعمه.

إنّ السبب في إنكار النعمة والاحسان غير بسيط غالباً، بل هو مركب من صفتين رديئتين: الحسد واللؤم، وكفىٰ بطبع تركّب منهما رادعاً وحاجزاً عن نسبة الاحسان إلى المحسن، وذكر المنعم بما أنعم، وشكره علىٰ إنعامه.

لا أراك ترتاب بأنّ كفران النعم وجحود الاحسان، يوجب سد باب الإنعام والاحسان بين العباد، نظراً لما انجبلت عليه طباعهم من حب المدحة والذكر الجميل، فهم حال إنعامهم وإحسانهم يرون ذكرهم بما هم أهله ثمن النعم والاحسان إلّا من عصمه الله تعالى، فإنّ إحسانه وإنعامه خالصاً لوجه الله لا يريد

به جزاءً ولا شكوراً.

فالمنعم يحب نسبة النعمة إليه، ووضعها في موضعها عند المنعم عليه، والله سبحانه المنعم علىٰ عباده، يسألهم يوم القيامة عن نعمه عليهم، فعلى مقدار النعمة يكون الحساب، وفيما وضعت تلك النعمة يكون الثواب أو العقاب.

وقد نص القانون الإسلامي علىٰ ذلك، قال سبحانه: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم • ألهاكم التكاثر • حتّىٰ زرتم المقابر • كلا سوف تعلمون • ثم كلّا سوف تعلمون • كلّا لو تعلمون علم اليقين • لترونّ الجحيم • ثم لترونّها عين اليقين • ثم لتسئلنّ يومئذٍ عن النعيم**﴾ [سورة التكاثر].

قيل: نزلت هذه السورة في اليهود، وقيل: نزلت في حيين من قريش تفاخروا حتّىٰ كان من أمرهم أن ذهبوا إلى المقابر، فعدّوا موتاهم ليعلموا أيّ الحيّين أكثر عدداً، والمقصود أنّ التكاثر في الأموال والأولاد ألهاهم وشغلهم عن ذكر الله وطاعته، وعن الاستعداد للدار الآخرة، فلم ينتبهوا حتّىٰ ماتوا، ونقلوا إلىٰ قبورهم، وفيها علموا عاقبة أمرهم.

وهذا خطاب عام يمكن انطباقه علىٰ من مات بلا كلفة، وعلىٰ الأحياء بعلاقة إشرافهم على الموت، وقد هددهم سبحانه وكرّر التهديد والوعيد بقوله: ﴿**كلاّ سوف تعلمون • ثم كلاّ سوف تعلمون**﴾.

وبعد تكرّر التهديد وتأكيد الوعيد، بيّن سبحانه أنّهم لو علموا يقيناً سوء عاقبة أمرهم، لشغلهم يقينهم بالعقاب والثواب عن التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد، وكيف لا يشغلهم وهم بعد علم اليقين يرون الجحيم، ويرون أنّهم يسألون يومئذٍ ـ أي يوم القيامة ـ عن النعيم الذي خصّهم الله به.

أهل البيت عليهم السلام هم النعيم:

قال قتادة: إنّ الله سائل كل ذي نعمةٍ عمّا أنعم عليه، وقيل: إن المسؤول عنه من

النعم هو الصحة والفراغ، وقيل: الأمن والصحة(١)، ومنه نعمتان مجهولتان الصحة والأمان، وقيل: يسأل عن كل نعمة إلّا ما خرج بالحديث وهو: ثلاثة لا يسأل العبد عنها: خرقة تواري عورته، وكسرة تسدّ جوعته، وبيت يكنّه من الحر والبرد.

روى العياشي في حديث طويل، قال: إنّ أبا حنيفة سأل أباعبدالله الصادق عليه السلام عن هذه الآية: ﴿لتسئلن يومئذٍ عن النعيم﴾ فقال له: ما النعيم عندك يا نعمان؟ قال أبو حنيفة: هو القوت من الطعام، والماء البارد.

فقال له جعفر الصادق عليه السلام: لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتّىٰ سألك عن كلّ أكلةٍ أكلتها، وشربةٍ شربتها، ليطولنّ وقوفك بين يديه، فقال أبو حنيفة: فما النعيم جعلت فداك؟

فقال الإمام عليه السلام: نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله به على العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا ألّف الله بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءً، وبنا هداهم الله للإسلام وهو النعمة التي لا تنقطع، والله سألهم عن حق النعيم الذي أنعم به عليهم، وهو النبي وعترته صلى الله عليه وآله(٢).

وكيف كان المسؤول عنه من النعيم يوم القيامة، فعلى العاقل أن يكون عارفاً بالمنعم سبحانه وتعالى، حافظاً للنعمة غير كافر بها، ولا متكبر عليها، فانّ النعم المدركة المحسوسة لا تحصىٰ، وأعظمها معرفة المنعم وشكره علىٰ النهج الذي أمر به تعالى. ولا يعرف ذلك إلّا بدلالة النبي صلى الله عليه وآله وعترته عليهم السلام، وبذلك يتضح لك أنّهم هم النعيم الذي يسأل الله عباده عنه يوم القيامة، فعليك بالبحث والتدبّر، فإنّ نعمة الايمان والمعرفة أعظم من كل نعمة، فلا سعادة إلّا بالعلم الموصل إلى الحقيقة المطلوبة.

---

(١) راجع البحار ٧: ٢٥٧.

(٢) راجع البحار ٢٤: ٤٩ ح ٢٣.

القرية التي كفَرت بأنعُم الله:

جاء النّص في القانون الأسلامي علىٰ قبح كفران النعمة، وبيان سوء عـاقبتة، قال سبحانه وتعالى:

﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ [النحل: ١١٢].

طالما ضرب سبحانه الأمثال لعباده تفهيماً لهـم، وتـقريبياً لعـقولهم، وإتمـاماً للحجة عليهم، فالله سبحانه ضرب هذا المثل في باب كفران النعمة الموجب لحلول النقمة، فأخبر سبحانه عباده عن أهل قرية كانوا آمنين في قريتهم، فلا يغار عليهم عدوّهم، ولا يصل اليهم أحد بسوء، وهم مطمئنّون لا يحتاجون إلىٰ الانتقال عنها بخوف أو ضيق، لأنّ رزقهم يأتيهم رغداً من كل مكان.

يحمل أهل ذلك المكان ما عندهم من الطعام والأثمار إلىٰ تلك القرية، فكان الله تعالى سخرهم لأهلها، ولم يزالوا كذلك حتّىٰ بطروا النعمة فكفروا بها ولم يشكروها ، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، أي بما كانوا يرتكبونه مـن كفران النعمة، وهو منبت كل بذر فاسد من كبر وعناد وبغي على العباد.

ولما كان أثر الجوع والخوف ظاهراً محسوساً، كان التعبير عنه بـاللباس مـن بديع التجوزات البيانية، نظراً لاشتراك أثرهما مع اللباس بمظهر الهيكل الانساني.

قال أبن عباس ومجاهد وقتادة: انّ تلك القرية مكة. نعم هي القـرية الآمـنة المطمئنّة التي يأتيها رزقها رغداً من كل مكـان، وهـي التي كـفر أهـلها بـنعم الله سبحانه، فعبدوا الأصنام، وأرتكبوا أنواع الآثام، وهمّوا بقتل خير الأنام بـعد أن آذوه وقاطعوه وكذبوه.

وهو المعروف عندهم بأنّه صادق أمين في كل ما يخبرهم عنه، حتّىٰ إذا أمرهم بترك عبادة الأحجار والأخشاب التي اتخذوها من دون الله أرباباً، كذّبوه وجحدوا عظيم الآيات من معجزات نبوته ورسالاته، وكادوه بأنواع المكائد والحيل، حتّىٰ

خرج من بينهم خائفاً يترقب، فدعا عليهم وقال: «أللهم أشدد وطأتك علىٰ مضر، وأجعل عليهم سنين كسني يوسف»(١).

فعذّبهم الله بالجوع حتّىٰ أكلوا القد والعلهز ـ هو الوبر يخلط بـالدم والقـراد ـ كانوا يأكلونه علىٰ خبثه، فيظهر عليهم أثر سمّه وقذره، وكان الخوف في قلوبهم أشد من كفرهم، كانوا يخرجون لحرب رسول الله ﷺ جازمين بـالنصر، إعـتماداً عـلىٰ كثرتهم وقوّتهم، فيرون من آيات الله ما يذهل عقولهم ويرهب قلوبهم، ويرجعهم إلىٰ مكة نادبين أشرافهم وكماتهم، حتّىٰ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت جزاءً من الله لهم علىٰ كفرانهم النعمة، ولم يزالوا معذّبين علىٰ كفران النعمة حتّىٰ جاء نصر الله والفتح، حين فتح رسول الله ﷺ مكة.

هاجم رسول الله ﷺ مكة فكان النصر والفتح، نعم فـتحها بـالسيف عـنوة، وأزال عن أهلها أقذار الجهالة، وأنقذهم من ظلمات الضلالة، وأماط عنهم نصب لباس الجوع والخوف، وأرجعهم إلىٰ شكر النعمة بعد كفرانها.

وقال سبحانه: ﴿والله فضَّلَ بعضكم علىٰ بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم علىٰ ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ● والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحـفدة ورزقكـم مـن الطـيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾ [النحل: ٧١ و ٧٢].

التفاوت بين أفراد الإنسان في هذا الكون الأول، محسوس يبصره كل عاقل، أجل يرى العاقل في النـوع الأنسـاني الأبـيض والأسـود، والطـويل والقـصير، والصحيح والسقيم، كل ذلك في أصل وجوده وظهور حقيقته قبل توارد الشهوات والأسترسال في السعي إلى الحاجات، وبعد ذلك ترى عاقلا فقيراً، وجاهلا غنياً، ترىٰ صحة ما قاله بعض الأُدباء:

كم عاقلٍ عاقلٌ أعيت مذاهبه وجاهلٍ جاهلٌ تلقاه مـرزوقا

---

(١) راجع البحار ١٧ : ٢٧١ ح٦.

كم فيلسوف ضاق به معاشه، وبليد مغفل يمرح في النعمة كيف يشاء، يرىٰ جميع ذلك العاقل العارف، فيعلم أن الله سبحانه قسم بين عباده النعم بحكمة بالغة لا تدركها العقول.

نعم فضَّل الله سبحانه بعض عباده علىٰ بعض في الرزق، فوسّع علىٰ بعض وقتّر علىٰ آخر، ﴿فما الذين فضلوا برادي رزقهم علىٰ ما ملكت أيمانهم﴾ أي لا يشارك الأغنياء الذين فضلوا في الرزق عبيدهم الذين ملكتهم أيمانهم في أرزاقهم التي فضلهم الله بها، فلا يشاركونهم في شيء منها، ولا يرضون بمساواتهم لهم، بل يرون لأنفسهم حق الإختصاص بما فضّلهم الله سبحانه به، فإذا كانوا يكرهون مشاركة عبيدهم لهم في ملكهم ونعمتهم، أفبنعمة الله سبحانه يجحدون ويجعلون لله شريكاً في ملكه وخلقه وفضله ونعمه علىٰ عباده.

فقوله تعالى: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾، ظاهر في الإستفهام بنحو الإنكار عليهم، والتوبيخ لهم علىٰ ما هم عليه من كراهتهم مشاركة عبيدهم في النعمة التي فضّلهم الله بها، ومن إتخاذهم لله شريكاً في ملكه وسلطانه.

فكيف تقبل عقولهم ويألف إدراكهم أن يجحدوا نعمة الله، فيجعلون له شريكاً في ملكه، وجحود النعمة كفران بها، والكافر بالنعمة مستحق للتوبيخ والذم، والانكار عليه بحكم العقل والنقل.

نماذج من نِعَم الله على العباد:

ثمّ بيّن سبحانه بعض نعمه علىٰ عباده بقوله: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات﴾ [النحل: ٧٢].

ترىٰ ويرىٰ كل عاقل عظيم النعمة في جعل الروابط القلبية المتبادلة في الزوجية، وحقيقة تكوينها كما خلقها سبحانه، فإنّ فيها ـ بعد حفظ بقاء النوع الإنساني ـ التعاون والخدمة والأُنس والرأفة، والتمتع بالجمال والكمال ولطيف

اللذات البشرية.

وأنعم سبحانه بالبنين والحفدة، والنعمة ظاهرة محسوسة، إذ بهم يناط السرور، وتجلى غياهب الكدر، فهم زينة وجمال، وأعوان وخلّان، وعمل صالح لا ينقطع إذا حسنت سيرتهم، وخلصت لله سبحانه سريرتهم.

وخلق تعالى صنوف الأقوات وما تترامىٰ إليه الشهوات، وأنعم بإباحة الطيّبات من رزقه لعباده، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ورزقكم من الطيبات﴾.

ولما كان شكر النعمة ما يحكم به العقل، وكان الشاكر لنعمه سبحانه قليلا، وبّخ تعالى الكافرين بنعمه، فقال: ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعة الله هم يكفرون﴾ [النحل : ٧٢].

لا يخفىٰ أنّ الإستفهام بنحو الانكار والتوبيخ يدلّ كما لا يخفىٰ علىٰ حُسن شكر المنعم، بل وجوب شكره وإن قلّت تلك النعمة، فكيف إذا عظمت نعمة المنعم واتصلت، وكانت الحاجة إلىٰ دوامها كالحاجة إلىٰ أصل وجودها، فنعم الله سبحانه لا تحصىٰ، والإنسان في حاجة إلىٰ دوامها عليه، ولا دوام للنعمة إلّا بفيضه تعالى، وفيضه علىٰ عبده بشكره لنعمه، فانّ شكر النعمة يسبب زيادتها قال سبحانه: ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ [إبراهيم : ٧].

فالشكر يوجب زيادة النعمة بحكم وعده تعالى، وكفران النعمة بنص هذه الآية موجب للعذاب في الآخرة، يوم يسأل الإنسان عن نعم الله كيف تقلب فيها، هل كان حامداً شاكراً، أو جاحداً كافراً، يوجب كفران النعمة بنص هذه الآية، العذاب الشديد في دار الدنيا بزوال تلك النعمة، وتبدلها بالنقمة، فكم هلك من هلك حين كفر النعمة في القرون الماضية، والأيام الخالية، وما زالت غضارة العيش عن قوم إلّا بكفرانهم النعمة.

تتبّع حال بني الدنيا من مبدأ انتشارها في أرض الله الواسعة إلىٰ يومنا الذي

نحن فيه، تجد زوال النعم ونفارها مسبباً عن جحودها وكفرانها، وإليك مما سلف قضية واحدة فانّ فيها الأعتبار، وهي كفران (جرهم) نعم الله عليها:

كفران «جُرهم» للنعمة:

جُرهُم كَفَرت بالنعمة، وأستخفّت بحرم الله سبحانه، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف، والذلة والصغار، بعد الأمن والثروة والعزة والسلطان.

كانت جرهم تسكن مكة المكرمة التي جعلها الله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء، جعلها الله مقصداً تشد إليها الرحال من كل فج عميق، فيغنم قاصدوها منافع كثيرة، ويذكرون أسم الله تعالى في نسكهم، ويشكرونه علىٰ ما هداهم من معرفته، وما رزقهم من بهيمة الأنعام والنعم الجسام، وما سخّره لهم من الأجرام العلوية والسفلية، التي كوّنها سبحانه وجعلها في مجاريها أسباباً من فيضة بقدرته، حتىٰ أخرج الإنسان إلى الوجود من كتم العدم، وجعل وجوده المنتشر متسلسلاً من بين الصلب والترائب، سبحانه عظمت حكمته، وجلّ تدبيره، وقصرت الألسن عن أداء شكر قليل نعمه وهي لا تحصىٰ.

كانت جرهم تسكن مكة الشريفة التي تتزاحم علىٰ سكناها الأشراف، وتحترمها جبابرة الملوك، نزلت قبيلة جرهم مكة المشرفة، فكانت قائمة بالواجب من خدمة الكعبة ـ وهي البيت الحرام ـ ترىٰ لنفسها السلطة والسيادة والشرف والفضيلة علىٰ سواها من القبائل والشعوب.

وما برحت متمتّعة بنعمة ذلك الحرم المبارك يكرم مثواها من حل فيه، ويهابها من غاب عنه، حتىٰ كفرت النعمة فخابت صفقتها، وخسرت عزها وسلطتها، وذاقت سوء عاقبة كفران النعمة.

وإليك بيان حالها ملخصاً بأسهل بيان، وألطف إختصار، محتفاً بما مثلناه من تشخيص تلك القضية علىٰ نهج التصرفات الخيالية.

نزول جُرهم مكة المشرفة:

نزلت جرهم مكة المشرفة وفازت بأمرة العرب وسلطتها بعد هلاك العمالقة، وقامت بخدمة الحرم والكعبة، فرمّمت منها ما بدل شكله سيل الماء بعد هلاك العمالقة حين كفروا النعمة واستخفّوا بالحرم.

لبثت قبيلة جرهم زمناً طويلاً شاكرة للنعمة، قائمة بما تقدر عليه من الخدمة للكعبة وقاصديها، وهي متمتعة بنعم الله تعالى، وما برحت كذلك حتّىٰ استخفّت بحقّ البيت الحرام، وكفرت بنعم الله، وارتكبت الأُمور العظيمة، وأحدثت الأحداث القبيحة.

خزانة الكعبة:

كانت للبيت الحرام خزانة بشكل البئر في داخل البيت، يوضع فيها الحلي والأمتعة التي تُهدىٰ للبيت، فاتّفق خمسة من جرهم علىٰ سرقة ما في الخزانة، ودخل أحدهم ليخرج ما فيها، وانتظره الأربعة خارج البيت، فأهلك الله تعالى ذلك المقتحم وفرّ الأربعة.

ولما كثر من جرهم كفران النعمة وزاد بغيهم، قام فيهم من أدرك سوء عاقبة كفران النعمة خطيباً، فوعظهم وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، وكان ذلك الرجل من العقلاء وأهل الخبرة بالكتب السماوية وآثار الأُمم السالفة، وكان أسمه «مضاض» هو مضاض بن عمرو بن الحرث بن مضاض.

قام في قومه خطيباً فقال: يا قوم احذروا كفران النعمة والبغي فإنّه لا بقاء لأهله، وقد رأيتم من كان قبلكم من العماليق كفروا بالنعمة واستخفّوا بالحرم ولم يعظّموه، وتنازعوا بينهم واختلفوا، حتّىٰ سلّطكم الله عليهم، فاجتحتموهم فتفرّقوا في البلاد، فلا تكفروا بالنعمة، ولا تستخفّوا بحقّ الحرم وحرمة بيت الله، ولا تظلموا من دخله وجاءه معظماً لحرماته، أو خائفاً رغب في جواره، فإنّكم إن فعلتم ذلك

تخوّفت عليكم أن تخرجوا منه خروج ذل وصغار، حتّىٰ لا يقدر أحد منكم أن يصل إلى الحرم، ولا إلىٰ زيارة البيت الذي هو لكم حرز وأمن، والطير تأمن فيه.

فقال قائل منهم يقال له «مخدع»: ومن الذي يخرجنا منها ألسنا أعزّ العرب وأكثرهم مالاً وسلاحاً، فقال مضاض: إذا جاء الأمر بطل ما تذكرون، فقد رأيتم ما صنع الله بالعماليق قبلكم.

فانظر إلىٰ ما وعظ به مضاض قومه، وخوّفهم من سوء عاقبة كفران النعمة ووخامة مراتع البغي، وعرفهم ما كان من أمر العماليق قبلهم، وأنّهم سيصيبهم ما أصابهم.

مجمل أمر العماليق:

كانت العماليق اتخذت مكة المشرفة مسكناً، وقامت بخدمة الحرم زمناً طويلاً، ثمّ كفرت بالنعمة واستخفّت بالحرم، وهتكت حرمة البيت، فسلّط الله عليها أضعف خلقه ـ وهو الذر ـ فأخرجهم من الحرم، ثم ابتلاهم بالجدب حتّىٰ هلك الكثير من أنعامهم، وتسلّطت عليهم جرهم فأصلتهم نار حرب موقدة، فهلك منهم من هلك، وفرّ من سلم بعد ذهاب سلطانهم وعزّهم، والسبب الأكبر في هلاكهم هو كفران النعمة.

دفن كنوز الكعبة في بئر زمزم:

لما رأى «مضاض» إصرار قومه علىٰ ما هم عليه، وزيادة كفرانهم النعمة وبغيهم وعتوّهم، وعدم تأثّرهم بجميل بيانه ولطيف نصحه، حتّىٰ كأنّهم صمّ لا يسمعون، أو علىٰ قلوبهم أقفال أحكمتها يد الجهالة فهم لا يعقلون.

لما رأىٰ ذلك من قومه قام متستّراً بظلام الليل إلىٰ بئر زمزم، فحفرها ودفن فيها كنوز الكعبة، وهي غزلان من ذهب، وأسياف وحلي وأمتعة كلها ذهبيّة،

وأخفىٰ أثر عمله قبل بزوغ فجر نهاره، حتّىٰ لا تكون تلك الكنوز غنيمة تتلاعب بها سفهاء قومه، ولا يكون هو بينهم إلّا آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر بما يـقدر عليه.

وبذلك يتخلّص من الآفات السماوية والانتقامات الربانية كل من رأىٰ المنكر فأنكره بيده وقوّته، فإن لم يقدر فبلسانه وبيانه، وإلّا فـبقلبه، وبهـذا نهـض ذلك العارف الغيور علىٰ نفسه ودينه وقومه.

حلول النقمة بمن كفر النعمة:

تمادت جرهم بكفران النعمة والبغي، وأمنت لجهلها سوء العاقبة، وما شعرت بما يسوؤها، حتّىٰ حلّت بساحتها قبائل من أهل مأرب، يقدمها عميدها «عمرو بن عامر» وجلّها من خزاعة.

فخرجت هذه القبائل من بلادها تقطع المهامه والقفار، لتنتقي مـن البـلاد مـا يوافقها هواء، وماء، وكلاء، وأناخت ركابها بمكة المشرفة لا عن سوء نية بأهلها بل غايتها الراحة وزيارة البيت وأداء حقه، ولما رأتها واسعة الرحاب تصلح للاقـامة بها ريثما ترسل من رجالها من يختبر لها الشامات والعراق وغيرهما، كي تختار من البلاد ما يلائمها لتحتلّه وتحلّ به.

لما رأت ذلك عزمت علىٰ الأقامة في رحاب مكة، وأرسل عميدها «عمرو بن عامر» ولده ثعلبة إلىٰ عظماء جرهم ليفاوضهم بما عزموا عليه، دخل ثـعلبة عـلىٰ عظماء جرهم في ناديهم فحيّاهم، وقال: يا قوم إنّا خرجنا من بلادنا فلم ننزل منزلاً أفسح لنا أهله وتزحزحوا عنّا فنقيم معهم حتّىٰ نرسل رواداً فـير تادوا لنـا بـلاداً تحملنا، فافسحوا لنا في بلادكم حـتّىٰ نـقيم قـدر مـا نسـتريح ونـرسل رواداً إلى الشامات وبقية الشرق، فحيثما بلغنا انّه أمثل لنا لحقنا به، وأرجو أن يكون مقامنا معكم يسيراً.

سمع عظماء جرهم كلام ثعلبة، فامتنعوا من قبول طلبه، وأبوا عليه إباءً شديداً، وأخذتهم سورة العجب والكبر، وقالوا: لا نحب أن تنزلوا بلادنا، وتضيقوا علينا مرابعنا ومواردنا، فارحلوا عنّا حيث أحببتم فلا حاجة لنا بجواركم.

آب ثعلبة إلىٰ أبيه بما سمعه منهم، فأرسل إليهم عمرو بن عامر من أعلمهم أنّه لابدّ من المقام ببلادكم حولاً كاملاً حتّىٰ ترجع إليّ رسلي التي أرسلتها، فإن أنزلتموني طوعاً نزلت وحمدتكم وساويتكم في الرعي والماء، وإن أبيتم أقمت علىٰ كرهكم، ثم إن ظهرت عليكم سبيت النساء، وقتلت الرجال، ولم أترك منكم أحداً ينزل الحرم أبداً.

سمعت رجال جرهم ذلك فلم تأبه به وأجابته بما أساءه، وتحرّكت للحرب بكلّ ما تقدر عليه إلّا «مضاض بن عمرو» فإنّه كان مخالفاً لهم في إبائهم عن قبول طلب «عمرو بن عامر»، وكان مضاض يرىٰ لزوم إجابة طلبه لأنه حلّ وقومه في جوارهم ونزل بساحتهم، فهم بالأضياف أشبه من الأعداء، ولانّه يعلم ما عليه جرهم من كفران النعمة الموجب لسرعة الإنتقام مع الإصرار عليه وزيادة التقحّم فيه.

وكان يخوّف قومه وهو خائف من سوء عاقبة كفران النعمة، فلما رآهم تهيّأوا وتعبّأوا للحرب اعتزلهم بعد أن قال لهم: هذا ما كنت أتخوّفه عليكم وأُحذرّكم منه.

اعتزل مضاض الحرب وخرج بولده وخاصته قبل إيقاد نار الحرب، ولحق بقنونا وهي من أعمال الحجاز.

هلاك جرهم بسيوف خزاعة:

نشبت الحرب بين جرهم وخزاعة، فأظهرت جرهم في اليوم الأول بسالة عظيمة وهجوماً ودفاعاً شديداً، وانفصلت في نهاية اليوم غير مكترثة بخزاعة، ترى النصر في جانبها والسعد في طالعها، وأصبحت مبادرة للحرب في اليوم الثاني، فقابلتها خزاعة بما لم يكن بالحسبان.

وكان لقائدها وعميدها «عمرو بن عامر» الاقتدار العظيم في التدابير الحربية، ومظاهر البسالة والشجاعة، فلاقت جرهم في اليوم الثاني من خزاعة ما أذهلها، وأدخل الرعب في قلوب كماتها، وودّت قصر ذلك اليوم، وندمت علىٰ ما فرطت من عدم إجابتها طلب خزاعة.

انفصلت جرهم في اليوم الثاني عن الحرب منكسة الأعلام، خافقة القلوب، تردّد في شعاب مكة وتلاها نعي رجالها وأبطالها، وتبصر غياهب الإنكسار محلقة فوقها كيف توجّهت، باتت تلك الليلة وسوء عاقبة كفران النعمة يناديها إلى الهلاك، فهو الجزاء لمن كفر النعمة وبغى في الأرض الفساد، ولم تجد جرهم بدّاً حيث أصبحت من أستقبال نار الحرب، حيث رأت أبطال خزاعة تتقدّم بأعلام النصر نحوها والصبر ملء إهابها.

تقدّمت جرهم في اليوم الثالث للحرب فكأنّها تقدمت والصبر والنصر عنها بمنعزل، وقبل انقضاء اليوم الثالث انقضىٰ صبرها، فانهزمت والسيف في رقابها، فلم يفلت منها إلّا الشريد، وذاقت وبال كفران النعمة، وكان عاقبة أمرها خسرى، وهذا هو الجزاء لمن لم يشكر النعمة، ولم يكتف بكفرانها حتّىٰ بغىٰ في الأرض الفساد.

عودة أبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام إلىٰ مكة:

لما حازت خزاعة النصر وخفقت أعلامها علىٰ مكة واستولت على الحرم، وأصبحت وهاً في قلوب العرب وفي قلوب وفود بيت الله وزوّاره رغبة ورهبة، فالقاصي والداني لا يدخل ذلك الحرم المقدس إلا برضاها، وكان أولى الناس بالحرم أولى الناس بالكعبة (بيت الله) أبناء بانيه، أبناء من أسس قواعده علىٰ تقوى الله، وأبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

كان أبناء إسماعيل في دولة العماليق مشرّدين عن حرم الله وحرم أبيهم، أما في

دولة جرهم فأمرهم أهون من أيّام العماليق، فإنّ جرهم لم تمنعهم من دخوله ومن مجاورته وسكناه، ولما وقعت الحرب بين جرهم وخزاعة، كانت خطة أبناء إسماعيل اعتزال الحرب وتنحّيهم عنها.

اعتزل أبناء إسماعيل حرب خزاعة ولم يعينوا عليها، فكان ذلك يداً جميلة عندها، كافتهم عليها بمساواتهم لها في سكنى الحرم، دخل أبناء إسماعيل مكة المشرّفة آمنين وحلّوا في ذلك الحرم محترمين، وخزاعة ترىٰ انّها أحسنت اليهم وأنعمت عليهم، وجهلت أو تجاهلت أنّه لا مكة لولا الكعبة (البيت المقدس) وإنّ البيت بناه إسماعيل وإبراهيم بأمر من الله سبحانه إتماماً للنعمة، وإيضاحاً للحجة ﴿ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيىٰ من حيّ عن بيّنة﴾ [الأنفال : ٤٢].

شوق مضاض بن عمرو الىٰ مكة المشرّفة:

قد عرفت ما كان عليه «مضاض» من شكر النعمة، وخوف عاقبة كفرانها، وكيف كان تحذيره لقومه جرهم، وتخويفهم من سوء عاقبة كفران النعمة، ثم اعتزاله الحرب التي دارت بينهم وبين خزاعة، فكان حقيقة نجاته بما كان منه، وبما اتّصف به من شكر النعمة وترك كفرانها.

إنفصل مضاض عن قومه وتركهم يصطلون نيران كفران النعمة والبغي بسيوف خزاعة، وارتحل إلىٰ «قنونا» وهي من أعمال الحجاز وأرضه، حلّ فيها بمن معه من ولده وخاصته من جرهم، حلّ فيها وقلبه في مكة في ذلك الحرم المنيع، في البيت الحرام (الكعبة المشرفة).

حلّ مضاض في قنونا وهو يتطلّع الأخبار من مكة كالمطل عليها، ويتوقّع بما لديه من الشوق الأكيد رجوعه إليها، حتّىٰ تناقلت الركبان حديث هلاك جرهم، فساءه ذلك وسرّه، ساءه ما حلّ بقومه من العذاب في الدارين حيث اختاروا كفران النعمة، وسرّه ما هو عليه من الاستضاءة بنور الحق، وشكر النعمة والتخلّص من

هوة الجهالة، وحيرة الضلالة، والعذاب العاجل والآجل.

ثم بعد هذا وذاك عادت تردّد في نفسه الحسرات والزفرات، والشوق يصعد أنفاسه ويصوبها نحو مكة المشرفة، نحو مهده ومسقط رأسه ووطنه، وحب الوطن لا ينكر، وقد روي: «حبّ الوطن من الإيمان».

كان مضاض غريق غمرة الأسىٰ والأسف على التشرف برحاب الكعبة المشرّفة استياف شذاها، علىٰ مشاهدة معاهد أنسه وشفاء نفسه، حتّىٰ شاع عود أبناء إسماعيل إلىٰ مكة، وعطف خزاعة عليهم، وإنصافها معهم بمساواتهم في المسكن، في الماء والكلاء، فأماط ذلك نبأ السار عن قلبه غياهب الكدر، وانقلب الأسى رجاء، والأسف سروراً، حتّىٰ غاص مضاض في بحور الأماني بما يبتغيه من عوده لديار جدّه وأبيه.

خيبة الرجاء أكبر البلاء:

إنّ رجوع أبناء إسماعيل عليه السلام إلىٰ مكة، ومسالمة خزاعة لهم وعطفها عليهم، وهم أحلاف جرهم قبل حربها مع خزاعة، ولا كرامة لهم عند خزاعة إلّا اعتزالهم حربها، وهو الذريعة والشفيع لهم عندها، إنّ هذا كله كان السبب الوحيد، والعلة التامة التي علّق عليها آماله مضاض لأنّه خالف عشيرته بجميع أفعالها، واعتزل حربها مع خزاعة، فجزم بإجابة طلبه، وأرسل رسله لمكة المشرفة يطلب من خزاعة الاذن والرخصة بالعود إلىٰ مكة، وتوسّل إليها بما قدّمه من موعظة قومه واعتزاله الحرب حتّىٰ تضعضعت أركان جرهم، وتمّ فوز خزاعة، ثم أكّد علىٰ نفسه العهود، وحلف لهم الايمان أن لا يحدث في جوارهم حدثاً، ولا يخرج عن طاعتهم أبداً.

ذهبت رسل مضاض إلىٰ مكة، وتفاوضت مع عميد خزاعة ورجالها، وآبت بخيبة الرجاء وانقطاع الأمل من سكنىٰ مكة المشرفة، وتحمّلت رسل مضاض قرار خزاعة بهدر دم كل جرهمي يدخل مكة، وصادقت أشراف خزاعة علىٰ قرار

عميدها، بنفي جرهم عن الحرم نفياً مؤبداً خوفاً من تظاهرهم ولو بعد حين.

وهذه طريقة أهل الأمرة في كل زمن يبذلون جهدهم، ويفعلون ما لا يرتضونه من غيرهم، حبّاً في احتكار السلطة، عادت رسل مضاض بما عرفت، فعاد مضاض إلىٰ بؤسه ويأسه، ورب أمل خائب ولمع كاذب.

إبل مضاض ونفارها:

كانت العرب ولم تزل ترىٰ تجمّلها بجمالها في حلّها وارتحالها، فالإبل عندها أحسن شيء يقتنى، تحملها أثقالها، وتشرب ألبانها، وتأكل لحومها متى أعوز الأمر، فهي الثروة الجميلة والمراكب الجليلة.

كانت جرهم تفوق سواها من العرب باقتناء الأبل العراب، لا سيما عميدها (مضاض بن عمرو) فانّه قلّ من ساواه في كثرة الإبل، ولم تكن «قنونا» كمكّة المشرّفة في الماء والكلاء، فلا راحة فيها لإبل مضاض، ولولا إحتياط رعاتها بإحاطتها كان نفارها أكثر من قرارها.

غفلة الرعاة:

غفل الرعاة عن إبل مضاض في بعض الأيّام فنفرت حتّىٰ خرجت من أرض قنونا واجتازت جوارها، فحنت الى مراتعها في مكة حنينها إلىٰ فصائلها، والعربي لا يجهل حنين الإبل إلىٰ مراتعها وقطعها إليها كل سهل وجبل بعد مرور السنين، اجتازت إبل مضاض الصحراء الفاصلة بين قنونا والحرم، لا يقف في وجهها شيء حتّىٰ دخلت شعاب مكة وتلاها.

صراخ الرعاة:

بينا مضاض يتقلّب علىٰ فراشه في دار غربته (قنونا)، وهو تارةً يعود إليه أمل

العود إلىٰ مكة المشرّفة، وتارةً تردّه خيبة سالف الأمل إلى اليأس ـ واليأس إحدى الراحتين ـ بينما مضاض في تلك الفكرة، وجوّ قنونا هادئ هاجع، وكل ما فيها مسامع إذ فاجأتها أصوات الرعاة بنفار الإبل، طرق ذلك النبأ مسامع مضاض، فاستوىٰ علىٰ راحلته مع بعض أُسرته يتبع أثر إبله في المناهل والوهاد، حتّىٰ انتهوا إلىٰ «أجيال».

مضاض بن عمرو على أبي قبيس:

انتهى السير بمضاض إلىٰ «أجيال» وهي سلسلة تلال وربوات تفصل بأبي قبيس أعلىٰ جبال مكة، فرأىٰ أثر إبله داخلاً في شعاب مكة، داخلاً في رحاب خزاعة وعاصمتها، ولم يكن ذاهلاً عمّا قرّرته خزاعة من هدر دم كل جرهمي يدخل مكة، وقف علىٰ أثر إبله موقف الحائر الكئيب، موقف المذهول من غرائب المحن وعجائب الزمن، وقف محتدم الفؤاد، يطلب مشاهدة إبله بالعين بعد الأثر علىٰ جبل أبي قبيس.

ولا يخفىٰ حال أبي قبيس علىٰ من اقتبس من أنوار الحجاز لوامع أعلامها، يرى الواقف عليه ما حوله من أودية وربوات وآثار وعلامات، يرى القاصي والداني، والمنخفض والعالي من أبنية مكة، يرى القائم والقاعد والمتحرّك والساكن والناحر والجازر إذا انتشروا في شوارع مكة وأكنافها.

صعد مضاض علىٰ أعلىٰ أبي قبيس، وأرسل أشعة بصره ليبصر عراب إبله، أرسل أشعة بصره في ذلك الوادي المقدس، فأبصر ما حلق إليه بصره، أبصر ابله تنحر وتؤكل حولها ليوث خزاعة، يا له منظر هائل أنتج الحسرة والزفرة والتحرّق والعبرة، رأى إبله تنحر وتؤكل، ولا سبيل إليها.

غضّ مضاض طرفه عن ذلك المنظر، فعادت أشعة بصره منعكسة، ونظر إلىٰ أبي قبيس فرآه متلبّداً بحالك الظلام، فسرح نظره في جو مكة، وإذا غياهب

الارهاب والتهديد قد امتدت من شعاب مكة منتشرة في ذلك الجو حتّىٰ حجبت شعاع الشمس عن ذلك الفضاء، فلوىٰ مضاض زمام راحلته عن أبي قبيس، وخاف ان هبط الوادي أن يقتل، فتوجّه منصرفاً الىٰ قنونا ينشىء ما يحويه إليه ضميره، واصفاً ما كانوا عليه، وما انتهىٰ أمرهم إليه بقوله:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا — أنيس ولم يسمر بمكة سامر
ولم يتربع واسطا فجنوبه — الى المنحني من ذي الأراكة حاضر
نحن كنّا أهلها فأبادنا — صروف الليالي والجدود والعواثر
وأبدلنا ربي بها دار غربة — بها الذئب يعوي والعدو المخامر
أقول إذا نام الخلي ولم أنم — إذا العرش لا يبعد سهيل وعامر
وبدلت منهم أوجهاً لا أُريدها — وحيمر قد بدلتها واليحابر
فان تمل الدنيا علينا بكلها — ويصبح شر بيننا وتشاجر
فنحن ولاة البيت من بعد نائب — غسي به والخير إذ ذاك ظاهر
وأنكح جدي خير شخص علمته — فأبناؤه منا ونحن الأصاهر
وأخرجنا منها المليك بقدرة — كذلك يا للناس تجري المقادر
فصرنا أحديثاً وكنا بغبطة — كذلك عضتنا السنون الغوابر
وسحت دموع العين تبكي لبلدة — بها حرم أمن وفيها المشاعر
فياليت شعري هل يعمر بعدنا — جياد فمضى سيله فالظواهر
فبطن من أمسى كأن لم يكن به — مضاض ومن حي عدي عمائر
فهل فرج آت بشيء تحبه — وهل جزع منجيك مما تحاذر

هذا حال مضاض وهذا شعوره، وإن تخلّص من سرعة الانتقام لكنّه حرم سيادة جرهم وإمرتها، وسكنىٰ مكة المشرفة وحرمتها، حرم ذلك كله بانقراض قومه، وإنقراضهم كان مسبباً عن كفرانهم النعمة وبغيهم في الأرض.

* * *

أحسنوا مجاورة النعم:

قال صاحب الدعوه الإسلامية الرسول الأمين محمّد ﷺ: «أحسنوا مجاورة النعم، لا تملوها ولا تنفروها، فانّها قلّ ما نفرت عن قوم فعادت إليهم»(١).

ترشدنا هذه الكلمة إلىٰ رمز لطيف، وإشارة جميلة، وكناية حسنة، نعلم بعد تدبرها حكم العقل بأنّ دوام النعمة بحفظها، والقيام بواجب حقها، وبدون ذلك تنفر النعم كما ينفر الحر العاقل من جيرة جار لا يحترم جواره، ولا يحافظ علىٰ حقوق الجوار.

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «إحذروا نفار النعم، فما كل شارد بمردود»(٢).

إنّك بعد الألتفات لما يفيده التحذير في هذه الكلمة، لا ترىٰ فرقاً بين مفادها ومفاد الكلمة السالفة، وكيف لا يتحد مفادهما، وتلك كلمة النبي ﷺ، وهذه كلمة الوصي عليه السلام، وغايتهما واحدة، ومعدن الحكمة والبلاغة بينهما سواء.

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «بالشكر تدوم النعم»(٣).

لا يخفى إستقلال العقل بوجوب شكر المنعم علىٰ إنعامه، والمنعم بالذات هو الله سبحانه، وبشكره تدوم النعم، وتزداد فيوضاتها منه بحكم قوله: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم : ٧].

وقال عليه السلام: «آفة النعم الكفران»(٤).

آفة كل شيء علته، وما يسبب هلاكه وزواله، فكفران النعم علّة زوالها، وسبب نفارها، وبإستمرار الضلالة عن سواء السبيل، وانسلاخ النفس من دائرة المعارف والكمال يتحقق كفران النعمة.

---

(١) البحار ٧٧ : ١٧٣ ح ٧.
(٢) نهج البلاغة : قصار الحكم ٢٤٦، عنه البحار ٧١ : ٥٣ ح ٨٥.
(٣) غرر الحكم : ٢٧٨ ح ٦١٤١.
(٤) مستدرك الوسائل ١١ : ٣٥٣ ح ١٣٢٣٨.

الفصل السابع عشر
الصمت وقبح الظلم

«وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي ٱلْوِعَاءِ بِشَدِّ ٱلْوِكَاءِ. وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ، وَمَرَارَةُ ٱلْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ. وَٱلْحِرْفَةُ مَعَ ٱلْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ ٱلْغِنَى مَعَ ٱلْفُجُورِ، وَٱلْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ. قَارِنْ أَهْلَ ٱلْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ. بِئْسَ الطَّعَامُ ٱلْحَرَامُ!

وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ! إِذَا كَانَ ٱلرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ ٱلْخُرْقُ رِفْقاً. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً، وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ ٱلْمُسْتَنْصَحُ. وَإِيَّاكَ وَٱلْاتِّكَالَ عَلَى ٱلْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى، وَٱلْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ.

بَادِرِ ٱلْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً. لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَؤُوبُ، وَمِنَ ٱلْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ ٱلْمَعَادِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ، التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ!».

قِلّةُ الكلام:

وهنا يعظ الأمام عليه السلام ولده الحسن عليه السلام محبّاً له، مائلاً إليه، يريده أن يسلم من كل ما يشين به من عيب، فهو يهدي كلمته هذه لابنه هذا، فانّ له فيها لخيراً كثيراً يعود عليه عاجله وآجله، وَلَكَمْ وَدَّ الامام عليه السلام أن يكون ولده كما يريد وكما يريد الله له أن يكون.

فها نحن أُولاء نسمع إلىٰ عظاته البالغة التي تهدف إلى الخير، وتبتغي الخير، فنسمع شيئاً عظيماً فما هو، نرىٰ الامام عليه السلام ينهىٰ عن الاكثار من الكلام العابث الذي ليس يقصد الى شيء، ويدعو إلى الصمت ما حسن الصمت، ونبذ الكلام ما لم يكن للكلام وجه حسن، فما الصمت للإنسان إلّا وقار وهيبة، وما الهذر من الكلام الّا اذلال له وإسقاط في أعين الآخرين.

فعلى الإنسان أن يزن كلامه أوّلاً حتىٰ إذا رآه خليقاً بالاظهار أطلقه من وكره، بحيث لا يطلقه إلّا وهو علىٰ جانب عظيم من الثقة بأنّ هذا يصيب الهدف وينال الغاية، وإلّا فخير للإنسان أن يصمت ويستر علىٰ نفسه كثيراً من العيب، وقد عرف أنّ الكلام لو كان من فضّة لكان السكوت من ذهب.

وما أكثر ما نطلق من الكلام ما لا نعقل، ومن القول ما لا نتبصّر عواقبه، فإذا هو لا يكاد ينطلق حتىٰ يعود وبالاً علينا، وقد يحمل في جنباته الشرّ الكثير ما كان أحسن الكلام لو أطلق علىٰ طريقة تليق به، وما كان أسعد الإنسان لو لم ينطق إلّا بعد أن يفكّر في ما يريد أن ينطق.

وما كان أحسن للانسان أن يحتفظ بشدّ الوكاء بدل أن يهمل، فإذا سال منه الماء عاد فشدّه شدّاً قويّاً، وليس له إلىٰ استرجاع ما تبدّد من سبيل، وليس شدّه للوكاء بعد هذا بمجد عليه نفعاً، فقد وقع الأمر وانتهىٰ كلّ شيء، فعلى الإنسان أن يتحفّظ بما في نفسه بأن يعقل لسانه عن النطق في غير موضعه، وقد قيل فيما سبق: «الكلام أسيرك فإذا أطلقته صرت أسيره».

فضيلة صون اللسان:

جدير بمن يقصد الكمال أن يبلغ مجهوده في حفظ اللسان حتّىٰ يستقيم له، إذ اللسان هو المورد للمرء موارد العطب، والصمت يكسب المحبّة والوقار، ومن حفظ لسانه أراح نفسه، والصمت منام العقل والمنطق يقظته.

والواجب على اللبيب ألّا يغالب الناس علىٰ كلامهم، ولا يعترض عليهم فيه؛ لأنّ الكلام حينئذٍ قد يؤدّي إلىٰ فوز موقّت غير أنّه لو أُرجئ إلىٰ حينه لكان الفوز أدوم وأبقىٰ، قال الأحنف بن قيس: «الصمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبه».

وقال بعض المربّين: «الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلىٰ أن يلزمه التكلّم، فما أكثر من ندم إذا نطق، وأقلّ من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاءً وأعظمهم بلاءً من ابتلىٰ بلسان جامح».

عشر خصال للسان:

واللسان فيه عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها ويضع كلّ خصلة منها في موضعها:

١ ـ فهو أداة يظهر بها البيان.
٢ ـ وشاهد يخبر عن الضمير.
٣ ـ وناطق يرد به الجواب.
٤ ـ وحاكم يفصل به الخطاب.
٥ ـ وشافع تدرك به الحاجات.
٦ ـ وواصف تُعرف به الأشياء.
٧ ـ وحاصد يذهب الضغينة.
٨ ـ ونازع يجذب المودّة.

٩ ـ ومسلّ يذكي القلوب.

١٠ ـ ومعزّ تردّ به الأحزان.

ولقد أحسن الذي يقول:

أخفض الصوت إن نطقت بليل والتفت بالنهار قبل المقال

جاء عن رسول الله ﷺ: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه»(١).

وأنشد الأبرش:

ما ذلّ ذو صمت وما من مكثر إلّا يذلّ وما يعاب صموت

إن كان منطق ناطق من فضّة فالصمت درّ زانه الياقوت

قال عليّ بن بكار: جعل الله لكلّ شيء بابين وجعل للّسان أربعة: الشفتين مصراعين، والأسنان مصراعين.

وقال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن ينصف أُذنيه من فيه، ويعلم أنّه إنّما جعلت له أُذنان وفم واحد ليسمع أكثر ممّا يقول، لأنّه إذا قال ربّما ندم، وإن لم يقل لم يندم، وهو علىٰ ردّ ما لم يقل أقدر منه علىٰ ردّ ما قال، والكلمة إذا تكلّم بها ملكته، وإن لم يتكلّم بها ملكها، وربّ كلمة سلبت نعمة.

قال ابن مسعود: والله الذي لا إله غيره ما شيء أحقّ بطول سجن من لسان(٢).

المرأة التي ما تكلّمت الّا بالقرآن:

جاء في الخلق الكامل عن الأصمعي قال: بينا أنا أطوف بالبادية إذا أنا بأعرابية تمشي وحدها علىٰ بعير لها فقلت: يا أَمَةَ الجبّار من تطلبين؟ فقالت: «من

(١) البحار ٧١: ٢٩١ ح٦٢.

(٢) احياء العلوم ٣: ١٠٨ / آفات اللسان.

يهد الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له» [مضمون الآية] قال: فعلمت أنّها قد أضلّت أصحابها، فقلت لها: كأنّك قد أضللت أصحابك؟ قالت: ﴿ففهمناها سليمان وكلّاً آتينا حكماً وعلماً﴾ [الأنبياء : ٧٩].

فقلت لها: يا هذه من أين أنت؟ قالت: ﴿سبحان الذي أسرىٰ بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾ [الاسراء : ١] فعلمت أنّها مقدسية، فقلت لها: كيف لا تتكلّمين؟ فقالت: ﴿ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾ [ق : ١٨] فقال بعض أصحابي: ينبغي أن تكون هذه من الخوارج، فقالت: ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أُولئك كان عنه مسؤولاً﴾ [الاسراء : ٣٦].

فبينما نحن نماشيها إذ رفعت لنا قباب وخيم، فقالت: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ [النحل : ١٦] فلم أفطن لقولها، فقلت: ما تقولين؟ فقالت: ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلىٰ دلوه قال يا بشرىٰ هذا غلام﴾ [يوسف : ١٩]، قلت: بمن أصوت؟ وبمن أدعو؟ فقالت: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوّة﴾ [مريم : ١٢]، ﴿يا زكريا إنّا نبشّرك﴾ [مريم : ٧]، ﴿يا داود إنّا جعلناك خليفةً في الأرض﴾ [ص : ٢٦].

قال: فإذا نحن بثلاثة إخوة كاللآلي، فقالوا: أُمّنا وربّ الكعبة أضللناها منذ ثلاث. فقالت: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن إنّ ربّنا لغفور شكور﴾ [فاطر : ٣٤] فأومأت إلىٰ أحدهم فقالت: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيّها أزكىٰ طعاماً فليأتكم برزق منه﴾ [الكهف : ١٩].

فقلت: إنّها أمرتهم أن يزوّدونا فجاءوا بخبز وكعك، فقلت: لا حاجة لنا في ذلك، وقلت للفتية: من هذه منكم؟ قالوا: هذه أُمّنا ما تكلّمت منذ أربعين سنة إلّا من كتاب الله مخافة الكذب، فدنوت منها وقلت: يا أمة الله أوصني، فقالت: ﴿لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ﴾ [الشورى : ٢٣][1].

---

(١) المستطرف ١ : ١٢٨ نحوه.

واللسان أنفع الجوارح إذا صلح، وأضرّها إذا فسد، ولذا جعل نصف الإنسان، قال علي عليه السلام: «المرء بأصغريه قلبه ولسانه»[١] وعثرته لا تداوىٰ.

يصاب الفتىٰ من عثرة بلسانه / وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته بالقول تذهب رأسه / وعثرته بالرجل تبرأ علىٰ مهل

وصيانته وصلاحه بقصر كلامه علىٰ جلب نفع أو دفع ضرر، وفساده بالسبّ، والشتم، والكذب، والغيبة، والنميمة، وكثرة المزاح، والسخرية، وما إلىٰ تلك من الرذائل التي تحطّ من قدر صاحبها، وتفرّق بينه وبين أهله وعشيرته.

وجدير بمن يتّصف برقّة اللفظ وجمال القول، أن يدرك ما يبتغيه وينجو من الشرّ وذويه، وقد قيل: «لا يستقيم ايمان المرء حتّىٰ يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتّىٰ يستقيم لسانه»[٢]، وقد استعرضنا موضوع الصمت وحسنه في الفصل الثالث من هذا الكتاب فراجعه.

* * *

الاستغناء عن الناس:

قوله عليه السلام: «وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ، وَمَرَارَةُ ٱلْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَىٰ النَّاسِ».

فيا بني احتفظ بما في يديك، واقصد في عيشك، ولا تتجاوز القصد، فالاحتفاظ بما في اليد خير من إطالة النظر إلىٰ ما في أيدي الناس، فإليك من إكثار الحاجة بحيث لو وجدت سبيلاً إلى الاستغناء في شؤونك عن أي أحد، والاستقلال بنفسك في كلّ ما يمسك فافعل، فإنّ مرارة اليأس وعذاب الحرمان خير لك من الطلب.

ولأن تتجرّع كؤوس اليأس والحرمان غصصاً خير لك من أن تمدّ يدك إلىٰ

---

(١) البحار ٧٠: ٤ ح ١.
(٢) المحجة البيضاء ٥: ١٩٣؛ والترغيب ٣: ٥٢٨.

أحد لتكون له عبداً، أو ترىٰ أنّك ناس يد من أعانك، أو تجد من نفسك رغبة عن هذا الذي أنقذك من كارثة ألمّت بك.

فكن عن الناس مستغنياً، وبربّك مستكفياً، فهو قد ضمن لك كلّ ما تريد، ما دام هو الذي كان لوجودك علّة وسبباً، ولا تأخذك الأنفة والخيلاء إلىٰ مواطن لا يخلق بك ورودها، فاكتسب واحترف ما وسعك ذلك مع العفّة، فإنّ ذلك خير لك من غنىً مصحوب بالفجور.

ولا تظنّن أنّ أحداً يستطيع أن يرعىٰ سرّك كما ترعاه، وأن يحتفظ به كما تحتفظ به أنت، فأنت أرعىٰ لمكنون أمرك، وأحفظ عليه من غيرك. فإنّك إن تحدّثت بسرّك إلىٰ أحد فقد بحت به إلىٰ كثيرين.

من أجل ذلك قيل: «كتمان الأسرار من شيم الأحرار، وشمائل الأبرار، وهو أبعد الأفعال من الضرر، وأحقّ الخصال بالظفر، يدلّ علىٰ وفور العقل، وكثرة الصبر، وكمال المروءة».

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «استعينوا علىٰ نجاح حوائجكم بالكتمان، فإنّ كلّ ذي نعمة محسود»(١).

وقال المهلب بن أبي صفرة: «أدنىٰ أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلاها نسيان ما أسرّ به إليه»(٢).

ومن كلام الحكماء: كتمان السرّ يوجب السلامة، وإفشاؤه يعقب الندامة، وقال بعضهم: من شحّ علىٰ سرّه فقد أعان علىٰ برّه.

وقال علي أمير المؤمنين ؑ: «سرّك أسيرك فإذا فضحته صرت أسيره»(٣).

وقال سقراط: «كتمان سرّ غيرك متعيّن عليك، وكتمان سرّك سبب صيانتك، والمشكور من كتم سرّاً لم يستكتمه، ومن خان في سرّ نفسه فهو في غيره أخون».

---

(١) البحار ٧٧: ١٥٠ ح١، والمستطرف ١: ٤٤٣.
(٢) المستطرف ١: ٤٤٤.
(٣) غرر الحكم: ٣٢٠ ح٧٤١٥، والمستطرف ١: ٤٤٣.

ومن كلام بعض الحكماء: «لا تودع سرّك إلّا حافظاً، فإنّ قلوب الأحرار حصون الأسرار».

ولبعض الشعراء:

لا يحفظ السرّ إلّا كلّ ذي كـرم والسرّ عند لئام الناس مـبذول

وفي الحكم المنثورة: كن جواداً بالمال في موضع الحقّ، بخيلاً بـالأسرار عـلىٰ جميع الخلق، ومن أمثال الحكماء: سرّك من دمك فلا يخرج من تحت قدمك، ومـا تحلى ذو فضل وبرّ وعلم وخير بأحسن من كتمان السرّ.

وقال بعض الحكماء في هذا المعنىٰ: «من حـصن بـالكتمان سرّه تمّ له تـدبيره، وكان له الظفر بما يريد، والسلامة من العيب والضرر، وإن أخطأه التمكّن والظفر».

والحازم يجعل سرّه في وعاء، ويكتمه عن كلّ مستودع، فـإن اضـطرّه الأمـر وغلبه أودعه العاقل الناصح له، لأنّ السرّ أمانة وإفشاءه خيانة، والقلب وعاؤه فمن الأوعية ما يضيق بما يودع، ومنها ما يتّسع لما استودع، والافراط في الاسـترسال بالأسرار عجز، وما كتمه المرء من عدوّه يجب أن لا يظهره لصديقه، ومن استودع حديثاً فليستره ولا يكن مهتاكاً ولا مشياعاً، لأنّ السرّ إنّما سمّي سرّاً لأنّه لا يُفشىٰ.

فيجب على العاقل أن يكون صدره أوسع لسرّه من صدر غيره بأن لا يفشيه، ومن كتم سرّه كانت الخيرة في يده، ومن أنبأ الناس بأسراره هان عليهم وأذاعوها، ومن لم يكتم السرّ استحقّ الندم، ومن استحقّ الندم صار ناقص العقل، ومـن دام علىٰ هذا رجع إلى الجهل، فتحصين السرّ للعاقل أولىٰ به من التـلهّف بـالندم بـعد خروجه منه.

قال المبرد: أحسن ما سمعت في حفظ اللسان والسرّ، ما روي لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ:

لعمرك إنّ وشـاة الرجـال لا يتركون أديماً صـحيحا
فـلا تـبد سرّك إلّا إليك فإنّ لكلّ نـصيح نـصيحا

وقال أبو نواس:

لا تفشِ أسرارك للـناس ... وداو أحـــزانك بـالكاس

فإنّ إبـليس عـلىٰ مـا بـه ... أرأف بالناس من النـاس

وقال آخر:

صـــن السرّ بـالكتمان يـرضك غـبه ... فـــقد يـــظهر السرّ المـضيع فـيندم

ولا تـــفشينّ سرّاً إلىٰ غـــير أهـله ... فيظهر خرق الشرّ من حـيث يكـتم

ومـا زلت في الكـتمان حـتّىٰ كأنّـني ... يرجع جواب السـائلي عـنه أعـجم

لنسلم من قـول الوشـاة وتسـلمي ... سلمت وهل حي على الدهر يسـلم

وقال آخر:

أمنّي تخاف انـتشار الحـديث ... وحـــظّي في ســـتره أوفـــر

ولو لم أصـــنه لبـــقيا عـليك ... نـــظرت لنـــفسي كـما تـنظر

وقال العتبي:

ولي صـــاحب سرّي المكـتم عـنده ... محـــاريق نـــيران بـــليل تحـــرق

غـــدوت عـــلىٰ أسراره فكســوتها ... ثـــياباً مـــن الكـــتمان مـا تـتخرّق

فمـن كـانت الأسرار تـطفو بـصدره ... فأسرار صدري بالأحاديث تـغرق

فـــلا تـودعنّ الدهـر سرّك أحمـقاً ... فـــإنّك إن أودعـــته مـــنه أحمـــق

وحسبك في ستر الأحاديث واعظاً ... من القول مـا قـال الأديب المـوفق

إذا ضاق صدر المـرء عن سرّ نـفسه ... فصدر الذي يستودع السرّ أضـيق

قيل: دخل أبو العتاهية على المهدي وقد ذاع شعره في عتبه، فقال: ما أحسنت في حبّك، ولا أجملت في اذاعة سرّك، فقال:

من كان يزعم أن سيكتم حـبّه ... أو يستطيع الستر فهو كـذوب

الحبّ أغلب للـرجـال بـقهره ... من أن يرىٰ للسرّ فيه نـصيب

وإذا بـــدا سرّ اللـــبيب فـــإنّه ... لم يـــبد إلّا والفـــتىٰ مـــغلوب

إنّي لأحسد ذا هوىً مستحفظاً لم تـتـهمه أعـين وقـلوب

فاستحسن المهدي شعره وقال: قد عذرناك علىٰ إذاعة سرّك، ووصلناك علىٰ حسن عذرك، إنّ كتمان السرّ أحسن من اذاعته.

وقال زياد: لكلّ مستشير ثقة، وإنّ الناس قد ابتدعت بهم خصلتان: اذاعة السر، وترك النصيحة، وليس للسرّ موضع إلّا أحد رجلين: إمّا أُخروي يرجو ثواب الله، أو دنياوي له شرف في نفسه وعقل يصون به حسبه، وهما معدومان في هذا الدهر.

* * *

قوله ﷺ: «وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ. قَارِنْ أَهْلَ ٱلْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ. بِئْسَ الطَّعَامُ ٱلْحَرَامُ! وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ!».

واسع واعرف مقدار سعيك، والى أيّ هدف ترمي به، فلربّ سعي في غير هدى، ولربّ عمل في غير طائل، ولربّ ساعٍ يسعى وسعيه فيما يضرّه ولا ينفعه، ولكنّه لا يدري، ولكنّه لا يعلم، ومن أكثر الكلام فرط منه الهجر، وبدر منه الكلام الدنيء الذي ينم عمّا وراءه من عقل ضعيف، فلا تكثر من الكلام ما لم تجد إلىٰ ذلك داعياً وعليه حاثاً.

وإنّ أصابة الواقع المنشود، وإنّ اصابة الهدف المقصود، إنّما هي بالتبصّر والتفكّر في أناة وروية دونما استعجال وتسرّع، فقد عرف أن في العجلة الندامة، وأنّ في التأنّي السلامة، وزاحم العلماء بركبتيك، وقارن أهل الفضل تكن كواحد منهم، وإيّاك وأهل السوء فإليك عنهم، ولا تكوننّ بينك وبينهم صلة في قريب أو بعيد، وباينهم فإنّ في مباينتهم البعد عن السوء والنجاة من الشر.

ولا تمدنّ عينيك إلىٰ ما متّع الله به أفراداً من الناس، وإيّاك والظلم فما الظلم إلّا ظلم للنفس، وهل تريد لنفسك الظلم، وهل تحبّ لنفسك الأذىٰ، واعلم بأنّ من أشدّ الظلم أن تمس بالظلم فرداً لا عشيرة له، ولا قرابة، ولا جاه له، ولا مال، ولكن

له ربّاً يعصمه الشرور، وإنّ له إلهاً يردّ عنه ظلم الظالم وعسف الجائر، وإنّ ذلك لخير له من مال عريض، وجاه عريض واسع، وإنّ ذلك لأجدىٰ نفعاً من العشير والقريب، وإنّ أشدّ العقاب لعقاب الربّ، وإنّ أعظم الجزاء لجزاء الحكيم، فإيّاك أن تتعرّض لفرد لا يجد لنفسه عاصماً إلّا الله.

قال عليّ بن الحسين لابنه أبي جعفر عليه السلام: «يا بني إيّاك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلّا الله»(١).

وقال الصادق عليه السلام: «ما من مظلمة أشدّ من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عوناً إلّا الله تعالى»(٢).

الظلم:

الظلم مجاوزة الإنسان حدّه، واستطالته بالجور علىٰ غيره، وهو إحدىٰ طبائع النفس تظهره القوّة ويخفيه الضعف:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفّة فلعلّة لا يظلم

وإذا تأمّلت كلّ شيء في الوجود تجد للظلم أثراً فيه.

أُنظر إلى النبات تجده يعدو قويّه علىٰ ضعيفه، فيمتصّ غذاءه، ويحرمه قوته، ويتركه ذابلاً يتصوّح، ثمّ يصير هشيماً تذروه الرياح.

وانظر إلى الحيوان في مستقرّه في البرّ والبحر، تراه يأكل قويّه ضعيفه، ويفتك كبيره بصغيره، حتّىٰ لتكاد تبيد بعض فصائله، وتذهب من الوجود باعتداء بعض أنواعه علىٰ بعض، وهذا ما جعل نفور بعضه من بعض طبيعياً.

وقد قيل: إنّ من الطيور ما لا يحضن بيضه، وإنّ أُناثه تضع بيضها في وكور بعض الطيور، فتضمّه هذه إليها حتّىٰ إذا فقس ونما قليلاً، وأحسّ من نفسه القدرة

(١) الكافي ٢: ٣٣١ ح٥؛ عنه البحار ٤٦: ١٥٣ ح١٦.
(٢) الكافي ٢: ٣٣١ ح٤؛ عنه البحار ٧٥: ٣٢٩ ح٦٠.

علىٰ فراخ الطير الذي احتضنه، قذف بها من العش فتقع فتموت ليخلو العشّ له، وهذا نوع من الظلم يخفى مكانه على اللبيب الفهم.

خبرني بربّك، من ذا الذي علّم هذا الفرخ الضعيف العقوق، وهداه إلى الغدر والخيانة، حتّىٰ جعله يقذف بفراخ التي آوته وصارت تغدو عليه بما تسعىٰ به لأفراخها، لم يكن التعليم، وإنّما هداية الفطرة وكامن الظلم.

وقد شاءت قدرته ـ جلّ شأنه ـ أن يجعل لكلّ نوع من أنواع الحيوان سلاحاً يدافع به عن نفسه، فمنه ما جعل له الناب والظفر، ومنه ما جعل له قروناً في رأسه مثنى وفرادىٰ، ومنه ما أحاط ظاهر جلده بشوك إذا انقبض انتصب وكان كالأُبر الحادّة، ومن عجائب خلق الله حيوان ذفر يُعرف بالظربان، سلاحه نتن ريحه وذفره، فإذا اقتحم عليه جحره حيوان ليفترسه، أطلق عليه من ريحه شيئاً فأماته لفوره.

والإنسان يظلم وينال بظلمه ما دنا ونأىٰ، وأوّل من يصيبه بظلمه نفسه التي بين جنبيه، فإنّ ما تنطوي عليه من الشرور، وما يخالط قلبه من الاثرة وحبّ الاستبداد، يجد ألمه ووخزه كلّما تحرّكت فيه الاثرة وحبّ الاستئثار بالمنفعة، وكثيراً ما يقتصر ظلم الإنسان علىٰ نفسه ولا يتعدّاه إلىٰ غيره، كالذي لا يؤدّي واجب نفسه، ولا يعمل صالحاً يعود عليه نفعه في الدنيا والآخرة، وقد يظلم أهله فلا يحسن معاشرتهم، ولا ينفق نفقة أمثالهم ويسوسهم بالقسوة والغلظة.

التعامل مع الأهل:

وهذه حال كثير ممّن يتوهّمون أنّ سوء معاملة الأهل من موجبات الاحترام، وأنّ الخوف أقوم سبيل لتأديب الأولاد، وهذا رأي سقيم، وخطّة قضت عليها أساليب التربية الصحيحة، وليس لها من قبل حظّ من تأييد العقل والشرع.

دخل علىٰ عمر بن الخطّاب أحد عمّاله، فوجده مستلقياً علىٰ ظهره، وصبيانه

يلعبون حوله، فأنكر ذلك عليه فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك؟ فقال: إذا دخلت سكت الناطق، فقال له: اعتزل عملنا فإنّك لا ترفق بأهلك وولدك، فكيف ترفق بأُمّة محمّد ﷺ.

ومن هذا ماروي في صحيح البخاري أنّ الأقرع بن حابس رأىٰ رسول الله ﷺ وهو يقبّل الحسن بن علي ﷺ فقال: إنّ لي عشرة أولاد ما قبّلت واحداً منهم، فقال ﷺ: «من لا يَرحم لا يُرحم»[1] وفي ردّ النبي ﷺ علىٰ الأقرع بن حابس ما ينبئ بخطئه، وشدّة ظلمه لأهله، ومقت النبي إلىٰ فعله، وتنبيهه إلىٰ سوء عاقبته.

ومن ضروب ظلم الأهل أن يظلم زوجته، فينظر إليها نظره إلىٰ متاع بيته، وهي أُم ولده والقائمة علىٰ تدبير شؤونه والحافظة لغيبه، فيروضها على الذلّ ومهانة النفس والصغار، فتبثّ في نفوس أولاده رذائل الأخلاق، وتنقل صفاتها إليهم بحكم التقليد، فيكون ظلمه لها ظلماً لأولاده وأمته بما تلد من عبيد وإماء في ثياب أحرار.

التعامل مع الجيران:

ويظلم جيرانه فلا يقوم بحقّ الجوار لهم، فلا يواسيهم في محنتهم، ولا يساعدهم في شؤونهم، ولا يفرح لهم إذا فرحوا ولا يحزن معهم إذا حزنوا، ولا يحبّ لهم من كلّ شيء ما يحبّه لنفسه.

ولقد أوصى الله سبحانه وتعالى بالاحسان الى الجار كما أوصىٰ بعبادته، والاحسان إلى الوالدين، وهما ـ علىٰ ما تعلم ـ أحقّ الناس ببرّنا، وأولاهم بعطفنا وحسن رعايتنا. قال الله تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين والجار ذي القربىٰ والجار الجنب والصاحب بالجنب﴾ [النساء : ٣٦].

---

(١) صحيح البخاري ٨: ٣٢٣ ح٨٧٩ كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

وممّا يدلّ علىٰ معرفة حقّ الجار والوفاء له، والعمل بما أوصىٰ به الدين في شأنه، ما حكي عن بعض ذوي الأخلاق الطاهرة أنّه اشتكىٰ كثرة الفيران في داره، فقال له بعض من سمعه: لو اقتنيت هرّاً لذهب عنك الفيران، فقال: أخشىٰ أن يسمع الفأر صوت الهر فيهرب إلىٰ دار الجيران، فأكون قد أحببت لهم ما لا أُحبّه لنفسي.

وممّا يدلّ على التنفير من سوء معاملة الجيران، وممّا أعدّه الله لمن لا يحسن معاملتهم، ما روي أنّه قيل للنبي ﷺ: «إنّ فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيّئة الخلق، تؤذي جيرانها بلسانها، فقال: لا خير فيها وهي من أهل النار»(١).

ويظلم الناس فيستطيل عليهم بلسانه ويده، ولا يوقّر كبيرهم، ولا يرحم صغيرهم، ولا يعطف عليهم، ولا يساعدهم بفضل ماله، ويظلم خدمه فيكلفهم ما هو فوق طاقتهم، ولا يؤدّي لهم أُجورهم في وقتها، ولا يعفو عن زلّاتهم، ولا يرأف بضعيفهم، ولا يحسن جزاء المحسن منهم.

ظلم الحكّام للشعوب:

وأشدّ أنواع الظلم وأدعاها للويل والثبور، ظلم الحاكم فيمن ولّي عليه وإطاعة هواه، فإنّ هذا يسلب من الناس الأمن علىٰ الأرواح والأموال والأعراض، وينشر في المحكومين الفساد وسوء الأخلاق، وينقل إليهم ما اتّصف به من رذائل.

فإن كان من صفاته التجسّس والميل إليه، وهو ما يحبّه الظالمون دائماً، رأيت حاشيته يسعون إليه بالأبرياء، ويبتغون الزلفىٰ عنده بالايقاع بالناس كذباً وبهتاناً، فتنفر منه القلوب، وتجتمع علىٰ بغضه والكيد له، وتتهيّأ النفوس للأخذ بالثار منه وانتهاز الفرصة فيه، وإنّها لممكنة لأنّ الزمان قلب، وغيره تصيب الحذر من مأمنه.

ومن أضرّ أنواع الظلم بالشعوب وأفتكه بها أن يستبدّ الحاكم، بأن يجعل إلهه

---

(١) البحار ٧١: ٣٩٣ ح٦٣.

هواه وارادته شرعاً وقانوناً، فلا يحكم إلّا بما يرىٰ في نفسه، فتذهب حرمة النفس والمال، ويتقلّص ظلّ الأمن من البلاد، وتنقبض الأيدي عن العمل فتقلّ الثروة، ويتّسع نطاق الجهل بما يسعىٰ إليه دائماً من اطفاء نور العلم الذي يصوح الاستبداد وأهله، ويدكّ بنيانه، ويقوض أركانه، وينسخ آثاره.

ولا جرم أنّه باطفاء نور العلم تنحطّ الأخلاق، وتفقد الأُمّة خير صفات الكمال، وينتشر فيها الملق والنفاق، والكذب والغيبة والنميمة والرشوة، ويكون عاقبة أمر الظالم أن تعصف به ريح هوجاء من الفتن فتثل عرشه، وتذهب بملكه وأمنه، فإذا نشأ هذا في أُمّة كان دليلاً علىٰ فنائها وزوالها ومحوها من سجل الأُمم، ونزل بأهلها من العذاب ما لم يكونوا يحتسبون.

والسلطان ظلّ الله في الأرض يأوي إليه كلّ مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الطاعة والشكر، وإن جار وظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر، وفي الأثر: «ما من عبد يسترعيه الله عزّ وجلّ رعية يموت يوم يموت غاش رعيّته إلّا حرّم الله تعالى عليه الجنّة»(١).

وقال: «من ولّي أُمّة من أُمّتي قلّت أو كثرت فلم يعدل فيهم كبّه الله علىٰ وجهه في النار»(٢).

وقال: «إنّ الله مع القاضي ما لم يجر، فإذا جار تخلّىٰ عنه ولزمه الشيطان»(٣).

النصوص القرآنية في حرمة الظلم:

وقد نصّ القانون الإسلامي علىٰ حرمة الظلم وقبحه الناشئ من لؤم الطبع وخبث النفس، وضعف الوازع الديني والخلقي، والدليل علىٰ تجرّد من اتّصف به من خلال الكرم والمروءة، وصفات النبل والفضيلة، والبرهان علىٰ ذهاب نور الايمان

(١) الترغيب والترهيب ٣: ١٧٦ ح٢٨.
(٢) الترغيب والترهيب ٣: ١٧٣ ح٢٥.
(٣) الترغيب والترهيب ٣: ١٧٢ ح٢١.

من القلوب، فاستمع إليه وهو يقول: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيّبات أُحلّت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً﴾ [النساء : ١٦٠].

﴿ثمّ قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلّا بما كنتم تكسبون﴾ [يونس : ٥٢].

﴿ومن أظلم ممّن افترىٰ على الله كذباً أُولئك يعرضون علىٰ ربّهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذّبوا علىٰ ربّهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ [هود : ١٨].

﴿ولمّا جاء أمرنا نجّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منّا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ [هود : ٩٤].

﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثمّ لا تنصرون﴾ [هود : ١١٣].

﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقيّة ينهون عن الفساد في الأرض إلّا قليلاً ممّن أنجينا منهم واتّبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾ [هود:١١٦].

* * *

قوله ﷺ: «إِذَا كَانَ ٱلرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ ٱلْخُرْقُ رِفْقاً، رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً. وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ ٱلْمُسْتَنْصَحُ وَإِيَّاكَ وَٱلاتِّكَالَ عَلَىٰ ٱلْمُنَىٰ فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَىٰ، وَٱلْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ. بَادِرِ ٱلْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً».

الدِّقة في قبول النُصح:

استقبل النصح راضياً به، متقبّلاً إيّاه، متفحّصاً له، فمن النصح ما يعود عليك بالويل والثبور، فلربّ أحد ينصح لك ليغويك عمّا أنت عليه، وقد لا يكون لما يأتي من النصح فاهماً.

وإن رمت خيراً وإن قصدت إلىٰ نفع، فالعمل والجدّ لا المنى والأحلام، فما

الأحلام بكافية أصحابها، وما الأحلام دافعة عنك ضرّاً، ولا الأحلام تردّ عليك أكثر ما فاتك من خير، اعمل ما وسعك العمل ولا تكوننّ بطراً إن شبعت، ولا تدع الأماني العذاب والأحلام الزائفة تحتل من نفسك مكاناً عظيماً، وأنفذ للعمل الصالح ينفعك، ويجلب لك الحياة الهادءة المطمئنّة.

فأنا لا أُريدك للاتّكال على المنىٰ لأنّها بضائع ضعفاء البصائر، قاصري الأنظار، خائري الهمم، جامدي القلوب، وإنّما العقل في التجربة تحفظها، وتسير علىٰ طبق ما تأتي به من النتائج، وإنّ خير ما أجريت من تجارب ما أفادك موعظة وخلع عنك خلقاً سيئاً.

انتهاز الفرص:

بادر إلىٰ اقتناص الفرصة التي تسنح لك بكثير من العمل، ولا تتركها فإنّ في تركها خسارة كبيرة، فاقتنص الفرص فما الفرص دائمة ليس لها من زوال، قال علي أمير المؤمنين ؑ: «إضاعة الفرصة غصة»(١).

وقال ؑ: «الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود»(٢).

وفي المثل: «انتهزوا الفرص فإنّها تمرّ مرّ السحاب»، ومن كلام بعض الأكابر: «إنّ فوت الوقت أشدّ عند أصحاب الحقيقة من فوت الروح، لأنّ فوت الروح انقطاع عن الخلق، وفوت الوقت انقطاع عن الحق».

إنّ من أكمل مزايا النفس المؤيّدة وأحسن صفاتها، اليقظة في الأُمور والمسارعة إلىٰ احراز قصب السبق في مضمارها، والمسابقة إلىٰ نيل المقاصد بانتهاز فرصها قبل فواتها، ومجانبة أسباب الغفلة والتحرّز عن آفاتها، ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى عباده في السور المنزلة بمحكم آياتها، فقال جلّ وعلا تارةً:

---

(١) نهج البلاغة : قصار الحكم ١١٨؛ عنه البحار ٧١: ٢١٧ ح٢٢.

(٢) مستدرك الوسائل ١٢: ١٤٢ ح١٣٧٣١.

﴿وسارعوا﴾ وتارةً: ﴿وسابقوا﴾ تنبيهاً علىٰ أنّ يقظة النفس ومبادرتها إلىٰ مصالحها من سعادتها، وغفلتها وتوانيها عن واجب ذلك من شقاوتها.

فمن سمت نفسه إلىٰ جسيم رتب المعالي، وترامت همّته إلىٰ استخدام بيض الأيّام وسود الليالي، وأحبّ انتظام الأُمور إليه في سلك مطلوبه الدائم ومرغوبه المتوالي، تسربل بملابس اليقظة فهانت لديه عظائم الأُمور، وعظمت مهابته في الصدور، وتحامى الناس أن يعاملوه بشيء من المحضور والمحذور.

ومتىٰ آثر تعب التيقّظ راحة الاهمال، وركن إلىٰ دعة التواني الداعية إلى الاغفال، وأخلد إلىٰ مساكن الغافلين عمّا يؤول إليه حال المغترّين بما لهم اللّاهين عن مستقبلهم، كان جديراً بانتقاض مبرم ما ركن إليه، واعراض الناس عنه بعد اقبالهم عليه، وآل أمره إلىٰ ندامة يعضّ منها علىٰ يديه.

ويكفي في نقيصة الغفلة وذمّ المتّصف بها أنّ الخسارة لازمة له فيما غفل عنه بسببها، فإن كان في أمر ملك أو دنيا فاته نصيبه منها وبات ملوماً محروماً، وإن كان في حال الآخرة فقد خسر خسراناً مبيناً، وقد أنفذ الله عزّ وجلّ حكمه في ذلك وأبرمه وقصه في كتابه العزيز الذي أنزله وأحكمه، فقال عزّ من قائل في حقّ من سبق قضاؤه فيهم بدمارهم، وجرى القلم في القدم ببوارهم:

﴿أُولئك الذين طبع الله علىٰ قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأُولئك هم الغافلون • لا جرم أنّهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ [النحل: ١٠٨-١٠٩].

وكما أنّ الخسارة من لوازم الغفلة فكذا الربح من لوازم اليقظة، ومن هذا قال أبو سعيد الحسن البصري: «التواني رأس خسران الدنيا والآخرة».

وجاء في حِكَم الأقدمين: «انتهز الفرصة فإنّها خلسة، وإيّاك والعجز فإنّه أوضع مركب، واحذر التواني فإنّه يجلب أنواعاً من البلاء».

هذا كسرىٰ عظيم الفرس خصّ ببقاء الذكر، واشتهار السمعة، وانتشار الصيت، واستقامة الحال، وحراسة الملك، وحفظ الرعايا، وحماية البلاد، وانقياد

الناس له، وميل القلوب بمحبّتها إليه، ومخافة الأعداء منه، كلّ ذلك يسّره الله تعالى بما ألهمه إيّاه من كمال التيقّظ الذي لم يسبقه أحد بمثله، حتىٰ نقل أنّه كان من أشدّ الناس تطلّعاً إلىٰ خفايا الأُمور، ومن أكثرهم بحثاً عن أسرار الصدور، وكان يبثّ العيون على الرعايا والجواسيس في البلاد، ليقف علىٰ حقائق الأحوال، ويطّلع علىٰ غوامض القضايا، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالاحسان.

ويقول ما معناه: «متى غفل الملك عن تعرّف ذلك فليس له من الملك إلّا اسمه، وسقطت من القلوب هيبته، ولا يأمن دخول خلل عليه في ملكه، وانبسطت أيدي حاشيته باتّباع هواها، وتسلّطت عمّاله علىٰ أقطاع أمواله وافنائها، وصارت رعاياه فوضىٰ».

ولا غرو فقد علم كسرىٰ أنّ سلوك سبل اليقظة يهدي إلى الصلاح، فصلح ملكه باتّباعه وانتهاجه، وهكذا كلّ من اقتفىٰ في اليقظة طريقته وأثره، وارتقىٰ في نهج معراجه أمن علىٰ نظام ملكه من اختلاله وعلىٰ حاله من اعوجاجه.

قال علي أمير المؤمنين ﷺ: «تنفّسوا قبل ضيق الخناق، وانقادوا قبل عنف السياق»[1] أي انتهزوا الفرصة واعملوا قبل أن يفوتكم الأمر ويجدّ بكم الرحيل ويعدم الندم.

يقول الشاعر في هذا المعنىٰ:

اختم وطينك رطب إن قدرت فكم قد أمكن الختم أقواماً فما ختموا

قال علي أمير المؤمنين ﷺ: «من وجد مورداً عذباً ولم يرتو منه ولم يغتنمه يوشك أن يظمأ ويطلبه فلا يجده».

دخل رجل من أهل الشام علىٰ أبي جعفر المنصور فاستحسن لفظه وأدبه، فقال له: سل حاجتك، فقال: يبقيك الله يا أمير المؤمنين ويزيد في سلطانك، فقال: سل حاجتك فليس كلّ وقت يمكن أن يؤمر لك بذلك.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٩٠؛ عنه البحار ٤: ٣١٠ ضمن حديث ٣٨.

ومنه ما قال بعض الأُدباء:

إذا ذهبت رياحك فاغتنمها فإنّ لكلّ خافقة سكون
وإن درت نياقك فاحتلبها فما تدري الفصيل لمن يكون

قال رجل للحسن البصري: آخذ عطائي أم أدعه حتّىٰ آخذه من حسناتهم يوم القيامة، فقال له: قم ويحك خذ عطاءك فإنّ القوم مفاليس من الحسنات يوم القيامة.

وقال بعضهم:

بادر إذا حاجة في وقتها عرضت فللحوائج أوقات وساعات
إن أمكنت فرصة فانهض لها عجلاً ولا تؤخر فللتأخير آفات

يقال: من ظفر بالساعة التي ينجح فيها العمل ثمّ لا يعاجله بالذي ينبغي له فليس بحكيم، ومن طلب الأمر الجسيم فأمكنه ذلك فأغفله فأتاه الأمر وهو خليق أن لا تعود الفرصة ثانية، ومن وجد عدوّه ضعيفاً ولم ينجز اتلافه ندم إذا استقوىٰ ولم يقدر عليه.

وقال بعضهم:

انتهز الفرصة في حينها والتقط الجوز إذا ينتثر

وقال ابن الهبارية:

انتهز الفرصة إنّ الفرصة تعود إنْ لم ينتهزها غصة
واسبق إلىٰ الأجود سبق ناقد فسبقك الخصم من المكائد

وقال ابن المعتز:

كم فرصة ذهبت فعادت غصة تشجي بطول تلهّف وتندم

حكي عن بعض العلماء: انّه كان ذات يوم في الخلاء، فدعا تلميذاً له وقال له: انزع عنّي القميص وادفعه إلىٰ فلان، فقال: هلّا صبرت حتّىٰ تخرج؟ قال: خطر لي بذله ولا آمن علىٰ نفسي أن تتغيّر.

قال أرسطو: افترص علىٰ عدوّك الفرصة، واعلم انّ الدهر دول.

وقال حكيم: تجرع من عدوّك الغصة، إلىٰ أن تجد منه الفرصة، فإذا وجدتها فانتهزها قبل أن يفوتك الدرك ويعينه الفلك، فإنّما الدنيا دول تقلبها الأقدار، ويهدمها الليل والنهار.

وقال حكيم آخر: الفرصة نوعان: فرصة في عدوّك، وفرصة في غير عدوّك، فالفرصة في عدوك ما إذا بلغتها نفعتك وإن فاتتك ضرّتك، وفي غير عدوك ما إذا أخطأت نفعه لم يصل إليك ضرّه.

ومن الحكم المنثورة: انتهز أمر عدوّك قبل أن يمتدّ باعه، ويطول ذراعه، وتشتدّ شكيمته، وتقوىٰ شوكته.

قال ابن المعتزّ في ذلك:

وإن فرصة أمكنت في العدىٰ فلا تبد فعلك إلّا بها

فإن لم تلج بابها مسرعاً أتاك عدوّك من بابها

وفصل الخطاب في هذا المورد قول علي أمير المؤمنين ﷺ: «بادر الفرصة قبل أن تكون غصة»(١).

وناهيك من ذلك انّه لما حضر عبيد الله بن زياد عند هاني بن عروة عائداً وقد كمن له مسلم بن عقيل ﷺ، وأمره أن يقتله إذا جلس واستقرّ، فلما جلس جعل مسلم يؤامر نفسه ويريدها على الوثوب به فلم تطعه، وجعل هاني ينشد كأنّه يترنّم بالشعر قائلاً:

ما لانتظار بسلمىٰ لا يحيّيها حيّوا سليمىٰ وحيّوا من يحيّيها

ويكرّر ذلك، فأوجس عبيد الله خيفةً ونهض، فعاد إلىٰ قصر الامارة، وفات مسلماً منه ما كان يؤمله باضاعة الفرصة حتّىٰ صار أمره إلىٰ ما صار.

* * *

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٣١؛ عنه البحار ٧١: ٣٤١ ح ١٤.

قوله ﷺ: «لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَؤُوبُ. وَمِنَ ٱلْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ ٱلْمَعَادِ. وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ. التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَىٰ مِنْ كَثِيرٍ».

أطلب الرزق واطلب العيش الرغد، ولكن بشيء كثير من القناعة وبشيء من التأنّي، فما كلّ طالب بمصيب، وما كلّ غائب راجعاً إلىٰ وطنه، فاجمع ليومك زادك من الآن، ويا ويل من فسد زاده أو ضاع، أو فسدت عقباه وتقوّضت آخرته.

ولابدّ أنّنا لا محالة صائرين إلىٰ غاية معلومة نجري نحوها مسرعين، وسوف يوافينا كلّ ما قدّر لنا، ولن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا، والتاجر مخاطر في بضاعته فقد يبلغ ما يريد، وقد يكبو به الطريق، وقد تلتوي به العقبات فلا ينال إلّا يسيراً، وربّ يسير أنفع من الكثير، وربّ يسير أنمىٰ من كثير.

الفصل الثامن عشر
قواعد الصداقة والإخاء

«لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ. سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ. آحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَىٰ الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَىٰ اللَّطَفِ وَٱلْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَىٰ ٱلْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَىٰ الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَىٰ اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَىٰ ٱلْعُذْرِ، حَتَّىٰ كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذٰلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ. لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَآمْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً، وَتَجَرَّعِ ٱلْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَىٰ مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً. وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَىٰ عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحَدُ الظَّفَرَيْنِ. وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذٰلِكَ يَوْماً مَّا، وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَىٰ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ. وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَىٰ ٱلْخَلْقِ بِكَ، وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ، وَلَا

يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَىٰ عَلَىٰ قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَىٰ صِلَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَىٰ الْإِسَاءَةِ أَقْوَىٰ مِنْكَ عَلَىٰ الْإِحْسَانِ. وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَىٰ فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ».

* * *

سوء الظن:

في هذا الفصل أُسس وقواعد في الصداقة والاخاء متينة، فنحن نعلم من هذا الفصل أنّ الصديق لا يكون ظنيناً، وأنّ المعين لا يكون مهيناً، بمعنىٰ أنّ الصداقة لا تسمح للظنون أن تتطرّق إليها، فليس لصديق علىٰ صديق أن يظنّ به أسوء الظن، وليس من حقّ صاحب علىٰ صاحبه أن يكيد له أعظم الكيد، كما ليس لمن أراد الاعانة علىٰ أمر أن يهين ذلك المعان ويغض من قدره، ويرىٰ لنفسه في ذلك حقّاً إزاء عمله واعانته علىٰ الأمر.

سلطان الدهر:

وفي هذا الفصل نتعرّف إلىٰ أنّ الإنسان مخطئ أشدّ الخطأ إذ يريد أن يعمل علىٰ عكس ما يريد له الدهر أن يعمل، فما من الدهر وأعماله محيد، وكيف يستطيع أحدنا أن يتّخذ له سبيلاً غير سبيله، وقد خضع له من هو أشدّ منّا قوّة وبأساً، وإذاً فليس من واجبنا أن نكون مع الدهر أو عليه، وإنّما نحن أهل حياد ـ كما يقولون ـ نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا.

وإنّما الواجب أن نتربّص فرص الدهر السانحة، فنستغلّها فيما نريد أن نعمل ونقول، فإنّ للدهر غفلات، وإنّ له لقعود يلين به جانبه، فعلينا أن نلين له ما أبدىٰ لنا اللين واللطف، وما كان لنا بحقّ ـ بحكم العقل ـ أن نتسرّع في شيء، وما كان لنا أيضاً أن نخاطر بما لدينا طمعاً بما في أيدي الناس، فذلك ممّا لا يليق بنا.

ولله ذلك الرجل القانع الذي لا يطمع من دنياه بأكثر من طمريه، ولا يبغي لنفسه فيها سوىٰ قرص أو قرصين من الشعير يقيم بـه صـلبه، لله ذلك الإنسـان الرباني، أُنظر إليه كيف يأمر ولده تارةً بـاتّخاذ الطـريقة القـاصدة، ولزوم السـيرة المثلىٰ، وفيها تارةً أُخرىٰ عن ارتكاب ما لا يحلّ لمثله أن يفعله، ممّا يشين به ويحطّ من مقامه في أعين الناس وعند الربّ.

الطمع:

أنظر إليه تراه ينهىٰ ولده عن الطمع والطلب، فهو يدعوه إلىٰ أن لا يخاطر بما يده ابتغاء تجارة مربحة ومال غزير، مخافة أن يذهب ما في يـده فـيقعده حـينذاك ملوماً محسوراً، يودّ لو لم يكن قد فعل ما فعل، ويودّ لو أُتيح له استرجاع ما قدّم، ولكن أنّىٰ له ذلك وقد انتقل ما كان عنده إلىٰ غيره، وصار ملكاً لذلك الغير، وليس له فيه أيّ نصيب.

اللجاجة:

وينهاه عن اللجاج في الخصومة مخافة أن يقع في أسرها، ينهاه عن اللجاج هذا الذي يؤدّي إلى الغضب، والغضب أبعد ما يكون عن منطقة العقل السليم.

شروط الصداقة:

ونرىٰ هنا أنّ من شروط الصداقة أشياء كثيرة: فمنها اللطف واللين للصديق، ومنها العطف والحنو عليه، ومنها حسن الظنّ به، ومنها الدفاع عـنه والذبّ عـن حوضه إن غاب وإن حضر، فإذا بدرت من الصديق بادرة فلا يحسن بهذا الصديق الآخر الصرم وقطع الصلة المتينة التي تمكّنت منها وأمعنت في التمكّن، بل يجب عليه أن يبشر في وجهه، وأن يظهر الاخاء الأوّل الذي يظهر أنّه فوق أن تزعزعه الحوادث.

والصديق إذا بخل عليك بشيء فإن كان لذلك سبب فهو بالعذر أحقّ منه باللوم، وإن لم يكن عن عذر فما يمنعك أن تعرض عن بخله وشحّه، وتجد من نفسك من يعلمه الصلة والاخاء، والسخاء الأخوي، وإن اشتدّ عليك وأسرف في التشدّد، وإن أحبّ لنفسه البُعد عنك، وإن بدر منه جرم تجاهك، فليس من جناح أن تعمل بضدّ ما يعمل، أن تجود بما لديك إذ يبخل بأدنىٰ ما لديه، وتقرب منه إذ يتباعد عنك، وتلين له إذ يشتدّ عليك، وتعفو عنه إذ أساء إليك.

وإن أحببت دوام تلك الصداقة والأُخوّة فلا تصاحب خصم صديقك، وابتغ لنفسك في غيره صديقاً، أفما كفاك الكثير من الناس عن اتّخاذ عدوّ الصديق صديقاً، فاتّخذ لنفسك من دونه صديقاً تأنس إليه، تبادله الودّ وتصافيه المحبّة، وترفعه وتكرمه وتعزّه، ويعمل هو معك كما أنت تفعل.

فكم من صديق قد ضيّع أصدقاء كثيرين لسبب أنّه اتّحد بأعدائهم، ومعلوم أنّ كلّ من يتّخذ عدوّك صديقاً لنفسه فهو غير مبال بما يجره عليك هذا العدو، ولو كان يبالي بذلك ما صادقه ولا آخاه، ولكنّه راض بما يعمل معك وما يوقعه فيك، فمن هذا الطريق يكون هجر الصديق للصديق؛ لأنّ صديق العدو لم يعد صديقاً حقّاً فهو شريك للعدو في عداوته، وشريك له في بغضائه وكيده، وشريك في خديعته ومكره، يوصل إليك ضرّه وكيده في لباس الصداقة والمحبّة.

ومن أحضر طعاماً مسموماً عند الغير مريداً اهلاكه، فهو أخبث نفساً وأشدّ معصيةً ممّن شهر سيفه علانية مريداً قتله، إذ الثاني أظهر ما في ضميره، وأعلَمَ المقابل بارادته، فجزم بأنّه عدو محارب له فاستعدّ لدفع شرّه ومنع ضرّه، وأمّا الأوّل فظاهره في مقام الاحسان، وباطنه في مقام الايذاء والعدوان، والغافل لا خبر له عن خباثة باطنه فيقطع بأنّه يحسن إليه، فلا يكون معه في مقام الدفع والاحتياط بل في مقام المحبّة والوداد، فيقتله وهو يعلم أنّه يحسن إليه، ويهلكه وهو في مقام الخجل منه.

المكر:

ولأجل ذلك عدّ المكر من المهلكات العظيمة إذ يتوقّف بقصد الضّرر علىٰ الكذب؛ لأنّه اظهار خلاف الحقيقة، والكذب هو الركن الأوّل في المكر.

ويتوقّف بقصد العدوان على اللؤم الكامن في النفس، وبدونه لا يتحقّق المكر، واللؤم من الصفات القبيحة المذمومة عند العقلاء.

ويتوقّف علىٰ وجود ما يوجب المكر في نفس الماكر من حسده لمن يمكر به، أو رغبته في الاستيلاء علىٰ نعمته وسلطانه، أو عداوته له بلا ذنب يوجبها، فإن تسبّب المكر بقصد الظلم والعدوان عن هذا فلا ريب في قبحه، وإن كان بلا سبب فهو سجيّة قائمة في نفس الماكر، وهذا منتهى الرداءة والخساسة.

المكر بقصد العدوان من الأوباء العامة، والأمراض النفسية المنتشرة في جملة من أفراد النوع الإنساني.

يبرز المكر من أهله بأشكال عجيبة، وصور مختلفة في الموضوع الواحد بسبب تفاوت الأفهام ومدارك الأفكار قوّة وضعفاً، فالحاذق في أساليب المكر ربّما يقع في حبالته إذا ماكره غيره بصورة لا يراها علىٰ حذاقته في المكر مكراً، أو بصورة لم تكن تخطر بباله، إذ ما من طامة إلّا وفوقها طامة.

المكر بقصد الظلم والعدوان لمن ارتضاه سهل هين، وإنّما عسر الوصول إليه والجري عليه من العرفاء والمفكّرين، وأهل البصائر الروحانيين لكبر نفوسهم، وعلوّ هممهم وشيمهم، وسلامة قلوبهم، وخوفهم من خالقهم، إذ لا بدّ للماكر من الكذب، والغدر، والفجور، والخيانة، واللؤم، والخساسة، والمخالفة العظيمة لأمر الله ونهيه، وهذا كلّه من لوازم المكر من أهله بقصد الظلم والعدوان، وهو الكفر من حيث لا يشعرون.

لأهل المكر صفات متباينة مع من يمكرون بهم، يظهرون لهم ما يزيد علىٰ رأفة الآباء والأُمّهات، وهو مطعمة الصيّادين، وبعده إلقاء الأشراك والأشباك

بالترغيب، والترهيب، والتحريك، والتسكين، والتقريب، والتبعيد، حتىٰ تنفذ سهام المكر في قلوب البسطاء والمساكين، ولا مناص عن تسخير الأفكار، وتبعيّة الارادة، واستخدام الأجسام، واستثمار النعم بعد تملّك القلوب بنفوذ سهام المكر فيها، وهذا يراه عامة أهل المكر والغافلين عن الحقيقة في كلّ عصر انّه عين الاقتدار، وروح السياسة، وغاية الرجولية.

أمّا أهل البصائر والاستقامة والمعرفة بما يُدان به سبحانه وتعالى، فإنّ بينهم وبين سلوك طريقة المماكرة كما بين السماء والأرض، وأبعد من ذلك، كيف لا يكونون كذلك والحقيقة نصب أعينهم، وسوء عاقبة أهل المكر غير خفيّة عليهم، بعد استنارتهم بالموحيات الربانية، والكتب السماوية المعربة عمّا كان ويكون.

جاء النصّ في القانون الإسلامي علىٰ ذمّ أهل المكر وتوبيخهم، وبيان عاقبة أمرهم، فقال سبحانه: ﴿أفأمن الذين مكروا السيّئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ [النحل: ٤٥].

الاستفهام في أوّل الآية الشريفة جاء بنحو الانكار، والتوبيخ من الله سبحانه علىٰ من نزلت بهم هذه الآية، ومعناها: أيّ شيء أمن هؤلاء القوم الذين دبّروا التدابير السيّئة لتوهين أمر النبي ﷺ واطفاء نور الدين، وايذاء من آمن بالله ورسوله.

ثمّ بيّن سبحانه انّه قادر علىٰ أن يخسف بهم الأرض عقوبة لهم كما فعل بمن تقدّمهم، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون.

نزلت هذه الآية في مشركي قريش حين اشتدّ سيّئ مكرهم برسول الله ﷺ بعد اخراجهم له من بين أظهرهم، من بيته وبلدته وحرم ربّه، فاشتدّ غضب الله عليهم، فهدّدهم ثمّ عذّبهم بسيوف أوليائه يوم بدر، يوم الفوز والنصر.

مجمل وقعة بدر وأسبابها:

كان رسول الله ﷺ في يثرب بعد هجرته إليها ونجاته من كيد المشركين ومكر

الكافرين، مشغولاً ببثّ الدعوة الإسلامية، وتهذيب أخلاق المؤمنين، وغرس حمية الدين في قلوبهم، واعدادهم لكفاح أعدائه وأعدائهم، ولقد عادته عامّة العرب بجهلها، وأشدّها عداوةً له قريش، نعم كانت العرب تنظر إلىٰ امتناع قريش عليه، وانقيادها إليه نظرة التابع للمتبوع والجاهل للعالم.

وحيث تمّت مقدّمات دعوته وأسباب استنارة العالم بأنوار نبوّته، وقعت حرب بدر بينه وبين قريش، فكانت من معجزات النبوّة وآيات الرسالة لمن شاهدها أو ألمّ خبراً بها.

خرج رسول الله ﷺ إلىٰ بدر ومعه ثلاثمائة وثلاث عشرة رجلاً، ومعهم فرسان: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود، وكان معهم سبعون جملاً يتعاقبون عليها، فهم علىٰ قلّتهم تظهر عليهم الفاقة والفقر وضعف الاستعداد.

خرج رسول الله ﷺ إلىٰ بدر وغايته تأسيس قواعد الدين، ونشر لواء الحقّ والعدل علىٰ الأنام، وابطال عبادة الأصنام، نعم خرج لهذه الغاية الشريفة، ودعا المسلمين إلىٰ اغتنام الفرصة بالاستيلاء علىٰ تجارة قريش حال إيابها من الشام، وفقاً لرغبتهم وبعثاً لهمّتهم، وكان قد تعرّض لها حال ذهابها إلى الشام ففاتته، وكان خروجه لبدر في السنة الثانية من الهجرة، ونزل وادي بدر وهو يعلم بخروج قريش لحربه، وقريش تعلم بخروجه لحربها.

كانت تجارة قريش وعيرها بقيادة أبي سفيان ومعه عدد وافر من قريش، فلقيهم رجل من جذام حال إيابهم من الشام، وأعلمهم اعتراض رسول الله ﷺ لهم حال ذهابهم، وأنّه ينتظر رجوعهم، فارتابوا بخبره وأرسلوا رجلاً منهم يقال له ضمضم بن عمرو إلىٰ مكة ليعلم قريشاً باياب عيرها وتجارتها، وخروج رسول الله للاستيلاء عليها.

خرجت قريش من مكة بقوّتها واستعدادها بعد وصول ضمضم، واستصراخه قريشاً بندائه واستغاثته، وهو مشقوق القميص محول الرحل،

خرجت قريش وسائقها أبو جهل، أخرجها أبو جهل وهو قائد الجهالة بالرغبة والرهبة، رغبتها بالاستيلاء علىٰ ما خالفها في عقيدتها وعابها في عبادتها، وخوفها من ذهاب عيرها وتجارتها، فنفرت بقضها وقضيضها إلّا أبو لهب فلم يقدر عليه أبو جهل.

جاءت قريش وقائدها أبو جهل وعليها ملابس العظمة والفخر، وقد قادت مائة فرس بطراً وخيلاء، وعدّتها تسعمائة وخمسون فارساً يعللها أبو جهل بما تتوق إليه نفوسها من أنّها بعد استئصالها محمّداً والتابعين له تلبث في بدر ثلاثاً تنحر الجزر، وتطعم الطعام، وتشرب الخمر، وبذلك تهابها عامّة العرب، وتسمو ذروة الفخر.

أرسل رسول الله ﷺ بعد نزوله ببدر أمير المؤمنين علياً ﷺ والزبير وبسيس بن عمر إلىٰ ماء هناك ليقفوا علىٰ أمر قريش، فرأوا سقاة قريش فأسّروهم إلّا رجلاً واحداً فرّ حتّىٰ جاء قريشاً، فنادىٰ:

يا آل غالب هذا ابن أبي كبشة وأصحابه قد أسّروا سقاتكم فماجت قريش، ودخلها الهلع ممّا سمعت، فكأنّها سمعت بهجوم كسرىٰ وقيصر بجنودهما عليها حتّىٰ كأنّها أحسّت بنزول العذاب، ولولا أبو جهل كانت حريصة على الرجوع وترك قتال رسول الله ﷺ.

رجع علي أمير المؤمنين ﷺ ومن معه بالأسرىٰ من سقاة قريش إلىٰ رسول الله ﷺ وهو قائم يصلّي، فأحاط المسلمون بالأسرىٰ وسألوهم عن أبي سفيان وتجارة قريش، فقالوا: لا علم لنا بهم إنّما نحن مع قريش نستقي لها الماء، فكرهوا ما سمعوه منهم وظنّوا كذبهم، فضربوهم حتّىٰ قالوا: نحن مع أبي سفيان.

ولمّا انتهىٰ رسول الله ﷺ من الصلاة، قال لأصحابه: إن صدّقوكم ضربتموهم وإن كذّبوكم تركتموهم. وأقبل علىٰ الأسرىٰ فقال لهم: أين قريش؟ فقالوا: خلف هذا الكثيب الذي تراه، فقال: كم هم؟ قالوا: كثير، قال: كم عددهم؟ قالوا: لا علم

لنا، قال: كم ينحرون؟ قالوا: يوماً عشرة ويوماً تسعة، فقال ﷺ: القوم ما بين الألف والتسعمائة.

وتحرّك رسول الله من مكانه بأصحابه ونزل أدنىٰ مياه القوم في بدر، وجاءت قريش تشتدّ بحماسها وسائقها العمى، فنزلت بالعدوة القصوىٰ من بدر.

أرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب إلىٰ قريش يقول لهم: ارجعوا لا حاجة لي بقتالكم، ولأن يلي هذا الأمر منّي غيركم أحبّ إليّ من أن تلوه منّي، فقال عتبة بن ربيعة وجماعة: قد أنصفنا، فقال أبو جهل: هذا من الجبن لا نرجع بعد أن أظفرنا الله به كي لا يعرض لنا بعد هذا أبداً.

ولم يكن بعد الانذار إلّا مباشرة القتال، فأوّل متعرّض له من المشركين، تفاقم حماسه بنسبة الجبن إليه من أبي جهل هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وأخوه شيبة، وابنه الوليد، ولهم سابقة الشجاعة وميزة الحسب.

فبرز إليهم ثلاثة من الأنصار فأعرضوا عنهم ونادوا: يا محمّد ليبرز إلينا أكفاؤنا من قومنا، فندب رسول الله ﷺ علياً وحمزة وعبيدة بن الحرث بن عبد المطّلب، فبرزوا وانتسبوا لهم، فقالوا: أكفاء كرام، فقتل حمزة عتبة، وقتل علي الوليد، وجرح عبيدة شيبة، فأسرع عليّ فقتله.

وكان الوليد خال حنظلة بن أبي سفيان، ولذلك لم يملك حنظلة نفسه دون أن يحمل علىٰ علي عليه السلام طالباً دم خاله من علي، فلمّا داناه ضربه علي عليه السلام بالسيف علىٰ وجهه فقتله.

ولمّا قتل هؤلاء من صناديد قريش طارت قلوبها، واشتدّ الحرب وحمي الوطيس، وباشر رسول الله ﷺ القتال بنفسه، قال عمر بن الخطاب: لما كان يوم بدر نظرت إلىٰ رسول الله ﷺ يثب بالدرع وثباً وهو يقول: سيهزم الجمع ويولّون الدبر.

وكان علي أمير المؤمنين عليه السلام يقصد شجعان قريش وعتاتها الناصبين العداوة

لرسول الله ﷺ، كنوفل بن خويلد المعروف بعداوة رسول الله المطاع في قريش، وله قبل هجرة رسول الله مواقف فيها مظاهر عداوته لرسول الله وأصحابه، وقال رسول الله حين علم بقدومه بدراً: اللّهمّ اكفني ابن العدوية.

وكم نادىٰ نوفل يوم بدر بصوت له زجل: يا معشر قريش إنّ هذا اليوم يوم العلاء والرفعة.

ولمّا قصده علي عليه السلام وهو منقض عليه كالصقر إذا قصد بغاة الطير، نظر إليه نوفل فقال لمن في جنبه: من هذا كأنّه يريدني، فقال له: هذا عليّ بن أبي طالب، فقال نوفل: ما رأيت كاليوم رجل أسرع في قومه منه، وحين قاربه علي عليه السلام ضربه علىٰ ساقيه فقطعهما، فناشده الرحم، فقال له علي عليه السلام: كل رحم مقطوعة إلّا من كان متبعاً لرسول الله ﷺ، ثمّ قتله وتركه طعم الوحوش وفجعة الأعداء، وحين علم رسول الله ﷺ بقتل نوفل بن خويلد بعد أن وضعت الحرب أوزارها، كبّر شاكراً نعم الله علىٰ ما أولاه من قتل رأس الضلالة والنفاق.

وكان طعمة بن عدي من أبطال العرب، وكبار المشركين، والعدوّ الألد لرسول الله والمؤمنين، فقصده علي عليه السلام وقتله وأراح منه المؤمنين، وقصد علي عليه السلام أبا جهل فأحدق به بنو مخزوم، وأشرعوا دونه الرماح، وألبسوا لامته عبد اللّاة بن المنذر، فقتله علي عليه السلام وهو يراه أبا جهل، وألبسوها حرملة بن عمرو، فقتله علي عليه السلام، فأبىٰ أن يلبسها بعدهما أحد.

ونظر علي عليه السلام إلى العاص بن سعيد بن العاص والزبد يرغو علىٰ شدقيه، وهو يبحث للقتال كما يبحث الثور، فقصده حتّىٰ إذا داناه بادره بضربة جعلته صريعاً كالوليد وحنظلة ونوفل وشيبة وطعمة، ولا يسعني هذا المختصر أن أذكر كلّ من قتله علي أمير المؤمنين عليه السلام يوم بدر من أبطال الحرب وأعيان قريش الذين بقتلهم رفت أعلام النصر علىٰ رسول الله ﷺ، وغنم المسلمون ما سدّ فاقتهم، وأغناهم من مال مكة وتجارة قريش.

نعم كان قتل علي ﷺ لأبطال بدر وزعماء الشرك سبباً تامّاً لتأسيس قواعد الدولة الإسلامية، وباباً كبيراً للرهبة والرغبة في الإسلام، كان قتله لأبطال بدر وزعماء الشرك سبباً لفشل قريش وانكسارها حتّىٰ قتل منها من قتل وأسر منها من أسر، ولو أحجم علي ﷺ عن قتل أُولئك الأبطال سراة قريش وزعماء الحرب لكان النصر في جانب قريش، ولو كان ذلك لخرج المسلمون من دين الله أفواجاً، وربّما فتكت قريش برسول الله ﷺ.

راجع كتب السير والتاريخ تعلم حراجة موقف رسول الله ﷺ، ومقدار خوف المسلمين من ذلك اليوم، تعلم قوّة قريش في ذلك اليوم وبأسها بكثرتها وسلطتها، ومقدار أبطالها المعروفة وكماتها المشهورة، وكيف آبت منكسة أعلامها، طائشة أحلامها، مسودّة أيّامها، راجع السير والتاريخ تعلم عدد الهالكين من عظمائها في يوم بدر.

تعلم في ذلك اليوم من تغنّت بشجاعته الركبان، وجبنت من سطوته ومبارزته الشجعان، من أطاش ببسالته الألباب، وأذهل العقول وقتل النصف من أُولئك الفحول.

راجع شرح النهج لابن أبي الحديد تعلم أنّ أمير المؤمنين علياً ﷺ قتل النصف، وبقية المسلمين قتلوا النصف الآخر، وأنّه إنّما قتل أهل الفتك والبطش منهم، ولم يكن ﷺ قبل وقعة بدر خاض غمار الحرب ولا نازل الأبطال.

لكن النفوس الكبيرة والهمّة والبصيرة، أبت إلّا الظهور في مظاهرها، فعلى المسلمين أن يعرفوا حقّ من أسّس قواعد هذا الدين، وأزاح الكرب عن وجه سيّد المرسلين، وأرجع أعداء الله ورسوله ملوية رقابها، ساخطة علىٰ أربابها، قد خلت جيادها من جيادها، وباءت بسيّء مكرها وعنادها، وأتاهم العذاب بسيف علي أمير المؤمنين ﷺ من حيث لا يشعرون، كما وعدهم به سبحانه وهو لا يخلف الميعاد.

مكر قوم صالح:

وقال سبحانه: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون • فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمّرناهم وقومهم أجمعين • فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إنّ في ذلك لآية لقوم يعلمون • وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾ [النمل : ٥٠-٥٣].

صرّحت هذه الآية الشريفة بما كان من عاقبة مكر قوم صالح، والآية السابقة عليها تدلّك علىٰ كيفية مكر قوم صالح، حيث اجتمع تسعة من قومه وأجمع رأيهم علىٰ تبييت صالح عليه‌السلام واغتياله مع من آمن به ليلاً، فمكروا مكراً ـ أي دبّروا تدبيراً ـ ودبّر الله تدبيراً وهم لا يعلمون تدبيره.

وكان تدبيره أنّه سبحانه أنزل عليهم صيحة من السماء جعلت بيوتهم خاوية علىٰ عروشها بسبب ظلمهم ومكرهم وكفرهم بربّهم ونبيّهم، وفي ذلك آية بيّنة لقوم يعقلون، وأنجى الله سبحانه نبيّه صالحاً، والذين آمنوا معه من سيّئ المكر وعذاب الدنيا والآخرة.

قيل: إنّهم كانوا أربعة آلاف خرج بهم صالح عليه‌السلام من وادي القرى (بين الشام والحجاز) إلىٰ حضرموت، وسمّيت تلك الأرض حضرموت لأنّ صالحاً مات حين حضرها.

مكر قريش برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله:

وقال الله سبحانه: ﴿والذين يمكرون السيّئات لهم عذاب شديد ومكر أُولئك هو يبور﴾ [فاطر : ١٠] بيّن سبحانه في هذه الآية إنّ الذين يمكرون المكر السيّئ برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لهم عذاب شديد، ومكرهم يرجع عليهم وبوار المكر فساده.

وحاصل القضيّة أنّه قد أجمعت قريش في دار الندوة، ودبّروا التدابير السيّئة لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، فأعلمه الله أنّ مكرهم يبور.

وقال سبحانه: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك

ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ [الأنفال : ٣٠].

قد تقدّم ما نقلناه عن أعلام المفسّرين، أنّ هذه الآية نزلت بمكر قريش حين اجتمعت علىٰ قتل رسول الله ﷺ، وكان اجتماعها في دار الندوة ـ وهي دار قصي بن كلاب ـ، فاختلفت آراؤهم في أمر رسول الله ﷺ، فقال عروة بن هشام: نتربّص به ريب المنون، وقال غيره: أخرجوه تستريحوا منه، وقال أبو جهل: نجعله في دار ونضيق عليه حتّىٰ يموت.

واشترك معهم إبليس ـ لعنه الله ـ فقال لهم: يجتمع عليه من كلّ بطن رجل، فيضربوه بأسيافهم ضربة واحدة، فترضىٰ حينئذٍ بنو هاشم بالدية، فاتّفقوا كلّهم علىٰ هذا الرأي، وأعدّوا الرجال والسلاح لقتله ليلاً، فهذا هو تدبير قريش ومكرها، وكان تدبير الله ما عرفته من أمر رسول الله ﷺ بالخروج بنفسه إلى الغار، ومبيت أمير المؤمنين علي ﷺ علىٰ فراش رسول الله لتشتغل به قريش فلا تلحق برسول الله. وقد تقدّم ذكر قضيّة المبيت، وما كان من مباهات الله سبحانه ملائكته بعلي ﷺ حيث جعل نفسه فداء لرسول الله ﷺ.

أحاديث شريفة في ذم المكر:

والمجال يضيق عن ذكر تمام الآيات القرآنية الدالّة علىٰ قبح المكر وذمّ أهله، وبيان سوء عاقبتهم، وفيما ذكرناه كفاية لمن تدبّر.

قال صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأمين محمّد ﷺ في ذمّ المكر كلمة فيها كفاية لأُولي الألباب. قال ﷺ: «إن كان العرض على الله حقّاً فالمكر لماذا»[(١)].

تعطيك هذه الكلمة من صاحب الدعوة الإسلامية بياناً كافياً في ذم المكر ومقته وسوء عاقبة أهله.

تدلّكِ كلمته ـ صلوات الله عليه ـ، علىٰ أنّ من أيقن بالله وكتبه رسله، وجزم

---

(١) البحار ٧٥: ٢٨٤ ح ١.

بأنّه يعرض يوم القيامة على الله، وأنّ الله لا تخفىٰ عليه خافية، وأنّ الناس مجزون بأعمالهم، وأنّ الله ليس بظلّام للعبيد، وأنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أُولئك كان عنه مسؤولاً، ذلك يوم العرض على الله، نعم تدلّك كلمته ﷺ علىٰ من أيقن بذلك لماذا يصدر المكر منه إن كان عاقلاً.

الغدر والدهاء:

وقال أمير المؤمنين ﷺ في معرض رفع لوم من لام عليه، لعدم اتّخاذه المكر باباً للرياسة والسياسة: «والله ما معاوية بأدهىٰ منّي ولكنّه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كلّ غدرة فجرة وكلّ فجرة كفرة، ولكلّ غادر لواء يُعرف به يوم القيامة، والله ما أستغفل بالمكيدة، ولا استغمز بالشديدة»(١).

إنّ صريح كلامه ﷺ دالّ علىٰ أنّ الدهاء متوقّف على الغدر، وكلّ غدرة فجرة، وكلّ فجرة كفرة، ولكلّ غادر لواء يُعرف به يوم القيامة.

والمكر من أهل الرياسة والسلطة بقصد الضرر، هو الدهاء والغدر والفجور، وقبحه محسوس ملموس، وهو شعار أهل النفاق، وطريقة أهل الشقاق، وآلة سلطة أهل الباطل، وباب امرة أُمراء الجور، ولا ريب في نزاهة علي ﷺ عن ذلك كلّه عند عامة المسلمين، وعصمته عند خاصّتهم.

أمّا معاوية فإنّك بعد أقلّ اطّلاع علىٰ سيرته، تعلم أنّ إمرته وسلطته مبنيّة علىٰ تجاوز الحدود الدينية، ونبذ الأوامر الربانية، والاعراض عمّا علمه من صاحب الدعوة الإسلامية.

فمعاوية ـ حين بايع أهل الحلّ والعقد من المهاجرين والأنصار أمير المؤمنين عليّاً ﷺ ـ أظهر المعصية، وخرج عن الطاعة، وموّه علىٰ أهل الشام بما يوجب انقيادهم له وبغضهم لأمير المؤمنين ﷺ.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٠؛ عنه البحار ٣٣: ١٩٧ ح٤٨٣.

كان معاوية والياً على الشام، معروفاً فيها، يُخاف ويُرجىٰ قبل خلافة أمير المؤمنين علي ﷺ، وقدكان من تحامل أهل الأمصار علىٰ عثمان وإنكارهم لكثير من أُموره وأحكامه، كتوليته الولايات لأقاربه، وإقطاعهم القطائع، وإعطاهم جزيل المال، ما هو معروف بحيث هاجموا المدينة، وكان بينه وبينهم احتجاج عظيم دوّنه التاريخ.

ثمّ اتّفقوا معه علىٰ شروط حمله مروان علىٰ نقضها بعد تفرّق أهل الأمصار عنه، حتّىٰ أدّت الحالة إلىٰ رجوعهم ليثرب وحصارهم وقتلهم له.

وكان أمير المؤمنين علي ﷺ ينهاهم ويخوّفهم الله، ويدافع عن عثمان بكلّ ما يقدر عليه بقوله وفعله وولده وخاصّته، وينهىٰ عثمان عن إطاعة مروان والعمل برأيه، وكان مروان متغلّباً علىٰ عثمان بكلّ ما يريده، ولذلك لم يجد بدّاً من إطاعته وترك رأي علي ﷺ، ولم يعلم أنّ نتيجة رأي مروان هتك حرمته وقتله.

فتنة معاوية:

ولمّا بلغ معاوية قتل عثمان ومبايعة المهاجرين والأنصار لعلي ﷺ، جمع الناس وخطبهم خطبة أبكىٰ منها العيون، وقلقل القلوب حتّىٰ علت الرنّة، وارتفع الضجيج، وهمّ النساء بأن يتسلّحن، هكذا ذكر ابن أبي الحديد في ج ٢ من شرح النهج.

ولا يخفىٰ بغض معاوية لأمير المؤمنين علي ﷺ وحقده عليه، لأنّه قتل أخاه حنظلة، وخاله الوليد يوم بدر، وغيرهما ممّن يمتّ إليه، فكان لا يذكر عليّاً بخير فضلاً عن أن يدخل في طاعته.

كان قد وطّن نفسه علىٰ مخالفة الله ورسوله، وإضرام نار الفتنة، واعمال أنواع الحيل والمكر.

كان لخطبته حين وافاه كتاب مروان بمبايعة علي ﷺ بعد قتل عثمان، وفيه يحثّه

علىٰ طلب الخلافة والخروج عن الطاعة، وهي مبدأ إعلان الحرب علىٰ أمير المؤمنين والخروج عن طاعته.

نعم كانت تلك الخطبة من معاوية مبدأ إعلان الحرب علىٰ أمير المؤمنين عليﷺ، وأوّل الخروج عن طاعته، حثّ الناس فيها على الطلب بدم عثمان، وقتل قاتليه، وأعلمهم أنّ دمه عند عليّ بن أبي طالب، ثمّ كتب إلىٰ طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر، والوليد بن عقبة، ويعلى بن منبه، كتباً لا يسع هذا المقام ذكرها.

كتب لكلّ واحد من هؤلاء بما يوجب خروجه عن الطاعة، وتأجّجه نار الفتن، فمنهم من دعاه إلى القيام بالامرة والخلافة، وأنّها لا تليق لغيره، كطلحة والزبير، وأنّه يوطّد له الأمر في الشام، ومنهم من أطمعه في موازرته، ومنهم من حرّكه علىٰ طلب ثاره، علىٰ ما ذكر ابن أبي الحديد في ج ٢، فأجابوه يحرّضونه، ويغرّونه، ويهيجونه، ويحرّكونه، إلّا سعيد بن العاص، فإنّه كتب بخلاف ذلك، كان كتاب سعيد بن العاص لمعاوية:

كتاب سعيد بن العاص لمعاوية:

أمّا بعد فإنّ الحزم من التثبّت، والخطأ في العجلة، والشؤم في البدار، والسهم سهمك ما لم تنبض به الوطر، ولن يرد الحالب في الضرع اللبن، ذكرت حقّ عثمان علينا، وقرابتنا منه وأنّه قتل فينا، فخصلتان ذكرهما نقص، والثالثة تكذب، وأمرتنا بطلب دم عثمان، فأيّ جهة تسلك أبا عبد الرحمن، ردمت الفجار، وأحكم الأمر عليك، وولي زمامه غيرك.

فدع مناواة من لو كان افترش فراشه صدر الأمر لم يعدل به غيره، وقلت كأنا عن قليل لا نتعارف، فهل نحن إلّا حيّ من قريش إن لم تنلنا الولاية لم يضق عنّا الحق، وبالله أُقسم قسماً مبروراً، لئن صحت عزيمتك علىٰ ما ورد به كتابك،

لألفينّك بين الحالبين طليحاً، وهبني أخالك بعد خوض الدماء تنال الظفر، هل في ذلك عوض من ركوب المأثم ونقص الدين.

أمّا أنا فلا علىٰ بني أُمية ولا لهم، أجعل الحزم داري، والبيت سجني، وأتوسّد الإسلام، وأستشعر العافية، فأعدل أبا عبد الرحمن زمام راحلتك إلىٰ محجّة الحق، واستوهب العافية لأهلك، واستعطف الناس علىٰ قومك، وهيهات من قبولك ما أقول حتىٰ يفجر مروان ينابيع الفتن تأجّج في البلاد، وكأنّي بكما عند ملاقاة الأبطال، تعتذران بالقدر، ولبئس العاقبة الندامة، وعمّا قليل يتّضح لك الأمر والسلام[1].

إنّك بعد الاطلاع علىٰ هذا الكتاب، تعلم أنّ علياً أمير المؤمنين ﷺ كان عارفاً بمعاوية، وعدم قبوله للحقّ والدخول فيما دخل به الناس، لأنّه ﷺ لا يجهل من حال معاوية ما يعلمه سعيد بن العاص، بل هو أعرف من سعيد بمعاوية.

إنّك بعد التأمّل في كتاب سعيد بن العاص، لا يسعك إلّا الوقوف علىٰ حقيقة ما فيه من الاشارات والاعتراف بالحقيقة بصريح بيانه، وهي أُمور لا تخفىٰ:

(منها) أنّه كذّب معاوية بقوله: «والثالثة تكذب» حيث زعم معاوية أنّ عثمان قتل في بني أُميّة.

(ومنها) بيان نقص دين معاوية، وخوضه بدماء المسلمين، وبُعده عن الحقّ، ولذلك قال له: «فأعدل زمام راحلتك الى محجّة الحقّ ولبئس العاقبة الندامة، وهيهات من قبولك ما أقول، حتىٰ يفجر مروان ينابيع الفتن تأجّج في البلاد»، أي يفجر مروان بسبب نهوض معاوية لأمر ما جعله الله له ـ، وإنّما ذكر مروان لأنّه السبب الوحيد في قتل عثمان، فهو السبب في خروج معاوية.

(ومنها) تذكيره لمعاوية وتخويفه بقوله: «فدع مناواة من لو كان افترش فراشه صدر الأمر لم يعدل به غيره» فإنّ هذا صريح بأنّ علياً ﷺ لو ناضل ونازع وجرّد

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٠: ٢٤٤.

سيفه وحارب في صدر الأمر، لم يعدل به غيره، وهذا كلّه كناية عن طلب الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ بالقوّة والفتك وعدم المبالاة بدماء العباد، فسعيد بن العاص يذكر معاوية ويخوّفه بالله مرّة، وبسيف علي ثانية، وبأنّ الناس لا يتركوا عليّاً إذا قام، وليس هذا وأنت القابل له بل في صدر الأمر.

الأسباب التي دعت الامام علي عليه السلام للسكوت:

فعلي عليه السلام إنّما ترك الطلب بحقّه في صدر الأمر لعلمه بأنّ الناس دخلت في الإسلام، ولم يطل الأمد بين دخولها ووفاة رسول الله ﷺ، فهي إذا رأت باباً مفتوحاً للخروج منه رجعت إلىٰ عبادة الأصنام وعهدها بها قريب.

وإنّما ثبت الإسلام في قلوبهم بعد أن فتحت لهم خزائن كسرىٰ وقيصر، وذاقوا نعيم الدنيا في الشام والعراق وغيرهما، فلو أعلن علي عليه السلام الحرب علىٰ أبي بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لخرج أكثر الناس من الإسلام، فهل يحارب علي عليه السلام في صدر الأمر أو يفترش فراشه، وهو العالم بما ينتهي إليه أمر الناس.

فعلي عليه السلام يرىٰ أنّ سكوته عن الحرب وضياع حقّه مصيبة وضرر، وفي حربه وقيامه في صدر الأمر مصيبة وضرر أعظم، والعاقل الحكيم يترك طلب المهمّ لأجل الأهمّ، ولا ريب أنّه يرىٰ أهمية توسعة الدين الإسلامي في البلاد ونشر لوائه على العباد، فهذه هي المصلحة التي دعته لترك القيام في صدر الأمر.

فعلي عليه السلام إنّما يهمّه أمر الدين لا الدنيا، فلهذه الغاية لم يفترش فراشه صدر الأمر، ولم يكن يرىٰ أنّ أحداً ينازعه الخلافة بعد رسول الله ﷺ، لقربه من رسول الله، وسبقه في الإسلام، وجهاده وبلائه في جميع المواقف.

يرىٰ نفسه أنّه صاحب بدر وحنين وأُحد وخيبر، وكاشف الكرب عن وجه رسول الله ﷺ وعامّة المسلمين يوم الخندق، يوم هجوم العرب بأحزابها علىٰ يثرب (عاصمة المسلمين) وعلىٰ صاحب الدعوة ومؤسس الدولة، يوم عبر عمرو

بن ودّ الخندق، فطارت النفوس، وبلغت القلوب الحناجر، وكادوا يخرجون لخوفهم من عصمة الإسلام، نعم يرىٰ أنّه لولا سيفه في ذلك اليوم لكان ابن ودّ جعلهم أحاديث، ومزّقهم كلّ ممزّق وفعل ما فعل.

ومن يرجع إلىٰ كتب السير والتاريخ، يعلم كيف كان هجوم العرب علىٰ يثرب، وكيف عبر عمرو بن ودّ الخندق الذي حفره المسلمون من شدّة خوفهم، وكم نادىٰ عمرو بن ود يطلب المبارزة بعد أن عبر الخندق ووقف بينهم ولا يمنعهم منه مانع، حتىٰ قال:

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز

وأبياته مشهورة، فهل تحرّك أحد من المسلمين، وعمرو بن ودّ بينهم يناديهم، ورسول الله ﷺ يحمّسهم لمبارزته ويضمن هم الجنّة، هل تجاسر على الدنوّ من عمرو أحد سوىٰ علي ﷺ، فإنّه أرداه بضربة لم يزل لصداها دوي في العالم العلوي والسفلي، وجاء فيها: «ضربة علي يوم الخندق تعدل عبادة الثقلين».

فعلي ﷺ يرىٰ أنّ له ما له ممّا لا يخول غيره التعرّض للخلافة، ويعلم أنّ المسلمين سمعوا من رسول الله ﷺ في حقّه ما يمنعهم من العدول عنه إلىٰ غيره لو افترش فراشه صدر الأمر، وإليك ما سمعوه من رسول الله ﷺ ممّا هو متّفق علىٰ وروده عن رسول الله ﷺ عند عامّة المسلمين.

أحاديث في فضل الامام علي ﷺ:

قال ابن أبي الحديد في المجلد الثاني من شرح النهج ص٤٤٩:

«واعلم أنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ لو فخر بنفسه، وبالغ في تعديد مناقبه وفضائله، بفصاحته التي آتاه الله تعالى إيّاها واختصّه بها، وساعده علىٰ ذلك فصحاء العرب كافّة، لم يبلغوا إلىٰ معشار ما نطق به الرسول الصادق ـ صلوات الله عليه ـ في أمره.

ولست أعني بذلك الأخبار العامّة الشائعة التي يحتجّ بها الامامية على إمامته، كخبر الغدير، والمنزلة، وقصّة براءة، وخبر المناجاة، وقصّة خيبر، وخبر الدار بمكّة في ابتداء الدعوة ونحو ذلك، بل الأخبار الخاصّة التي رواها فيه أئمّة الحديث التي لم يحصل أقلّ القليل منها لغيره.

وأنا أذكر من ذلك شيئاً يسيراً ممّا رواه علماء الحديث الذين لا يتهمون فيه، وجلّهم قائلون بتفضيل غيره عليه، فروايتهم فضائله توجب سكون النفس ما لا يوجبه رواية غيرهم.

١ ـ قال رسول الله ﷺ: «يا علي إنّ الله قد زيّنك بزينة لم يزيّن العباد بزينة أحبّ إليه منها، هي زينة الأبرار عند الله تعالى: الزهد في الدنيا، جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حبّ المساكين فجعلك ترضىٰ بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً»[١]، رواه أبو نعيم الحافظ في كتابه «حلية الأولياء»، وزاد فيه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في المسند: «فطوبىٰ لمن أحبّك وصدّق فيك، وويل لمن أبغضك وكذّب فيك»[٢].

٢ ـ قال رسول الله ﷺ لوفد ثقيف: «لتسلمنّ أو لأبعثنّ اليكم رجلاً منّي أو قال: عديل نفسي، فليضربنّ أعناقكم، وليسبينّ ذراريكم، وليأخذنّ أموالكم»، قال عمر: فما تمنّيت الامارة إلّا يومئذٍ، وجعلت أنصب لها صدري رجاء أن يقول هو هذا، فالتفت فأخذ بيد علي وقال: هو هذا مرّتين»[٣]، رواه أحمد في المسند.

ورواه في كتاب فضائل علي عليه السلام أنّه قال ﷺ: «لتنتهنّ يا بني وليعة، أو لأبعثنّ اليكم رجلاً كنفسي، يمضي فيكم أمري، يقتل المقاتلة ويسبي الذرية»، قال أبو ذر: فما راعني إلّا برد كفّ عمر في حجزتي من خلفي يقول: من تراه يعني؟ فقلت: لا

---

(١) حلية الأولياء ١ : ٧١ رقم ٤؛ وينابيع المودّة ٢ : ٤٨٤ ح ٣٦٣.

(٢) راجع ينابيع المودّة ٢ : ٤٨٤ ح ٣٦٣.

(٣) فضائل عليّ بن أبي طالب عليه السلام : ٨٧ ح ١٣٠؛ وينابيع المودة ٢ : ٤٨٤ ح ٣٦٤.

يعنيك وإنّما يعني خاصف النعل بالبيت، وانّه قال: هو هذا ـ أي أنّه علي ﷺ ـ»[١].

٣ ـ قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله عهد إليّ في عليّ عهداً، فقلت: بيّنه لي؟ قال: اسمع إنّ عليّاً راية الهدىٰ، وإمام أوليائي، ونور من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتها المتّقين، من أحبّه فقد أحبّني، ومن أطاعه فقد أطاعني، فبشّره بذلك، فقلت: قد بشّرته يا رب، فقال: أنا عبد الله وفي قبضته، فإن يعذّبني فبذنوبي لم يظلم شيئاً، وإن يتمّ لي ما وعدني فهو أولىٰ.

وقد دعوت له فقلت: اللّهمّ أجل قلبه، واجعل ربيعه الايمان بك، قال: قد فعلت ذلك غير أنّي مختصّه بشيء من البلاء لم أختصّ به أحداً من أوليائي، فقلت: ربّي أخي وصاحبي، قال: إنّه قد سبق في علمي انه لمبتلي ومبتلى»[٢].

ذكره أبو نعيم في «حلية الأولياء» عن أبي برزة الأسلمي، ثمّ رواه باسناد آخر عن أنس بن مالك: «إنّ ربّ العالمين عهد إليّ في عليّ عهداً انّه راية الهدىٰ، ومنار الايمان، وإمام أوليائي، ونور جميع من أطاعني، إنّ علياً أميني غداً يوم القيامة، وصاحب رايتي، بيد علي مفاتيح خزائن رحمة ربي»[٣].

٤ ـ قال ﷺ: «من أراد أن ينظر إلىٰ نوح في عزمه، والى آدم في علمه، والى إبراهيم في حلمه، والى موسىٰ في فطنته، والى عيسىٰ في زهده، فلينظر إلىٰ عليّ بن أبي طالب ﷺ»[٤]. رواه أحمد بن حنبل في «المسند»، ورواه أحمد البيهقي في صحيحه.

٥ ـ قال ﷺ: «من سرّه أن يحيا حياتي، ويموت ميتتي، ويتمسّك بالقضيب من الياقوتة التي خلقها الله تعالى بيده، ثمّ قال لها كوني فكانت، فليتمسّك بولاء عليّ بن أبي طالب ﷺ»[٥]. ذكره أبو نعيم في «حلية الأولياء» ورواه أبو عبد الله أحمد بن

(١) فضائل عليّ بن أبي طالب ﷺ: ٥٩ ح٩٠؛ وينابيع المودة ٢: ٤٨٤ ح٣٦٥.
(٢) حلية الأولياء ١: ٦٦و٦٧ رقم ٤؛ وينابيع المودة ٢: ٤٨٥ ح٣٦٥.
(٣) حلية الأولياء ١: ٦٦ رقم ٤؛ وينابيع المودة ٢: ٤٨٥ ح٣٦٧.
(٤) ينابيع المودة ٢: ٤٨٦ ح٣٦٨.
(٥) حلية الأولياء ١: ٨٦ رقم ٤، و ٤: ١٧٦؛ وينابيع المودة ٢: ٤٨٦ ح٣٦٩.

حنبل في «المسند» في فضائل علي عليه السلام، وحكاية لفظ أحمد: «من أحبّ أن يتمسّك بالقضيب الأحمر الذي غرسه الله في جنّة عدن بيمينه فليتمسّك بحبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[١].

٦ ـ قال صلى الله عليه وآله: «يا علي والذي نفسي بيده لولا أن تقول طوائف من أُمّتي فيك ما قالت النصارىٰ في ابن مريم، لقلت اليوم فيك مقالاً لا تمرّ بملأ من المسلمين إلّا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة»[٢]، ذكره أبو عبد الله أحمد بن حنبل في «المسند».

٧ ـ خرج رسول الله صلى الله عليه وآله على الحجيج عشيّة عرفة، فقال لهم: «إنّ الله قد باهىٰ بكم الملائكة عامة، وغفر لكم عامة، وباهىٰ بعليّ خاصة، وغفر له خاصة، إنّي قائل لكم قولاً غير محاب فيه لقرابتي، إنّ السعيد حقّ السعيد من أحبّ علياً في حياته وبعد موته»[٣]، رواه أحمد بن حنبل في كتاب «فضائل علي عليه السلام» وفي المسند أيضاً.

٨ ـ رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في الكتابين المذكورين: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا أوّل من يُدعىٰ به يوم القيامة، فأقوم عن يمين العرش في ظلّه، ثمّ أُكسىٰ حلة ثمّ يُدعىٰ بالنبيّين بعضهم علىٰ أثر بعض، فيقومون عن يمين العرش ويكسون حللاً، ثمّ يدعىٰ بعليّ بن أبي طالب لقرابته منّي ومنزلته عندي، ويدفع إليه لواء الحمد، آدم ومن دونه تحت ذلك اللواء.

ثمّ قال لعلي: فتسير به حتّىٰ تقف بيني وبين إبراهيم الخليل، ثمّ تكسى حلة، وينادي منادي من العرش: نعم العبد أبوك إبراهيم، ونعم الأخ أخوك علي، إبشر فإنّك تدعىٰ إذا دعيت، وتكسىٰ إذا كسيت، وتحيا إذا حييت»[٤].

٩ ـ قال صلى الله عليه وآله: يا أنس اسكب لي وضوء، ثمّ قام فصلّىٰ ركعتين، ثمّ قال: أوّل من

---

(١) فضائل علي عليه السلام: ١٨١ ح٢٥٣؛ وينابيع المودة ٢: ٤٨٦ ح٣٧٠.
(٢) راجع ينابيع المودة ٢: ٤٨٦ ح٣٧١.
(٣) فضائل علي عليه السلام: ١٧٢ ح٢٤٣؛ وينابيع المودة ٢: ٤٨٧ ح٣٧٢.
(٤) راجع ينابيع المودة ٢: ٤٨٧ ح٣٧٣.

يدخل عليك من هذا الباب إمام المتّقين، وسيّد المسلمين، ويعسوب الدين، وخاتم الوصيّين، وقائد الغرّ المحجلين، قال أنس: فقلت: اللّهمّ اجعله رجلاً من الأنصار وكتمت دعوتي.

فجاء عليّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: من جاء يا أنس، فقلت: علي، فقام إليه مستبشراً فاعتنقه، ثمّ جعل يمسح عرق وجهه، فقال علي ﷺ: يا رسول الله صلّى الله عليك وآلك، لقد رأيت منك اليوم تصنع بي شيئاً ما صنعته بي قبل، قال: وما يمنعني وأنت تؤدّي عنّي، وتسمعهم صوتي، وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدي»[1]، رواه أبو نعيم الحافظ في «حلية الأولياء».

١٠ ـ قال ﷺ: «أدعو لي سيّد العرب علياً، فقالت عائشة: ألست سيد العرب؟ فقال: أنا سيد ولد آدم، وعلي سيد العرب، فلمّا جاء أرسل إلىٰ الأنصار فأتوه فقال لهم: يا معشر الأنصار ألا أدلّكم علىٰ ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا أبداً؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: هذا علي فأحبوه بحبي، وأكرموه بكرامتي، فإنّ جبرائيل أمرني بالذي قلت لكم عن الله عزّ وجلّ»[2]، رواه الحافظ أبو نعيم في «حلية الأولياء».

١١ ـ قال ﷺ لعلي ﷺ: مرحباً بسيّد المؤمنين، وإمام المتّقين، فقيل لعلي ﷺ: كيف شكرك؟ فقال: أحمد الله علىٰ ما آتاني، وأسأله الشكر علىٰ ما أولاني، وأن يزيدني ممّا أعطاني»[3]، ذكره صاحب الحلية.

١٢ ـ قال ﷺ: من سره أن يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنة عدن التي غرسها ربي، فليوال علياً من بعدي، وليوال وليه، وليعتقد بالأئمة من بعدي، فإنّهم عترتي، خلقوا من طينتي، ورزقوا فهماً وعلماً، فويل للمكذبين من امتي القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي. ذكره صاحب الحلية (حلية الأولياء ١ : ٨٦

---

(١) حلية الأولياء ١ : ٦١ رقم٤؛ وينابيع المودة ٢ : ٤٨٨ ح ٣٧٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) حلية الأولياء ١ : ٦٦ رقم٤؛ وينابيع المودة ٢ : ٤٨٩ ح٣٧٦.

رقم ٤).

١٣ ـ «بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في سرية، وبعث علياً عليه السلام في سرية أُخرىٰ، وكلاهما إلى اليمن، وقال: إن اجتمعتما فعليّ على الناس، وإن افترقتما فكلّ واحد منكما علىٰ جنده.

فاجتمعا وأغارا وسبيا نساءاً، وأخذا أموالاً، وقتلا ناساً، وأخذ علي عليه السلام جارية فاختصّها لنفسه، فقال خالد لأربعة من المسلمين، منهم بريدة الأسلمي: اسبقوا إلىٰ رسول الله ﷺ فاذكروا له كذا، واذكروا له كذا لأُمور عددها علىٰ عليّ عليه السلام، فسبقوا إليه فجاء واحد من جانبه فقال: إنّ علياً فعل كذا، فأعرض عنه.

فجاء الآخر من الجانب الآخر، فقال: إنّ علياً فعل كذا، فأعرض عنه، فجاء بريدة الأسلمي فقال: يا رسول الله إنّ علياً فعل ذلك، وأخذ جارية لنفسه، فغضب ﷺ حتّىٰ احمرّ وجهه، وقال: دعوا لي علياً يكرّرها، إنّ عليّاً منّي وأنا من علي، وإنّ حظّه في الخمس أكثر ممّا أخذ، وهو وليّ كلّ مؤمن من بعدي»[(١)] رواه أحمد في المسند غير مرّة ورواه أكثر المحدّثين.

١٤ ـ قال ﷺ: «كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله عزّ وجلّ قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلمّا خلق آدم قسّم ذلك فيه، وجعله جزءين: فجزء أنا وجزء علي»[(٢)]. رواه أحمد في المسند، وذكره صاحب الفردوس وزاد فيه: «ثمّ انتقلنا حتّىٰ صرنا في عبد المطلب، فكان لي النبوّة، ولعليّ الوصية»[(٣)].

١٥ ـ قال ﷺ: «النظر إلىٰ وجهك يا علي عبادة، أنت سيد في الدنيا وسيد في الآخرة، من أحبّك أحبّني وحبيبي حبيب الله، وعدوّك عدوّي وعدوّي عدوّ الله، الويل لمن أبغضك»[(٤)] رواه أحمد في المسند.

---

(١) فضائل علي عليه السلام : ٢١٩ ح٢٩٨؛ ومسند ٥ : ٣٥٨.
(٢) فضائل علي عليه السلام : ١٧٨ ح ٢٥١؛ وينابيع المودة ٢ : ٤٩٠ ح ٣٧٩.
(٣) الفردوس ٣ : ٢٨٣ ح ٤٨٥١.
(٤) راجع ينابيع المودة ٢ : ٤٩١ ح ٣٨٠.

١٦ ـ لما كانت ليلة بدر قال رسول الله ﷺ: «ومن يستقي لنا ماء فأحجم الناس، فقام علي ﷺ فاحتضن قربة ثمّ أتىٰ بئراً بعيدة القعر مظلمة فانحدر فيها، فأوحى الله إلىٰ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أن تأهّبوا لنصر محمّد وأخيه وحزبه، فهبطوا من السماء لهم لغط يذعر من يسمعه، فلمّا حاذوا البئر سلّموا عليه من عند آخرهم إكراماً له وإجلالاً»(١)، رواه أحمد في كتاب فضائل علي ﷺ. وزاد فيه من طريق آخر عن أنس بن مالك: «لتؤتينّ يا علي يوم القيامة بناقة من نوق الجنّة فتركبها وركبتك مع ركبتي، وفخذك مع فخذي حتّىٰ تدخل الجنّة»(٢).

١٧ ـ خطب رسول الله ﷺ الناس يوم جمعة فقال: «أيّها الناس قدّموا قريشاً ولا تقدّموها، وتعلّموا منها ولا تعلّموها، قوّة رجل من قريش تعدل قوّة رجلين من غيرهم، وأمانة رجل من قريش تعدل أمانة رجلين من غيرهم، أيّها الناس أُوصيكم بحبّ ذي قرباها أخي وابن عمّي عليّ بن أبي طالب ﷺ، لا يحبّه إلّا مؤمن، ولا يبغضه إلّا منافق، من أحبّه فقد أحبّني، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني عذّبه الله بالنار»(٣)، رواه أحمد في كتاب فضائل علي ﷺ.

١٨ ـ قال ﷺ: «الصدّيقون ثلاثة: حبيب النجار الذي جاء من أقصى المدينة يسعىٰ، ومؤمن آل فرعون الذي كان يكتم ايمانه، وعليّ بن أبي طالب وهو أفضلهم»(٤)، رواه أحمد في كتاب فضائل علي ﷺ.

١٩ ـ قال ﷺ: «أعطيت في علي خمساً هنّ أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها: أما واحدة فهو كاب بين يدي الله عزّ وجلّ حتّىٰ يفرغ من حساب الخلائق، وأما الثانية فلواء الحمد بيده، آدم ومن ولد تحته، وأما الثالثة فواقف علىٰ عقر حوضي يسقي من عرف من أُمّتي، وأما الرابعة فساتر عورتي ومسلّمي إلىٰ ربّي، وأما الخامسة

(١) فضائل علي ﷺ: ١١٦ ح١٧١.
(٢) فضائل علي ﷺ: ١١٥ ح١٦٩؛ وينابيع المودة ٢: ٤٩١ ح٢٨١.
(٣) فضائل علي ﷺ: ١٢٦ ح١٨٨؛ وينابيع المودة ٢: ٤٩٢ ح٢٨٢.
(٤) فضائل علي ﷺ: ١٣١ ح١٩٤؛ وينابيع المودة ٢: ٤٩٢ ح٢٨٣.

فإنّي لست أخشىٰ عليه أن يعود كافراً بعد إيمان، ولا زانياً بعد إحصان»(١)، رواه أحمد في كتاب الفضائل.

٢٠ ـ كانت لجماعة من الصحابة أبواب شارعة في مسجد الرسول ﷺ، فقال ﷺ يوماً: «سدّوا كلّ باب في المسجد إلّا باب علي عليه السلام»، فسدّت، فقال في ذلك قوم حتّىٰ بلغ رسول الله ﷺ، فقام فيهم فقال: «إنّ قوماً قالوا في سدّ الأبواب وتركي باب علي، إنّي ما سددت ولا فتحت، ولكنّي أُمرت بأمر فأتبعته»(٢)، رواه أحمد في المسند وفي كتاب الفضائل.

٢١ ـ دعا رسول الله ﷺ علياً في غزاة الطائف فانتجاه وأطال نجواه، حتّىٰ كره قوم من الصحابة ذلك، فقال قائل منهم: لقد أطال اليوم نجوىٰ ابن عمّه، فبلغه عليه الصلاة والسلام ذلك، فجمع منهم قوماً ثمّ قال: «إنّ فلاناً قال: لقد أطال اليوم نجوىٰ ابن عمّه، أما إنّي ما انتجيته ولكن الله انتجاه»(٣) رواه أحمد في المسند.

٢٢ ـ قال ﷺ: «أخصمك يا علي بالنبوة فلا نبوّة بعدي، وتخصم الناس بسبع لا يحاجد فيها أحد من قريش، أنت أوّلهم إيماناً بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، وأقسمهم بالسوية، وأعدلهم بالرعية، وأبصرهم بالقضية، وأعظمهم عند الله مزية»(٤)، رواه أبو نعيم الحافظ في حلية الأولياء.

٢٣ ـ قالت فاطمة عليها السلام لرسول الله ﷺ: يا أبتي إنّك زوّجتني فقيراً لا مال له، فقال رسول الله ﷺ: «زوّجتك أقدمهم سلماً، وأعظمهم حلماً، وأكثرهم علماً، ألا تعلمين أنّ الله اطلع إلىٰ الأرض اطلاعة فاختار منها أباك، ثمّ اطلع إليها ثانية فاختار منها بعلك»(٥)، رواه أحمد في المسند.

---

(١) فضائل علي عليه السلام: ١٨٢ ح ٢٥٥؛ وينابيع المودة ٢: ٤٩٢ ح ٣٨٤.
(٢) فضائل علي عليه السلام: ٧٢ ح ١٠٩؛ وينابيع المودة ٢: ٤٩٣ ح ٣٨٥.
(٣) راجع ينابيع المودة ٢: ٤٩٣ ح ٣٨٦.
(٤) حلية الأولياء ١: ٦٥ رقم ٤؛ وينابيع المودة ٢: ٤٩٤ ح ٣٨٧.
(٥) راجع ينابيع المودة ٢: ٤٩٤ ح ٣٨٨.

٢٤ ـ لما أنزل إذا جاء نصر الله والفتح، بعد انصراف رسول الله ﷺ من غزاة حنين، جعل يكثر من: سبحان الله أستغفر الله، ثمّ قال: «يا علي إنّه قد جاء ما وعدت به، جاء الفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وإنّه ليس أحد أحقّ منك بمقامي، لقدمك في الإسلام، وقربك منّي، وصهرك، وعندك سيّدة نساء العالمين، وقبل ذلك ما كان من بلاء أبي طالب عندي حين نزل القرآن، فأنا حريص علىٰ أن أُراعي ذلك لولده»[1]، رواه أبو إسحاق الثعلبي في تفسير القرآن.

كلام ابن أبي الحديد في فضائل علي ﷺ:

أقول: قال ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢ : ٤٥١ بعد أن ذكر هذه الأخبار كما هي مذكورة هنا بألفاظها من غير أن يفصل بكلمة واحدة بين الأخبار المذكورة وبين فكرته الخاصة، قال معرباً عن فكرته الخاصة:

«واعلم أنّا إنّما ذكرنا هذه الأخبار هاهنا لأنّ كثير من المنحرفين عنه ﷺ إذا مرّوا علىٰ كلامه في نهج البلاغة وغيره المتضمّن التحدّث بنعمة الله عليه من اختصاص الرسول ﷺ له وتمييزه إيّاه عن غيره، ينسبونه إلى التيه والزهو والفخر، ولقد سبقهم بذلك قوم من الصحابة، قيل لعمر: ولّ علياً أمر الجيش والحرب، فقال: هو أتيه من ذلك، وقال زيد بن ثابت: ما رأينا أزهىٰ من علي وأُسامة.

فأردنا بإيراد هذه الأخبار هاهنا عند تفسير قوله ﷺ: «نحن الشعار والأصحاب الخزنة والأبواب» أن ننبّه علىٰ عظم منزلته عند الرسول ﷺ، وانّ من قيل في حقّه ما قيل لو رقي إلى السماء، وعرج في الهواء، وفخر على الملائكة والأنبياء تعظيماً وتبجّحاً، لم يكن ملوماً بل كان بذلك جديراً، فكيف وهو ﷺ لم يسلك قط مسلك التعظّم والتكبّر في شيء من أقواله ولا من أفعاله.

وكان ألطف البشر خلقاً، وأكرمهم طبعاً، وأشدّهم تواضعاً، وأكثرهم احتمالاً،

---

(١) راجع ينابيع المودة ٢ : ٤٩٥ ح ٣٨٩.

وأحسنهم بشراً، وأطلقهم وجهاً حتىٰ نسبه من نسبه إلى الدعابة والمزاح، وهما خلقان ينافيان التكبّر والاستطالة.

وإنّما كان يذكر أحياناً ما يذكره من هذا النوع نفثة مصدور، وشكوىٰ مكروب، وتنفّس مهموم، ولا يقصد به إذا ذكره إلّا شكر النعمة، وتنبيه الغافل علىٰ ما خصّه الله به من الفضيلة، فإنّ ذلك من باب الأمر بالمعروف، والحضّ علىٰ اعتقاد الحقّ، والصواب في أمره، والنهي عن المنكر، الذي هو تقديم غيره عليه في الفضل، فقد نهى الله سبحانه عن ذلك فقال: ﴿أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع أمّن لا يهدي إلّا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون﴾ [يونس: ٣٥]».

أقول: ولا يخفى المقصود من ذكر هذه الأخبار الشريفة، محفوفة بما تقدمها وتأخر عنها من كلام ابن أبي الحديد العلامة المتبحّر العارف بما يقول من المعقول والمنقول.

نعم إنّما يقصد العارف تنبيه الغافلين لما اختصّ به أمير المؤمنين علي عليه السلام، من سبقه للدعوة الإسلامية، وشدّة ايمانه، وعظيم بلائه منذ بعث رسول الله صلى الله عليه وآله إلىٰ منتهى حياته، ومن كسره شوكة المشركين، وقطعه دابر الكافرين، وكشفه الكرب عن وجه سيّد المرسلين.

ومن جهاده وعزمه وبصيرته وصبره وثباته وفتكه بقادة الشرك وزعماء الضلالة، ومن قربه لسيّد المرسلين، واختصاصه بسيّدة نساء العالمين، وعلمه بمحكم الكتاب، وفصل الخطاب، وأخبار الماضين، وأمر الباقين، ومن مدح الله ورسوله له بما ذكرناه من الأخبار الصحيحة التي عرفت رواتها.

نعم نقصد تنبيه المعاصرين، ويقظة الغافلين، ونظرة أهل الوجدان للسير وراء الحقيقة برفع ستار التمويه، وكشف نقاب الألقاب، وفكّ قيود التقاليد، وبذلك يحكم العقل الصحيح والكتاب الصريح، فإنّه سبحانه ذمّ الغافلين عن وظائفهم المقلّدين لأسلافهم بقوله: ﴿إنّا وجدنا آباءنا علىٰ أمةٍ وإنّا علىٰ آثارهم مقتدون﴾

[الزخرف: ٢٣].

ولا أخال القارئ بعد الوقوف علىٰ ما ذكرناه، إلّا جازماً بما بيّنّاه من شرح كلام سعيد بن العاص لمعاوية حيث قال له: «فدع مناواة من لو كان افترش فراشه صدر الأمر لم يعدل به غيره»[1] فسعيد بن العاص مع قرابته لمعاوية وعداوته لأمير المؤمنين علي عليه السلام، لأنّه قاتل أبيه يوم بدر، يعترف بما ذكرناه وبينّا معناه.

ولا تظن أنّ البسطاء من قريش والأنصار يجهلون شيئاً ممّا امتاز به علي عليه السلام وخصّه الله به، فكيف يجهل ذلك معاوية وأمثاله من الواقفين علىٰ حقيقة الأمر، لكنّها الدنيا وشهواتها، والنفس أمارة بالسوء، فحبّ الرياسة والامرة والسيادة والسلطة، استحكم في قلوبهم فأعماها، وامتزج بحسد أكيد لذلك الإمام حتّىٰ فاض علىٰ أبصارهم فأغشاها.

وكيف لا يحسد امرئ علم ... له علىٰ كلّ هامة قدم

وانضمّ إلىٰ ذلك كلّه تذكر الأذحال والأوتار، وهو وحده علّة تامّة لدفع الأمر وصرفه عن علي عليه السلام، إذ قلّ من لم يكن له عند عليّ ترة، وكلّهم له حاسد، ومن راجع سير العرب عرف نكايتها بمن لها عنده ترة.

عود الىٰ أصل المطلب:

وقد توسّعنا في هذا الباب بما لا ضرورة لبيانه، ولا حرج في كتمانه، غير أنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه لمكر معاوية ودهائه وفجوره واعتدائه جرّنا إلىٰ ما بينّاه ممّا هو بعض ما دوّنه أهل السير والتحقيق.

كلمات الامام علي عليه السلام في ذم المكر:

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في ذمّ المكر وتوبيخ أهله: «المكر لؤم والخديعة

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٠: ٢٤٤.

شؤم»(١).

وقال عليه السلام: «المكر سجية اللئام، والشرّ جالب الآثام».

وقال عليه السلام: «المكر شيطان في صورة إنسان(٢)، والثقة بالنفس من أوثق فرص الشيطان».

وقال عليه السلام: «لولا أنّ المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس»(٣).

لا ريب في المقصود من كلامه عليه السلام وأنّ أهل المكر في النار، فكم مكروا برسول الله وأهل بيته صلّى الله عليه وعليهم. ولم يخف علىٰ ذي لبّ ما لاقاه رسول الله صلى الله عليه وآله من مكر الماكرين، وكيد المنافقين، فإنّ هذا بارزاً في شكله، ممثلاً بحقيقته من أهل المكر والنفاق في معاكسة أمير المؤمنين علي عليه السلام.

فإنّ معاوية وأمثاله جاؤوا بكلّ ما يقدرون عليه من الحيل، وارتكبوا من المحارم الجلل حتّىٰ كادوا كيدهم، ومكروا مكرهم.

وقال عليه السلام: «قد يرى الحوّل القلّب وجه الحيلة ودونها حاجز من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين»(٤).

الحُوَّل القُلَّب: هم الذين يعرفون وجوه الأُمور فيحولونها ويقلبونها بعلمهم وفكرهم وفطنتهم. والحريجة: هي التقوىٰ والخوف من الله سبحانه، ويمكنك من فحوىٰ كلامه عليه السلام وصريحه الجزم بأنّه كان يعلم جميع الأبواب التي طرقها معاوية وغيره ممّن تقدّم أو تأخّر، كالمغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص.

نعم كان علي عليه السلام يعلم ذلك ولكنّه كان ممنوعاً ومحجوزاً عن سلوك تلك الطرق بمانع ربّاني وحاجز من تقوى الله، فيدعها بعد القدرة عليها لعدم انطباقها على

---

(١) غرر الحكم: ٢٩١ ح٦٤٧٨.

(٢) إلىٰ هنا في غرر الحكم: ٢٩١ ح٦٤٨٣.

(٣) الكافي ٢: ٣٣٦ ح١؛ عنه البحار ٣٣: ٤٥٤ ح٦٧٠.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ٤١؛ عنه البحار ٧٥: ٢٨٧ ضمن حديث ١١.

القانون الديني.

وكان غيره ينتهز فرصتها، ويسلك في الطريق الموصلة إلىٰ بغيته، الموافقة لشهوته، مع مخالفتها لأمر الله ونهيه، ولم يكن لعامة الناس علم بأنّ حيلة الغادر تخرجه إلىٰ رذيلة الفجور، وانّه لا حسن لحيلة جرت إلىٰ رذيلة.

وإنّك ترىٰ ذلك جارياً في كلّ زمان، وأهل المكر والاحتيال لهم في نفوس العامة نظرة التدبير، وعند الله سوء العاقبة، أعاذنا الله من المكر وأهله، وخلّصنا من بوائقه وشرّه.

* * *

الاخلاص في النصيحة:

قوله ﷺ: «وَٱمْحَضْ أَخَاكَ ٱلنَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً».

يعلمنا الإمام ﷺ في هذه الفقرة بأنّ على الإنسان أن يبذل النصح لأخيه وصديقه ما وسعه، فإنّ النصح من أعظم لوازم المحبّة، وأهم مقوّمات المودّة، ولا تتمّ صداقة، ولا تنعقد أُخوّة، ما لم تكن النصيحة رائدها وباعثها، ومن لم يكن ناصحاً لأخيه فليس بأخ.

قال رسول الله ﷺ: «المؤمن أخو المؤمن لا يدع نصيحته علىٰ كلّ حال»[(١)].

وقال الإمام الباقر ﷺ: «يحقّ على المؤمن للمؤمن النصيحة»[(٢)].

وقال الإمام الصادق ﷺ: «من مشىٰ في حاجة أخيه المؤمن فلم يناصحه فقد خان الله ورسوله»[(٣)].

والنصيحة أفضل صفة في النوع الإنسان كما أنّ نقيضها وهو الغشّ أقبح خصلة في الإنسان، وهي تجب لعامة المسلمين إعانة وارشاداً، بحقّ والى حقّ، كما

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٤٣٠ ح ١٤٥٣٠.
(٢) البحار ٧٤: ٢٨٦ ضمن حديث ١٣.
(٣) المصدر نفسه.

يحرم نقيضها وهو الغش. قال رسول الله ﷺ: «من غشّنا فليس منّا»(١).

معنىٰ النصيحة:

قال في القاموس: «نصحه نصحاً ونصاحة ونصاحية، وهو ناصح ونصيح من نصّح ونصّاح، والاسم النصيحة، ونصح: خلص»(٢).

وقال ابن الأثير في النهاية في الحديث «إنّ الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامّتهم»(٣).

النصيحة كلمة يعبّر بها عن جملة، هي ارادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبّر هذا المعنىٰ بكلمة واحدة تجمع معناها غيرها، وأصل النصح في اللغة الخلوص، يقال نصحته ونصحت له، ومعنىٰ نصيحة الله صحة الاعتقاد في وحدانيّته واخلاص النيّة في عبادته، والنصيحة لكتاب الله هو التصديق به والعمل بما فيه، ونصيحة رسوله التصديق بنبوّته ورسالته، والانقياد لما أمر به ونهىٰ عنه، ونصيحة الأئمة أن يطيعهم في الحقّ، ولا يرى الخروج عليهم إذا جاروا، ونصيحة عامة المسلمين ارشادهم إلىٰ مصالحهم.

هذا علىٰ رأيه ومعتقده، في حين أنّه لا كرامة لامام فاجر جائر، وقد أوجب الله مقاومته وردعه وكبح جماحه، وردّه عن الجور إلى العدل، فإذا لم يتمكّن المرء علىٰ ذلك فعلى الأقل لا يركن إليه ولا يخالطه، يقول تعالى: ﴿ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسّكم النار﴾ [هود: ١١٣].

وحاشا رسول الله ﷺ أن يأمرنا بمتابعة الإمام الجائر وبمناصحته، وإنّما الذين تجب متابعتهم والمناصحة لهم من الأئمة، هم أئمة أهل البيت النبوي الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

---

(١) كنز العمال ٣: ٥٤٥ ح ٧٨٢٤.

(٢) القاموس المحيط: ٢ / ٣١٢ / نصح.

(٣) النهاية ٥: ٦٢ / نصح.

والنصيحة لهم معناه التصديق بامامتهم، وأنّها فريضة من الله ونصّ من رسوله ﷺ، والانقياد لأوامرهم ونواهيهم، نعم يناصح من لا يجور من الخلفاء معونة للعدل، ومساعدة للمساواة.

الأدلّة علىٰ فضيلة المناصحة:

جاء في الكتاب العزيز: ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾ [التوبة : ٩١]، ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ [الأعراف : ٦٨]، ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم﴾ [هود : ٣٤]، ﴿ونصحت لكم فكيف آسى علىٰ قوم كافرين﴾ [الأعراف : ٩٣]، ﴿ونصحت لكم ولكن لا تحبّون الناصحين﴾ [الأعراف : ٧٩].

وفي السنّة أحاديث كثيرة: منها ما في «أُصول الكافي» عن الإمام الباقر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه»[(١)].

وعن الإمام الصادق ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أعظم الناس عند الله منزلة يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه»[(٢)].

وعن جرير بن عبد الله قال: «بايعت رسول الله ﷺ علىٰ إقام الصلاة، وايتاء الزكاة، والنصح لكلّ مسلم»[(٣)].

وقال الصادق ﷺ: «يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب»[(٤)].

وقال: «عليك بالنصح لله في خلقه، فلن تلقاه بعمل أفضل منه»[(٥)].

وقال: «من مشىٰ في حاجة أخيه ثمّ لم يناصحه فيها، كان كمن خان الله

---

(١) الكافي ٢ : ٢٠٨ ح ٤؛ عنه البحار ٧٤ : ٣٥٨ ح٧.
(٢) الكافي ٢ : ٢٠٨ ح ٥؛ عنه البحار ٧٤ : ٣٥٨ ح٨.
(٣) الترغيب والترهيب ١ : ٥٣٤ ح ٢١.
(٤) الكافي ٢ : ٢٠٨ ح ٢؛ عنه البحار ٧٤ : ٣٥٨ ح٥.
(٥) الكافي ٢ : ٢٠٨ ح٦؛ عنه البحار ٧٤ : ٣٥٨ ح٩.

ورسوله وكان الله خصمه»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «من سعى في حاجة لأخيه فلم ينصحه فقد خان الله ورسوله»[2].

أسباب المناصحة:

للمناصحة أسباب كثيرة: منها العفة؛ فإنّ العفيف يأنف من الغش حتىٰ لعدوّه، ومنها الديانة؛ فإنّ المتديّن يرىٰ من واجبه الديني المبالغة في مصالح المسلمين، وفي أيّ عمل كان وقام به من أعمال وأقوال ترضي الله ورسوله، ومنها الحياء؛ فإنّ الحيي لا يغشّ، وإنّما ينصح استحياءً من نسبة الغش إليه، ومنها الصدق؛ فإنّ الصادق لا يكذب فيقول له قد نصحتك وهو له غاش. ومنها سلامة الذات والفطرة؛ فإنّ سليم الذات لا يغش، ولا يرى النصح إلّا لازماً، وما ذاك إلّا لسلامة نفسه وفطرته علىٰ هذا الخلق الحسن.

ثمرات المناصحة:

وأهمّها أنّها تفيد الاجتماع، ويكون داعياً إلىٰ الأُلفة وموجباً للثقة والاطمئنان، ومن ثمراتها عند المتديّن الفوز بما وعد الله من كرامة أرباب العمل الصالح من المخلصين لدينهم، ومن ثمراتها اكتساب الحمد. فإنّ الناصح ممدوح، وله وقع في القلوب وأثر في النفوس كبير، وله القبول حتىٰ عند الأعداء.

صعوبة قبول النصيحة:

أمر قبول النصيحة صعب لا يقبله إلّا أفذاذ العقلاء ونوادر البشر.

---

(١) الكافي ٢ : ٣٦٣ ح ٤؛ عنه البحار ٧٥ : ١٨٣ ح ٢٦.

(٢) الكافي ٢ : ٣٦٢ ح ١؛ عنه البحار ٧٥ : ١٨٢ ح ٢٤.

قال في «المستطرف»: «إنّ جرعة النصيحة مرّة لا يقبلها إلّا أُولوا العزم»(١).

وفي «المحاضرات» للراغب: الحثّ علىٰ قبول النصح وإن كان مرّاً.

قال بعض الحكماء: من أوجرك المرّ لتبرء أشفق عليك ممّن أوجرك الحلو لتسقم، وقيل: النصيحة آمن من الفضيحة(٢).

والأنسب للعاقل إبداء النصيحة وابرازها صادفت قبولاً أم لا، فإنّها إن صادفت قبولاً فقد نال حمداً وأجراً، وإن لم تصادف قبولاً فقد اكتسب أجراً وعذراً، وخرج عن صفة الغش المذمومة، قال ورقة بن نوفل الأسدي:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم ... أنا النذير فلا يغرركم أحدُ
لا شيء ممّا ترىٰ تبقىٰ بشاشته ... إلّا الإله ويؤدّي المال والولدُ
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا(٣)

وقال أوس بن حجر التميمي:

إن قال لي ماذا ترىٰ يستشيرني ... فلم يك عندي غير نصح وارشادِ

وقال البصري:

إن كان حمدي ضاع في نصحكم ... فإنّ أجري ليس بالضائعِ

وقال آخر:

النصح أرخص ما باغ الرجال فلا ... ترد علىٰ ناصح نصحاً ولا تلمِ
إنّ النصائح لا تخفى منافعها ... على الرجال ذوي الألباب والهممِ(٤)

وقال معاذ بن مسلم الغرا النحوي:

نصحتك والنصيحة إن تعدت ... هو المنصوح عزلها القبول
فخالفت الذي لك فيه حظ ... فغالك دون ما أملت غول(٥)

---

(١) المستطرف: ١: ١٧٤ الباب ١١.
(٢) محاضرات الأُدباء ١: ١٢٩ مما جاء في النصح.
(٣) المستطرف ١: ١٧٤ الباب ١١.
(٤) المستطرف ١: ١٧٥ الباب ١١.
(٥) المصدر نفسه.

قصصٌ فيمن ردّ النصيحة فَهَلك:

منهم يزيد بن المهلب الأزدي، نصحه فيروز أن لا يضع يده في يد الحجاج، فلم يقبل منه فسار إليه فحبسه وحبس أهله، فقال فيروز:

أمــرتك أمـراً حـازماً فـعصيتني فأصبحت مسلوب الامارة نـادماً
امــرتك بـالحجاج إذ أنت قـادر فنفسك أولىٰ اللـوم ان كـنت لائماً
فـما أنـا بـالباكـي عـليك صـبابة وما أنا بالداعي لترجـع سـالماً(١)

ومنهم عمر بن سعد بن أبي وقاص الزهري، قال محمّد بن جرير الطبري: لما كان من أمر الحسين عليه السلام ما كان، دعا عبيد الله بن زياد عمر بن سعد فقال: سر إلى الحسين فإذا فرغنا ممّا بيننا وبينه سرت إلىٰ عملك، فقال عمر بن سعد: إن رأيت أن تعفيني فافعل، فقال له عبيد الله: نعم علىٰ أن ترد لنا عهدنا.

قال: فلمّا قال له ذلك، قال له عمر بن سعد: أمهلني اليوم حتّىٰ أنظر، قال: فمضىٰ عمر يستشير نصحائه فلم يكن يستشير أحداً إلّا نهاه، قال: وجاء حمزة بن المغيرة بن شعبة ـ وهو ابن أُخته ـ، فقال: أنشدك الله يا خال أن تسير إلى الحسين فـتأثم بربّك، وتقطع رحمك، فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلّها لو كان لك، خير لك أن تلقى الله يوم القيامة بدم الحسين، فقال له عمر: أفعل إن شاء الله(٢).

وعن عمّار بن عبد الله الجهني، عن أبيه، أنّه دخل عليه وقد أُمر بـالمسير إلى الحسين عليه السلام فقال له: إلىٰ أين يا ابن سعد؟ فـقال: انّ الأمـير أمـرني بـالمسير إلى الحسين، فقال له: لا تفعل ولا تسر إليه.

وجاءه أولاد المهاجرين والأنصار وقالوا: يا ابن سعد تخرج إلىٰ حرب الحسين وأبوك سادس الإسلام؟ فقال: لست أفعل ذلك، ثمّ جعل يفكّر في ملك الري وقتل

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) تاريخ الطبري ٣: ٣١٠.

الحسين، فأضلّه الشيطان وأعمىٰ قلبه، فاختار قتل الحسين، ولم يصغ لنصح الناصحين، فكان عاقبة أمره أنّ الأطفال يجرون رأسه بحبل في سكك الكوفة وشوارعها، ولعذاب الآخرة أكبر[1].

ومنهم أهل الكوفة، فقد نصحهم زهير بن القين البجلي ﷺ، ذكر أبو جعفر الطبري، عن كثير بن عبد الله الشعبي، قال: لما زحفنا نحو الحسين ﷺ خرج إلينا زهير بن القين علىٰ فرس له ذنوب شاك في السلاح، فقال:

يا أهل الكوفة نذاراً لكم من عذاب الله نذار، إنّ حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتّىٰ الآن اخوة علىٰ دين واحد وملّة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنّا أُمّة وكنتم أُمّة، إنّ الله قد ابتلانا وإيّاكم بذريّة نبيّه محمّد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون.

إنّا ندعوكم إلىٰ نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنّكم لا تدركون منهما إلّا السوء، يسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثّلان بكم، ويرفعانكم علىٰ جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهاني بن عروة و أشباهه، قال: فسبّوه وأثنوا علىٰ عبيد الله ودعوا له، وقالوا: لا نبرح حتّىٰ نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلىٰ الأمير ابن زياد سلماً.

فقال: عباد الله إنّ ولد فاطمة أحقّ بالودّ والنصر من ابن سمية، فإن لم تنصروهم فأُعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلّوا بين هذا الرجل وبين يزيد بن معاوية، فلعمري انّه ليرضىٰ من طاعتكم بدون قتل الحسين ﷺ، فرماه شمر بسهم وقال: أُسكت أسكت الله نامتك أبرمتنا بكثرة كلامك.

فقال له زهير: يا ابن البوّال علىٰ عقبيه ما إيّاك أُخاطب، إنّما أنت بهيمة، والله ما أظنّك تحكم من الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم، فقال له شمر:

---

(١) المصدر نفسه.

إنّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة، قال زهير: أفبالموت تخوّفني، والله للموت معه أحبّ إليّ من الخلد معكم.

ثمّ أقبل على الناس رافعاً صوته فقال: عباد الله لا يغرّنّكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمّد قوماً اهراقوا دماء ذريّته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم.

قال: فناداه رجل فقال: إنّ أبا عبد الله يقول لك: أقبل فلعمري لأن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه فأبلغ في الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والابلاغ، لكن أهل الكوفة لم يقبلوا نصح الناصحين، فغلبت عليهم شقوتهم واتّبعوا الهوىٰ، فخسروا الدنيا والآخرة(١).

* * *

كظم الغيظ:

قوله عليه السلام: «وَتَجَرَّعِ ٱلْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَىٰ مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً».

وعليك بالحلم، فإنّه لو كان مرارة ساعة كان لك حلاوة لا تفارق مذاقك حتّىٰ نهاية العمر، وتجرع أكؤس الغيظ غصصاً، كما عليك أن تبلو من أكؤس الصبر الشيء الكثير، فما من أحد يفعل ذلك إلّا ذاق المغبة لذيذة، واستقبل العافية بما يستقبل به صاحب النفع منفعته، وبما يستقبل به صاحب الأمل أمله، وفي المثل: «الحلم مرارة ساعة، وحلاوة الدهر كلّه».

وهو من أكرم الخلال، وأتمّ الخصال، وأفضل شمائل الرجال، وأسنىٰ مواهب الله تعالى، وهو أصل من أُصول الدين، وركن من أركان الطاعة، وحبل من حبال الشرع، وحصن من حصون الايمان، من استند إليه وتمسّك به واعتمد عليه استنارت له الظلم، وأمن من عثار القدم، وعصم من مواقع الندم.

(١) تاريخ الطبري ٣: ٣١٩.

الحسين، فأضلّه الشيطان وأعمىٰ قلبه، فاختار قتل الحسين، ولم يصغ لنصح الناصحين، فكان عاقبة أمره أنّ الأطفال يجرون رأسه بحبل في سكك الكوفة وشوارعها، ولعذاب الآخرة أكبر(١).

ومنهم أهل الكوفة، فقد نصحهم زهير بن القين البجلي ﷺ، ذكر أبو جعفر الطبري، عن كثير بن عبد الله الشعبي، قال: لما زحفنا نحو الحسين ﷺ خرج إلينا زهير بن القين علىٰ فرس له ذنوب شاك في السلاح، فقال:

يا أهل الكوفة نذاراً لكم من عذاب الله نذار، إنّ حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتىٰ الآن اخوة علىٰ دين واحد وملّة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنّا أُمّة وكنتم أُمّة، إنّ الله قد ابتلانا وإيّاكم بذريّة نبيّه محمّد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون.

إنّا ندعوكم إلىٰ نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنّكم لا تدركون منهما إلّا السوء، يسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثّلان بكم، ويرفعانكم علىٰ جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهاني بن عروة و أشباهه، قال: فسبّوه وأثنوا علىٰ عبيد الله ودعوا له، وقالوا: لا نبرح حتىٰ نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلىٰ الأمير ابن زياد سلماً.

فقال: عباد الله إنّ ولد فاطمة أحقّ بالودّ والنصر من ابن سمية، فإن لم تنصروهم فأُعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلّوا بين هذا الرجل وبين يزيد بن معاوية، فلعمري انّه ليرضىٰ من طاعتكم بدون قتل الحسين ﷺ، فرماه شمر بسهم وقال: أُسكت أسكت الله نامتك أبرمتنا بكثرة كلامك.

فقال له زهير: يا ابن البوّال علىٰ عقبيه ما إيّاك أُخاطب، إنّما أنت بهيمة، والله ما أظنّك تحكم من الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم، فقال له شمر:

(١) المصدر نفسه.

إنّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة، قال زهير: أفبالموت تخوّفني، والله للموت معه أحبّ إليّ من الخلد معكم.

ثمّ أقبل على الناس رافعاً صوته فقال: عباد الله لا يغرّنّكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمّد قوماً اهراقوا دماء ذريّته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم.

قال: فناداه رجل فقال: إنّ أبا عبد الله يقول لك: أقبل فلعمري لأن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه فأبلغ في الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والابلاغ، لكن أهل الكوفة لم يقبلوا نصح الناصحين، فغلبت عليهم شقوتهم واتّبعوا الهوىٰ، فخسروا الدنيا والآخرة[١].

* * *

كظم الغيظ:

قوله عليه السلام: «وَتَجَرَّعِ ٱلْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَىٰ مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً».

وعليك بالحلم، فإنّه لو كان مرارة ساعة كان لك حلاوة لا تفارق مذاقك حتّىٰ نهاية العمر، وتجرع أكؤس الغيظ غصصاً، كما عليك أن تبلو من أكؤس الصبر الشيء الكثير، فما من أحد يفعل ذلك إلّا ذاق المغبة لذيذة، واستقبل العافية بما يستقبل به صاحب النفع منفعته، وبما يستقبل به صاحب الأمل أمله، وفي المثل: «الحلم مرارة ساعة، وحلاوة الدهر كلّه».

وهو من أكرم الخلال، وأتمّ الخصال، وأفضل شمائل الرجال، وأسنىٰ مواهب الله تعالى، وهو أصل من أُصول الدين، وركن من أركان الطاعة، وحبل من حبال الشرع، وحصن من حصون الايمان، من استند إليه وتمسّك به واعتمد عليه استنارت له الظلم، وأمن من عثار القدم، وعصم من مواقع الندم.

(١) تاريخ الطبري ٣: ٣١٩.

الحِلم:

الحلم إمساك النفس عن الاستشاطة في الغضب، وملك الجوارح عند اتقاد جمرة الشر، والسكون عند الأحوال المحرّكة للانتقام، والتثبّت في ترك تعجيل إنفاذ الحكم، لما في عواقب ذلك من وقوع الندم، لا سيّما مع تمكّن القدرة، وتحكم القوّة، فإنّ ذلك آية الرحمة، وسعة الصدر، وعلوّ الهمّة، وايثار مكارم الأخلاق، فما منع شيئاً من دواعي الفضل من طبع عليه، ولا قصر عن أرفع مراتب الخير من وفق إليه، كما أنّه ما ترك شيئاً من الأحوال الذميمة، وتأخّر عن سبب من الأسباب المليمة من أنفذ غضبه، واستعجل عند القدرة انتقامه.

وما زال الحلم يعرب عن نزاهة النفس وبعد الهمم، والفوز بأوفر حظوظ الفضل والكرم، ومن تحلّىٰ به واستعمله، وأخذ به نفسه وامتثله فقد استمسك من الصبر بكلّ سبب، واستولىٰ علىٰ دواعي الخير ومساعي البر في كلّ أرب، فما زال يطفئ جمرة الغضب، ويسمو بصاحبه في الدارين إلىٰ أرفع الرتب.

وهو اسم من أسماء الله سبحانه، وصفة من صفاته، لأنّه ـ جلّ ذكره ـ يرىٰ عصيان العاصين، ويطلع علىٰ خيانة الخائنين، ويشاهد جور الظالمين، ويحصي ذنوب الخاطئين، فلا يحتجب عنه عمل عامل، ولا يغيب عن علمه شيء في عاجل ولا آجل.

وهو بحلمه لا يعجل الانتقام مع القدرة، ولا يستفزه الغضب مع إمكان القوّة، ولا تبعثه العجلة علىٰ انفاذ حكمه مع وضوح الحجة، بل يؤثر الحلم والامهال، ليكون له الفضل والمنّة، وحسبنا قوله عزّ من قائل: ﴿**وربّك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً**﴾ [الكهف : ٥٨].

وقوله تبارك اسمه: ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة**﴾ [النحل : ٦١].

الحِلم صفة الأنبياء:

وقد أثنى الله تعالى بالحلم علىٰ أنبيائه، وخصّ به صفوة أوليائه، ومنحه من أراد كرامته من أهل طاعته وأصفيائه، فقال سبحانه: ﴿إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾ [هود: ٧٥].

وقال لرسوله ﷺ: ﴿خذ العفو وأمُر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف: ١٩٩].

روي أنّه قال رسول الله ﷺ لجبرئيل عند نزول هذه الآية: «ما هذا؟» قال: لا أدري حتىٰ أسأل العالم، ثمّ عاد جبرئيل فقال: يا محمّد إنّ ربّك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمّن ظلمك(١).

نصوص نبويّة في الحلم:

وقال رسول الله ﷺ: «وجبت محبّة الله لمن أغضب فحلم»(٢).

وقال: «إذا غضب أحدكم وكان قائماً فليقعد، وإن كان قاعداً فليضطجع»(٣) يريد بذلك تسكين الغضب عند استشاطة النفس.

وأتاه رجل فقال: يا رسول الله أوصني، قال: لا تغضب، ثمّ أعاد عليه، فقال: لا تغضب، ثمّ أعاد عليه، فقال: لا تغضب(٤).

وقد أراد رسول الله ﷺ بهذا كلّه أن يعلم أصحابه هذا الدرس في الأناة وضبط النفس، حتىٰ أنّه روي أنّ أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً، فأعطاه ثمّ قال له: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا، ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم ﷺ أن كفّوا، ثمّ قام ودخل منزله، فأرسل إليه وزاده شيئاً، ثمّ قال له: أحسنت إليك؟

---

(١) البحار ٧٥: ٢٤٣ ح٤.

(٢) كنز العمال ٣: ١٣١ ح٥٨٢٦.

(٣) الترغيب والترهيب ٣: ٤٥٠.

(٤) مستدرك الوسائل ١٢: ٩ ح١٣٣٦٦.

قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال له النبي ﷺ: إنّك قلت ما قلت آنفاً، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتىٰ يذهب ما في صدورهم عليك، قال: نعم.

فلمّا كان الغد جاء، فقال النبي ﷺ: إنّ هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنّه رضي، أكذلك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال رسول الله ﷺ: مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه، فأتبعها الناس ـ جروا خلفها ـ فلم يزيدوها إلّا نفوراً، فناداهم صاحبها فقال لهم: خلّوا بيني وبين ناقتي، فإنّي أرفق بها منكم وأعلم، فتوجّه لها بين يديها فأخذ من قمام الأرض، فردّها حتىٰ جاءت، واستناخت وشدّ عليها رحلها، واستوىٰ عليها، وإنّي لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال، فقتلتموه دخل النار.

الحلم في كلمات الحكماء:

وحكي عن بعض ملوك الفرس، أنّه كتب كتاباً دفعه إلىٰ بعض وزرائه وقال له: إذا غضبت فناولنيه، وكان قد كتب فيه: ما لك وللغضب، وإنّما أنت بشر، ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء.

وكتب أبرويز لابنه: «يا بني إنّ كلمةً منك تسفك دماء، وكلمة تحقن دماء، وأمرك نافذ، وكلامك ظاهر، فاحترس في غيظك من قولك أن يخطئ، ومن لونك أن يتغيّر، ومن جوارحك أن تخف، فإنّ الملوك تعاقب قدرة، وتعفو حلماً».

وقالت الحكماء: «ليس الحليم من ظلم فحلم، حتىٰ إذا قدر انتصر، إنّ الحليم من إذا قدر عفا»، وقيل: «الحلم ترك المكافأة بالشرّ قولاً وفعلاً».

وقيل للأحنف بن قيس: ممّن تعلّمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقري، رأيته يوماً قاعداً بفناء داره محتبياً بحمائل سيفه يحدّث قومه، إذا برجل مكتوف

ورجل مقتول، فقيل له:

هذا ابنك قتله ابن أخيك هذا، فوالله ما قطع كلامه، ولا حل حبوته، ثمّ التفت إلىٰ ابن أخيه وقال له: يا ابن أخي أنت رميت نفسك بسهمك، وقتلت ابن عمّك، ثمّ قال لابن له آخر: قم يا بني فوار أخاك، وحلّ كتاف ابن عمّك، واحمل إلىٰ أُمّك مائة ناقة دية عن ابنها فإنّها غريبة.

والحلم يحسبه السفيه من ضعف السنة، واحتمال الذلة، والعاقل يراه من كمال العزّة واسداء المنّة، ولذا قال الأحنف: لا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم، وتقلّدت السيوف، ولم تر الحلم ذلّاً، ولا التراهب فيما بينها ضعة، كما قال:

لا يدرك المجد أقوام وإن كرموا ... حتّىٰ يذلوا وإن عزّوا لأقوام
ويصفحوا عن كثير من إساءتهم ... لا صفح ذلّ ولكن صفح أحلام

وقال بعض الحكماء: الحلم والأناة توأمان نتيجتهما علوّ الهمّة.

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أوّل ما يرى الحليم من بركة حلمه أنّ الناس كلّهم أعوانه على الجاهل»(١).

وقال محمّد بن كنانة:

إنّ أهل الجاهلية لم يكونوا يسودون رجلاً حتّىٰ يكون حليماً، وإن كان أكرم الناس، وأشجع الناس، وأشرف الناس.

وقال بعض العلماء: ثلاث من لم تكن فيه لم ينفعه الايمان: حلم يرد به جهل الجاهل، وورع يكفّه عن المحارم، وخلق حسن يداري به الناس.

ومن تمام أحكام الحلم، وكمال أسبابه، واجتماع معانيه، قبول العذر من صادق كان أو كاذب، فإنّ الاعتذار دليل الندم، والندم توبة، وقد يكون الاعتذار حياءً من المعتذر، والحياء من الايمان، ومن درر الكلم: «لا يظهر الحلم إلّا مع الانتصار، ولا يبين العفو إلّا عند الاعتذار».

---

(١) جامع الأخبار: ٣١٩ ح٨٩٦؛ عنه البحار ٧١: ٤٢٥ ح٦٨.

الحِلم علىٰ لسان الشعراء:

من ذلك قول بعضهم:

إذا اعتذر المسيء إليك يوماً من التقصير عذر فتىً مقرٌ
فصنه عن عقابك واعف عنه فإنّ الصفح شيمة كلّ حُرٍّ

وقال أبو الطيب المتنبي:

وإن كان ذنبي كلّ ذنب فإنّه محىٰ الذنب كلّ المحو من جاء تائباً

وقال آخر:

يستوجب العفوَ الفتىٰ إذا اعترف وتاب عمّا قد جناه واقترفْ
بقوله قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلفْ

وقال آخر:

أتيتك تائباً من كلّ ذنب وخير الناس من أخطأ فتابا
أليس الله يُستعفىٰ فيعفو وقد ملك العقوبة والثوابا

قصة الملك والعابد:

روي أنّه كان في بني إسرائيل ملك وصف له عالم من العباد، فأرسل إليه وأحضره وراوده علىٰ صحبته ولزوم بابه، فقال له العابد: إنّ قولك هذا حسن، ولكن لو دخلت يوماً بيتك ورأيتني ألعب مع جاريتك ماذا تفعل؟

فغضب الملك وقال له: يا فاجر تجترئ عليّ بمثل هذا الكلام، فقال له العابد: إنّ لي ربّاً كريماً حليماً لو رأىٰ منّي سبعين ذنباً في اليوم ما غضب عليّ، ولا طردني عن بابه، ولا أحرمني من رزقه، فكيف أفارق بابه وألزم باب من غضب عليّ قبل وقوع الذنب منّي، فكيف لو رأيتني في المعصية، ثمّ تركه ومضىٰ.

وورد في الحديث: انّ مجوسياً استضاف إبراهيم ﷺ فقال له: بشرط أن تسلم، فمضى المجوسي فأوحى الله إليه: أنا أطعمه منذ خمسين سنة علىٰ كفره، فلو ناولته

لقمة من غير أن تطالبه بتغيير دينه، فمضىٰ إبراهيم علىٰ أثره فاعتذر إليه، فسأله المجوسي عن السبب فذكر له ذلك فأسلم.

هذه صفة من صفات الله، والسعيد من اتّصف بها وجعلها رداءه.

* * *

اللين، والفضل، وأداء الحقوق:

قوله ﷺ: «وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَىٰ عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْد الظَّفَرَيْنِ. وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذٰلِكَ يَوْماً مَّا، وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَىٰ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ».

ولن لمن غالظك ولا تغالظه فتكون الغلظة مضاعفة، وقد قيل: إنّ الشر شر واحد لو أغضيت عنه، ولم تأبه به، ولكنّك إذا قابلته بشرّ مثله فقد وريت الزند، وأصبح الشرّ شرّين بعد أن كان الشرّ واحداً.

وقد تستطيع أن تبلغ من ذلك المغالظ الذي تعرض عن سوأته صفحاً، قد تستطيع أن تبلغ منه ما تريد أن تجده في كلّ أحد، فأنت إن أغضيت عن الأمر الذي يريده لك عدوّك، أو فاوضته في أمره بلسان طيّب لا شذوذ فيه، فقد جلبت لنفسك أصدقاء يفادونك بأنفسهم، استمع إلى القرآن تجد أنّه بلّغ إلى الناس هذا، وأراد حملهم عليه في كلّ ما يذهب إليه: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم﴾ [فصلت : ٣٤].

وقابل عدوّك بالتفضّل عليه والاحسان إليه، فإنّك إن كنت تروم الغلبة فتلك أحلىٰ من الغلبة التي تكسبك اذعان العدو واستسلامه كرهاً، ولكنّك لو فعلت ما ذكرت لحزت على السيطرة والغلبة والنفوذ، ولنقاد لك العدو طواعية، وكفىٰ بذلك غلباً وظفراً.

وإن أردت أن تقطع ما بينك وبين صديقك من أسباب المودّة والاخاء، فاترك له جانباً يستطيع أن ينفذ منه إليك متىٰ أراد ذلك، ومتىٰ أحوجته الظروف إلىٰ ذلك، ومن ظنّ بك خيراً فلا تخيب ظنّه، بل صدّقه في ظنّه، بأن تعمل بموجب ما ظنّك عليه، فإذا ظنّك جاداً عاملاً فلا تظهر نفسك أمامه بمظهر المتخاذل المتباطئ في العمل بل اعمل كما يظنّ وأزيد ممّا يظنّ.

ولا يذهب بك حسن الظنّ بصديقك مذاهب بعيدة، فتعتقد أنّ الصداقة الوثيقة لا سبيل إلىٰ فصم عراها، وقطع أسبابها، وأي سبب استعصىٰ على القطع، وأي حبل ثبت للأثقال يعلّق به، ولا ينقطع من ثقلها الثقيل، فما أيسر ما يقطع الحبل، وينفصم السبب فتعود الصداقة عداوة، وينقلب الاخاء بغضاً.

فماذا عليك أن تعمل إذن للمحافظة علىٰ حبل الصداقة أن ينقطع، عليك أن تشكر لصديقك أياديه متىٰ قدّم لك شيئاً، ولا تجحف بحقّه اعتماداً علىٰ ما بينك وبينه من صلة، فإنّه ليس لك بأخ من أضعت حقّه.

ما يجب في الصديق:

قيل للهائم أبي علي: من تحب أن يكون صديقك؟ قال: من يطعمني إذا جعت، ويكسوني إذا عريت، ويحملني إذا كللت، ويغفر لي إذا زللت.

وقيل للبنوي: من تحبّ أن يكون صديقك؟ قال: من يقيلني إذا عثرت، ويقومني إذا ازوررت، ويهديني إذا ضللت، ويصبر عليّ إذا مللت، ويكفيني ما لا أعلم وما علمت.

وسمع أبو عامر النجدي يقول: الصديق من صدّقك عن نفسك لتكون علىٰ بيّنة من أمرك، ويصدّقك أيضاً عنه لتكون علىٰ بيّنة منه، لأنّكما تقتسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء، في السرّاء والضرّاء، والشدّة والرخاء، فليس لكما فرحة ولا ترحة إلّا وأنتما تحتاجان فيهما إلى الصدق.

خير أُسس الصداقة:

وخير أُسس الصداقة التقوىٰ والثقة، قال ابن الجلاء الزاهد لأصحابه: اطلبوا خلّة الناس في هذه الدنيا بالتقوىٰ تنفعكم في الدار الأُخرىٰ، ألم تسمعوا قوله تعالى: ﴿الأخلّاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدوّ إلّا المتّقين﴾ [الزخرف : ٦٧].

وتوفي ابن ليونس بن عبيد فقيل له: إنّ ابن عون لم يأتك، فقال: إنّا إذا وثقنا بمودّة أحد لا يضرّنا ألّا يأتينا.

وقال العروضي: لمّا عاد السلطان عليّ بن عيسىٰ من مكّة تلقّاه قوم من بغداد إلىٰ زبالة، والى ما فوقها ودونها، فلمّا قرّت به الدار بمدينة السلام أتاه قوم كانوا بها لم يتجشّموا لقاءه، فقال: كم من إنسان قعد لم يرم مجلسه حتّىٰ وافيناه فكان أنوط بقلوبنا، وأسكن في أسرارنا من قوم تجشّموا المسير إلىٰ زبالة، ألا إنّ المودّة هي الأصل، والصداقة هي الركن، والثقة هي الأساس، وما عدا ذلك فمحمول عليه ومردود إليه.

وقال يحيى بن أكثم: كنت أرىٰ شيخاً يدخل على المأمون في السنة مرّة، وكان يخلو به خلوة طويلة، ثمّ ينصرف فلا نسمع له خبراً، ولا نرعىٰ له أثراً، ولا نقدم على المسألة عنه، فلما توفي قال لنا المأمون: وا أسفاه علىٰ صديق مسكون إليه، موثوق به، يلقى إليه العجز والبجر، وتقتبس منه الفوائد والغرر.

قلنا: ومن ذا يا أمير المؤمنين؟ قال: أما كنت ترىٰ شيخاً يأتينا في الفرط ونخلو به من دون الناس؟ قلت: بلى، قال: قد تأخّر عن إبانه، وأظنّه قد قضىٰ، قلت: الله يمدّ في عمر أمير المؤمنين وما في ذاك، قال: كان صديقي بخراسان، وكنت أستريح إليه استراحة المكروب، وأجد به ما يوجد بالولد السارّ المحبوب، ولقد كنت أستمدّ منه رأياً أُقوّم به أود المملكة، وأصل به إلىٰ رضا الله في سياسة الرعية، وآخر ما قاله لي عند وداعه أن قال: يا أمير المؤمنين إذا استشن ما بينك وبين الله تعالى فابلله، قلت: بماذا يا صاحب الخير؟

قال: بالاقتداء به في الاحسان إلىٰ عباده، كما تحبّ الاحسان إلىٰ ولدك من حاشيتك، والله ما أعطاك القدرة عليهم إلّا لتصبر على الاحسان إليهم بالشكر علىٰ حسناتهم والتغمّد لسيّئاتهم، من لي يا يحيىٰ بمثل هذا القائل، وأنّىٰ لي بمن يذكّرني ما أنا إليه صائر.

وقال يحيى بن معاذ: بئس الصديق تحتاج معه إلى المداراة.

قيل لأبي سليمان: ما الفرق بين الصداقة والعلاقة؟ قال: الصداقة أذهب في مسالك العقل، وأدخل في باب المروءة، وأبعد من توازي الشهوة، وأنزه عن آثار الطبيعة، وأشبه بذوي الشيب والكهولة، وأرمىٰ إلىٰ حدود الرشاد، وآخذ بأسباب السداد، وأبعد من عوارض الغرارة والحداثة.

فأمّا العلاقة فهي من قبيل العشق والمحبّة، والكلف والشغف، والتتيم والتهيم، والهوىٰ والصبابة، والتدانف والتشاجي، وهذه كلّها أمراض أو كالأمراض تصيب النفس الضعيفة، وتجانس الميل الطبعي، وليس للعقل فيها ظلّ ولا شخص.

ولهذا تسرع هذه الأعراض إلى الشباب من الذكران والأُناث، وتنال منهم وتملكهم، وتحول بينهم وبين أنوار العقول وآداب النفوس، وفضائل الأخلاق، وفوائد التجارب، ولهذا وأشباهه يحتاجون إلى الزواجر والمواعظ ليفيئوا إلىٰ ما فقدوه من اعتدال المزاج، والطريق الوسط.

خير خلال الصديق:

أُمّهات الخلال في الصديق أربع خصال:

الأُولىٰ: عقل موفور يهدي إلىٰ مراشد الأُمور، فإنّ الحمق لا تثبت معه مودّة، ولا تدوم لصاحبه استقامة، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «البذاء لؤم، وصحبة الأحمق شؤم».

ويقول بعض الحكماء: عداوة العاقل أقلّ ضرراً من مودّة الأحمق، لأنّ الأحمق

ربّما ضرّ وهو يقدر أن ينفع، والعاقل لا يتجاوز الحدّ في مضرّته، فمضرّته لها حدّ يقف عليه العقل، ومضرّة الجاهل ليست بذات حد، والمحدود أقلّ ضرراً ممّا هو غير محدود.

قال المسيّب بن زهير: مادة العقل مجالسة العقلاء.

وقال بعض البلغاء: من الجهل صحبة ذوي الجهل.

وقال علي أمير المؤمنين ﷺ: «فساد الأخلاق معاشرة السفهاء، وصلاح الأخلاق معاشرة العقلاء»(١).

وقال: «صديق الجاهل معرض للعطب»(٢)، وقال: «عاشر أهل الفضائل تنبل»(٣)، وقال: «مجالسة العقلاء تزيد في الشرف»(٤)، وقال: «لا تصحبنّ من لا عقل له»(٥).

وقال بعض الأُدباء: من أشار عليك باصطناع جاهل أو عاجز لم يخل أن يكون صديقاً جاهلاً، أو عدوّاً عاقلاً، لأنّه يشير بما يضرّك، ويحتال فيما يضع منك.

الثانية: الدين الواقف بصاحبه على الخيرات، فإنّ تارك الدين عدوّ لنفسه فكيف يُرجىٰ منه مودّة غيره، والى هذا يشير بعض الحكماء إذ يقول: اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب والرأي والأدب، فإنّه ردء لك عند حاجتك، ويد عند نائبتك، وأُنس عند وحشتك، وزين عند عافيتك.

وقال حسّان بن ثابت:

وكلّ أخ يقول أنا وفيّ ... ولكن ليس يفعل ما يقول

سوىٰ خلّ له حسب ودين ... فذاك لما يقول هو الفعول

الثالثة: أن يكون محمود الأخلاق، مرضي الفعال، مؤثراً للخير آمراً به، كارهاً

---

(١) البحار ١ : ١٦٠ ح٤٥.

(٢) غرر الحكم : ٤٣٢ ح ٩٨٦٥.

(٣) غرر الحكم : ٤٢٩ ح ٩٧٧٣.

(٤) البحار ٧٨ : ٦ ح٥٨.

(٥) غرر الحكم : ٤٣٤ ح ٩٩١٠ نحوه.

للشرّ ناهياً عنه، فإنّ مودّة الشرير تكسب الأعداء، ولا خير في مودّة تجلب عداوة وتورث مذمّة وملامة، فإنّ المتبوع تابع صاحبه.

قال علي أمير المؤمنين ﷺ: «ينبغي للمسلم أن يجتنب مؤاخاة ثلاثة: الفاجر، والأحمق، والكذّاب، فأمّا الفاجر فيزيّن لك فعله ويحبّ أنّك مثله، ولا يعينك علىٰ أمر دينك ومعادك، فمقارنته جفاء وقسوة، ومدخله عار عليك.

وأمّا الأحمق، فإنّه لا يشير عليك بخير، ولا يرجىٰ لصرف السوء عنك ولو جهد نفسه، وربّما أراد نفعك فضرّك، فموته خير من حياته، وسكوته خير من منطقه، وبعده خير من قربه.

وأمّا الكذّاب، فإنّه لا يهنيك معه عيش، ينقل حديثك وينقل إليك الحديث حتّىٰ انّه يحدّث بالصدق فلا يصدق، يغري بين الناس بالعداوة، فيثبت الشحناء في الصدور، فاتّقوا الله وانظروا لأنفسكم»(١).

قال بعض الحكماء: مخالطة الأشرار خطر، والصبر علىٰ صحبتهم كركوب البحر الذي من سلم منه ببدنه من التلف فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه.

وقال بعض البلغاء: صحبة الأشرار تورث سوء الظنّ بالأخيار.

وقال بعض الشعراء:

مجالسة السفيه سفاه رأي ومن عقل مجالسة الحكيم
فإنّك والقرين معاً سواء كما قدّ الأديم من الأديم

وقال الإمام الصادق ﷺ: «ثلاثة يجب علىٰ كلّ إنسان تجنّبها: مقارنة الاشرار، ومحادثة النساء، ومجالسة أهل البدع»(٢).

وقال: «إيّاك ومخالطة السفلة، فإنّ السفلة لا تؤدّي إلى الخير»(٣).

وقال: «لا تصحب خمسة: الكذّاب فإنّك منه علىٰ غرور، وهو مثل السراب

---

(١) الكافي ٢: ٣٧٦ ح٦؛ عنه البحار ٧٤: ٢٠٥ ح٤٣؛ والمحجة البيضاء ٣: ٣١١.
(٢) البحار ٧٨: ٢٣٢ ح٣٣.
(٣) البحار ٧٨: ٢٤٩ ح٨٥.

يقرّب منك البعيد، ويبعّد منك القريب، والأحمق فإنّك لست منه علىٰ شيء، فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك، والبخيل فإنّه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجبان فإنّه يسلمك ويفرّ عند الشدّة، والفاسق فإنّه يبيعك بأكلة أو أقلّ منها»(١).

الرابعة: أن يكون من كلّ واحد منهما ميل إلىٰ صاحبه، ورغبة في مؤاخاته، فإنّ ذلك أوكد لحال المؤاخاة، وأمدّ لأسباب المصافاة، إذ ليس مطلوب إليه بطالب، ولا كلّ مرغوب إليه براغب، ومن طلب مودّة ممتنع عليه ورغب إلىٰ زاهد فيه، كان معنّىً خائباً، كما قال البحتري:

وطلبت منك مودّة لم أعطها   إنّ المعنّى طالب لا يظفر

وقال العباس بن الأحنف:

فإن كان لا يدنيك إلّا شفاعة   فلا خير في ودّ يكون بشافع

قال الإمام الصادق عليه السلام: «الصداقة محدودة فمن لم يكن فيه تلك الحدود فلا تنسبه إلىٰ كمال، أوّلها: أن تكون سريرته وعلانيته واحدة. والثانية: أن يرىٰ زينك زينه وشينك شينه. والثالثة: لا يغيّره مال ولا ولد. والرابعة: أن لا يمسك شيئاً ممّا تصل إليه مقدرته. والخامسة: أن لا يسلمك عند النكبات»(٢).

فإذا استكملت هذه الخصال في إنسان وجب إخاؤه، وتعيّن اصطفاؤه، وعلىٰ قدر وفورها فيه يكون الميل إليه، والثقة به، فالاخوان علىٰ طبقات مختلفة، وأنحاء متشعّبة، ولكلّ واحد منهم حال يختصّ بها في المشاركة، وثلمة يسدّها في الموازرة والمظافرة، وليس تتّفق أحوال جميعهم علىٰ حدّ واحد، لأنّ التباين في الناس غالب، واختلافهم في الشيم ظاهر، والى هذا يشير بعض الحكماء إذ يقول: الرجل كالشجر، شرابه واحد، وثمره مختلف، ومن رام اخواناً تتّفق أحوال جميعهم رام متعذّراً.

قال المأمون: الاخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يُستغنىٰ عنه، وطبقة

---

(١) البحار ٧٤: ١٩٦ ح ٢٩؛ والمحجة البيضاء ٣: ٣١٥.

(٢) البحار ٧٤: ١٧٣ ح ١.

كالدواء يحتاج إليه أحياناً، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبداً.

ولعمري إنّ الناس علىٰ ما وصفهم، ولكن ليس من كان منهم كالداء من الاخوان المعدودين، بل هم من الأعداء المحذورين، وإنّما يداجون المودّة استكفافاً لشرّهم وتحرّزاً من مكاشفتهم، فدخلوا في عداد الاخوان بالمظاهرة والمساترة، وفي الأعداء عند المكاشفة والمجاهرة، ألم تر قول بعض الحكماء: مثل العدوّ الضاحك إليك كالحنظلة الخضراء أوراقها، القاتل مذاقها، وقول بعض الفلاسفة: لا تغترّ بمقاربة العدو، فإنّه كالماء الذي إن أُطيل إسخانه بالنار لم يمنع من إطفائها.

وقال ابن الحكم الثقفي:

تكاشرني ضحكاً كأنّك ناصح وعينك تبدي أنّ صدرك لي دوي
لسانك معسول ونفسك علقم وشرّك مبسوط وخيرك ملتوي
فليت كفافاً كان خيرك كلّه وشرّك عنّي ما ارتوى الماء مرتوي

فإذا خرج من كان كالداء من عداد الاخوان، فالاخوان هم الصنفان الآخران: من كان منهم كالغذاء أو كالداء، فالغذاء قوام للنفس وحياتها، والدواء علاجها وصلاحها، وأفضلهما من كان كالغذاء، لأنّ الحاجة إليه أعمّ.

وإذا تميّز الاخوان وجب أن ينزل كلّ منهم حيث نزلت به أحواله إليه، واستقرّت خصاله وخلاله عليه، فمن قويت أسبابه قويت الثقة به، وبحسب الثقة به يكون الركون إليه والتعويل عليه، قال الشاعر:

ما أنت بالسبب الضعيف وإنّما نجح الأُمور بقوّة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنّما يدعى الطبيب لشدّة الأوصاب

وقد اختلفت مذاهب الناس في اتّخاذ الاخوان، فمنهم من يرىٰ أنّ الاستكثار منهم أولىٰ ليكونوا أقوىٰ منعةً ويداً، وأوفر تحبّباً وتودّداً، وأكثر تعاوناً وتفقّداً، وفي ذلك يقول بعض الحكماء: العيش إقبال الزمان، وعزّ السلطان، وكثرة الاخوان.

قال بعض الشعراء:

تكثّر من الاخوان ما استطعت انّهم كنوز إذا ما استنجدوا وظهور
وليس كثير ألف خلّ وصاحب وإنّ عدوّاً واحداً لكثير

قال الإمام الصادق عليه السلام: «أكثروا من الأصدقاء في الدنيا فإنّهم ينفعون في الدنيا والآخرة؛ أمّا الدنيا فحوائج يقومون بها، وأمّا الآخرة فإنّ أهل جهنّم قالوا: ﴿فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم﴾ [الشعراء: ١٠٠ ـ ١٠١]»(١).

وقال عليه السلام: «من لم يرغب في الاستكثار من الاخوان ابتلي بالخذلان»(٢).

وقال عليه السلام: «استكثروا من الاخوان فإنّ لكلّ مؤمن دعوة مستجابة»(٣).

وقال: «استكثروا من الاخوان فإنّ لكلّ مؤمن شفاعة»(٤).

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «وأجلّ الخلائق وأكرمها اصطناع المعروف، واغاثة الملهوف، وتحقيق أمل الآمل، وتصديق مخيلة الراجي، والاستكثار من الأصدقاء في الحياة»(٥).

ومنهم من يرىٰ أنّ الاقلال منهم أولىٰ، لأنّه أخفّ أثقالاً وكلفاً، وأقلّ تنازعاً وخلفاً، وفي هذا قال الاسكندر: المستكثر من الاخوان من غير اختيار كالمستوقر من الحجارة، والمقلّ من الاخوان المتخيّر لهم كالذي يتخيّر الجوهر.

وقال إبراهيم بن العباس: مثل الاخوان كالنار؛ قليلها متاع وكثيرها بوار.

ولقد أحسن ابن الرومي في هذا المعنىٰ إذ يقول:

عدوّك من صديقك مستفاد فلا تستكثرنّ من الصحاب
فإنّ الداء أكثر ما نراه يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات وتلقى الري في النطف العذاب

---

(١) مصادقة الاخوان: ٤٦ باب منفعة الاخوان؛ عنه الوسائل ٨: ٤٠٧ ح ٥.
(٢) البحار ٧٨: ٢٣٢ ح ١٠٧.
(٣) الوسائل ٨: ٤٠٨.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) البحار ٧٨: ٣٥٥ ح ٩.

وقال بعض البلغاء: ليكن غرضك في اتّخاذ الاخوان واستماع النصحاء تكثير العدّة لا تكثير العدد، وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع، فواحد من أهل الاخلاص والوفاء خير من ألف من ذوي النفاق والرياء.

وإذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الأُخوّة وأسباب المودّة، كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضيان من حال صاحبهما قلّة إخوانه، لأنّه يروم مثله ويطلب شكله، وأمثاله من ذوي العقل والفضل أقلّ من أضداده من ذوي الحمق والنقص، لأنّ الخيار في كلّ جنس هو الأقل، فلذلك قلّ وفور العقل والفضل.

قال الشاعر:

لكلّ امرئ شكل من الناس مثله ... فأكثرهم شكلاً أقلّهم عقلاً
وكلّ أُناسٍ آلفون لشكلهم ... فأكثرهم عقلاً أقلّهم شكلاً
لأنّ كثير العقل لست بواجد ... له في طريق حين يسلكه مثلاً
وكلّ سفيه طائش إن فقدته ... وجدت له في كلّ ناحية عدلاً

وقال بعض العلماء: التمس ودّ الرجل العاقل في كلّ حين، وودّ الرجل ذي النكر في بعض الأحايين، ولا تلتمس ودّ الجاهل في كلّ حين.

وسمعت العوامي يقول لعليّ بن عيسى الوزير: إنّ الحال بينك وبين ابن مجاهد صفيقة، فما الذي قرّبه منك، ونفّقه عليك، وأولعك به؟ قال: وجدته متواضعاً في علمه، هشّاً في نسكه، كتوماً لسرّه، حافظاً لمروءته، شفيقاً علىٰ خليطه، حسن الحديث في حينه، محمود الصمت في وقته، بعيد القرين في عصره، والله لو لم يكن فيه من هذه الأخلاق إلّا واحدة لكان محبوباً ومقبولاً.

وقال بعض الأفاضل: سمعت برهان الصوفي الدينوري يقول: سمعت الجنيد يقول: لو صحبني فاجر حسن الخلق كان أحبّ إليّ من أن يصحبني عابد سيّئ الخلق، قال: لأنّ الفاجر الحسن الخلق يصلحني بحسن خلقه، ولا يضرّني فجوره، والعابد السيّئ الخلق يفسدني بسوء خلقه، ولا ينفعني بعبادته لأنّ عبادة العابد له،

وسوء خلقه عليّ، وفجور الفاجر عليه، وحسن خلقه لي.

وقال العتابي لصاحب له: ما أحوجك إلىٰ أخ كريم الأُخوّة، كامل المروءة، إذا غبت خلفك، وإذا حضرت كنفك، وإذا نكرت عرفك، وإذا جفوت لاطفك، وإذا بررت كافأك، وإذا لقي صديقك استزاده لك، وإن لقي عدوّك كفّ عنك غرب العادية، وإذا رأيته ابتهجت، وإذا باثثته استرحت.

وفي وصف خير الأصدقاء يقول ابن المقفّع:

كان لي أخ أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظّمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وكان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان لا يأشر عند نعمة، ولا يستكين عند مصيبة، وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يتقدّم أبداً إلّا ثقة بمنفعة، وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بَذَّ[١] القائلين.

وكان ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جدّ الجدّ فهو الليث عادياً، وكان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مراء، ولا يدلي بحجة حتّىٰ يرىٰ قاضياً فهماً وشهوداً عدولاً، وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذر في مثله حتّىٰ يعلم ما عذره، وكان لا يشكو وجعه إلّا عند من يرجو عنده البرء، ولا يستشير صاحباً إلّا أن يرجو منه النصيحة، وكان لا يتبرّم ولا يتسخّط، ولا يتشكى ولا ينتقم من العدو، ولا يغفل عن الولي، ولا يخصّ نفسه بشيء دون اخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته، فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ـ ولن تطيق ـ ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

وقال أبو سليمان: الصديق لا يراد ليؤخذ منه شيء أو ليعطى شيئاً، ولكن ليسكن إليه، ويعتمد عليه، ويستأنس به، ويستفاد منه، ويستشار في الملم، وينهض في المهم، ويتزيّن به إذا حضر، ويتشوّق إليه إذا سفر، والأخذ والعطاء في عرض ذلك جاريان علىٰ مذهب الجود والكرم.

---

(١) بذّهم: أي كفّهم عن القول ومنعهم.

وقيل لأرسطاطاليس ـ معلّم الاسكندر ـ: من الصديق؟ قال: انسان هو أنت، إلّا أنّه بالشخص غيرك.

سئل أبو سليمان عن هذه الكلمة، وقيل له: فسّرها لنا، فإنّها وإن كانت رشيقة فلا نظفر منها بحقيقة، فقال: وإنّما أشار بكلمته هذه إلىٰ آخر درجات الموافقة التي يتصادق المتصادقان بها، ألا ترىٰ أنّ لهذه الموافقة أولاً منه يبتدئانها، كذلك لها آخر ينتهيان إليه، وأوّل هذه الموافقة توحّد وآخرها وحدة، وكما أنّ الإنسان واحد بما هو انسان كذلك يصير بصديقه واحداً بما هو صديق، لأنّ العادتين تصيران عادة واحدة، والارادتين تتحوّلان إرادة واحدة، ولا عجب من هذا، فقد أشار إلىٰ هذه الغريبة الشاعر بقوله:

روحه روحي، وروحي روحه إن يشأ شئت وإن شئت يشأ

وليس يبعد هذا عليكم إلّا لأنّكم لم تروا صديقاً لصديق، ولا كنتم أصدقاء على التحقيق، بل أنتم معارف يجمعكم الجنس المقتبس من الحيوان، وينظمكم النوع المقتبس من الإنسان، ويؤلفكم بعد ذلك البلد أو الجوار، أو الصناعة أو النسب.

ثمّ أنتم في كلّ ذلك الذي اجتمعتم عليه، وانتظمتم به، وتألفتم له علىٰ غاية الافتراق للحسد الذي يدبّ بينكم، والتنافس الذي يقطع علائقكم، والتدابر الذي يثير البينونة منكم، فلو ثبتم على الصراط المستقيم، وعلقتم بحبل العقل المتين المستبين، واعتصمتم بالعروة الوثقىٰ من الهدىٰ والدين، كنتم كنفس واحدة في كلّ حال ذللت أو صعبت، تجمّعت أو تشعّبت، تعرّفت أو تنكّرت.

وكانت هذه الشريعة ـ أعني ـ «الموافقة الموحدة» تسري في الصديق والصديق، ثمّ في الثاني والثالث، ثمّ في الصغير والكبير، وفي المطيع والمطاع، والسائس والمسوس، ثمّ في الجار والجار، وفي المحلّة والمحلّة، والبلد والبلد، حتّىٰ تبلغ الأغوار والنجود، وتشتمل علىٰ الأداني والأقاصي، فحينئذٍ ترىٰ كلمة الله

العليا، وطاعته العالية، قال: فعلىٰ هذا يحمل رأي الحكيم في قوله: الصديق إنسان هو أنت، إلّا أنّه بالشخص غيرك.

منزلة الصديق:

حدّث أبو حامد العلوي ـ وكان من الحجاز ـ سنة سبعين وثلاثمائة بمدينة السلام، قال: رُمي أعرابي من بني هلال عن حيّه بأطراف الشام، فقيل له: من خلّفت وراءك؟ فقال: خلّفت والداً ووالدة، وأُختاً، وابن عم، وبنت عم، وعشيقاً، وصديقاً، قيل له: فكيف حنينك إليهم؟ قال: أشدّ حنين، قيل: فصفه لنا، قال:

أمّا حنيني إلىٰ والدي فللتعزّز به، فإنّ الوالد عضد وركن يعاذ به ويؤوىٰ إليه.

وأمّا نزاعي إلى الوالدة فللشفقة المعهودة منها، ولدعائها الذي لا يعرج إلى الله مثله.

وأمّا شوقي إلىٰ الأُخت فللصيانة لها والتروّح إليها.

وأمّا شوقي إلىٰ ابن العم فللمكافأة له والانتصار به.

وأمّا ابنة العم فلأنّها لحم علىٰ وضم، أتمنّىٰ أن أشبل عليها بالرقة، وأصلها ببعض من يكون لها كفئاً ويكون لنا أيضاً إلفاً.

وأمّا صبابتي بالعشيق فذلك شيء أجده بالفطرة والارتياح الذي قلّما يخلو منه كريم له في الهوىٰ عرق نابض، وفي المجون جواد راكض.

وأمّا الصديق فوجدي به فوق كلّ من نعتّه لك، لأنّي أباثه بما أجل أبي عنه، وأجبأ أُمّي فيه، وأطويه عن أُختي خجلاً منها، وأُداجي ابن عمّي عليه خوفاً من حسد يفقأ ما بيني وبينه، وكلّ هؤلاء مع شرف موقعهم منّي وانتسابهم إليّ دون الصديق.

أرى الدنيا بعينه إذا رنوت، وأجد فائتي عنده إذا دنوت، وإذا عززت له ذلّ لي، وإذا ذللت له عزّ لي، وإذا تلاحظنا تساقينا كأس المودّة، وإذا تصامتنا تناجينا

بلسان الثقة، لا يتوارىٰ عنّي إلّا حافظاً للغيب، ولا يتراءىٰ لي إلّا ساتراً للعيب، قيل: فهل نمىٰ إليك خبره منذ بان عنك أثره؟

قال: نعم لحقني بعض فتيان الحي أمس فسألته عن قرابتي وعشيرتي، فنعت لي كلّاً وأطاب أخبارهم، حتّىٰ إذا ما سألته عن الصديق قال: ما له هجيري سواك، إن عبر فباسمك يستقل، وإن تنفّس فبذكراك يقطع، وإن آوىٰ إلىٰ ندوة الحي فبلسانك ينشر، وجودك يذكر، لا يمرّ بمعهد لك إلّا حيّاه، ولا بمكان حلّه معك إلّا انتواه، فقلت له: كف قليلاً، فقد أججت في صدري ناراً كانت طافئة، وأبديت منّي صبابة كانت خافية، قال أبو حامد: فضرب والله كبد راحلته إلىٰ حيّه.

* * *

العطف على الأهل:

قوله ﷺ: «وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَىٰ ٱلْخَلْقِ بِكَ».

ذلك أنّ الأهل أولىٰ بالعطف، وأجدر باللطف، وأي شيء أجدر من الزجاج باللين واللطف، ومن كان أشقى الخلق به أهله فما هو من الإسلام وتعاليمه في شيء، وأي شيء منه يلائم التعاليم الإسلامية، والتعاليم الإسلامية تأبىٰ ذلك أشدّ الاباء، تأبى التعاليم الإسلامية أن يكلّف الرجل امرأته بأيسر العمل دون رضاً منها ورغبة، فكيف بالرجل يكلّف المرأة مشقّة ما فوقها مشقّة، وعملاً مضنياً ما فوقه عمل مضن.

أتراه يرعىٰ من تعاليم الإسلام شيئاً، أم أنّ بينه وبين ذلك أشدّ الخلاف، وأنا لا أرىٰ كثيراً من أصحابنا في هذا العصر، وغير أصحابنا إلّا من كلّف المرأة شططاً، وحملها أمراً صعباً تكرهه وتضجر منه، واتّخذ لنفسه من زوجه المسكينة مطيّة يركبها، يستخدمها في أعماله، ويسخّرها في كلّ ما يريد، ويستعملها فيما يريد، وهو عليها كما يكون الملك الاستبدادي القاسي يفرض عليها أحكامه، وينزل عليها

سخطه.

فإذا حادت عن رأيه قليلاً، وإذا تركت من قوله جانباً، وإذا أغفلت من أوامره ناحية فهنالك القطيعة والتنكّر والاستكبار، وهناك السبّ واللوم والتعنيف الذي يوجّه نحو أبويها وأقربائها، فمن قرأ مقالتنا هذه فليكفّ عن زوجه بعض الأذىٰ، وليرجع إلىٰ ناموس وجدانه، وليخفّف من غلوائه، فإنّها أسيرة فرفقاً بالأسير، وإنّها قارورة فرفقاً بالقوارير أن تنكسر وتعدم فائدتها.

* * *

قوله عليه السلام: «وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ».

فإنّك لو رغبت فيه لم تجد منه إلّا نكراً، ولم تلاق منه إلّا ما تكره، فما أيسر أن ترغب عنه وتنأىٰ بجانبك، ولا تعيره أي اهتمام.

* * *

الأمر بالصلة والاحسان:

قوله عليه السلام: «وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَىٰ عَلَىٰ قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَىٰ صِلَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَىٰ ٱلْاسَاءَةِ أَقْوَىٰ مِنْكَ عَلَىٰ ٱلْاحْسَانِ».

وكن أقوىٰ علىٰ صلة أخيك منه على القطيعة، ولا تدعه يكون أقوىٰ على القطيعة منه على الصلة، ولتكن أنت كذلك أقوىٰ على الاحسان منه على الاساءة، فمقابلة السيّئة بالحسنة يكسر شرّة النفوس، ويوجهها إلى الخير، ويطفئ جذوة الشرّ، ويرد نزغ الشيطان، وهذه المقابلة من خلق الكرام الذين زكت نفوسهم وطهرت قلوبهم.

قصة عصام بن المصطلق:

ومن روائع ما أثر من مقابلة السيّئة بالحسنة ما ذكره عبد الملك بن شمس

الخلافة ـ أحد وزراء العلماء في مصر، المتوفى في حدود الستمائة ـ في كتاب له ألّفه في محاسن المحاضرة، وآداب المسامرة، فقال: إنّ عصام بن المصطلق ـ وكان شامياً أموياً ـ قال: دخلت المدينة فرأيت الحسين بن عليّ ـ سلام الله عليهما ـ، ومعه غلمانه وحاشيته، فأعجبني سمته وروائه، وحسنه وبهاؤه، وأثار الحسد ما كان يخفيه صدري لأبيه من البغض.

فجئت إليه وقلت: أنت ابن أبي تراب؟ فقال: نعم، فبالغت في شتمه وشتم أبيه، فنظر إليّ نظر عاطف رؤوف برقّة ورحمة، ثمّ قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وامّا ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنّه سميع عليم • إنّ الذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون • وإخوانهم يمدّونهم في الغيّ ثمّ لا يقصرون﴾ [الأعراف: ٢٠٠-٢٠٢].

ثمّ قال لي: خفض عليك أستغفر الله لي ولك، إنّك لو استعنتنا لأعنّاك، ولو استرفدتنا لرفدناك، ولو استرشدتنا لأرشدناك، قال عصام: فندمت على ما قلت، وتوسّم منّي الندم على ما فرّط منّي، فقال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، ثمّ قال: أمن أهل الشام أنت؟ قلت: نعم، فقال: شنشنة أعرفها من أخزم، حيّانا الله وإيّاك، أتبسط إلينا في حوائجك وما يعرض لك تجدنا عند أفضل ظنّك إن شاء الله.

قال عصام: فضاقت عليّ الأرض بما رحبت، وودت لو أنّها ساخت بي، ثمّ انسللت من بين يديه لواذاً وما على وجه الأرض أحبّ إليّ منه ومن أبيه.

قصة الامام الكاظم مع الرجل الخطابي:

كان رجل من ولد آل الخطّاب بالمدينة ينال من أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام ويشتم علياً، فقال بعض الشيعة للإمام: يا ابن رسول الله ألا نقتل هذا الرجل؟ فنهاهم الإمام عن ذلك أشدّ النهي.

ثمّ سأل الإمام عن الخطابي، فقيل له: إنّ له زرعاً بناحية من نواحي المدينة، فركب عليه السلام إليه فوجده في زرعه، فدخل الزرع وهو راكب علىٰ حماره، فصاح به الخطابي: لا تطأ زرعنا، فوطئه الإمام بالحمار حتّىٰ وصل إليه فنزل وجلس معه، فباسطه وضاحكه، ثمّ قال له: كم غرمت في زرعك هذا؟ قال: مائة دينار، فقال عليه السلام: فكم ترجو أن تصيب؟ قال: لست أعلم الغيب.

فقال عليه السلام له: ما قلت لك كم تصيب وإنّما قلت لك كم ترجو، فقال: أرجو ثلاثمائة دينار، فأخرج الإمام صرّة فيها ثلاثمائة دينار وقال: خذ هذا لك وزرعك علىٰ حاله يرزقك الله تعالى فيه ما ترجو.

فلمّا رأى الخطابي ذلك قام إلىٰ أبي الحسن عليه السلام وقبّل رأسه ويديه وسأله أن يصفح عن فارطه، فتبسّم الإمام عليه السلام وانصرف، ثمّ لمّا كان من الغد ودخل الإمام المسجد فوجد الخطابي جالساً، فلمّا بصر به الخطابي قال: الله أعلم حيث يجعل رسالته، فقال له أصحابه: ما شأنك لقد كنت تقول غير هذا، فقال: قد علمتم ما قلت الآن، وجعل يعظّم شأن أبي الحسن عليه السلام[١].

روي أنّ المأمون لمّا خرج عمّه إبراهيم بن المهدي عليه، وبايعه العبّاسيّون بالخلافة ببغداد، وخلعوا المأمون ـ وكان إذ ذاك بخراسان ـ فلمّا بلغه الخبر قصد العراق، فلمّا دخل بغداد اختفىٰ إبراهيم بن المهدي، وعاد العبّاسيّون وغيرهم إلىٰ طاعة المأمون.

ولم يزل المأمون متطلّباً لإبراهيم حتّىٰ أخذه مستنقباً مع نسوة، فحبس ثمّ أحضر حتّىٰ وقف بين يدي المأمون، فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال له المأمون: لا سلّم الله عليك ولا قرّب دارك، استغواك الشيطان حتّىٰ حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام.

فقال إبراهيم: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإنّ وليّ الثأر يحكم في القصاص والعفو،

---

(١) البحار ٤٨: ١٠٢ ح٧.

والعفو أقرب للتقوىٰ، ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة وعدل السياسة، ومن تناوله الاغترار بما مدّ له من أسباب الرجاء أمن عادية الدهر علىٰ نفسه، وهجمت به الأيّام على التلف، وقد جعلك الله فوق كلّ ذي ذنب، كما جعل كلّ ذي ذنب دونك، فإن أخذت فبحقّك، وإن عفوت فبفضلك، والفضل أولىٰ بك يا أمير المؤمنين، ثمّ قال:

ذنبي إليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقّك أو لا ... فاصفح بعفوك عنه
إن لم أكن في فعالي ... من الكرام فكنه

فلمّا سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه، وقال: يا إبراهيم القدرة تذهب بالحفيظة، والندم توبة، وبينهما عفو الله، وهو أعظم ممّا يحاول، وأكثر ممّا يؤمل، ولقد حبّب إليّ العفو حتّىٰ خفت ألّا أوجر عليه، لا تثريب عليك، وردّ أمواله جميعها إليه، فقال فيه مخاطباً:

رددت مالي ولم تمنن عليّ به ... وقبل ردّك مالي قد حقنت دمي
فإن جحدتك ما أوليت من كرم ... إنّي لباللّوم أولىٰ منك بالكرم

ومن ذلك ما روي من أنّ الرشيد بن المهدي خرج عليه خارجي رام زوال ملكه وإفساد دولته، فجهّز له جيشاً، وأنهض الناس والجند للخروج لقتاله، فلمّا توجّه الجيش إليه وظفروا به أحضروه إلىٰ دار الخلافة، فلمّا دخل علىٰ الرشيد قال له: ما تريد أن أصنع بك؟

قال: اصنع بي ما تريد أن يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه، وهو أقدر عليك منك عليّ، فأطرق الرشيد مليّاً ثمّ رفع رأسه، وأمر باطلاقه، فلمّا خرج قال بعض الحاضرين: يا أمير المؤمنين تقتل رجالك، وتفني أموالك، وتظفر بهذا الذي خرج عليك، وأفسد في بلادك، وتطلقه بكلمة واحدة، تأمّل يا أمير المؤمنين، فإنّه يجرئ عليك أهل الفساد.

فأمر الرشيد بردّه، فلمّا عاد ومثل بين يديه علم أنّه قد سُعي به، وأُشير على الخليفة بقتله، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تطع فيّ مشيراً يمنعك عفواً تدّخر به عند الله يداً، ويبعثك على الانتقام الذي ليس من مكارم الأخلاق، واقتد بالله تعالى، فإنّه لو أطاع فيك مشيراً ما استخلفك طرفة عين، وأحسن كما أحسن الله إليك، فأمر بإطلاقه وأحسن إليه، وقال: لا تعاودوني فيه.

* * *

نتيجة الظلم:

قوله عليه السلام: «وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَىٰ فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ».

واصبر نفسك علىٰ من ظلمك، وغصب حقّك، وحرمك من نصيبك شيئاً، ففي الصبر بلوغ الأرب ونيل المطلب، ولو نظرت فأمعنت في النظر لتكشف لك أنّ الظالم محسن، وكيف يكون الظالم محسناً، وكيف يكون الظلم احساناً.

نعم هو كذلك لأنّ الظالم لا يظلم إلّا نفسه، ولا يسعىٰ إلّا في جلب الضرر لنفسه، ولو تفكّرت جيّداً رأيت نفسك الرابح، وإنّك صاحب الكفّة الراجحة من الميزان، فلا تخففنّ من ضرره علىٰ نفسه بأن تدعو الله عليه أو تدافعه عن نفسك، بل اتركه، فما عرفت لك أحداً أعود عليك نفعاً من ظالمك، وليس جزاء من سرّك أن تسوءه.

وقد قلت لك انّه ليس لك أن تجحد لصاحب الاحسان إحسانه بل اعرف صنيعه، واذكره بلسان المدح والثناء، وأنا لا أرىٰ ظالمك هذا إلّا محسناً فهو يسدي إليك يداً يجب عليك أن تؤدّي إليها حقّها من الشكر، فإن لم تفعل فإنّك الظالم، وإنّ ذلك الذي لا يستطيع أن يضع الشيء في موضعه المناسب له.

الفصل التاسع عشر
حِكَمٌ في السلوك الاجتماعي

«وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُك، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ.

مَا أَقْبَحَ ٱلْخُضُوعَ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ، وَٱلْجَفَاءَ عِنْدَ ٱلْغِنَىٰ!

إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ.

وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَىٰ مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْك، فَاجْزَعْ عَلَىٰ كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْك.

ٱسْتَدِلَّ عَلَىٰ مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ ٱلْأُمُورَ أَشْبَاهٌ.

وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ ٱلْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ، فَإِنَّ ٱلْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ، وَٱلْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ.

ٱطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ ٱلْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ ٱلْيَقِينِ.

مَنْ تَرَكَ ٱلْقَصْدَ جَارَ.

وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ.

وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ.

وَٱلْهَوَىٰ شَرِيكُ ٱلْعَمَىٰ.

وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ.

وَٱلْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ.

مَنْ تَعَدَّىٰ ٱلْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ ٱقْتَصَرَ عَلَىٰ قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَىٰ لَهُ.

وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ.

وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ.

قَدْ يَكُونُ ٱلْيَأْسُ إِدْرَاكاً إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً.

لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ.

وَرُبَّمَا أَخْطَأَ ٱلْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَأَصَابَ ٱلْأَعْمَىٰ رُشْدَهُ.

أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ.

وَقَطِيعَةُ ٱلْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ ٱلْعَاقِلِ.

مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ.

لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَىٰ أَصَابَ.

إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ.

سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ ٱلْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ».

* * *

الرزق رزقان:

الرزق لا يعدو احدى اثنتين: فرزق تطلبه وتسعىٰ إليه، وتتذرّع إليه بالوسائل المختلفة، وتحدث بينك وبينه أسباباً وصلات حتّىٰ إذا بلغ منك الاعياء مبلغاً عظيماً نلته بعد جهد جاهد، وعسر عسير.

ورزق يسعىٰ نحوك ولا تسعىٰ أنت إليه، بل لم تر أنّه قد كتب لك، فهو يأتيك من دون أن تبذل فيه شيئاً من راحة، ومن دون أن تركب لنيله الصعاب، وتجتاز

من أجله العقاب.

الرزق الذي يطلبك:

دخل عماد الدولة أبو الحسن بن بابويه بشيراز بعد أن هزم ابن ياقوت عنها وهو فقير لا مال له، فساخت احدى قوائم فرسه في الصحراء في الأرض، فنزل عنها وابتدرها غلمانه فخلصوها، فظهر لهم في ذلك الموضع نقب وسيع، فأمرهم بحفره فوجدوا فيه أموالاً عظيمة وذخائر لابن ياقوت.

واستلقىٰ يوماً آخر علىٰ ظهره في داره بشيراز ـ التي كان ابن ياقوت يسكنها ـ فرأىٰ حيّة في السقف، فأمر غلمانه بالصعود إليها وقتلها، فهربت منهم ودخلت في خشب الكنيسة، فأمر أن يقلع الخشب وتستخرج وتقتل، فلمّا قلعوا الخشب وجدوا فيه أكثر من خمسين ألف دينار ذخيرة لابن ياقوت.

واحتاج أن يفصل ويخيط ثياباً له ولأهله، فقيل: هاهنا خياط حاذق كان يخيط لابن ياقوت، وهورجل منسوب الى الدين والخير، إلّا أنّه أصمّ لا يسمع شيئاً أصلاً، فأمر باحضاره فأحضر عنده وهو في رعب وهلع، فلمّا أُدخل عليه كلّمه وقال: أريد أن تخيط لنا كذا وكذا قطعة من الثياب، فارتعد الخياط واضطرب كلامه وقال: والله يا مولاي ما له عندي إلّا أربعة صناديق ليس غيرها، فلا تسمع قول الأعداء فيّ، فتعجّب عماد الدولة وأمر باحضار الصناديق، فوجدها كلّها ذهباً وحلياً وجواهراً مملوءة وديعة لابن ياقوت(١).

عبد الله بن جدعان التيمي ـ أحد أجواد الجاهلية ـ كان في ابتداء أمره صعلوكاً ترب اليدين، وكان من ذلك شريراً فاتكاً لا يزال يجني الجنايات، فيعقل عنه أبوه وقومه حتىٰ أبغضه عشيرته ونفاه أبوه، وحلف أن لا يؤويه أبداً.

فخرج في شعاب مكة حائراً ثائراً يتمنّى الموت أن ينزل به، فرأىٰ شقّاً في

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ١١٥ باب ٣١.

جبل فظنّ أنّ فيه حيّة، فتعرّض للشق يريد أن يكون فيه ما يقتله فيستريح فلم ير شيئاً، فدخل فيه فإذا فيه ثعبان عظيم له عينان تتقدان كالسراجين، فحمل عليه الثعبان فأفرج له فانساب عنه مستديراً بدارة عند بيت، ثمّ خطا خطوة أُخرىٰ فصفر به الثعبان، فأقبل إليه كالسهم فأفرج له فانساب عنه.

فوقف ينظر إليه يفكّر في أمره فوقع في نفسه أنّه مصنوع، فأمسكه بيديه فإذا هو مصنوع من ذهب وعيناه ياقوتتان، فكسره وأخذ عينيه ودخل البيت، فإذا جثث طوال علىٰ سرر لم ير مثلهم طولاً وعظماً، وعند رؤوسهم لوح من فضّة فيه تاريخهم، وإذا هم رجال من ملوك جرهم وآخرهم موتاً ـ الحرث بن مضاض ـ صاحب العذبة الطويلة ـ وإذا عليهم ثياب من وشي لا يمسّ منها شيء إلّا انتثر كالهباء من طول الزمان، مكتوب في اللوح عظات.

وكان اللوح من رخام، وكان فيه: أنا نفيلة بن عبد المدان بن خشرم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان بن نبيّ الله هود ﷺ، عشت من العمر خمسمائة عام، وقطعت غور الأرض ظاهرها وباطنها في طلب الثروة والمجد والملك، فلم يكن ذلك ينجيني من الموت، وتحته مكتوب:

قد قطعت البلاد في طلب ... الثروة والمجد قالص الأثواب
وسريت البلاد قفراً لقفر ... بقناة وقوّة واكتساب
فأصاب الردىٰ بنات فؤادي ... بسهام من المنايا صياب
فانقضت مدّتي وأقصر جهلي ... واستراحت عواذلي من عتابي
ودفعت السفاه بالحلم لما ... نزل الشيب في محلّ الشباب
صاح هل رأيت أو سمعت براع ... ردّ في الضرع ما قرى في الحلاب

وإذا في وسط البيت كوم عظيم من الياقوت واللؤلؤ والذهب والفضّة والزبرجد، فأخذ منه ثمّ علّم على الشقّ بعلامة وأغلق بابه بالحجارة، وأرسل إلىٰ أبيه بالمال الذي خرج به يسترضيه ويستعطفه، ووصل عشيرته كلّهم، فسادهم

وجعل ينفق من ذلك الكنز ويطعم الناس ويفعل المعروف، وكانت له جفنة يأكل منها الراكب وهو على البعير لعظمها، وسقط فيها صبي فغرق ومات.

وفي الرواية عن الرسول ﷺ: «إنّ أرزاقكم تطلبكم كما تطلبكم آجالكم، فلن تفوتوا الأرزاق كما لم تفوتوا الآجال».

الرزق الذي تطلبه:

وأمّا الرزق الذي يطلبه الإنسان ويسعىٰ إليه، فهو كثير جدّاً لا يُحصىٰ.

قال رسول الله ﷺ: «إنّ روح القدس نفث في روعي أنّه لن تموت نفس حتّىٰ تستكمل رزقها فأجملوا في الطلب»(١).

وقال أمير المؤمنين علي ﷺ: «الدنيا دول فاطلب حظّك منها بأجمل الطلب»(٢).

وسأل الصادق ﷺ عن بعض أصحابه، فقيل له: أقبل على العبادة وترك التجارة، فقال: «ويحه أما علم أنّ تارك الطلب لا تُستجاب له دعوة، إنّ قوماً من أصحاب رسول الله ﷺ لما نزلت ﴿**ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً • ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾ [الطلاق : ٢-٣] أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا: قد كفينا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فقال: ما حملكم علىٰ ما صنعتم؟ فقالوا: يا رسول الله تكفّل الله لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة، فقال ﷺ: انّه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب»(٣).

وعنه ﷺ قال: «إنّي لأركب في الحاجة التي كفانيها الله، ما أركب فيها إلّا لالتماس أن يراني الله أضحي في طلب الحلال، أما تسمع قول الله تعالى: ﴿**فإذا قضيت الصلوة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾ [الجمعة : ١٠] أرأيت لو

(١) الكافي ٢ : ٧٤ ح٢؛ عنه البحار ٧٠ : ٩٦ ح٣؛ والمحجة البيضاء ٦ : ٥١.
(٢) البحار ٧٣ : ٨١ ح٤٣.
(٣) الكافي ٥ : ٨٤ ح٥؛ عنه البحار ٢٢ : ١٣١ ح١١١.

أنّ رجلاً دخل بيتاً وطيّن عليه بابه، وقال رزقي ينزل عليّ أكان يكون هذا»[١].

ويمكن الجمع من هذه الأخبار أن يجعل الرزق علىٰ قسمين: أحدهما ما ليس للطلب والسعي فيه مدخليّة، والثاني ما لا يُنال إلّا بالطلب، فتحمل الأخبار منها على القسم الأوّل، والأدلّة الأخيرة على القسم الثاني.

ويشهد علىٰ هذا الجمع قول الصادق عليه السلام: «الرزق مقسوم علىٰ ضربين؛ أحدهما واصل إلىٰ صاحبه وإن لم يطلبه، والآخر معلّق بطلبه، فالذي قسم للعبد علىٰ كلّ حال آتيه وإن لم يسع له، والذي قسم له بالسعي فينبغي أن يلتمسه من وجوهه وهو ما أحلّه الله دون غيره، فإن طلبه من جهة الحرام فوجده حسب عليه برزقه وحوسب به»[٢].

الكسب من الحرام:

وأكثر الناس حرموا عن السعادة من أجل الكسب في المحرّمات، ومنعوا عن توفيق الوصول إلى الله بسببه.

ومن تأمّل يعلم أنّ أكل الحرام أعظم الحجب للعبد من نيل درجة الأبرار، وأقوى الموانع له عن الوصول إلىٰ عالم الأنوار، وهو الموجب لظلمة القلب وكدرته، والباعث لخبثه وغفلته، والعلّة العظمىٰ لخسران النفس وهلاكها، وهو السبب الأقوىٰ لضلالتها وخباثتها.

هو الذي أنساها عهود الحمى، وهو الذي أهواها في مهاوي الضلالة والردىٰ، وما للقلب المتكوّن من الحرام والاستعداد لفيوضات عالم القدس، وأنّىٰ للنطفة الحاصلة منه والوصول إلىٰ مراتب الأُنس، كيف يدخل النور والضياء في قلب أظلمته أدخنة المحرّمات، وكيف تحصل الطهارة والصفاء لنفس أخبثتها قذارة

---

(١) البحار ٨٩: ١٢٩.
(٢) الوسائل ١٢: ٢٩ ح ٩.

المشتبهات، ولأمر ما أصبحت أصحاب الشرع، وأُمناء الوحي محذرين عنه غاية التحذير، وزاجرين منه أشدّ الزجر.

قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله ملكاً علىٰ بيت المقدس، ينادي كلّ ليلة: من أكل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل»[١] ـ أي نافلة ولا فريضة ـ.

وقال ﷺ: «من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار»[٢].

وقال ﷺ: «كلّ لحم ينبت من حرام فالنار أولىٰ به»[٣].

وقال ﷺ: «من أصاب مالاً من مأثم، فوصل به رحماً، أو تصدّق به، أو أنفقه في سبيل الله جمع الله ذلك جمعاً ثمّ أدخله في النار»[٤].

وقال ﷺ: «إنّ أخوف ما أخاف علىٰ أُمّتي من بعدي هذه المكاسب الحرام، والشهوة الخفيفة، والزنا»[٥].

وقال: «من اكتسب مالاً من الحرام فإن تصدّق به لم يقبل منه، وإن تركه كان زاده إلى النار»[٦].

وقال ﷺ: «إذا كسب الرجل مالاً من غير حلّه ثمّ حجّ فلبّىٰ، نودي لا لبّيك ولا سعديك، وإن كان من حلّه نودي لبّيك وسعديك»[٧].

وقال ﷺ: «كسب الحرام يبين في الذرية»[٨].

وفي بعض الأخبار إنّ العبد يوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال، فيسأل عن ماله من أين كسبه، وفيما أنفقه، وعن رعاية عياله والقيام بحقّهنّ، حتّىٰ

(١) البحار ١٠٣: ١٦ ح٧٢.
(٢) عدّة الداعي: ٨٢؛ عنه البحار ١٠٣: ١٣ ح٦٣.
(٣) البحار ٦٦: ٣١٤ ح٧.
(٤) كنز العمال ٤: ١٥ ح٩٢٦٥.
(٥) البحار ٧٣: ١٥٨ ح٣.
(٦) مستدرك الوسائل ١٣: ٦٨ ح١٤٧٧٠.
(٧) الوسائل ١٢: ٥٩ ح٣.
(٨) الوسائل ١٢: ٥٣ ح٣.

تفني تلك المطالبات تمام أعماله، فلا يبقى له حسنة، فتنادي الملائكة: هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا، وارتهن اليوم بأعماله.

وورد أنّ أهل الرجل وأولاده يتعلّقون به يوم القيامة، فيوقفونه بين يدي الله تعالى، ويقولون: يا ربّنا خُذْ لنا بحقّنا منه فإنّه ما علّمنا ما نجهل، وكان يطعمنا من الحرام ونحن لا نعلم، فيقتصّ لهم منه.

فعليه ينبغي لطالب النجاة أن يفرّ من الحرام فراره من الأسد، ويحترز منه احترازه من الحيّة السوداء بل أشدّ، وأنّىٰ يمكنه ذلك في أمثال زماننا ونحن في سنة ١٣٧٨ من الهجرة الذي لم يبق فيه من الحلال إلّا الماء والكلاء النابت في أرض الموات، وما عداه قد أخبثته الأيدي العادية، وأفسدته المعاملات الفاسدة، ما من درهم إلّا وقد غصب من أهله مرّة بعد أولىٰ، وما من دينار إلّا وقد خرج من أيدي من أخذها قهراً كرّة غب أولىٰ.

وصفوة القول: الحلال يمكن أن نقول إنّه في زماننا مفقود، والسبيل دون الوصول إليه مسدود، ولعمري أنّ فقده آفة عمّ في الدين ضررها، ونار استطار في الخلق شررها، والظاهر انّ أكثر الأعصار كان حالها كذلك، ولذلك قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «المؤمن يأكل في الدنيا بمنزلة المضطرّ»(١).

وقال رجل للكاظم عليه السلام: أُدع الله عزّ وجلّ أن يرزقني الحلال، فقال عليه السلام: أتدري ما الحلال؟ قال: الكسب الطيّب، فقال: كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: الحلال قوت المصطفين، ولكن قل: اللّهمّ إنّي أسألك من رزقك الواسع ...(٢).

لابد من الاحتياط في الكسب:

ومع ذلك كلّه لا ينبغي للمؤمن أن ييأس من تحصيل الحلال، ويترك الفرق

(١) الوسائل ١٢: ٥٣ ح ٤.
(٢) الوسائل ٤: ١١٥٨ ح ٢.

والفصل بين الأموال، فإنّ الله سبحانه أجل وأعظم من أن يكلّف عباده بأكل الحلال، ويسدّ عنهم طرق تحصيله.

إنّ الأموال علىٰ أقسام ثلاثة: حلال بيّن، وحرام بيّن، وشبهات بينهما ولكلّ منها درجات، فإنّ الحرام وإن كان كلّه خبيثاً إلّا أنّ بعضه أخبث من بعض، فإنّ ما يأخذ بالمعاملة الفاسدة مع التراضي ليس في الحرمة كمال اليتيم الذي يؤخذ قهراً، وكذا الحلال وإن كان كلّه طيّباً إلّا أنّ بعضه أطيب من بعض، والشبهة كلّها مكروهة، ولكن بعضها أشدّ كراهةً من بعض.

وكما أنّ الطبيب يحكم علىٰ كلّ حلو بالحرارة، ولكن بعضه حار في الدرجة الأولى، وبعضه في الثانية، وبعضه في الثالثة، وبعضه في الرابعة. فكذلك الحرام بعضه خبيث في الدرجة الأُولىٰ، وبعضه في الثانية، وبعضه في الثالثة، وبعضه في الرابعة، وكذلك درجات الحلال في الصفاء والطيب، ودرجات الشبهة في الكراهة.

ثمّ الحرام إمّا يحرم بعينه كالكلب والخنزير والتراب وغيرها من المحرّمات العينية، أو لصفة حادثة فيه كالخمر لاسكاره، والطعام لسميته، أو لخلل في جهة إثبات اليد عليه، وله أقسام غير محصورة كالمأخوذ بالظلم والقهر، والغصب والسرقة، والخيانة في الأمانة وغيرها، والغش، والتلبيس، والرشوة، وبالبخس في الوزن والكيل، وبأخذ المعاملات الفاسدة من الربا والصرف والاحتكار، وغير ذلك ممّا هو مذكور في كتب الفقه.

وقد نهى الله سبحانه عن جميع ذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ [البقرة : ١٨٨]، وقوله: ﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ [النساء : ١٠].

مهما يكن الأمر ينبغي للإنسان أن يجعل رزقه من الطيب الذي أحلّه الله تعالى له.

قال رسول الله ﷺ في حجّة الوداع: «ألا أنّ الروح الأمين نفث في روعي، أن

لا تموت نفس حتىٰ تستكمل رزقها، فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب، وما يحملنّكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله، فإنّ الله تعالى قسم بين خلقه حلالاً ولم يقسّمها حراماً، فمن اتّقى الله وصبر أتاه رزقه من حلّه، ومن هتك حجاب ستر الله وأخذه من غير حلّه قصّ به من رزقه الحلال، وحوسب عليه يوم القيامة»[١].

جاء في المستطرف أنّه دخل عليّ بن أبي طالب ﷺ المسجد، فقال لرجل: امسك علىٰ بغلتي، فأخذ الرجل لجامها ومضىٰ وتركها، فخرج علي وفي يده درهمان ليكافي بهما الرجل علىٰ مسك البغلة، فوجدها بغير لجام فركبها ومضىٰ، ودفع لغلامه الدرهمين ليشتري بهما لجاماً، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين، فقال ﷺ: إنّ العبد ليحرم علىٰ نفسه الرزق الحلال بترك الصبر، ولا يزداد علىٰ ما قدّر له[٢].

الرزق بمقدار النفقة:

ورزق الإنسان من حيث القلّة والكثرة علىٰ قدر ما ينفقه، إن كثّر كثر عليه، وإن قلّل قلّل عليه، قال رسول الله ﷺ: «إنّ مفاتيح الرزق بازاء العرش، ينزل الله للعباد أرزاقهم علىٰ قدر نفقاتهم، فمن كثّر كثّر له، ومن قلّل قلّل له»[٣].

روى أبو حيّان، قال: رفع الواقدي إلى المأمون رقعة يذكر فيها غلبة الدين عليه وكثرة العيال وقلّة الصبر، فوقّع المأمون عليها: أنت رجل فيك خلّتان: السخاء والحياء، فأمّا السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك، وأمّا الحياء فهو الذي بلغ بك إلىٰ ما ذكرت، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم، فإن كنّا أصبنا إرادتك فازدد في بسط يدك، وإن كنّا لم نصب إرادتك فبجنايتك علىٰ نفسك.

---

(١) التمحيص: ٥٢ ح ١٠٠؛ عنه البحار ١٠٣: ٣٥ ح ٦٨.
(٢) المستطرف ١: ١٥٨ في القناعة والرضا بما قسّم الله تعالى.
(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ١١٤ باب ٣١.

وأنت كنت حدّثتني وأنت علىٰ قضاء الرشيد، عن محمّد بن إسحاق، عن الزهري، عن أنس بن مالك، انّ رسول الله ﷺ قال للزبير: يا زبير إنّ مفاتيح الرزق بازاء العرش ينزل الله تعالى للعباد أرزاقهم علىٰ قدر نفقاتهم، فمن كثر كثر له، ومن قلل قلل له.

فلسفة الإقتار في الرزق:

ومن ناحية أخرىٰ انّ الله سبحانه وتعالى يبتلي أنبياءه وأولياءه وعباده الصالحين بتقتير الرزق لوجوه من الحكمة، وضروب من المصلحة، اقتضت لعنايته سبحانه بهم، كما دلّ عليه صحيح الخبر ومستفيض الأثر.

منها: اكرامهم وصيانتهم عن الاشتغال بالدنيا وقيناتها، والتنعّم بطيباتها لما تقرّر من أنّ الدنيا والآخرة ضرتان بقدر ما يقرب من احداهما يبعد من الأُخرىٰ.

والأنبياء والأولياء ومن سلك سبيلهم، وإن كانوا أكمل الخلق نفوساً وأقواهم استعداداً لقبول الكمالات النفسانية، إلّا أنّهم محتاجون إلى الرياضات التامّة بالاعراض عن الدنيا وطيباتها، وهو الزهد الحقيقي، والى تطويع نفوسهم الأمارة لنفوسهم المطمئنّة بالعبادة التامّة، كما هو المشهور من أحوالهم صلوات الله عليهم أجمعين، فإنّ رسول الله ﷺ كان يربط علىٰ بطنه حجراً من الجوع، وكان يسمّيه بالشبع، والى ذلك أشار من قال:

وشدّ من سغب أحشاءه وطوىٰ   تحت الحجارة كشحاً مئزر الأدم

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «وأيم الله يميناً استثني فيها بمشية الله، لأروضنّ نفسي رياضة تهشّ معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً»(١).

وليس ذلك منهم عليهم السلام إلّا زهداً في الدنيا، وإعراضاً عن متاعها وزينتها، لما كان

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٤٥؛ عنه البحار ٤٠: ٣٤٢ ح٢٧.

ذلك شرطاً في بلوغهم درجات النبوّة والرسالة، ومراتب الوحي والولاية، فلو فتحت لهم أبواب الدنيا واشتغلوا بنعيمها، وانغمسوا في لذّاتها لانقطعوا عن حضرة جلال الله، وبعدوا عن ساحة القرب منه والوصول إليه.

ومنها: اعظام مثوباتهم على الصبر والقناعة، وظلف أنفسهم عن النزوع إلى الدنيا وشهواتها، لأنّه كلّما كانت المحنة أعظم كانت المثوبة عليها أجزل.

ومنها: ابتلاء المتكبّرين وأرباب الدنيا بهم، إذ لو وسّع الله عليهم أرزاقهم فاتّسعوا في القينات الدنيويّة من الكنوز والقناطير المقنطرة، من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة، والأنعام والحرث، لكانت طاعة الناس لهم أسرع، والانحياش إليهم أقرب.

كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبته القاصعة: «فإنّ الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم، ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه عليهما السلام علىٰ فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهم العصا، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزّه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العزّ وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر والذلّ، فهلّا ألقينا عليهما أساور من ذهب، اعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه، ولو أراد سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، ومعادن العقيان[1]، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طير السماء ووحوش الأرضين لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء»[2].

ومنها: ابتلاؤهم بالمتكبّرين والمكذّبين، لأنّهم لو كانوا على الحالة الموصوفة من الاتّساع في الدنيا لسقط بلاؤهم بالصبر علىٰ أذى المسكنة من المكذّبين لهم والمستخفّين بشأنهم، كما قال أهل مدين لشعيب عليه السلام: ﴿يا شعيب ما نفقه كثيراً ممّا

---

(١) العقيان: نوع من الذهب ينمو في معدنه.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢؛ عنه البحار ١١: ١٤١ ح ٩١.

تقول وإنّا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾ [هود: ٩١].

ومنها: تأسّي المسلمين واقتداء المؤمنين بهم ﷺ في العزوف عن الدنيا، والاعراض عن زخرفها وزبرجها، إذ كانوا هم القدوة للخلق ومحلّ الأُسوة لهم، كما قال أمير المؤمنين علي ﷺ:

«ولقد كان في رسول الله ﷺ كاف لك في الأُسوة، ودليل علىٰ ذمّ الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووطئت لغيره أكنافها، وفطم من رضاعها، وزوي عن زخارفها، وإن شئت ثنّيت بموسىٰ كليم الله ﷺ حيث يقول: ﴿ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ [القصص: ٢٤] ووالله ما سأله إلّا خبزاً ليأكله، لأنّه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترىٰ من شفيف صفاق بطنه لهزاله، وتشذّب لحمه.

وإن شئت ثلّثت بداود ﷺ صاحب المزامير، وقارئ أهل الجنّة، ولقد كان يعمل صفائف الخوص ويقول لجلسائه: أيّكم يكفيني بيعها، ويأكل قرص الشعير من ثمنها، وإن شئت قلت في عيسى بن مريم ﷺ، ولقد كان يتوسّد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشب، وكان أدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وصلاؤه في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانته ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذلّه، دابّته رجلاه، وخادمه يداه.

فتأسّ بنبيّك الأطهر ﷺ فإنّ فيه أُسوة حسنة لمن تأسّىٰ، وعزاً لمن تعزّىٰ، وأحبّ العباد إلى الله المتأسّي بنبيّه والمقتصّ لأثره، ـ إلىٰ أن قال ﷺ: ـ ولقد كان في رسول الله ﷺ ما يدلّك علىٰ مساوي الدنيا وعيوبها إذ جاع فيها مع خاصّته، وزويت عنه بزخارفها مع عظيم زلفته، فلينظر ناظر بعقله، أكرم الله محمّداً ﷺ بذلك أم أهانه، فإن قال أهانه فقد كذب والله العظيم، وإن قال أكرمه فليعلم أنّ الله سبحانه قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له وزواها عن أقرب الناس لله.

فتأسّىٰ متأسّ بنبيّه ﷺ، أو اقتفىٰ أثره وولج مولجه، وإلّا فلا يأمن الهلكة فإنّ الله جعل محمّداً ﷺ علماً للساعة، ومبشّراً بالجنّة، ونذيراً بالعقوبة، وخرج من الدنيا خميصاً، وورد الآخرة سليماً، لم يضع حجراً علىٰ حجر حتّىٰ مضىٰ لسبيله، وأجاب داعي ربّه، فما أعظم منّة الله علينا حين أنعم علينا به سلفاً نتّبعه، وقائداً نطأ عقبه، والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتّىٰ استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك، فقلت: أعزب عنّي فعند الصباح يحمد القوم السرى[1].

ومنها: ايثاره سبحانه لهم بالحضور في حضرته المقدّسة بالدعاء والابتهال، والتضرّع والسؤال، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الله يبتلي العبد وهو يحبّه ليسمع تضرّعه»[2].

وفي ذلك كان يقول بعض أرباب القلوب: «الدعاء يوجب الحضور، والعطاء يوجب الصرف، والمقام على الباب أشرف من الانصراف بالمبار»، وعلىٰ هذا ما روي عن النبي ﷺ من طريق العامّة والخاصة، إنّه قال: «عرض عليّ ربّي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا ربّ ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرّعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»[3].

* * *

عند الفقر والغنىٰ:

قوله عليه السلام: «مَا أَقْبَحَ ٱلْخُضُوعَ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ، وَٱلْجَفَاءَ عِنْدَ ٱلْغِنَىٰ!».

وإنّ للإنسان لكرامة ما أجملها لو أعطىٰ حقّها من العناية والاهتمام، وما أعزّ الإنسان لو كفّ عن السؤال، وما أحبّه إلى النفوس، وأعظمه في الأبصار لو غني وأثرى وهو باق علىٰ مراعاته حرمات الله، وهو لم يتغيّر عمّا كان عليه أوّلاً من

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٠؛ عنه البحار ١٦: ٢٨٤ ح١٣٦.
(٢) ارشاد القلوب: ١٤٨.
(٣) البحار ١٦: ٢٧٩ ح١١٨.

تواضع ولين.

ونحن نستطيع أن نرىٰ من كلام سيّدنا الإمام أشياء كثيرة، فالفقير غني إذا عفّ عن السؤال، والغنيّ فقير إذا ألحف في الطلب، وهو في غنى عمّا يطلب، الفقير عزيز إذا لم يمدّ يده إلىٰ من يحسن إليه، وهو ذليل إذا شره وطمع بما في أيدي الناس.

فعلى الإنسان أن يكون مثلاً رائعاً للإنسانية في فقره وغناه، فإن كان فقيراً فلا يخضع لأحد، وإن كان غنيّاً فلا يجفوا أحداً ممّن كانت تجمعه وإيّاه الصلات والأسباب.

ومن الشعر الجيّد في هذا المعنى قول من قال:

خلقان لا أرضاهما للفتىٰ ... تيه الغنى ومذلّة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطراً ... وإذا افتقرت فته على الدهر[١]

ولقد اجتمع علي أمير المؤمنين ﷺ مع الخضر ﷺ، فقال له علي: عظني، فقال الخضر: ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء شكراً لله، فقال علي: وأحسن من ذلك تعزّز الفقراء علىٰ الأغنياء ثقةً بالله[٢].

قال بعض الصحابة: ملعون من أكرم بالغني وأهان بالفقير.

وقال لقمان لابنه: لا تحقرنّ أحداً بخلقان ثيابه، فإنّ ربّك وربّه واحد[٣].

فضيلة الفقر:

لا شكّ أنّ الفقر بشروطه ـ أعني الرضا أو القناعة أو الصبر أو الصدق ـ أفضل من الغنىٰ، وممّا يدلّ علىٰ فضيلته قول الرسول ﷺ: «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم، فإن لم تفعلوا فلا ثواب لكم»[٤].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ١١٥ باب ٣١.
(٢) البحار ٣٩: ١٣٢ ضمن حديث ٤.
(٣) البحار ٧٢: ٤٦ ضمن حديث ٥٧.
(٤) الكافي ٢: ٢٦٣ ح ١٤؛ عنه البحار ٧٢: ١٧ ح١٦؛ والمحجة البيضاء ٧: ٣٢٥.

وقال ﷺ: «لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً»(١).

وقال ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة: من هم يا رب؟ فيقول: فقراء المسلمين القانعين بعطائي، الراضين بقدري، أُدخلوهم الجنّة، فيدخلونها ويأكلون ويشربون، والناس في الحساب يتردّدون»(٢).

أيّهما أفضل الفقر أم الغنىٰ:

لا ريب في أنّ الفقر مع الصبر والقناعة وقصد الفراغ أفضل من الغنى مع الحرص والامساك، كما لا ريب في أنّ الغنىٰ مع الانفاق وصدق الاستعانة على العبادة أفضل من الفقر مع الحرص والجزع، وإنّما وقع الشكّ في الترجيح بين الفقر والغنىٰ في مواضع:

الأوّل: الفقر مع الصبر والقناعة:

في الترجيح بين الفقر مع الصبر والقناعة، والغنىٰ مع الانفاق وقصد الاستعانة على العبادة، فقال قوم: إنّ الأوّل أفضل لما روي أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «أيّ الناس خير؟ فقالوا: مؤسر من المال يعطي حقّ الله تعالى من نفسه وماله، فقال ﷺ: نعم الرجل هذا وليس به المراد، قالوا: فمن خير الناس يا رسول الله؟ فقال: فقير يعطي جهده».

وما روي أنّ الفقراء بعثوا رسولاً إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: إنّي رسول الفقراء إليك، فقال ﷺ: مرحباً بك وبمن جئت من عندهم، جئت من عند قوم أحبّهم، فقال: قالوا: إنّ الأغنياء ذهبوا بالجنّة، يحجّون ولا نقدر عليه، ويعتمرون ولا نقدر

---

(١) المحجة البيضاء ٧: ٣٢٥.

(٢) المحجة البيضاء ٧: ٣٢٥.

عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم.

فقال النبي ﷺ: بلّغ عنّي الفقراء أنّ لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء، أما خصلة واحدة: فإنّ في الجنّة غرفاً ينظر إليها أهل الجنّة كما ينظر أهل الأرض الى نجوم السماء، لا يدخلها إلّا نبيّ فقير، أو شهيد فقير، أو مؤمن فقير، الثانية: يدخل الفقراء الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام، والثالثة: إذا قال الغني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغني بالفقير وإن أنفق فيها عشرة آلاف درهم، وكذلك أعمال البرّ كلّها، فرجع إليهم، فقالوا: رضينا[1].

وقال آخرون: الثاني أفضل لأنّ الغنىٰ من صفات الربوبية، والفقر من لوازم العبودية، ووصف الحقّ أفضل من وصف العبد.

وأُجيب عنه بأنّ غنى الواجب سبحانه ليس بالأسباب والأعراض، وغنى العبد بهما، إذ هو غني بوجود المال ومفتقر إلىٰ بقائه، فأنّىٰ يكون الغنىٰ الذي يتّصف العبد به من أوصاف الربوبيّة، نعم الغنا بمعنى الاستغناء من وجود المال وعدمه جميعاً بأن يستوي كلاهما عنده يشبه أوصاف الحقّ، إلّا أنّك قد عرفت أنّه نوع من الفقر، وبأنّ التكبّر من أوصاف الربوبية، فينبغي أن يكون أفضل من التواضع، مع أنّ الأمر ليس كذلك، بل الحقّ أنّ الأفضل للعبد صفات العبودية كالخوف والرجاء، إذ صفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها، ولذلك قال الله سبحانه: «العظمة ازاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمته»[2]، وعلىٰ هذا فالفقر أفضل من الغنىٰ.

والحقّ أنّ ترجيح واحد من صفات الربوبيّة وصفات العبوديّة علىٰ الآخر للعبد علىٰ الاطلاق غير صحيح، إذ كما ينتقض ترجيح الأُولىٰ على الثانية بالتكبّر ينتقض العكس بالعلم والمعرفة، والجهل والغفلة، فإنّ العلم من صفات الربوبية،

---

(١) البحار ٧٢: ٤٨ ح٥٨.

(٢) راجع البحار ٧٣: ١٩٥.

والجهل من صفات العبودية مع أنّ الأوّل أفضل من الثاني ضرورة.

والحقّ أنّ الأفضل من الفقر والغنىٰ ما لا يشغل العبد عن الله، فإن كان الفقر يشغله فالغنىٰ أولىٰ به، وإن كان الغنىٰ يشغله عن الله فالفقر أولىٰ به، وذلك لأنّ الغنىٰ ليس محذوراً بعينه، بل لكونه عائقاًعن الوصول إلى الله، والفقر ليس مطلوباً لذاته، بل لعدم كونه عائقاً عن الله.

وليس مانعيّة الأوّل وعدم مانعيّة الثاني كلياً، إذ رُبَّ فقير يشغله الفقر عن المقصد، وكم من غني لا يصرفه الغنىٰ عنه، إذ الشاغل ليس إلّا حبّ الدنيا لمضادته حبّ الله تعالى، والمحبّ للشيء مشغول به سواء كان في وصاله أو في فراقه، فاذن فضل الفقير والغني بحسب تعلّق قلبهما بالمال وجوداً وعدماً، فإن تساويا فيه تساوت درجتهما، وإن تفاوتا فيه فأيّهما أقلّ تعلّقاً درجته أعلىٰ وأفضل، بل مع وجود تعلّق لهما وتساويهما فيه يكون وجود قدر الحاجة من المال أفضل من فقده، إذ الجايع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة والطاعة، ومع عدم تعلّق قلبهما أصلاً بحيث يستوي عندهما وجود المال وعدمه، وكان المال عندهما كهواء الجوّ ومدّ البحر.

وبالجملة إذا حصلت لهما المرتبة الأخيرة من الفقر ـ أعني الاستغناء والرضا ـ كان الواجد أفضل من الفاقد لاستوائهما في عدم الالتفات إليه، ومزية الواجد باستفادة أدعية الفقراء والمساكين.

ثمّ الحكم بانقطاع القلب رأساً عن المال وجوداً وعدماً إنّما يتصوّر في الشاذّ النادر الذي لا يسمح الدهر بمثله إلّا بعد أزمنة متطاولة، وقلوب جلّ الناس غير خالية عن حبّ المال والتعلّق به، فتفصيل القول بأفضليّة من هو أقلّ تعلّقاً بالمال، واستواء درجتهما مع استوائهما في التعلّق، ومزيّة الواجد على الفاقد مع انقطاع قلبهما بالكلية عنه، مزلّة الأقدام وموضع الغرور.

إذ الغني ربّما يظنّ أنّه منقطع القلب عن المال، ويكون حبّه دفيناً في باطنه وهو

لا يشعر به إلّا إذا فقده، فما عدا الأنبياء والأولياء وشرذمة قليلة من أكابر الأتقياء، لو ظنّوا انقطاعهم عن الدنيا إذا جرّبوا أنفسهم باخراج المال من أيديهم، يظهر لهم أنّهم مغرورون، وليس لهم تمام الانقطاع عن الدنيا.

وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً، فليطلق القول بأنّ الفقر أصلح لكافة الناس وأفضل، لأنّه عن الخطر أبعد إذ فتنة السراء من فتنة الضراء أشدّ، وعلاقة الفقر وأُنسه بالدنيا غالباً أضعف، وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب أذكاره وعباداته، إذ حركات اللسان والجوارح ليست مرادة لأعيانها، بل ليتأكّد بها الأُنس بالمذكور، وتأثيرها في إثارة الأُنس في قلب فارغ عن غير المذكور أشدّ من تأثيرها في قلب مشغول، ولهذا وردت الأخبار مطلقة في فضل الفقر على الغنىٰ، وفي فضل الفقراء علىٰ الأغنياء.

الثاني: الفقر مع الجزع:

في الترجيح بين الفقر مع الحرص والجزع، والغنىٰ مع الحرص والامساك، والتحقيق فيه: أنّ مطلوب الفقير إن كان ما لابدّ منه في المعيشة، وكان حرصه في تحصيل هذا القدر دون الزائد منه، وكان قصده الاستعانة به على الدين، وكذا حرص الغني وامساكه في هذا القدر بهذا القصد فحال الوجود أفضل، لأنّ الفقد يصدّه عن أُمور الدين لاضطراره في طلب القوت، وهو أولىٰ بالتفضيل إذا كان قصد الغني ذلك، وكان مطلوب الفقير فوق الحاجة أو قدر الحاجة بدون قصد الاستعانة به إلىٰ أمر الدين.

وإن كان مطلوب كلّ منها فوق الحاجة، أو لم يكن قصدها الاستعانة به علىٰ أمر الدين، فالفقد أصلح وأفضل لأنّهما استويا في الحرص وحبّ المال، وفي عدم قصد الاستعانة به على الدين، لكنّهما افترقا في أنّ الواجد يتأكّد حبّ الدنيا في قلبه، ويطمئنّ إليها لأُنسه بها، والفاقد يتجافىٰ قلبه عنها اضطراراً، وتكون الدنيا عنده

كالسجن الذي يطلب الخلاص منه، وهو أولىٰ وأحرىٰ بالتفضيل إذا كان قصد الفقير ذلك، وكان قصد الغني فوق الحاجة أو قدر الحاجة بدون الاستعانة به علىٰ أمر الدين.

الثالث: الفقر مع التكالب علىٰ الدنيا:

في الترجيح بين فقير حريص متكالب على الدنيا ليس له همّ سواه، وغني هو دونه في الحرص علىٰ حفظ المال، وتفجّعه بفقد المال لو فقده أقلّ من تفجّع الفقير بفقده، والظاهر حينئذٍ كون الفقير أسوء حالاً، إذ البعد عن الله بقدر قوّة التفجّع بفقد المال، والقرب بقدر ضعف التفجّع به.

ماذا يجب على الفقير:

وينبغي للفقير أن لا يكون كارهاً للفقر من حيث أنّه فعل الله، ومن حيث أنّه فقر، بل يكون راضياً به طالباً له فرحاناً به، لعلمه بغوائل الغنىٰ. وأن يكون متوكّلاً في باطنه على الله، واثقاً به في اتيان قدر ضرورته، ويكون قانعاً به كارهاً للزيادة عليه، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلىٰ ما في أيديهم، وغير حريص علىٰ اكتساب المال كيف كان، وأن يكون صابراً شاكراً علىٰ فقره.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إنّ لله عقوبات بالفقر فمن علامته إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه، ويطيع به ربّه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله على فقره، ومن علامته إذا كان عقوبة أن يسيء عليه خلقه، ويعصي به ربّه، ويكثر الشكاية، ويسخط بالقضاء»[1].

وهذا يدلّ علىٰ أنّ كلّ فقير ليس مثاباً علىٰ فقره بل يرضىٰ بفقره ويفرج به ويقنع بالكفاف ويقصر الأمل، وإن لم يرض به، وتشرّف به إلى الكثرة وطول

---

(١) المحجة البيضاء ٧: ٣٣١.

الأمل، وفاته عزّ القناعة، وتدنّس بذلّ الحرص والطمع، وجرّه الحرص والطمع إلىٰ مساوي الأخلاق وارتكاب النكرات الخارقة للمروات، حبط أجره وكان آثماً قلبه.

وينبغي أن يظهر التعفّف ويستر الفقر، وأن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم، ولا يتواضع لهم لأجل غناهم، بل يتكبّر عليهم، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله»(١).

وأن لا يسكت عن ذكر الحقّ مداهنةً للأغنياء وطمعاً لما في أيديهم، ولا يفتر بسبب فقره عن عبادة الله، ويبذل قليل ما يفضل عنه، فإنّ ذلك جهد المقل، وفضله أكثر من أموال كثيرة يبذلها الغني.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف دينار، قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف دينار يتصدّق بها، وأخرج رجل درهماً من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه، فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب مائة ألف دينار»(٢).

وينبغي أن لا يدّخر أزيد من قدر الحاجة، فإن لم يدّخر أكثر من قوت يومه وليلته فهو من الصديقين، وإن لم يدّخر أكثر من قوت أربعين يوماً كان من المتّقين، وإن لم يدّخر أكثر من قوت سنة وهو الفصل المشترك بين الفقر والغنى كان من الصالحين، ولو زاد عليه خرج عن زمرة الفقراء، وأفضل من هذا كلّه الصبر على الفقر والقناعة بما قسم الله.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «طوبىٰ للمساكين بالصبر، وهم الذين يرون ملكوت السماوات والأرض»(٣).

---

(١) البحار ٧٥: ١٢٣ ح٢١، والمحجة البيضاء ٧: ٣٣١.
(٢) المحجة البيضاء ٧: ٣٣١.
(٣) الكافي ٢: ٢٦٣ ح١٣؛ عنه البحار ٧٢: ١٥ ح١٥.

ويقول ﷺ: «من جاع أو احتاج فكتمه عن الناس وأفشا إلى الله تعالى، كان حقّاً على الله أن يرزقه رزقاً من الحلال»(١).

ويقول ﷺ: «إنّ لكلّ شيء مفتاحاً، ومفتاح الجنّة حبّ المساكين والفقراء لصبرهم، هم جلساء الله يوم القيامة»(٢).

وروي أنّ الله تعالى أوحىٰ إلىٰ إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون(٣).

ومن دعاء زين العابدين عليّ بن الحسين ـ صلوات الله عليه ـ وهو من أدعية الصحيفة: «اللّهمّ حبّب إليّ صحبة الفقراء، وأعنّي علىٰ صحبتهم بحسن الصبر».

لمّا كانت النفوس البشرية مجبولة علىٰ بغض الفقر وكراهيّته، نافرة عن صحبة الفقراء ومعاشرتهم، سأل عليه السلام ربّه أن يحبّب إليه صحبتهم، بأن يجعلها ملائمة لقلبه ليكون مائلاً إليها، إذ كانت المحبّة ميل القلب إلىٰ ما يلائمه، وذلك لما في صحبتهم من رياضة النفس وتحليتها بالتواضع والتذلّل، والتأسّي بهم في القناعة باليسير من حطام الدنيا، والرضا بالقليل من متاعها، وصيانة النفس عن الانهماك في شهواتها ولذّاتها، وترك طلب المنزلة والجاه والكرامة فيها.

وقلّة الحرص علىٰ طلب الحاجات والأوطار منها، وترك الخلطة مع أبناء الدنيا الراغبين فيها، والتفرّد في الخلوات، وكثرة ذكر الموت، وفناء نعيم الدنيا وزوال ملكها، والنظر إلىٰ آثار القرون الماضية، والاعتبار بها وبالمباني الخربة، والمنازل الدارسة، والمعالم العافية للأُمم الخالية، لنزولهم بها غالباً، واعتباراتهم تصاريف الزمان ونوائب الحدثان، واليقين بأمر المعاد، وشدّة الشوق إلىٰ نعيم دار القرار مع الأبرار من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً.

---

(١) جامع الأخبار: ٣٠٢ ح٨٢٤؛ عنه البحار ٧٢: ٤٩ ح٥٨.

(٢) المحجة البيضاء ٧: ٣٢٥.

(٣) المحجة البيضاء ٧: ٣٢٥.

ولذلك أمر الله سبحانه حبيبه المختار من خيار خلقه بصبر نفسه معهم، وحبسها علىٰ صحبتهم ومجالستهم، فقال في محكم كتابه: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ [الكهف:٢٨].

قال المفسّرون: المراد بهم فقراء المؤمنين مثل عمّار، وخباب، وسلمان، وأبي ذر، وغيرهم، وقيل: أصحاب الصفّة وكانوا نحو سبعمائة رجل، قيل: إنّه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله ﷺ: نحّ هؤلاء الموالي الذين كان ريحهم ريح الضان حتّىٰ نجالسك، كما قال قوم نوح ﷺ: ﴿أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون﴾ [الشعراء : ١١١] فنزلت الآية.

وروي عن سلمان، وخباب قالا: جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن الحصن الفزاري، وعبّاس بن مرداس، وذووهم من المؤلفة قلوبهم، فوجدوا النبي ﷺ جالساً مع ناس من ضعفاء المؤمنين، فلمّا رأوهم حوله حقّروهم، فأتوه فقالوا: يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس، ونفيت عنّا هؤلاء وأرياح جبابهم ـ وكانت عليهم جباب من صوف ـ جالسناك وحادثناك وأخذنا عنك.

فقال ﷺ: ما أنا بطارد المؤمنين، قالوا: فإنّا نحبّ أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا فيه العرب فضلنا، فإنّ وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هؤلاء الأعبد ـ يعنون فقراء المسلمين ـ فإذا نحن جئناك فأقمهم عنّا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: فاكتب لنا بذلك كتاباً، فدعا ﷺ بالصحيفة وبعلي ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبرئيل ﷺ بقوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ﴾ [الأنعام : ٥٢] إلىٰ آخر الآية.

فرمىٰ ﷺ بالصحيفة ودعانا فأتيناه وجلسنا عنده، وكنّا ندنو منه حتّىٰ تمسّ ركبتنا ركبته، وكان يقوم عنّا إذا أراد القيام، فنزلت: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربّهم﴾ [الكهف : ٢٨] الآية، فترك القيام عنّا إلىٰ أن نقوم عنه، وقال: الحمد

لله الذي لم يمتني حتّىٰ أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أُمّتي، معكم الحياة، ومعكم المات(١).

وفي حديث ليلة المعراج: يا أحمد انّ المحبّة لله هي المحبّة للفقراء والتقرّب إليهم، قال: يا ربّ ومن الفقراء؟ قال: الذين رضوا بالقليل، وصبروا على الجوع، وشكروا على الرخاء، ولم يشكوا جوعهم ولا ظمأهم، ولم يكذبوا بألسنتهم، ولم يغضبوا علىٰ ربّهم، ولم يغتمّوا علىٰ ما فاتهم، ولم يفرحوا بما أتاهم(٢).

* * *

النافع من الدنيا:

قوله عليه السلام: «إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً ...».

قد علم أنّ الإنسان مهما أنفق وأسرف في الانفاق، ومهما أعطىٰ وبذل فلن يعدو ذلك مقداراً معيّناً، ولن يتجاوز حدّاً محدوداً، فما باله يسعىٰ ويغلو في السعي وراء المزيد من الرزق، وإنّ في ماله لما يضمن له السعادة والراحة والطمأنينة ما عمر من السنين.

أو ما علم بأنّه لو اكتفىٰ بما لديه لأراح نفسه من عناء كثير، أولست ترىٰ أنت في هذا الساعي وراء ما لم يقدر له ساعياً بلا أُجرة، وعاملاً بلا نفع، أو ما علم بأنّ ما يجمعه الآن ممّا يفوق حاجته، ويفيض علىٰ مطالبه، سيبقىٰ غداً ليهنأ به غيره ممّن لم يذق في سبيل جمعه عناءً كثيراً ولا قليلاً.

وقد ترى البعض يأسىٰ علىٰ ما فاته من رزق وقع في يده، فليس أساه هذا إلّا عبثاً، وما أسفه إلّا سفه وضلال، فلم الأسىٰ والأسف، ولم هذا الجزع الذي نراه عند بعضهم، وإنّ رزقاً لم يكن يكتب له قد وقع في يده عفواً، أفما آن له أن يعرف بأنّ ما

---

(١) البحار ٢٢: ٣٢.

(٢) البحار ٧٧: ٢٣ ضمن حديث ٦.

قدّر كان، فإن كان له بلغه حيثما أقام، وإلّا فما يصرف من جهد وما يبذل من جهود، ليس إلّا سبب في إبعاد ما ليس له وإقصائه عنه، ولم هذا الجزع وأحرىٰ به أن يجزع علىٰ ما لم يصل إليه، أوليس جديراً به أن يجزع علىٰ ما لم ينل من نعيم الدنيا، وعلىٰ ما لم يصب من ملذّاتها.

قصة الصياد والقنبرة:

روي أنّ رجلاً من بني إسرائيل صاد قنبرة فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك فآكلك، قالت: والله ما أشفي من برم، ولا أغني من جوع ولكنّي أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي؛ أمّا الواحدة فأُعلمكها وأنا في يدك، والثانية إذا صرت علىٰ هذه الشجرة، والثالثة إذا صرت على الجبل.

فقال: هات، قالت: لا تلهفنّ علىٰ ما فاتك، فخلّىٰ عنها، فلمّا صارت فوق الشجرة قال: هات الثانية، قالت: لا تصدقنّ بما لا يكون أنّه يكون، ثمّ طارت فصارت علىٰ الجبل، فقالت: يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درّة فيها زنة عشرين مثقالاً.

فلمّا سمع عضّ علىٰ شفتيه وتلهّف، ثمّ قال: هات الثالثة، قالت له: أنت قد نسيت الاثنتين فكيف أعلّمك الثالثة، ألم أقل لك لا تلهفنّ علىٰ ما فاتك فقد تلهّفت عليّ إذ فتّك، وقلت لك لا تصدّقنّ بما لا يكون أنّه يكون فصدّقت، أنا وعظمي وريشي لا أزن عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلتي ما يزنها(١).

فالغرض جزع الرجل علىٰ ما فاته أشدّ الجزع، وتلهّف عليها غاية التلهّف.

وإذا أردت أن تلهم نفسك علماً غيبياً بما سيكون بعدك من تقلّبات الزمن وتصرّفات الدهر، فلست بحاجة إلىٰ أعمال فكر وعقل، وإنّما تكفيك نظرة واحدة فيما صار وحدث بعد من أكل الدهر عليهم وشرب، أو أن تنظر في حالك هذه وفي

(١) احياء العلوم ٣: ٢٢٧؛ والمحجة البيضاء ٦: ٥٣.

وقتك الذي تعيش فيه فتقيس غيره عليه، فالزمان لحظات متساوية متكافئة تتّصف كلّها بصفة واحدة، وتتّسم كلّها بطابع زمن واحد.

ونرى الإمام عليه السلام يوصي ابنه بما يأتي: «وكن إنساناً كما خلقك الله إنساناً، وإنّ الله لم يخلقك عبداً بل خلقك حرّاً، فلا تكوننّ عبداً لغيرك وقد خلقك الله حرّاً، فلا تخرج من فطرتك ولا تخالف ما جبلت عليه، ولا تكوننّ ممّن لا تنفعه العظة إلّا إذا بالغت في ايلامه، فإنّ ذلك من خلال البهائم»(١).

وما من بهيمة إلّا ما لا تتّعظ إلّا بضرب مبرّح وايلام شديد، فأمّا أنت وقد وهبك الله عقلاً وقلباً، وأودع في عقلك وقلبك حكمة وعلماً ونوراً، أفيصحّ لك أن تكون علىٰ ما كان عليه غيرك ممّا هو دونك منزلة، العاقل يتّعظ بالآداب، والبهائم هي التي لا تعرف من الآداب شيئاً، وإنّما هي تتّعظ وتنصاع وتنقاد بالضرب، فالى العزّة يا بني، والى الحريّة، والى الشعور المرهف، الحرية تستدعيك إليها فلبّ طلبها، واتّعظ بكلّ ما توعظ به لأنّ الحرّ تكفيه الاشارة.

الحرّية في المفهوم الإسلامي:

تقوم في هذه الأيّام ضجّة حول التمسّك بالحرية وترك ما عداها، ويا ليتها الحرية العفيفة الفاضلة، ولكنّها الحرية التي تطلقها أو تدعيها مدنيّة الدول الكافرة والمشركة والملحدة، هذه الحرية التي تقضي بأن يختفي الإسلام ويضيع بين أهله، وتنهدر كرامة بنيه، وعزّة شبابه، وعرض نسائه.

الحرية التي تجعل الإنسان ينطلق بغرائزه مفضلاً نفسه على الغير، وباحثاً عن منفعته الخاصة دون التفات إلىٰ وجود غيره.

الحرية التي تجعل الشاب يشبع غرائزه من أعراض الآخرين.

الحرية التي تملأ البطون من موائد الغصب والنصب والتزوير والرشوة.

---

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٣١.

الحرية التي تفرض الزعامات على الناس للعبث والافساد باسم الدين أو الوطنيّة.

الحرية التي يتسرّع بها الإنسان دون تدبّر أو إدراك للحسن والقبيح، والصالح والفاسد، وفي جوّ من التهاون، فيرتكب الجرائم والأحداث.

الحرية التي لا تقبل النصيحة، وترفض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلّ يقول ... : «أنا حر».

الحرية التي تقوم الحروب لحمايتها، واستعمرت الأراضي الإسلامية باسمها.

اليهود أحرار فيما يفعلون، والانكليز أحرار فيما يصنعون، والشعوب حرّة في هوها .. الوجود كلّه حرّ .. .

إلّا الدين، هو الذي ليس له الحقّ في الحرية.

يجب أن يحيا في سجن من الصوامع والأضرحة، ليس للدين أن يدخل على الحاكم ويحاسبه، وعلى التاجر، ولا الموظّف، ولا القاضي، ولا الطوائف والهيئات، كلّهم أحرار، إنّها الفوضىٰ.

ليست هذه هي الحرية.

إذا أراد المسلمون استرداد سالف عظمتهم، فعليهم بالأخذ بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، والعمل بكلّ ما أمر به الإسلام جملة.

يجب أن تقلم أظفار هذا العقل الطائش، وأن ترغمه على الرجوع في تفكيره إلىٰ كتاب الله وسنّة الإنسان الكامل ﷺ.

﴿يا أيّها الناس قد جاءكم برهان من ربّكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً ● فأمّا الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ [النساء : ١٧٤-١٧٥].

واصبر نفسك مع الذين صبروا، ولا تلعب بك الهموم كلّ ملعب، واطرح عنك

واردات الهموم، وكلّ ما تجلبه من يأس وابتئاس، ادفع كلّ هذا بحسن اليقين، وكرم العزاء، وعزائم الصبر، فإنّك بالهموم لا تستردّ فائتاً ولا تـنني حـاضراً، وإنّمـا هـو القضاء والقدر عجلة تدور حولها، أو هي تدور حولنا، فإن شئت أن تعمل شيئاً فاعمل ولا تجبن فلن يجنبك الجبن موتاً، ولا تغرق فلن يمنحك الغرق خلوداً.

وكن معتدلاً في كلّ أُمورك فلا تتطرّف، بل قف على النقطة التي لا تميل إلىٰ يمين ولا إلىٰ شمال، لأنّ التوسّط خير، ولأنّ خير الأُمور أوسـطها، ولأنّ التـطرّف شرّ فلنصرف عنّا هذا الشرّ، أو فلننصرف عنه إلىٰ سواه من أعمال الخير.

واعلم أنّ الصاحب جناح يطير به الإنسان كما يطير الطير بجناحيه، وما خير طير مهيض، وارع حقّ الصديق فـإنّ في رعـايته احـتفاظاً عـليه واسـتبقاءً له، والصديق من صدّق غيبه، أي من كان عندك كما لو كان عند غيرك، لا يمدحك في حضورك بسبب حضورك، ولا يوقع بك فيما إذا غبت عنه، بل هو يذكرك بخير أو غيره في الحضور وفي الغياب.

القريب والبعيد:

«وربّ قريب أبعد من بعيد، وربّ بعيد أقرب من قريب»، فأنت إذا غبت عن صديق لك وفيّ، لا يخلفك ولا يـضمر لك شرّاً، وإنّمـا يخـلصك الأُخـوّة ويـنحك النصيحة، إنّك إن فارقته كنت أقرب إليه من قريبه الذي بينه وبينه عداء بـغيض، فالقلوب متآلفة، والأرواح متناغمة منسجمة، وهل رأيت أحداً أقـرب إلى الدار من الميت المقبور فيها، ولكنّه مع ذلك بعيد عنها البعد كلّه، فهو في عالم آخـر ليس بينه وبين عالمنا هذا شبه من قريب أو بعيد.

وإذا أردت أن تسمع حقّاً فاسمـع لي، ليس الغريب من بعدت به الأرض عن أهله وذويه، وليس الغريب من اشتطّت به نوىً بعيدة، وإنّما الغريب من بَعُدَ عـن حبيب، أو فقد حبيباً وإن كان ذا مال وافر وأقرباء كثيرين.

أقوى الأسباب:

واعلم أنّه لابدّ لكلّ إنسان من سبب يتمسّك به، وإنّ من الأسباب لما هو ضعيف نحيل لا يكاد يستمسك بالذي يتشبّث به، ومنها ما هو قوي كلّ القوّة، وإنّ أوثق سبب يمكن التمسّك به هو السبب الذي يربط بينك وبين الله، وإنّ أوثق قرابة يمكنك الظفر بها هي القرابة والصلة التي تحدثها بينك وبين الله.

الصديق الحقيقي:

وإنّما محبّك وصديقك من حفل بك وعنى بأمرك، أمّا إن لم يكن من ذلك في شيء فهو عدوّ بغيض، فمن أصبح ولم يكن من أمر المسلمين في شيء فليس منهم.

وإن كنت والياً فارفق برعيّتك، ولاينهم باللطف والعدل وسامحهم، والزم جانب العفو في أكثر الأحيان، فأنت تطلب من الله دائماً أن يعفو عنك، فكن للناس كما تريد من الله أن يكون لك.

اليأس والطمع:

ايئس وابتئس وأنت في ضيق وعوز وحاجة، فإنّ ذلك لخير لك من أن تطمع؛ لأنّ الطمع مهلكة للإنسان، والطمع والجشع مطيّة من مطايا الموت، وأمّا اليأس والفقر فهو حياة ليس فيها احتمال هلاك أو موت، إن كان في الطمع هلاك وموت فليكوننّ في اليأس والحرمان إدراكاً وظفراً، وأي عقل لا يرجح الظفر والادراك على الهلاك والموت.

وليس كلّ بصير مصيب، فقد يصيب وقد تزلّ به القدم فيخطئ، وليس كلّ أعمى مخطئ فقد يصيب وقد لا يصيب، وإن أردت أن تستفيد مثل ما تستفيده من العاقل الذي تصاحبه. فاقطع الجاهل قطيعة لا رجعة لك بعدها أبداً، لأنّ الجاهل يضيع عليك كثيراً ممّا تتعلّمه من العاقل، فلذلك تعدل قطيعة الجاهل صلة العاقل.

والزمان غادر ماكر كأعظم ما يكون الغدر والمكر، فمن أمن مكره واستراح إلىٰ مكره فهو المغدور المغلوب علىٰ أمره، لأنّ من ظنّ بالزمان خيراً كذب ظنّه، ومن أمنه خانه، ومن استراح إليه جرعه الغصص، ومن أعظمه وأكبره أهانه، وقد قيل: «من هاب شيئاً فقد سلّطه علىٰ نفسه»، فمن كان في نفسه ضعف وخور فأعظم الدنيا وأكبر من شأنها فقد جعل للزمان علىٰ نفسه سبيلاً.

وليس كلّ من رمى السهم عن القوس قاصداً المرمى أصابه؛ لأنّه لم يضمن له ذلك، ومتىٰ كان الجادّ الكادح محصلاً للرزق دائماً فقد يكتب له الرزق فيصيبه بكدّ أو بغير كدّ وقد لا يكتب له، فلو قلب سماء علىٰ أرض علىٰ أن يستجلب ما لم يكن له من الرزق لم يكن له ذلك بحال من الأحوال، ومن يستطيع أن يتحدّى القدر المكتوب، والقضاء الذي لا يردّ ولا يبدّل.

وبتغيّر السلطان يتغيّر الزمان، إذ ليس شيء أعظم ضرراً على الرعية من تبدّل رأي السلطان، وعدوله عن العدل الى الظلم، وعن مراعاة الحقوق إلىٰ إضاعتها، وقد عرف أنّ انقطاع الغيث، وانتشار الأوباء لا تبلغ من تغيير صفحة التاريخ إلىٰ مثل ما يبلغه تغيّر السلطان، وانقلابه على السيرة الصالحة الحميدة.

جاء في كتب الفرس أنّ أنوشروان جمع عمّال السواد وبيده درّة يقلّبها، فقال: أيّ شيء أضرّ بارتفاع السواد وأدعىٰ إلىٰ محقه، أيّكم قال ما في نفسي جعلت هذه الدرّة في فيه، فقال بعضهم: الجراد، وقال بعضهم: انقطاع الشرب، وقال بعضهم: احتباس المطر، وقال بعضهم: استيلاء الجنوب وعدم الشمال.

فقال لوزيره: قل أنت فإنّي أظنّ عقلك يعادل عقول الرعية كلّها أو يزيد عليها، قال: تغيّر رأي السلطان في رعيّته، وإضمار الحيف لهم والجور عليهم، فقال: لله أبوك بهذا العقل، أهّلك آبائي وأجدادي لما أهلوك له، ودفع له الدرّة فجعلها في فيه[1].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ١٢١ باب ٣١.

وإيّاك أن تسير وحدك إلىٰ غاية بعيدة، فإنّ الوحشة تسري إلىٰ قلبك فتميته، فاستصحب معك رفيقاً وصديقاً يؤنسك من وحشتك، ويعينك علىٰ أمرك، فإذا أزمعت السفر فاختر الرفيق المواسي قبل أن تلج في الطريق.

الجار قبل الدار:

وإذا أردت داراً فسل عن جوارها، فليس شيء أصعب على الإنسان من جار السوء، فإنّ مجاورته تعدل مجاورة كلاب ناهشة، وسباع ضارية، وهل يأمن الإنسان علىٰ نفسه يوماً من مجاورة هذه الكلاب والسباع، كلّا.

أجل جار السوء أفعىٰ سامّة شديدة السمّ، فإذا أردت داراً فسل عن الجار قبل أن تأخذ مكانك منها، فتقع في مأرب لا خلاص لك منه.

الكلام المضحك:

قوله ﷺ: «إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً، وَإِنْ حَكَيْتَ ذٰلِكَ عَنْ غَيْرِكَ».

نهى الإمام ولده عن ذلك لما تشتمل عليه تلك الخلّة من المساوئ والعواقب غير الحسنة، فمن نتائجها أنّها تحطّ المرء في الأعين، فبعد أن كان الإنسان محترماً وكان له مقامه المرموق، تراه إذا ما تفوّه بكلمة يستخفّ بها يهوي من شرفة العزّة والشرف إلى الهاوية السحيقة من الذلّ والاحتقار والسقوط، وأكثر ما في هذا أنّه يسلب ثقة الناس واطمئنانهم تجاه كلّ ما يقوله فيما بعد، فتمثّل تلك القولة الأُولىٰ حدّاً فاصلاً بين ثقة الناس وتصديقهم إيّاه، وبين سلب تلك الثقة وزوال ذلك التصديق.

والإمام ﷺ يربأ بولده أن يكون حاله كهذه التي وصفناها لك، كيف وهو الذي سيكون من بعده محطّ أنظار أصحابه وتابعيه، وهو الذي سيكون مرجعاً في الأحكام الشرعية، ومنبعاً لمختلف العلوم، وهو الذي ستعيّنه القدرة الإلهية منصباً

سامياً ـ هو منصب الخلافة ـ.

وما تقدّم كلّه مضاف إلىٰ أنّ ذكر ما يؤدّي إلى الخفّة ليس من صفات أهل الشرف والمقام الجليل والمكانة السامية، وليس هذا شأنهم، وإنّما هو شأن أُناس عجزوا عن التفوّه بالحقائق العلمية الراهنة فعمدوا إلىٰ تعويضها بالسفاسف والمضحكات، أو قل إنّهم عجزوا عن الوقوف أمام تلك الحقائق إلّا عن طريق ضدّها والحدّ منها بواسطة الاكثار من الهزليات والأباطيل.

وما يقال في ذكر المضحك من الكلام إن كان من الإنسان نفسه فيشمله الحديث: «ويل للذي يحدّث فيكذب ليضحك القوم ويل له، ثمّ ويل له»[1].

وإن كان حكاية عن الغير فهو وإن لم يبلغ في الشدّة ما يبلغه الأوّل إلّا أنّه يقاربه من جهات عديدة، وقد قيل قديماً: «الناقل للقول ليس كقائله»، أو «الناقل للكفر ليس بكافر».

---

(١) البحار ٧٢: ٢٣٥ ح ٢.

الفصل العشرون
العلاقة مع المرأة

«وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَىٰ أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَىٰ وَهْنٍ.
وَٱكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ ٱلْحِجَابِ أَبْقَىٰ عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ.
وَلَا تُمَلِّكِ ٱلْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ، وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا.
وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذٰلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَىٰ السُّقْمِ، وَٱلْبَرِيئَةَ إِلَىٰ الرِّيَبِ.
وَٱجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَىٰ أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ.
وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ. إِسْتَوْدِعِ ٱللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَٱسْأَلْهُ خَيْرَ ٱلْقَضَاءِ لَكَ فِي ٱلْعَاجِلَةِ وَٱلْآجِلَةِ، وَالدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ، وَالسَّلَامُ».

التشاور مع النساء:

قوله ﷺ: «وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَىٰ أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَىٰ وَهْنٍ. وَٱكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ ٱلْحِجَابِ أَبْقَىٰ عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ».

نرى الإمام ﷺ يستمرّ في إلقاء وصاياه وعظاته البالغة علىٰ ولده المجتبىٰ ﷺ، فينهاه عن ذكر ما يزري بالإنسان من صنوف الكلام، ثمّ يعرّض على النساء ومشاورتهنّ، فيظهر حقيقة المرأة بأجلىٰ صورها وأوضحها، ويعرضها عرضاً دقيقاً لا يقصد من ورائه إلّا تزييف آرائها، وأنّ عزمها إلىٰ وهن، وأنّ رأيها إلىٰ أفن.

ويبدو من كلامه ﷺ أنّ المرأة غير صالحة للإستشارة والحوار في الأمور وبخاصّة الأُمور المهمّة منها، وليس من شكّ أنّ المرأة ناقصة في تكوينها العقلي ـ وقد استعرضنا هذه النكتة في المجلّد الثاني من كتابنا الجواهر الروحية ـ، وهي لا تبلغ مهما بلغت مرتبة الرجل، ولا تستطيع يوماً أن تقف في مصاف الرجال جنباً إلىٰ جنب ما دامت العاطفة والشفقة، أو قل بساطتها التي تشابه بساطة الطفل وسذاجته من جوانب عديدة يطغى علىٰ نفسها.

فهي إذاً لا تصلح لجعلها في موضع الحكم أو في مرتبة مهمّة لا ينوء بعبئها الثقيل إلّا ذو عزم وحزم عظيمين، ولو صلحت للإستشارة فلا يكون ذلك إلّا مجاراة لها ومماشاة لرضاها، ثمّ مخالفة ومعاكسة في العمل كما هو منطوق بعض ما يؤثر: «شاوروهنّ وخالفوهنّ»[١].

وممّا يلاحظ أنّ كلام الإمام ﷺ لا يدلّ علىٰ أنّ نقص المرأة سنّة مطردة في كلّ امرأة على الخصوص، وإنّما هي تجري في الأكثرية الغالبة، وليس من شكّ في أنّ بين النساء من تفضّل كثيراً من الرجال، وتصلح لما يصلح له العظماء وزيادة.

ولا يخفىٰ أنّ وجود امرأة كهذه قليل أو قل نادر، لأنّ ذلك يعتبر شذوذاً وتحدّياً

---

(١) البحار ٧٧: ١٦٧ ضمن حديث ٢.

على الطبيعة، ـ راجع موضوع المرأة في المجلّد الأوّل من كتابنا الجواهر الروحية ـ.

الحجاب:

وينقلها الإمام ﷺ من هذا التحذير إلىٰ شيء آخر ممّا يمتّ إلى المرأة وطبيعتها بصلة قوية، وهو أن تحتجب المرأة وتلحّ في الاحتجاب، لأنّ ذلك أستر وأبقىٰ عليها، كما أنّ عليها أن تكفّ بصرها عن رؤية الأجنبي، بل إنّ الإمام ﷺ لم يكتف بهذا كلّه بل أمر الزوج أن يجعل معرفتها محدودة بحيث لا تتعدّاه إلىٰ غيره بقوله: «وإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل».

وليس مفهوم هذا النصّ هو أن لا تعرف أحداً ولو من ناحية الاسم فقط فإنّ ذلك ممّا لم يكن، بل يقصد أن لا يكون في نفسها حبّ وتعلّق بغير زوجها، وأن يكون قلبها مرآة صافية تعكس صورة زوجها فحسب، دون أن تكون مرآة يتطلّع إليها الأجنبي، وهذا هو المقصود من المعرفة.

ولم يمض ﷺ في وصيّته لولده إلّا بعد أن كانت جارية ونافذة في أهله وزوجه، وهي بضعة الرسول ﷺ، وهي التي قد سألها أبوها يوماً: ما أحسن الأشياء إلى المرأة، فكان جوابها منطوياً علىٰ مدىٰ عفّتها واحتجابها وهو: أن لا ترىٰ أحداً وأن لا يراها أحد، فكان ذلك قصارى الاحتجاب والعفّة.

ولا شكّ في أنّ دخول الرجل على المرأة ليس بأقلّ محذوراً وعاقبة من رؤية الرجل لها، ولعلّ قوله ﷺ: «وليس خروجهنّ بأشدّ من إدخالك من لا يوثق به عليهنّ»، يفسّر لنا أنّ دخول الرجل عليها ممّا يؤدّي في كثير من الأحيان الى الخلوة بها، والتمكّن منها أكثر ممّا لو رآها خارجاً، وليس يعقب ذلك عندئذٍ إلّا حدوث شيء لا تحمد عقباه.

وطبيعي أنّ إلقاء الحجاب عن وجه المرأة قد أسفّ بكثير من الأُمم إلى الخلاعة والتهتّك والمجون، والمرأة باعتبار مرونتها وسهولة نحوها وانفعالها لا

تستطيع أن تحتفظ بعفّتها ما دامت تقابل الرجل وجهاً لوجه، وأنىٰ لها أن تحتفظ بها بين رجل رضيها ورضيته.

المرأة ريحانة:

قوله ﷺ: «**وَلَا تُمَلِّكِ ٱلْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ، وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا. وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذٰلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَىٰ السُّقْمِ، وَٱلْبَرِيئَةَ إِلَىٰ الرِّيَبِ**».

ليس بوسعي أن أفسّر كلامه ﷺ: «ولا تملّك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها»، وليس بوسعي أن أجد إلىٰ تفسير هذه العبارة طريقاً يؤدّي إلى المقصود.

فقد اختلف الشرّاح في شأنها، فقال البعض منهم: إنّ الإمام يقصد منها أن لا تكلّف المرأة مشاقاً وأتعاباً قد طالما خرجت عن طوقها، ولا كان في مقدورها الاتيان بها، لأنّ المرأة ريحانة وليست بقهرمانة.

وقال آخر: إنّ معنىٰ ذلك أن لا تكلّف المرأة بشيء أصلاً، ولا يحق لزوج أن يأمر زوجه أيّاً كان ذلك الأمر، لأنّ الشارع المقدّس احترمها ورفع من مقامها، وجعل الغاية من اتّخاذ الرجل إيّاها واقترانه بها غاية شريفة، وهي إنجاب النسل عن الطريقة التناسلية، والعملية التناسلية حقّ مشترك بينهما.

فهي حقّ من حقوق الزوجة، وهي حقّ من حقوق الزوج، إذ يجب على الزوجة مطاوعة الزوج متىٰ طلب منها حقّه، وعلى الزوج أداء حقّ الزوجة باشباع رغبتها الجنسية ما أمكنه ذلك، وإذا لم يجد الرجل في قلبه ذرّة من حبّ، وكمية من ودّ فما عليه إلّا تأدية حقّها مرّة في كلّ أربعة أشهر ما لم يمنعه مانع أو يصدّه صادّ.

وقال بعض آخر: إنّ المراد أن لا يجعل الرجل من المرأة رجلاً آخراً تعمل عمله، وتنزل معه إلى السوق لتواجه جميع الطبقات من الناس وتشاركهم في مهام الأُمور، وتتسنّم المناصب الراقية لما بينّاه أوّلاً من أنّها رقيقة القلب، حسّاسة

المشاعر، تتألّم وتنفعل بسرعة، وتتحوّل وتتغيّر من طبيعة إلىٰ أُخرىٰ كالطفل، فلذلك لا يصلح لها أن ترتقي منصب الحكم والقضاء، ولا أن تخدم المجتمع خدمة فيها شيء كثير من عناء الفكر والجسد، لأنّها ريحانة وليست بقهرمانة.

كانت الخيزران كثيراً ما تكلّم موسى الهادي ابنها لمّا استخلف في الحوائج، وكان يجيبها إلىٰ كلّ ما تسأل، حتّىٰ مضت أربعة أشهر من خلافته، وقد انثال الناس عليها وطمعوا فيها، فكانت المواكب تغدوا إلىٰ بابها، فكلّمته يوماً في أمر فلم يجد إلىٰ إجابتها سبيلاً، واحتجّ عليها بحجّة، فقالت: لابدّ من إجابتي، فقال: لا أفعل، قالت: إنّي قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، فغضب موسىٰ وقال: ويلي علىٰ ابن الفاعلة قد علمت أنّه صاحبها، والله لا قضيتها لك ولا له.

قالت: والله لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذاً والله لا أُبالي، فقامت مغضبة، فقال: مكانك تستوعبي كلامي، والله وأنا بريء من قرابتي من رسول الله ﷺ لئن بلغني أنّه وقف أحد من قوّادي وخاصّتي وخدمي وكتّابي علىٰ بابك لأضربنّ عنقه، ولأقبضنّ ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدوا إلىٰ بابك كلّ يوم، أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك، إيّاك ثمّ إيّاك أن تفتحي فاك في حاجة لملّي أو ذمّي، فانصرفت وما تعقل ما تطأ عليه، ولم تنطق عنده بحلوة ولا مرّة بعدها حتّىٰ هلك(١).

ويخطر علىٰ بالي أنّ المسعودي ذكر في «مروج الذهب» في أواخر أحوال محمّد الأمين، انّه لمّا قتل محمّد الأمين دخل علىٰ زبيدة بعض خدمها فقال: ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمّد، فقالت: ويلك وما أصنع؟ فقال: تخرجين فتطلبين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، فقالت: إخسأ لا أُمّ لك، ما للنساء وطلب الثار، ومنازلة الأبطال(٢).

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ١٢٥ باب ٣١.
(٢) مروج الذهب ٣: ٤١٥.

أجل نحن لا نكلّف المرأة فوق طاقتها، لأنّها متعة ولذّة فحسب، وليست خادمة تستخدم لأشقّ الأُمور وأصعبها.

نحن نريد أن نراها دائماً أمام أبصارنا تتحرّك وتمشي بحسن واعتدال لكي نتمتّع باطالة النظر إليها، وتبتهج نفوسنا بها كلّما اجتمعنا على المائدة، تحدّثنا أمر أولادها وصغارها، وما كانوا يصنعونه في البيت حينما نغادره إلىٰ أعمالنا، وما يحدّثونه من لغط وضوضاء، فكانوا بذلك يؤدّون حقّ الطفولة وواجبها.

نحن لا نريد للمرأة الخمول والجمود والجهل والغباوة، بل نريد لها الحشمة والوقار والعفّة والرزانة، وليس هذا بمنغص لحياتها الدراسية، ولا مكدر لحياتها العلمية، فإنّها تستطيع أن تجعل من عفافها وحجابها مدرسة علوم ومعارف، ومن وراء ذلك تنفع المجتمع الإنساني بما تسديه من خدمة صحيحة غير مشوبة بجهل ولا دعارة، ولا ممزوجة بتبذل وخلاعة.

فإذا كانت هذه بنتاً وهي كما نريد صارت في بيت أبيها كالسراج الذي ينير في جنباته، فيسعد أهلهابعفّتها ومعرفتها، ويرتاح أبوها من الخوف عليها، وإذا صارت في بيت زوجها كانت تاج رأسه، وملكة قلبه، وإذا أعقبت أنجالاً صارت الرؤوم الحنون والمدرّسة السيارة لهم، غرست في نفوسهم بذور الخير للإنسانية.

هذه بعض الجوانب البارزة في النظام الإسلامي بالنسبة إلى المرأة، وقد تحدّثنا عن هذا بكثير وكثير، ونزيد هنا بأن نقول:

حقوق المرأة:

في الشرق اليوم «هيجة» تسمّىٰ حقوق المرأة، والمطالبة بالمساواة الكاملة مع الرجل.

وفي وسط هذه «الهيجة» التي تشبه الحمى، يهذي بعض المحمومين والمحمومات باسم الإسلام، بعضهم ـ للتوريط ـ يقول: إنّ الإسلام قد ساوىٰ بين الجنسين في كلّ

شيء، وبعضهم ـ جهلاً منه أو غفلة ـ يقول: إنّ الإسلام عدوّ للمرأة، ينتقص كرامتها، ويهين كبرياءها، ويحطم شعورها بذاتيّتها، ويدعها في مرتبة أقرب للحيوانية، متاعاً حسياً للرجل، وأداة للنسل ليس غير، وهي في هذا كلّه في موضع التابع من الرجل، يسيطر عليها في كلّ شيء، ويفضلها في كلّ شيء.

وهؤلاء وأُولئك لا يعرفون حقيقة الإسلام، أو يعرفونها ثمّ يلبسون الحقّ بالباطل ابتغاء الفتنة ونشراً للفساد في المجتمع، ليسهل الصيد لمن يريد الصيد في الأقذار.

وقبل أن نبيّن حقيقة وضع المرأة في الإسلام، يجدر بنا أن نلمّ إلمامة سريعة بتاريخ قضية المرأة في أُوربا، فهي منبع الفتنة التي فتنت الشرق عن طريق التقليد.

المرأة في اُوربا:

كانت المرأة في أُوربا وفي العالم كلّه هملاً لا يحسب له حساب.

كان العلماء والفلاسفة يتجادلون في أمرها، هل لها روح أم ليس لها روح، وإذا كان لها روح فهل هي روح إنسانية أم حيوانية، وعلىٰ فرض أنّها ذات روح إنسانية فهل وضعها الاجتماعي والإنساني بالنسبة للرجل هو وضع الرقيق، أم هو شيء أرفع قليلاً من الرقيق.

وحتّىٰ في الفترات القليلة التي استمتعت فيها المرأة بمركز اجتماعي مرموق، سواء في اليونان أو في الامبراطورية الرومانية، لم يكن ذلك مزية للمرأة كجنس، وإنّما كان لنساء معدودات، بصفتهنّ الشخصية، أو لنساء العاصمة بوصفهنّ زينة للمجالس، وأدوات من أدوات الترف التي يحرص الأغنياء والمترفون علىٰ إبرازها زهواً وعجباً، لكنّها لم تكن قطّ موضع الاحترام الحقيقي كمخلوق إنساني جدير بذاته أن يكون له كرامة، بصرف النظر عن الشهوات التي تحببه لنفس الرجل.

وظلّ الوضع كذلك في عهود الرقّ والاقطاع في أُوربا، والمرأة في جهالتها، تدلّل

حيناً تدليل الترف والشهوة، وتهمل حيناً كالحيوانات التي تأكل وتشرب وتحمل وتلد وتعمل ليل نهار، حتىٰ جاءت الثورة الصناعية فكانت الكارثة التي لم تصب المرأة بشرّ منها في تاريخها الطويل.

لقد كانت الطبيعة الأُوربية علىٰ جميع عهودها كزة جاحدة، لا تسخو ولا ترتفع إلىٰ مستوى التطوّع النبيل الذي يكلّف جهداً، ولا يفيد مالاً أو نفعاً قريباً أو غير قريب، ولكن الأوضاع الاقتصادية في عهدي الرق والاقطاع والتكتّل، الذي كانا يستلزمانه في البيئة الزراعية، جعلا تكليف الرجل إعالة المرأة هو الأمر الطبيعي الذي تقتضيه الظروف، فضلاً عن أنّ المرأة كانت تعمل في المنزل في الصناعات البسيطة التي تتيحها البيئة الزراعية، فكانت تدفع ثمن إعالتها بهذا العمل.

ولكن الثورة الصناعية قلبت الأوضاع كلّها في الريف والمدينة على السواء، فقد حطمت كيان الأُسرة وحلّت روابطها بتشغيل النساء والأطفال في المصانع، فضلاً عن استدراج العمّال من الريفيّة القائمة على التكافل والتعاون، إلىٰ المدنيّة التي لا يعرف فيها أحد أحداً، ولا يعول أحد أحداً، وإنّما يستقل كلّ إنسان بعمله ومنعته، وحيث يسهل الحصول على المتعة الجنسيّة من طريقها المحرّم، فتهبط الرغبة في الزواج وكفالة الأُسرة، أو تتأخّر سنوات طويلة علىٰ الأقلّ.

وليس همّنا هنا هو استعراض تاريخ أُوربا، ولكنّا نستعرض العوامل التي أثّرت في حياة المرأة فحسب.

قلنا إنّ الثورة الصناعية شغلت النساء والأطفال، فحطمت روابط الأُسرة وحلّت كيانها، ولكن المرأة هي التي دفعت أفدح الثمن من جهدها وكرامتها، وحاجاتها السيكلوجية والمادية، فقد نكّل الرجل عن إعالتها من ناحية، وفرض عليها أن تعمل لتعول نفسها حتىٰ لو كانت زوجة وأُمّاً، واستغلّتها المصانع أسوأ استغلال من ناحية أُخرىٰ، فشغلتها ساعات طويلة من العمل، وأعطتها أجراً أقلّ

من الرجل الذي يقوم معها بنفس العمل في نفس المصنع.

ولا تسأل لماذا حدث ذلك، فهكذا هي أُوربا، جاحدة كزّة كنود، لا تعترف بشيء اسمه كرامة بشرية، ولا تتطوّع مرّة واحدة بالخير حيث تستطيع أن تعمل الشرّ وهي آمنة.

تلك طبيعتها علىٰ مدار التاريخ، في الماضي والحاضر والمستقبل إلّا أن يشاء الله لها الهداية والارتفاع.

وإذ كان النساء والأطفال ضعافا فما الذي يمنع من استغلالهما والقسوة عليهما إلىٰ أقصىٰ حد، إنّ الذي يمنع شيء واحد فقط هو الضمير، ومتىٰ كان لأُوربا ضمير؟

ومع ذلك فقد وجدت قلوب إنسانية حيّة لا تطيق الظلم، فهبت تدافع عن المستضعفين من الأطفال، نعم الأطفال فقط، فراح المصلحون الاجتماعيون يندّدون بتشغيلهم في سنّ مبكرة، وتحميلهم من الأعمال ما لا تطيقه بنيتهم الغضّة التي لم تستكمل نصيبها من النموّ، وضآلة أُجورهم بالنسبة للجهد العنيف الذي يبذلونه، ونجحت الحملات، فرفعت رويداً رويداً سنّ التشغيل، ورفعت الأُجور، وخفضت ساعات العمل.

أمّا المرأة فلم يكن لها النصير، فنصرة المرأة تحتاج إلىٰ قدر من ارتفاع المشاعر لا تطيقه أُوربا، لذلك ظلّت في محنتها، تنهك نفسها في العمل ـ مضطرّة لاعالة نفسها ـ وتتناول أجراً أقلّ من أجر الرجل مع اتّحاد الانتاج والجهد المبذول.

وجاءت الحرب العظمىٰ الأُولىٰ وقتل عشرة ملايين من الشباب الأُوربيين والأمريكان، وواجهت المرأة قسوة المحنة بكلّ بشاعتها، فقد وجدت ملايين من النساء بلا عائل، إمّا لأنّ عائلهنّ قد قتل في الحرب، أو شوّه، أو فسدت أعصابه من الخوف والذعر والغازات السامّة والخانقة، أو لأنّه خارج من حبس السنوات الأربع يريد أن يستمتع ويرفّه عن أعصابه، ولا يريد أن يتزوّج ويعول أُسرة تكلّفه جهداً في المال والأعصاب.

ومن جهة أُخرىٰ لم تكن هناك أيد عاملة من الرجال تكفي لاعـادة تشـغيل المصانع لتعمير ما خرّبته الحرب، فكان حتماً على المرأة أن تعمل، وإلّا تـعرّضت للجوع هي ومن تعول من العجائز والأطفال.

وكان حتماً عليها كذلك أن تتنازل عن أخلاقها، فقد كـانت أخـلاقها قـيداً حقيقياً يمنع عنها الطعام، إنّ صاحب المصنع وموظّفيه لا يـريدون مجـرّد الأيـدي العاملة، فهم يجدون فرصة سانحة والطير يسقط من نفسه ـ جائعاً ـ ليلتقط الحبّ، فما الذي يمنع من الصيد؟ ألعلّة الضمير؟ وما دامت قد وجدت ـ بدافع الضرورة ـ امرأة تبذل نفسها لتعمل، فلن يتاح العمل إلّا للّتي تبذل نفسها للراغبين.

ولم تكن المسألة مسألة الجوع إلى الطعام فحسب.

فالجنس حاجة بشرية طبيعية لابدّ لها من إشباع، ولم يكن في وسع الفتيات أن يشبعن حاجتهنّ الطبيعية ولو تزوّج كلّ من بقي حيّاً من الرجال، بسـبب النـقص الهائل الذي حدث في عدد الرجال نتيجة الحرب، ولم تكن عقائد أُوربا وديـانتها تسمح بالحلّ الذي وضعه الإسلام لمثل هذه الحالة الطارئة ـ وهو تعدّد الزوجات ـ لذلك لم يكن بدّ للمرأة أن تسقط راضية أو كارهة، لتحصل عـلىٰ حـاجة الطـعام وحاجة الجنس، وترضي شهوتها إلى الملابس الفاخرة وأدوات الزينة، وسائر ما تشتهيه المرأة من أشياء.

وسارت المرأة في طريقها المحتوم، تبذل نفسها للراغـبين، وتـعمل في المـصنع والمتجر، وتشبع رغائبها عن هذا الطريق أو ذاك، ولكن قضيّتها زادت حدّة، فـقد استغلّت المصانع حاجة المرأة إلى العمل، واسـتمرّت في مـعاملتها الظـالمة التي لا يبرّرها عقل ولا ضمير، فظلّت تمنحها أجراً أقلّ من أجر الرجل الذي يؤدّي نفس العمل في نفس المكان.

ولم يكن بدّ من ثورة، ثورة جامحة تحطّم ظلم أجيال طويلة وقرون.

وماذا بقي للمرأة؟ لقد بذلت نفسها وكبرياءها وأُنوثتها، وحرمت من حاجتها

الطبيعية في أُسرة وأولاد تحسّ بكيانها فيهم، وتضمّ حياتها إلىٰ حياتهم فتشعر بالسعادة والامتلاء، أفلا تنال مقابل ذلك ـ علىٰ الأقل ـ المساواة في الأجر مع الرجل، حقّها الطبيعي الذي تقرّره أبسط البديهيّات؟

ولم يتنازل الرجل الأُوربي عن سلطانه بسهولة، أو قل لم يتنازل عن أنانيّته التي فطر عليها، وكان لابدّ من احتدام المعركة واستخدام جميع الأسلحة الصالحة للعراك.

استخدمت المرأة الاضراب والتظاهر، واستخدمت الخطابة في المجتمعات واستخدمت الصحافة، ثمّ بدا لها أنّها لابدّ أن تشارك في التشريع لتمنع الظلم من منبعه، فطالبت أوّلاً بحقّ الانتخاب، ثمّ بالحقّ الذي يلي ذلك بحكم طبائع الأشياء وهو حقّ التمثيل في البرلمان، وتعلّمت علىٰ نفس الطريقة التي يتعلّم بها الرجل، لأنّها صارت تؤدّي نفس العمل، وطالبت كنتيجة منطقيّة لذلك أن تدخل وظائف الدولة كالرجل، ما داما قد أُعدّا بطريقة واحدة ونالا دراسة واحدة.

تلك قصة «كفاح المرأة لنيل حقوقها» في أُوربا، قصّة مسلسلة، كلّ خطوة فيها لابدّ أن تؤدّي إلى الخطوة التالية رضي الرجل أو كره، بل رضيت المرأة أو كرهت، فهي ذاتها لم تعد تملك أمرها في هذا المجتمع الهابط المنحلّ الذي أفلت منه الزمام.

ومع ذلك كلّه فقد تعجب حين تعلم أنّ انكلترا ـ أُمّ الديمقراطية ـ ما تزال إلىٰ هذه اللحظة تمنح المرأة أجراً أقلّ من أجر الرجل في وظائف الدولة رغم أنّ في مجلس العموم نائبات محترمات!!

* * *

حقوق المرأة في الاسلام:

ونعود إلىٰ وضع المرأة في الإسلام، لنعرف إن كانت ظروفنا التاريخية والجغرافية والاقتصادية والعقيدية والتشريعية، تجعل للمرأة «قضية» تكافح من

أجلها، كما كان للمرأة الغربية قضية، أم إنّها شهوة التقليد الخالصة، والعبودية الخفيّة للغرب ـ التي تجعلنا لا نبصر الأشياء بعيوننا، ولا نراها في حقيقتها ـ هي التي تملأ الجوّ بهذا الضجيج الزائف في مؤتمرات النساء.

١ ـ المساواة في القيمة البشرية:

من البديهيّات الإسلامية التي لا تحتاج إلىٰ ذكر ولا إعادة أنّ المرأة في عرف الإسلام كائن إنساني له روح إنسانيّة من نفس «النوع» الذي منه روح الرجل: **﴿يا أيّها الناس اتّقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾** [النساء : ١].

فهي إذن الوحدة الكاملة في الأصل والمنشأ والمصير، والمساواة الكاملة في الكيان البشري، تترتّب عليها كلّ الحقوق المتّصلة مباشرة بهذا الكيان، فحرمة الدم والعرض والمال، والكرامة التي لا يجوز أن تلمز مواجهة أو تغتاب، ولا يجوز أن يتجسّس عليها، أو تقتحم الدور، كلّها حقوق مشتركة لا تمييز فيها بين جنس وجنس، والأوامر والتشريعات فيها عامة للجميع:

﴿يا أيّها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسىٰ أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسىٰ أن يكنّ خيراً منهنّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب﴾ [الحجرات : ١١].

﴿... ولا تجسّسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ [الحجرات : ١٢].

﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتّىٰ تستأنسوا وتسلموا علىٰ أهلها﴾ [النور : ٢٧].

والجزاء في الآخرة واحد للجنسين: **﴿فاستجاب لهم ربّهم أنّي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أُنثىٰ بعضكم من بعض﴾** [آل عمران : ١٩٥].

٢ ـ المساواة في الشخصية القانونية:

وتحقيق الكيان البشري في الأرض متاح للجنسين: الأهلية للملك والتصرّف فيه بجميع أنواع التصرّف من رهن واجارة ووقف وبيع وشراء واستغلال ... الخ ﴿**للرجال نصيب ممّا ترك الوالدان والأقربون**﴾ [النساء : ٧]، ﴿**للرجال نصيب ممّا اكتسبوا وللنساء نصيب ممّا اكتسبن**﴾ [النساء : ٣٢].

ولابدّ هنا من وقفة عند أمر أو أمرين بشأن حقّ الملكية والتصرّف والانتفاع، فقد كانت شرائع أُوربا «المتحضّرة» تحرم المرأة من كلّ هذه الحقوق إلىٰ عهد قريب، وتجعل سبيلها الوحيد إليها عن طريق الرجل زوجاً كان أو أباً أو ولي أمر، أي أنّ المرأة الأُوربية ظلّت أكثر من اثني عشر قرناً بعد الإسلام لا تملك من الحقوق ما أعطاها الإسلام.

ثمّ هي حين ملكتها لم تأخذها سهلة، ولا احتفظت بأخلاقها وعرضها وكرامتها، وإنّما احتاجت أن تبذل كلّ ذلك، وتتحمّل العرق والدماء والدموع، لتحصل علىٰ شيء ممّا منحها الإسلام ـ كعادته ـ تطوّعاً وإنشاء، لا خضوعاً لضرورة اقتصادية، ولا إذعاناً للصراع الدائر بين البشر، ولكن إحساساً منه بالحقّ والعدل الأزليين، وتطبيقاً لهما في واقع الأمر لا في عالم المثل والأحلام.

والأمر الثاني أنّ الشيوعية خاصّة والغرب عامّة، يعتبرون الكيان البشري هو الكيان الاقتصادي، ويقولون صراحة إنّ المرأة لم يكن لها كيان لأنّها لم تكن تملك، أو لم يكن لها حقّ التصرّف فيما تملك، وأنّها صارت مخلوقاً آدمياً فقط حين استقلّت اقتصادياً، أي حين صار لها ملك خاص مستقلّ عن الرجل تستطيع أن تعيش منه وتتصرّف فيه.

وبغضّ النظر عن إنكارنا لتحديد الكيان البشري بهذه الحدود الضيّقة، والهبوط به حتّىٰ يصبح عرضاً اقتصادياً لا غير، فإنّنا نوافقهم ـ من حيث المبدأ ـ علىٰ أنّ الاستقلال الاقتصادي له أثر في تكوين المشاعر وتنمية الشعور بالذات.

وهنا يحقّ للإسلام أن يفخر بما أعطى المرأة من كيان اقتصادي مستقلّ، فصارت تملك وتتصرّف وتنتفع بشخصها مباشرة بلا وكالة، وتعامل المجتمع بلا وسيط.

ولم يكتف الإسلام بتحقيق كيان المرأة في مسألة الملكية، بل حقّقه في أخطر المسائل المتعلّقة بحياتها وهي مسألة الزواج، فلا يجوز أن تزوّج بغير إذنها، ولا يتمّ العقد حتّىٰ تعطي هي الاذن: «لا تزوج الثيّب حتّىٰ تستأمر، ولا تزوج البكر حتّىٰ تستأذن، وإذنها صمتها».

ويصبح العقد باطلاً إذا أعلنت أنّها لم تبد موافقتها عليه، وقد كانت المرأة ـ في غير الإسلام ـ تحتاج إلىٰ سلوك طرق ملتوية لتتهرّب من زواج لا تريده، لأنّها لا تملك شرعاً ولا عرفاً أن ترفض، ولكن الإسلام أعطاها هذا الحقّ الصريح، تستخدمه متىٰ أرادت، بلىٰ أعطاها أن تخطب لنفسها، وهو آخر ما وصلت إليه أُوربا في القرن العشرين، وحسبته انتصاراً هائلاً على التقاليد البالية العتيقة!

ويبلغ من تقدير الإسلام لمقوّمات الكيان البشري ـ في عصور كان يغشيها الجهل والظلام ـ أن اعتبر العلم والتعلّم ضرورة بشرية، ضرورة لازمة لكلّ فرد لا لطائفة محدودة من الناس، فقرّر للملايين حقّ التعلّم، بل جعله فريضة وركناً من الايمان بالله علىٰ طريقة الإسلام.

وهنا كذلك يحقّ له أن يفخر بأنّه أوّل نظام في التاريخ نظر إلى المرأة علىٰ أنّها كائن بشري، لا يستكمل مقوّمات بشريّته حتّىٰ يتعلّم، شأنها شأن الرجل سواء بسواء، فجعل العلم فريضة عليها كما هو فريضة على الرجل، ودعاها أن ترتفع بعقلها، كما ترتفع بجسدها وروحها عن مستوى الحيوان، بينما ظلّت أُوربا تنكر هذا الحقّ إلىٰ عهد قريب، ولم تستجب إليه إلّا خضوعاً للضرورات.

الى هذا الحدّ وصل تكريم الإسلام للمرأة، وما يستطيع أحد مهما أُوتي القدرة على التبجح أن يقول: إنّ فكرة الإسلام في كلّ هذه الأُمور قائمة علىٰ أنّ المرأة

مخلوق ثانوي، أو تابع في وجوده لمخلوق آخر، أو أنّ دورها في الحياة دور ضئيل لا يؤبه له.

فلو كان الأمر كذلك ما اعتنىٰ بتعليمها، والتعليم بالذات مسألة لها دلالة خاصة، وتكفي وحدها ـ دون حاجة إلى المسائل الأُخرىٰ ـ لتقرير الوضع الحقيق للمرأة في الإسلام، وهو وضع كريم عند الله وعند الناس.

٣ ـ الفوارق الطبيعية:

ولكن الإسلام بعد هذا ـ بعد تقرير المساواة الكاملة في الإنسانية، والمساواة في جميع الحقوق التي تتّصل مباشرة بالكيان البشري المشترك بين الجميع ـ يفرّق بين الرجل والمرأة في بعض الحقوق وبعض الواجبات، وهنا الضجّة الكبرىٰ التي تثيرها نساء المؤتمرات، ويثيرها معهنّ كتّاب و «مصلحون» وشباب، يعلم الله أنّهم لم يريدوا بدعوتهم وجه الاصلاح، بل يريدون بها أن يجدوا المرأة سهلة التناول في المجتمع وفي الطريق، ولله درّ الصافي النجفي إذ يقول:

الناس سمّوا عصر نور عصرهم ... جهلاً كمن سمّى الظلام النورا

فإذا هم بعلومهم يوماً مشوا ... فبخلقهم يتقهقرون دهورا

* * *

الغيرة علىٰ النساء:

ويمضي ﷺ في تحذير ولده ووعظه، فينهاه عن التغاير في غير موضع الغيرة لأنّ ذلك يؤدّي إلىٰ ما يحذر منه، فيجب عليك أيّها الزوج أن لا تتوسّع في الغيرة فإنّ ذلك ممّا يكسب لك عاقبة وخيمة، وقد ينهيك إلى العار والشنار، فإنّ الرجل إذا تحذّر واحتاط كثيراً علىٰ امرأته قد يبصرها بما لم تكن تبصره من قبل فيوقعها في ما كان يحذره عليها، ويقع هو فيما كان يخشاه ويتجنّبه، وهذا معنى قوله ﷺ: «فإنّ ذلك

يدعو الصحيحة إلى السقم، والبريئة إلى الريب».

ما أحسن الغيرة ولكن في محلّها، وما أقبح الغيرة لو وقعت في غير موقعها.

معنى الغيرة:

الغيرة هي الحمية، وهي السعي في محافظة ما يلزم محافظته من الدين والعرض، وهي من نتائج الشجاعة، وكبر النفس وقوّتها، ومن شرائف الملكات وبها تتحقّق الرجولية والفحلية، والفاقد لها غير معدود من الرجال، وفقدانها من نتائج صغر النفس وضعفها، ومن المهلكات العظيمة، وربّما يؤدّي ذلك إلى الدياثة والقيادة.

قال رسول الله ﷺ: «إذا لم يغر الرجل فهو منكوس القلب»[١].

وقال: «إذا أُغير الرجل في أهله أو بعض مناكحه من مملوكته فلم يغر، بعث الله طائراً يقال له القفندر حتّىٰ يسقط علىٰ عارضة بابه، ثمّ يمهله أربعين يوماً، ثمّ يهتف به إنّ الله غيور يحبّ كلّ غيور، فإن هو غار وأنكر ذلك فأكبره، وإلّا طار حتّىٰ يسقط علىٰ رأسه فيخفق بجناحه علىٰ عينيه، ثمّ يطير عنه فينزع الله منه بعد ذلك روح الايمان، وتسمّيه الملائكة الديّوث»[٢].

وقال ﷺ: «كان إبراهيم ﷺ غيوراً وأنا أغير منه، وجدع الله أنف من لا يغار على المؤمنين والمسلمين»[٣].

أنواع الحمية:

وهي أنواع ثلاثة: حمية النسب، وحمية العرض، وحمية الدين.

---

(١) الوسائل ١٤: ١٠٨ ح ٣.
(٢) الوسائل ١٤: ١٠٨ ح ٤.
(٣) البحار ١٠٣: ٢٤٨ ح ٣٣.

١ ـ حمية النسب:

أمّا حمية النسب فأظهر ما تكون في العرب، وإليك طرفاً من مظاهرها فيهم:

١ ـ كان الفرزدق لا ينشد بين يدي الخلفاء والأُمراء إلّا قاعداً، فدخل علىٰ سليمان بن عبد الملك، فأنشد شعراً فخر فيه بآبائه، وقال من جملته:

تالله ما حملت من ناقة رجلاً ... مثلي إذا الريح لفتني على الكور

فقال سليمان: هذا المدح لي أم لك؟ قال: لي ولك، فغضب سليمان وقال: قم فأتمم ولا تنشد بعده إلّا قائماً. فقال الفرزدق: لا والله أو يسقط إلىٰ الأرض أكثري، فقال سليمان: ويلي علىٰ الأحمق، وارتفع صوته (وسمع الضوضاء بالباب)، فقال سليمان: ما هذا؟ قيل له: بنو تميم على الباب يقولون: لا ينشد الفرزدق قائماً وأيدينا في مقابض سيوفنا، قال: فلينشد قاعداً[١].

٢ ـ وفد الوليد بن جابر بن ظالم الطائي علىٰ معاوية في أيّام استقامة الأُمور له، فدخل عليه في جملة الناس، فلمّا انتهى إليه استنسبه فانتسب له، فقال: أنت صاحب ليلة الهرير، قال: نعم، قال: والله ما تخلو مسامعي من رجزك تلك الليلة، وقد علا صوتك أصوات الناس وأنت تقول:

شدّوا فداءً لكم أُمّي وأب ... فإنّما الأمر غداً لمن غلب

هذا ابن عمّ المصطفىٰ والمنتجب ... تنميه للعلياء سادات العرب

ليس بموصوم إذا نصّ النسب ... أوّل من صلّىٰ وصام واقترب

قال: نعم أنا قائلها، قال: فلماذا قلتها؟ قال: لأنّا كنّا مع رجل لا تعلم خصلة توجب الخلافة، ولا فضيلة تصيّر إلىٰ التقدمة إلّا وهي مجموعة له.

كان أوّل الناس سلماً، وأكثرهم علماً، وأرجحهم حلماً، فات الجياد، فلا يشقّ غباره ويستولي علىٰ الأمد فلا يخاف عثاره، وأوضح منهج الهدىٰ فلا يبيد مناره، وسلك القصد فلا تدرس آثاره، فلمّا ابتلانا الله بافتقاده، وحوّل الأمر إلىٰ من

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦ : ١٢٩ باب ٣١.

يشاء من عباده، دخلنا في جملة المسلمين، فلم ننزع يداً عن طاعة، ولم نصدع صفات جماعة، علىٰ أنّ لك منّا ما ظهر، وقلوبنا بيد الله، وهو أملك بها منك، فأقبل صفونا، وأعرض عن كدرنا، ولا تثر كامن الأحقاد، فإنّ النار تقدح بالزناد.

قال معاوية: وإنّك لتهدّدني يا أخا طيّ بأوباش العراق أهل النفاق، ومعدن الشقاق؟ فقال: يا معاوية، هم الذين أشرقوك بالريق، وحبسوك في المضيق، وذادوك عن سنن الطريق حتىٰ لذت منهم بالمصاحف، ودعوت إليها من صدق بها وكذبت، وآمن بمنزلها وكفرت، وعرف من تأويلها ما أنكرت.

فغضب معاوية وأدار طرفه فيمن حوله فإذا جلّهم من مضر ونفر قليل من اليمن، فقال: أيّها الشقي الخائن إنّي لأُخال أنّ هذا آخر كلام تفوّهت به، وكان عفير بن سيف بن ذي يزن بباب معاوية حينئذٍ، فعرف موقف الطائي ومراد معاوية فخافه عليه، فهجم عليهم الدار وأقبل على اليمانية، فقال: شاهت الوجوه ذلّاً وقلّاً وجدعاً وفلّاً، وكشم الله هذه الأُنوف كشماً موعباً.

ثمّ التفت إلىٰ معاوية فقال: إي والله يا معاوية ما أقول قولي هذا حبّاً لأهل العراق ولا جنوحاً إليهم ولكن الحقيقة تذهب الغضب، لقد رأيتك بالأمس خاطبت أخا ربيعة ـ يعني صعصعة بن صوحان ـ وهم أعظم جرماً عندك من هذا وأذكىٰ لقلبك، وأقدح في صفاتك، وأجدّ في عداوتك، وأشدّ انتصاراً في حربك، ثمّ أثبتّه وسرّحته، وأنت الآن مجمع علىٰ قتل صاحبنا، زعمت استصغاراً لجماعتنا، فإنّا لا نمرّ ولا نحلىٰ، ولعمري لو وكّلتك أبناء قحطان إلىٰ قومك لكان جدّك العاثر، وذكرك الداثر، وحدّك المفلول، وعرشك المثلول، فاربع علىٰ ظلعك، واطونا علىٰ بلالتنا، ليسهل لك حزننا، ويطمئنّ لك شاردنا، فإنّا لا نرأم بوقع الضيم، ولا نتلمّظ جرع الخسف، ولا نغمر بغمار الفتن، ولا ندر علىٰ الغضب.

فقال معاوية: الغضب شيطان فاربع نفسك أيّها الانسان، فإنّا لم نأت إلىٰ صاحبك مكروهاً، ولم نرتكب منه مغضباً، ولم ننتهك منه محرماً، فدونكه فإنّه لم

يضق عنه حلمنا ويسع غيره، فأخذ عفير بيد الوليد وخرج به إلىٰ منزله، وقال له: والله لتؤبن بأكثر من هذا، ثمّ جمع من بدمشق من اليمانية وفرض علىٰ كلّ رجل دينارين في عطائه، فبلغت أربعين ألفاً، فتعجلها من بيت المال ودفعها إلى الوليد وردّه إلى العراق مسروراً[1].

٢ ـ حمية العرض:

وأمّا حمية العرض: فهي عامة في الناس شاملة، وهي فيهم علىٰ ثلاث مراتب؛ إفراط، وتفريط، واعتدال.

أمّا الافراط: فهو أن تغلب على الإنسان حتّىٰ تكدر عليه عيشه، وقد يفضي به هذا الافراط إلىٰ أن يرمي بالسوء عرضه، قال رسول الله ﷺ: «إنّ من الغيرة غيرة يبغضها الله عزّ وجلّ، وهي غيرة الرجل علىٰ أهله من غير ريبة»، وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تكثر الغيرة علىٰ أهلك فترمى بالسوء من أجلك».

وكان مسكين الدارمي أحد من يستهجن الغيرة، ويستقبح وقوعها في غير محلّها، فمن شعره في هذا المعنىٰ:

ما أحسن الغيرة في حينها   وأقبح الغيرة في غير حين
من لم يزل متهما عرسه   مناصباً فيها لرجم الظنون
يوشك أن يغريها بالذي   يخاف أو ينصبها للعيون
حسبك من تحصينها ضمها   منك إلىٰ خيم كريم ودين
لا تظهرنّ يوماً علىٰ عورة   فيتّبع المقرون حبل القرين[2]

وقال بعض المحدّثين في معنىٰ قول علي عليه السلام: «إيّاك والتغاير في غير موضع الغيرة».

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦ : ١٢٧.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦ : ١٢٧.

يا أيّها الغائر مه لا تغر إلّا لما تدركه بالبصر
ما أنت في ذلك إلّا كمن بيّته الدبّ لرمي الحجر(١)

وأمّا التفريط: فهو أن تفقد هذه القوّة أو تضعف في بعض الناس حتّىٰ لا يبالي بعرضه وما يصنع به.

وأمّا الاعتدال: فهو الوقوف بها عند القصد، واستعمالها في حدود المروءة والحكمة.

فمن ذلك انّ المعتصم العباسي بلغه أنّ امرأة علوية في عمورية ضربها جلواز بالسوط علىٰ معصمها فصاحت وامعصماه، فتخيّل الجلواز أنّها هتفت بالمعتصم العباسي، فقال لها مستهزئاً بها: سيأتيك المعتصم على الخيول البلق.

فحملت هذه الكلمة إلى المعتصم وهو إذ ذاك في مجلس الشراب، فغار لذلك وحرّكته الحمية، فقال لساقيه: ويحك اختم الكأس انّ الخمر محرّم عليه حتّىٰ يأخذ بثار ابنة عمّه، ثمّ قال لغلمانه: فتّشوا الاصطبلات أين ما وجدتم فرساً أبلقاً عليّ به.

فأحصوا فيها سبعين ألف فرس أبلق علىٰ شكل واحد، فتجهّز وأراد المسير، فبعض وزرائه ما أحبّ ذلك، أقبل إلىٰ منجّم ورشاه بالمال وقال له: إذا أراد المعتصم هذا الوجه فقبّحه له ولا تحسن له المسير، فعرض المنجم ذلك على المعتصم عند عزمه على المسير، وقال: أيّها الملك إنّ طوالع النجوم قد انتحست، ولا أراك ظافراً في هذا الوجه، فالتفت أحد وزرائه الذي هو من البعض الذين رغبوا مسيره في هذا الوجه، وقال: يا أمير المؤمنين اسمع منّي ما أقول، ثمّ أنشأ:

دع النجوم لطراق تعيش بها وانهض بقوّة عزم أيّها الملك
إنّ النبيّ وأبناء النبي نهوا عن النجوم وقد عاينت ما ملكوا

فاستحسن قوله واستصوب رأيه، ثمّ سار، وكان قد أوصىٰ أصحابه قبل أن يفتح تلك المدينة، قال لهم: إذا فتحنا بعون الله تعالى فادخلوا علىٰ تلبية واحدة

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ١٢٧.

(لبّيك أيّتها العلوية)، ثمّ انّه حاصرها أياماً وفتحها، فدخل أصحابه علىٰ تلبية واحدة يلبّون العلوية، ودخل هو وقد أرخىٰ عمامته علىٰ عينيه وهو ينادي: لبيك يا ابنة العمّ.

ثمّ أقبل علىٰ ملكهم فقتله، وجلس علىٰ سريره، وأسلم من الناس من أسلم وقتل من قتل، ثمّ قال لغلمانه: احضروا لي كلّ علوية ضمّتها هذه البلدة، فأحضرت العلويات، فقال: أُدعوا لي كلّ جلواز فأحضروا الجلاوزة، فقام بين العلويات فنادىٰ: أيّتكنّ العلوية التي ضربت وهتفت بي، فقامت تلك العلوية، فقالت: أنا يا ابن العمّ، فقال: أُنظري أيّ جلواز ضربك.

فجعلت تنظر في وجوههم إلىٰ أن أشارت إلىٰ واحد منهم وقالت: هذا، فأمر العقابين أن يبطحوه، ثمّ أمرهم فضربوه بالسياط حتّىٰ تناثر لحمه ثمّ قال لسيّافه: اضرب عنقه، فقال: استخرج لي قحف رأسه، فاستخرجه له فالتفت عند ذاك لساقيه وقال: أين الكأس؟ قال: هو حاضر، فقال: اسكبه في هذا القحف، ثمّ جعل يشرب ويقول:

السيف والخنجر ريحاننا ... أُفّ علىٰ النرجس والآسي
شرابنا من دم أعدائنا ... وكأسنا جمجمة الرأس

٣ ـ حمية الدين:

وأمّا حميّة الدين: فهي أيضاً شاملة، وقد يعبّر عنها بالعصبية، ولكن الفرق بينهما ظاهر، وكلّ منهما من ثمرات الغضب للدين، إلّا أنّه إن اختصّ بالمدافعة أو الاشارة بالدين وآثاره، وتجرّد عن الطعن والتنقيص في غير الإنسان فهو حمية، وإلّا فهو عصبيّة، والحمية في الدين محمودة ولا يخلو منها طبع، وإن اختلفت مراتبها في النفوس.

قال بعضهم: رأيت ببغداد رجلاً مكفوف البصر يسأل الناس ويقول: من

أعطاني فلساً سقاه الله تعالى علىٰ يد معاوية، قال: فتبعته حتّىٰ خلوت به فلطمته لطمة أوجعته وقلت: عزلت عليّاً أمير المؤمنين عن الحوض يا فاسق، فقال: أتريد أن أسقيهم علىٰ يد أمير المؤمنين من حوض الكوثر بفلس واحد، لا والله لا كان ذلك أبداً، وأنا لم أذكر لمعاوية حوضاً في كلامي، فليسقهم من حيث شاء.

ويعجبني ذكر ما نقله محمّد طه نجف ـ أعلى الله مقامه ـ عن الشيخ جواد نجف ﷺ: إنّ بعض من كان مشهوراً بالسرقة في طهران، سرق ليلة دار رجل يهودي ولم يعلم بأنّ صاحب الدار يهودي، فلمّا أصبح الصبح واشتهر أمر السرقة، علم السارق أنّ المسروق كان يهودياً، فجاء إليه كالمستخبر وقال: كم كانت سرقتك؟ قال: كذا مقدار، قال: أُكتبها بورقة حتّىٰ أتجسّس عليها لعلّي أطّلع علىٰ من سرقها.

فلمّا كتبها ولم ير دعوىٰ زيادة علىٰ ما أخذ منه، قال له: امض معي إلى الحاكم، فأخذه إلى الحاكم وأحضر له السرقة وسلّمها له، فقال له الحاكم: ويلك تأخذ مال المسلمين وتردّ مال اليهود، قال السارق: نعم إنّ المسلمين اخوة وإذا كان يوم القيامة أصلح بينهم رسول الله ﷺ بالالتماس من هذا والتوسّل لهذا، ولكن يشقّ عليّ أن يطأطئ رسول الله ﷺ رأسه بين يدي موسى بن عمران ﷺ حين يقول له: إنّ رجلاً من أصحابك سرق دار رجل من أصحابي، ويكيدني حين يأخذ رسول الله بيدي إليه ويخضع له ويقول: قل لصاحبك يعفو عن هذا القرنان.

وأمّا العصبيّة: فلا يخلو أيضاً منها طبع بشر، فكلّ ذي دين يتعصّب لدينه، إذ كلّ أحد يرىٰ أنّه علىٰ حقّ ويعتقد أنّ غيره علىٰ ضلال فيتعصّب له.

قيل للبهلول: إنّه ورد في الحديث الصحيح إنّ يوم القيامة توضع أعمال الشيخين في كفّة من الميزان، وأعمال سائر الخلق في كفة أُخرىٰ، فترجح أعمال الشيخين علىٰ أعمال الخلائق، فقال البهلول: إن كان هذا الحديث صحيحاً فالعيب في الميزان.

قصة الحجاج السلمي:

ومن هذا الباب قصّة الحجّاج بن عكّاظ السلمي في حسن تلطّفه، واحتياله، وآمال يقظته في توصّله إلىٰ تحصيل ماله، وتلخيصها: انّ رسول الله ﷺ لمّا فتح خيبر وأعرس بصفيّة وفرح المسلمون، جاءه الحجّاج بن عكّاظ السلمي، وكان أوّل ما قدم أسلم تلك الأيام وشهد خيبر، فقال: يا رسول الله إنّ لي مالاً عند صاحبتي أُمّ شيبة، ولي مال متفرّق في تجّار مكّة فأذن لي يا رسول الله في العود إلىٰ مكّة عسىٰ أسبق خبر إسلامي إليها، فإنّي أخاف إن علموا إسلامي أن يذهب جميع مالي بمكّة، فأذن لي لعلّي أخلصه.

فأذن له رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنّي أحتاج أن أقول، فقال رسول الله ﷺ: وأنت في حلّ، قال الحجّاج: فخرجت فلمّا انتهيت إلى الثنية ـ ثنية البيضاء ـ وجدت بها رجالاً من قريش يستمعون الأخبار، وقد بلغهم أنّ رسول الله ﷺ قد سار إلىٰ خيبر، وكانوا قد عرفوا أنّ خيبر قرية الحجاز ريفاً ومنعة رجال، فهم يتجسّسون الأخبار، فلمّا أبصروني قالوا: هذا لعمر الله عنده الخبر، أخبرنا يا حجّاج فقد بلغنا أنّ القاطع ـ يعنون النبي ـ قد سار إلىٰ خيبر.

قال: فقلت لهم: بلغني أنّه قد سار إليها وعندي من الخبر ما يسرّكم؟ قال: فلتبطوا بجنبي ناقتي يقولون: إيه يا حجّاج، قال: فقلت: هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قطّ وأسر محمّد أسراً، وقالوا: لا نقتله حتّىٰ نبعث به إلىٰ مكّة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم، قال: فقاموا وصاحوا بمكّة: قد جاءكم الخبر، وهذا محمّد إنّما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم.

قال: فقلت: أعينوني علىٰ جمع مالي علىٰ غرمائي بمكّة فإنّي أُريد أن أقدم خيبر فأُصيب من ثقل محمّد وأصحابه قبل أن يسبقني التجّار إلىٰ هنالك، فقاموا معي فجمعوا مالي كأحبّ جمع سمعت به، قال: وجئت صاحبتي فقلت: مالي لعلّي ألحق، خيبر فأُصيب من فرض البيع قبل أن يسبقني التجّار.

فلمّا سمع العبّاس بن عبد المطّلب الخبر وما جاءه عنّي أقبل حتّىٰ وقف إلىٰ جنبي وأنا في خيمة من خيام التجّار، فقال: يا حجّاج ما هذا الخبر الذي جئت به؟ قال: قلت: وهل عندك كتمان لما أضعه عندك، قال: نعم، قلت: فاستأخر عنّي حتّىٰ ألقاك علىٰ خلاً، فإنّي مشغول في جمع مالي كما ترىٰ، فانصرف عنّي حتّىٰ أفرغ.

قال: حتّىٰ إذا فرغت من جمع كلّ شيء كان لي بمكّة، وأجمعت على الخروج لقيت العبّاس، فقلت: احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل فإنّي أخشى الطلب واكتم عليّ ثلاثاً، ثمّ قل ما شئت، قال: أفعل، فقلت: والله إنّي تركت ابن أخيك عروساً علىٰ بنت ملكهم ـ يعني صفيّة ـ ولقد فتح خيبر وانتقل ما فيها وصارت له ولأصحابه، قال: ما تقول يا حجّاج؟ قلت: إي والله فاكتم عنّي، وقد أسلمت وما جئت إلّا مسلماً لآخذ مالي فرقاً من أن أُغلب عليه، فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك فهو والله علىٰ ما تحب.

قال: حتّىٰ إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلّة له وتخلّق وأخذ عصاه، ثمّ خرج حتّىٰ أتى الكعبة وطاف بها، فلمّا رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله التجلّد لحرّ المصيبة، قال: كلّا والله الذي حلفتم به، لقد افتتح محمّد خيبراً وترك عروساً علىٰ ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه، قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً وأخذ ماله وانطلق ليلتحق بمحمّد وأصحابه ليكون معهم، قالوا: انفلت عدوّ الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن، ثمّ لم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك، فتوصّل بيقظته واحتياله إلىٰ مخلصه وتخليص ماله.

الحزم مع العمّال:

قوله عليه السلام: «وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَىٰ أَلّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ».

نستنتج من هذه العبارات الجليلة مواداً تدبيرية هامّة سواء في حياتنا العامة أو الخاصّة، تعلّمنا كيف ندبّر أمر الخدم في المنزل، وأمر الخدم في خارجه، وكيف ننظّم أعمال العمّال ونجعلهم يعملون بكلّ ما لديهم من إمكانيّات، وقدر كلّ حسبما أوكل به، فعلىٰ صاحب العمل أن ينظّم دفتراً لحساب العمّال، وترتيب أعمالهم اليومية وما يأتيه أحدهم من العمل ليعطي الأجر علىٰ قدر المشقّة، وليس مِنْ شكٍّ في أنّ هذا خير من أن يتواكلوا في الخدمة، ويلقي بعضهم العمل علىٰ عاتق البعض الآخر.

العلاقة مع العشيرة:

قوله ﷺ: «وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ. إِسْتَوْدِعِ ٱللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَٱسْأَلْهُ خَيْرَ ٱلْقَضَاءِ لَكَ فِي ٱلْعَاجِلَةِ وَٱلْآجِلَةِ، وَالدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ، وَالسَّلَامُ».

إنّما يُعرف الإنسان بأهله وعشيرته.

إنّما يُعرف الفرد بأقربائه وذويه.

إنّما يحميه ويذود عنه ويدافع دونه أبواه واخوانه.

إنّما يتمكّن أن يلعب الفرد في فضاء واسع من السعادة والرفاهية والأمان إذا ما حصل علىٰ عشيرة وأقرباء.

حقاً أنّ العشيرة جناح لمن أحبّ الطيران فوق المسافات الشاسعة من احياء الغبطة والسرور، وحقّاً إنّ العشيرة أصل يصير إليه الإنسان كلّما طلب إليه ان انتسب، وكلّما بوغت بمن يقول له هل تبارزني، وانّهم يد يصول بها الفرد، ويبطش بكلّ ما تمرّ عليه من حوادث ومصاعب ومشاقّ في سبيل الحياة، فهو بهذه اليد يسجّل في مقاومة تلك الحوادث والمشاقّ صفحة وصفحات.

يقول علي ﷺ في مقام آخر: «أيّها الناس! إنّه لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال

عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم، وهم أعظم الناس حيطة من ورائه، وألّمهم لشعثه، وأعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به، ولسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يورثه»(١).

ألا لا يعدلنّ أحدكم عن القرابة يرىٰ بها الخصاصة أن يسدّها بالذي لا يزيده إن أمسكه، ولا ينقص إن أهلكه، ومن يقبض يده عن عشيرته فإنّما تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه أيد كثيرة، ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودّة.

وقد قالت الشعراء في هذا المعنىٰ فأكثروا، فن ذلك قول بعض شعراء الحماسة:

إذا المرء لم يغضب له حين يغضب	فوارس إن قيل اركبوا الموت يركبوا
ولم يحبه بالنصر قوم أعزّة	مقاحيم في الأمر الذي يتهبّب
تهضمه أدنى العداة فلم يزل	وإن كان غضباً بالضلامة يضرب
فآخ لحال السلم من شئت واعلمن	بأنّ سوىٰ مولاك في الحرب أجنب
ومولاك مولاك الذي إن دعوته	أجابك طوعاً والدماء تصبب
فلا تخذل المولىٰ وإن كان ظالماً	فإنّ به تنأى الأُمور وترأب

ومن شعر الحماسة أيضاً:

أفيقوا بني حزن وأهواؤنا معاً	وأرحامنا موصولة لم تقضب
لعمري لرهط المرء خير بقية	عليه وإن غالوا به كلّ مركب
إذا كنت في قوم وأُمّك منهم	لتعزى إليهم في خبيث وطيب
وإن حدّثتك النفس إنّك قادر	علىٰ ما حوت أيدي الرجال فكذب

ومن شعر الحماسة أيضاً:

وما كنت أبغي العمّ يمشي علىٰ شقا	وإن بلغتني من أذاه الجنادع
ولكن أُواسيه وأنسىٰ ذنوبه	لترجعه يوماً إليّ الرواجع

(١) البحار ٧٤: ١٠١ ح٥٣.

وحسبك من ذلّ وسوء منيعة ... مناواة ذي القربىٰ وإن قيل قاطع

ومن شعر الحماسة أيضاً:

ألا هل أتى الأنصار انّ ابن بجدل ... حميداً شفىٰ كلباً فقرّت عيونها

فأنا وكلباً كاليدين متىٰ تقع ... شمالك في الهيجا تعفّها يمينها

وبعد أن أفرغ الإمام عليه السلام ما في وسعه أن يفرغه من الوصايا والعظات علىٰ ولده المحبوب، وبعد أن أدّىٰ ما للبنوّة علىٰ الأُبوّة من حقوق، بعد فراغه من كلّ هذا لم يتركه وشأنه، وإنّما أوكل أمره إلى الله تعالى، واستودعه إيّاه في دينه ودنياه، سائلاً المولىٰ أن يقضي له بخير القضاء في الدنيا والآخرة، والعاجلة والآجلة، وبعد هذا كلّه أبلغه سلاماً من أب حنون إلىٰ ولد بار.

* * *

هذا منتهىٰ ما جادت به دراستي ومطالعاتي عن هذه الوصية، توخّيت بذلك خدمة الإنسانية، فإن لقيت هذه الخدمة قبولاً وكانت ذا نفع، كان قبولها وتأثيرها خير جزاء لمعاناتي، وإلّا فأسأل الله تعالى أن يلهم من هو أكثر أهلية لهذا العمل ليقوم بهذه الخدمة.

انتهىٰ في اليوم السابع عشر من جمادى الثاني سنة ١٣٧٨ هـ في النجف الأشرف بقلم مؤلّفه حسن السيد علي القبانجي النجفي.

فهرس الموضوعات

تقديم ١٥
اقرأني أوّلاً ١٩
ضبط الوصيّة ٢١

الفصل الأول
الوصية في القرآن والسّنة والآداب، ٢٥

ومن وصية له ﷺ لولده الحسن ٢٥
شرح الألفاظ: ٢٦
الوصية لغة وشرعاً: ٢٨
أقسام الوصيّة: ٢٨
نماذج من وصايا الأحياء للأحياء: ٢٩
فصل: في وصايا القرآن الكريم: ٢٩
فصل: في وصايا النبي ﷺ ٣٢
١ ـ وصيّته ﷺ لعليّ أمير المؤمنين ﷺ: ٣٥
٢ ـ وصيّته ﷺ لأبي ذر ﷺ: ٣٨
٣ ـ وصيّته ﷺ لعبد الله بن مسعود: ٤٢
فصل: في وصايا عليّ أمير المؤمنين ﷺ ٤٦
١ ـ وصيّته ﷺ لولديه الحسن والحسين عندما ضربه ابن ملجم: ٤٦
٢ ـ وصيّته لولده الحسن ﷺ: ٤٨

٣ ـ وصيّته لولده الحسين ﷺ: ٤٨
فصل: في وصايا الإمام جعفر الصادق ﷺ ٥١
١ ـ وصيّته ﷺ لعبد الله بن جندب: ٥١
٢ ـ وصيّته ﷺ لعنوان البصري: ٥٤
فصل: في وصية الإمام موسىٰ بن جعفر ﷺ ٥٦
١ ـ وصيته لهشام بن الحكم ﷺ: ٥٦
فصل: في وصايا الملوك والحكماء ٦٧
١ ـ وصيّة لقمان الحكيم لولده: ٦٧
٢ ـ وصيّة أردشير لابنه: ٦٩
٣ ـ وصيّة عبد الله بن شداد: ٧٠
٤ ـ وصيّة المهلب لولده وأهله: ٧٤
٥ ـ وصيّة العلّامة الحلّي ﷺ لولده: ٧٦
٦ ـ وصيّة أوس بن حارثة: ٧٩
٧ ـ وصيّة الحارث بن كعب بنيه: ٧٩
٨ ـ وصيّة أكثم بن صيفي: ٨١
٩ ـ وصيّة يزيد بن المهلب: ٨١
١٠ ـ وصيّة قيس بن عاصم: ٨٢
١١ ـ وصيّة عمرو بن كلثوم التعلبي: ٨٣
١٢ ـ وصيّة ابن سعيد المغربي لابنه وقد أراد السفر: ٨٤

الفصل الثاني
الامام علي ﷺ ووثيقة حقوق الانسان، ٨٩

إدبار الدنيا واقبال الآخرة: ٩٠
همّ النَفس يُشغِل عن هموم الناس: ٩١
الحنان الأبوي: ٩٢
مقارنة مع وثيقة حقوق الانسان: ٩٤
نص الوثيقة: ٩٥
المقارنة بالتفصيل: ١٠١
المبدأ الأول: الحرية والمساواة: ١٠١
المبدأ الثاني: حق الملكية والأمن: ١٠٤

المبدأ الثالث: الشعب مصدر السلطات: ١١١
المبدأ الرابع: عدم إلحاق الضرر بالآخرين: ١١٣
المبدأ الخامس: لا يحق للقانون منع الاعمال غير المضرة: ١١٤
المبدأ السادس: القانون تعبير عن إرادة الأُمة: ١١٥
المبدأ السابع والثامن: العقوبة عند مخالفة القانون: ١١٦
المبدأ التاسع: كل انسان برئ حتىٰ تثبت إدانته: ١١٧
المبدأ العاشر: حريّة إبداء الآراء: ١١٩
المبدأ الحادي عشر: حريّة النشر: ١٢٠
المبدأ الثاني عشر: ١٢٠
المبدأ الثالث عشر: الضرائب العامة: ١٢٢
المبدأ الرابع عشر: الضرائب يحدّدها الشعب: ١٢٢
المبدأ الخامس عشر: حق المحاسبة: ١٢٤
المبدأ السادس عشر: الفصل بين السلطات: ١٢٤
المبدأ السابع عشر: ١٢٥
قصّة ظريفة: ١٢٥

الفصل الثالث
معالجة القلب، ١٢٧

تقوى الله تعالىٰ: ١٢٧
ذكر الله تعالىٰ: ١٢٩
الاعتصام بحبله تعالىٰ: ١٣٢
عليّ رمز الاعتصام: ١٣٣
إحياء القلب بالموعظة: ١٣٩
التنبيه الأول: في آداب الواعظ: ١٤٢
التنبيه الثاني: في آداب من يستمع الموعظة: ١٤٥
فيمن وعظ بقليل الموعظة فاتّعظ: ١٤٧
قصة بشر الحافي: ١٤٨
قصة إبراهيم بن أدهم: ١٥٠
نبذ من أفعاله وأقواله: ١٥١
قصة النعمان بن المنذر: ١٥٣

إماتة القلب بالزهد: ١٥٤
درجات الزهد: ١٥٤
درجات الزهد بالاضافة الىٰ المرغوب فيه: ١٥٦
درجات الزهد بالاضافة إلىٰ المرغوب عنه: ١٥٧
قوّة القلب باليقين: ١٦٢
تعريف اليقين: ١٦٣
مراتب اليقين: ١٦٤
موانع اليقين: ١٦٨
تنوير القلب بالحكمة: ١٧٠
تعريف الحكمة: ١٧٠
لوازم الحكمة: ١٧١
الحكمة لا تخالف الشريعة: ١٧٣
الأمر بتحصيل الحكمة: ١٧٤
آداب الحكيم: ١٧٥
الحكمة العلميّة والعمليّة: ١٧٦
تذليل القلب بذكر الموت: ١٧٧
تحذير القلب: ١٧٨
التدبّر في آثار الماضين: ١٧٨
الاحتياط في القول والعمل: ١٧٩
خطبة الامام علي ﷺ في صون اللسان: ١٨٢
اللسان الواحد: ١٨٣
توقف التقوىٰ علىٰ صون اللسان: ١٨٥
لسان المؤمن وراء قلبه: ١٨٥
فضيلة الصمت: ١٨٧
حكاية الربيع بن الخيثم: ١٨٨

الفصل الرابع
الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ١٨٩
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ١٨٩
فعل المعروف والأمر بالمعروف: ١٩٠

إنّ من المعروف الأمر بالمعروف: ١٩٢
وجوب الأمر بالمعروف وشروطه: ١٩٢
الجهاد في الله: ١٩٤
الجهاد في سبيل الله: ١٩٥
أنواع الجهاد: ١٩٦
التفقه في الدين: ١٩٨
أدلّة الفقه: ١٩٩
إغلاق باب الاجتهاد: ٢٠١
مخاطر إغلاق باب الاجتهاد: ٢٠٢
أوّل من صنّف الفقه: ٢٠٣
الصبر علىٰ المكاره: ٢٠٤
فضيلة الصبر: ٢٠٤
أقسام الصبر: ٢٠٧
اللجوء الىٰ الله: ٢٠٩
التوكل على الله: ٢٠٩
مراتب التوكل: ٢١١
الاخلاص في المسألة: ٢١٢
استخارة الله: ٢١٢
فلسفة الاستخارة: ٢١٣
طرق الاستخارة: ٢١٤
العلم النافع: ٢١٦
العلوم المحرّمة: ٢١٧
العلوم الواجبة: ٢١٨
وجوب الاطمئنان: ٢٢١
آداب الصلاة: ٢٢٢

الفصل الخامس
عوامل في بناء شخصية الانسان، ٢٢٨

رأي في صدور هذا النص: ٢٢٨
مناقشة العلامة الأُوردبادي: ٢٣١

عود الىٰ شرح النص: ٢٣١
التربية منذ الطفولة: ٢٣٢
غرس الفضيلة في الطفل: ٢٣٣
١ ـ وجوب التبكير في غرس الفضيلة: ٢٣٤
٢ ـ أثر القدوة: ٢٣٤
٣ ـ التشجيع على الفضيلة: ٢٣٤
الموانع أمام التربية: ٢٣٦
أثر البيئة: ٢٣٨
تنازع الوراثة والبيئة وأثر المربي: ٢٣٩
أثر الوالدين: ٢٤٠
العوامل الثلاثة في بناء الشخصية: ٢٤٠
العامل الأول: الوراثة: ٢٤٠
العامل الثاني: المخالطة: ٢٤٢
اختيار الصديق: ٢٤٣
١ ـ العقل والتجربة: ٢٤٣
٢ ـ الدين: ٢٤٤
٣ ـ حسن الاخلاق: ٢٤٤
العامل الثالث: التربية: ٢٤٥
حكاية في التربية: ٢٤٧
التربية في لسان الأدب: ٢٤٨
حكاية الحجاج: ٢٤٩
الأدب مع الله: ٢٥٢
آداب الصلاة: ٢٥٣
الصلاة ظاهرها وباطنها: ٢٥٥

الفصل السادس
أهمية العلم والتعلم وعلوم القرآن، ٢٦٢

طرق تحصيل العلم: ٢٦٢
وجوب الوعظ والارشاد والتعليم: ٢٦٤
العلم: ٢٦٥

تاريخ العلم: ٢٦٦
اعترافات علماء الغرب: ٢٧١
أنواع العلوم عند المسلمين: ٢٧٨
القول في حصر العلم: ٢٧٩
العلوم الحكمية النظرية: ٢٧٩
العلوم الحكمية العملية: ٢٨٠
علوم القرآن: ٣٠٠
الطب في القرآن: ٣٠١
علم الماضي والمستقبل في القرآن: ٣٠٥
فضائل القرآن وخصائصه: ٣٠٦
لمحة عن أهمية الصلاة: ٣١١
نماذج من رحمة الله ولطفه: ٣١٣

الفصل السابع
في التقوىٰ ومكارم الأخلاق، ٣١٨

حقيقة التقوىٰ: ٣١٩
خمس خصال للمتقين: ٣٢٠
حق التقوىٰ: ٣٢١
نتيجة التقوىٰ: ٣٢٢
إتخاذ القدوة الصالحة: ٣٢٣
لمحة عن شخصية أبي طالب ﷺ: ٣٢٤
الدليل علىٰ إيمان أبي طالب ﷺ: ٣٢٦
نبذة من أشعاره في التوحيد: ٣٣٣
فقهاء المذاهب يفتون بكفر من أبغض أبي طالب: ٣٣٤
الأخذ بالمعارف: ٣٣٦
الاجتهاد والتقليد: ٣٣٦
خصائص مذهب الامامية: ٣٣٩
العبادات الكبرىٰ في الاسلام: ٣٤٠
الصلاة: ٣٤١
وصية الامام عليّ بالصلاة: ٣٤٤

الاستعانة بالله تعالىٰ: ٣٤٩
الآثار النفسيّة للايمان: ٣٥٤
الله مقدّر الأرزاق: ٣٥٦
الله عليم بكل شيء: ٣٥٨
الايمان هو العلاج الحقيقي: ٣٥٩
الله مع الانسان: ٣٦٠
التقدير بيد الله: ٣٦٢

الفصل الثامن
الاعتراف بالجهل وطلب العلم، ٣٦٧

التوحيد في كل الحالات: ٣٦٧
الفقر في لسان الأحاديث: ٣٦٨
المعاد الجسماني: ٣٧٠
قيام الساعة وكشوفات العلم الحديث: ٣٧٦
سير الدنيا يتطابق مع الحكمة الالهية: ٣٧٩
الدعوة إلى التعلّم والاعتراف بالجهل: ٣٨٠
كل أنواع العلم مطلوبة: ٣٨٤
خطبة الامام علي ﷺ في طلب العلم: ٣٨٥

الفصل التاسع
الاعتصام بالله وإخلاص العبادة له، ٣٨٦

نِعمة الخلق والرزق والاستواء: ٣٨٦
عجائب العين: ٣٨٧
عجائب الدماغ والقلب: ٣٨٩
الاخلاص في العبادة: ٣٩١

الفصل العاشر
دلائل التوحيد وواجبات الموحّدين، ٣٩٤

تعدّد الطرق الىٰ الله: ٣٩٤
أهم الواجبات: ٤٠٢

١ ـ المعرفة بالله: ٤٠٢
٢ ـ الاعتراف بجميل صنعه: ٤٠٤
٣ ـ الطاعة: ٤٠٤
٤ ـ التأمل في الكون: ٤٠٥
حقّ الله علىٰ عباده: ٤٠٦
كيف نمجّد الله: ٤٠٧
ما يجب على الإنسان لخالقه في نظر أرسطو: ٤٠٨
عبادة الله في نظر الفلاسفة: ٤٠٨
واجبات العباد: ٤١٠
رسالة الحقوق، للإمام زين العابدين ﷺ: ٤١٤

الفصل الحادي عشر
قيمة الدنيا وشأنها، ٤٣٠

أنواع أهل الدنيا: ٤٣١
البخل هو السبب في حبّ الدنيا: ٤٣٣
البخل في نوعين: ٤٣٤
نصوص في ذم البخل: ٤٣٦
أحوال البخلاء: ٤٤١
الايثار والكرم: ٤٤٢
علي ﷺ والايثار بالنفس: ٤٤٤
الإمام الغزالي وكلامه في الايثار: ٤٤٤
إجمال قصّة المبيت: ٤٤٥

الفصل الثاني عشر
اجعل نفسَكَ ميزاناً، ٤٤٩

المساواة في الحب: ٤٥٠
الاحسان للآخرين: ٤٥١
لا تقل ما لا تعلم: ٤٥٢
الاعجاب ضد الصواب: ٤٥٣
أقسام العُجب: ٤٥٣

١ ـ عجب الشخص بقوّته وصحّته: ٤٥٤
٢ ـ عجب الشخص بجماله وهيبته: ٤٥٤
٣ ـ عجب الشخص بفهمه وذكائه: ٤٥٥
٤ ـ عجب الشخص برأيه وفكره: ٤٥٥
٥ ـ عجب الشخص بعقله: ٤٥٥
٦ ـ عجب الشخص بعلمه: ٤٥٦
٧ ـ عجب الشخص بتعبّده لله وشكره: ٤٥٦
٨ ـ عجب الشخص بماله ونعمته: ٤٥٨
٩ ـ عجب الشخص بولده وأسرته: ٤٥٨
١٠ ـ عجب الشخص بنفوذه وسلطته: ٤٥٩
١١ ـ عجب الشخص بحسبه ونسبه: ٤٥٩
عجب المسلمين في غزوة حُنين: ٤٦٠
الحيلة في ايجاد الكمين: ٤٦١
حال بني النضير مع رسول الله ﷺ: ٤٦٣
خطاب الله لداود ﷺ: ٤٦٤
ثلاث مهلكات: ٤٦٥
الجدّ في العمل: ٤٦٧
الخشوع لله: ٤٦٩

الفصل الثالث عشر
الاستعداد لما بَعد الموت، ٤٧٠

معنى الفحش: ٤٧٣
الفحش بالقول وأسبابه: ٤٧٤
ضرر الفحش بالقول وما يتولّد منه: ٤٧٤
قصة عمرو بن هند: ٤٧٦
الفحش بالفعل وأسبابه: ٤٧٧
أسباب ارتكاب العقلاء للفواحش أُمور: ٤٧٨
الفحش وحروب الفجار: ٤٨١
الفجار الأوّل وأسبابه وأيامه: ٤٨٢
الحرب الثانية من الفجار الأوّل: ٤٨٣

الحرب الثالثة من الفجار الأوّل: ٤٨٣
الفجار الثاني والحروب الطاحنة: ٤٨٣
الحرب الثانية من الفجار الثاني: ٤٨٦
الحرب الثالثة من الفجار الثاني: ٤٨٧
الحرب الرابعة من الفجار الثاني: ٤٨٨
الحرب الخامسة من الفجار الثاني: ٤٨٩
لمحة عن قصة يوسف: ٤٩١
الشيطان يأمر بالفحشاء: ٤٩٤
الفحش في القول: ٤٩٤

الفصل الرابع عشر
الدعاء والاجابة، ٤٩٦

شروط الدعاء: ٤٩٩
ضرورة الدعاء: ٥٠٠
الدعاء علاج نفسي: ٥٠٠
الدعاء في السرّاء والضرّاء: ٥٠١
الدعاء للسموّ الروحي: ٥٠٢
أدعية الأنبياء: ٥٠٢
دعاء الرسول ﷺ: ٥٠٣
دعاء أمير المؤمنين ؛: ٥٠٣
دعاء الامام زين العابدين ؛: ٥٠٥
الدعاء بعد صلاة الليل: ٥٠٨
الدعاء في الاستعاذة من المكاره: ٥١٠
الدعاء في الحمد وذكر النبي ﷺ: ٥١١
دعاء عيسى بن مريم: ٥١٣
دعاء بعض الصالحين: ٥١٣
دعاء الثلاثة الصالحين: ٥١٥
شروط الدعاء: ٥١٥
دعاء الامام موسىٰ بن جعفر ؛: ٥١٨
الامام موسى بن جعفر وهارون الرشيد: ٥١٩

فلسفة تأخّر الاجابة: ٥٢١
النميمة: ٥٢٣
حكاية عدي بن زيد، وعاقبة النميمة: ٥٢٥
انتشار مرض النميمة وعواقبه الوخيمة: ٥٢٧
دخول أولاد المنذر علىٰ كسرىٰ: ٥٢٨
حبائل النميمة والاغتيال التي نصبها عدي بن مرينا لعدي بن زيد: ٥٢٨
حبس الصنّين وموقف عدي بن زيد فيه: ٥٢٩
ندامة النعمان علىٰ قتله لعدي وإحسانه لولده زيد: ٥٣١
إطاعة النمام بغي، وعلى الباغي تدور الدوائر: ٥٣٢
خروج النعمان عن مملكته وتجوّله في العرب: ٥٣٤
النصوص الشرعية في حرمة النميمة: ٥٣٦
١ ـ سورة القلم: ٥٣٦
٢ ـ سورة الهمزة: ٥٣٦
٣ ـ سورة تبّت: ٥٣٧
٤ ـ سورة التحريم: ٥٤٠
خيانة امرأة نوح: ٥٤٠
خيانة امرأة لوط: ٥٤١
كلام صاحب الدعوة الإسلامية: ٥٤١
الاصغاء إلى النميمة أقبح من النميمة: ٥٤٣

الفصل الخامس عشر
الاكثار من ذكر الموت، ٥٤٥

خُلقنا للآخرة: ٥٤٦
أسباب الخوف من الموت وعلاجه: ٥٤٧
١ ـ عدم معرفة حقيقة الموت: ٥٤٧
٢ ـ جهل المصير أو جهل بقاء النفس: ٥٤٨
٣ ـ خوف العقاب الذي يعقب الموت: ٥٥١
٤ ـ جهل ما يقدم عليه بعد الموت: ٥٥١
٥ ـ الحزن علىٰ ما يخلف من الأهل والولد والمال: ٥٥١
جملة القول في الخوف من الموت: ٥٥٢

ذكر الموت: ٥٥٦
الحالة الأُولىٰ: ٥٥٦
ما عليه الناس في هذه الحالة: ٥٥٧
الحالة الثانية: ٥٥٨
الموت في كلام الشعراء: ٥٦٠
صفة أُخرىٰ للموت: ٥٦٣
الدنيا دار بُلغة: ٥٦٤
النهي عن الاغترار بالدنيا: ٥٦٥

الفصل السادس عشر
الاقتصاد في الطلب، وذلّ المسألة، ووجوب شكر النعمة، ٥٧٠

دعوة للاقتصاد في الطلبّ: ٥٧١
لا تكن عبدَ غيرك: ٥٧٣
ذم السؤال من الناس: ٥٧٤
موعظة الامام السجاد ﷺ: ٥٧٧
الغاية لا تبرّر الوسيلة: ٥٧٩
كفران النعمة: ٥٨٠
الكفران بنعم الناس: ٥٨١
أهل البيت ﷺ هم النعيم: ٥٨٢
القرية التي كفَرت بأنعُم الله: ٥٨٤
نماذج من نِعَم الله على العباد: ٥٨٦
كفران «جُرهم» للنعمة: ٥٨٨
نزول جُرهم مكة المشرفة: ٥٨٩
خزانة الكعبة: ٥٨٩
مجمل أمر العماليق: ٥٩٠
دفن كنوز الكعبة في بئر زمزم: ٥٩٠
حلول النقمة بمن كفر النعمة: ٥٩١
هلاك جرهم بسيوف خزاعة: ٥٩٢
عودة أبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل ﷺ إلىٰ مكة: ٥٩٣
شوق مضاض بن عمرو الىٰ مكة المشرّفة: ٥٩٤

خيبة الرجاء أكبر البلاء: ٥٩٥
إبل مضاض ونفارها: ٥٩٦
غفلة الرعاة: ٥٩٦
صراخ الرعاة: ٥٩٦
مضاض بن عمرو على أبي قبيس: ٥٩٧
أحسنوا مجاورة النعم: ٥٩٩

الفصل السابع عشر
الصمت وقبح الظلم، ٦٠٠

قِلَّةُ الكلام: ٦٠١
فضيلة صون اللسان: ٦٠٢
عشر خصال للسان: ٦٠٢
المرأة التي ما تكلّمت الاّ بالقرآن: ٦٠٣
الاستغناء عن الناس: ٦٠٥
الظلم: ٦١٠
التعامل مع الأهل: ٦١١
التعامل مع الجيران: ٦١٢
ظلم الحكّام للشعوب: ٦١٣
النصوص القرآنية في حرمة الظلم: ٦١٤
الدِّقة في قبول النُصح: ٦١٥
انتهاز الفرص: ٦١٦

الفصل الثامن عشر
قواعد الصداقة والإخاء، ٦٢٢

سوء الظن: ٦٢٣
سلطان الدهر: ٦٢٣
الطمع: ٦٢٤
اللجاجة: ٦٢٤
شروط الصداقة: ٦٢٤
المكر: ٦٢٦

مجمل وقعة بدر وأسبابها: ٦٢٧
مكر قوم صالح: ٦٣٢
مكر قريش برسول الله ﷺ: ٦٣٣
أحاديث شريفة في ذم المكر: ٦٣٤
الغدر والدهاء: ٦٣٥
فتنة معاوية: ٦٣٦
كتاب سعيد بن العاص لمعاوية: ٦٣٧
الأسباب التي دعت الامام علي ﷺ للسكوت: ٦٣٩
أحاديث في فضل الامام علي ﷺ: ٦٤٠
كلام ابن أبي الحديد في فضائل علي ﷺ: ٦٤٨
كلمات الامام علي ﷺ في ذم المكر: ٦٥٠
الاخلاص في النصيحة: ٦٥٢
معنىٰ النصيحة: ٦٥٣
الأدلّة علىٰ فضيلة المناصحة: ٦٥٤
أسباب المناصحة: ٦٥٥
ثمرات المناصحة: ٦٥٥
صعوبة قبول النصيحة: ٦٥٥
قصصٌ فيمن ردّ النصيحة فَهَلك: ٦٥٧
كظم الغيظ: ٦٥٩
الحِلم: ٦٦٠
الحِلم صفة الأنبياء: ٦٦١
نصوص نبويّة في الحلم: ٦٦١
الحلم في كلمات الحكماء: ٦٦٢
الحِلم علىٰ لسان الشعراء: ٦٦٤
قصة الملك والعابد: ٦٦٤
اللين، والفضل، وأداء الحقوق: ٦٦٥
ما يجب في الصديق: ٦٦٦
خير أسس الصداقة: ٦٦٧
خير خلال الصديق: ٦٦٨
منزلة الصديق: ٦٧٧

العطف على الأهل: ٦٧٨
الأمر بالصلة والاحسان: ٦٧٩
قصة عصام بن المصطلق: ٦٧٩
قصة الامام الكاظم مع الرجل الخطابي: ٦٨٠
نتيجة الظلم: ٦٨٣

الفصل التاسع عشر
حِكَمٌ في السلوك الاجتماعي، ٦٨٤

الرزق رزقان: ٦٨٥
الرزق الذي يطلبك: ٦٨٦
الرزق الذي تطلبه: ٦٨٨
الكسب من الحرام: ٦٨٩
لابد من الاحتياط في الكسب: ٦٩١
الرزق بمقدار النفقة: ٦٩٣
فلسفة الإقتار في الرزق: ٦٩٤
عند الفقر والغنىٰ: ٦٩٧
فضيلة الفقر: ٦٩٨
أيّهما أفضل الفقر أم الغنىٰ: ٦٩٩
الأوّل: الفقر مع الصبر والقناعة: ٦٩٩
الثاني: الفقر مع الجزع: ٧٠٢
الثالث: الفقر مع التكالب علىٰ الدنيا: ٧٠٣
ماذا يجب على الفقير: ٧٠٣
النافع من الدنيا: ٧٠٧
قصة الصياد والقنبرة: ٧٠٨
الحرّية في المفهوم الإسلامي: ٧٠٩
القريب والبعيد: ٧١١
أقوى الأسباب: ٧١٢
الصديق الحقيقي: ٧١٢
اليأس والطمع: ٧١٢
الجار قبل الدار: ٧١٤

الكلام المضحك: ٧١٤

الفصل العشرون
العلاقة مع المرأة، ٧١٦

التشاور مع النساء: ٧١٧
الحجاب: ٧١٨
المرأة ريحانة: ٧١٩
حقوق المرأة: ٧٢١
المرأة في أوربا: ٧٢٢
حقوق المرأة في الاسلام: ٧٢٦
١ ـ المساواة في القيمة البشرية: ٧٢٧
٢ ـ المساواة في الشخصية القانونية: ٧٢٨
٣ ـ الفوارق الطبيعية: ٧٣٠
الغيرة على النساء: ٧٣٠
معنى الغيرة: ٧٣١
أنواع الحمية: ٧٣١
١ ـ حمية النسب: ٧٣٢
٢ ـ حمية العرض: ٧٣٤
٣ ـ حمية الدين: ٧٣٦
قصة الحجاج السلمي: ٧٣٨
الحزم مع العمّال: ٧٣٩
العلاقة مع العشيرة: ٧٤٠

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٢٢٦٢٨
التاريخ [illegible]